

الأكاديمية العربية الدولية



الأكاديمية العربية الدولية
Arab International Academy

الأكاديمية العربية الدولية المقررات الجامعية

المحتويات

صفحة

١١

تصدير

١٥

مقدمة المترجم. الاتجاهات المعاصرة فى نظرية علم الاجتماع

الفصل الأول

نظرية علم الاجتماع من الاتجاهات الكلاسيكية إلى الاتجاهات المعاصرة

٤٥

مقدمة

تأسيس علم الاجتماع: نظرية علم الاجتماع

تأسيس علم الاجتماع الحديث: ماركس، دوركايم، فيبر (ص ٤٧) سياق القرن التاسع عشر (ص ٤٧)

نظرية علم الاجتماع: المنظورات البنائية والتأويلية

المنظورات البنائية (ص ٥١) الوظيفية (بنائية الإجماع): دوركايم (ص ٥١) الماركسية (بنائية الصراع I) (ص ٥٣) نظرية الفعل الاجتماعى (بنائية الصراع II): فيبر (ص ٥٤)

المنظورات التأويلية (ص ٥٦) التفاعلية (ص ٥٧) نقد التفاعلية (ص ٦٠) المنهجية الشعبية (الإثنوميثودولوجيا) (ص ٦١)

نظرية التشكيل البنائى: تجاوز البناء / التأويل

أهم المؤثرات المعاصرة فى علم الاجتماع (ص ٦٣) النسوية (ص ٦٤) النزعة المعادية للعنصرية (ص ٦٤) اليمين الجديد (ص ٦٥) تأثير أفول الشيوعية على علم الاجتماع الماركسى (ص ٦٦) علم الاجتماع الراديكالى (ص ٦٦) النزعة البيئية (ص ٦٨) العولمة (ص ٦٨)

النظريات البعدية

أنماط المجتمع: التقليدى، والحديث، وما بعد الحديث (ص ٧١) المجتمع التقليدى (ص ٧١) المجتمع الحديث (المجتمعات الرأسمالية / الشيوعية) (ص ٧٢) المجتمع بعد الحديث (أو مجتمع ما بعد الحداثة أو مجتمع الرأسمالية المتأخرة) (ص ٧٢)

أنماط المجتمع وأنماط التفسير الاجتماعى

الأنماط السائدة للتفسير الاجتماعى فى المجتمع التقليدى (ص ٧٤) الأنماط السائدة للتفسير الاجتماعى فى المجتمع الحديث (ص ٧٥) الأنماط السائدة للتفسير الاجتماعى فى مجتمعات ما بعد الحداثة (ص ٧٦)

٧٧

خاتمة

٧٨

استخلاصات أساسية

الفصل الثانى المنهج والنظرية فى علم الاجتماع: التقليدية، والحدائة، وما بعد الحدائة علم الاجتماع والعلم

العلم الطبيعى (ص ٨١) التجربة المعملية (ص ٨٢) تأثير العلم الطبيعى على علم الاجتماع (ص ٨٣) المنهج التاريخى المقارن: البديل الوحيد عن التجربة (ص ٨٤) النمط المثالى والمنهج المقارن (ص ٨٥) المنهج المقارن وعلم الاجتماع المعاصر (ص ٨٦)

مناهج البحث فى علم الاجتماع

البحوث الوصفية والتفسيرية (ص ٨٧) البحوث الكمية والكميفية (ص ٨٧) البيانات الموضوعية والذاتية فى علم الاجتماع (ص ٨٨) النظريات البنائية / التأويلية والمناهج الوضعية / اللاوضعية (ص ٨٨) الثبات والصدق (ص ٨٩)

المصادر الأولية والثانوية

المصادر الأولية: المسح الاجتماعى (ص ٩٠) المسوح المقطعية والطولية (ص ٩٠)

المعاينة

المعاينة الممثلة وغير الممثلة (ص ٩١) المعاينة العشوائية والمنتظمة (ص ٩٢) المعاينة العشوائية الطباقية (ص ٩٢) المعاينة بالحصة (ص ٩٣) المعاينة العنقودية والمعاينة متعددة المراحل (ص ٩٤) المعاينة بكرة الثلج (ص ٩٤)

الاستبيانات

الأسئلة المغلقة والمفتوحة (ص ٩٤) صياغة المفاهيم الإجرائية: الترميز (ص ٩٥) جمع بيانات الاستبيان (ص ٩٦) مزايا الاستبيان ومثالبه (ص ٩٧)

المقابلات

إجراء المقابلات (ص ٩٨) تسجيل المقابلات (ص ٩٩) مزايا المقابلات ومثالبها (ص ١٠٠)

الملاحظة

الملاحظة غير المشاركة (ص ١٠٠) الملاحظة المشاركة (ص ١٠٢) الإثنوجرافيا (ص ١٠٣) الملاحظة المشاركة داخل الثقافات الفرعية (ص ١٠٣) مزايا الملاحظة المشاركة ومثالبها (ص ١٠٥)

العلاقة بين النظريات ومناهج البحث

المصادر الثانوية

الإحصاءات الرسمية (ص ١٠٧) مصادر إحصائية أخرى (ص ١٠٧) المصادر التاريخية (ص ١٠٨) الوثائق الشخصية (ص ١٠٩) بيانات السيرة الذاتية (المبحوث) (ص ١٠٩) بيانات السيرة الذاتية (الباحث) (ص ١١٠) وسائل الإعلام الجماهيرى (ص ١١١)

هل علم الاجتماع علم؟

ما هو العلم؟ (ص ١١٥) ما هو علم الاجتماع؟ (ص ١١٦)

علم الاجتماع والتقليدية والحادثة وما بعد الحداثة

التقليدية والحداثة (ص ١١٧) ستيوارت هول: الحداثة والتقليدية (ص ١١٨) أنتونى جيدنز: التقليدية والحداثة (ص ١١٩) الحداثة وعلم الاجتماع (ص ١٢١) الحداثة وما بعد الحداثة وعلم الاجتماع (ص ١٢٣) ما بعد الحداثة أم الحداثة المتأخرة؟ (ص ١٢٧) المسائل الأساسية لما بعد الحداثة (ص ١٣٠) استخلاصات أساسية

١٣٠

الفصل الثالث

نظرية علم الاجتماع: نموذج واحد أم نماذج متعددة؟

١٣٣

مقدمة

١٣٣

المسائل الرئيسية فى علم الاجتماع

الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع:

المنظورات البنائية والتأويلية (١٨٨٠-١٩٦٠)

علم الاجتماع البنائى (ص ١٣٦) الوظيفية (نظرية الإجماع) (ص ١٣٦) تأثير كونت ودوركايم وفبير على الوظيفية (ص ١٣٧) تالكوت بارسونز (ص ١٣٨) المماثلة العضوية (ص ١٣٩) نقد الوظيفية (ص ١٤٠)

الماركسية (نظرية الصراع I)

البناء والأيدولوجيا (ص ١٤٤) التناقض والتغير (ص ١٤٥) نقد الماركسية "الفجة" (ص ١٤٦) الاتجاهات الحديثة فى الفكر الماركسى (ص ١٤٧) الخلاصة: أزمة الماركسية (ص ١٥٠)

ماكس فيبر: نظرية الفعل الاجتماعى (نظرية الصراع II)

الأنماط الأربعة للفعل الاجتماعى (ص ١٥١) الفعل الرشيد والبيروقراطية والحداثة (ص ١٥٢) البناء والتعددية والفردية (ص ١٥٣) تعقيب على فيبر (ص ١٥٤)

١٥٤

التفاعلية (والم منظور البنائى): نحو مزيج مركب؟

١٥٦	الظاهراتية والمنهجية الشعبية
	الظاهراتية (ص ١٥٦) المنهجية الشعبية (ص ١٥٨) تعقيب على المنهجية الشعبية (ص ١٥٩)
١٦٠	اليمين الجديد (بيتر سوندرز)
١٦٤	المعركة بين الاتجاهات النظرية (من السبعينيات إلى الثمانينيات)
١٦٤	الحدثة المتأخرة والمسائل الجديدة لعلم الاجتماع: التسعينيات
١٦٥	المسائل الرئيسية للحدثة المتأخرة (أو ما بعد الحدثة)
١٦٦	علم الاجتماع الجديد: ميشيل باريت
	تعقيب على باريت (ص ١٦٨)
١٦٨	ديريك لايدر والثنائيات في علم الاجتماع: التحرك بالجدل خطوة إلى الأمام
	الثنائيات الرئيسية الثلاثة في النظرية الاجتماعية (ص ١٦٩) المداخل النظرية إلى الثنائيات (ص ١٧٠) تجاوز الثنائيات (ص ١٧١) الربط بين الثنائيات (ص ١٧١) المقابلة بين إلياس وهابرماس (ص ١٧١) إلياس: نظرية التشكيل (ص ١٧١) هابرماس (ص ١٧٢)
١٧٣	النزعة التصورية الاجتماعية: فيفيان بور
	نظرية ما بعد الحدثة وعلم الاجتماع
	نقد نظرية ما بعد الحدثة للنظريات الشمولية (ص ١٧٥) نظرية ما بعد الحدثة ليست نظرية شمولية (ص ١٧٦) هل هي حقبة ما بعد الحدثة أم أنها مجرد حقبة حدثة متأخرة؟ (ص ١٧٧)
	نقد نظرية ما بعد الحدثة
	النقد الليبرالي (ص ١٨٣) الحتمية (ص ١٨٤) النقد الماركسي (ص ١٨٤) الملاءمة النظرية لنظرية ما بعد الحدثة (ص ١٨٦)
١٨٨	خاتمة: علم الاجتماع والحال الذي آل إليه
١٩٠	استخلاصات أساسية
	الفصل الرابع
	التطورات المعاصرة في نظرية علم الاجتماع
١٩٣	مقدمة

المشروعات الثمانية للنظرية المعاصرة فى علم الاجتماع

المشروع الأول: بناء أدوات عامة لاستخدامها فى التحليل الإمبريقي (ص ١٩٥)
المشروع الثانى: المواءمة بين المداخل النظرية المتعددة (ص ١٩٧) المشروع الثالث:
صقل البرامج البحثية فى مجال النظرية (ص ٢٠٠) المشروع الرابع: الحوار بين
المدخل النظرية المتعددة (ص ٢٠٢) المشروع الخامس: توسيع / إعادة بناء المداخل
النظرية الحالية (ص ٢٠٣) المشروع السادس: الانشغال بالأفكار النظرية الماضية
(ص ٢٠٦) المشروع السابع: تشخيص الأوضاع الاجتماعية المعاصرة (ص ٢٠٨)
المشروع الثامن: فناء نظرية علم الاجتماع (ص ٢٠٩)
مناقشة وخاتمة

المشروعات الأخرى (ص ٢١١) علم الاجتماع ككل (ص ٢١٢) العوامل
الخارجية (ص ٢١٢) التراث التاريخي (ص ٢١٣)
الفصل الخامس

من علم الاجتماع النظرى إلى علم الاجتماع التطبيقى والإكلينيكي

ما هو علم الاجتماع؟

الخيال السوسيوولوجي (ص ٢١٧) علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية (ص ٢١٩) علم
الاجتماع والمعرفة البادئة المشتركة (ص ٢٢٢)

٢٢٤

ما هى نظرية علم الاجتماع؟

تطور علم الاجتماع

المفكرون الأوائل: كونت، ومارتينيو، وسبنسر (ص ٢٢٦) إميل دوركايم (ص ٢٢٧)
ماكس فيبر (ص ٢٢٨) كارل ماركس (ص ٢٣٠)

٢٣١

التطورات الحديثة

المنظورات الرئيسية فى علم الاجتماع

المنظور الوظيفي (ص ٢٣٤) الوظائف الظاهرة والكامنة (ص ٢٣٥) الاختلال
الوظيفي (ص ٢٣٦)

٢٣٦

منظور الصراع

الرؤية الماركسية (ص ٢٣٧) الرؤية العرقية: دوبا (ص ٢٣٧) الرؤية النسوية
(ص ٢٣٨)

٢٣٩

المنظور التفاعلي

٢٤٢

المدخل السوسيوولوجي

٢٤٥

علم الاجتماع التطبيقى والإكلينيكي

تنمية الخيال السوسولوجي

النظرية فى الواقع (ص ٢٤٩) البحث الإجرائى (ص ٢٤٩) الحديث من خلال السلالة والنوع الاجتماعى والطبقة والحدود القومية (ص ٢٤٩) السياسة الاجتماعية فى شتى أرجاء العالم (ص ٢٤٩)

٢٥٠

ملخص الفصل

الفصل السادس

مختصر بتاريخ نظرية علم الاجتماع: السنوات الحديثة

بدايات النظرية الأمريكية فى علم الاجتماع

الأبعاد السياسية لبدايات علم الاجتماع الأمريكى (ص ٢٥٤) التغيير الاجتماعى والتيارات الفكرية وبدايات علم الاجتماع الأمريكى (ص ٢٥٦)

٢٦٢

مدرسة شيكاغو

نظرية علم الاجتماع حتى منتصف القرن العشرين

ظهور مدرسة هارفارد، والمدارس الجامعية، والوظيفية البنائية (ص ٢٧٠) أفول مدرسة شيكاغو (ص ٢٧٨) التطورات فى النظرية الماركسية (ص ٢٧٩)

نظرية علم الاجتماع منذ منتصف القرن العشرين حتى الوقت الحاضر

الوظيفية البنائية بين الصعود والهبوط (ص ٢٨٠) علم الاجتماع الراديكالى فى أمريكا: س. رايت ميلز (ص ٢٨٢) تطور نظرية الصراع (ص ٢٨٤) بزوغ نظرية التبادل (ص ٢٨٦) التحليل المسرحى: أعمال ارفنج جوفمان (ص ٢٨٨)

٢٨٩

تطور علوم الاجتماع الإبداعية

علم الاجتماع الظاهراتى (ص ٢٩٠) المنهجية الشعبية (ص ٢٩١) علم الاجتماع الوجودى (ص ٢٩٣) بزوغ نظرية النظم وأفولها (ص ٢٩٣) هيمنة علم الاجتماع الماركسى (ص ٢٩٤) تحدى النظرية النسوية (ص ٢٩٦) البنيوية وما بعد البنيوية (ص ٢٩٨) الوظيفية الجديدة (ص ٢٩٩) الربط بين النظريات: الكبرى والصغرى (ص ٣٠٠)

٣٠٠

الخلاصة

الفصل السابع

التطورات الحديثة فى نظرية علم الاجتماع

نظرية الفعل

نظرية الفعل عند بارسونز (ص ٣٠٦) مشكلات فى نظرية الفعل عند بارسونز (ص ٣٠٨) الأعمال الحديثة فى نظرية الفعل (ص ٣١٢)

نظرية النظم

نقد نظرية النظم (ص ٣١٧)

البنوية

جذور البنوية علم اللغة (ص ٣١٩) البنوية الأنثروبولوجية: كلود ليفي - شتراوس
(ص ٣٢٠) الماركسية البنائية (ص ٣٢٥)

البدائل السوسيولوجية

ما بعد البنوية: أفكار ميشيل فوكو (ص ٣٣٠)

٣٤٠

النظرية البنائية

النظرية البنائية عند بيتر بلاو (ص ٣٤٣)

٣٤٩

نظرية شبكة العلاقات

٣٥٢

علم الاجتماع الوجودي

الوجودية والظاهراتية (ص ٣٥٥) الاهتمامات الرئيسية (ص ٣٥٧) الآفاق
المستقبلية (ص ٣٥٨)

٣٥٩

الخلاصة

الفصل الثامن

ظهور مشكلة رئيسية في النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع:

٣٦٤

الربط بين النظريات الكبرى والصغرى

٣٦٥

أنتوني جيدنز: نظرية التشكيل البنائي

٣٦٩

يوجين هابرماس: تكامل نظريتي الفعل والنظم

٣٧٠

جيفري الكسندر: علم الاجتماع متعدد الأبعاد

٣٧٣

الأسس الصغرى لعلم اجتماع الوحدات الكبرى

٣٧٥

مدخل الاختيار الرشيد إلى العلاقات الصغرى-الكبرى

٣٧٦

ندوة ١٩٧٩ عن الوعي والفعل الإنساني والبناء

٣٧٦

ندوة ١٩٨٣ عن التحليلات الكبرى والصغرى في علم الاجتماع

٣٧٧

جيمس كولمان: تكامل الفعل والنسق

٣٧٩

تكامل النزعة الإنسانية والبنوية

٣٨٠

نحو نظرية تكاملية للتبادل

٣٨٤

ريمون بودو: النزعة الفردية المنهجية

٣٨٥

الاستنتاجات

٣٨٦

خلاصة الفصل

الفصل التاسع نظرية علم الاجتماع

٣٩٠

المفاهيم الأساسية

الإجماع (ص ٣٩٠) الصراع (ص ٣٩٠) البناء الاجتماعي (ص ٣٩١) الاتجاه
النظري (ص ٣٩١) النظرية (ص ٣٩١)

٣٩١

الاتجاهات النظرية

الوظيفية (ص ٣٩٢) البنوية (ص ٣٩٥) التفاعلية الرمزية (ص ٣٩٧)
الماركسية (ص ٣٩٩)

٤٠٠

المعضلات النظرية

المعضلة الأولى: البناء والفعل (ص ٤٠٢) المعضلة الثانية: الإجماع والصراع (ص ٤٠٤)
المعضلة الثالثة: مشكلة النوع الاجتماعي (ص ٤٠٦) المعضلة الرابعة: تشكيل العالم
الحديث (ص ٤٠٨)

٤١١

النظريات

مثال: الأخلاق البروتستانتية (ص ٤١٢)

٤١٥

التفكير النظري في علم الاجتماع

٤١٥

خلاصة الفصل

٤١٧

المصطلحات المهمة الواردة في هذا الفصل

الفصل العاشر

علاقة النظرية النقدية وما بعد البنوية وما بعد الحداثة بعلم الاجتماع

٤١٩

التماس بين النظرية النقدية الألمانية والنظرية الفرنسية الجديدة في علم الاجتماع

٤٢١

النظرية النقدية: الأفكار الأساسية

٤٢٦

ما بعد البنوية: الأفكار الأساسية

٤٣١

ما بعد الحداثة: الأفكار الأساسية

٤٣٤

استخدامات النظرية النقدية، وما بعد البنوية، وما بعد الحداثة:

المنهج، والبحث، وصوغ المفاهيم

الإسهامات المنهجية (ص ٤٣٥) الإسهامات النظرية (ص ٤٣٩)

٤٤٣

إعادة النظر في ماهية علم الاجتماع

تصدير

أسعدتني الظروف الطيبة أن أتعرف إلى الابن والزميل الدكتور مصطفى خلف في مرحلة مبكرة من حياته الجامعية، فور انتهائه من إعداد رسالته للدكتوراه ودخوله إلى سلك هيئة التدريس بقسم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة المنيا. فقد جاء إلى القاهرة ساعياً إلى هذا التعارف، راغباً في المشاركة في الأعمال العلمية المشتركة التي كانت تخرج عن جماعة علم الاجتماع المعاصر آنذاك.

وقدم لى بطاقة تعريف مشرّفة، هي رسالته للدكتوراه التي نشرنا عرضاً وافياً لها في الفصل الرابع من كتاب: دراسة المشكلات الاجتماعية^(*). وفي نفس الفترة شارك مجموعة من الزملاء ترجمة كتاب جورج ريتزر المهم (الجزء الأول منه) عن نظرية علم الاجتماع (الطبعة الأولى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣).

وفي هذا التاريخ البعيد - القريب لأمثالي - كتبت عن هذه المجموعة كلمات أجدني سعيداً بترديدها اليوم: "... يمكن للقارئ أن يتصور مدى سعادتى وقد شاركت جماعة علم الاجتماع المعاصر جهودها الدؤوبة المخلصة على امتداد ربع القرن الماضى (أصدرت فيه أكثر من مائة كتاب)، أساهم اليوم بنفس الحماس ونفس الأمل فى تقديم كوكبة جديدة، هى إرهاب لجيل جديد قوى من شباب علماء الاجتماع المصريين، الذين يبدأون جهدهم الجماعى بنقل عمل مهم وبارز من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية خدمة للقارئ المتخصص والقارئ المثقف...

ولم يجمع هؤلاء الشباب انتماء لشلة، أو التلمذة على أستاذ معين، أو حتى الزمالة فى جامعة واحدة، ولكن جمعهم الإخلاص لعملهم والرغبة فى بذل التضحية من أجل العلم الذى يشرفون بالانتماء إليه، ولم يغيب عنهم جميعاً قدوة جماعة علم الاجتماع المعاصر، التى قرأوا منشوراتها وتعلموا منها، ورأوا فيها نموذجاً للزمالة المخلصة التى تقوم على المبادئ الرفيعة، وتتغذى على المثل العليا، ولا تعرف إلا التضحية والجهد المخلص الدؤوب.

وهكذا التقى زميلان من قسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة المنيا، أتاحت لأحدهما (دكتور مصطفى خلف) فرصة الدراسة فى إنجلترا، وللآخر (دكتور محمود عبدالرشيد) فرصة الدراسة فى الولايات المتحدة، التقيا مع زميل لهما فى قسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة أتاحت له أيضاً فرصة الدراسة فى الولايات المتحدة (هو الدكتور عدلى

السمرى) وزميلة من كلية البنات جامعة عين شمس (هى الدكتورة فانتن أحمد على).

ولاشك أن الفضل ينبغى أن ينسب لأهله دائماً، فالزميلان أعضاء هيئة تدريس بالمنيا لم تكن لتتاح لهما فرصة الدراسة خارج الوطن لولا الجهود المخلصة التى بذلها الزميل الأستاذ الدكتور عبدالهادى الجوهري فى إنشاء ودعم ورعاية قسم الاجتماع بكلية آداب المنيا، بحيث جعل منه واحداً من أقسام الاجتماع البارزة بالجامعات المصرية. ولولا رعاية الدكتور عبدالهادى لقسمه ولأبنائه ما توفرت تلك الكفاءة العالية، والرغبة فى العمل وروح التعاون التى يتحلى بها الزميلان مصطفى خلف ومحمود عبدالرشيد... "

... تلك بعض الكلمات التى سبق أن كتبتها عن مصطفى خلف، وعن قسم الاجتماع بآداب المنيا، وعن تثمين جهود المرحوم الزميل الدكتور عبدالهادى الجوهري، الذى أسهم فى تكوين هؤلاء الأبناء.

ولعله من الواجب أن أذكر هنا أن كتاب ريتزر المشار إليه كان يتكون من خمسة فصول، ترجم كل من الزملاء الآخرين فصل واحد، وتميز مصطفى خلف بترجمة فصلين منها. ليس هذا فحسب، بل إنه أسهم بجهـد أصيل وقيم فى مساعدتى على إنجاز ترجمة كتاب كابلو عن البحث الاجتماعى، الذى صدر عن نفس الناشر فى العام الجامعى ١٩٩٣/١٩٩٤.

أما عن هذا العمل الذى أسعد اليوم بتقديمه فقد اختط فيه الدكتور مصطفى خطة جديدة، حيث جمع عدداً من المقالات العلمية الأساسية فى ميدان نظرية علم الاجتماع. ولا حاجة بى إلى الإطالة، حيث حرصت مقدمة المترجم على تبرير وتوضيح أهمية العمل فى مجموعه فى ضوء الموقف النظرى المعاصر لعلم الاجتماع، كما اهتم باستعراض دلالة وجدوى كل فصل من فصول الكتاب العشرة.

أما عن فنية الترجمة، ودقتها، وضبط المصطلح العربى، فتاريخ المترجم - مصطفى خلف - الذى ذكرت طرفاً منه، وتأهيله العالى، وأعماله المنشورة تضمن لنا مستوى عالياً من الدقة والإتقان والانضباط المصطلحى. ولكنى أشدد - مع ذلك - على حسن إفادته من كل الأعمال الكبرى المترجمة إلى العربية فى علم الاجتماع، وأخص بالذكر موسوعة علم الإنسان (فى نحو الألف صفحة وشارك فى ترجمتها ١٥ من الزملاء)، وموسوعة علم الاجتماع (فى نحو الألفى صفحة وشارك فى ترجمتها: أحمد زايد، ومحمد محيى الدين، ومحمود عبدالرشيد، وهناء الجوهري... وغيرهم)، وأعمال أنتونى جينز (خاصة مقدمته النقدية، وقواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع، والطريق الثالث)، وكتاب لايدر المهم فى قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى... وغيرها من الأعمال التى تخلقت بفضلها مدرسة ناهضة فى الترجمة العلمية فى حقل علم

الاجتماع.

فهذا العمل الضخم الذى يقدمه مصطفى خلف بين أيدينا اليوم إنما يؤكد تواصل الأجيال فى حقل علم الاجتماع، وإفادة كل باحث ذكى طموح من إنجازات من سبقوه. كما يبرز حرصه على الإضافة إليها، ودعمها، والسير بها خطوات إلى الأمام.

لذلك أقول إن مثل هذا العمل وأشباهه يزودنا بأمل متجدد وسط مناخ يبدو فيه أحياناً - خطأ - أن عوامل الإحباط تفوق عوامل الإشراف والتفاؤل والنجاح.
تحية لجهد مصطفى خلف فى خدمة أبنائه وتخصصه والثقافة العربية.

محمد الجوهري

مقدمة المترجم الاتجاهات المعاصرة فى نظرية علم الاجتماع

* * *

ظهرت بوادر اهتمامى بالنظرية فى علم الاجتماع منذ أن كنت طالباً فى مرحلة الليسانس من خلال مقرر "النظرية الاجتماعية". وكان يدرس لنا هذا المقرر أستاذنا الدكتور محمد سعيد فرح فى بداية عمله بكلية الآداب جامعة المنيا. وكانت الترجمة العربية لكتاب جون ركس "مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية"^(١) قد خرجت لتوها من المطبعة ليديرسه لنا الدكتور سعيد فرح فى هذا المقرر. وكم كان ممتعاً أن نستهل رحلة التعمق فى نظرية علم الاجتماع من خلال المقدمة الرصينة التى كتبها محمد الجوهري من جهة، وما احتواه هذا الكتاب من قضايا لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا فى مجال النظرية من جهة ثانية.

وتجدد الاهتمام بالنظرية مرة ثانية فى السنة التمهيديّة للماجستير التى قرر فيها الدكتور سعيد فرح كتاب بول لازارسفيلد "الاتجاهات الأساسية فى علم الاجتماع"، ولم تكن قد ظهرت بعد الترجمة العربية له^(٢). مما جعلنا نخوض كطلاب فى بداية مرحلة الدراسات العليا تجربة جديدة علينا، وهى قراءة علم الاجتماع باللغة الإنجليزية، وتعلم فن الترجمة إلى اللغة العربية. وكانت هذه التجربة مفيدة ومثمرة، ولازلت أقطف من ثمارها إلى اليوم. وأتذكر أننى أعددت فى هذه السنة ثلاثة بحوث جمعت فيها بين الترجمة والتأليف والتعليق، واختص البحث الأول بالنموذج التطورى فى التحليل السوسولوجى، وكان البحث الثانى عن الاختلافات القومية فى العمل السوسولوجى: رؤية فى واقع علم الاجتماع المصرى، وانشغلت فى البحث الثالث بدراسة الاتجاهات الأساسية فى دراسة التغير الاجتماعى: نظرة فى التغير الاجتماعى فى المجتمع المصرى.

وتواصلت مع الاهتمام بالنظرية فى علم الاجتماع، أعددت خطة للتسجيل

()

()

•

•

•

لدرجة الماجستير، واخترت موضوعاً بعنوان "الأصول الأنثروبولوجية للنظرية الاجتماعية" تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبدالمنعم شوقي رحمه الله. ثم شاءت الأقدار أن لا أسجل في هذا الموضوع بعد ترشيحي للدراسة بالمركز الديموجرافى بالقاهرة الذى حصلت منه على الدبلومتين: العامة والخاصة فى الديموجرافيا. وفى هذا الصرح العلمى - الذى كان يديره وقتئذ شيخ الجغرافيين العرب الأستاذ الدكتور سليمان حزين رحمه الله - حفظت عبارة مشهورة تلخص الموقف النظرى فى علم السكان، ومفادها أن علم السكان علم فقير فى النظرية، وغنى بمنهجه وأساليبه التحليلية^(١). ولازالت احتفظ بالمحاضرات القيمة التى ألقاها علينا الأستاذ الدكتور سليمان حزين عن ابن خلدون وإسهاماته فى علم السكان. وظلت هذه العبارة تتردد بداخلى وأنا استعد للتسجيل لدرجة الماجستير، حيث سجلت موضوعاً عن "الفقر والسلوك الإنجابى"^(٢)، ووجدت ملاذى فى مؤلفات النظرية الاجتماعية حتى أتمكن من تحليل العلاقة بين هذين المتغيرين تحليلاً نظرياً وإمبيريقياً.

واستكمالاً لاهتمامى بديموجرافيا الفقر فى المجتمع المصرى سجلت أطروحة الدكتوراه فى موضوع "الفقر ووفيات الرضع فى الريف المصرى"^(٣). وسافرت بعد التسجيل إلى جامعة جلاسجو باسكتلنده وفقاً لنظام الإشراف المشترك. ولن انسى ما حبيت مكتبة الجامعة التى تضم أمهات الكتب فى علم الاجتماع، والإصدارات الحديثة فيه، إلى جانب ما يربو على (٢٧,٠٠٠) دورية فى العلوم الاجتماعية. وهذا ما يسرّ على إعداد الدراسة النظرية التى ركزت فيها على الاتجاهات النظرية فى تفسير تأثير الفقر على الوفيات بصفة عامة ووفيات الرضع بصفة خاصة. وعاشت فى هذه الفترة الجدل المحموم بعد ظهور "تقرير بلاك" The Black Report - على اسم أحد معديه - عن اللامساواة فى الصحة فى المجتمع البريطانى.

وبعد الحصول على درجة الدكتوراه بدأت مرحلة التدريس التى كلفت خلالها بتدريس مقرر "تاريخ الفكر الاجتماعى" الذى درست فيه كتاب تيماشيف: "نظرية علم

()
Bourgeois-Pichat, J. . Main Trends in Demography. London: George Allen & Unwin Ltd.
Coleman, D. & R. Schfield (eds.) . The State of Population Theory, New York & Oxford: Basil Blackwell.

()

()

الاجتماع: طبيعتها وتطورها"^(١). وفي هذه الفترة اشتركت مع مجموعة من الزملاء بجامعات القاهرة وعين شمس والمنيا فى ترجمة الجزء الأول من كتاب جورج ريتزر "النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع" تحت إشراف محمد الجوهري. وصدرت الترجمة العربية بعنوان "رؤى علم الاجتماع"^(٢) التى تدرس الآن فى جامعات القاهرة وعين شمس والمنيا.

وتلا ذلك مرحلة الإعارة إلى دولة قطر التى عملت فيها خبيراً فى التخطيط الاجتماعى ومشاركاً فى التدريس بقسم علم الاجتماع بجامعة قطر. واستثمرت تلك الفترة فى إجراء مجموعة من الدراسات عن المجتمع القطرى، والإعداد لترجمة كتاب فى النظرية الاجتماعية المعاصرة. وقد استغرق هذا الأعداد فترة زمنية طويلة حرصت فيها على انتقاء فصول من المؤلفات الحديثة فى علم الاجتماع ونظرياته، بالإضافة إلى مقالات حديثة من بعض الدوريات المتخصصة. وقد شجعتنى على المضى قدماً فى هذا العمل مشاركتى للزميل الدكتور محمود عبدالرشيد بدران أستاذ علم الاجتماع المساعد بكلية الآداب جامعة المنيا فى تدريس مقرر النظرية الاجتماعية لطلاب السنة التمهيديّة للماجستير فى العام الجامعى ٢٠٠١ / ٢٠٠٢.

وجاء اختيار هذه الفصول والمقالات عن قصد بعد أن لاحظت أن أغلب المؤلفات العربية فى النظرية الاجتماعية دارت فى فلك النظريتين: الوظيفية من ناحية والماركسية التقليدية من ناحية ثانية^(٣)، فى الوقت الذى ينشغل فيه المنظرون المعاصرون - خاصة منظرى ما بعد الحداثة - بمسائل مختلفة تتعلق بعالم يرونه تغير تغيراً ضخماً عن العالم الذى واجهه ماركس وفبير ودوركايم. كما ظهرت اتجاهات حديثة فى الفكر الماركسى منها النزعة الإنسانية الماركسية، ومدرسة فرانكفورت (النظرية النقدية)، والبنويوية الماركسية، والتأكيد على الفاعل والفعل فى المجال السياسى، وأخيراً دراسة الثقافة فى

()

()

()

()

•

•

•

•

/

مجتمع ما بعد الحداثة. وتوجد فى الوقت الراهن أربع نظريات فى علم الاجتماع يزداد رواجها، وهى: البنيوية، والنظرية البنائية، ونظرية شبكة العلاقات، وعلم الاجتماع الوجودى. ويتفق ريتزر مع كنور-سيتينا على أن نظرية التبادل، وعلم الاجتماع الظاهراتى، والمنهجية الشعبىة (الإثنوميثودولوجيا)، وعلم الاجتماع الوجودى زادت قوتها فى علم الاجتماع منذ السبعينيات، وباتت تهدد بأن تحل محل النظريات الكبرى (مثل الوظيفة البنائية، ونظرية الصراع، والنظريات الماركسية الجديدة) كنظريات مهيمنة فى علم الاجتماع.

ويضم هذا الكتاب المترجم بين دفتيه عشرة فصول بالإضافة إلى هذه المقدمة التى تلخص الاتجاهات المعاصرة فى نظرية علم الاجتماع، وكذلك التقديم الذى كتبه محمد الجوهري (ولا أنسى هنا أن أتوجه له بخالص الشكر والتقدير على اقتطاع جزء من وقته الثمين ليتولى مراجعة هذا الكتاب والتقديم له. وهذا عهدى به دائماً أستاذاً يدفعنا بتشجيعه على السير فى درب العلم بإخلاص وتفان ومثابرة). واعتمدت فى اختيار هذه الفصول على ستة مؤلفات حديثة، وهى:

(أ) كتاب مايك أودونيل بعنوان "تمهيد فى علم الاجتماع" فى طبعته الرابعة الصادرة عام ١٩٩٧^(١). وأزعم أن هذا الكتاب يتفوق على كتاب جيدنز "علم الاجتماع" الذى اطلعت على الطبعة الثالثة منه التى صدرت عام ٢٠٠٠^(٢) فى عدة جوانب أهمها أنه يناقش الموضوعات التى يهتم بها علم الاجتماع - مثل الأسرة والزواج، والتعليم، والتدرج الطبقي، والعمل والبطالة، والتنظيمات، والقوة والسياسة، والانحراف، والفقير والثراء، ودورة الحياة، والثقافة والهوية، ووسائل الاتصال والعولمة، والدين والحداثة، والمجتمع المحلى، والتنمية والتخلف والعولمة - مناقشة نظرية مستفيضة باستعراض وتحليل أبرز الاتجاهات النظرية: الكلاسيكية والمعاصرة المتعلقة بها، ثم تشريح الظاهرة موضوع الدراسة، ويترك أودونيل الفرصة للطالب كى يستنتج بنفسه الصلة التى تربط النظرية بالبحث الميدانى.

واخترت من كتاب أودونيل ثلاثة فصول تشكل الفصول الثلاثة الأولى من هذا الكتاب المترجم الذى بين أيدينا. وأبدأ بالفصل الأول وعنوانه "نظرية علم الاجتماع من الاتجاهات الكلاسيكية إلى الاتجاهات المعاصرة، وفيه يعلمنا أودونيل أن أفضل طريقة لفهم جوانب الاختلاف بين علماء الاجتماع المعاصرين - وكثير من هذه الجوانب يعود بجذوره إلى أفكار دوركايم وماركس وفيربر - هى أن ندرس بعض المسائل الأساسية لنظرية علم الاجتماع التى حاول هؤلاء الثلاثة أن يجيبوا عنها بطريقة أو بأخرى. وهذه

() O'Donnell, M. . Introduction to Sociology. th ed. Surrey: Nelson.

() Giddens, A. . Sociology. rd ed. Cambridge: Polity Press.

المسائل هي:

- ١- مم يتكون المجتمع؟
 - ٢- كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟
 - ٣- لماذا تكون بعض الجماعات فى المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟
 - ٤- ما الذى يُسبب التغيير الاجتماعى؟
 - ٥- هل المجتمع بطبيعته فى حالة توازن أم صراع؟
 - ٦- ما علاقة الفرد بالمجتمع؟
 - ٧- ما هو الهدف الأساسى من وراء دراسة علم الاجتماع؟
- وهذا تفصيل للمسائل الثلاثة التى وضعها ميلز نصب عينيه عندما زعم أن ماركس ودوركايم وفبير وغيرهم من علماء الاجتماع الكلاسيكيين انشغلوا بما يلى:

- ١- ما هو المقصود ببناء المجتمع؟
- ٢- ما هى العلاقة بين الفرد (أو الذات) والمجتمع؟
- ٣- أين يقف هذا المجتمع فى تاريخ البشرية؟

ويطرح أودونيل تفرقة مفيدة بين النظريات البنائية Structural والتأويلية Interpretive، أو بين علم الاجتماع البنائى وعلم الاجتماع التأويلى. ويختص علم الاجتماع البنائى بصفة أساسية بكيفية تأثير المجتمع فى السلوك: الفردى والجماعى بدلاً من التركيز على كيفية تأسيس المجتمع بواسطة الأفراد والجماعات. فعلم الاجتماع البنائى يهتم - على سبيل المثال - بكيفية تأثير طبقة الفرد وعائلته (أى الوضع الاجتماعى - البنائى للفرد) على احتمالات نجاحه فى المدرسة أو حصوله على وظيفة مناسبة. وينطبق على الوظيفة- التى تدين بالفضل الكبير لأميل دوركايم- صفة "بنائية الإجماع" Consensus Structuralism، لأنها تؤكد على الدور المحورى الذى يلعبه الاتفاق (الإجماع) بين الناس على القيم الأخلاقية فى المحافظة على النظام الاجتماعى. هذا من جانب، ومن جانب آخر تؤكد الماركسية (ماركس) ونظرية الفعل الاجتماعى (فبير) على الصراع - بدلاً من الإجماع - فى المجتمع. ومن الملامح المميزة للنظريات البنائية أنها تسعى إلى التفسيرات العلمية أو الوضعية للسلوك الاجتماعى.

وعلى العكس من البنائية يهتم علم الاجتماع التأويلى بالدرجة الأولى بكيفية قيام الأفراد والجماعات بتأسيس المجتمع وإضفاء معنى عليه ومعايشة الحياة فيه بدلاً من

الاهتمام بكيفية تأثير المجتمع على الأفراد والجماعات. ومن الأمثلة على هذا الضرب من ضروب التفكير الذى يشغل علماء الاجتماع التأويلى مشاعر الفرد الموصوم بالإجرام، أو الجنون، أو الغباء فى المدرسة. ويمثل علم الاجتماع التأويلى - فى جانب منه - رد فعل مناوئاً للمنهج العلمى أو الوضعى المرتبط بالمنظورات البنائية.

وقد تطورت نظرة علم الاجتماع حتى الستينيات - وربما بعدها بقليل - باعتبارها حرباً ضروس بين النظريات البنائية - خاصة الوظيفية والماركسية - والنظريات التأويلية. ويشار إلى هذا التعارض بـ"المدخل الثنائى" الذى له قطبان على أحدهما البناء وعلى الآخر الفعل⁽¹⁾. وعلى الرغم من اعتراف أبرز علماء الاجتماع بجدوى هذا القطب أو ذلك لموضوع العلم، فإن الانطباع العام عن علم الاجتماع أنه علم شديد الانقسام.

وقد ظهرت فى الربع الأخير من القرن العشرين عدة محاولات لتنظير العلاقة بين البناء والفعل بطريقة تجاوزت المقولة التى مفادها أن البناء والفعل متعارضان. ومن أبرز المنظرين فى هذا الصدد: فوكوه (ما بعد البنيوية)، وإلياس (علم الاجتماع التشكيلى)، وجيدنز (نظرية التشكيل البنائى)، وبورديو (نظرية الممارسة الاجتماعية)، وهابرماس (النظرية النقدية).

وإذا كانت الأوضاع الاجتماعية التى سادت فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ذات أهمية قصوى فى تطور علم الاجتماع ونظريته مثل الثورات السياسية، والثورة الصناعية، وظهور الرأسمالية، وظهور الاشتراكية، والتحضّر، والتغيرات الدينية، والتقدم العلمى⁽²⁾، فإن هناك مجموعة من الحركات المعاصرة التى تضرب بجذورها خارج حدود علم الاجتماع كان لها تأثير ضخم على تطوره. ومن أكثر هذه الحركات تأثيراً: النسوية Feminism، والنزعة المعادية للعنصرية، واليمين الجديد (التائشيرية)، والحركة البيئية أو الحركة الخضراء، بالإضافة إلى الآثار المحتملة لأفول الشيوعية على علم الاجتماع الماركسى وظهور منظور راديكالى بديل عنه. ويمكن أن أضيف إلى هذه المؤثرات المعاصرة: "العولمة" التى يحاول علم الاجتماع أن يكيف نفسه معها.

ويختم أودونيل هذا الفصل بمناقشة النظريات "البعدية" "Post Theories" (نظرية مجتمع ما بعد الصناعة، ونظرية ما بعد الفوردية، وما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة)، ثم

() :

()

() :

أنماط المجتمع (التقليدى، والحديث، وما بعد الحديث) وأنماط التفسير الاجتماعى.

ويناقش الفصل الثانى "المنهج والنظرية فى علم الاجتماع: التقليديّة، والحادثة، وما بعد الحادثة" طبيعة علم الاجتماع كعلم، وهى قضية لها جانبان رئيسيان أولهما يتعلق بما إذا كان موضوع علم الاجتماع يحسن فهمه بالمنهج العلمية المستخدمة فى العلوم الطبيعية أم لا، وثانيهما يتصل بما إذا كانت المناهج التى يستخدمها علماء الاجتماع والنتائج التى يتوصلون إليها يمكن أن يطلق عليها مناهج ونتائج علمية أم لا.

ويذهب أودونيل إلى أن هناك علاقة دقيقة – ولكنها ليست علاقة محددة بإحكام – بين النظريات البنائية (الماركسية، والوظيفية، والفيبرية) والمناهج الكمية (المسوح الاجتماعية، والاستبيان، والمسح المقارن، والمقابلة) من جهة، والنظريات التأويلية (الفعل الاجتماعى، والتفاعلية، والمنهجية الشعبى) والمناهج الكيفية (المقابلة غير المقننة، والملاحظة). ويميل أغلب علماء الاجتماع إلى أن التعددية المنهجية – نظرياً وعملياً – أجدى من المفاضلة بين المدخل الكمي أو الكيفى).

وإذا كانت السيرة الذاتية للمبجوثين تمثل مصدراً مهماً من مصادر البيانات فى البحث الاجتماعى، فإن السيرة الذاتية للباحث – أى عالم الاجتماع – يمكن أن تشكل بيانات ثرية إذا كانت الخبرات الشخصية له ذات صلة بالبحث وأدمجت فيه بطريقة مفيدة. ومن هنا يمكن دراسة العلاقة بين الخبرة الشخصية لعالم الاجتماع والقضايا العامة دون تقويض الدقة المنهجية. ويميل الرأى فى علم الاجتماع المعاصر إلى وجهة النظر القائلة بأن الكاتب والباحث مترابطان معاً بدرجة لا يمكن الفكك منها.

ويستطرد أودونيل فى دراسة علاقة علم الاجتماع بالتقليدية والحادثة وما بعد الحادثة بالتركيز على آراء كل من ستورت هول عن الحادثة والتقليدية، وأنتونى جيدنز عن التقليدية والحادثة فى مقاله المعنون "الحياة فى المجتمع بعد التقليدى" الذى قام فيه بتحليل طبيعة التراث وتواصل الاهتمام به وإبداعه فى المجتمعات الحديثة. وعلى الرغم من أن جيدنز شدد بوضوح على أن الحادثة تمحق التراث، فإنه يزعم أن الاتجاهات والسلوكيات التقليدية – خاصة فى مرحلة الحادثة المتأخرة – تظل مستمرة وتسهم فعلياً فى المراحل المبكرة للتنمية الاجتماعية الحديثة.

ويجرى أودونيل مقارنة مفيدة بين الحادثة وعلم الاجتماع من جانب، وما بعد الحادثة وعلم الاجتماع من جانب آخر ليخلص إلى المسائل الخمسة الرئيسية لما بعد الحادثة على النحو التالى:

١- هل تمثل ما بعد الحادثة فترة يكون فيها ثمن التقدم – أى التدمير البيئى – أكثر أهمية من تحقيق مزيد من التقدم المادى؟

٢- هل حلت قضايا الثقافة / المعرفة محل القضايا الاقتصادية والمادية كأحد الملامح المميزة لمجتمع ما بعد الحداثة؟

٣- هل حدثت العولمة بالفعل، أى هل يوجد رأى قاطع فى ماهية قوى الاتصال التى أنتجت مجتمعاً كونياً؟

٤- هل تضاءلت أهمية المسائل التطبيقية مقارنة بمسائل النوع الاجتماعى، والسلالة، والعرق، والجنسية وغيرها من الأسس الأخرى للهوية؟

٥- هل أضحت الفراغ / الاستهلاك أكثر أهمية من العمل / الإنتاج؟

وإذا كان علم الاجتماع فى نشأته قد عكس اهتمامات وقضايا القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن علم الاجتماع اليوم يعكس القضايا والاهتمامات الأساسية لما يطلق عليه عصر ما بعد الحداثة أو الحداثة المتأخرة. ومع ذلك يتواصل الاهتمام المحورى لعلم الاجتماع بعلاقة الفرد بالجماعات الاجتماعية، وبالعلاقات القوة، وبأسباب التغيير الاجتماعى ونتائجه.

ويشير الفصل الثالث قضية جدلية حول ما إذا كان علم الاجتماع يتحرك صوب مدخل نظرى واحد أو منظور واحد متفق عليه، أم أن قدر هذا العلم محتوم بعدة اتجاهات نظرية – وربما يكون بعضها متعارضاً – مثلما يزعم أنصار نظرية ما بعد البنوية.

ويستعرض هذا الفصل المنظورات البنائية والتأويلية التى هيمنت على علم الاجتماع منذ عام ١٨٨٠ إلى عام ١٩٦٠، ويندرج تحت المنظورات البنائية كل من الوظيفية (نظرية الإجماع)، والماركسية (نظرية الصراع I)، ونظرية الفعل الاجتماعى عند فيبر (نظرية الصراع II). أما المنظورات التأويلية فتجسدها التفاعلية الرمزية، والمنهجية الشعبية. ويحتوى علم الاجتماع عند فيبر على عناصر مهمة من كلا المنظورين: البنائى والتأويلى.

ومن أبرز الانتقادات الموجهة إلى الوظيفية: التصور المفرط للطبيعة الاجتماعية للكائنات الإنسانية، والمبالغة فى دور الإجماع، والفصل المضلل بين البناء والنسق، والغائية. وتتلخص أهم الانتقادات الموجهة إلى الماركسية – خاصة الماركسية الفجة – فى الاعتقاد بحتمية ثورة البروليتاريا، وتشديد التأكيد على الصراع، والفجوة بين المثاليات والواقع. أما فيبر فإنه لم يوفق فى تحقيق المهمة العسيرة بدمج الذات والبناء معاً، وتأرجح بينهما مما جعل أعماله تنجيه أكثر نحو علم الاجتماع البنائى، فى حين أن مقصده كان محاولة تطوير علم اجتماع الفرد أو علم اجتماع المعنى الذاتى.

ويتضح من مناقشة التفاعلية الرمزية أن ثمة تقارباً بين ميد وماركس كشف عنه توم

جوف فى كتابه "ماركس وميد" الذى صدر عام ١٩٨٠.

ويمكن تلخيص جوانب التقارب بينهما على النحو التالى:

(١) أن ماركس وميد شددوا على أن الفرد يشكله المجتمع، وأكدا بطريقة مماثلة على تأثير البناء الاجتماعى على الناس.

(٢) أن كليهما وصف الناس بأنهم كائنات واعية بقدرتها على تغيير بيئتها الاجتماعية وإعادة تشكيلها.

(٣) أن البناء الاجتماعى والإبداع الإنسانى ليسا منفصلين فى رأيهما، بل مترابطان ترابطاً جدلياً، بمعنى أن الناس يتفاعلون مع البيئة الاجتماعية، ويمكن لكليهما أن يغير من الآخر.

(٤) يتفق ماركس وميد على أن التفكير الإنسانى ينشأ فى سياق اجتماعى، ويتكون من خلال الخبرة. وبهذا المعنى يكون التفكير عملياً بطبيعته، ومن ثم يمكن توجيهه - فى رأى ماركس على الأقل - توجيهاً أكثر عقلانية نحو تحسين نوعية الحياة الاجتماعية تحسناً جذرياً.

وفىما يتعلق بالظاهراتية فهى فى الأصل نظرية فلسفية، ولكنها دخلت إلى علم الاجتماع من خلال المنهجية الشعبىة. وقد قام ألفريد شوتز بتطبيق مدخل هوسرل على علم الاجتماع وتطويره. أما المنهجية الشعبىة فقد تأسست فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات على يد عالم الاجتماع هارولد جارفينكل. ومن المفيد أن نذكر فى جارفينكل على أنه هو الذى طبق المدخل الظاهراتى عند شوتز تطبيقاً عملياً، كما انه طور هذا المدخل. وتعد المنهجية الشعبىة - بلغة بسيطة - هى علم الاجتماع الظاهراتى.

وتلخص الأعمال الحديثة لبيتر سوندرز نظرية شمولية لليمين الجديد فى علم الاجتماع. ويزعم سوندرز أن أكثر أنماط المجتمع كفاءة وعدلاً هو الذى ينهض على السوق الحرة وتكافؤ الفرص. وعلى الرغم من التزام سوندرز بتكافؤ الفرص، فإنه يؤمن إيماناً راسخاً باللامساواة الطبيعىة أو البيولوجية، بمعنى أن الأفراد موهوبون بقدرات عقلية وغيرها من القدرات بطريقة مختلفة ومتفاوتة، ومن ثم يذهب سوندرز إلى أن نظام التدرج الطبقي فى بريطانيا تجسيد عادل للامساواة الطبيعىة بين أفراد المجتمع^(١)، وبالتالي يؤكد على أن بريطانيا هى بالفعل مجتمع الجدارة Meritocracy. وهذا يجره إلى خلاف حاد مع علماء الاجتماع الماركسيين والفيبريين الذين يرون أن هذا أبعد ما يكون

()

Davis,K. & W.Moore. Some Principles of Stratification. American Sociological Review, (), PP. - .

كثيراً عن الواقع. ويمتاز منظور سوندرز بأنه منظور سوسولوجي أصيل، فالإطار الذي حدد فيه ما تحتاجه الرأسمالية إطار مجتمعي (أو اجتماعي) بدرجة واضحة لا لبس فيها. وهو بذلك يقول ما يتفق معه عليه كل علماء الاجتماع، وهو أنه ما لم يتم تنشئة الناس على قيم وسلوكيات مشتركة، فسوف تكون هناك فوضى اجتماعية، ولن يكون هناك مجتمع. وهذا ما يميز سوندرز عن المتطرفين من منظري اليمين الجديد الذين يزعمون أن هناك فعلاً فردياً، ولكن لا يوجد شيء اسمه المجتمع.

وشهدت الفترة من السبعينيات إلى الثمانينيات معركة بين الاتجاهات النظرية. فقد أصبح علم الاجتماع – بعد وفاة ميلز عام ١٩٦٢ بربع قرن تقريباً – مشهوراً بمعاركه النظرية الداخلية. وعلى الرغم من حدوث بعض التقدم النظري خلال تلك الفترة، فقد اتسم الجدل في معظمه بتكرار لا متناه عن مثالب ومزايا الماركسية والوظيفية والتفاعلية الرمزية. وقد أطلق ميلز بنفسه بعضاً من الشرارات الأولى في هذا الجدل بهجومه المعروف على ما سماه "النثر النظري الطنان" عند تالكوت بارسونز، مما دفعه إلى ترجمة كتاب "النسق الاجتماعي" لبارسونز إلى عبارات موجزة واضحة.

وقد كان من تأثير هذا الجدل بين الاتجاهات النظرية الثلاثة الرئيسية إبطاء التقدم النظري في علم الاجتماع. وإذا كان حقيقياً أن إحياء علم الاجتماع الماركسي في الستينيات والسبعينيات وكذا مجموعة الدراسات الإمبريقية التي استلهمت التفاعلية الرمزية تمثل إنجازاً ملموساً في سياق النماذج الموجودة بالفعل، فقد أغفل علماء الاجتماع بعضاً من المسائل "الكبرى" الجديدة.

وجاءت فترة التسعينيات لتشهد انشغال منظري ما بعد الحداثة – وأشهرهم فوكوه، وبودريار، وليوتار – بمسائل جديدة لعلم الاجتماع أشرت إليها آنفاً. ويزعم أودونيل أن هذه المسائل ليست جديدة على علم الاجتماع ولكنها تتخذ شكلاً جديداً، ومن ثم بقي جوهر المنظور السوسولوجي كما هو دون المساس به، باستثناء أن كثيراً من علماء الاجتماع ينظرون اليوم إلى المجتمع الكوني – بدلاً من المجتمع القومي – على أنه الإطار المرجعي الأوسع لهم. وثمة اتجاه حثيث في سياق العولمة إلى تجاهل الدولة القومية والمجتمع. ويعنى "المجتمع" الآن تفاعل مستويات متعددة من القوى: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية – وهي مستويات ليست مرتبة حسب أهميتها بالضرورة – ويتفاعل الفرد مع واحدة منها أو جميعها.

وقد نالت ميشيل باريت شهرة بين أولئك الذين حاولوا دمج آراء نظرية ما بعد الحداثة في علم الاجتماع. وتطرح باريت خمس قضايا فرضية لعلم الاجتماع الجديد – الذي ترى ضرورة إحلاله محل علم الاجتماع الراسخ Established عند فيبر وماركس ودوركايم – وهي:

١- النشاط الاجتماعي يتم في سياق كوني.

٢- الهوية والذات مفهومان محوريان في علم الاجتماع.

٣- يتم إنتاج المعنى الاجتماعي ثقافياً.

٤- القوة والأفضلية لهما مصادر متعددة.

٥- الأخلاق تحدد الاختيارات السياسية.

وتوجه باريت نقدها إلى الافتراضات الثلاثة الشائعة في علم الاجتماع، وهي: العمومية، والمادية، والرشد؛ وهي الافتراضات التي جعلها فوكوه وليوتار تكتسب ذيوماً وشهرة في المناقشات الدائرة في علم الاجتماع. وتحتاج هذه الافتراضات إلى إعادة نظر في سياق مراجعة شاملة لعلم الاجتماع مثل المراجعة التي قامت بها باريت.

ويتفق كثير من علماء الاجتماع اليوم على أن الهدف المتعلق بنظرية عامة واحدة في علم الاجتماع (النموذج الموحد) لا هو بالهدف المرغوب فيه، ولا هو بالهدف الذي يمكن تحقيقه. ولقد فشلت المنظورات الكبرى في علم الاجتماع في تطويق التنوع بين المجتمعات، وصعوبة التنبؤ، وتعقد عمليات التغيير الاجتماعي. وتستشهد باريت بمثال على ذلك هو أن النسوية لا يمكن أن نتوقع منها خروج صوت واحد باسم جميع النساء.

ومن أفضل المحاولات التي لخصت الجهود المبذولة من جانب المنظرين في علم الاجتماع لتجاوز الثنائيات النظرية الرئيسية في هذا العلم (الوحدات الصغرى / الوحدات الكبرى، الفعل / البناء، الفرد / المجتمع) كتاب "فهم النظرية الاجتماعية" لمؤلفه ديريك لايدر الذي نشره عام ١٩٩٤. ويمكن القول بأن اختيار لايدر لمصطلح "النظرية الاجتماعية" عنواناً لكتابه له مدلولان أولهما أن كثيراً من الإسهامات المهمة لفهم المجتمع في الربع الأخير من القرن العشرين أتت من خارج علم الاجتماع، وثانيهما أن الحدود بين علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى أصبحت ضبابية^(١). وهذا يعود إلى تقليد قديم عندما استفاد ماركس وفبير في أعمالهما من عدد من العلوم الاجتماعية.

ويلخص لايدر موقف الاتجاهات النظرية الراسخة في علم الاجتماع (الماركسية، والوظيفية، والتفاعلية الرمزية) من ثنائية الفعل / البناء، حيث تشدد الماركسية والوظيفية على البناء دون الفعل، وتؤكد التفاعلية الرمزية على الفعل دون البناء.

()

وقد صنف لايدر المنظرين المعاصرين فى علم الاجتماع إلى فريقين: الفريق الأول حاول أن يتجاوز الثنائيات بأن يُلحَمَها معاً فى كل متكامل (فوكوه، إلياس، جيدنز)، والفريق الثانى سلم بانفصال هذه الثنائيات، ولكنه حاول أن يربط بينها (بورديو، هابرماس). فقد حاول فوكوه أن يتجاوز الثنائيات بتحليل الأساس الأوسط للممارسات الاجتماعية وكيفية تعبيرها عن علاقات القوة. ونظر إلياس إلى المجتمع فى ضوء أشكال أو سلاسل من العلاقات، ومن ثم تبدو الثنائيات ذات أهمية فى هذا الشأن. واتجه جيدنز إلى إحلال مفهوم الازدواجية Duality محل مفهوم الثنائية Dualism، وهو ينظر إلى الفعل / البناء على انهما متكاملان وليسا متعارضين^(١). وقد حاول بورديو فى نظرية الممارسة الاجتماعية الربط بين الجوانب الموضوعية والذاتية للحياة الاجتماعية^(٢). ويذهب هابرماس فى نظريته النقدية إلى أن الحياة اليومية أو الواقع المعاش يتقاطع مع عالم الأنساق العامة^(٣).

وتورد فيفيان بور النقاط الأربعة التالية التى تميز مدخل التصور الاجتماعى

: Social Constructionism

١- موقف نقدى من المعرفة البديهية.

٢- الخصوصية التاريخية والثقافية.

٣- أن المعرفة تعززها العمليات الاجتماعية.

٤- أن المعرفة والفعل الاجتماعى متناغمان.

وبعد مناقشة مستفيضة لنظرية ما بعد الحداثة فى علاقتها بعلم الاجتماع وأبرز الانتقادات الليبرالية والماركسية الموجهة إلى هذه النظرية، يختم أودونيل هذا الفصل باستعراض الحال الذى آل إليه علم الاجتماع اليوم، حيث يرى أن إمكانية ظهور نموذج

()

•

•

()

()

Jenkins, R. . Pierre Bourdieu. London & New York: Routledge.

()

()

() ()

نظري موحد في علم الاجتماع مشتق من المنظورات المتعددة فيه أمر غير وارد الآن. ومع ذلك فإن المحاولات العديدة لنسج الثنائيات معاً هي ممارسة على هذا الدرب أكثر تواضعاً من محاولة الوصول إلى "نظرية شمولية". ويبدو أن الحقيقة القائلة بأن النموذج الموحد لا يلوح في الأفق الآن حقيقة لا يبالي بها بعض علماء الاجتماع، مع أن بعضهم الآخر لا يوافق على ذلك. ويرى فوكوه وليوتار أن "الصورة الضخمة" Big Picture للواقع ليست هي بيت القصيد. فهذا الواقع ليس ساكناً، ولكنه في تغير مستمر. وما يحدث بالفعل في علم الاجتماع خاصة والعلم الاجتماعي عامة يبدو مهماً ومثيراً، بل ويصعب متابعته في بعض الأحيان. وعندما كتب هالسي أن علم الاجتماع لم يعد له موضوع واحد، كان في ذهنه أساساً الدراسة الإمبريقية للمجتمع من النوع الذي قام بإجرائه جولد ثورب ومارشال وهالسي نفسه من ناحية، والدراسات التأويلية والثقافية التي قام بها هوجارت وطومسون وهول من ناحية ثانية. ويبدو أن علم الاجتماع يعادى نفسه عداءً شرساً. ودائماً ما يستعير هذا العلم من العلوم الأخرى ويعيرها. وقد أدت الاستعارة من جانب علم الاجتماع إلى تصلب المحتوى النظري للدراسات السوسيولوجية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يدين علم الاجتماع بالفضل الكبير للدراسات الثقافية والفلسفة. ويبدو أن هذا المد والجزر أكثر حيوية اليوم من العراك النظري المتواصل أو البحث المضني عن نموذج موحد. وقد يستغرق هذا وقتاً طويلاً.

(ب) مقالة تشارلز كاميك ونيل جروس عن التطورات المعاصرة في نظرية علم الاجتماع⁽¹⁾ ومن الضروري أن أشير في البداية إلى أنه سبق لكاميك وجروس أن استعرضا في دراسات سابقة لهما⁽²⁾ الملامح المميزة للنظرية الكلاسيكية في علم الاجتماع.

ويلخص كاميك وجروس المشروعات الثمانية التي انشغل بها المنظرون المعاصرون في علم الاجتماع منذ منتصف الثمانينيات حتى اليوم، مع ملاحظة أن استعراضهما لهذا التراث النظري جاء انتقائياً. ولذلك لا تغطي هذه المشروعات الثمانية كل ضروب النشاط النظري المعاصر. كما أن هذه المشروعات ليست جامعة مانعة؛ بمعنى أن هناك منظرين خاضوا في أكثر من مشروع في نفس الوقت أو في مراحل

() Camic, C. & N. Gross. . Contemporary Developments in Sociological Theory: Current Projects and Conditions of Possibility. Annual Review of Sociology, Vol. , pp. - .

() Camic, C. . Structure after years. American Journal of Sociology, Vol. , pp. - .
Gross, N. . Durkheim's pragmatism lectures: A Contextual interpretation. Sociological Theory, Vol. , pp. - .

مختلفة منه. وأوجز المشروعات الثمانية للنظرية المعاصرة في علم الاجتماع على النحو التالي: (انظر الفصل الرابع)

(١) بناء أدوات عامة لاستخدامها في التحليل الإمبريقي: تتمثل المهمة الأساسية لنظرية علم الاجتماع بين مجموعة من المنظرين المعاصرين في بناء أدوات تحليلية (المفاهيم، والقضايا التفسيرية، والموجهات التأويلية... إلخ) قابلة للتطبيق تطبيقاً مباشراً على دراسة المشكلات الإمبريقيّة. ويلاقى هذا المشروع - في رأى كثير من المنظرين المعاصرين المشايخين له - تحدياً متزايداً من جانب التنظير التجريدي الذي يبعد نفسه عن القضايا الأساسية التي تظهر في مجالات البحث الإمبريقي. وقد كان هذا هو موقف شافنيز الذي تعبر عنه بقولها: "ترتبط نظرية علم الاجتماع بالبحث ارتباطاً تاماً. وتسجن هذه النظرية نفسها عندما تنزلق إلى المناقشات الإستمولوجية والأنطولوجية المجردة لقضايا مثل الفعل / الوحدات الصغرى أو البناء / الوحدات الكبرى". واحتجاجاً على ذلك حددت شافنيز للنظرية مهمة تطوير مجموعة متنوعة من الأدوات العملية (المقولات التفسيرية العامة والمفاهيم التي تتضمنها) التي يمكن للباحث أن يختار من بينها ما يكون أكثر عوناً له في حل أية مشكلة إمبريقيّة معينة. وقد جعلت شافنيز هذا المشروع في صدارة اهتماماتها من خلال طرحها "نظرية بنائية انتقائية" عن أسباب التدرج الطبقي على أساس النوع الاجتماعي.

وتجسد كتابات بيير بورديو أكثر الحالات التفصيلية لهذا المشروع. ويرفض بورديو "النزعة التنظيرية الجوفاء"؛ أى الخطاب المبرمج العام الذي يركز هدفه الوحيد على النظريات التجريدية الأخرى، ولا يريد أن يلطخ يده بالبحث الإمبريقي. وينحصر مشروع بورديو في تطوير مجموعة من الأدوات والإجراءات المفاهيمية لتفسير الظواهر ونقل المعرفة من مجال بحثي إلى آخر. ومع ذلك لا يتصور بورديو - عكس غيره من مشايخي هذا المشروع - هذه الأدوات على أنها مجموعة عامة انتقائية تناسب أغراضاً محددة. وركز بورديو بدلاً من ذلك على مجموعة محددة من المفاهيم أكثرها ذيوعاً هي: الطابع الاجتماعي الثقافي Habitus، وطاقت النوازع Ensemble of Dispositions نحو الفعل والإدراك اللذين يحدثان من داخل الفاعلين الاجتماعيين، والمجال Field؛ أى ترتيب العلاقات بين الأوضاع الاجتماعية، أو الحيز البنائي الذي تترعرع فيه الصراعات الاجتماعية. بإصراره على العلاقة ثنائية الاتجاه بين الطابع الاجتماعي الثقافي والمجال سعى بورديو إلى تجاوز التناقض الفكري العتيق بين النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية، وذلك بدمج تحليل خبرات الفاعلين الاجتماعيين من جهة وتحليل الأبنية الاجتماعية التي تجعل هذه الخبرات ممكنة في الواقع من جهة ثانية في نموذج واحد معاً. ولم يفترض بورديو أن هذا النموذج بمثابة "منظومة" عامة أو "خطاب" عام عن العالم.

الاجتماعى، ولكنه "آلة مؤقتة للبحث" تظهر جدواها من عدمه فى العمل العلمى الذى تساعد فى إنتاجه.

(٢) **الموالمفة بين المداخل النظرية المتعددة:** ينهض هذا المشروع على الإيمان الراسخ بأنه قد أصبح من الممكن الآن تحقيق موالمفة بين الاتجاهات النظرية المتباعدة. ويرى بعض المنظرين أن هذه الموالمفة تمضى قدماً الآن، ويرى آخرون أن هذه الموالمفة فرصة ثمينة ينبغي استثمارها.

وقد تنبأ ريتزر منذ عقد مضى بقدوم عصر الموالمفة النظرية، ويمكن أن نعثر اليوم على محاولات فى طريق الموالمفة فى اتجاهات متعددة: فى برنامج شيف لاحتواء المواقف النظرية المتعارضة فى العلوم الإنسانية فى مصفوفة أكبر باستخدام التحليل اللغوى المجهرى Micro للخطاب فى سياق كلى أشمل؛ وفى "نظرية العلاقات الاجتماعية والبناء الاجتماعى والتطور الاجتماعى"، وهى نظرية تاريخية - كبرى Macro طرحها رينسمان كموالمفة عامة تهدف إلى أن تقدم لدراسة المجتمع ما قدمه دارون لدراسة أصل الأنواع؛ وفى البيان الحديث لـ "إمبرباير" عن علم الاجتماع الاتصالى الذى يحاول ربط التحليلات: المجهرية والكبرى، وصياغة إطار مرجعى موحد يحقق التقارب السريع بين مختلف المفكرين الاجتماعيين.

كما لاقى مشروع الموالمفة النظرية ترحيباً من بعض الشخصيات البارزة فى النظرية المعاصرة، وأخص بالذكر منهم جوناثان تيرنر وأنتونى جيدنز. إذ يلح تيرنر فى اتخاذ الخطوات لكسر الحواجز التى تفصل بين المنظرين، والمضى قدماً فى اتجاه الموالمفة النظرية على المستويات: الكبرى والوسطى والصغرى خاصة المستوى الأخير الذى طرح عنده نظرية توليفية عن التفاعل الاجتماعى. وعلى الرغم من اعتراف تيرنر بأن الوصول إلى نظرية توحد بين جميع هذه المستويات أمر بعيد المنال؛ فإنه يعتقد بأن النظريات الموجودة عند كل مستوى تحتوى على عديد من الديناميات الفعالة للكون الاجتماعى، مما يجعل علم الاجتماع يقترب من النظرية العامة القابلة للاختيار الإمبريقي من النوع الموجود فى العلوم الطبيعية. ومع ذلك أبدى تيرنر مخاوفه من هزيمة هذا الهدف من جانب النزعة المضادة للوضعية عند منظرين آخرين أو من جانب الانقسامات النظرية المتعددة داخل علم الاجتماع.

ويؤيد الكسندر ما ذهب إليه تيرنر، حيث حاول الكسندر البرهنة على التقارب وشيك الحدوث بين جميع النظريات الرئيسية: الكلاسيكية والمعاصرة، معلناً أن الموالمفة النظرية - وليست المجادلة النظرية - هى المهمة التى تنتظر علماء الاجتماع اليوم.

واتبع جيدنز مساراً مشابهاً، حيث تنبأ بموالمفة ثورية جديدة تشق طريقها خارج

نطاق علم الاجتماع لتلائم المجتمع العالمي فى القرن الحادى والعشرين وتحل محل نظريات الماضى المتنافسة. وفى رأيه أن التقدم النظرى هو ركيزة هذا التغيير، وليس المقصود بالتراكم النظرى تراكم التعميمات كما هو الحال فى العلوم الطبيعية، وإنما المقصود به التجديد فى المفاهيم. وعند هذا الحد يعيب جيدنز على البنائية والوظيفية أنهما أغفلتا أن الفاعلين فى منتهى المهارة فى الإنجاز العملى للأنشطة الاجتماعية، كما انتقد أيضاً الظاهرانية والمنهجية الشعبية لتجاهلهما "الإلزام البنائى" الذى يؤثر فى هذه الأنشطة. وي طرح جيدنز "نظرية التشكيل البنائى" كبديل يقر بازدواجية البناء، أى أن الصفات البنائية للأنساق الاجتماعية (قواعدها ومواردها) هى وسيط ونتاج الممارسات التى تنظمها باستمرار، كما ينظر جيدنز فى مشكلة الظروف التاريخية الخاصة، والعلاقة بين النشاط المعرفى وإعادة الإنتاج الاجتماعى، تلك العملية التى تحدث بطريقة غير متعمدة.

(٣) صقل البرامج البحثية فى مجال النظرية: يرى بعض الباحثين أمثال برايان تيرنر أن تنافر النظريات التوليفية يجعل التجزؤ والانقسام – بدلاً من التراكم الناجح – هو الاتجاه السائدة فى نظرية علم الاجتماع. وهذه موجودة فى جيوب علم الاجتماع، والتى كان يطلق عليها "مدارس"، أى فى المجالات الملزمة بتوجه نظرى واحد يرتبط بالبحث الإمبريقي ارتباطاً وثيقاً. ويشكل التطور المستمر لهذه "البرامج البحثية النظرية" المشروع الرئيسى الثالث فى مجال النظرية المعاصرة.

وتعد نظرية الاختيار الرشيد أبرز هذه المداخل. ويعمل أنصار هذه النظرية حالياً على دمج البناء الاجتماعى فى نماذج الاختيار الفردى، واستخدام هذه النماذج فى مجالات كان يبدو من المستحيل تطبيقها عليها مثل دراسات الأسرة والدين والنوع الاجتماعى، والبحوث حول التضامن الاجتماعى.

وهناك مشروع نظرى مماثل يتم صقله حالياً فى سياق الماركسية التحليلية، وهنا يتم صقل النماذج الصورية (الشكلية) للاختيار الرشيد كجزء من برنامج لاختبار الأطروحات البنائية – الكبرى للماركسية على أسس صغرى Micro تحدد ميكانيزماتها العلية، ولتطبيق هذا المنظور على البحوث المتعلقة بالبناء الطبقي والاستغلال.

ومن الاهتمامات المعاصرة نظرية المكانات المتوقعة التى توصل جهودها لصوغ مفاهيم وقضايا عامة تصف وتفسر بناء المكانة للجماعات الصغيرة، والامتداد بهذه الأفكار إلى جوانب أخرى لعمليات التفاعل الجماعى، واختبار هذه الصياغات إمبريقياً.

وثمة مشروعات نظرية أخرى ذات صلة بالمداخل النظرية الصورية (الشكلية)، ومنها التفاعلية الرمزية التى نهضت من سباتها خلال الستينيات والسبعينيات، حيث تمر

حقائق الوجود الإنساني وهي أن البشر لهم أجساد، إلى الخطوات التي قام بها الكسندر، وأرشر، وكونور، وهول، وسومرز، وسويدلر، وفوثناو لتنبية المنظرين المعاصرين إلى الأبعاد البنائية والرمزية والمؤسسية للثقافة، وإلى الأعمال الحديثة في الأنثروبولوجيا والدراسات الثقافية.

وفي موضع آخر دعا تيرنر S. Turner وكاميك إلى إعادة الاهتمام بالفعل الاعتيادي Habitual Action، حيث نجد تيرنر يهاجم مفهوم الممارسات الاجتماعية، ونرى كاميك يدافع عن علم اجتماع أشكال الفعل أو علم اجتماع الممارسات. ودعا منظرون آخرون إلى الانهماك النظري بمراجعة مفاهيم الذات (سيدلر) والعاطفة وعدم الرشد (كامبل وشيف وسيكا).

ويعد مفهوم الفعل الاتصالي (أو التواصل) ⁽¹⁾ عند هابرماس من الجهود الرائدة في سياق المشروع الخامس. كما يعد "واقع التمايزات" Reality of Differences أوضح بؤر الاهتمامات الحالية لنظرية علم الاجتماع. ويعرف كالهون واقع التمايزات بأنه المشروع الأساسي والملح لتطوير طرق جادة لدراسة التمايزات الفئوية الرئيسية مثل النوع الاجتماعي، والأعراق، والإثنية، والجنسية Sexuality، واللغة، والطبقة، والإقليم، والأمة. ومن بين هذه التمايزات نال موضوع النوع الاجتماعي الاهتمام الأكبر مع الهجوم الضاري الذي شنته عالمات النسوية على نظرية علم الاجتماع.

(٦) الانشغال بالأفكار النظرية الماضية: يختلف أنصار المشروعات السابقة اختلافاً واضحاً في اتجاههم نحو الضرب السادس من ضروب النشاط النظري، ويقصد به تحليل الأفكار النظرية المهمة العديدة الموجودة في كتابات المفكرين الاجتماعيين من الماضي، وهو مشروع يجمع بين المنظرين الذين يعملون على تطوير بعض هذه المشروعات المعاصرة من ناحية، والعلماء الذين ابتعدوا نسبياً عن هذه المحاولات من ناحية ثانية.

ويتسع مجال العمل الذي يندرج تحت هذا المشروع اتساعاً شديداً. ولقد شهدت السنوات الحديثة طوفاناً من البحوث حول أبرز المنظرين الكلاسيكيين (كونت، وسبنسر، وماركس، ودوركايم، وفبير، وزيمل، وميد)، ناهيك عن إحياء نظرياتهم، مثلما هو الحال في الفيررية الجديدة. كما تزايد الاهتمام بأفكار شخصيات معاصرة مثل برسونز، ومانهايم، وميرتون، وجارفينكل، وبأعمال رائدات علم الاجتماع (مثل هاريت مارتيديو)، والمفكرين من أصول أفريقية، وطائفة منسية من المنظرين أشهرهم نوربرت إلياس.

وتتطلب الدراسات ضمن هذا المشروع من ادعائين أولهما نفى مؤداه أن الماضي يحتوى على مفاهيم وتعميمات تستحق الاستعادة والاستخدام من أجل التصدي للمسائل

البحثية المعاصرة، وثانيهما ادعاء غير نفعي هو أن الحوار مع العقول العظيمة من خلال كتابات ذات نسيج علمي بسيط يعد خبرة مهمة.

(٧) **تشخيص الأوضاع الاجتماعية المعاصرة:** يشكل الواقع الاجتماعي الراهن – وليست الأفكار النظرية الماضية – محور اهتمام المشروع السابع. وينيط هذا المشروع بنظرية علم الاجتماع مهمة أن تقدم لأواخر القرن العشرين، والقرن الحادي والعشرين ما قدمه المنظرون الكلاسيكيون لعصرهم، وهذا ما يتطلب الآن تمحيصاً دقيقاً، أى تحليل ماهية الحداثة ودينامياتها، والقوى الاجتماعية التي تشكل الحياة الإنسانية في الفترة الحالية.

ومن أبرز المنظرين في هذا المشروع هابرماس (الفعل الاتصالي)، ولومان (نظرية النظم)، وجيدنز (نظرية التشكيل البنائي)، وجيدنز وألبروف (العولمة)، وسكوير (نظرية الممارسات عبر الحدود القومية)، وماير وزملاؤه (نموذج الدولة القومية في سياق المجتمع العالمي).

واهتم المنظرون في أعمال أخرى بمجال الحياة العامة (كالهون)، والسياسة (كالهون)، وانهيار المعسكر الشيوعي (أوفى)، وانحسار أيديولوجية النزعة الإصلاحية الليبرالية (والرشتاين)، والشكوك حول وضوح العالم الاجتماعي وتشكله (واجنر)، والمناظرات حول المواطنة (تومر ولاكلو)، وطبيعة الرأسمالية المعاصرة (لاش)، والثقافة (بومان وبيل) – كل ذلك من أجل التواصل الفكري مع الخصائص المميزة للحقبة التاريخية الراهنة.

(٨) **فناء نظرية علم الاجتماع:** مع اهتمام المنظرين بملامح العصر الحالي ظهر مشروع مختلف تمام الاختلاف – مشروع مضاد – يتمثل في الاقتراحات المتعلقة بإعلان وفاة مشروع نظرية علم الاجتماع. وتطالب هذه الاقتراحات عموماً بتطوير متعدد المداخل لانساق تفسيرية نقدية علمية غير اجتماعية. وتستند هذه الاقتراحات على قبول هجوم ما بعد الحداثة على النظرية العلمية – الاجتماعية، وعلى حقيقة ما هو اجتماعي.

وقد أعلن ليمرت تحديه للنظرية، حيث استخدم الانتقادات المعرفية (الإبستمولوجية) لنظرية ما بعد الحداثة ليزعم أنه أياً ما تكون النظرية الاجتماعية اليوم، فإن لديها خيارات ضئيلة لقبول أو تجنب أو رفض الشكوك الجوهرية والمتواصلة حول المفردات النهائية المتاحة للاستخدام في الحديث عن العالم الاجتماعي.

وشن سيدمان هجوماً مماثلاً على نظرية علم الاجتماع لطموحاتها نحو العمومية والشمولية، مع ملاحظة أنه لما انتزع منظرو ما بعد الحداثة قناع الامتياز المعرفي عن نظرية علم الاجتماع، بدت النظرية العلمية – الاجتماعية كقوة اجتماعية وقعت في شرك سجلات ثقافية وسياسية معينة. وهذا النوع من نظرية علم الاجتماع ينبغي إحلاله

بمجموعة متنوعة من النظريات الاجتماعية لا تدعى أنها تكتشف اللغة الحقيقية التي تعكس الكون الاجتماعي. ويحتاج المنظرون في علم الاجتماع إلى تحريك هذا العلم بعيداً عن دوره التاريخي كعلم، والانفتاح على رؤى حول ما هو اجتماعي من النظرية النسوية، ودراسات ما بعد الاستعمار، ونظرية الورطة Queer Theory وما إلى ذلك.

(ج) كتاب ريتشارد شيفر بعنوان "علم الاجتماع" في طبعته السابعة الصادرة عام ٢٠٠٢^(١). وقد اخترت منه الفصل الأول، وجعلت عنوانه "من علم الاجتماع النظري إلى علم الاجتماع التطبيقي والإكلينيكي" ليشكل الفصل الخامس في هذا الكتاب المترجم. وأود الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب الذي ألفه شيفر يجسد الملامح العامة التي تميز المؤلفات الأمريكية في المدخل إلى علم الاجتماع. وأبرز تلك الملامح الانطلاق من مفهوم الخيال السوسيولوجي عند ميلز في تقديم علم الاجتماع للطلاب الذين يدرسون هذا العلم لأول مرة. وتنتطبق نفس الملاحظة على كتاب مايك أودونيل الذي سبقت الإشارة إليه في بداية هذه المقدمة، مما يوحي بإمكانية تعميمها على المؤلفات البريطانية في المدخل إلى علم الاجتماع.

واكتفى هنا بالتقاط ما أراه مهماً في الفصل المترجم من كتاب شيفر، وألخص ذلك في ثلاث نقاط هي:

(١) يعكس علم الاجتماع المعاصر الإسهامات المتعددة للمنظرين الأوائل. فعندما يتطرق علماء الاجتماع لدراسة موضوعات مثل الطلاق، وتعاطي المخدرات، والطوائف الدينية، فإنهم يعتمدون على الآراء النظرية لرواد هذا العلم. ويستطيع القارئ المتمعن أن يسمع صوت كونت ودوركايم وفيبر وماركس وكولي وأدمز وغيرهم يتحدثون عبر صفحات البحوث المعاصرة.

(٢) أن علم الاجتماع تجاوز الحدود الفكرية للمنظرين في أوروبا وأمريكا الشمالية. وتأتى الإسهامات إلى علم الاجتماع اليوم من علماء الاجتماع الذين يقومون بدراسة السلوك الإنساني والبحث فيه في أجزاء أخرى من العالم.

(٣) أن المؤلفات الحديثة في علم الاجتماع بدأت تلتفت إلى جهود رائدات هذا العلم^(٢)، وأبرزهن هاريت مارتينييو (١٨٠٢-١٨٧٦) التي ترجمت بعض أعمال كونت إلى

() R. T. Shaefer. Sociology. Seventh Edition. Boston: McGraw Hill, PP. - .

P. Lengermann & J. Neibrugge-Brantley. "Contemporary Feminist : () Theory" In G. Ritzer, Contemporary Sociological Theory, nd ed., New York: McGraw-Hill, Inc., , PP. - .

اللغة الإنجليزية. وكانت مارتينيو مصلحة اجتماعية بحكم لقبها كعالمة اجتماع. وقدمت مارتينيو ملاحظات نافذة عن العادات والممارسات الاجتماعية في وطنها (بريطانيا) والولايات المتحدة. وفي كتابها المعنون "المجتمع في أمريكا" - الذي صدر عام ١٨٣٧ - قامت بدراسة الدين والسياسة وتربية الأطفال والهجرة الوافدة في هذه الأمة الناشئة. وقد أولت مارتينيو اهتماماً خاصاً بالتمايزات بين الطبقات الاجتماعية، وب عوامل مثل النوع الاجتماعي والأعراق.

وأكدت كتابات مارتينيو على التأثير المحتمل للاقتصاد والقانون والتجارة والسكان على المشكلات الاجتماعية للمجتمع المعاصر في أيامها. وعبرت مارتينيو عن رأيها بوضوح دفاعاً عن حقوق المرأة، وتحرير العبيد، والتسامح الديني، وفي رأيها أن المفكرين والعلماء لا ينبغي أن يقتصروا على دراسة الأوضاع الاجتماعية، بل عليهم أن يتحركوا - عن اقتناع - بطريقة تفيد المجتمع. واتساقاً مع هذا الرأي قامت مارتينيو بإجراء بحوث عن طبيعة عمل المرأة، وأشارت بضرورة إجراء بحوث أخرى عن هذه القضية المهمة.

(د) كتاب جورج ريتزر "النظرية المعاصرة في علم الاجتماع" في طبعته الثانية الصادرة عام ١٩٨٨^(١). وترجمت من هذا الكتاب ثلاثة فصول تشكل الفصول: السادس والسابع والثامن من هذا الكتاب المترجم. ويرى محمد الجوهري^(٢) أن هذا الكتاب يعد أفضل عرض معاصر للموقف النظري الراهن لعلم الاجتماع، لم يدع شاردة ولا واردة إلا أحصاها، برؤية متكاملة، ونظر ثاقب، وأسلوب فريد يبتعد عن السرد وعن الحياد، وهما معاً من أخطر عيوب كتب التاريخ للعلوم والنظريات. فالكتابة الباهتة عن أفكار الآخرين وآرائهم تمثل معاناة للقارئ، ولا تترك في الغالب بصمة على رؤيته وتكوينه. أما جورج ريتزر فقد كتب عن كل من نعرفهم كتابة صادقة أمينة، ولكنها جديدة مثيرة.

وأبدأ بالفصل السادس وعنوانه "مختصر بتاريخ نظرية علم الاجتماع: السنوات الحديثة"، وفيه يستعرض ريتزر التطورات التي حدثت في هذه النظرية في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين مع إشارة خاصة إلى التطورات في الولايات المتحدة. ويناقش ريتزر في مستهل هذا الفصل بدايات النظرية الأمريكية في علم الاجتماع (الأبعاد السياسية لبدايات علم الاجتماع الأمريكي، والتغير الاجتماعي والتيارات الفكرية المؤثرة في هذه البدايات، ثم مدرسة شيكاغو). وينتقل ريتزر بعد ذلك

() G. Ritzer. Contemporary Sociological Theory. nd ed., New York: McGraw-Hill, Inc.,

إلى مناقشة ملامح نظرية علم الاجتماع حتى منتصف القرن العشرين، حيث يستعرض ظهور مدرسة هارفارد والمدارس الجامعية والوظيفية البنائية، وأقول مدرسة شيكاغو، والتطورات فى النظرية الماركسية. وتحليل واقع نظرية علم الاجتماع منذ منتصف القرن العشرين حتى الوقت الحاضر، يناقش ريتزر الوظيفة البنائية بين الصعود والهبوط، وعلم الاجتماع الراديكالى فى أمريكا (ميلز)، وتطور نظرية الصراع، وبزوغ نظرية التبادل، والتحليل المسرحى (إرفنج جوفمان)، وتطور علوم الاجتماع الإبداعية (علم الاجتماع الظاهراتى، والمنهجية الشعبية، وعلم الاجتماع الوجودى)، وبزوغ نظرية النظم وأولها، والنظرية النسوية، والبنوية وما بعد البنوية، والوظيفية الجديدة، والربط بين النظريات: الكبرى والصغرى.

ويخصص ريتزر **الفصل السابع - وعنوانه "التطورات الحديثة فى نظرية علم الاجتماع"** - لمناقشة عدد من النظريات التى لم تتم دراستها بالتفصيل فى الفصل السادس. ويبدأ ريتزر بمناقشة نظرية الفعل عند بارسونز ومشكلاتها، ثم يستعرض الأعمال الحديثة فى نظرية الفعل خاصة نظرية النظم. ثم ينتقل ريتزر بعد ذلك لمناقشة البنوية، حيث يناقش جذور البنوية فى علم اللغة، والبنوية الأثنروبولوجية عند كلود ليفى-شترأوس، والماركسية البنائية، والبدائل السوسيولوجية الأخرى عن الماركسية البنائية وأهمها بنوية جوفمان، ثم يستعرض أفكار ميشيل فوكوه (ما بعد البنوية). ويستطرد ريتزر فى الحديث عن النظرية البنائية عند بيتر بلاو، ونظرية شبكة العلاقات. ويختتم هذا الفصل بمناقشة علم الاجتماع الوجودى (الوجودية والظاهراتية) مبيناً اهتماماته الرئيسية وأفاقه المستقبلية.

ويناقش ريتزر فى **الفصل الثامن - وعنوانه "ظهور مشكلة رئيسية فى النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع: الربط بين النظريات الكبرى والصغرى"** - الشواهد العديدة التى ظهرت فى الثمانينيات على تزايد التلاحم فى نظرية علم الاجتماع، ذلك التلاحم الذى يتمركز حول ظهور إجماع ضخم على أن المشكلة الرئيسية فى نظرية علم الاجتماع هى دراسة العلاقة بين النظريات الكبرى (الماكروسكوبية) والصغرى (الميكروسكوبية) أو المستويات: الكبرى والصغرى للواقع الاجتماعى. ويركز ريتزر على أبرز المنظرين المعاصرين الذين تصدوا لهذه المشكلة، ومنهم أنتونى جيدنز (نظرية التشكيل البنائى)، ويورجين هابرماس (تكامل نظريتى الفعل والنظم)، وجيفرى الكسندر (علم الاجتماع متعدد الأبعاد)، وراندال كولينز (الأسس الصغرى لعلم اجتماع الوحدات الكبرى)، وميشيل هيشتر (مدخل الاختيار الرشيد إلى العلاقات الصغرى - الكبرى)، وجيمس كولمان (تكامل الفعل والنسق)، وبارى هيندس (تكامل النزعة الإنسانية والبنوية)، وريتشارد إيمرسون وتلاميذه خاصة كارين كوك (نظرية تكاملية فى التبادل) ورونالد

بيرت (نظرية بنائية للفعل)، وريمون بودو (النزعة الفردية المنهجية).

(هـ) كتاب أنتونى جيدنز "علم الاجتماع" فى طبعته الثالثة الصادرة عام ٢٠٠٠^(١). واخترت من كتاب جيدنز الفصل الحادى والعشرين الذى يشكل الفصل التاسع من هذا الكتاب المترجم.

ويعد أنتونى جيدنز النجم المتألق على مسرح علم الاجتماع فى عالم اليوم، هو العالم الذى يجلس على رأس مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، وهو العالم المتابع – بالرأى والمشورة والتوجيه – لسياسات وفكر الطريق الثالث^(*)، وهو مستشار تونى بليير (رئيس وزراء بريطانيا الحالى)، وهو من قبل ومن بعد صاحب الإنتاج المتميز فى علم الاجتماع، إن من حيث الكم أو من حيث الكيف. وتتسم اغلب أعمال جيدنز بمتابعة ذكية متعمقة للواقع الاجتماعى اليومى المعاش^(١).

وأحسب أن أهم ما طرحه جيدنز فى هذا الفصل يمكن تلخيصه فى ثلاث نقاط أولها: التفرقة الدقيقة التى أقامها بين الاتجاهات النظرية Theoretical Approaches والنظريات Theories فى علم الاجتماع، وثانيها: معالجته البارعة للمعضلات النظرية التى واجهها ولا يزال يواجهها علم الاجتماع ومحاولات التنظير فيه، وثالثها: تقييمه لنظرية فييرر التى ضمنها كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، من حيث استيفائها عدة محكات مهمة فى التفكير النظرى فى علم الاجتماع.

أولاً: يعرف جيدنز الاتجاه النظرى بأنه "منظور حول الحياة الاجتماعية مشتق من تراث نظرى محدد. ويشتمل التراث النظرى الرئيسى للنظرية فى علم الاجتماع على: الوظيفية، والبنوية، والتفاعلية الرمزية، والماركسية. وتقدم الاتجاهات النظرية المنظورات العامة التى يعمل من خلالها علماء الاجتماع، ومن ثم يؤثرون فى مجالات بحوثهم، فضلاً عن الأساليب التى يتم بها تحديد المشكلات ومعالجتها". وبذلك يقصد جيدنز بالاتجاهات النظرية التوجهات العامة الرحبة نحو موضوع علم الاجتماع.

أما النظرية فهى "محاولة تحديد الخصائص العامة التى تفسر الانتظام فى الوقائع الملاحظة. ويشكل بناء النظرية مكوناً جوهرياً من مكونات كافة الأعمال السوسولوجية. وبينما تميل النظريات إلى الارتباط بتوجهات نظرية أرحب، فإنها تتأثر كذلك تأثراً شديداً

() A. Giddens. Sociology, Op. Cit., PP.

(*)

()

()

بنتائج البحوث التي تعمل على توليدها". واستناداً إلى هذا التعريف تكون النظريات محدودة التوجه، وتمثل محاولات لتفسير طائفة محددة من الأوضاع الاجتماعية أو أنماط حدوثها. وعادة ما تصاغ النظريات باعتبارها جزءاً من عملية البحث، وتطرح هذه النظريات بدورها المشكلات التي يتعين على الباحث دراستها. ومن الأمثلة على النظريات نظرية دوركايم في الانتحار.

ثانياً: يرى جيدنز أنه على الرغم من أن كل اتجاه من الاتجاهات النظرية الأربعة له مؤيدون يدافعون عنه ويلتزمون به، فإن هناك جوانب واضحة يكمل بها كل اتجاه الاتجاهات الأخرى. ومن ثم نستطيع – إذن – أن نعتد إلى حد ما على جميع هذه الاتجاهات في مناقشة مشكلات بعينها في علم الاجتماع⁽¹⁾، إلا أن هناك تعارضاً واضحاً بين هذه الاتجاهات في جوانب معينة.

وتوجد عدة معضلات نظرية أساسية – وهي الأمور التي يتواصل بشأنها الجدل والخلاف – يلفت نظرنا إليها هذا التعارض في وجهات النظر. وتتعلق بعض هذه المعضلات بقضايا عامة تتصل بكيفية تفسير الأنشطة الإنسانية والنظم الاجتماعية. ويناقش جيدنز أربع معضلات نظرية في علم الاجتماع على النحو التالي:

(1) تتعلق المعضلة الأولى **بالفعل الإنساني والبناء الاجتماعي**. والقضية هنا على النحو التالي: إلى أي حد نعتبر فاعلين مبدعين نسيطر بفاعلية على ظروف حياتنا؟ أو: هل معظم ما نفعله نتيجة لقوى اجتماعية عامة لا سيطرة لنا عليها؟ وقد أدت هذه القضية – ولا تزال – إلى حدوث انقسام بين علماء الاجتماع؛ حيث تؤكد التفاعلية الرمزية على المكونات الفاعلة والإبداعية للسلوك الإنساني، في حين تؤكد الاتجاهات الثلاثة الأخرى (باستثناء بعض أشكال الماركسية) على الطبيعة الكابحة للمؤثرات الاجتماعية على أفعالنا.

وفي تقييمه لهذه المعضلة يرى جيدنز أنه ليس من المرجح أن يُحسم هذا الجدل حسماً تاماً منذ أن وجد مع المحاولات الأولى المنتظمة من جانب المفكرين المحدثين لتفسير السلوك الإنساني، هذا بالإضافة إلى أنه جدل لا يقتصر على علم الاجتماع وحده، وإنما يشغل أيضاً بالعلماء في شتى مجالات العلوم الاجتماعية.

ويذهب جيدنز – انطلاقاً من نظريته عن التشكيل البنائي – إلى أن الطريق المباشر

()
=
:
()
.

لتجسير الفجوة بين الاتجاه "البنائى" واتجاه "الفعل" هو أن نعترف بأننا نشكل البناء الاجتماعى ونعيد تشكيله بفاعلية خلال مسار أنشطتنا اليومية.

(٢) تتعلق المعضلة النظرية الثانية بالإجماع والصراع فى المجتمع، حيث تؤكد بعض الرؤى فى علم الاجتماع - وكثير منها يرتبط بالوظيفية - على النظام والانسجام الملازمين للمجتمعات الإنسانية. ويرى من يعتقدون هذه الرؤية - مثل تالكوت بارسونز - أن الاستمرار والإجماع من أبرز خصائص المجتمعات على الرغم من تغيرها بمرور السنين. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يؤكد علماء اجتماع آخرون - خاصة أولئك الذين تأثروا بماركس أو فيبر تأثراً قوياً - على انتشار الصراع الاجتماعى، ويرون أن المجتمعات ميتالية بالانقسامات والاضطرابات. وفى رأيهم أنه من قبيل الوهم أن ندعى أن الناس ينزعون إلى المعيشة فى سلام مع بعضهم البعض معظم الوقت. وعندما لا تكون هناك مواجهات صريحة بينهم، تظل هناك انقسامات حادة فى المصالح قابلة للتحويل فى بعض الأحيان إلى صراعات نشطة.

وفى تقييمه لهذه المعضلة يرى جيدنز أنه ليس من المرجح أن ينتهى هذا الجدل النظرى على نحو تام شأنه فى ذلك شأن الجدل حول البناء أم الفعل. ويضيف جيدنز أنه ليس ثمة تعارض على الإطلاق بين هذين الموقفين المتعلقين بالإجماع والصراع، حيث يوجد فى جميع المجتمعات نوع ما من الاتفاق العام على القيم، ومن المؤكد أن جميعها تشهد صراعاً. ويتعين علينا - كقاعدة عامة للتحليل فى علم الاجتماع - دراسة الصلات بين الإجماع والصراع داخل النسق الاجتماعى. كما يعد مفهوم الأيديولوجيا مفيداً يساعد فى تحليل العلاقات المتبادلة بين الصراع والإجماع.

(٣) هناك معضلة نظرية ثالثة لم تتطرق إليها على الإطلاق جميع الاتجاهات التقليدية فى علم الاجتماع، ولكنها معضلة لم يعد بالإمكان تجاهلها. وتلك هى مشكلة كيفية دمج فهم مقنع للنوع الاجتماعى Gender فى التحليل السوسولوجى. وقد كانت جميع الشخصيات البارزة فى التطور الماضى لنظرية علم الاجتماع من الرجال^(١)، ولم يعر هؤلاء المنظرون فى كتاباتهم أى اهتمام بحقيقة أن الكائنات الإنسانية متجنسة Genderd. ويبدو

()

-) : (-) (-) (-)

- McDonald, L. Women Founders of the Social Sciences. Ottawa, Can.: Carlton University Press,
- Lengermann, P.M. & J. Niebrugge-Brantley (ed.). The Women Founders: Sociology and Social Theory (-), A Text With Readings. London: McGraw-Hill,

الأفراد فى أعمال هؤلاء المنظرين كما لو كانوا "حياديين"؛ فهم "فاعلون" تجريديون غير متميزين إلى نساء ورجال. وما دام أنه لا يوجد فى حوزتنا معرفة نظرية غزيرة بنى عليها فى ربط قضايا النوع الاجتماعى بالصورة الأكثر رسوخاً فى الفكر النظرى لعلم الاجتماع، فإن هذه المشكلة ربما تكون أصعب المشكلات الأربعة التى يواجهها علماء الاجتماع فى الوقت الراهن.

ومن المعضلات النظرية الرئيسية المرتبطة بالنوع الاجتماعى ما يلى: هل سنتعامل مع النوع الاجتماعى كقناة عامة فى تفكيرنا السوسولوجى؟ أم أننا فى حاجة إلى تحليل قضايا النوع الاجتماعى بتفكيكها إلى مؤثرات أكثر خصوصية تؤثر فى سلوك النساء والرجال فى سياقات مختلفة؟ ويعبر جيدنز عن ذلك بصياغة أخرى وهى: هل توجد خصائص تفصل بين الرجال والنساء فى جميع الثقافات من حيث هويتهم وسلوكهم الاجتماعى؟ أم هل يمكن تفسير الفروق النوعية Gender Differences فى ضوء الفروق الأخرى التى تقسم المجتمعات مثل التقسيمات الطبقية؟.

ومن المؤكد أن بعض المهام التفسيرية الرئيسية لعلم الاجتماع فى المستقبل – فى رأى جيدنز – سوف تتوقف على التعامل مع هذه المعضلة تعاملاً بارعاً.

(٤) لا تتعلق المعضلة الرابعة كثيراً بالخصائص العامة للسلوك الإنسانى أو بخصائص المجتمعات ككل، ولكنها تتعلق بملامح التطور الاجتماعى الحديث. وتتصل هذه المعضلة بتحديد العوامل المؤثرة فى نشأة المجتمعات الحديثة وطبيعتها. ويرى جيدنز أن هذه المشكلة نابعة من الاختلاف بين الاتجاهات الماركسية وغير الماركسية. وتتمحور هذه المعضلة حول القضية التالية: إلى أى مدى تشكل العالم الحديث بالعوامل الاقتصادية التى حددها ماركس خاصة ميكانيزمات المشروع الاقتصادى الرأسمالى؟. والسؤال البديل عن ذلك هو: إلى أى مدى شكلت المؤثرات الأخرى (كالعوامل الاجتماعية والسياسية أو الثقافية) التطور الاجتماعى فى العصر الحديث؟.

ثالثاً: يذهب جيدنز إلى أن نظرية فيبر حول أسباب النمو الرأسمالى فى الغرب – والتى ضمنها فى كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" – تستوفى عدة محكات مهمة فى التفكير النظرى فى علم الاجتماع. وهذه المحكات هى:

(١) أنها ضرب من ضروب التفكير المضاد للبداهة، حيث تطرح تفسيراً يتعارض مع المعرفة الفطرية، وبالتالي طورت هذه النظرية اتجاهاً جديداً حول القضايا التى تغطيها. ولم يفكر المؤلفون الذين سبقوا فيبر إلا تفكيراً محدوداً حول إمكانية أن تلعب المثل الدينية دوراً أساسياً فى نشأة الرأسمالية.

(٢) أن نظرية فيبر ليست تفسيراً "بنائياً" محضاً أو تفسيراً "فردياً" خالصاً. وقد كان

النمو المبكر للرأسمالية نتيجة غير مقصودة لما يتطلع إليه رجال الأعمال المتطهرون، حيث تطلعوا إلى أن يعيشوا حياة طاهرة وفق مشيئة الله.

(٣) أن هذه النظرية تقدم فهماً لشيء يبدو محيراً، أى: لماذا يرغب الأفراد أن يعيشوا مقتصدين فى إنفاقهم فى الوقت الذى يبذلون فيه قصارى جهدهم لتراكم الثروة؟

(٤) أن النظرية تستطيع تسليط الضوء على الظروف التى كانت وراء نشأة هذه النظرية من أجل فهم تلك الظروف. وقد شدد فيبر على أنه لا يحاول سوى فهم النشأة الأولى للرأسمالية الحديثة. ومع ذلك يبدو من المنطقى أن نفترض أن القيم المناظرة للقيم التى غرستها النزعة التطهيرية ربما تكون متضمنة فى مواقف أخرى للنمو الرأسمالى الناجح.

(٥) أن النظرية الجيدة ليست فقط هى النظرية التى تبين صدقها، وإنما أيضاً هى النظرية التى تكون مثمرة فى طرحها لأفكار جديدة واستثارتها للقيام بمزيد من الأعمال البحثية. ومن المؤكد أن نظرية فيبر كانت ناجحة من هذا الجانب، حيث كانت ينبوعاً فيما بعد لعدد غزير من الأعمال فى مجال البحوث والنظرية.

(و) مقالة بين آجر عن علاقة النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة بعلم الاجتماع^(١). وتشكل هذه المقالة الفصل العاشر والأخير من هذا الكتاب المترجم.

ويناقد هذا الفصل الإسهامات النظرية الرئيسية للنظرية النقدية، وما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة. ويزعم آجر أن هذه النظريات الثلاثة طرحت رؤى مترابطة فى الغالب بشأن مثالب الوضعية، كما طرحت أيضاً طرقاً جديدة لتنظير المجتمعات المعاصرة ودراساتها. وهناك تطبيقات إمبريقية ونظرية لهذه المنظورات فى مجال البحث فى علم الاجتماع. وتشمل بعض هذه التطبيقات البحوث فى علم اجتماع الانحراف، والنوع الاجتماعى، ووسائل الاتصال، والثقافة.

وعلى الرغم من أن جميع هذه النظريات الثلاثة تشن هجوماً حاداً على الوضعية، فإنها تفتح الباب على مصراعيه أمام علم اجتماع إمبريقى يتأسس على افتراضات لا وضعية.

ويلخص آجر الإسهامات النظرية لكل من النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة على النحو التالى:

() Ben Agger. Critical Theory, Poststructuralism, Post-Modernism: Their Sociological Relevance. Annual Review of Sociology, Vol. , , PP.

(١) تقترح النظرية النقدية طرقاً جديدة لتنظير دور الدولة والثقافة فى مرحلة الرأسمالية المتقدمة. وتجسد مؤلفات هوركهايمر (جدل التنوير) وماركيوز (الإنسان ذو البعد الواحد) وهابرماس (نظرية الفعل الاتصالي) أطروحات النظرية النقدية تجسيدا واضحا.

(٢) تقدم نظرية ما بعد البنيوية عند فوكوه رؤى مفيدة فى دراسة الضبط الاجتماعى؛ لأن كتابه "النظام والعقاب" أعاد تنوير دراسة الجريمة والعقاب خاصة من زاوية ادعائه بان علم الإجرام خطاب / ممارسة يضيف معنى على طائفة المجرمين، مما أدى بالتالى إلى تطبيق هذا الادعاء من الزاوية العقابية على السلوكيات التى كان ينظر إليها على أنها مشروعة اجتماعياً أو يتم تجاهلها لأنها - ببساطة - سلوك شاذ. وقد ساعد فوكوه علماء الاجتماع على أن ينظروا فى الانحراف فى سياق الخبرات والمعانى التى تشكله. وتؤكد نظرية النظام عند فوكوه على المقاومة الصلبة التى يبديها الناس ضد المعاملة المتميزة.

(٣) تقدم نظرية ما بعد البنيوية عند ديريدا ونظرية ما بعد الحداثة عند بودريار إضافات قيمة إلى الدراسة السوسولوجية للخطاب، مما يثرى مجالات فرعية عديدة فى علم الاجتماع مثل علم اجتماع وسائل الاتصال الجماهيرى، وعلم اجتماع المعرفة، وعلم اجتماع العلم.

(٤) تقترح حركة النسوية المستندة إلى نظريتى ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية إجراء دراسات إمبيريقية عيانية عن تشكيل صور الخطاب - مثل الأفلام السينمائية - استناداً إلى أطروحات منبثقة من النوع الاجتماعى. وتركز الدراسات الثقافية النسائية بصفة خاصة على تباين أوضاع القوة بين النساء والرجال، تلك الأوضاع التى تؤثر فى كتابة الأعمال عن المرأة وقراءتها.

(٥) تطرح نظرية "الحركات الاجتماعية الجديدة" لهابرماس رؤى نظرية لدارسى الحركات الاجتماعية الذين يفتقرون إلى اتجاه نظرى أشمل يفسر مصدر هذه الحركات والآثار البنائية المترتبة عليها.

ويذهب آجر إلى أنه يتعين على علم الاجتماع أن يغير من طبيعته تغييراً جذرياً حتى يتسنى له تبنى هذه الاتجاهات النظرية الثلاثة (النظرية النقدية، ما بعد البنيوية، ما بعد الحداثة). ويبدو أن الدعوة إلى علم اجتماع ما بعد البنيوية وعلم اجتماع ما بعد الحداثة تعد - مستوى معين - بمثابة دعوة إلى الجمع بين نقيضين. إذ أن ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية - شأنها فى ذلك شأن النظرية النقدية - تقاوم اندماجها فى علم - أى علم الاجتماع - على درجة عالية من التباين والتدرج والتخصص، علم يحدد هويته أساساً

بالرجوع إلى علوم الاجتماع الأصلية لكونت ودوركايم وفيير الذين أسسوا الدراسة الوضعية للطواهر الاجتماعية، وفصلوا مهنة العلم عن السياسة. وتتساءل هذه الاتجاهات النظرية الثلاثة عن أحقية العلوم الأكاديمية – ومنها علم الاجتماع – فى أن تحتفظ ببقائها خاصة فى إطار الوضعية.

ويعيد أنصار النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة التفكير فى التعريف السائد لعلم الاجتماع، وذلك بتوسيع هذا التعريف. وهم – بذلك – يخاطرون بضياح هوية هذا العلم وتقسيم العمل والتخصص بداخله، إلا أنهم يضيفون بذلك منظوراً ثرياً حول الممارسات الأدبية والنظرية لعلم الاجتماع. ولم يتم بعد حسم القضية المتعلقة بما إذا كان علم الاجتماع سوف يشجع على البحث فى المسائل النظرية والسياسية التى تثيرها هذه النظريات الثلاثة أم لا.

كلمة شكر و عرفان

أوجه شكرى و عرفانى إلى أستاذى الجليل محمد الجوهري على تفضله بمراجعة هذا الكتاب المترجم. وقد استفدت كثيراً من هذه المراجعة، حيث تعلمت منها دروساً جديدة علىّ فى فن الترجمة إلى اللغة العربية ... فله منى كل التقدير ..

بقيت كلمة أخيرة أوجهها إلى طلاب قسم علم الاجتماع الذين يدرسون هذا الكتاب ضمن مقرر "النظرية الاجتماعية"، وهى أن يقرأوا الفصول التى يتضمنها هذا الكتاب قراءة متأنية وواعية، عسى أن تعينهم فى فهم القضايا المعاصرة فى نظرية علم الاجتماع.

والله ولى التوفيق،،

مصطفى خلف عبدالجواد

الفصل الأول

نظرية علم الاجتماع

من الاتجاهات الكلاسيكية إلى الاتجاهات المعاصرة (*)

مقدمة

علم الاجتماع هو الدراسة النظامية للمجتمعات. وتختلف هذه المجتمعات في الحجم من قبيلة صغيرة من قبائل الأمازون إلى المجتمع الغربي برتمته. ويدور الحديث اليوم عن المجتمع "العالمي" أو "الكوني" global. ويتألف المجتمع من أفراد ينتسبون إلى جماعات تختلف في حجمها من الأسرة على سبيل المثال إلى مجمل السكان في منطقة معينة. ويدرس علم الاجتماع التفاعل بين الذات (أو الفرد) والجماعات، وكذا التفاعل بين الجماعات وبعضها البعض. وتؤثر الذات في الجماعة (ومن ثم المجتمع)، كما تتأثر بهذه الجماعة. ويبدأ التفاعل بين الذات والآخرين (أو الآخر على الأقل) منذ الميلاد، ويظل مستمراً حتى الممات، أو بلغة أخرى، من المهد إلى اللحد؛ باعتبار أن الأفراد جزء من المجتمع.

ومن أهم إسهامات علم الاجتماع أنه يساعد الناس في فهم حياتهم على نحو أفضل، وذلك بتوضيح العلاقات بين الخبرات الشخصية والوقائع "الخارجية"، أو بين الذات والمجتمع. ومن ثم فإن فقدان الفرد لوظيفته أو إغلاق مدرسة في منطقة محلية ربما يُنظر إليها على أنها مشكلة فردية أو شخصية أو أنها مأساة لهذا الفرد، دون أدنى اعتبار للأسباب الكامنة وراء تلك المشكلات. ومن هنا يمكن لعلم الاجتماع أن يساعد في تفسير هذه الخبرات بالكشف عن المسؤول عنها (السياسة، أو المخططون، أو المستثمرون، أو النقابات العمالية)، وأن يوضح ما إذا كان ذلك يمثل جانباً من اتجاه اجتماعي في البطالة أو إغلاق المدارس أم لا.

ويصف تشارلز رايت ميلز (١٩١٦-١٩٦٢) العلاقات بين الذات والمجتمع في ضوء العلاقة بين "المشكلات الشخصية" – مثل فقدان الفرد لوظيفته أو إصابته بجرح في نزاع – و"القضايا العامة" مثل تزايد حدة البطالة أو الصراع بقوله:

"ربما تكون أفيد جوانب التفرقة التي ينشغل بها الخيال السوسيولوجي هي

(*)
Mike O'Donnell. Introduction to Sociology. th ed. Nelson, Surrey, U.K.,
, pp. - .

بين "المشكلات الشخصية للوسط الاجتماعي المباشر" و"القضايا العامة للبناء الاجتماعي". وهذه التفرقة تمثل أداة أساسية من أدوات الخيال السوسولوجي، وملحاً من ملامح جميع الأعمال الكلاسيكية في العلم الاجتماعي". (Mills, 1959: 1)

ويذهب ميلز إلى أن الخيال السوسولوجي مطلوب لإدراك الصلة بين الوسط الاجتماعي المباشر أو السياق الاجتماعي لحياة الفرد من جهة والتطورات الأشمل في المجتمع من جهة ثانية. ويضيف أن علماء الاجتماع يحاولون الربط بين البيوجرافيا (تاريخ حياة الشخص) والتغير والبناء الاجتماعيين، أو بين التاريخ وعلم الاجتماع. ويزعم ميلز أن علماء الاجتماع الكلاسيكيين – أمثال ماركس ودوركايم وفير – قد فعلوا ذلك دوماً. ومن الصدق أن نقول أن الفهم الأفضل لمحور "الشخصي / العام" – بلغة ميلز – هو هدف الخيال السوسولوجي.

وثمة مفاهيم أساسية في علم الاجتماع مثل الذات والتنشئة الاجتماعية والثقافة والقيم والمعايير والمكانة والدور، بالإضافة إلى البناء والتفاعل والقوة والسلطة والأيديولوجيا والمجتمع المحلي والاعتراب. وهذه المفاهيم الأساسية المذكورة – أو بلغة روبرت نيسبت "الأفكار المتكاملة" Unit Ideas – تعكس الاهتمامات الرئيسية لعلم الاجتماع. ومثلما ننظر إلى المبنى المشيد من عدد من القراميد كل قرميد على حدة، فإن مفاهيم علم الاجتماع تكون ذات فائدة محدودة إذا نظرنا إلى كل مفهوم لوحده منعزلاً عن بقية المفاهيم. وعندما تستخدم المفاهيم في بلورة النظريات تظهر جدواها في وصف وتفسير العمليات الاجتماعية. ومن ثم توجد عدة نظريات عن الاعتراب، وكذا نظريات متنوعة تركز على مفهوم المجتمع المحلي. وندقق فيما يلي بعضاً من القضايا النظرية الرئيسية في علم الاجتماع.

تأسيس علم الاجتماع: نظرية علم الاجتماع

علم الاجتماع هو بمثابة محاولة لفهم المجتمع. وأحد طرائق فهم موضوع هذا العلم أن ننظر في بعض المسائل الرئيسية التي يثيرها. ولا تزال المسائل والمشكلات التي أثارها مؤسسو علم الاجتماع هي في جوهرها المسائل والمشكلات التي يثيرها علماء الاجتماع اليوم. وندقق في عجالة أفكار هؤلاء المؤسسين بغرض إعطاء فكرة عن إطار علم الاجتماع ومجاله، ثم ننظر في بعض المسائل الرئيسية لهذا العلم. وهذا يمهد الطريق لاستعراض أهم المنظورات أو المداخل الأساسية في علم الاجتماع باعتبارها محاولات للإجابة عن تلك المسائل. ونختتم ذلك بمناقشة بعض الاتجاهات المعاصرة في علم

الاجتماع.

تأسيس علم الاجتماع الحديث: ماركس، دوركايم، فيبر

كان لماركس (١٨١٨-١٨٨٣) ودوركايم (١٨٥٨-١٩١٧) وفيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) تأثير مهم ومستمر على علم الاجتماع. وكان هؤلاء الثلاثة ضمن أول من نظروا في المجتمع بطريقة أصبحنا نطلق عليها "الطريقة السوسيولوجية".

وعلى الرغم من أن علماء الاجتماع المعاصرين أثاروا مسائل إضافية – وربما مختلفة – عن تلك التي أثارها ماركس وفيبر ودوركايم، فإن استمرار أهمية أعمال هؤلاء الثلاثة تعكس أمرين: أولهما أن المسائل العامة التي أثاروها تتشابه مع بعض المسائل التي يثيرها علماء الاجتماع اليوم، وثانيهما أن أطر التحليل والتفسير الاجتماعيين أو المنظورات السوسيولوجية التي ابتدعها هؤلاء المؤسسون تم تطويرها وتعديلها، ولكن لم يتم إحلالها إحلالاً كلياً. ومع ذلك فسوف نرى أن هناك مجموعة من المفاهيم الحديثة ذات صلة خاصة بالنصف الثاني من القرن العشرين وما بعده، وهي المفاهيم التي يشار إليها في بعض الأحيان بـ"الحداثة المتأخرة" Late Modernity.

سياق القرن التاسع عشر

تميز القرن التاسع عشر بأنه كان فترة تغيير سريع وضخم على غرار ما يحدث اليوم. فقد أدت الثورات الصناعية والسياسية – أو ما تعرف بالثورات الثنائية – إلى تفكك بنية المجتمع. فالثورات الزراعية أجبرت الفلاحين على هجر الأرض، ووفرت لهم الثورة الصناعية فرص العمل في المدن. وعاش عمال الصناع الجدد – بما فيهم النساء والأطفال – وعملوا في ظروف الاستغلال الحقيق. وعلى العكس منهم تنعمت الطبقة الوسطى من رجال الصناعة والتجارة والتمويل برغد العيش في ظل الازدهار الصناعي. كما ازدهرت الارستقراطية التقليدية المالكة للأرض بصفة عامة لما توارثوه من ميراث ضخم من الثروة والقوة من ناحية، ولأن كثيراً من أعضاء هذه الطبقة اتجهوا إلى الاستثمار في ظل التوسع الصناعي من ناحية ثانية.

ومن الناحية السياسية جاهدت الطبقة الوسطى الجديدة جهاداً ناجحاً لمشاركة الطبقة الارستقراطية في القوة. ففي بريطانيا استطاعت أن تكسب حق التصويت والانتخاب وغيرها من الحقوق السياسية بدون ثورة، في حين عايشت فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية قرناً من الاضطراب السياسي. ومع مرور السنوات تعالت الصيحات التي تؤكد الحقوق السياسية والعدل الاجتماعي للطبقة العاملة. وفي عام ١٨٤٨ اكتسحت

الثورة أوروبا، ولعبت الطبقة العاملة ومناصروها دوراً بارزاً في هذا الصدد. وقد شارك كارل ماركس بنفسه في انقلاب فاشل في ألمانيا في ذلك العام.

وانشغل ماركس ودوركايم وفيبر بالتغيرات الضخمة التي حدثت في أوروبا في حياتهم، وعملوا على سبر غورها. وعلى الرغم من اختلاف جنسياتهم (ماركس وفيبر الألمانيان، ودوركايم الفرنسي)، فإن مدى التغير ومجاله كان من النوع الذي جعلهم يواجهون نفس المشكلات تقريباً. وقد كان القرن التاسع عشر ساحة قتال بين نظامين في الحكم والحياة: القديم والجديد، التقليدي والحديث. ولا يزال التضاد والصراع بين التقليدي والحديث يمثل اهتماماً لعلم الاجتماع، جنباً إلى جنب مع دراسة العلاقات الطبقيّة. ولا تزال بريطانيا مغطاة بعباءة التقليدية: فما زالت تعرف النظام الملكي ومجلس اللوردات. يضاف إلى ذلك أن الصراع بين المجتمع الريفي التقليدي والمجتمع الصناعي الحديث تم تصديره جزئياً من أوروبا إلى العالم الخارجي، الذي تمثل فيه الدول النامية ساحة القتال الجديدة. ولذا فإن كتابات ماركس ودوركايم وفيبر ما زالت ذات صلة حية بكل هذه الأمور. وإذا كان المجتمع الغربي قد تجاوز منذ فترة قريبة التقليدية والحداثة إلى عصر ثالث، يطلق عليه "ما بعد الحداثة" أو "الحداثة المتأخرة"، فمن المؤكد أن عصر ما بعد الحداثة ولد في رحم الحداثة، ويجب علينا أن نفهم الحداثة أولاً حتى يتسنى لنا فهم ما بعد الحداثة.

ولم يكن ما يشغل هؤلاء المؤسسون الإخبار عن الزمن الذي عاشوا فيه أو تقديم تأويلات غير نظامية لأحداثه، بل تعمقوا فيما وراء ذلك في بحثهم عن تفسيرات. وفي سبيل ذلك أسسوا علماً جديداً هو علم الاجتماع. وقد حاول كل منهم بمفرده أن يطور طرائق لدراسة المجتمع والتغير الاجتماعي بما يساعد في تفسير كيفية قيام مجتمعاتهم التي عاشوا فيها بأداء وظائفها وتغيرها، وكذا تفسير طبيعة المجتمع وأدائه لوظائفه. وكان في اعتقاد هؤلاء المؤسسين أن المنهج العلمي سوف يساعدهم كثيراً في هذا المشروع. والحقيقة أنهم آمنوا إيماناً راسخاً بالعلم. ومنذ ذلك الحين يزعم كثير من علماء الاجتماع أن الناس - إلى جانب تأثرهم بالمجتمع - يساعدون أيضاً في تأسيسه إلى حد أبعد مما ذهب إليه ماركس ودوركايم دون فيبر. وانبثاقاً من إيمانهم بالعلم عكس مؤسسو علم الاجتماع روح العصر الذي عاشوا فيه. ويبدو أن النظرية العلمية الجديدة والمثيرة عن التطور لدى دارون - والتي قدمت تفسيراً بيولوجياً لأصل الإنسانية - جعلت ماركس وفيبر ودوركايم يسعون إلى تفسير الحياة الاجتماعية بلغة علمية مشابهة، إلا أنهم - مع ذلك - كانوا على دراية بأن الوعي والإبداع عند الإنسان يثيران قضايا لا توجد في العلوم غير الإنسانية، وسوف نعود إلى ذلك فيما بعد. وقد طور ماركس ودوركايم بصفة خاصة

منظورات متميزة أو نماذج عامة عن المجتمع. وتطورت منظورات أخرى بعد وفاتهما، واختص بعضها بمشكلات الفرد في المجتمع الحديث. وسوف نناقشها لاحقاً.

ونعرض في الجزء التالي لأوجه الاختلاف - بدلاً من أوجه التشابه - بين منظورات ماركس وفيبر ودوركايم. ومع ذلك فإننا نحاول أن نصل بين الاهتمامات المحورية المشتركة لعلم الاجتماع من خلال دراسة هذه المنظورات في شكل إجابات عن عدد من المسائل الأساسية في هذا العلم. ويحسن بنا أن نفهم علم الاجتماع على أنه مجموعة من المسائل عن طبيعة المجتمع دون إجابات جامدة عنها، أو مجموعة نتائج متفق عليها. وفي رأي ميلز أن المسائل التي أثارها مؤسسو علم الاجتماع، وكذا النماذج التي قدموها، هي التي أسست التيار الكلاسيكي للبحث السوسيولوجي.

نظرية علم الاجتماع: المنظورات البنائية والتأويلية

ما نقصده بنظرية علم الاجتماع - في هذه المرحلة - مجموعة من الأفكار التي تشكل الفكر السوسيولوجي، وهي أفكار إما تم اختبارها، أو لم يتم اختبارها. وأفضل طريقة لفهم جوانب الاختلاف بين علماء الاجتماع المعاصرين - وكثير من هذه الجوانب يعود بجذوره إلى أفكار دوركايم وماركس وفيبر - هي أن ندرس بعض المسائل الأساسية لنظرية علم الاجتماع التي حاول هؤلاء الثلاثة أن يجيبوا عنها بطريقة أو بأخرى. وليس بالإمكان تأسيس منظور ملائم في علم الاجتماع دون الإجابة عن المسائل السبعة التالية، مع أنه يمكن إثارة مسائل أخرى مهمة:

- ١- مم يتكون المجتمع؟
- ٢- كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟
- ٣- لماذا تكون بعض الجماعات في المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟
- ٤- ما الذي يُسبب التغيير الاجتماعي؟
- ٥- هل المجتمع بطبيعته في حالة توازن أم صراع؟
- ٦- ما علاقة الفرد بالمجتمع؟
- ٧- ما هو الهدف الأساسي من وراء دراسة علم الاجتماع؟

وقد ساعدت الإجابة عن تلك المسائل بواسطة دوركايم وماركس وفيبر في إنتاج ثلاثة اتجاهات متميزة للفكر السوسيولوجي، أو ثلاثة منظورات سوسيولوجية هي:

الوظيفية (التي تدین بالفضل الكبير لأمیل دوركايم)، و**الماركسية** (ماركس)، و**نظرية الفعل الاجتماعي** (فيبر). وسوف ندرس على نحو منفصل هذه الاتجاهات الثلاثة والإجابات التي قدمتها عن المسائل النظرية السابقة. وجميع هذه المنظورات السوسيولوجية الثلاثة بنائية بطبيعتها. ويختص علم الاجتماع البنائي Structural Sociology بصفة أساسية بكيفية تأثير المجتمع في السلوك الفردي والجماعي بدلاً من كيفية تأسيس المجتمع بواسطة الأفراد والجماعات. فعالم الاجتماع البنائي يهتم – على سبيل المثال – بكيفية تأثير طبقة الفرد وعائلته (أي الوضع الاجتماعي – البنائي للفرد) على احتمالات نجاحه في المدرسة أو حصوله على وظيفة جيدة. وينطبق على الوظيفية صفة "بنائية الإجماع" Consensus Structuralism؛ لأنها تؤكد على الدور المحوري الذي يلعبه الاتفاق (الإجماع) بين الناس على القيم الأخلاقية في المحافظة على النظام الاجتماعي. هذا من جانب، ومن جانب آخر تؤكد الماركسية ونظرية الفعل الاجتماعي على الصراع – بدلاً من الإجماع – في المجتمع. ومن الملامح المميزة للنظريات البنائية أنها تسعى إلى التفسيرات العلمية أو الوضعية للسلوك الاجتماعي.

وعلى العكس من البنائية يهتم علم الاجتماع التأويلي Interpretive Sociology بالدرجة الأولى بكيفية قيام الأفراد والجماعات بتأسيس المجتمع، وإضفاء معنى عليه، ومعايشة الحياة فيه، بدلاً من الاهتمام بكيفية تأثير المجتمع على الأفراد والجماعات. ومن الأمثلة على هذا الضرب من التفكير الذي يشغل علماء الاجتماع التأويلي مشاعر الفرد الموصوم بالإجرام، أو الجنون، أو الغباء في المدرسة. ويمثل علم الاجتماع التأويلي – في جانب منه – رد فعل مناوئاً للمنهج العلمي أو الوضعي المرتبط بالمنظورات البنائية. وسوف نناقش لاحقاً علم الاجتماع التأويلي بقدر من التفصيل. أما ما ناقشه الآن فهو وصف لعلم الاجتماع البنائية (الوظيفية، والماركسية، ونظرية الفعل الاجتماعي) بالإشارة إلى المسائل السبعة الأساسية المثارة آنفاً. وسوف نلاحظ أن الإجابات عن هذه المسائل تختلف بين هذه المنظورات اختلافاً يصل إلى حد التناقض. ولا بد لنا أن نؤكد على أن مناقشة الوظيفية تعكس أعمال الوظيفيين المحدثين – إلى جانب دوركايم – خاصة أعمال تالكوت بارسونز (١٩٠٢-١٩٧٩).

المنظورات البنائية

الوظيفية (بنائية الإجماع): دوركايم

(١) **مم يتكون المجتمع؟** يتكون المجتمع أو النسق الاجتماعي من نظم متعددة أهمها الأسرة. والنظام الاجتماعي جماعة من الناس تنتظم حول هدف (أو أهداف) محدد (أو

محددة). فالأسرة النووية – على سبيل المثال – تنتظم حول إنجاب الأطفال وتربيتهم. ومع تقدم المجتمعات تزداد النظم الاجتماعية عدداً وتعقيداً. ويطلق على هذه العملية "التفاضل البنائي" Structural Differentiation. ومن الأمثلة على النظم المعقدة المعاصرة: الخدمة المدنية (التي تطورت انبثاقاً من وظيفة مستشار الملك) والمنشآت الصناعية (التي تطورت عن الصناعات اليدوية الصغيرة).

ويمكن تقسيم النظم إلى أربعة أنساق فرعية:

- اقتصادية (المصانع، الوحدات الإدارية).
- سياسية (الأحزاب السياسية).
- قرابية (الأسر).
- ثقافية واجتماعية (المدارس، ودور العبادة).

(٢) كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟ يرى الموظفون أن المجتمع يعمل بطريقة مماثلة لقيام الكائن الحي بوظائفه. ويشار إلى هذه المقارنة بـ "المماثلة العضوية". ومن ثم فإن النظم الاجتماعية تقوم بأداء وظائفها معاً من أجل مصلحة المجتمع ككل، مثلما تقوم مختلف أجزاء الجسم البشري بوظائفها معاً من أجل مصلحة الجسم. فعلى سبيل المثال تقوم المدارس بأداء وظيفتها في علاقتها بالعمل لأنها تُعد الناس له. ولذلك فإن المجتمع – شأنه في ذلك شأن الجسم البشري – أكبر من مجموع أجزائه التي يتكون منها. ومع أنه يمكن فصل بناء المجتمع عن وظائفه لأغراض البحث النظري، فإن البناء والوظيفة لا ينفصلان في الواقع. ومن الواضح أن المجتمع أو التنظيم لا بد أن يكون موجوداً (له بناء) قبل أن يتمكن من القيام بأداء وظائفه (الوظيفة).

(٣) لماذا تكون بعض الجماعات في المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟ يمثل عدم التكافؤ في امتلاك القوة في المجتمع مثار اهتمام الماركسيين ومنظري الفعل الاجتماعي بدرجة أكبر من الموظفين. ويفترض الموظفون أنه من الضروري – من الناحية العملية – أن يكون بعض الأفراد والجماعات أكثر قوة من غيرهم؛ لأن هناك عدداً محدوداً منهم هو الذي يمكنه أن يتخذ القرارات المهمة. ومن ثم فلا بد أن يكون هناك قادة في التنظيمات وفي المجتمع، وإلا عم الاضطراب والفوضى.

(٤) ما الذي يسبب التغيير الاجتماعي؟ يحدث التغيير الاجتماعي – في رأى الموظفين – عندما يتبين أنه ضروري من الناحية الوظيفية. فعلى سبيل المثال توسعت المجتمعات المعاصرة في الأنظمة التعليمية؛ لأن تلك المجتمعات بحاجة إلى مزيد من المتعلمين

بدرجة أكبر من المجتمعات الأقل تقدماً. ويمكن أن يحدث التغيير من خلال التكيف أو التكامل. ويحدث التكيف عندما تقوم مؤسسة قائمة بإعادة التكيف لمقابلة الاحتياجات الجديدة على نحو ما أضحناه آنفاً. ويحدث التكامل عندما يتبنى المجتمع عنصراً جديداً ويجعله جزءاً منه. فالمجتمع قد ينجح أو يفشل فى إدماج مجموعة من المهاجرين فيه. ويميل الموظفون إلى التفكير فى التغيير بطريقة تطويرية (تدرجية) لا ثورية.

(٥) هل المجتمع بطبيعته فى حالة توازن أم صراع؟ يرى الموظفون أن النظام والتوازن طبيعيان فى المجتمع، ومن ثم فإن حالة عدم التوازن (الحرب المدنية على سبيل المثال) هى حالة اجتماعية غير طبيعية. ويشبه الموظفون عدم التوازن فى المجتمع بالمرض فى الكائنات الحية. وأساس التوازن الاجتماعى وجود إجماع أخلاقى، بمعنى أن جميع الأفراد فى المجتمع يشتركون فى نفس القيم. وإذا كان ارتفاع مستوى استهلاك السلع يمثل قيمة فى المجتمع الأمريكى، فإن الأمر ليس كذلك فى المجتمعات البدائية اقتصادياً وتكنولوجياً. وسوف نرى فيما بعد أن الموظفين يؤكدون على أهمية تعليم القيم الاجتماعية فى المحافظة على النظام والامتثال. وهنا يبرز التأكيد على دور الوالدين والمعلمين فى نقل القيم إلى الأجيال الأصغر سناً.

(٦) ما علاقة الفرد بالمجتمع؟ يرى الموظفون أن المجتمع يشكل الفرد من خلال تأثير مؤسساته مثل الأسرة والمدرسة ومكان العمل. ولم يترك أنصار الوظيفة إلا مجالاً محدوداً لوجهة النظر القائلة بأن الفرد يمكن أن يتحكم فى حياته بدرجة كبيرة، إذا ما نحينا جانباً قدرته على تغيير المجتمع. وفى رأى دوركايم أن الفرد هو محطة الوصول وليس محطة المغادرة. وبلغة أخرى فإن علم الاجتماع - فى رأيه - ليس موضوعه الفرد. وسوف نرى فيما بعد أنه ليس كل الموظفين يتفقون مع دوركايم فى هذا الرأى.

(٧) ما هو الهدف الأساسى من وراء دراسة علم الاجتماع؟ يتمثل الغرض الأساسى من علم الاجتماع فى تحليل وتفسير قيام المجتمع بأداء وظائفه بشكل طبيعى أو غير طبيعى. وهذا يتطلب دراسة علاقة مختلف أجزاء المجتمع بعضها ببعض، وعلاقة الأجزاء بالكل. إذ يمكن دراسة العلاقة بين التعليم والعمل، وكذا الإسهام (الضرورى) لكل منهما فى قيام النسق الاجتماعى ككل بأداء وظائفه. وقد أصر دوركايم على أن علم الاجتماع عليه أن يكتشف ويفسر العلاقة بين الوقائع الاجتماعية، على غرار اهتمام علماء الطبيعة بالوقائع الفيزيائية.

الماركسية (بنائية الصراع) (I)

(١) مم يتكون المجتمع؟ يتكون المجتمع من طبقات فى رأى ماركس. وتوجد طبقتان

اجتماعيتان رئيسيتان فى جميع المجتمعات، باستثناء أكثر أشكالها بساطة. وعلاقة الناس بوسائل الإنتاج هى التى تحدد الطبقة التى ينتسبون إليها. والطبقة الأقوى هى التى تملك وسائل الإنتاج (الأرض، المصانع)، أما الطبقة الأضعف فهى التى تبيع قوة عملها من أجل لقمة العيش. وفى المجتمع الرأسمالى (أى المجتمع الذى يقوم على اقتصاد المشروع الخاص) تكون الطبقة الرأسمالية (أو الطبقة البورجوازية كما أسماها ماركس) هى الطبقة الحاكمة، والطبقة العاملة (أو البروليتاريا) هى الطبقة الخاضعة. وبلغه أخرى فإن رجال الأعمال يتحكمون فى العمال من وجهة نظر ماركس.

(٢) **كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟** يقوم المجتمع بأداء وظائفه فى رأى ماركس- من خلال الصراع الطبقي أساساً. فكل طبقة تسعى بالطبع إلى تحقيق مصالحها، وهذا يجرها إلى صراع مع الطبقات الأخرى. وقد ركز ماركس بصفة خاصة على الصراع بين الطبقة البورجوازية والطبقة البروليتارية فى المجتمع الرأسمالى. وسوف نعود إلى هذه النقطة لاحقاً.

(٣) **لماذا تكون بعض الجماعات فى المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟** الطبقة هى أساس القوة فى رأى ماركس. وبعض الطبقات أكثر قوة من الأخرى؛ لأنها تحوز قدرأ أكبر من الملكية والثروة، وهذا يزودها بالوسائل التى تمكنها من حماية ما تحوزه والمحافظة عليه. وعلى عكس الوظيفيين لا يرى ماركس أن هذه الحالة حتمية وضرورية، فهو يعتقد أن الاشتراكية يمكن أن تحقق مشاركة أكثر عدالة فى القوة والملكية والثروة.

(٤) **ما الذى يسبب التغيير الاجتماعى؟** يحدث التغيير الاجتماعى نتيجة للصراع الطبقي. فالصراع الطبقي هو محرك التاريخ. وفى أواخر العصور الوسطى كان هناك صراع بين الارستقراطية والبورجوازية الصاعدة. وفى المجتمع الرأسمالى يكون الصراع أساساً بين البورجوازية والبروليتاريا. ويمثل انتصار الطبقة الجديدة منعطفأ إلى حقبة تاريخية جديدة، ومن ثم فإن بزوغ البورجوازية أدى إلى الولوج فى الحقبة الرأسمالية. وهكذا يستمر الرأسماليون فى بحثهم الدؤوب عن الموارد والأسواق، لدرجة أن النظام الرأسمالى أصبح نظاماً عالمياً.

(٥) **هل المجتمع بطبيعته فى حالة توازن أم صراع؟** المجتمع فى حالة صراع جوهرى بين الطبقات، ومع ذلك يعترف ماركس بأن فترات النظام والتوازن الاجتماعيين يمكن أن تحدث، حيث يفتر خلالها الصراع الطبقي لفترة مؤقتة، وهذه الفترة تفيد الأغنياء أكثر من الفقراء، والأقوياء أكثر من الضعفاء.

(٦) ما علاقة الفرد بالمجتمع؟ هناك مدرستان فكريتان رئيسيتان بين الماركسيين حول علاقة الفرد بالمجتمع، وهو ما يعكس غموضاً في أعمال ماركس نفسه. وتذهب المدرسة الأولى إلى أن الفرد لا حول له ولا قوة، لدرجة أنه لا يستطيع التأثير في حياته أو حياة الآخرين. ومن يعتقدون هذا الرأي ينظرون إلى الصراع الطبقي والثورة الاشتراكية على أنهما حتميان، بغض النظر عما يمكن للفرد أن يقوم به. ومع ذلك يرى بعض من الماركسيين أن هناك دوراً أكبر للفرد في المجتمع، إلا أنهم يرون أن المصدر الرئيسي لهوية الفرد يأتي من عضويته في الطبقة.

(٧) ما هو الهدف الأساسي من وراء دراسة علم الاجتماع؟ يهدف علم الاجتماع إلى وصف وتحليل وتفسير الصراع الطبقي. كما يرغب الماركسيون في تغيير العالم باتجاه ماركسي. ومع ذلك فقد تعرضت المجتمعات "الماركسية" في أوروبا الشرقية لأزمة وتغير في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات. ومن ثم بدأ البديل العملي الرئيسي عن الرأسمالية في التفتت. ولا يعنى ذلك أن التحليل السوسيولوجي الماركسي للرأسمالية مشوب كله بالأخطاء.

نظرية الفعل الاجتماعي (بنائية الصراع II): فيبر

(١) مم يتكون المجتمع؟ ينشأ المجتمع من خلال التفاعل الاجتماعي الذي يقصد به سلوك الناس الذين يرتبطون بعضهم ببعض عن وعى. ويقوم الناس بتشكيل النظم من خلال عملية التفاعل. ومع أن الناس تقوم بإنشاء مؤسسات مثل المدارس والمصانع ودور العبادة، فإن هذه المؤسسات تؤثر بدورها في الناس. ويعود ذلك في جانب منه إلى وجود ضغوط لمراقبة قواعد هذه المؤسسات وإجراءاتها.

وقد انتاب فيبر شعور بأن ماركس بالغ في التأكيد على أهمية الجماعات التطبيقية. ويعترف فيبر بأن الطبقات ذات أهمية، إلا أنه رأى أن الأحزاب السياسية وجماعات المكانة (الجماعات الاجتماعية، وجماعات الصداقة) قوى مهمة ومؤثرة في المجتمع، وليس من الضروري أن تعتمد هذه على الطبقة كما ادعى ماركس. وقد أكد فيبر كذلك على قوة التنظيمات الكبيرة أو التنظيمات البيروقراطية في التأثير على حياة الفرد.

(٢) كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟ تأتي إجابة فيبر عن هذا السؤال لتبرز وعيه بتأثير كل من الفرد على المجتمع، والمجتمع على الفرد. فهو من ناحية يؤكد أن الأفكار والمشاعر لدى الناس تؤدي في بعض الأحيان إلى إثارة الفعل والتأثير في التاريخ. فعلى سبيل المثال توجد بعض الشخصيات القوية والديناميكية – أو ما أسماها بالقيادات الملهمة (الكارزمية) (مثل المسيح أو نابليون) – يمكن أن تغير بالفعل من مسار الأحداث. ومن

ناحية أخرى أدرك فيير أن حياة معظم الناس تتشكل وتتحدد بواسطة المجتمع الذي يعيشون فيه، خاصة المؤسسات المباشرة التي يتعاملون معها مثل المدارس وأماكن العمل. وقد اهتم فيير اهتماماً خاصاً بالمؤسسات الكبيرة في المجتمعات المعاصرة (مثل المصانع أو الأجهزة البيروقراطية الحكومية) التي تحد من مجال حرية الفرد وإبداعه. ويبدو أن ما كان يزجج فيير بدرجة أكبر من الموظفين، هو أن كثيراً من الناس يصيرون مجرد تروس في الآلات الكبيرة، إذا كنا بصدد الحديث عن العمل.

(٣) لماذا تكون بعض الجماعات في المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟ القوة أحد المفاهيم المحورية عند فيير. وفي معالجته لهذه القضية جمع فيير عناصر من علم اجتماع الإجماع وعلم اجتماع الصراع. فهو يتفق مع الموظفين على ضرورة أن يكون بعض الناس أكثر قوة من غيرهم، حتى يتمكن المجتمع من أداء وظائفه بكفاءة. ففي التنظيمات البيروقراطية الحديثة (الخدمة المدنية مثلاً) يوجد دوماً أفراد أكثر قوة على القمة، وآخرون أقل قوة في القاع، أى أن التنظيمات البيروقراطية منظمة بشكل هرمي. كما يتفق فيير مع ماركس في أن الجماعات التي تحوز وضعاً قوياً في المجتمع تميل إلى استخدام وضعها في مصلحتها أساساً. ففي مجتمعات العصور الوسطى استخدم الملك والنبلاء القوة في خدمة مصالحهم، إلا أنهم استخدموها في بعض الأحيان من أجل الصالح العام.

(٤) ما الذى يسبب التغيير الاجتماعى؟ يرى فيير أن التغيير الاجتماعى يمكن أن يحدث لأسباب عديدة. وبلغة أكثر دقة فإن التغيير الاجتماعى متعدد العوامل وفقاً لتحليل فيير. فالأفكار والاختراعات الجديدة والحروب، وصعود وأفول جماعات القوة والأفراد المؤثرين وغيرها من العوامل - كلها تسهم في التغيير التاريخى وتعد جزءاً منه. وفي إصراره على تعدد أسباب التغيير الاجتماعى رغب فيير فى أن يميز موقفه عن موقف ماركس، حيث رأى أنه - أى ماركس - قد بالغ فى التأكيد على الصراع الطبقي كسبب للتغيير.

(٥) هل المجتمع بطبيعته فى حالة توازن أم صراع؟ اشتد الخلاف فى الرأى بشأن قضية التوازن والصراع فى المجتمع بين الوظيفية والماركسية، إلا أن تلك المسألة لم تشكل قضية هامة عند منظرى الفعل الاجتماعى. وفى رأى فيير أن المجتمع ليس بطبيعته فى حالة توازن أم صراع، فوضع المجتمع يختلف من حالة إلى أخرى. وربما يسود المجتمع الاضطراب لعدة قرون، ثم يعاود الاستقرار لعدة عقود. وقد فضل فيير أن يدرس حالات خاصة بدلاً من القفز إلى تعميمات حول ما هو "طبيعى".

(٦) ما علاقة الفرد بالمجتمع؟ تكتسب علاقة الفرد بالمجتمع أهمية محورية فى نظرية الفعل الاجتماعى. وعلى الرغم من أن فيبير أدرك على نحو تام أن الأفراد يتأثرون بالمؤسسات الاجتماعية مثل الأسرة والمدرسة ومكان العمل ووسائل الاتصال الجماهيرى، إلا أنه لم ينظر إلى تحليل عمل هذه المؤثرات وتداعياتها على أنه الغرض الوحيد أو الأساسى من دراسة علم الاجتماع. إذ أن فهم المعانى التى يخبرها الأفراد فى حياتهم الاجتماعية أكثر أهمية من مجرد تحليل ما يدفعهم أو يؤثر فيهم للتصرف على النحو الذى يتصرفون به. ومع أن فيبير أكد على أن الفعل الفردى تجربة فريدة يمر بها الفاعل الاجتماعى، فقد شعر أنه بمقدوره أن يصل إلى تعميمات بصدد الفعل الاجتماعى؛ لأن هناك فى الواقع أنماطاً شائعة للسلوك الاجتماعى. فقد يتصرف الأفراد بطريقة عقلانية أو وجدانية أو مثالية، ومن الممكن أن يتم تصنيف أفعالهم على هذا النحو. وعلى الرغم من تأكيد فيبير على الخبرات والمعانى الفردية، إلا أنه التزم بعلم الاجتماع العلمى. ومع أن أعمال فيبير تندرج تحت علم الاجتماع البنائى، إلا أنه يعد أيضاً بمثابة الأب المؤسس لعلم الاجتماع التأويلى. وقد شاع المدخل التأويلى وتطور فى أشكال متعددة فى القرن العشرين.

(٧) ما هو الهدف الأساسى من وراء دراسة علم الاجتماع؟ يتمثل الغرض من علم الاجتماع فى فهم وتفسير معنى الفعل والتفاعل الاجتماعيين.

المنظورات التأويلية

جرت محاولات أخرى - إلى جانب محاولة فيبير - هدفت إلى أن تجعل من المعنى والقصد الفرديين جزءاً لا يتجزأ من نظرية علم الاجتماع. وتشمل هذه المحاولات: التفاعلية الرمزية، الإثنوميثودولوجيا (المنهجية الشعبية)، والظاهراتية (وهى منظور فلسفى فى أساسه). وتعد التفاعلية الرمزية - أو التفاعلية بلغة بسيطة - أكثر هذه المحاولات تأثيراً وأيسرها على الفهم. وسوف نناقش التفاعلية بقدر من الإسهاب، ثم نعرض باختصار - لاحقاً - للمنهجية الشعبية والظاهراتية.

التفاعلية

تبحث النظريات البنائية التى عرضنا لها فى العلاقة بين الذات والمجتمع من زاوية تأثير المجتمع على الذات. أما أنصار التفاعلية فيتجهون فى عملهم من الذات إلى خارجها، مؤكدين على أن الناس يؤسسون المجتمع. ويطلق على هذا المنظور فى بعض الأحيان التفاعلية الرمزية؛ نظراً لتأكيدده على أهمية المعانى الرمزية للاتصال، بما يشمله

من لغة وإيماءات وإشارات. ويسلم أنصار التفاعلية تسليماً كاملاً بالقول بأن المجتمع يصنع الأفراد ويشكلهم، ومع ذلك فهم يعتقدون أن هناك فرصاً مستمرة للفعل الإبداعي (وهو المصطلح المفضل عند توماس W.I. Thomas، وهو من أوائل مناصري التفاعلية).

وقد تطورت التفاعلية بشكل رئيسي في جامعة شيكاغو خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين. ويعد عالم النفس الاجتماعي جورج ميد (١٨٨٠-١٩٤٩) أكثر أنصار التفاعلية تأثيراً.

ويصف ميد مرحلتين عامتين في نمو الذات: مرحلة اللعب الفردي Play Stage ومرحلة اللعب الجماعي Game Stage. وتكون علاقة الطفل بالآخرين قبل هاتين المرحلتين علاقة تقليد دون إدراك واع بمعاني الأفعال.

وفي المرحلة الأولى يبدأ الطفل بتجريب أدوار معينة مألوفة مثل دور الأب أو المعلم أو الطبيب. ويمثل "النظائر" لدى الطفل أداة داخلية قوية للتعلم، ولكنها تكون محدودة. وفي هذه المرحلة لا يتجاوز الطفل ببصره الأدوار الفردية إلى رؤية أكثر عمومية للمواقف الاجتماعية. وكل ما يحاوله الطفل هو أن يقوم بأدوار آخرين مهمين شاهدهم عن قرب أو عن بُعد (وسائل الإعلام). وفي هذه المراحل المبكرة من التعلم يعرف الطفل بعض الأجزاء الهامة للكل دون أن يلم بالكل إماماً كافياً.

وتشهد المرحلة الثانية تقدماً مزدوجاً. فالطفل - بلغة ميد - لا بد له أن يلم باتجاهات جميع الآخرين المشتركين في اللعبة أو الموقف. وربما يلعب الأطفال المباراة الجماعية بطريقة سيئة، لأنه لم يتكون لديهم وعى بمختلف الأدوار في الفريق، أو لياقة كافية تناسب الأدوار الأخرى. وبالتدريج يصبح الطفل أكثر وعياً من الناحية الاجتماعية - ليس بالألعاب فحسب - بل وبالمواقف الجماعية الأخرى، مثل تناول الوجبات والخروج للنزهة. ومع ذلك فإن النمو المتكامل للذات لا يتوقف وحده على الوعي بجميع أدوار الآخرين في موقف ما، وإنما يعتمد أيضاً على المقدرة على إدراك أن الجماعة والمجتمع المحلي أو المجتمع ككل يمارس ضبطاً على سلوك أعضائه. وبهذا المعنى أطلق ميد على الجماعة ككل مصطلح "الآخر العام" Generalised Other. وحينما يتعلم الطفل أن يأخذ في اعتباره اتجاه الآخر، عندها يصبح عضواً كاملاً في المجتمع. والحقيقة أن ميد يقول نفس ما يقوله بارسونز. فكلاهما يعترف بحاجة الطفل إلى أن يتعلم قواعد "اللعبة" أو قواعد المجتمع. وقد أولى ميد جانباً كبيراً من اهتمامه بقدرة الفرد على أن يلعب اللعبة بنشاط وإبداع. وهذا يتضح من بعض أفكاره التي ناقشها الآن والتي تكمل ما سبق

مناقشته.

يقسم ميد الذات إلى الفاعل (الأنا الداخلى I) والمفعول (الأنا الخارجى Me). والأنا هى الجزء الإيجابى من الذات، أما المفعول فهو الجزء السلبي، أى هو الجزء الذى يؤثر فيه الآخرون (المهمون والعامون). [انظر شكل ١-١]

شكل ١-١

نموذج التفاعلية الرمزية عن التنشئة الاجتماعية
(والخبرة الاجتماعية بصفة عامة)



وقد استخدم تشارلز كولى - وهو زميل ميد - مصطلح "الذات العاكسة" Looking Glass Self - ليصف به كيف أننا نكون انطباعاً عن أنفسنا من خلال استجابات الآخرين. وعندما يصبح الفرد واعياً بالجزء السلبي من ذاته (المفعول)، يكون عندئذ قادراً على أن يؤثر فى نفسه بالتحكم فيها. وبلغة ميد يصبح الفرد موضوعاً لذاته. ويمتد الوعى الإنسانى إلى أشياء أخرى وناس آخرين بالإضافة إلى ذات الفرد. واستخدام ميد مصطلح "الإيحاء بالإشارة" Making Indication لوصف عملية الوعى. ويمثل الإيحاء بالإشارة ركيزة من ركائز عملية صياغة المعانى والأفعال عند الإنسان.

وقد أكد ميد أكثر من كولى على أن "الأنا" يمكن أن تتحكم فى الذات أو توجهها لا إلى الانصياع فحسب، بل إلى التصرف باستقلالية. وفى هذا يقول ميد: "الأنا تعطى الإحساس بالحرية والمبادأة". وقد أشار ميد إلى أن "الأنا" الديناميكية غالباً ما تطغى على الجزء السلبي (الامتثالى) فى الناس المبدعين، مثل الفنانين والموهوبين فى الألعاب الرياضية، ولكننا نمر جميعاً بلحظات من الإبداع (أو لحظات نشعر فيها بالإبداع). وقد قدم ميد إسهاماً رائعاً إلى العلم الاجتماعى من خلال إطاره التحليلي، الذى يمكن أن نرى فيه الفاعل الاجتماعى يتصرف بطريقة لا يمكن التنبؤ بها، ولا نتيقن من تداعياتها فى الغالب.

ويتضح وعى ميد بكل من القيود المفروضة على التفاعل الاجتماعي والإبداع فيه من تحليله للغة، وهو أحد الملامح المحورية للتفاعلية الرمزية. واللغة هي المحرك الرئيسى للاتصال الاجتماعي، وهدفها هو التعبير عن المعنى. ويكون الطفل الصغير فى بداية حياته مجرد موضوع للاتصال اللغوى، ولكنه يبدأ بالتدرج فى استخدام اللغة لأغراضه الخاصة. وقد رفض ميد بشدة الفكرة القائلة بأن اللغة ببساطة هي ضرب من ضروب التقليد (باستثناء ما يحدث مع البيغاء). فكل المعانى تقريباً التى يبتغيها الفرد للتعبير متاحة فى مفردات معظم اللغات. ومع ذلك فإن العلماء والشعراء – رغم أنهم يتحركون فى حدود المتاح من المعنى واللغة – يبتدعون كلمات وصياغات لغوية جديدة. وهذا هو الهدف من اللغة، أى أنها توفر الرمزية الدالة على معنى. وتظهر رموز لفظية جديدة عند الحاجة إليها.

ونظراً لأن الاهتمام الرئيسى لمنظري التفاعلية الرمزية ينصب على الاتصال الدال على المعنى، فإنهم يولون اللغة جل عنايتهم. ويؤكد هؤلاء المنظرون مراراً وتكراراً على أن الناس – بوساطة اللغة – يتفاوضون حول الأدوار الاجتماعية المتعددة المتوقع منهم القيام بها. وهذا يعنى أن هؤلاء الناس يتفاوضون مع الآخرين – خاصة فى مواقع السلطة – حول كيفية قيامهم بأداء هذه الأدوار على نحو تام.

وهذا ما يقودنا إلى مفهوم "النظام التفاوضى" Negotiated Order. فعلى سبيل المثال يستطيع بعض الطلاب أو العمال أن ينجزوا أعمالاً أقل من أقرانهم دون أن ينالوا عقاباً؛ لأنهم تمكنوا بمرور السنوات من التفاوض مع رؤسائهم على مستوى أدنى من الإنجاز. وربما يكون هناك آخرون حاولوا ذلك، ولكنهم فشلوا لسبب أو لآخر. ومن هنا يعكس النظام الموجود الجوانب المركبة والتفاوضية للتفاعل. وعلى نحو مماثل لاحظ منظرو التفاعلية أن مختلف الأفراد يفسرون نفس الدور بطرائق مختلفة، وينظر هؤلاء المنظرون إلى الأدوار على أنها أقل تماسكاً مقارنة بما يدعيه الوظيفيون. ويمكن أن نتحقق من ذلك بإلقاء نظرة على حجرة الدراسة أو قاعة المحاضرات حيث نجد أن دور الطالب يمكن تفسيره بطرائق عديدة: مختلفة ومتعارضة.

وقبل أن نختم هذا الجزء نحتاج إلى توضيح مدخل منظري التفاعلية إلى تحليل النظم الاجتماعية. فالنظام – بالنسبة لهؤلاء المنظرين – ليس شيئاً منفصلاً عن الناس الذين صاغوا بناءه، وهو – أى النظام – محصلة للتفاعل، وهذا ينطبق على الأسرة والمدرسة وجماعة الأقران. وأى نظام يمكن النظر فيه – فى حقيقة الأمر – على أنه محصلة للتفاعل بين الناس الذين يتألف منهم.

ويمكن الكشف عن ماهية نظرية التفاعل الرمزي المعاصرة بالاستشهاد بالاستعارات التي استعان بها منظرو هذه النظرية لوصف الحياة الاجتماعية. فقد قارن إرفنج جوقمان التفاعل الاجتماعي بالأداء المسرحي، وأعطى إيريك بيرنى - مؤسس التحليل النفسى للتفاعل - عنواناً لأحد مؤلفاته "الألعاب التي يلعبها الناس" Games People Play. وبالنسبة لجوقمان يكمن الفرق الرئيسى بين أداء الفعل فى المسرحية وأداء الفعل فى الحياة فى أن هناك مجالاً لتفسير الدور فى الحياة ذاتها. فالفاعل الاجتماعى غير مقيد بنص، ويمكن له أن يرتجل بطلاقة. ويعترف جوقمان أن التغيير الاجتماعى يعتمد اعتماداً كبيراً على مثل هذا الارتجال الإبداعى. ومع ذلك يبقى التشابه الأساسى موجوداً بين المسرح والحياة. وقد اتخذ جوقمان لنفسه نموذجاً مسرحياً للتفاعل الاجتماعى. فالحياة الاجتماعية - شأنها فى ذلك شأن المسرحية - يتم تأليفها، وهى - أى الحياة الاجتماعية - صياغة بشرية ذات معنى وواقع يضيفه عليها الإنسان.

نقد التفاعلية

هناك انتقادان مرتبطان وُجها إلى التفاعلية فى هذا الصدد. وأول هذين الانتقادين أن هذا المنظور لم يهتم اهتماماً كافياً بالقضايا الكبرى (الماكرو) المرتبطة بالقوة والبناء، على الرغم من تأكيد هذا المنظور على التفاعل بين الذات والمجتمع. فعلى سبيل المثال لم تكن مسألة أى جماعة أو طبقة هى التى تحكم المجتمع مسألة محورية بالنسبة للتفاعلية. وربما يكون المسار الذى يسلكه هذا المدخل فى النظر فى الذات خلال التفاعل مع الآخرين هو الذى أفقده الاتجاه قبل أن يصل إلى قضايا السيطرة والقوة التى تؤثر فى ملايين الناس. ومع ذلك فسوف نرى أن التفاعلية نفذت باقتدار إلى قضايا القوة والسيطرة على مستوى الجماعة أو التنظيمات الصغيرة. ومن ثم أصبحت التفاعلية أساسية فى فهم تفاصيل عملية التفاعل بين المعلم والطالب، ووصم بعض الأفراد بالانحراف.

وثانى الانتقادين الموجهين إلى التفاعلية أنها تعاني من نزعة تفاؤلية ليبرالية ساذجة. ومن الواضح أن هذا الانتقاد لم يأت من المناقشة السابقة للمفاهيم الأساسية عند ميد، بل إن أنصار التفاعلية فى شيكاغو يميلون إلى الاعتقاد بأنه مع التسليم بحرية التفاعل والتعلم من خلال الخبرة، فسوف يصل الناس إلى نتائج عقلانية وإنسانية، ومن ثم يؤسسون مجتمعاً عقلانياً وإنسانياً. وتعكس هذه الرؤية ما ساد فى القرن التاسع عشر من اعتقاد فى التقدم ومن حلم أمريكى فى الإنجاز الفردى والمجتمعى. ومن الطبيعى أن تكون هذه النظرة إلى الطبيعة الإنسانية نظرة صادقة مثلها فى ذلك مثل تأكيد الوظيفية المحافظة على الحاجة إلى القسر والضبط، ووجهة النظر الكئيبة لدى الماركسيين بأنه من الطبيعى أن يعمل الناس أولاً وأخيراً على تحقيق مصالحهم الذاتية (الطبقية).

ولم يتصدى منظرو التفاعلية بعد الحرب العالمية الثانية للدفاع عن النزعة التفاضلية لأسلافهم. ففي رأى جوفمان ومنظر الانحراف هوارد بيكر أن الشخص غير العادى – وليس الشخص العادى – هو البطل الذى يمكنه أن يتحدى المجتمع. وإذا كان هذا التوجه يلفت الانتباه إلى نقد النزعة الرومانسية، فإنه يعد بمثابة ترياق للنزعة الامتثالية فى المنظورات البنائية.

المنهجية الشعبية (الإثنوميثودولوجيا)

تأسست المنهجية الشعبية فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات على يد عالم الاجتماع هارولد جارفينكل. ويصف هذا المصطلح على نحو دقيق ما يدل عليه هذا المدخل، حيث يعنى المناهج التى يستخدمها الناس تحديداً لابتداع المعنى والنظام فى الحياة الاجتماعية. ويرى جارفينكل أن المنهج الأساسى الذى يستخدمه الفاعلون الاجتماعيون لابتداع المعنى هو "الاستنتاج الفطرى" Commonsense Reasoning. كما يذهب إلى أن الاتصال والاستنتاج المشترك بين الأشخاص يمكن أن يودى إلى تفسيرات مشتركة للخبرات، أى أن الناس يتوصلون إلى فهم مشترك للأشياء. ومن ثم فإن جماعات الناس من أعضاء هيئة المحلفين إلى المعلمين يطورون أساليبهم الخاصة بهم فى التفكير والسلوك، وهذا ما يجب أن يتناوله علماء الاجتماع بالدراسة.

ويؤكد جارفينكل على أن النظام الاجتماعى يتأسس ويعاد تأسيسه من خلال قيام الفاعلين بالاستنتاج والاتصال، وليس هذا النظام محصلة معايير مفروضة من الخارج. واستنبت جارفينكل مجموعة من المواقف "الطبيعية" التى لا تتحقق فيها التوقعات العادية للمشاركين، ومع ذلك فإنهم يستمرون فى محاولة للخروج بمعنى لما يحدث. وفى موقف آخر يقوم المرشد الطلابى بتقديم إجابات اعتباطية تماماً إلى طلابه، ومع ذلك يسعى الطلاب إلى إضفاء معنى ونظام على هذا الهراء. وتعد وجهة نظر جارفينكل فى النظام على أنه عملية تفاوضية – وليس شيئاً مفروضاً من الخارج – بمثابة إسهام حقيقى فى علم الاجتماع، وهو ما كان له تأثير ضخم على التحليل التنظيمى والمؤسسى.

نظرية التشكيل البنائى: تجاوز ثنائية البناء / التأويل

لا توجد نظرية واحدة من النظريات التى عرضنا لها حتى الآن ظهرت فى الربع الأخير من القرن العشرين. وكثير من هذه النظريات يتراوح عمرها بين ٥٠ و ١٠٠ سنة. وثمة مخاوف من أن يفضى الاستعراض السابق للتطورات المبكرة لنظرية علم الاجتماع إلى صورة مضللة عن حالة نظرية علم الاجتماع اليوم. فقد تطورت هذه النظرية حتى

الستينييات – وربما بعدها بقليل – باعتبارها حرباً عنيفة بين المنظرين البنائيين – خاصة الوظيفية والماركسية – والنظريات التأويلية. وتؤكد النظريات البنائية على أن المجتمع شئ خارج عن الفرد يؤثر فى سلوكه بل ويحدد هذا السلوك. وهذه العوامل الخارجية هى البناء الاجتماعى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تؤكد النظريات التأويلية على الفعل الفردى الذى له معنى وهدف. ويشار إلى هذا التعارض بـ"المدخل الثنائى" الذى له قطبان على أحدهما البناء وعلى الآخر الفعل. وعلى الرغم من اعتراف أبرز علماء الاجتماع بجدوى هذا القطب أو ذاك لموضوع العلم، فإن الانطباع العام عن علم الاجتماع أنه علم شديد الانقسام.

وقد ظهرت فى الربع الأخير من القرن العشرين عدة محاولات لتنظير العلاقة بين البناء والفعل بطريقة تتجاوز مقولة أن البناء والفعل متعارضان. وسوف نناقش بعض تلك النظريات لاحقاً، إلا أننا نكتفى هنا بعرض مختصر لأشهرها، وهى نظرية التشكيل البنائى Structuration Theory عند أنتونى جيدنز.

يذهب جيدنز إلى أنه بدلاً من التفكير فى البناء والفعل على أنهما اثنان، فإنه يتعين علينا أن نفكر فيهما على أنهما جانبان لنفس الظاهرة – أى الازدواجية بدلاً من الثنائية. ويتضمن مفهوم ازدواجية البناء عند جيدنز كلاً من البناء والفعل (على الرغم من أنه لم يستخدم مصطلح الفعل استخداماً مباشراً). ولن يوجد البناء الاجتماعى ما لم يؤسسه الفعل الإنسانى، إلا أن هذا الفعل يتطلب بناءً اجتماعياً ليحدث فيه. وسوف يتضح ذلك عندما نشرح ما يعنيه جيدنز بـ"البناء".

يعنى جيدنز بالبناء القواعد والموارد (الوسائل المادية والثقافية التى تمكن الناس من القيام بالفعل). ومن ثم فإن المدارس والمصانع وغيرها من المؤسسات الاجتماعية لها قواعدها ومواردها، ويؤدى استخدام هذه القواعد والموارد إلى إعادة إنتاج هذه المؤسسات. ولا تعيد المدارس والمصانع إنتاج نفسها، فالناس أو الفاعلون هم الذين يعيدون إنتاجها. ويعيد الناس إنتاج مؤسسة ما فى الزمان والمكان باستخدام القواعد والموارد المؤسسية. ومن ثم لا يوجد البناء الاجتماعى مستقلاً عن الفعل الإنسانى الذى يؤسسه. ولذلك فإن مراقبة القواعد المدرسية واستخدام الموارد المدرسية، وكذا استخدام القواعد الموجودة فى المصنع والشركة – كل ذلك يعبر عن التشكيل البنائى، وهو المصطلح الذى استخدمه جيدنز ليشير إلى أن طبيعة البناء / الفعل هى الممارسة. فالممارسة الاجتماعية هى البناء والفعل فى آن واحد.

ويحسن بنا أن نعطى مثلاً آخر نوضح به نظرية جيدنز فى التشكيل البنائى. وهذا

المثال عن روبرت ميردوخ قطب الإعلام، والشركة الدولية للأخبار INC التى يمتلكها. وليس من الصعب أن نفكر فى ميردوخ باعتباره فاعلاً قوياً، فهو المالك الذى بيده تعيين وفصل المحررين فى التليفزيون والصحافة. وما ينبغى أن يكون واضحاً الآن أن قواعد الشركة الدولية للأخبار ومواردها - أى بناؤها - هى التى تمكن ميردوخ من أن يتصرف بقوة. وفى قيامه بهذا الفعل فإنه يعيد إنتاج (أو يعيد تشكيل) الشركة. وقد يشترك آخرون فى هذه الشركة فى عملية التشكيل البنائى، إلا أن ميردوخ وحده فى موقع أفضل من منظور القواعد والموارد (النقود، القوة... إلخ). وكما يتضح من هذا المثال، فإنه من البساطة أن نربط مفهوم التشكيل البنائى عند جيدنز بمفهوم عدم المساواة.

وإذا كنا قد عرضنا لنظرية التشكيل البنائى عند جيدنز، وذلك لأنها نظرية مهمة فى علم الاجتماع، ولأنها تعكس اتجاهاً قوياً فى علم الاجتماع المعاصر إلى تجاوز ثنائية إما المدخل البنائى أو المدخل التأويلى. وهناك محاولة أخرى قام بها فوكوه - وهو من أنصار ما بعد البنيوية - للتحلل من ثنائية البناء / الفعل.

أهم المؤثرات المعاصرة فى علم الاجتماع

إذا كان علم الاجتماع قد تطور من خلال المنظورات الرئيسية التى ناقشناها آنفاً، فإن هناك مجموعة من الحركات المعاصرة التى تضرب بجذورها خارج حدود علم الاجتماع كان لها تأثير ضخم على تطوره. ومن أكثر هذه الحركات تأثيراً نذكر: النسوية، والنزعة المعادية للعنصرية، واليمين الجديد (التاتشرية)، والحركة البيئية أو الحركة الخضراء. كما نناقش الآثار المحتملة لأفول الشيوعية على علم الاجتماع الماركسى وظهور منظور راديكالى بديل عنه.

النسوية: Feminism

كان النساء فى الخمسينيات فى وضع ثانوى وتابع للرجال داخل منظومة علم الاجتماع. ولا نبالغ إذا قلنا أن النساء كن مختلفيات من هذا العلم. وما ندعيه ينطبق على أصحاب القوة والنفوذ فى علم الاجتماع - وأغليبتهم من الرجال - ومحتوى موضوع هذا العلم وعرضه بلغة "ذكورية" واستشهادات من عالم يسوده الرجال. وقد أصبح علم الاجتماع أكثر انفتاحاً على التغيير مقارنة بمعظم جوانب المجتمع قياساً بالنوع الاجتماعى (العلاقات الرجالية / النسائية).

ولا يزال العالم اليوم يهيمن عليه الرجال، ولكن يبدو أن هناك ارتفاعاً مضطرباً فى نسبة النساء اللاتى يتمتعن بوضع ومكانة متميزتين فى علم الاجتماع مقارنة بالعلوم

الأخرى، وذلك على الرغم من أنهم يشكلون أقلية. وتأثير الحركة النسوية أصبح محتوى موضوع علم الاجتماع وعرضه يمر بتغير جذري (راديكالى) بل بتغير ثورى. ومن المؤكد أن معظم الكتب المدرسية فى علم الاجتماع وغالبية المؤلفات فيه تُكتب الآن بلغة مصطبغة بالنوع الاجتماعى. وثمة اتجاه قوى نحو "تأنيث" محتوى علم الاجتماع. فالعلاقات النوعية Gender Relations – وما يرتبط بها من تحرير المرأة – تشكل موضوعاً فى حد ذاته، إلا أن قضية النظام الأبوى (هيمنة الرجال) ومشكلات المرأة وأولوياتها أصبحت الآن جزءاً من كل موضوع من موضوعات علم الاجتماع. وقد جعل البحث وصياغة المفاهيم والتنظير فى هذا السياق من علم الاجتماع علماً أكثر تنويراً وتحريراً لكلا الجنسين.

النزعة المعادية للعنصرية: Anti-Racism

النزعة المعادية للعنصرية واحد من مصطلحات عديدة يمكن استخدامها للإشارة إلى حركات الاحتجاج على العنصرية ومناصرة المساواة العنصرية، والتي أصبحت من الملامح المميزة لعالم ما بعد الحرب. وإذا نظرنا إلى هذه الحركات نظرة كلية فسوف نجد أن لها بُعدين: ثقافى وبنائى. فمن الناحية الثقافية أكدت تلك الحركات على واقع الإنجاز الذى يحققه السود – وهو موضوع أغفله المناهج الدراسية الرسمية بما فيها علم الاجتماع – واحتجاجها على التفرقة العنصرية بالهجوم على الأنماط الجامدة والدعابات التى تسخر فيها الأعراق من بعضها البعض. وقد حاول كثير من علماء الاجتماع أن يحرروا موضوع العلم من العنصرية، وحدث نفس الشئ فى مجالات أكاديمية أخرى مثل التاريخ. وقد تزايد الاهتمام بحركات السود والقضايا المتعلقة بثقافة السود وعلاقتها بثقافة البيض، ومع ذلك لا تزال هناك قضايا كثيرة بحاجة إلى التحليل.

ويركز البُعد البنائى للنزعة المعادية للعنصرية على افتقاد السود للقوة فى المؤسسات: الاقتصادية والتعليمية وما إليها. وبهذا المعنى أصبحت العنصرية المؤسسية مفهوماً مقبولاً فى علم الاجتماع. وهناك جدل حول ما إذا كان علماء الاجتماع يطبقون القيم المعادية للعنصرية تطبيقاً مؤثراً على تنظيم علم الاجتماع. فهناك أقلية من السود تحتل مواقع مهمة فى علم الاجتماع مثلما هو الحال فى المهن الأخرى. ويستثنى من هذا علم الاجتماع العنصرى نفسه، وإن كان ذلك يعزز من الأنماط الجامدة عن السود.

اليمين الجديد: The New Right

تقوم فلسفة اليمين الجديد فى جوهرها على الاعتقاد فى شكل خاص من أشكال الفردية، وشك مضاد فى سيطرة الدولة وتدخلها. ويعد فلاسفة اليمين الجديد (أمثال روجر

إسكروتون) وساسته (مثل نورمان تيببت) أفراداً راديكاليين، بمعنى أنهم يؤمنون بأقصى حرية ممكنة للفرد. وقد وجدت هذه الأيديولوجية أبرز تطبيق مؤثر لها في مجال الاقتصاد، حيث أصبح لمدخل "السوق الحرة" تأثير على نطاق عالمي في العقد الماضي أو نحوه. ومع ذلك فإن اليمين الجديد يعد حركة أخلاقية وثقافية تعادل مضمونها الاقتصادي. واتخذ خطاب اليمين الجديد حماساً إحيائياً من حين إلى آخر، وهنا يلاحظ إعادة إحياء اليمين الجديد منذ انحسار مده في الستينيات. ويؤمن اليمين الجديد إيماناً راسخاً بأن الرأسمالية هي النظام الاجتماعي - الاقتصادي الوحيد الذي يجيز الحرية الفردية.

وقد أخذ تأثير الفكر اليميني الجديد على علم الاجتماع بعض الوقت حتى يؤتى ثماره. ففي أواخر الثمانينات كتب ديفيد مارسلاند منتقداً ما ارتآه تحيزاً واضحاً للجناح اليساري في المؤلفات المدرسية في علم الاجتماع، مع أنه لم يطرح تفسيراً سوسيولوجياً عاماً يحتوي منظورات اليمين الجديد. وقد طرح بيتر سوندرز هذا التحليل في كتابه "الطبقة الاجتماعية والتدرج الطبقي" وأفضلية هذا التحليل على التحليلات الأخرى. ومع ذلك مازلنا بحاجة إلى رؤية الأثر الكلي المحتمل للفكر اليميني الجديد على علم الاجتماع، وما إذا كان ذلك سيؤدي إلى ظهور مدرسة اليمين الجديد في علم الاجتماع أم لا.

تأثير أفول الشيوعية على علم الاجتماع الماركسي

ربما تكون الآثار المترتبة على انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية في علم الاجتماع الماركسي تأثيرات عميقة، إلا أنه من غير المحتمل أن يؤدي ذلك إلى إضعاف الثقة في علم الاجتماع الماركسي أو التخلي عنه كلية. فعلم الاجتماع الماركسي يختلف اختلافاً تاماً عن الممارسة الشيوعية: السياسية والاجتماعية، فهو - أي علم الاجتماع الماركسي - بمثابة نظرية عن المجتمع، وأغلب تطبيقاتها التفصيلية تنسحب على المجتمع الرأسمالي. ويمكن أن ننظر في التحليل الماركسي للرأسمالية كشيء منفصل تماماً عن محاولات بناء المجتمعات الشيوعية. وقد أوضح الكاتب المكسيكي أوكتايفو باز هذه النقطة بقوله: "إن فشل الشيوعية في تقديم إجابات مقنعة لمسائل المجتمع لا يعني أن تلك المسائل خاطئة". وتستمر الماركسية في طرح تفسيراتها وتعقيباتها على الفقر واللامساواة، والفساد السياسي الحضري، وتزايد الجريمة، وصعود ثقافة الاستهلاك في المجتمع الرأسمالي.

ولا يمكن لعلم الاجتماع الماركسي - مع هذا - أن يظل منظوراً نقدياً فحسب، لا

يستجيب للأحداث التاريخية. وفي تقديري أن فشل الشيوعية السوفيتية (أو شيوعية القرن العشرين) يقدم درساً لم يتعلم منهما الماركسيون بعد، أولهما أن الشيوعية والاشتراكية لا بد أن تكون ديموقراطية. فالشمولية (مذهب تجميع السلطة) شر بشرى لا يمكن المخاطرة به مرة ثانية. ولا بد أن يكتسب النقد الماركسي للرأسمالية قدراً أكبر من الصلابة والإقناع إذا كان لديه المزيد الذى يقوله بشأن الديموقراطية والمشاركة.

وثانى هذين الدرسين أنه أصبح من البديهي الآن أن الأسواق الحرة عليها أن تعمل لتوفير معظم السلع والخدمات من منطق الاختيار والكفاءة (هذا على الرغم من أن التعاونيات وكذا المشروعات الرأسمالية بوسعها أن تتنافس فى الأسواق الحرة. وأن هناك بعض السلع أو الخدمات - مثل الصحة - لا بد من توفيرها على أساس الحاجة بدلاً من القوة الشرائية للفرد). وربما تكون الشيوعية التى تتسم بالديموقراطية وترحب بالأسواق الاقتصادية شيئاً لا يختلف عن الاشتراكية الديموقراطية. وإذا تقبل علم الاجتماع الماركسي هذه الفرضيات، فسوف يبدأ فى فقدان سماته المميزة له، ويتم احتواؤه فى منظور أو مدخل سوسولوجى راديكالى أكثر عمومية.

علم الاجتماع الراديكالى: Radical Sociology

هناك إدعاء قوى مؤداه أن الماركسية لم تعد فى الواقع هى علم الاجتماع البديل الرئيسى عن علم الاجتماع الوظيفى / الرأسمالى. فقد اتضح لنا مما سبق أن جانباً كبيراً من علم الاجتماع ظهر منذ الستينيات ليعكس المنظورات النسوية والمعادية للعنصرية. أضف إلى ذلك أن معظم التحليلات السوسولوجية لعدم المساواة الطبقة لم تقم على افتراضات ماركسية رصينة (وهى الافتراضات التى اختلف بشأنها الماركسيون فى كل الأحوال). وأصبحت أضلاع مثلث عدم المساواة (النوع الاجتماعى، السلالة، الطبقة) هى محور اهتمام ما يمكن أن نطلق عليه: "علم الاجتماع اليسارى الراديكالى". وإذا قبلنا الادعاء بوجود علم اجتماع راديكالى عام، فإن ثمة اتجاهات واضحة لدى علماء الاجتماع المهتمين بضلع واحد من هذه الأضلاع الثلاثة أن يهتم أيضاً - بدرجة أو بأخرى - بالضلعين الآخرين.

ومن الخصائص الأساسية لعلم الاجتماع الراديكالى أنه ينتقد اللامساواة فى المجتمع الراهن، وأنه يهتم بإمكانية تغييرها. وقد عبر عن هذه الخصائص تعبيراً واضحاً هوارد شيرمان وجيمس وود فى كتابهما "علم الاجتماع: المنظورات التقليدية والراديكالية" بقولهما:

"يحاول علم الاجتماع الراديكالى أن ينظر فى الترتيبات الاجتماعية من

منظور الجماعات المضطهدة مثل الفقراء، والعاطلين، والعاملين، والسود، والأقليات الأخرى، والنساء. ومن هذا المنطلق ينصرف علم الاجتماع الراديكالي بعناية إلى المؤسسات الرئيسية في المجتمع الرأسمالي، حيث يهتم بكيفية وصول تلك المؤسسات - اجتماعية وسياسية واقتصادية - إلى أشكالها الحالية، ومن هم المستفيدون منها، ووما إذا كان التغيير الجذري في المجتمع ممكناً وضرورياً. وأخيراً يهتم علم الاجتماع الراديكالي بالبدائل المحتملة للتنظيم الاجتماعي الحالي".

(Sherman & Wood, 1982: Preface)

ولابد لنا أن نضيف أن علم الاجتماع الراديكالي عليه الاهتمام بالحرية الإنسانية قدر اهتمامه بتحقيق مزيد من المساواة. إن فشل الشيوعية في أوروبا الشرقية - خاصة في مجال الاضطهاد وإنكار الحقوق الإنسانية والمدنية - يجب أن يوضح أن أية محاولات لتحقيق مزيد من المساواة على حساب الحريات الأساسية لن تحقق لا هذا ولا ذاك. ولابد من وجود تحليل رصين للعلاقة بين الحرية والمساواة، وللتوازن المطلوب بينهما.

وأخيراً فإن اهتمام علماء الاجتماع الراديكاليين بالاضطهاد واللامساواة اهتمام يتزايد على المستوى الكوني لا على المستوى الوطني الضيق، وهذا ما يعكس الطبيعة المتشابكة للمجتمع الكوني. وسوف نعالج هذه القضية باختصار في الجزء التالي.

النزعة البيئية: Environmentalism

برز الوعي بالبيئة والاهتمام بها خارج نطاق علم الاجتماع، شأنه في ذلك شأن الحركات الأخرى التي ناقشناها من قبل. والحقيقة أن علم الاجتماع - حتى وقت حديث - كان أبطأ في تجسيد منظور بيئي مقارنة بالمنظور النسوي أو المنظور المعادي للعنصرية على سبيل المثال. وتفسير ذلك مرده أنه إذا كانت النسوية والنزعة المعادية للعنصرية تركز على جماعات اجتماعية بعينها، فإن حالة البيئة ليست من شأن أية جماعة على وجه الخصوص، مع أن البيئة تؤثر في كل فرد.

ومع ذلك فقد مست النزعة البيئية علم الاجتماع مساً وثيقاً في مجال التغيير الاقتصادي وما يرتبط به من تغيير اجتماعي. ومن هنا تزايد اهتمام علماء الاجتماع بتحليل الاستثمار الاقتصادي من عدمه في بريطانيا وعلى المستوى الدولي من حيث تأثيره على الناس من جانب، وعلى البيئة من جانب آخر. وتركز تحليلات المجتمع المحلي الآن على استقرار الناس في سياقات بيئية وكذا سياقات اجتماعية، وكلاهما يرتبط بالتنمية الاقتصادية أو انعدامها. ولذلك يُنظر في انحسار المناطق الحضرية الداخلية

واحتمالات إعادة إحيائها على أنها قضية معقدة: اقتصادية واجتماعية وبيئية. ويعنى الفساد الحضري: البطالة، وبيئة صناعية متدهورة، وانعدام الفرص، والفساد الأخلاقي، والاستياء. ولسنا واضحين بعد على ما يعنيه إعادة إحياء هذه المناطق.

ويحدث التكامل في التحليلات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية في مجال التنمية والتخلف الدوليين. فهناك وعى متزايد - على سبيل المثال - بأن الشركات متعددة الجنسيات تستطيع أن تسحق المجتمعات المحلية، وما لم تسيطر الحكومات على تلك الشركات، فإنها قد تفعل ذلك دون أدنى مسؤولية. هذا بالإضافة إلى تنامي الوعي بالتمير البيئي الذي تحدته التنمية الاقتصادية في بعض الأحيان ويترك أثره على الناس وكوكب الأرض، والوعي بالمخاطر الناجمة عن إهمال هذا التدمير وتركه كدين ثقيل للأجيال المقبلة.

العولمة: Globalization

يحاول علم الاجتماع أن يكيف نفسه ليتصارع مع العولمة المتسارعة. وتحدث هذه الظاهرة سياسياً (التحرك إلى مزيد من التعاون الأوروبي على سبيل المثال)، وثقافياً (عبور الإعلام والديانات الحدود الدولية)، واقتصادياً بطبيعة الحال. وقد اصل علم الاجتماع سعيه الدؤوب إلى تفسير هذه التغيرات في سياق "عالم متشابك" أو "قرية كونية" بلغة مارشال ماكلوهان.

النظريات البعدية: The 'Post' Theories

هناك أربع نظريات أساسية في علم الاجتماع اقترنت كل منها بكلمة "ما بعد" لتعني بداية شئ ونهاية شئ آخر. وهذه النظريات هي:

- 1- نظرية مجتمع ما بعد الصناعة. Postindustrial Society Theory
- 2- نظرية ما بعد الفوردية. Post - Fordist Theory
- 3- نظرية ما بعد البنوية. Poststructuralism
- 4- نظرية ما بعد الحداثة. Postmodernism

تطورت نظرية مجتمع ما بعد الصناعة على يد دانيال بيل في كتابه "مجئ مجتمع ما بعد الصناعة: مغامرة في التنبؤ الاجتماعي" (١٩٧٣). ويزعم بيل أن الإنتاج ونشر المعلومات حلا محل الإنتاج الصناعي كعملية اقتصادية محورية في المجتمعات الغربية. كما يرى أن طبقة جديدة من الخبراء المحليين والتكنولوجيين والمهنيين هي التي تدير المجتمع الآن. وكان بيل من أوائل من لاحظوا أن المجتمعات الغربية تحولت من إنتاج السلع إلى إنتاج الخدمات، وأن المعرفة والثقافة أصبحتا أكثر أهمية من الأمور المادية في

هذه المجتمعات.

ووفقاً لنظرية ما بعد الفورديّة فقد حدث انحسار حاد في تنظيم الإنتاج القائم على نظام التجميع في شركات هنري فورد. ويذهب أنصار هذه النظرية – شأنهم في ذلك شأن بيل – إلى أن استخدام تكنولوجيا المعلومات أضحى له تأثير ضخم على تنظيم الإنتاج مما يتطلب عدداً قليلاً ومرناً من العاملين الأفضل تعليماً. ولاحظ مشايعو هذه النظرية أن الاتجاه نحو التنظيم الأكثر مرونة والأقل حجماً يحدث في ميادين أخرى عديدة بالمجتمع منها الحكومة ودولة الرفاه.

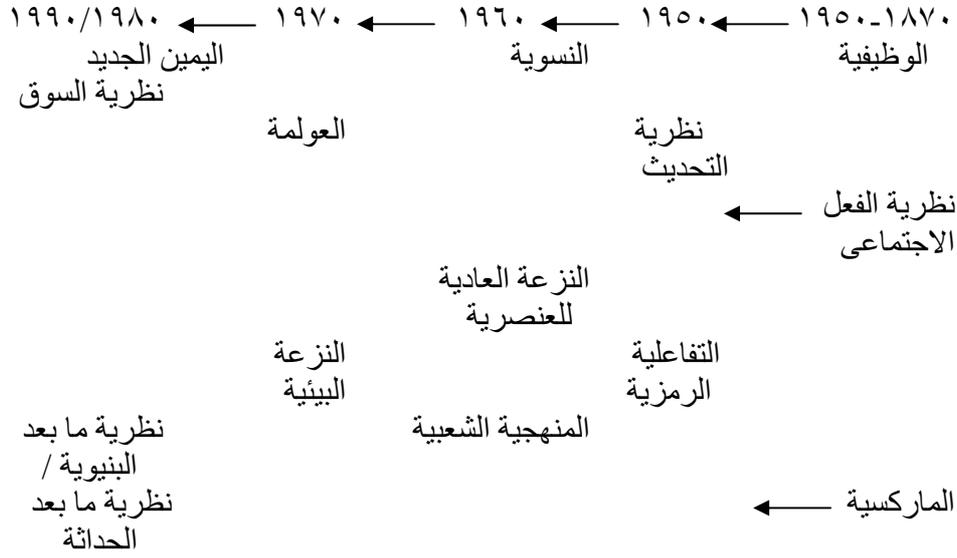
وتؤكد الانتقادات الموجهة إلى نظرتي مجتمع ما بعد الصناعة وما بعد الفورديّة على أن هذه التطورات تحدث في النظام الرأسمالي، وهو الذي يشكلها، وأنها أدت إلى فقدان الوظائف، والاضطراب الاجتماعي. كما لوحظ أن هذه التغيرات ليست محصلة المسيرة الحتمية للتكنولوجيا والمعلومات، وأنه يمكن تحقيقها وتشكيلها تبعاً للأولويات الإنسانية.

وسوف نناقش بالتفصيل فيما بعد الاختلاف بين نظرتي ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة. ونشير إلى كليهما ضمن حركة "ما بعد الحداثة" التي تركز إلى عقيدتين أساسيتين إحداهما سلبية والأخرى إيجابية. وتتمثل الفكرة السلبية لما بعد الحداثة في أن فلسفات التقدم الماركسية والليبرالية – وهي فلسفات يوتوبية (خيالية) – مدانة بأن تقديراتها كانت خاطئة وساذجة. فقد قلت هذه الفلسفات إلى حد كبير من آثار تحطيم الكائنات الإنسانية لبعضها البعض وللعالم الطبيعي. ويقابل هذه الملاحظة الكئيبة الفكرة الإيجابية عن نظرية ما بعد الحداثة، وهي أن الناس (أفراداً وجماعات) – بتحريضهم من أوهام الإيديولوجيات الكبرى – يستطيعون المضي قدماً في تنمية هوياتهم ومشروعاتهم. وفي غياب خطط كبرى يكون الناس أحراراً في وضع خططهم الخاصة. ومن الأمور المتناقضة أن هذا الرأي لا يرتد بنا إلى ليبرالية خيالية بل إلى ليبرالية التسوية: احترام حرية الآخرين يستوجب أن نحد من حرياتنا، الآخرون لهم حق في التعبير عن هويتهم، لا بد من قبول التعددية (التنوع) والاختلاف. ومن ثم فإن نظرية ما بعد الحداثة هي في جانب منها فلسفة متواضعة في الحذر المضاد للخيالية، وهي في حد ذاتها تتفق مع ضرب من ضروب الواقعية الخاضعة مع دخولنا الألفية الثالثة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تتزامن هذه الفلسفة مع فترة من التجديد والفجائية والغرابة الثقافية.

شكل ١-٢

علم الاجتماع: الاتجاهات النظرية والمؤثرات الرئيسية(*)

(*)



أنماط المجتمع: التقليدي، والحديث، وما بعد الحديث

يكتنف تصنيف المجتمع إلى أنماط عامة عدة مشكلات. فهذا التتميط غالباً ما يكون مشبعاً بأحكام قيمية حول أي المجتمعات أكثر "تقدماً" أو "مدنية". ومن ثم فإن استخدام مصطلح "البدائي" لوصف المجتمعات المتأخرة يصعب قبوله؛ لأنه يحمل دلالات ساذجة عن "الهمجية" و"انعدام الحضارة".

وأياً كانت المشكلات التي تحيط بتتميط المجتمعات، فإن ذلك لم يوقف علماء الاجتماع عن بذل محاولاتهم في هذا الصدد. والحقيقة أنه يصعب على علماء الاجتماع تحاشي هذا الأمر، إذ أن مقارنة مختلف جوانب المجتمعات في مراحل مختلفة من تاريخها يعد أساساً لفهم كيفية عمل المؤسسات الاجتماعية وتغيرها. ومع ذلك فإن التتميط العام للمجتمعات الذي نعرض له فيما يلي (انظر شكل ٣-١) لن يلقى اتفاقاً عاماً بين علماء الاجتماع. ونشير إلى بعض جوانب هذا الاختلاف بمصطلحات بديلة بين القوسين.

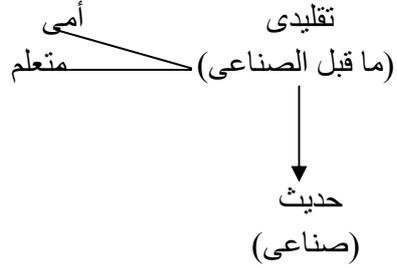
شكل ٣-١

أنماط المجتمع

أمثلة
قبائل الزولو
دول أوروبا في العصور الوسطى

إنجلترا، ١٩٠٠

الولايات المتحدة/الاتحاد السوفيتي،
١٩٥٠
الولايات المتحدة، ١٩٩٦
هونج كونج؟



(رأسمالي/شيوعي)
ما بعد الحديث
(ما بعد الرأسمالية)
(ما بعد الحداثة)

المجتمع التقليدي

غالباً ما يشار إلى المجتمع التقليدي بالمجتمع قبل الصناعي؛ لأن مصطلح "تقليدي" يرتبط في بعض الأحيان بانتقادات مماثلة لمصطلح "بدائي". ومع ذلك فإن مصطلح "تقليدي" – رغم بعض دلالاته اللفظية السلبية – يفضل بعض علماء الاجتماع لأنه يشكل أساساً مفيداً للمقارنة مع المجتمع الحديث أو الحداثة. وتقوم المجتمعات التقليدية على قيم وسلطة راسخة، والدين – في الغالب – هو أساس هذه المجتمعات.

المجتمع الحديث (المجتمعات الرأسمالية / الشيوعية)

يمتاز المجتمع الحديث وعصر الحداثة بارتقاء العلم والتكنولوجيا، والتصنيع والبيروقراطية، والاعتقاد السائد (أو الإيديولوجيا) في إمكانية التقدم الإنساني والاجتماعي. وهذه الإيديولوجية لها جذورها في عصر التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر. ومع أن فيبر كان يساوره الشك في مسيرة التقدم، فقد كان بمثابة عالم الاجتماع الأكثر مسؤولية عن تطوير نظرية المجتمع الحديث والبيروقراطية.

وفي العادة يفضل الماركسيون تصنيف المجتمعات الصناعية إما إلى مجتمعات رأسمالية أو مجتمعات شيوعية بدلاً من استخدام مصطلح "حديث" لوصف كليهما. وفي رأيهم أن الحقبة الحالية يفضل وصفها بـ"الحقبة الرأسمالية"، وأن الشيوعية تمثل شكلاً بديلاً ممكناً من أشكال التطور المنبثق عن الرأسمالية.

ويعكس كثير من الاهتمام الحالي بالحداثة بين العلماء الاجتماعيين الحقيقة التي يؤمن بها نفر كبير منهم، وهي أن الحداثة إما أنها تمر بتغيير جذري، أو أنها إلى زوال

لتحل محلها الحادثة المتأخرة أو ما بعد الحادثة.

وأياً كان الأمر فإن عديداً من علماء الاجتماع يشيرون إلى أن المجتمع الكونى يمر بتغير عميق.

المجتمع بعد الحديث (أو مجتمع ما بعد الحادثة أو مجتمع الرأسمالية المتأخرة)

ما هي - إذن - خصائص "الحادثة المتأخرة" - المصطلح الذى أطلقه أنتونى جيدنز على الفترة الحالية، أو "ما بعد الحادثة" كما يفضل آخرون أن يسموها بذلك؟ يزعم جيدنز أن إحدى خصائص الحادثة المتأخرة وجود وعى قومى بإخفاق الحادثة، خاصة فيما يتعلق بالدمار الذى أحدثته بالبيئة وما يمثله ذلك من أخطار للجنس البشرى. ويرتبط بذلك انحسار الإيمان بالتقدم، والانصراف عن القضايا السياسية والقضايا العامة إلى الاهتمامات الفردية والشخصية. وعلى الرغم مما يتسم به هذا التحليل من عمومية وتفكير طموح، إلا أنه يعجز عن طرح نظرية ملائمة للحادثة المتأخرة.

وقد تطرق كريشان كومار إلى فهم المشكلة من خلال مصطلحه المفضل "مجتمع ما بعد الحادثة" بطريقة مختلفة. ويزعم كومار فى كتابه "من مجتمع ما بعد الصناعة إلى مجتمع ما بعد الحادثة" (١٩٩٥) أن النظريات "البعدية" الأربعة (نظرية مجتمع ما بعد الصناعة، ونظرية ما بعد الفوردية، ونظرية ما بعد الحادثة التى ضمنها نظرية ما بعد البنيوية) نظريات متكاملة إلى حد كبير. ويرى كومار أننا إذا نظرنا فى هذه النظريات معاً، فإنها تشكل أساساً لنظرية متكاملة عن العالم المعاصر. وسوف نناقش أفكار كومار لاحقاً. وكيفنا هنا أن نستشهد من كتابه ما نستدل به على وجهة نظره فى قوة هذه النظريات وعلاقتها بالحادثة:

"نحن نعيش فى عالم مشبع بالإعلام والاتصال. وتتغير طبيعة العمل والتنظيم الصناعى بسرعة مثيرة. وقد وصلت المجتمعات الحديثة بالفعل إلى مرحلة أصبحت معها كثير من اتجاهاتها وفرضياتها الكلاسيكية موضع شك كبير، حتى ولو لم تكن تلك المجتمعات قد تخلت عن الحادثة".

(Kumar, 1995: 201)

ويعترف كومار بأنه من السابق لأوانه أن نخلص إلى أن هذه النظريات الجديدة سوف تحل محل النظريات الكلاسيكية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، تلك النظريات التى بنيت عليها إلى حد جزئى نظريات الحادثة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكن ماركس وفيرير ودوركايم وميد من الأنبياء، وليست مؤلفاتهم "ككتباً مقدسة"، بل هى قابلة للمراجعة النقدية والتطوير، بل والنبد إذا تبين عدم ملاءمتها.

ويتفق كثير من الماركسيين المعاصرين مع منظرى ما بعد الحداثة على أن الفترة الحالية فترة تغير ضخم وسريع تشهد على الانتصار الساحق للرأسمالية الذى شمل الكون بما فى ذلك الصين وروسيا وحتى كوبا.

وقد حدثت العودة إلى الشيوعية فى روسيا وغيرها من الدول الأوربية الشرقية عام ١٩٩٥ فى إطار انتخابات ديموقراطية وتعهد مستمر بالاستثمار من الدول الرأسمالية. ولذلك يميل الماركسيون إلى تسمية الفترة الحالية بـ"الرأسمالية المتأخرة" بدلاً من "الحداثة المتأخرة" أو "ما بعد الحداثة". ومع ذلك فإن التحليل الذى قام به الماركسيون أمثال جيمسون وهارفى للرأسمالية المتأخرة يتشابه كثيراً مع تحليل نظرية ما بعد الحداثة للدور المتعاطم للاتصال والثقافة والنزعة الاستهلاكية فى العالم المعاصر. ومع ذلك نلاحظ أن أنصار نظرية ما بعد الحداثة يرون فى هذه التغيرات إمكانية الاختيار والإبداع، فى حين يرى فيها الماركسيون المناورة الرأسمالية والدافعية للربح.

أنماط المجتمع وأنماط التفسير الاجتماعى

يبرهن الشكل ٤-١ على وجود علاقة قوية بين أنماط المجتمع – التقليدى، والحديث، وما بعد الحديث – والطريقة التى يفهم ويفسر بها أعضاء هذه المجتمعات معنى حياتهم وحياة الآخرين (أى تفسيراتهم الاجتماعية). ويميل الناس إلى تفسير حياتهم باستخدام أنماط النظريات السائدة فى مجتمعاتهم (مع أن هناك استثناءات عديدة).

شكل ١ - ٤

أنماط المجتمع والتفسيرات الاجتماعية

نمط المجتمع	الأنماط السائدة للتفسير الاجتماعى
تقليدى	سحرى دينى
حديث	علمى عقلانى علمى اجتماعى
ما بعد الحديث	العلم والمنطق (متضمناً العلم الاجتماعى)، ولكنه تفسير أكثر تأثراً بالقيم الأخلاقية والعاطفية والشخصية

الأنماط السائدة للتفسير الاجتماعى فى المجتمع التقليدى

كانت أنساق المعتقدات فى المجتمعات التقليدية – ولا يزال الباقي منها – يقوم على

أساس من السحر أو الدين أو كليهما معاً. والدين يفسر المجتمع بالنسبة لمعظم الناس فى هذه المجتمعات. ومن ثم فليس ثمة حاجة إلى وجود دراسة مستقلة للمجتمع أو علم الاجتماع. وقد تناقصت أهمية الدين فى الغرب حيث أصبح العلم هو الأساس البديل للتفسير، وكان تأثير الغرب على كثير من المجتمعات التقليدية تأثيراً قاسياً ومؤدياً. وهناك جدل حول احتفاظ الثقافات الإسلامية والهندوسية والبوذية فى الشرق الأدنى والأقصى بهويتها التقليدية الأصيلة فى نضالها لاستيعاب المؤثرات الغربية. ومع ذلك فقد كان تأثير الغرب على الثقافات الأفريقية وثقافات الهنود الأمريكيين أكثر تدميراً وتمزيقاً. وينشغل الباحثون حالياً بدراسة هذه الآثار الجمعية- النفسية والثقافية - على هذه الشعوب.

الأنماط الساندة للتفسير الاجتماعى فى المجتمع الحديث

يوجد اتجاه فى المجتمعات الحديثة نحو التفسيرات العلمانية والعلمية لكل صور الوجود، وذلك على الرغم من تشبث بعض الناس برؤية دينية كلية للعالم والآخرين. ومن هؤلاء العالم إسحق نيوتن الذى استشعر مقدرته على الالتزام بالتفسيرات الدينية والعلمية للكون. وقد أوضحنا من قبل أن مؤسسى علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر حاولوا تأسيس علم للمجتمع (ولكن ذلك لا يعنى بالضرورة أنهم افتقروا إلى منظور إنسانى).

وليس من الغريب أن انشغل علماء الاجتماع المؤسسون انشغالاً كبيراً بوصف وتفسير التغير من المجتمع الزراعى التقليدى إلى المجتمع الصناعى الرأسمالى الحديث. فقد وصف دوركايم الانصياع التلقائى من جانب أعضاء المجتمع التقليدى للمعايير والقيم والعلاقات الاجتماعية بـ "التضامن الآلى". وأطلق مفهوم "التضامن العضوى" على النسيج المعقد للعلاقات الاجتماعية فى المجتمع الحديث. ويزعم دوركايم أن أساس التضامن العضوى هو تقسيم العمل الذى يعتمد فيه كل عامل فى القيام بعمله على عمل الآخرين. كما وصف فرديناند تونيز - الذى كان معاصراً لدوركايم - التغير من المجتمع التقليدى إلى المجتمع الحديث بأنه تغير من رابطة اجتماعية تقوم على المجتمع المحلى إلى رابطة تقوم على التعاقد (أى رابطة منظمة تقوم على المصالح المتبادلة).

وقد استخدم مؤسسو علم الاجتماع مناهج الحداثة (أى المنهج العلمى) فى محاولتهم تفسير تطور المجتمع الحديث. وتطلع دوركايم وماركس بصفة خاصة إلى تأسيس علم للمجتمع. إذ حاول دوركايم توضيح "قواعد المنهج فى علم الاجتماع" فى كتاب يحمل نفس العنوان. ويبدو أن ماركس ادعى فى بعض كتاباته أنه اكتشف المنطق العلمى للتطور التاريخى. وكان فيير صارماً فى إصراره على التحليل العلمى المحايد للمجتمع

مع أنه سعى في منهجه إلى فهم المشاعر والمعاني لدى الناس. ويعتقد فيبر أن الصناعة الحديثة والبيروقراطية أفضت إلى التقدم المادى جنباً إلى جنب آثارها المجرده من الإنسانية.

ولم يكن فيبر لوحده في وعيه بالآثار السلبية للحدائثة أو بجانبها المظلم (الأسود). فقد أوضح كريشان كومار أن الاحتجاج ضد تجاوزات الحدائثة – الفحش الصناعى والاستغلال البشرى – قديم قدم الحدائثة ذاتها. وهذا الاحتجاج تم التعبير عنه بشكل أقوى فى الفنون والآداب عنه فى العلوم الاجتماعيه. فقد شجب الشعراء الرومانسيون فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر إفساد الطبيعة (وهو ما نسميه الآن "البيئته") بالمصانع الشيطانية السوداء. كما اهتم ديكنز فى أواخر العصر الفيكتورى بوصف الفساد الحضرى وشجبه. وفى الأربعينيات من القرن الماضى عبر بيكاسو عن القوة التدميرية للتكنولوجيا العسكرية فى إحدى لوحاته "تفجير جيرنيكا". وقد عبر علماء الاجتماع أيضاً عن حساسيتهم إزاء الجوانب الأخلاقية والعاطفية للتجربة الإنسانية، إلا أنهم لم يعكسوا ذلك فى كتاباتهم. وربما يتغير هذا الوضع. ويبدو أن تأثير نظرية ما بعد الحدائثة على علم الاجتماع سوف ينتج مجموعة من المفاهيم والمناهج التى تقرب علم الاجتماع قليلاً من القلب البشرى.

الأنماط الساندة للتفسير الاجتماعى فى مجتمعات ما بعد الحدائثة

لا يزال النمط السائد للتفسير الاجتماعى أو السوسيوولوجى فى عصر الحدائثة المتأخرة ينهض على التفسير العلمى الاجتماعى العقلانى. والحقيقة أن مجموعة نظريات علم الاجتماع التى عرضنا لها باختصار آفأ، والمناهج التى سناقشها لاحقاً لا تزال تشكل عصب المشروع السوسيوولوجى. ومع ذلك فثمة تغير حاد فى اتجاه فهم الجوانب الأخلاقية والعاطفية والشخصية لأعضاء المجتمع وللمؤلفين فى علم الاجتماع أنفسهم. ويمكن توضيح هذه النقطة باستعراض قائمة بعض محتويات مجلة "علم الاجتماع" Sociology ما بين أوائل ١٩٩٣ وأواخر ١٩٩٥:

- عدد خاص: السيرة الذاتية فى علم الاجتماع.
- قراءة الحياة: كيف يصير الشخص اجتماعياً؟
- قصص محبوبكة: السيرة الذاتية فى البحث النسوى.
- حتى علماء الاجتماع يقعون فى الحب: بحث فى علم اجتماع العواطف.
- الحب والمودة: التقسيم النوعى للعاطفة والعمل العاطفى.

- نحو علم اجتماع الطبيعة.
- الموت البطولى.
- الهوية الثقافية.
- الاستهلاك وتشكيل الهوية.
- الحب والموت والهوية.

وهذه المجالات لم ترتبط كثيراً بعلم الاجتماع، وكان الاعتقاد بأنها تشكل موضوعاً لعلم النفس أو الأدب. وهنا نسأل: ماذا يحدث إذن؟. وبلغة بسيطة يمكن القول أن كثيراً من علماء الاجتماع بدأوا يقتنعون أن علم الاجتماع الكلاسيكى – بما فيه علم الاجتماع التأويلى – لم يعط التجربة الإنسانية حق قدرها. وتبذل جهود حالياً – كما اتضح من عناوين المقالات السابقة – لفهم ذاتية (الرؤى الشخصية / المشاعر) كل من الناس الذين يدرسه علماء الاجتماع من جهة، وعلماء الاجتماع أنفسهم من جهة ثانية. ولم يكن الاهتمام بالرؤى والمشاعر الشخصية بجديد على علم الاجتماع، بل ازدهر هذا الاهتمام حالياً إلى حد ترك أثره فى هذا العلم وسيظل يؤثر فيه.

والسؤال الآن: ما الذى دفع إلى إعادة الاهتمام بالذاتية فى علم الاجتماع؟ يعود الاهتمام الحالى بجذوره إلى حركات الاحتجاج فى الستينيات التى زعمت أن الاتجاه السائد فى الحياة السياسية والعامة أصبح بعيداً عن خبرات الأغلبية وقيمها. وربما تكون الحركة النسوية هى التى عززت النزعة العاطفية أكثر من أية حركة أخرى. ولم يكن شعار النسوية "الشأن الشخصى شأن سياسى" The Personal is Political مجرد صيحة إيديولوجية، بل هى برنامج للتغيير الاجتماعى. وتسعى النساء فى علم الاجتماع وغيره من العلوم إلى أن تظهر القضايا الشخصية على السطح وتوضح علاقتها بالسياقات الكبرى.

خاتمة

لا يزال التيار الكلاسيكى فى نظرية علم الاجتماع – كما وصفه تشارلز رايت ميلز – يشكل المصدر الرئيسى للرؤية السوسولوجية للمجتمعات: التقليدية، والحديثة، وما بعد الحديثة. ويكتمل صدق هذه المقولة إذا أدرجنا النظرية التأويلية – خاصة التفاعلية الرمزية – ضمن التيار الكلاسيكى. ولا يزال البناء الاجتماعى للطبقة، والنوع الاجتماعى، والسلالة / العرق، والعمر، واللامساواة الكونية من صميم اهتمام معظم

التحليلات فى علم الاجتماع.

ومع ذلك فإن تأكيد علم الاجتماع المعاصر على الربط بين الشخصى والاجتماعى وكيفية تشكيل الهوية فى عالم مشبع إعلامياً عن ثقافة الاستهلاك التجارية، لا يفتح فحسب مجالات غير مألوفة للاهتمام السوسولوجى، بل إنه يغير من طريقة رؤيتنا للاهتمامات الراسخة. وبالنسبة لمن يرون فى هذا الرأى العاطفى بدعة، عليهم ألا يصدموا بما قاله رايت ميلز منذ نحو ٤٠ عاماً مضت:

"نحن نقرب الآن من نهاية العصر الذى يطلق عليه العصر الحديث. ومثلما تلا العصور القديمة عدة قرون من الهيمنة الشرقية التى يطلق عليها الغربيون من ذوى الأفق المحدود فى التفكير "عصور الظلام"، فإن العصر الحديث الآن تعقبه فترة ما بعد الحداثة.

ومن المؤكد أن نهاية فترة وبداية فترة أخرى أمر يتعلق بالتعريف. غير أن التعاريف - مثل كل شئ اجتماعى - تكون محددة تاريخياً. والآن نرى تعاريفنا الأساسية للمجتمع والذات يتجاوزها واقع جديد. وأنا لا أعنى فقط أننا نشعر أننا نعيش فى حقبة تحول. ما أعنيه أن كثيراً من تفسيراتنا مشتقة من التراث التاريخى العظيم من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، وعندما يتم تعميم هذه التفسيرات الآن تصبح تفسيرات فاشلة وغير ذات أهمية وغير مقنعة. وما أعنيه أيضاً أن توجهاتنا الرئيسية - الليبرالية والاشتراكية - تضاءلت أهميتها بالفعل كتفسيرات ملائمة للعالم ولأنفسنا".

(The Listener, ١٩٥٩)

استخلاصات أساسية

- (١) علم الاجتماع هو الدراسة النظامية للمجتمعات. ويتألف المجتمع من أفراد وجماعات. وبوسع علم الاجتماع أن يساعد الذات أو الفرد فى فهم حياته بشكل أفضل، وذلك بتفسير كيفية تأثير الأحداث "الخارجية" على الخبرات الشخصية.
- (٢) هناك مجموعة من المفاهيم الأساسية المترابطة فى علم الاجتماع مثل "الذات والتنشئة الاجتماعية والثقافة"، و"القيم والمعايير"، و"المكانة والدور".
- (٣) يمكن النظر إلى علم الاجتماع عند ماركس ودوركايم وفبير على أنه بمثابة محاولات لفهم التطورات الضخمة فى عصرهم مثل الرأسمالية والتصنيع والتحضر وظهور أشكال جديدة للصراع الاجتماعى. وكانت منظورات هؤلاء العلماء أو نماذجهم عن المجتمع

بنائية بطبيعتها، بمعنى أنها اهتمت بوصف كيفية قيام القوى والتطورات الاجتماعية بالتأثير في حياة الأفراد والجماعات أو تشكيلها.

(٤) تنهض الوظيفية على منظور مؤداه أن النظم الاجتماعية الرئيسية والأنساق الفرعية (مثل الأنساق القرابية والاقتصادية) وُجدت لتتبع احتياجات إنسانية أساسية (مثل الإنجاب، والإنتاج / الاستهلاك). وترتبط الوظيفية المعاصرة بعالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز بصفة خاصة، مع أن بارسونز نفسه تأثر بدوركايم أيما تأثر.

(٥) تقوم الماركسية على منظور فحواه أن الصراع الطبقي هو العامل الاجتماعي الرئيسي أو الدينامي. وتذهب النظرية الماركسية إلى أن الطبقتين الاجتماعيتين الرئيسيتين في المجتمع الرأسمالي هما الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة.

(٦) يصعب تصنيف أعمال فيبر تحت عنوان واحد، إلا أنه يطلق عليها في بعض الأحيان: "نظرية الفعل الاجتماعي". وقد حاول فيبر أن يوفق بين المنظور البنائي من جهة وما أطلق عليه فيما بعد "المنظور التأويلي" من جهة ثانية.

(٧) تعد التفاعلية المنظور التأويلي الرئيسي. ويذهب جورج ميد إلى أن المجتمع يشكل الخبرات الذاتية ويصوغها، إلا أن الذات تستطيع أيضاً أن تشكل خبراتها الاجتماعية الخاصة.

(٨) المنهجية الشعبية (الإنثوميثودولوجيا) هي دراسة "الاستنتاج الفطري" للناس الذي يتوصلون به إلى فهم ذي دلالة للمجتمع والوقائع الاجتماعية.

(٩) ترفض نظرية التشكيل البنائي المداخل النظرية الاستقطابية إلى المجتمع، وتفهم البناء والفعل على أنهما بمثابة عملية واحدة هي التشكيل البنائي.

(١٠) توجد عدة حركات ونظريات أثرت في تطور علم الاجتماع حديثاً، وهي:

- النسوية.
- النزعة المعادية للعنصرية.
- اليمين الجديد.
- النزعة البيئية.
- العولمة.
- النظريات البعدية.

(١١) يمكن تصنيف المجتمعات إلى ثلاثة أنماط عامة، وما يرتبط بها من أنماط التفسير، وهي:

- تقليدية.
- حديثة.
- ما بعد الحديثة.

الفصل الثانى

المنهج والنظرية فى علم الاجتماع: التقليدية، والحداثة، وما بعد الحداثة(*)

علم الاجتماع والعلم

هناك جدل متواصل بشأن طبيعة علم الاجتماع كعلم. ويدور جانب من هذا الجدل ما إذا كان بالإمكان تسمية علم الاجتماع "علمًا". وثمة جانبان رئيسيان لهذه المسألة، أولهما يتعلق بما إذا كان موضوع علم الاجتماع – وهو التفاعل الاجتماعى – يحسن فهمه بالمنهج العلمية أم لا، وسوف نعود إلى هذه القضية لاحقاً فى هذا الفصل، وثانى هذين الجانبين يتصل بما إذا كانت المناهج التى يستخدمها علماء الاجتماع والنتائج التى يتوصلون إليها يمكن أن نطلق عليها مناهج ونتائج علمية أم لا. ولكى يتسنى لنا عقد مقارنة بين المناهج العلمية الاجتماعية والمناهج العلمية، لابد لنا أن نصف أولاً المناهج العلمية باختصار.

العلم الطبيعى

يقدم هذا القسم مقدمة بسيطة عن العلم الطبيعى. وسوف نعرض لبعض القضايا الإشكالية لاحقاً فى هذا الفصل.

يصف مصطلح "العلم الطبيعى" تلك العلوم المعنية بدراسة وتفسير "عالم الطبيعة"؛ أو العالم الطبيعى. وتشمل هذه العلوم: الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا. ويختص العلم بتراكم المعرفة التى يمكن التحقق منها (أى يمكن البرهنة على صدقها). وغالباً ما يعد التجريب المعملى – لأسباب سوف نوردتها لاحقاً – أكثر المناهج دقة ومثالية لاختبار الفروض. كما تستخدم كل العلوم – فى الواقع – الملاحظة أيضاً. ويقوم علماء الأحياء بملاحظة جوانب الحياة العضوية وتسجيلها ومحاولة تفسيرها. وينطبق نفس الشئ على علماء الفلك فيما يتعلق بمجال البحث لديهم. ومن المهم أن يتم إجراء الملاحظات بطريقة دقيقة. ويساعد إثبات صدق الملاحظة على إمكانية تكرارها. ويستخدم علماء الاجتماع الملاحظة بأقصى درجة ممكنة، إلا أنهم يستخدمون التجربة المعملية استخداماً محدوداً

:

(*)

Mike O'Donnell, Introduction to Sociology, 3rd ed., Nelson, Surrey, U.K., pp. - .

للغاية. وبدلاً من ذلك طُوروا مجموعة من المناهج الخاصة بهم. وسوف نناقش فيما بعد هذه المناهج مقارنة بالمنهج المعملّي. ومن الأمور الثابتة أن التجريب يستلزم قدرًا من الملاحظة، إلا أن الملاحظة لا تستوجب التجريب.

وغالبا ما تقتضى البحوث العلمية من النوع التفسيري البرهنة على ما إذا كانت الفكرة الابتدائية للباحث (الفرض) صادقة أم زائفة. ويعد البحث بمثابة الوسيلة التي يتحول بواسطتها الفرض إلى نظرية يمكن إثباتها بالبرهان. ومن ثم يمكن أن نوضح ببساطة شديدة عملية البحث العلمي التفسيري بعدة مراحل هي:

١- ملاحظة الظواهر (الحقائق أو الوقائع).

٢- الفرض (المصاغ بطريقة يمكن معها اختباره).

٣- جمع البيانات باستخدام أساليب نظامية (التجربة أو الملاحظة أو كلاهما).

٤- تحليل البيانات.

٥- اختبار الفرض بالمقابلة مع البيانات.

٦- إثبات الفرض أو دحضه (وفى هذه الحالة الأخيرة نعود إلى المرحلة الثالثة لإعادة صياغة الفرض، أو صياغة فرض جديد).

٧- النظرية، وهي تعميم مبنى على فرض (أو فروض) أمكن إثباته مرة بعد مرة.

ويطلق مصطلح "النظرية" أو "القانون" فى العلوم الطبيعية على الفرض (أو مجموعة الفروض المترابطة) الذى أمكن إثباته مرة بعد مرة. ومن القوانين المشهورة فى العلم الطبيعي قانون نيوتن للجاذبية، وقانون النسبية عند أينشتاين. وتنص القوانين على أن عوامل أو عناصر محددة سوف تتفاعل معاً بنفس الطريقة على أن توجد نفس الشروط على نحو دقيق. ومن النتائج المهمة المترتبة على ذلك أن العلوم الطبيعية تنهض بأساس التنبؤ، أى أنها توفر الوسائل المنطقية لإثبات ما سوف يحدث لأشياء معينة فى ظروف محددة (مثلاً: كيف سيتفاعل عنصران كيميائيان فى ظروف محددة؟). وهناك قلة من العلماء الاجتماعيين تزعم أن مناهجهم تمكنهم من الوصول إلى قوانين قادرة على التنبؤ الدقيق.

التجربة المعملية

تعد التجربة المضبوطة معملياً أكثر الطرق استخداماً بين العلماء الطبيعيين – مثل علماء الكيمياء أو علماء الطبيعة – لاختبار الفروض. ونناقش هذه الطريقة فى حينه؛

نظراً لأن قدرتها على إنتاج نتائج دقيقة ومحدودية استخدامها فى علم الاجتماع غالباً ما يستشهد به لتفويض المزاعم القائلة بعلمية علم الاجتماع. ويرغب العلماء الطبيعيون – شأنهم فى ذلك شأن العلماء الاجتماعيين – فى قياس تأثير شئ ما على شئ آخر. فقد يرغب عالم الأحياء فى قياس تأثير الحرمان من الضوء على نمو النبات، وقد يرغب عالم الاجتماع فى قياس تأثير الوضع الطبقي على التحصيل التعليمي. ولنرى كيف سيقوم عالم الأحياء بإجراء التجربة. فهو يفترض أن الحرمان من الضوء سوف يبطئ النمو، ولكنه غير متأكد من مقدار ذلك. ولذلك يستخدم نباتين متشابهين قدر الإمكان لأغراض المقارنة الدقيقة. ويتم تعريض أحد النباتين للضوء، وحرمان الآخر منه. وهنا لا بد من تقديم مفهوم "المتغير"، أى الشئ الذى يتغير. ومن المتغيرات المهمة التى يمكن أن تؤثر فى نمو النبات: الرطوبة، الحرارة، نوع التربة، والضوء بالطبع. ولا بد من تثبيت هذه المتغيرات – عدا الضوء – بين هذين النباتين. وهذا معناه أنه ينبغي أن يحصل هذان النباتان على نفس المقدار من الرطوبة والحرارة وما إليهما، وليس المقدار نفسه من الضوء. وإذا لم تتحقق هذه الشروط، فمن المستحيل أن نعرف ما إذا كان التغير فى الضوء. أو أى متغير آخر هو المسئول عن الاختلاف فى النمو. ويمكن توضيح هذه النقطة بطريقة أخرى، وهى أنه لا بد من ضبط الظروف التى تحدث فيها التجربة. وفى هذه التجربة يمثل الضوء المتغير المستقل (لافتراض أنه العامل السببي، وليس النتيجة)، ويمثل النمو المتغير التابع (لأنه يتأثر بالمتغير المستقل). ويمكن لعالم الأحياء أن يحسب نتيجة التجربة بقياس الفرق بين النباتين، ومن ثم يصبح بمقدوره أن يثبت الفرض الأصلي أو يرفضه أو يعيد صياغته بشكل أكثر دقة. وتكون التجربة الصادقة والصحيحة قابلة للتكرار، ومن ثم تكون نتائجها قابلة للتحقق منها مرة بعد مرة (البرهان)، وبالتالي تنرى المعرفة العلمية.

تأثير العلم الطبيعي على علم الاجتماع

انبهر علماء الاجتماع فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين انبهاراً شديداً بمنجزات العلوم الطبيعية – الفيزياء والكيمياء والأحياء – ورغبوا فى تطبيق نفس مناهج البحث والتحليل على المجتمع قدر الإمكان. وقد عكس أوجست كونت (١٧٩٨ – ١٨٥٧) – الذى اختلف الرأى بشأنه كمؤسس لعلم الاجتماع – هذا التأثير بوضوح، وأشار بالفعل إلى علم الاجتماع على أنه "الفيزياء الاجتماعية"، وأيد استخدام التجربة والملاحظة المنظمة كمناهج لدراسة المجتمع، وأمن بأنه يمكن بذلك البرهنة على قوانين للمجتمع مثلما توجد قوانين للفيزياء أو الكيمياء. وقد أطلق كونت على علم الاجتماع "علماً وضعياً"، واستخدم مصطلح "الوضعية" أحياناً لوصف هذا المدخل. ويقوم المدخل

الوضعى على افتراض أن هناك ظواهر اجتماعية تتفاعل مع ظواهر اجتماعية أخرى بطرق يمكن ملاحظتها وقياسها. وإذا أمكن إثبات أن الظواهر الاجتماعية تتفاعل معاً بنفس الطريقة مراراً وتكراراً، فإنه يصبح بالإمكان التنبؤ بحدوث ذلك فى المستقبل. ويُنظر إلى الظواهر الاجتماعية "الخارجية" - فى هذا النموذج الوضعى - على أنها تُسبب استجابات إنسانية.

ويتفق دوركايم مع أوجست كونت فى هذه النقطة، ويرى - أى دوركايم - أن هناك طائفة من الظواهر الاجتماعية التى تشتمل على أساليب "الفعل والتفكير والإحساس الخارجة عن الفرد .. وتمارس ضبطاً عليه".

وهناك عدد قليل من علماء الاجتماع - منذ كونت - يؤمن بأن مناهج العلوم الطبيعية وأهدافها الدقيقة يمكن تطبيقها برمتها على علم الاجتماع. وقام علماء الاجتماع - فى واقع الأمر - بتعديل بعض مناهج العلوم الطبيعية لتناسب استخداماتهم الخاصة، بالإضافة إلى تطوير بعض المناهج التى يندر استخدامها فى العلوم الطبيعية. وسوف نناقش هذه النقطة بإسهاب لاحقاً فى هذا الفصل.

المنهج التاريخى - المقارن: البديل الوحيد عن التجربة

لا يبدو ملائماً أو عملياً أن يستخدم علماء الاجتماع التجربة المعملية. فالكائنات الإنسانية لا يمكن معاملتها مثل الحيوانات. وهذا يعنى أنه يتعين على علماء الاجتماع تبنى بعض المناهج الأخرى لملاحظة العلاقات الاجتماعية وقياسها. ويذهب كل من دوركايم وعالم الاجتماع المعاصر رونالد فليتشر إلى أن الطريقة الوحيدة لتحقيق ذلك هى استخدام ما أطلق عليه دوركايم مصطلح "المنهج التاريخى المقارن" وما أسماه فليتشر - ببساطة - "المنهج المقارن":

"فى العلوم التى تختص بدراسة المواد غير الحية، وبالظواهر العضوية والفسولوجية، يمكن عزل بعض العلاقات الارتباطية بينها (والتي يتم البحث عن تفسير لها) عزلاً اصطناعياً عن سياقها الطبيعي، ودراستها فى ظروف معملية مقاسة قياساً دقيقاً. ويبدو هذا مستحيلًا تمامًا فى علم الاجتماع باستثناء التفاعلات فى بعض الجماعات الصغيرة. فنحن لا نستطيع أن نضع بريطانيا العظمى، أو قبيلة الكواكولت، أو تطور قانون بابلينون فى المعامل. يضاف إلى ذلك أننا نعرف أن أى جزء من أجزاء النسق الاجتماعى لا يمكن فهمه إلا فى ارتباطه الجوهري مع الأجزاء الأخرى، فضلاً عن أن الأساليب المعملية - لا اعتبارات أخلاقية عديدة - لا

تناسب ببساطة طبيعة الظواهر الإنسانية المترابطة ومستواها. ومع هذا ينبغي أن يكون لدينا بعض الإجراءات لاختبار نظرياتنا، وثمة حقيقة بسيطة مؤداها أن الصياغة الدقيقة للمنهج المقارن واستخدامه يمثل البديل الوحيد عن التجريب في علم الاجتماع".

(Fletcher, 1981: 77)

ويقتضى المنهج المقارن إجراء مقارنة منظمة بين الظواهر الاجتماعية المتشابهة بوضوح في سياقات اجتماعية مختلفة مثل تطور الأسرة في مجتمعين أو أكثر. ولنأخذ مثلاً آخر حول العلاقة الواضحة بين ارتفاع مستوى الأصول الطبقة الاجتماعية وارتفاع درجة التحصيل التعليمي، فقد برهنت البحوث المقارنة مرة بعد مرة على هذه العلاقة داخل المجتمعات وبنيتها. ويطلق على مثل هذه العلاقة التلازم في التغيير، أو الارتباط الذي يعنى أن هناك علاقة ما بين العاملين، ويمكن أن تكون علاقة سببية. ومن ثم يمكن أن توجد علاقة سببية بين ارتفاع درجة التحصيل التعليمي وارتفاع مستوى الأصول الطبقة الاجتماعية.

وقد شدد دوركايم على أهمية المقارنة المنظمة، وهذه يمكن القيام بها من خلال المقارنات بين أنماط متشابهة من المجتمع، والمقارنات داخل المجتمع (بين المناطق أو الجماعات على سبيل المثال)، والمقارنات بين أنماط مختلفة من المجتمع (بين المجتمعات التقليدية والحديثة مثلاً). وتساعد مثل هذه المقارنات في تفسير أسباب حدوث أو عدم حدوث علاقة ما في ظروف بعينها. ومن ثم فإن البحوث التي أجريت في بريطانيا وعلى المستوى الدولي خلصت إلى مجموعة من التفسيرات حول العلاقة بين الطبقة والتحصيل التعليمي.

وقد حاول دوركايم نفسه إجراء بحث مقارن عن الانتحار حتى يبرهن على تطبيق مدخله المنهجي، ورغب في أن يوضح أن الانتحار يعكس أوضاعاً اجتماعية "خارجية" مع أنه فعل شخصي. ويذهب دوركايم إلى أن ما أسماه "معدل الانتحار الاجتماعي" محصلة هذه القوى الاجتماعية "الجمعية".

النمط المثالي والمنهج المقارن

استخدم ماكس فيبر مفهوم النمط المثالي خاصة في سياق المنهج المقارن، وذلك للإشارة إلى المفاهيم أو النماذج التي تحاول أن تصف العناصر الأساسية أو الجوهرية لظاهرة اجتماعية ما. وباستخدام نمط مثالي يصف الرأسمالية كنظام يقوم على دافع الربح، تمكن فيبر - بالتالي - من النظر في حالات خاصة من المجتمعات الرأسمالية

لمعرفة الأشكال العيانية التي يأخذها السعى إلى الربح فى كل منها. ولذلك نجد أن وصف النمط المثالى "المجرد" أو "الخالص" يسهل تحليل الحالات الفردية. ومن الأمثلة الأخرى على النمط المثالى وصف فيبر للفعل الاجتماعى بأنه رشيد، وعاطفى، وتقليدى. وقد تمكن فيبر بفضل هذا التتميط من تنظيم دراسته للفعل فى مجتمعات متعددة يختلف فيها الفعل عن التتميط المثالى اختلافاً كثيراً أو قليلاً. ولا بد أن يكون واضحاً من الآن فصاعداً أن مفهوم النمط المثالى ليست له علاقة على الإطلاق بـ "الكمال" بأى معنى دينى أو غيره.

المنهج المقارن وعلم الاجتماع المعاصر

لم يحتل المنهج المقارن مكانة فى علم الاجتماع كما حدده دوركايم ومن بعده فلينتشر. ويعود ذلك فى جزء منه إلى بزوغ علم الاجتماع التأويلى الذى لا يسعى إلى تفسير الفعل الاجتماعى فى ضوء الأسباب "الخارجية"، هذا بالإضافة إلى أن علماء الاجتماع أصبحوا أكثر وعياً بمشكلات المقارنة الإحصائية.

وقد عرضنا للمنهج المقارن هنا بقدر من التفصيل حتى نوضح التأثير الهائل لمنهج العلوم الطبيعية على علماء الاجتماع الأوائل. ولا يزال منهج البحث عند دوركايم وفيبر درساً نافعاً، ولا يزال جانب كبير من النظرية والمفاهيم التى استخدمها فى إجراء البحوث المقارنة مفيداً.

إن تسارع الاهتمام المتزايد بالعمولة أو علم الاجتماع العالمى أدى مرة ثانية إلى زيادة شعور علماء الاجتماع بأهمية المقارنة الاجتماعية. إن تصنيف المجتمعات إلى تقليدية، وحديثة، وما بعد الحديثة يشكل أساساً عاماً ومفيداً لهذا النوع من مقارنة المجتمعات، ويستخدمه تقريباً عدد كبير من علماء الاجتماع.

وتبدو الحاجة ماسة إلى المنظور المقارن – أو الموسوعيون المتخصصون Specialized Generalists بلغة ستانيسلاف أندريسكى – فى "القرية الكونية" لعالم اليوم الذى أصبحت فيه اتجاهات عديدة ذات طابع كونه أو تجاوزت الحدود القومية، حتى ولو كانت المقارنة ليست على الدوام هى المقارنة التى قصدها دوركايم. وتحتاج الدراسات المطلوبة إلى منهج بحث مصقول، وهو – فى العادة – مسح اجتماعى دولى. وسوف نناقش المسح الاجتماعى لاحقاً فى هذا الفصل.

مناهج البحث فى علم الاجتماع

قبل أن نناقش بالتفصيل مناهج البحث فى علم الاجتماع، يبدو من المفيد أن نعرض لبعض الجوانب العامة الأساسية لعلم المناهج. وهذه الجوانب يمكن – من الناحية

الاصطلاحية – وضعها فى أزواج متعددة: البحوث الوصفية والتفسيرية، والبحوث الكمية والكيفية، والذاتية والموضوعية، والثبات والصدق، والبيانات الأولية والثانوية. وأخيراً ناقش باختصار العلاقة بين مصطلحى البنائى / التأويلى، ومصطلحى الوضعى / اللاوضعى.

البحوث الوصفية والتفسيرية

يمكن أن تكون البحوث فى علم الاجتماع بصفة عامة وصفية أو تفسيرية أو كليهما. وتهدف البحوث الوصفية إلى اكتشاف "الوقائع" وعرضها (مثلاً: اتجاه معدل المواليد خلال فترة زمنية) أو إلى وصف العمليات الاجتماعية (مثلاً: كيف تقوم العصابة بعملياتها؟). وتسعى البحوث التفسيرية إلى تقديم أسباب سوسولوجية لحدوث شىء ما. ومن ثم فإن أحد التفسيرات السوسولوجية المحتملة للاتجاه الهابط فى معدل المواليد خلال فترة السبعينيات هو أن عدداً كبيراً من الأزواج يرغبون فى مستوى معيشى مرتفع بدلاً من إنجاب الطفل الأول وما بعده (ولايد من اختبار هذا الفرض – شأنه شأن كل الفروض – عن طريق البحث). وفى بعض الأحيان تصنف "مسوح الاتجاهات" كنوع ثالث من أنواع المسوح. ومع ذلك فإنه يمكن اعتبارها بحثاً وصفية مع أن ما تحاول وصفه هو الآراء الذاتية وليس الوقائع الاجتماعية العيانية.

البحوث الكمية والكيفية

تنقسم مناهج فى علم الاجتماع إلى نوعين رئيسيين: كمية وكيفية. وتستخدم المناهج الكيفية فى إنتاج بيانات عددية أو إحصائية. وعادة ما تستخدم هذه المناهج الكمية فى علم الاجتماع فى البحوث المتصلة بالعلاقات الاجتماعية مثل العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والحراك الاجتماعى. ومن الدراسات الكلاسيكية (حالياً) التى استخدمت المنهج الكمي أساساً مسح الحراك الاجتماعى بجامعة أوكسفورد (١٩٨٢) Oxford Social Mobility Survey. واعتمدت الدراسة على عينة من ١٠,٠٠٠ رجل من مختلف الطبقات الاجتماعية، وكانت الأساليب الكمية الرئيسية هى الاستبيانات والمقابلات المقننة.

وتستخدم المناهج الكيفية بصفة أساسية فى إنتاج بيانات حول الخبرات والمعانى الشخصية للفاعلين الاجتماعيين. وتعتمد هذه المناهج – فى العادة – على لغة الفاعل الاجتماعى أو على ملاحظة سلوك الفاعل (وأحياناً يمكن تصوير الملاحظة سينمائياً). وتتوفر الآن بحوث كيفية عديدة درست خبرات طلاب المدارس، ومنها التفسيرات العديدة للثقافات الفرعية المضادة للمدارس. ومن هذه البحوث دراسة ستيفن بول بعنوان Beachside Comprehensive (١٩٨١). وتتمثل الأساليب الكيفية الرئيسية فى

الملاحظة والمقابلات غير المقننة.

وسوف نناقش لاحقاً فى هذا الفصل العلاقة بين المناهج الكمية والكيفية من جهة والمنظورات البنائية والتأويلية (التي ناقشناها فى الفصل الأول) من جهة ثانية. وبصفة عامة تبدو المناهج الكمية أكثر ملاءمة للبحوث البنائية، والمناهج الكيفية أكثر ملاءمة للبحوث التأويلية.

ومع ذلك يوجد تداخل شديد فى استخدام المناهج الكمية والكيفية؛ مادام علماء الاجتماع يسعون إلى الحصول على كلا النوعين من البيانات. ويستخدم عدد كبير من علماء الاجتماع - وربما معظمهم - هذين النوعين لاستكمال البيانات.

البيانات الموضوعية والذاتية فى علم الاجتماع

تشير البيانات الموضوعية إلى الوقائع والمعلومات حول الواقع الاجتماعى خارج الفرد أو وراء نطاقه. ويذهب دوركايم إلى أن مهمة علم الاجتماع هى البرهنة على كيفية تأثير "الظواهر الاجتماعية" الموضوعية على السلوك الاجتماعى. ومن ثم زعم أن ظواهر اجتماعية بعينها تؤثر فى معدل الانتحار. أما البيانات الذاتية فتشير إلى المعلومات بشأن المشاعر والخبرات الخاصة للأفراد، ولا تتعلق هذه البيانات كثيراً بكيفية تأثير المجتمع على الفرد بقدر ما تتعلق بالكيفية التى يشعر بها الفرد إزاء المجتمع وتفكيره فيه وتصرفه نحوه. وبهذا المعنى فإن علم الاجتماع البنائى يهتم بالبيانات الموضوعية بدرجة أوضح، ويهتم علم الاجتماع التأويلى بالبيانات الذاتية بدرجة أكبر.

النظريات البنائية / التأويلية والمناهج الوضعية / اللاوضعية

تصف كثير من المؤلفات فى علم الاجتماع النظريات البنائية الرئيسية (الوظيفية، الماركسية، فيبر) بأنها وضعية فى مناهجها. والمقصود بذلك - مثلما قال كونت - أن هذه المداخل النظرية تتبنى المقدمات المنهجية الافتراضية للعلم الطبيعى، وهى أن هناك عوامل خارجة عن الفاعلين الاجتماعيين تحدد سلوكهم الاجتماعى. وعلى النقيض توصف النظريات التأويلية بأنها لا وضعية؛ لأنها ترفض المقدمات المنهجية الوضعية، وتستخدم بدلاً منها مناهج تهدف إلى وصف وفهم معانى الفاعلين الاجتماعيين. وعلى الرغم من جدوى هذه التفرقة، إلا أنه ينبغى التأكيد على أنه لا توجد علاقات صارمة بين النظريات البنائية والمناهج الكمية، والنظريات التأويلية والمناهج الكيفية. فعلى سبيل المثال يُقال عن فيبر - أحياناً - أنه وضعى مع أنه طور مفهوم "الفهم" الذى يعنى به عملية فهم الذاتية الموجودة فى العلوم الاجتماعية، والمنعدمة فى العلوم الطبيعية. ونستخدم هنا مصطلح "البنائى" بدلاً من "الوضعى" للإشارة - بصفة عامة - إلى

المدخل القائل بأن هناك عوامل أو "أبنية" خارجة عن الفاعلين الاجتماعيين تؤثر في أفعالهم. وأحد الأسباب المقبولة لذلك هي أن كثيراً من علماء الاجتماع الذين وُصفوا بأنهم "وضعيون" – ومنهم دوركايم وبارسونز – رفضوا هذا المصطلح لوصف مدخلهم.

الثبات والصدق

تتسم التجربة أو البحث بالثبات إذا أدت إلى نفس النتيجة عند إعادة تكرارها أو إجراءها بنفس الشروط. ولا يبلغ الثبات في العلوم الاجتماعية ذروته المعهودة في العلوم الطبيعية. ويعود ذلك إلى استحالة ضبط شروط البحث في علم الاجتماع بنفس الدرجة الموجودة في العلم الطبيعي. ولذلك فإن التجربة المعملية أكثر قابلية للتكرار بدرجة دقيقة، ومن ثم تكون أكثر ثباتاً مقارنة بالبحث في علم الاجتماع. ويتسم البحث بالصدق إذا أفضى إلى نوع البيانات التي يسعى إليها الباحث، أي إذا قاس البحث ما يقصده الباحث. ومن هنا فإن الباحث الذي يريد معرفة اتجاهات التصويت بين الناخبين على المستوى القومي سوف يقوم بإجراء مسح بالعينة على نطاق كبير، في حين أن الباحث الذي يرغب في فهم التفاعل بين المعلم والطالب سوف يسعى إلى ملاحظة أمثلة محددة. وكلا الباحثان اختار مداخل تتسم بالصدق لما يريدان اكتشافه.

وثمة إدعاء مؤداه أن البحوث الكمية أكثر ثباتاً، والحوث الكيفية أكثر صدقاً. ويعود ذلك إلى أن البحوث الكمية أكثر تقنياً وضبطاً، في حين أن البحوث الكيفية أقل تحديداً وأكثر تأثراً بذاتية المبحوثين. وإذا كان التقنين والضبط يرتبطان بالثبات، فإن فهم الاستجابات الذاتية للمبحوثين يؤدي إلى تفسير أكثر صدقاً لها.

المصادر الأولية والثانوية

تشير المصادر الأولية للمعلومات إلى البيانات الناتجة عن البحث الأصلي الذي قام به عالم الاجتماع. ويؤدي استخدام الملاحظة والمقابلات والاستبيانات إلى إنتاج بيانات أولية. أما المصادر الثانوية للبيانات فهي المصادر الموجودة بالفعل مثل الإحصاءات الرسمية والصحف، والحوث التي قام بإجرائها فعلاً علماء اجتماع آخرون. ومع أننا نناقش هذين المصدرين للبيانات كل على حدة، فإنهما غالباً ما يستخدمان ليكمل أحدهما الآخر.

المصادر الأولية: المسح الاجتماعي

المناهج الكمية مرادفة – فعلياً – للمسح الاجتماعي. فعلماء الاجتماع الذين يرغبون في إنتاج بيانات إحصائية أصلية عادة ما يقومون بإجراء مسح اجتماعي. وفي المسح

الاجتماعى يتم جمع بيانات مقننة من مجتمع البحث. وتعد الاستبيانات والمقابلات المقننة أكثر الأساليب استخداماً فى تنفيذ المسوح الاجتماعية. ويتمثل الغرض الرئيسى من إجراء المسح الاجتماعى فى إنتاج بيانات تشكل أساساً للتعميم حول مجتمع المسح أو الجماعات المستهدفة. وهذا يعنى أن الاستجابات فى المسح لا بد أن تكون قابلة للتحويل إلى شكل كمى أو عادى. وتظهر المسوح الاجتماعية من النوع الوصفى البسيط فى الصحف بصفة منتظمة لتشير إلى أن نسبة معينة من الناس مع قضية ما أو ضدها.

المسوح المقطعية والطولية

تنقسم المسوح إلى نوعين رئيسيين هما: المسوح المقطعية والمسوح الطولية. ويوفر المسح المقطعى بيانات عن جماعة (عادة ما تكون عينة) فى نقطة زمنية محددة. والمسح المقطعى رخيص فى تكلفته إلى حد نسبى، ويمكن إجراؤه بسرعة. أما المسح الطولى فهو يدرس جماعة (أو جماعات) مختارة خلال فترة زمنية محددة، مما يمكن من دراسة تأثير المتغيرات على المدى الطويل.

ونستشهد بمثال على ذلك هو المسح التليفزيونى الشهير Seven up، حيث تمت مقابلة مجموعة من الأطفال من طبقات اجتماعية مختلفة على فترات منتظمة مدتها سبع سنوات، وتبين بوضوح أن الطبقة الاجتماعية ذات تأثير بالغ على حياة هؤلاء الأطفال وخاصة على مسارهم التعليمى والفرص الثقافية.

وبالتالى تساعد المسوح الاجتماعية فى إثبات إطاراد السلوك الإنسانى واتجاهاته، وليس الوصول إلى قوانين علمية اجتماعية. وهذه الاتجاهات التى تمت البرهنة عليها توفر أساساً للنمو المتراكم (والمترزايد بالتدرج) للنظرية والمعرفة العلمية الاجتماعية مثلما هو الحال بالنسبة للتجربة والقانون العلميين اللذين يشكلان أساساً مماثلاً للعلم.

المعينة

غالباً ما يكون المجتمع المستهدف للمسح الاجتماعى كبيراً للغاية. وقد يكون هذا المجتمع أسر الطبقة العاملة فى شرق لندن، أو جمهور الناخبين، أو معلمو المدارس المضربون عن العمل. ولذلك تتطلب اعتبارات الوقت والمال أن يتم إجراء المسح على جزء أو عينة من المجتمع الكلى، ومن هنا جاء استخدام مصطلح "المسح بالعينة".

ومن المهم أن يتم اختيار العينة اختياراً دقيقاً. وإذا اشتملت العينة على بعض الأخطاء، فإن ذلك لا يشكل أساساً مناسباً للوصول إلى نتائج حول المجتمع المستهدف. وغالباً ما يقوم علماء الاجتماع باختبار منهج البحث الذى اختاروه من خلال إجراء

دراسة استطلاعية قبل إجراء المسح على نطاق شامل. ويساعد المسح الاستطلاعي في معرفة ما إذا كان المبحوثون يفهمون الأسئلة في المسح فهماً تاماً ويستريحون لها، وكذا معرفة الأمور العملية مثل الوقت والتكلفة اللازمة لإجراء المسح.

وتتطلب المرحلة الأولى من مراحل عملية المعاينة تحديد المجتمع الذي ستسحب منه العينة، أي المجتمع المستهدف الذي أشرنا إليه آنفاً. ويشير مصطلح "وحدة المعاينة" إلى الأفراد أو الجماعات أو أية ظواهر أخرى (يمكن أن يشمل المسح الصحف، والأسر المعيشية، وما إلى ذلك) التي تتضمن جزءاً من العينة التي سيتم اختيارها لإجراء المسح.

وتتمثل الخطوة الثانية في الحصول على "إطار المعاينة" أو إنتاج هذا الإطار، وهو عبارة عن قائمة يتم اختيار العينة منها (هذا على الرغم من أن هذه المرحلة قد تتم بإجراءات معاينة أقل دقة). ومن الأمثلة على أطر المعاينة نذكر السجلات الانتخابية المحلية، والسجلات المدرسية، والتعدادات القومية. ومع أن السجلات الرسمية – مثل السجلات الانتخابية والتعداد – تهدف إلى أن تكون شاملة على نحو تام، إلا أن ذلك الهدف لا يتحقق بشكل كامل. ومع ذلك، ليست هذه المثالب من الدرجة التي تؤثر في الدلالة الإحصائية لنتائج المسح.

المعاينة الممثلة وغير الممثلة

تتضمن المرحلة الثالثة من مراحل المعاينة (اختيار العينة نفسها) اختيار أسلوب أو أساليب المعاينة. وتكون وظيفة هذه الأساليب – في العادة – التأكد من أن العينة تمثل قدر الإمكان أعضاء إطار المعاينة، ومن ثم أعضاء المجتمع المستهدف، بمعنى أن العينة تتضمن (أو تمثل) خصائصهم النمطية بنفس النسبة. وبالتالي فإن العينة المسحوبة من سجل مدرسة معينة (إطار المعاينة) لا بد أن تتضمن نفس نسبة الإناث والذكور، وأعضاء الأقلية العرقية الموجودة في السجل إذا كان المقصد أن تكون العينة ممثلة تمثيلاً تاماً لهذه الجماعات.

ويعد حجم العينة من العوامل الأخرى المؤثرة في تمثيل العينة. ويختلف الحجم السليم للعينة تبعاً لاختلاف المجتمع الذي يُراد دراسته والقضية التي يتم بحثها، وليس من الضروري دوماً أنه إذا كان حجم العينة كبيراً، كان ذلك هو الأفضل.

وتستخدم المعاينة غير الممثلة أيضاً في علم الاجتماع. ويتمثل منطلق هذا المدخل في أن العينة غير الممثلة ربما تناسب اختبار الفرض الذي وضعه الباحث اختباراً دقيقاً. ولذلك ساورت جولدثورب ولوكوود الشكوك في الفرض الذي شاع في أواخر الخمسينيات، وهو أن أغنياء الطبقة العاملة أصبحوا من الطبقة الوسطى نتيجة لثرائهم

(فرض البرجزة). وللبهنة على هذا الفرض وإزالة الشكوك حوله قام جولدثورب ولوكوود باختباره على عينة غير ممثلة من العمال الأثرياء فى ليوتون. ومع هذا، لم تؤيد النتائج فرض البرجزة، حيث تبين أن هؤلاء العمال لا يمكن اعتبارهم من الطبقة الوسطى من عدة زوايا مهمة.

المعاينة العشوائية والمنتظمة

تعطى العينة العشوائية أو الاحتمالية كل عضو من أعضاء الجماعة التى يتم سحب العينة منها فرصة معلومة ومتكافئة لاختياره فى العينة. ولذلك يمكن اختيار عينة حجمها (٥٠) طالباً من إجمالى (٥٠٠) طالب اختياراً عشوائياً بوضع أسماء كل مجموعة فى صندوق وسحب خمسين اسماً منها. ومع ذلك يمكن اختيار عينة منتظمة فى أحيان أخرى. وهذا يستوجب اختيار (٥٠) اسماً بطريقة منتظمة اعتماداً على حجم العينة. وفى حالة القائمة التى تضم (٥٠٠) طالب من المدرسة أو الكلية يمكن اختيار اسم واحد من كل عشرة بطريقة منتظمة حتى تكتمل العينة المؤلفة من (٥٠) طالباً. ويمكن استخدام نفس الأسلوب فى حالة السجلات الانتخابية أو أية سجلات أخرى تناسب موضوعات البحث. وفى العادة تؤدى المعاينة المنتظمة إلى دقة أكبر من المعاينة العشوائية، مادام أنها توصلنا إلى عينة أكثر توازناً تنتشر على قائمة مجتمع البحث.

ومن المهم أن نعى حدود المعاينة العشوائية. فهذا الأسلوب ينهض على الاحتمال الرياضى بأن عدداً من الأعضاء الذين تم اختيارهم بدقة من جماعة أكبر سوف يكونون ممثلين تقريباً لهذه الجماعة. وأحياناً لا يحدث هذا الاحتمال، وتصبح العينة غير ممثلة للمجتمع المستهدف. وتعد المعاينة العشوائية الطبقيّة إحدى الطرق التى تبدو مناسبة فى بعض الأحيان لزيادة دقة المعاينة.

المعاينة العشوائية الطبقيّة

يعنى التقسيم إلى طبقات Stratification أن مجتمع البحث يتم تقسيمه إلى عدد من الجماعات أو الطبقات قبل اختيار العينة. وبعد ذلك يتم اختيار عينة – إما عشوائية أو منتظمة – من كل طبقة. ولذلك فإن الباحث الذى يريد اختيار عينة من سجلات المدرسة تتضمن نفس نسبة الذكور والإناث الموجودة فى السجلات عليه أن يضيف الأسماء الواردة فى السجلات حسب الجنس، ويقوم بسحب عينتين مستقلتين. ويمكن الاستمرار فى عملية التقسيم إلى طبقات بتقسيم سجلات الذكور والإناث إلى ذكور بيض وسود وإناث بيض وسود، وسحب عينة فرعية من كل مجموعة من هذه المجموعات الأربعة. وفى المثال الوارد أدناه مثال على عينة حجمها ١٠% من كل مجموعة طبقية:

جدول ٢ - ١
عينة عشوائية طبقية

العينة الفرعية	حجم العينة الطبقية	
٦	٦٠	ذكور (بيض)
٢	٢٠	ذكور (سود)
٨	٨٠	إناث (بيض)
٤	٤٠	إناث (سود)

ويوضح هذا المثال بجلاء أن العينة العشوائية الطبقية يتزايد فيها احتمال تمثيل المجتمع الكلى مقارنة بالعينة العشوائية البسيطة.

المعاينة بالحصة

يصف موسر وكالتون المعاينة بالحصة بأنها "أسلوب من أساليب المعاينة الطبقية التي يكون فيها الاختيار داخل الطبقات غير عشوائى". ومن ثم فإن الباحث بمجرد أن يقرر أى الجماعات أو الطبقات التي سيقوم بإجراء المسح عليها، يقوم هو (أو مساعده) باختيار العدد المطلوب (الحصة) من المبحوثين فى كل جماعة. ويؤكد موسر وكالتون على أن الفرق الجوهرى بين العينات الاحتمالية والحصية يكمن فى اختيار وحدات المعاينة النهائية.

وفى العينة الحصية يحل حكم الإنسان محل العشوائية، بمعنى أن الباحث الذى يبحث عن حصص من ست ذكور بيض، واثنين من الذكور السود، وثمانى إناث بيض، وأربع إناث سود سيقوم باختيارهم بدلاً من سحبهم من إطار المعاينة. ويمكن أن يكون احتمال الخطأ البشرى فى اختيار العينة محدوداً؛ مادام أن خصائص الحصة تم تحديدها من قبل (مثلاً: طالب أسود)، إلا أنه يصعب تحديد بعض ضوابط الحصة (الخصائص) تحديداً واضحاً. ولذلك يصعب تحديد الطبقة الذى ينتمى إليها فرد ما حتى بمساعدة الأدلة الإرشادية.

المعاينة العنقودية والمعاينة متعددة المراحل

العينة العنقودية هى عينة يتم سحبها فقط من أجزاء أو عناقيد مختارة من المجتمع الكلى المستهدف. وفى بعض الأحيان يتم اللجوء إلى تصميم المعاينة العنقودية عندما يكون المجتمع المستهدف كبيراً بدرجة يصعب معها اختيار عينة عشوائية منه (مثلاً: عينة حجمها ٢٠,٠٠٠ من مجتمع حجمه ٥٠,٠٠٠,٠٠٠)، أو عندما لا يوجد إطار

معاينة مناسب (مثلما هو الحال فى بعض الأقاليم المتخلفة). وفى مثل هذه الظروف يمكن استخدام مجموعات أو عناقيد مستقلة من المناطق الحضرية والريفية والضواحي الحضرية لسحب العينة منها.

وتحدث المعاينة متعددة المراحل عندما يتم سحب عينة من أخرى. وتمثل العينة العنقودية حالة خاصة من المعاينة متعددة المراحل. ومن ثم فإن اختيار الدوائر الانتخابية، والأحياء فى المدينة، ومناطق الاقتراع يمكن أن تمثل - على التوالي - المراحل الثانية والثالثة والرابعة من المعاينة العنقودية. ويمكن للمعاينة متعددة المراحل توفير الوقت والمال، مع أنها - فى بعض الأحيان - تزيد من احتمالات عدم تمثيل العينة النهائية.

المعاينة بكرة الثلج

عينة كرة الثلج - إذا صحت هذه التسمية - عينة من جماعة معينة تبدأ بفرد من هذه الجماعة. وقد يستلزم البحث فى الزمر الشبابية أو العصابات الإجرامية استخدام هذا الأسلوب. وتفقر المعاينة بكرة الثلج إلى أى أساس إحصائى للعشوائية أو التمثيل، ولكنها يمكن أن تسلم إلى نتائج مثيرة ومهمة. وتتنسب المعاينة بكرة الثلج إلى البحوث الكيفية منها إلى البحوث الكمية.

الاستبيانات

تعد الاستبيانات أكثر الطرق شيوعاً لإجراء المسح الاجتماعى. والاستبيان عبارة عن قائمة من الأسئلة المعدة سلفاً يوجهها الباحث إلى أفراد العينة (المبحوثين).

الأسئلة المغلقة والمفتوحة

قد تكون الأسئلة مغلقة (أو ذات اختيارات محددة) أو مفتوحة. ويعطى الشكل (٢) - بعض الأمثلة على الأسئلة المغلقة حول موضوع معاملة النوع الاجتماعى فى إحدى المدارس.

شكل (٢ - ١)

أسئلة ذات إجابات محددة

أمثلة: (١) هل ترى أن الطلاب (ذكوراً وإناثاً) يلقون معاملة بالمثل؟

نعم لا

(٢) ضع دائرة حول الرقم الذى يشير إلى المدى الذى حققت به المدرسة المساواة

بين الطلاب الذكور والإناث من وجهة نظرك: ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠



(٣) ما هو تقديرك لما حقته المدرسة من مساواة بين الطلاب الذكور والإناث؟

ضعيف مقبول جيد ممتاز

وتسهل الأسئلة المغلقة تكميم الإجابات ولكنها تحد من حرية الإجابة، ويمكن أن تؤدي إلى إحساس زائف بالدقة عند التكميم الذي يعكس فقط ملاءمة الأسئلة واختيارات الإجابة عنها. (ارجع إلى الشكل ١-٢ لترى مدى ملاءمة الأسئلة واختيارات الإجابة عنها).

وتصمم الأسئلة المفتوحة لتسمح بمزيد من الحرية عند الإجابة عنها، وفي بعض الأحيان تسمح بالحرية المطلقة في الإجابة. ويمكن أن تختلف الإجابات الحرة اختلافاً شديداً، ومن ثم يندر تكميمها بمستوى مرتفع من الدقة مثلما هو الحال مع الإجابات المغلقة. والمقصود من الأسئلة المغلقة التعمق، بالإضافة إلى استكمال البيانات العددية. ومن الأمثلة على الأسئلة المفتوحة: هل تعتقد أن الطالبات تأثرن بسياسات الفرصة المتكافئة للمدرسة؟

صياغة المفاهيم الإجرائية: الترميز

هناك موضوعان يتعلقان بالترميز، وهما: الصياغة الإجرائية للمفاهيم والترميز. ويسعى علماء الاجتماع غالباً إلى قياس مفاهيم مجردة مثل الاغتراب أو عدم المساواة. والخطوة الأولى في الصياغة الإجرائية للمفهوم هي أن نحدد بدقة ماذا نقصد به. وربما يتطلب ذلك تقسيم المفهوم إلى مفاهيم فرعية، أو عناصر اصطلاحية Termed components مثلما فعل بلونر مع مفهوم الاغتراب. ومن الضروري - إذن - تعيين خصائص أو مؤشرات للمفهوم قابلة للقياس بشكل محدد. ولذلك يمكن فهم مؤشرات اللامساواة من خلال التمايزات في الدخل والصحة والتعليم، وهذه يمكن قياسها ومقارنتها.

ويتطلب الترميز إعطاء قيمة رمزية (عددية في العادة) للإجابات عن الأسئلة. وقد أشرنا من قبل إلى أن هناك مصاعب عملية محدودة في ترميز الأسئلة المغلقة التي غالباً ما تكون مرمزة من قبل في الاستبيان. أما ترميز الأسئلة المفتوحة فهو أكثر تعقيداً، حيث ينبغي ضم الإجابات في فئات متشابهة يتم ترميزها بعد ذلك لأغراض المقارنة

الإحصائية. ولذلك يمكن تصنيف الإجابات عن السؤال المفتوح (هل تعتقد أن الطالبات تأثرن بسياسات الفرصة المتكافئة للمدرسة؟) على النحو التالي:

١- يختار عدد كبير من الطالبات اليوم المقررات العلمية.

٢- انخفض التحرش الجنسي بالطالبات.

٣- السياسات كان لها تأثير محدود.

٤- السياسات جعلت الأمور أسوأ بجعل الناس أكثر وعياً بقضايا النوع الاجتماعي.

إن القيام بتكميم الإجابات الكيفية ليس أمراً صعباً فحسب فى غالب الأحوال، بل يكون غير ملائم فى بعض الأحيان. وربما لا يرغب الأفراد فى تحويل لغتهم الطليقة إلى رموز كمية، وربما يؤدي التكميم إلى صرف الانتباه عن فهم معناها الشخصى.

جمع بيانات الاستبيان

يمكن جمع بيانات الاستبيان بعدة طرق منها: بواسطة الباحث أو مساعديه، بالبريد، بالهاتف، أو من خلال صحيفة أو مجلة. وكل طريقة من هذه الطرق لها مشكلاتها الخاصة ومميزاتها.

أما عن الاستبيان الذى يتولاه القائم بالمقابلة فإنه - أى الباحث - يقرأ الأسئلة ويوضحها - إذا كان ذلك ضرورياً - للمبحوث، وهذا يتشابه مع المقابلة المقننة. وعادة ما يحقق المدخل الشخصى من هذا النوع معدل استجابة أفضل من إرسال الاستبيان بواسطة البريد. وينخفض معدل الاستجابة فى حالة الاستبيانات البريدية لوجود صعوبات فى فهم الاستبيان، وفقدان الاهتمام أو النسيان. ومع ذلك، فإن الاستبيان البريدية تمتاز بأنها أرخص نسبياً مقارنة بالمقابلات، وبإمكانية وصولها إلى عينة كبيرة منتشرة جغرافياً. ويمكن تحسين معدل الاستجابة للاستبيان البريدى من خلال خطابات أو زيارات المتابعة كلما كان ذلك ممكناً. ويمكن أن يؤثر انخفاض معدل الاستجابة فى درجة تمثيل العينة النهائية لمجتمع البحث المستهدف.

مزايا الاستبيان ومثاليه

من المزايا الأساسية للاستبيانات أنها توفر بيانات غزيرة تستند إليها التعميمات. وتمثل الاستبيانات جزءاً أساسياً من مجموعة الأدوات المنهجية لعلم الاجتماع البنائى. وغالباً ما يستخدم المسح الاجتماعى بطريقة علمية اجتماعية تقليدية لاختبار الفروض. ومن الأمثلة المشهورة على الدراسات التى استخدمت الاستبيانات (إلى جانب أدوات أخرى) الدراسة التى قام بها جولدثورب ولوكوود - التى سبقت الإشارة إليها - لاختبار فرض البرجزة من خلال المسح الذى قاما به للعمال الأثرياء فى ليوتون.

وتعكس مثالب الاستبيان فى جزء منها القصور فى شكل الاستبيان نفسه، وفى جزء آخر طبيعة الافتراضات البنائية الكامنة وراء استخدامه. فشكل الاستبيان يجعل الباحث يفرض أسئلة على المبحوث الذى قد يجيب أو لا يجيب عنها، وإذا أجاب عنها فربما يقول الصدق أو لا يقوله. كما أن انخفاض معدل الاستجابة، واحتمالات الكذب والسخرية والخطأ يمكنها جميعاً أن تُضعف ثبات المسح بالاستبيان. ولا يستطيع الاستبيان المصمم تصميماً جيداً أن يواجه هذه المشكلات.

ويعكس قصور الاستبيان فى جانب منه قصور المدخل البنائى نفسه. ويحاول أنصار النظرية البنائية – من خلال استخدام الاستبيانات فى بعض الأحيان – أن يقيموا تفسيرات للسلوك فى ضوء عوامل اجتماعية خارجية. وهذا من شأنه – فى رأى أنصار النظرية التأويلية – أن يغفل أكثر الجوانب أهمية بالنسبة للناس، وهو قدرتهم على المبادرة بفعل ذى معنى، وأحياناً ما يكون فعلاً إبداعياً. والحقيقة أن معظم علماء الاجتماع المعاصرين على وعى تام بمثالب المدخل البنائى الصارم وجوانب القصور فى البحوث التى تعتمد اعتماداً كلياً على المسح بالاستبيان. ويجمع كثير من هؤلاء العلماء بين المناهج الكمية والكيفية مثلما فعل ويلموت ويونج منذ ما يزيد عن ٣٠ سنة مضت بإجراء مسح عن الأسرة والقرابة فى شرق لندن:

"على الرغم من أهمية البيانات الإحصائية (من المقابلات المقننة)، فإن لها مثالب واضحة. ولذلك شرعنا منذ البداية عن قصد فى مزج التحليل الإحصائى بنوع من الوصف التفصيلى والأمثلة التوضيحية التى تستمد فقط من المقابلات الحرة والمطولة، ومن الملاحظة الشخصية؛ لأننا نعتقد أن هذا الأسلوب يفضى إلى تفسيرات أكثر اكتمالاً ودقة من مجرد الاعتماد على أداة واحدة فقط".

(Willmott & Young, ١٩٦٩: ٢١٠)

المقابلات

هناك ثلاثة أنواع من المقابلة: مقننة، وشبه مقننة، وغير مقننة. ومرجع هذا الاختلاف نمط الأسئلة التى تُوجه والبيانات التى نحصل عليها. أما المقابلة المقننة فهى عبارة عن استبيان بمسمى آخر، وهدفها الأساسى توفير بيانات كمية. أما المقابلات شبه المقننة وغير المقننة فهى تنتج لنا بيانات يغلب عليها الطابع الكيفى بدرجة أكبر. وفى حالة المقابلة غير المقننة يستخدم الباحث استمارة بحث مكونة من مجالات أو

موضوعات عامة لدراساتها، وهذه تستخدم كأسئلة مراجعة إذا تبين أن الإجابات منطقية إلى حد كبير. وتعطى استمارة البحث فى المقابلة شبه المقننة مزيداً من التفاصيل، ولكنها تسمح بقدر كبير من حرية الإجابة. ونستشهد هنا ببحثين عن خبرات العمل المنزلى استخدمتا استمارة بحث من هذا النوع، وهما: الزوجة الأسيرة The captive wife الذى قامت به هانا جافرون Hannah Gavron، وعلم اجتماع العمل المنزلى The Sociology of Housework لـ "آن أوكلى" Ann Oakley. ومن الجوانب العملية لإجراء المقابلات غير المقننة هو أن الباحث لا يكون متأكداً من الفترة الزمنية التى سوف تستغرقها. فقد اختلف الوقت الذى استغرقته المقابلات فى دراسة آن أوكلى من ساعة وربع الساعة إلى ثلاث ساعات ونصف الساعة.

إجراء المقابلات

من المهم عند إجراء المقابلة أن لا يقول الباحث شيئاً أو يقوم بتصرف من شأنه أن يحرف الإجابات. فقد يقوم الباحث - عن غير قصد - بالتهويل على المبحوث وتشويشه أو الإيحاء له بأن إجابة محددة هى الإجابة الصحيحة، وكل ذلك من شأنه أن يكون له أثر عكسى على البيانات التى نحصل عليها من المقابلة. ومن الممارسات السليمة بصفة عامة أن يقدم الباحث نفسه بلباقة إلى المبحوث ويعرفه بأغراض البحث. وفى حالة المقابلات غير المقننة التى تستغرق وقتاً طويلاً ينبغى بذل جهد كبير للتمهيد لإجراء المقابلة إما من خلال الاتصال بالمبحوث من خلال وسيط أو الكتابة إليه أو الاتصال به هاتفياً. وفى موقف المقابلة نفسه نجد أن الأسئلة المختصرة والواقعية عن موضوعات مثل عمر المبحوث ومكانته - التى تُستهل بها معظم المقابلات من أى نوع كانت - توفر فرصة لتعزيز العلاقة بين القائم بالمقابلة والمبحوث قبل توجيه الأسئلة المطلوب الإجابة عنها. ومن الممارسات السليمة بصفة عامة - إذا تيسر ذلك - مراجعة الإجابات مع المبحوث قبل الانتهاء من المقابلة. وليس المقصود من ذلك التأكد من دقة الإجابات فحسب، بل والتأكد أيضاً من أن البيانات تخص المبحوث أولاً وأخيراً.

تسجيل المقابلات

يُفضل فى بعض الأحيان تسجيل المقابلة بدلاً من محاولة تدوينها كتابة أثناء القيام بالمقابلة. ويمكن نسخ الشريط المُسجل فيما بعد قبل التحليل. ومن الأمور المألوفة تسجيل المقابلات غير المقننة والمقابلات الجماعية (أى المقابلات التى تجرى مع مبحوثين أو أكثر) عندما يكون اهتمام القائم بالمقابلة وحواسه ومهارته مطلوبة جميعها فى إجراء المقابلة. فالباحث الذى ينشغل بالتدوين فى محاولة للحاق بما يقوله المبحوث ربما يتداخل

بالتالى مع التدفق الطبيعى للإجابات، ومن ثم يحول دون التعبير الطليق والواعى عن المشاعر والآراء. ومن الأسهل على المبحوثين أن يتغاضوا عن جهاز التسجيل أو كاميرا الفيديو، ولكنهم لن ينسوا الباحث الذى يقوم بتدوين الإجابات. ويساعد التسجيل المرئى فى إظهار الإيماءات والتعبيرات التى توضح المعانى التى يقصدها المبحوثون، ولكن ربما يبدو ذلك هامشياً فى بعض الأحيان.

وخلال السبعينيات والثمانينيات أجريت مجموعة من الدراسات عن طلاب المدارس الثانوية باستخدام المقابلات غير المقننة التى تم تسجيلها. ومن هذه الدراسات دراسة بول ويليس بعنوان "تعلم العمل" Learning to Labour؛ وهى دراسة عن مجموعة من الصبية من الطبقة العاملة، ودراسة ماكان جيل Macan Ghail بعنوان "صغار، وموهوبون، وسود" Young, Gifted and Black، وهى دراسة عن مجموعات متعددة من الطلاب السود.

وما نلاحظه فى هاتين الحالتين عند قراءة النصوص المنسوخة للمقابلات الجماعية هو الطبيعة الموجزة للأسئلة التى يوجهها القائم بالمقابلة. وغالباً ما ينطلق المبحوثون فى حوارهم مع بعضهم البعض، وهذا ما يأمله الباحث عموماً. وفى دراسة ماكان جيل تُدخّل بأسئلة مثل:

١-ماذا تقصدين؟ قارنى بالنساء السود؟

٢-ماذا عن إخوانك؟

٣-لماذا غيرت طريقتك بينما هم لم يغيروا؟

ومن المؤشرات العامة على مهارة القائم بالمقابلة المتعمقة هى أن يتكلم قليلاً، وأن يقول ما يريده بطريقة مؤثرة، وأن يتيح الفرصة للمبحوثين لكى يدلوا بالإجابة.

مزاي المقابلات ومثاليها

تختلف مزاي المقابلات ومثاليها حسب نوع المقابلة. ومزاي ومثالب المقابلة المقننة هى نفسها مزاي ومثالب الاستبيان التى ناقشناها من قبل، وهى أنها تُنتج بيانات كمية توفر أساساً للتعميم. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نجد على الطرف الآخر المقابلة غير المقننة التى تعد أهم أدوات البحوث الكيفية. وتمكّن هذه المقابلة الباحث - من خلال إتاحة الفرصة للمبحوث لكى يجيب بحرية- من فهم مشاعر المبحوث ودوافعه وتفكيره، وذلك بافتراض أنه لا يحدث أى شكل من أشكال سوء الفهم أو سوء الاتصال. وتختلف طبيعة البيانات التى تنتجها المقابلات غير المقننة فى جانب واحد مهم عن البيانات التى نحصل

عليها من الملاحظة المشاركة، وهي أداة أخرى من أدوات البحوث الكيفية (سوف نناقشها لاحقاً). فالملاحظة المشاركة توفر لنا - عادة - بيانات عن المبحوثين في أفعالهم الطبيعية اليومية، أما المقابلة المقننة فهي تعطي الفرصة للمبحوثين لإضفاء ذاتهم على الفعل وتفسيره سواء أكانت أفعالهم أم أفعال الآخرين. ولذلك نجد من الشائع أن هاتين الأداتين تستخدمان لتكمل إحداهما الأخرى. وقد قام لود همفرس في دراسته عن الجنسية المثلية بدور الملاحظ المشارك الذي يختلس النظر إلى الممارسات الجنسية (وهو دور مقبول في مجتمع الجنسين المثليين). وبعد ذلك قابل اثنا عشر فرداً من هذه الجماعة.

ويمكن تقسيم الملاحظة إلى ملاحظة غير مشاركة وملاحظة مشاركة. وفي كلتا الحالتين يمكن أن تكون الملاحظة ظاهرة (مفتوحة، غير خفية) أو مستترة (خفية، سرية). وتثير هذه الأوضاع المختلفة مشكلات مختلفة.

الملاحظة

الملاحظة غير المشاركة

تستوجب الملاحظة غير المشاركة أن يقوم عالم الاجتماع حصرياً بدور الملاحظ لمفردات بحثه. وإذا كان ذلك ما تقوله النظرية، فإننا نجد في الواقع أحد الأمثلة المبكرة على استخدام أداة الملاحظة، ويوضح هذا المثال مدى صعوبة أن يظل الباحث منفصلاً انفصلاً كلياً عن مفردات بحثه. وكان ذلك في الملاحظة الظاهرة التي قام بها ألتون مايو لشركة كهرباء هوثورن في شيكاغو. وقد طلب من مايو وفريقه أن يدرسوا تأثير التغيرات المختلفة في ظروف العمل على إنتاجية قوة العمل في مصنع هوثورن، ووجد مايو أن أي تغيير في المتغيرات المؤثرة في ظروف العمل - حتى المتغيرات التي جعلت تلك الظروف أسوأ مما كانت عليه في الأصل - تؤدي إلى تحسن في الإنتاجية. وفي نهاية الأمر وجد مايو نفسه مضطراً إلى أن يخلص إلى أن وجود فريق البحث هو الذي أدى إلى تحسن في الإنتاجية، حيث حفز وجودهم قوة العمل على بذل مزيد من الجهد. وتوجه تجربة هوثورن تحذيراً شديداً للهجة إلى علماء الاجتماع كي يكونوا واعين بالأثر الذي يمكن أن يتركوه على نتائجهم. وفي بعض الأحيان يشار إلى تأثير الباحث من هذا النوع بـ "تأثير هوثورن" Hawthorne effect. وبلاستفادة من تجربة مايو يفضل بعض علماء الاجتماع أن يخلوا أثر وجودهم إلى عوامل من خلال ملاحظة مفردات البحث ملاحظة مستترة.

ومن الأمثلة على ذلك بحث فاليري يول الذي قامت فيه بملاحظة التفاعل بين

الراشدين والأطفال ملاحظة مستترة، حيث لاحظت ٨٥ زوجاً من الراشدين والأطفال لمدة ثلاث دقائق لكل زوج، مع مقارنتهم بـ ٨٥ زوجاً آخرين يختلفون اختلافاً شديداً من حيث العمر، وشملت: ذكر - أنثى، أنثى - أنثى، ذكر - ذكر. وكانت النتائج التي توصلت إليها يول مثيرة؛ حيث تبين أن درجة التفاعل الإيجابي بين جميع الأقران من الراشدين أعلى منها بين الأقران من الراشدين والأطفال.

و غالباً ما تسلم الملاحظة غير المشاركة إلى تحليل النتائج وعرضها بطريقة مقننة وكمية حتى لو كان موضوع البحث - مثل بحث يول - عن نوعية التفاعل الاجتماعي. وقد لاحظت يول أن أربعة أخماس الأقران من الراشدين تجاذبوا أطراف الحديث أو نظروا إلى بعضهم أو ابتسموا على الأقل، مقارنة بما يزيد عن نصف الراشدين - في مجموعة الراشدين والأطفال - لم يعيروا الأطفال الذين معهم أى اهتمام خلال فترة الملاحظة (٣ دقائق). وكان التفاعل سلبياً بين ٤٠% من عينة الراشدين - الأطفال. وقد قامت يول بالتعبير عن هذه التفاعلات التي حدثت بطريقة كمية وصفية بسيطة. ونورد فيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

"أخبر سبعة راشدين - ممن عبروا الطريق - الأطفال الذين معهم أن ينظروا أمامهم أو يسرعوا، إلا أنه لم ينظر أحد منهم إلى الأطفال الذين معهم أثناء الحديث إليهم. وقام خمسة آخرون بجذب الأطفال من أذرعهم أو أيديهم. وصرخ ستة أطفال في وجه من دفعوهم لعبور الطريق. ونال ثلاثة من هؤلاء صفة على وجوههم، وقدمت لاثنتين قطع من الحلوى دون النظر إليهما، وتم تجاهل السادس.

وأخبر أربعة أطفال في المتاجر - بدرجات متفاوتة من القسوة - أن يتصرفوا بأدب وهدوء، وتم تهدئة أحدهم بقطع من الحلوى.

ولقى أربعة أطفال في سيارات عمومية توييخاً أو صفعاً على وجوههم لسوء سلوكهم، وتلا ذلك تجاهل تام.

وأخبر أربعة أطفال في محطات السيارات العمومية أن يظلوا في أماكنهم، وغلّ أحدهم من يديه.

وحاول أربعة أطفال التحدث إلى الراشدين الذين لم يعيروهم أى اهتمام. وحال ثلاثة أطفال أن يتحدثوا إلى الراشدين، ولكنهم رفضوا التحدث معهم".

(Yule, 1917: 445)

والملاحظة غير المشاركة - خاصة المستترة - مزايا مؤكدة فيما يتعلق بالموضوعية. ويمكن للباحث أن يخصص كل الوقت والجهد من أجل القيام بملاحظة (وتسجيل) دقيقة. وعلى النقيض من الملاحظة المشاركة، لا يمكن أن يكون رأى الباحث متحيزاً ومحرراً بعلاقاته التي تكونت مع مفردات بحثه خلال فترة البحث. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يوجد قصور في طبيعة التفسيرات الممكنة في البحوث التي تعتمد على الملاحظة غير المشاركة اعتماداً كلياً. وهذا يعود إلى أن وجهات نظر الفاعلين ومشاعرهم حول أفعالهم لا يمكن أن يصل إليها الباحث بشكل منتظم، وقد لا يعبر عنها المبحوثون مطلقاً ما لم يظهر ذلك أثناء الملاحظة. وللحصول على هذه البيانات الكيفية يمكن تعزيز الملاحظة غير المشاركة بالمقابلات المتعمقة مع عينة فرعية من المبحوثين الذين تمت ملاحظتهم أو بشكل آخر من أشكال المنهج الكيفي.

الملاحظة المشاركة

تقتضى الملاحظة المشاركة أن يشارك عالم الاجتماع في الفعل الاجتماعي الذي يسعى إلى وصفه وفهمه. وربما تكون الملاحظة المشاركة أكثر مناهج البحث في علم الاجتماع التي يغلب عليها الطابع الكيفي، ومع ذلك يستحيل تصنيف وتكميم وجدولة كل البيانات الناتجة عن الملاحظة المشاركة. وقد شاع استخدام الملاحظة المشاركة على نطاق واسع منذ الستينيات على يد أنصار التفاعلية والمنهجية الشعبية.

الإثنوجرافيا

تعود جذور الملاحظة المشاركة في العلم الاجتماعي إلى النصف الأول من القرن العشرين على الأقل عندما تبناها علماء الأنثروبولوجيا (الباحثون في المجتمعات المتأخرة "الأمية") كجزء من المدخل الإثنوجرافي. ويقصد بالإثنوجرافيا البحث الذي ينهض على ملاحظة وتسجيل طريقة الحياة في ثقافة أو ثقافة فرعية معينة بدرجة عالية من الدقة. وكانت الملاحظة المشاركة بمثابة طريقة للاقتراب قدر الإمكان من مفردات البحث. وقد استخدم هذه الطريقة بدرجة ملحوظة كل من برينسلاو مالنيوفسكي Bronislaw Malinowski ومارجريت ميد. ومن المجتمعات التي قام مالنيوفسكي بدراساتها مجتمع جزر التروبرياندا في غرب المحيط الهادى. واستخدم مالنيوفسكي الملاحظة المشاركة لنفس الأغراض التي يسعى إليها علماء الاجتماع المعاصرون. فقد رغب في فهم وجهة نظر السكان الأصليين لمعرفة رؤيتهم للعالم، وملاحظتهم وهم

يتصرفون بشكل طبيعي. وللقيام بذلك عاش بينهم لمدة تزيد عن سنة. ويجب على الملاحظ المشارك أن يكون مستعداً لقضاء فترات زمنية طويلة مع المبحوثين حتى يعطيهم الفرصة للتكيف مع وجوده والتصرف بطريقة نمطية (عادية). ومن المهم بالنسبة للملاحظ المشارك أن يكتسب ثقة وقبول الناس الذين يقوم بدراساتهم حتى يتصرفوا بشكل طبيعي. وفي حالة مارجريت ميد أوضحت البحوث الحديثة أن مفردات بحثها - وهن البنات المراهقات في ساموا - لم يأخذن بحثها مأخذ الجد. وقد ذكرت ميد في كتابها "البلوغ في ساموا" - الذي نشر لأول مرة في العشرينيات - أن النساء كن أحراراً بدرجة ملحوظة من الناحية الجنسية قياساً بالمعايير الغربية. ويزعم فريمان (١٩٨٣) أن البنات الآن يبدین تحفظاً بشأن هذا الموضوع.

الملاحظة المشاركة داخل الثقافات الفرعية

ركزت معظم الدراسات الحديثة التي استخدمت الملاحظة المشاركة على الثقافات الفرعية، وخاصة الثقافات الفرعية للعصابات وجماعات الشباب. ومن أوائل الدراسات المهمة في هذا المجال دراسة وليام فوت وايت عن مجتمع النواصي، حيث قام بدراسة الزمرة في منطقة فقيرة في شيكاغو يسودها المهاجرون الإيطاليون. ويصف وايت نفسه بأنه يسعى إلى تأسيس علم اجتماع ينهض على وقائع اجتماعية ملاحظة. ويوضح الشاهد التالي المبرر الأساسي الذي دفع وايت إلى استخدام مدخل الملاحظة المشاركة:

"تعلمت من جلساتي واستماعي (إلى مفردات البحث) إجابات عن أسئلة لم يدر بخلدی أن أسألها لو أنني كنت قد حصلت على بياناتي من خلال المقابلة فقط".

(Whyte, 1950: 303)

وبعبارة أخرى، يتعلم العالم الاجتماعي من الملاحظة المشاركة ماهية الأسئلة التي يسألها إضافة إلى الإجابات عنها.

وبالنظر إلى الخداع الواضح الذي تعرضت له مارجريت ميد، فمن الواضح أن وايت حصل على كثير من البيانات من "دوك" - قائد الزمرة - والذي كوّن معه صداقة. وكان وايت يأتمن دوك على أسرار بحثه على الرغم من أنه لم يكشف عنها للآخرين. وكان دوك متعاوناً مع وايت إلى حد كبير، وهذه حالة أسهمت فيها المشاركة القوية للباحث والمبحوث إسهاماً إيجابياً في البحث. ويذهب وايت إلى أنه بدأ بحثه كملاحظ مشارك وانتهى منه كمشارك ملاحظ، وبهذه الطريقة تمكن من فهم الأمور فهماً عميقاً.

ومن الدراسات الأخرى دراسة جيمس باتريك عن "ملاحظة عصابة في جلاسجو"

(1973) A Glasgow Gang Observed. وقد انضم باتريك إلى هذه العصابة مستخدماً الملاحظة المستترة. وكانت النتيجة دراسة رائعة عن سلوك العصابة خاصة التدرج الهرمي والشعائر. والسؤال هنا: هل كان باتريك محققاً في إخفاء هويته؟ يذهب باتريك إلى أن أعضاء العصابة لم يفكروا في هذا الأمر، وأنهم لو انتقموا منه لتضليلهم لرضى بذلك. ولا توجد قاعدة عامة يمكن إقرارها حول مسألة السرية، ومتروك لكل عالم اجتماع تقديره الخاص في هذا الموضوع. كما تثير دراسة باتريك قضية أخلاقية أخرى حول الملاحظة المشاركة لموضوعات الانحراف: هل أهداف البحث تبرر لعالم الاجتماع أن ينتحل هوية منحرفة بل وربما يرتكب أفعالاً انحرافية؟

ومن الدراسات الأخرى التي استخدمت الملاحظة المستترة مع قيام الباحث بدور منحرف دراسة لود همفريس عن الجنسية المثلية في المراهيض العامة بالولايات المتحدة. وقد قام همفريس بدور "مراقب" أو "مختلس النظر" إلى الأنشطة الجنسية للآخرين. وبعد أن تبين له أنه مقبول من هذه الجماعة كشف عن هويته كباحث، وبدأ يجرى حوارات مفتوحة مع بعض الجنسيين المثليين. وبهذه الطريقة تمكن من تحقيق مزايا الملاحظة الطبيعية وتوجيه الأسئلة بشكل مباشر.

وتعد دراسة كين برايس "الضغط المتواصل" (1979) - وهي دراسة عن مجتمع سكان الكاريبي من أصول أفريقية في منطقة سان بول بمدينة بريستول - مثلاً كلاسيكياً اليوم عن الملاحظة المشاركة. وقد عدل برايس من مدخله ليناسب الظروف التي مر بها. ولذلك كشف عن هويته كباحث لبعض المبحوثين دون غيرهم. وفي لقاء مع أحد المبحوثين ذكر أنه بذلك لا يخدم مفردات بحثه، ولكنه يعزز علاقته بهم. ومع تزايد قوة هذه العلاقات لاحظ أنه ليس من الضروري أن يحتمى بهويته الحقيقية كباحث. وبدأت الدراسة تتجه إلى تحقيق هدفها تدريجياً أثناء البحث. ويعبر برايس عن ذلك بلغة تقترب من لغة وايت بقوله: "لقد تطورت الفروض التي تشكل جوهر الدراسة في غضون عملية البحث الفعلي".

مزايا الملاحظة المشاركة ومثالبها

تعكس مزايا الملاحظة المشاركة أحد وجهي العملة، وتجسد مثالبها الوجه الآخر لها. فهذه الأداة تساعد الباحث في الإدراك والفهم اللذين يصاحبان المشاركة الذاتية، ولكنها تؤدي إلى ضياع الموضوعية. ويقترح رونالد فرانكنبيرج - الذي قام بدراسة عن الحياة في قرية بويلز استخدم فيها الملاحظة المشاركة - اقتراحاً مفيداً بتقسيم البحث إلى ثلاث مراحل بما يؤمن ضد الذاتية المفرطة للملاحظ المشارك. وتتطلب كل مرحلة من

هذه المراحل درجة متفاوتة من المشاركة مع مفردات البحث. ففي المرحلة الأولى لا بد من تحديد مشروع البحث (عملية موضوعية إلى حد نسبي). وفي المرحلة الثانية يصبح عالم الاجتماع مشاركاً ذاتياً (شخصياً) مع من يرغب في دراستهم. وفي المرحلة الثالثة ينسحب الباحث لدراسة وتقييم خبراته ونتائجه.

وفي بحثها عن "المونيز" Moonies (كنيسة التوحيد) قامت إيلين باركر بتجريب ثلاثة أطوار تدخل ضمن المرحلة الثانية في نموذج فرانكنبيرج، وهذه الأطوار هي:

١-الطور السلبي (المشاهدة والاستماع على سبيل المثال).

٢-الطور التفاعلي (المحاورة وتوجيه الأسئلة الاستكشافية مثلاً).

٣-الطور الإيجابي (توجيه الأسئلة الملحة والحرجة مثلاً).

ويضفي هذا التقسيم المرحلي مزيداً من التنظيم والضبط على عملية المشاركة.

وثمة اتهام موجه إلى مؤلفي الدراسات التي اعتمدت على الملاحظة المشاركة بتعاطفهم مع المنحرفين والمجرمين وجماعات الشباب الذين يشكلون - عادة - مفردات بحوثهم. ومن المؤكد أن هناك توحداً قوياً مع "اللامنتمين" Outsiders في عدد من الدراسات الكلاسيكية التي قامت على الملاحظة المشاركة، إلا أن هذه الدراسات فيها مصداقية نادراً ما تحققها الدراسات التي تقوم على المسح.

العلاقة بين النظريات ومناهج البحث

توجد علاقة دقيقة - ولكنها ليست علاقة محددة بإحكام - بين النظريات التي عرضنا لها في الفصل الأول ومناهج البحث التي ناقشناها آنفاً في هذا الفصل. ويصور الشكل (٢-٢) هذه العلاقة.

شكل (٢-٢)

العلاقة بين النظريات ومناهج البحث

النظريات التأويلية	النظريات البنائية
الفعل الاجتماعي، التفاعلية، المنهجية الشعبية	الماركسية، الوظيفية، فيبر /
المناهج الكيفية	المناهج الكمية
المقابلة غير المقننة، الملاحظة (الملاحظة غير	المسوح الاجتماعية، الاستبيان،

ملحوظة: نظرية الفعل الاجتماعي عند فيبر نظرية بنائية في أساسها، ولكنها نظرية تأويلية في جانب منها.

ويجدر بنا أن نلخص ثلاث طرق تتقاطع فيها كثيراً الخطوط البنائية / الكمية والتأويلية / الكيفية، أولها أن الأدوات التي نفكر فيها عموماً على أنها تنتج نوعاً معيناً من البيانات يمكن أن تستخدم غالباً لإنتاج بيانات من النوع الآخر. ومن ثم استخدمت فاليري يول الملاحظة (أداة كيفية) لدراسة التفاعل بين الراشدين والأطفال دراسة كمية. **وثانيها** أن نمطى النظرية – مناهج البحث يستخدمان في الغالب ليكمل أحدهما الآخر. ومن ثم جمع جولدثورب بيانات السيرة الذاتية من النوع الكيفي من عينة فرعية من العينة الأساسية (١٠,٠٠٠ مبحوث) التي طبق عليها استبيان عن الحراك الاجتماعي. **وثالثها** أنه على الرغم من الوعي بالصلة الهامة العامة بين البنائي/ الكمي والتأويلي / الكيفي، فإن علماء الاجتماع غالباً ما يستخدمون أى مدخل وأداة يرون أنهما مناسبان لتلبية متطلبات بحوثهم. ويذهب علماء الاجتماع إلى أن التعددية المنهجية – نظرياً وعملياً – أجدى من المفاضلة بين هذا المدخل وذاك.

المصادر الثانوية

يقصد بالمصادر الثانوية للبيانات تلك المصادر الموجودة فعلاً، وهذا يجعل مجال البحث رحباً. ويمكن استخدام أية بيانات متاحة في الدراسة شريطة أن تستخدم بطريقة مناسبة ودقيقة.

الإحصاءات الرسمية

يدور جدل محموم بين علماء الاجتماع حول استخدام الإحصاءات الرسمية في بحوثهم. ويوجه أنصار النظرتين التأويلية والماركسية انتقادات قاسية بشأن صدق هذه الإحصاءات وثباتها. فعلى سبيل المثال يذهب سيكوريل وجارفينكل – على التوالي – إلى أن الصورة النمطية للمتهمين عند رجال الشرطة والقضاء تؤثر في إحصاءات الجريمة. كما ذهب أتكينسون إلى إدعاء مماثل فيما يتعلق بالافتراضات البديهية للمحققين حول أسباب الانتحار. ومن جانبهم يرى الماركسيون أن الإحصاءات التي تقوم الحكومات الرأسمالية بجمعها تُؤطر وتُقدم عموماً بطريقة تدعم النظام الرأسمالي، كما يؤمنون بأن هناك درجة كبيرة من التسامح الرسمي مع جرائم الأقوياء.

وثمة اتهام مؤداه أن الإحصاءات الرسمية تستخدم بطريقة متحيزة – أو مريبة على الأقل – من جانب الحكومة، وهو الاتهام الذى وجهه رجال السياسة والصحافة المعارضين فى الثمانينيات وأوائل التسعينيات. فقد لوحظ بصفة خاصة أنه طرأ أكثر من ثلاثين تغييراً على طريقة حساب الأرقام الرسمية للبطالة، مما أدى إلى خفض الرقم الإجمالى. وانصب جانب من النزاع على الشرائح التى تتألف منها البطالة (هل المتعطل هو الذى يسجل نفسه فى مراكز العمل؟ أم أن المتعطل هو الذى ظل فى حالة تعطل لمدة شهر على الأقل؟)، وبمعنى آخر: كيف ينبغى تعريف البطالة؟ وقد ظهرت مسألة التعريف على السطح بدرجة أكثر حدة فى غمار الجدل المتواصل حول ما إذا كانت أعداد الفقراء زادت أم لا أثناء حكم المحافظين. ويذهب الناقدون إلى أن أعداد من يعيشون فى فقر نسبي (مع مراعاة التغير فى معايير قياس الفقر) قد زادت، فى حين يرى عدد من الساسة المحافظين أنه من حماقة تقدير أعداد الفقراء بدقة مع تغير معايير قياس الفقر.

مصادر إحصائية أخرى

بالإضافة إلى الإنتاج المتواتر للإحصاءات، تظهر من لآخر تقارير حكومية خاصة – تقوم بها غالباً لجان حكومية – تتعلق بمجالات هامة تلقى اهتماماً قومياً. وغالباً ما تحتوى هذه التقارير على بيانات إحصائية هامة وغيرها من البيانات. ومن هذه التقارير "اللامساواة فى الصحة" Inequalities in Health، الذى يشار إليه فى بعض الأحيان بـ "تقرير بلاك" The Black Report على اسم أحد معديه. ويقدم التقرير معلومات ثرية عن اللامساواة الاجتماعية واعتلال الصحة.

وتقوم العديد من المنظمات الطوعية وجماعات الضغط بنشر إحصاءات فى مجال تخصصها بشكل منتظم. ومن العجيب أن هذه الإحصاءات يتم اختيارها وعرضها بطريقة تعزز مصالحها. ومع ذلك فإن البيانات الإحصائية التى تصدر عن جهات مثل الجمعية الوطنية لحماية الأطفال NSPCC تسهم فى تنمية الوعي العام وإذكاء الجدل حول قضايا اجتماعية رئيسية.

المصادر التاريخية

تعد المصادر التاريخية مهمة فى توفير أساس للمقارنة فى علم الاجتماع والبرهنة – بالطبع – على أنماط التغير الاجتماعى. ومن المحتم أن تثار قضايا الثبات والتفسير المتعلقة بالشواهد التاريخية. فقد اعتمد فرديريك إنجلز فى مؤلفه الهام "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة" (١٨٨٤) على مصادر ثانوية. وكذلك مؤلف لويس مورجان

"المجتمع القديم". وقابل هذان العمالان تحدياً من الكتابات الحديثة فيما يتعلق بدقة الحقائق وتفسيرها. وتحظى دراسة بيتر لازلت "العائلة والأسرة فى الأزمان الماضية" (١٩٧٢) بالمصداقية والقبول. فقد استخدم لازلت بيانات إحصائية من سجلات الأبرشيات سفهت الخرافة القائلة بشيوع الأسرة الممتدة فى بريطانيا قبل الثورة الصناعية، وهو ما يعد إضافة مهمة إلى أطر تحليل الأسرة.

وتزودنا الدراسات التاريخية ببيانات مصورة وفنية وغيرها من البيانات من النوع غير الإحصائى وغير المطبوع. وتصبح نسبة هذه البيانات إلى البيانات الإحصائية والمصورة نسبة أعلى كلما عدنا بالتاريخ إلى الوراء. وفى كتابه "قرون من الطفولة" (١٩٧٣) استخدم فيليب آرييه Philip Ariès الصور العائلية للبرهنة على أن الطفولة لم تكن "مرحلة عمرية" مستقلة فى أوربا فى العصور الوسطى، إذ يظهر الأطفال فى هذه الصور وكأنهم "راشدين صغار". وعادة ما تحتاج هذه الشواهد إلى ما يعززها. ومن هنا اعتمد آرييه أيضاً على بيانات مكتوبة للتدليل على مزاعمه.

ومما يميز المصادر التاريخية المحلية أنها متاحة للطلاب. فعلى سبيل المثال نجد أن دراسة مصنع مهجور أو سجلات ومواقع أثرية - خاصة المقابلات مع سكان منطقة ما الذين يعيشون فيها منذ زمن طويل (التاريخ الشفاهى) - يمكن أن يوفر أساساً للتاريخ الاجتماعى الحى / علم الاجتماع التاريخى. وفى مقرر "الثقافة الشعبية" بالجامعة المفتوحة (سابقاً) تم استخدام مصادر رسمية (مؤسسة بلاكبول) عن ثلاث فترات تاريخية (القرن التاسع عشر، العشرينيات من القرن العشرين، ١٩٩٧) لدراسة تغير طبيعة قضاء الإجازات على شاطئ البحر فى الحياة الثقافية لسكان الشمال الغربى خاصة بين أفراد الطبقة العاملة. وتم تحديث الدراسة حتى اليوم من خلال زيارات الطلاب لخمسة مواقع فى بلاكبول أخضعت للتحليل الثقافى. وهذا النوع من الأعمال البارعة يمكن أن يسלט الضوء على علم الاجتماع بدرجة لا يمكن أن يحققها الكتاب المدرسى فى هذا العلم.

الوثائق الشخصية

تعكس الوثائق الشخصية وجهة نظر المشارك فى خبرات معينة. وتستخدم هذه المصادر فى علم الاجتماع لتمثيل آراء الفاعلين ومغزاها فى مواقف اجتماعية محددة. ومن الأمثلة على الوثائق الشخصية: اليوميات، الرسائل، تاريخ الحياة غير الرسمية. ولا تزال السير الذاتية المنشورة تصنف ضمن الوثائق الشخصية، مع أنها قد تتعرض للمراجعة نتيجة مراعاة مشاعر الآخرين أو لاعتبارات قانونية مثل قوانين القذف والتشهير.

(١) بيانات السيرة الذاتية: المبحوث

فى بعض الأحيان يقوم الباحثون الذين يجرون مسوحاً اجتماعية على نطاق واسع بتشجيع بعض المبحوثين على تدوين وثائق شخصية للحصول على بيانات كيفية تعمق بياناتهم الكمية. وهذا ما فعله يونج وويلموت فى مسحهما عن الأسرة فى بثنال جرين Bethnal Green، وجون جولدثورب وزملاؤه فى مسحهم عن الحراك الاجتماعى. وفى الحالة الأولى قام بعض المبحوثين بتدوين يومياتهم الشخصية. وفى الحالة الثانية دوّن بعض المبحوثين تاريخ حياتهم. وقد صاغ جولدثورب وزملاؤه ثمانية أسئلة مفتوحة للمبحوثين. ونورد فيما يلى اقتباساً مختصراً من مقدمة "كراسة الملاحظات عن تاريخ الحياة" التى زُود بها المبحوثين:

"نجد أدناه قائمة من الأسئلة. وإذا دونت فقرة أو نحوها للإجابة عن هذه الأسئلة، فسوف يوفر لنا ذلك نوعاً من البيانات نحن بحاجة إليها. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد تكون لديك الرغبة فى ترتيب ما تدونه حسبما تراه مناسباً من وجهة نظرك. وكل ما فى الأمر أن تتعامل مع هذه الأسئلة كدليل مبسط للنقاط التى تهمنى بصفة أساسية".

(Goldthorpe et al., ١٩٨٠: ٢١٩)

وكلما حاول عالم الاجتماع توجيه الإجابات وتنظيمها، زادت درجة صدقها. وإذا كانت الوثائق الشخصية تمتاز بدرجة عالية من الصدق، فلا يوجد ضمان على درجة تمثيلها على نطاق أوسع.

وليس بيانات السيرة الذاتية مجرد لحوم بشرية تكسو عظام الإحصاء. فهى تفيد فى مراجعة البيانات الإحصائية وتوفير وجهة نظر أخرى فيها. فعلى سبيل المثال تبين أن بعض المبحوثين فى دراسة جولدثورب - ممن صنفوا ضمن المستقرين فى وضعهم الطبقي - اعتبروا أنفسهم تحركوا حراكاً اجتماعياً. ومن لوازم الدقة تسجيل هذه الآراء التى ظهرت إلى النور من خلال الوثائق الشخصية، وهى الآراء التى يمكن أن توفر بيانات حول أجندة البحوث المستقبلية.

(٢) بيانات السيرة الذاتية: الباحث

إذا كانت بيانات السيرة الذاتية لمفردات البحث يمكن أن تكون مفيدة، فهل يمكن للقارئ الذى اطلع على بحث فى علم الاجتماع أن يستفيد من معرفة شئ عن مؤلفه؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب: فما هى هذه الفائدة؟ يميل الرأى المعاصر فى علم الاجتماع إلى

وجهة النظر القائلة بأن المؤلف والبحث مترابطان معاً بدرجة لا يمكن الفكك منها. وقبل أن نبحث في أسباب ذلك، يحسن بنا أن نتذكر كيف أجاب علماء الاجتماع الكلاسيكيون عن هذا السؤال، أى أن عالم الاجتماع عليه أن يكون موضوعياً فى مسار بحثه. ويزعم فيبر أنه يمكن تحقيق ذلك. وطالب تشارلز رايت ميلز - الذى أدرك صعوبة تحقيق الموضوعية - علماء الاجتماع أن يوضحوا ويحددوا قيمهم لقرائهم الذين يمكنهم أن يحكموا بما إذا كانت تلك القيم أثرت فى البحث أم لا.

إن كثيراً من البحوث فى علم الاجتماع يكون الدافع من ورائها مصالح وقيم الذين يقومون بإجرائها. وينطبق هذا على المجالات المفتوحة حديثاً للبحث مثل النوع الاجتماعى Gender والجنسية Sexuality والهوية العرقية. فالباحثون الذين خبروا التحيز ضد النوع، أو العنف المنزلى أو العرقى، أو الذين جاهدوا لتطوير هويتهم الثقافية، قد يرغبون فى بحث السياق الأشمل لتلك الموضوعات. وهنا يثار سؤال: هل يمكن اعتبار هذه الخبرات الشخصية بيانات للبحث، ومن ثم يتضمنها تقرير البحث؟

الإجابة على هذا السؤال: نعم، بافتراض أن الخبرة الشخصية لها صلة بالبحث وأدمجت فيه بطريقة مفيدة. ومن هنا، يمكن دراسة العلاقة بين الخبرة الشخصية والقضايا العامة دون تفويض الدقة المنهجية. ويعبر عن ذلك جين ريبنس تعبيراً واضحاً عندما شجع طلابه على استخدام كتابة السيرة الذاتية كجزء من علم الاجتماع الذى يدرسونه:

"يمكن النظر إذن - إلى المجتمع كما يحدث داخل أنفسنا. وباستخدام أنفسنا كمصادر للتليل فى علم الاجتماع ندخل فى مشروع للتحدى، مما يتطلب من الطلاب أن يتعلموا النظر فى سيرتهم الذاتية فى سياق كيفية استقبال قراء علم الاجتماع لها".
(Ribbens, 1993: 11)

وهناك طريقتان رئيسيتان يمكن أن يتحول بهما إدماج الخبرة الشخصية فى البحث السوسولوجى إلى مصدر للخطأ: **أولاهما** عندما يصبح الباحث عاطفياً أو متحيزاً أو سياسياً (أى ذاتياً) لدرجة تضيق معها أية أهمية عامة للبحث. ومن أنواع البحوث التى تتعرض لهذه المشكلة البحوث الإجرائية التى يهدف فيها الباحث إلى حل مشكلة واقعية معينة مثل العنصرية فى المدارس. **وثانيهما** عندما يصبح البحث ببساطة مجرد حكاية مبتذلة، ومن ثم يفقد أهميته العامة.

وسائل الإعلام الجماهيرى

توفر وسائل الإعلام مصدراً متنامياً للبيانات لعلماء الاجتماع. وهذه البيانات على نوعين **أولهما** بيانات تقدم بصورة متكررة فى البرامج ويدعمها الباحثون. ومن ثم فهناك

برامج توفر ثروة من البيانات الأكثر حداثة مقارنة بأى مصدر آخر. وتكمن المشكلة هنا فى أن عالم الاجتماع لا يستطيع أن يتأكد من دقة هذه البيانات، مما تحتاج معه بالتالى إلى مراجعتها والتسليم بصحة هذا المصدر فى أى عمل منشور.

وثانى هذين النوعين أن علماء الاجتماع يستخدمون بيانات وسائل الإعلام المطبوعة والمرئية لأغراض التحليل النقدى. ولذلك تم تحليل عديد من المنشورات والبرامج لانحيازها السياسى أو الأيديولوجى. وقد قامت "جماعة وسائل الإعلام بجامعة جلاسجو" Glasgow Media Group بنشر تحليلات منتظمة للأخبار المذاعة تليفزيونياً خضع فيها المحتوى للتحخيص والتكميم. ويطلق على هذا المنهج مصطلح "تحليل المضمون". وهناك أداة أخرى غالباً ما تستخدم بالمزاوجة مع تحليل المضمون هى "تحليل العلامات" (التحليل السيميولوجى)، وهذا يتضمن استنباط أو فك رموز معنى الإشارات والرموز المرئية.

ولا يتم إنتاج بيانات وسائل الإعلام الجماهيرى - شأنها فى ذلك شأن جميع بيانات المصادر الثانوية - لاستخدام علم الاجتماع بصفة أساسية. ولذلك قد تكون هذه البيانات مبتورة أو زائفة من وجهة نظر علم الاجتماع، كما يمكن أن تكون منحازة شخصياً أو سياسياً، ومن الضرورى ألا يمرر عالم الاجتماع هذه البيانات إلى القراء بدون نظرة نقدية عليها.

هل علم الاجتماع علم؟

إذا عرّفنا العلم تعريفاً واسعاً بأنه تراكم المعرفة التى يمكن إثبات صحتها، فإن علم الاجتماع يعد علماً. وإذا عرّفنا العلم تعريفاً ضيقاً بأنه اختبار الفروض بالمناهج الوضعية، فإنه لا يمكن الإدعاء بأن علم الاجتماع علم. ومثل هذا التعريف الأخير يستبعد أيضاً كل الدراسات التى تعتمد على الملاحظة فى العلوم الأخرى. وحقيقة الأمر أن علم الاجتماع نادراً ما يتوصل إلى نتائج دقيقة وقابلة للتكرار مثل النتائج التى تتوصل إليها العلوم الطبيعية. ومع ذلك لم يتوقف دور كايم وماركس وفيرير عن محاولة أن يكونوا علميين قدر الإمكان، ووضعت أعمالهم أساساً نظرياً ومنهجياً قوياً لتطورات متلاحقة فى علم الاجتماع عبر المسارات العلمية. ونلمس حديثاً البحوث الامبيريقية الدقيقة التى قام بها علماء اجتماع محترفون أمثال جولدثورب وهالسى، تلك البحوث التى تجاوزت بأسسها المنهجية ونتائجها الفهم المتضارب والبدهى للناس العاديين.

وعلى النقيض من المداخل العلمية المعقدة إلى علم الاجتماع، نجد أن علم الاجتماع التأويلى أقل اهتماماً بالتفسير العلى أو الوصف الواقعى منه بالفهم الإنسانى. وهذا ما جعل

علم الاجتماع التأويلي أقرب إلى الإنسانيات منها إلى العلوم. وهذا لا يعنى أن علم الاجتماع التأويلي غير علمي، ولكنه يعنى أنه مناقض للعلم فى جوهره. ولم يعبر علماء الاجتماع التأويلي – على العكس من الوظيفيين وكثير من الماركسيين – عن رغبتهم الجامعة فى تصنيف أعمالهم على أنها أعمال علمية. وقد أشار رايت ميلز – وهو عالم الاجتماع الذى لم يقبل على نفسه أبسط الألقاب – باستخفاف إلى بعض المؤلفات فى علم الاجتماع الموجهة توجهاً علمياً بأنها تشبه "كتب الطهى". كما قرّن إرفنج جوفمان مناهج البحث الوضعية التقليدية بالتعليمات المكتوبة على ظهر الغلاف الخلفى لكتاب الكيمياء للأطفال: "اتبع القواعد، وعندها يمكن أن تصير عالماً حقيقياً".

ويتقبل علماء الاجتماع التأويلي بالترحاب البعد الذاتى فى المجتمع وفى بحوث علم الاجتماع مثلما يتقبله الوضعيون. وتتقاطع الذاتية فى اتجاهين أولهما أن الباحثين لهم قيمهم الخاصة، وثانيهما أن المبحوثين يتصرفون بطريقة فردية لا يمكن – إذن – التنبؤ بها على نحو دقيق.

ويزعم أنصار المنهجية الشعبية – مثل سيكوريل وجارفينكل – أنه يستحيل على علماء الاجتماع أن يكونوا ملاحظين سلبيين للحقيقة، فما يراه هؤلاء العلماء هو محصلة التفاعل بينهم وبين ما يدرسونه. ويدعى أنصار المنهجية الشعبية أن مهمتهم هى اكتشاف ووصف الكيفية التى يتصرف بها الناس ويتفاعلون معاً. وبالنظر إلى تشديد مشايخي المنهجية الشعبية على البعد الذاتى فى الفهم، يصبح السؤال هنا: كيف يثق هؤلاء الباحثون فى ملاحظاتهم وتقاريرهم؟ والإجابة هى أنهم على وعى بهذه المشكلة ويتعاملون معها بطريقة أفضل من الوضعيين الذين يعتقدون اعتقاداً ساذجاً أنهم يستطيعون انتزاع أنفسهم من دراساتهم.

وفيما يتعلق بذاتية المبحوث فى البحث الاجتماعى يذهب شوتز – وهو من أنصار الظاهرية – أبعد مما ذهب إليه مناصرو المنهجية الشعبية، حيث يرى أنه إذا كان لدى العلماء الطبيعيين مفاهيم حول الموضوعات التى يدرسونها، فإن العلماء الاجتماعيين لديهم مفاهيم حول الناس الذين لديهم مفاهيم حول الآخرين (ومنهم الباحث نفسه). وبعبارة أخرى، فإن الناس يمكن أن يفكروا، وعلينا أن نضيف ونختار. وقد يقرر الناس – عن عمد – تضليل الباحث. وبسبب ذلك لا يمكن مطلقاً لمستوى التنبؤ الدقيق فى العلوم الاجتماعية أن يكون مستوى مرتفعاً مثلما هو الحال فى العلوم الطبيعية. ومع ذلك فقد أوضح شوتز أن جماعات الناس تشترك فى أنماط شائعة من التفكير والسلوك، وبمقدور الباحث أن يتأكد من وصفه لهذه الأنماط مع أوصاف باحثين آخرين. وإذا كان هناك اتفاق حول ما تم ملاحظته، فإن ذلك ربما يقترب من تحقيق الموضوعية قدر الإمكان.

والسؤال المطروح الآن: كيف يفكر علماء الاجتماع أنفسهم حول طبيعة علم الاجتماع؟ نناقش الآن آراء اثنين من أبرز فلاسفة العلم حول نفس القضية (فيلسوف العلم هو الشخص الذى يحاول محاولة منظمة أن يوضح المبادئ التى تشكل أساس العلم). وهذه الآراء التى جاءت من خارج علم الاجتماع تغلب عليها إجمالاً نغمة استنكارية. ونبدأ بكارل بوبر الذى كان ماركس بالنسبة له مثل "البعبع" بالنسبة للأطفال. وما علق بذهن بوبر عن ماركس هو أنه "نبي الثورة" لا "عالم الاجتماع"، على الرغم من إدعاء بوبر بأن الإثنين لا ينفصلان عن بعضهما البعض.

ويرى بوبر أن ماركس لم يكن علمياً فى نبوءته عن الثورة البروليتارية من منطلق أنه سلم بشيء لم يحدث بعد. ومن وجهة نظر بوبر لا يوجد مكان للنبوءة والدين والإيديولوجيا فى العلم، ومن ثم أعلن بوبر أن الماركسية ليست علمية.

ولسنا مضطرين إلى قبول ما خلص إليه بوبر لنوافق على ضرورة أن تتعرض النظرية والمفاهيم فى علم الاجتماع عند الماركسيين لنفس الانتقاد والاختبار الذى تتعرض له النظريات الأخرى. والحقيقة أن كون علماء الاجتماع الماركسيين ماركسيين من الناحية السياسية لا يحررهم من الالتزام بالعلم. ولا يرغب أى عالم اجتماع ماركسى واع بهذا النوع من الحرية الواهمة التى يحل فيها مجرد الإصرار على زعم ما محل الإدعاء القائم على العقل والبرهان.

ومن الآراء الراسخة والجوهرية لبوبر أن العلم الاجتماعى – شأنه فى ذلك شأن العلم الطبيعى – عليه اختبار نظرياته وإعادة اختبارها بصفة مستمرة. وأكثر السبل دقة لتحقيق ذلك هى أن يحاول الباحث تكذيب فرضه بدلاً من إثبات صحته، وهو ما يعرف بمبدأ التكذيب المشهور عند بوبر.

ويزعم بوبر أن الماركسية لا يمكن أن تكون علمية؛ لأن كثيراً من نظرياتها الرئيسية تشير إلى المستقبل، وبالتالي فهى ليست قابلة للتكذيب. ويستحيل أن نبرهن بشكل دقيق على أنه لن تحدث ثورة بروليتارية لأن المستقبل مجهول. وبالتالي فإن الإدعاء القائل بأنه سوف تحدث هذه الثورة هو إدعاء غير علمي.

ويذهب بعض الماركسيين المعاصرين – دفاعاً عن أنفسهم – إلى أن اهتمامهم المباشر لا ينصب كله على البرهنة على الفروض أو تكذيبها بقدر ما يركز على تقديم نقد نظري للمجتمع الرأسمالى وطرح بدائل نظرية عنه. كما انفصل كثير من هؤلاء الماركسيين عن النبوءة المفترضة فى كتابات ماركس، وبذلك أصبحت انتقادات بوبر إطناب لا مبرر له.

وثمة نقطة أخرى أثارها بوبر ذات أهمية خاصة لعلماء الاجتماع، وهي أنه لا يوجد فرض يمكن البرهنة عليه على نحو حاسم. ولنضرب مثلاً على ذلك بمرور آلاف البجع البيض أمام عيوننا، ومع ذلك يظل هناك احتمال أن تمر بجعة سوداء. وعلى نحو مشابه يمكن أن نقوم بإجراء تجربة ٩٩٩ مرة، وفي كل مرة نصل إلى نفس النتيجة مما يعد برهاناً على شئ ما. إلا أن هناك احتمالاً أن نصل إلى نتيجة مختلفة في المرة الألف. إن ممارسة العلم تستوجب نوعاً من الشك القوى الذي أعلن بوبر صراحة عن وجود شواهد عليه بين العلماء الاجتماعيين. ويبدو أن نصيحته كانت هي "مزيد من البحث وقليل من التنظير".

ثم جاء **إرنست جلنر** - وهو كاتب حديث سار على نهج بوبر - وكان اعتراض جلنر الأساسى هو على المنهجية الشعبية عند جارفينكل، حيث يدين تشبث المنهجية الشعبية بالنزعة الذاتية كنزعة رومانسية. ويناصر جلنر - مثل بوبر - المدخل الامبيريقى القوى لفهم المجتمع. وعلى الرغم من اتفاق الماركسى بارى هينديس مع بوبر وجلنر فى بعض آرائهما، إلا أنه هاجم أيضاً النزعة الذاتية المفرطة عند المنهجية الشعبية وذلك فى سياق نقده للإحصاء.

وهناك آراء مشتركة فى فكر بوبر وجلنر. وثمة تعليق ينطبق على الوظيفية والماركسية مؤداه أن الضباب النظرى المحصن فى السماء لا بد أن يهبط إلى الأرض ليتم فحصه شكلاً ومضموناً. كما أن الذين يعلقون على النزعة الذاتية لا يبشرون بالأمل فى خطاب سوسولوجى له مغزى، ولا يساعدون على تطور علم الاجتماع كمشروع جمعى.

ما هو العلم؟

نحن ننظر إلى العلم - حتى هذه اللحظة - على أنه معيار نستند إليه فى قياس "علمية" العلم الاجتماعى. وإضافة إلى التفرقة البسيطة بين التعريفين الوسع والضيق للعلم، فإننا نفترض أن مفهوم العلم ذاته ينطوى على إشكالية. وبهذه الطريقة فنحن ننزلق إلى خطر إضفاء مكانة القداسة والألوهية والغموض على العلم. وقد حاول توماس كون Thomas Kuhn أن يفضح زيف وجهة النظر هذه التى تبالغ فى توقيير العلم، وتساءل عن مقدار الصدق فى إيمان العلم بمبدأى الامبيريقية والموضوعية، وعمّا إذا كان هذان المبدآن هما الوحيدان اللذان يعمل العلم من خلالهما بالفعل. فقد تكون الذاتية شبحاً يلازم العلم (الطبيعى)، كما يلازم العلم الاجتماعى سواء بسواء.

وقد ناقش كون قضية أن العلم مجرد مجموعة من النظريات والمناهج والنتائج

الواقعية (الحقيقية). وبدلاً من ذلك يطرح وجهة نظره القائلة بأن العلماء – مثل علماء الاجتماع – يستخدمون النماذج أو المنظورات المتعلقة بتخصصاتهم، والتي تؤثر في اتجاه بحوثهم التجريبية وطبيعتها. ولذلك يمكن القول بأن نظريات أينشتاين شكلت أساساً لنموذج عملي جديد لعلماء الفيزياء الفلكية. وكانت كثير من أفكار أينشتاين تأملية ومُعرضة ولم يُبرهن على صحتها، إلا أنها كانت مصدر إلهام لكثير من البحوث التي تطرقت إلى مشكلات الفضاء والزمن. وعند هذا الحد يبدو أن تفكير أينشتاين يؤدي نفس الوظيفة التي تقوم بها النظرية في علم الاجتماع.

ومن الملامح الأساسية لادعاءات كون أن النماذج العلمية تتغير تغييراً جذرياً عند فترات معينة من التاريخ. ومن هنا جاء عنوان كتابه "بنية الثورات العلمية". ويحدث هذا التغيير الثوري عندما لا يناسب أحد الاكتشافات النموذج العلمي السائد. ونحتاج إلى مثال على ذلك. فقد ساد اعتقاد لعدة قرون أن الأرض هي مركز الكون وأن الشمس تدور حولها، واستمر هذا النموذج باقياً على الرغم من تزايد صعوبة ملاءمة الوقائع الجديدة المكتشفة معه. وأخيراً قدم كوبرنيكس دليلاً أسقط هذا النموذج، وأصبح النموذج الجديد مقبولاً، وهي أن الأرض تدور حول الشمس.

وبالنظر إلى التغييرات والثورات في النماذج داخل العلوم، يبدو أن هناك خلافاً مماثلاً في علم الاجتماع مُعبّراً عنه من خلال الاتجاهات النظرية، مما يصيب الادعاءات القائلة باحترام العلم ومكانته العلمية بالشلل. والحقيقة أن العلوم الطبيعية أوجدت إحساساً بالإجماع على المدخل النظري والمنهجي بدرجة أوضح مما في علم الاجتماع الذي لا يزال علماً "يافعاً" يمكن أن تتحقق فيه "وحدة النموذج" Paradigmatic unity فيما بعد.

وثمة انتقاد آخر موجه ضد فكرة العلم كرمز للموضوعية، إذ أن العلم تنتابه أيضاً مشكلة الذاتية. وتتمثل النقطة الأولى هنا في مبدأ "الشك" عند هايزنبرج، ومعناه أن الضوء المطلوب لملاحظة الذرات الصغيرة سوف يؤثر على الطريقة التي تسلكها هذه الذرات. ومن هنا يتدخل العالم – بدرجة ما – في التأثير على السلوك الذي يلاحظه. وهذا مثال كلاسيكي على أزمة الذاتية.

أما النقطة الثانية فهي نقطة أخلاقية خطيرة. فالبحث العلمي – مثل البحث الاجتماعي – يُجرى في مجتمع. ويوفر هذا البحث معلومات قد تستخدم بطريقة بناءة أو هدامة. والعلماء الذين يسمحون باستغلال مهاراتهم في قضية يؤمنون بأنها خطأ أخلاقي يكونون في نفس موقف الجنود والإداريين وغيرهم ممن يرتكبون نفس الخطأ. ولا تصاغ نتائج البحوث في فراغ اجتماعي، وهناك قدر من القوة في الاستفادة منها. وقد آمن

أينشتاين إيماناً عميقاً بأن العلماء عليهم أن يتحملوا مسئوليتهم عن العمل الذى يقومون به وتطبيقاته المحتملة فى الحياة الإنسانية.

ما هو علم الاجتماع؟

ها نحن نعود مرة ثانية إلى هذا السؤال. ويمكن القول بأن علم الاجتماع هو دراسة الحياة الاجتماعية الإنسانية بأية وسائل فعالة. وقد تكون هذه الوسائل "علمية" تقريباً، وهذا يتوقف على كيفية تعريف مصطلح "علمية"، وقد تكون هذه الوسائل "غير علمية". وكل ما هو ضرورى أن يضيف تطبيق هذه الوسائل إلى معرفتنا بالحياة الاجتماعية وفهمنا لها. وللقيام بذلك لابد من عرض النتائج عرضاً واضحاً بدرجة تكفى لتداولها بين علماء الاجتماع المحترفين ومنهم إلى جمهور القراء المهتمين. وقد كان رايت ميلز على حق عندما زعم أن افضل طريقة لممارسة علم الاجتماع هى الخيال والمرونة لا الالتزام الصارم بنماذج العلم الطبيعى. وعلم الاجتماع حرفة يتم الحكم عليها من إنتاجها، وما يودى إلى نتيجة أفضل يكون هو الأفضل. وقد أيد نيسبت ميلز فى تشديده على دور الخيال الإبداعى فى علم الاجتماع، وذلك على الرغم من عدم اعتراضه عموماً على الأساس العلمى لعلم الاجتماع. وهذا - فى رأى نيسبت - يعطى علم الاجتماع صفة "الفن". وتؤدى الملاحظة التى أباها نيسبت إلى اكتمال دورة العجلة: **علم الاجتماع علم وفن**. وبالنظر إلى تعقد موضوع هذا العلم فلا بد له أن يكون علماً وفناً.

علم الاجتماع والتقليدية والحدثة وما بعد الحداثة

عرضنا فى القسم الأخير من الفصل الأول للأنماط الرئيسية الثلاثة للمجتمع والأنماط الرئيسية للتفسير الاجتماعى المرتبطة بكل نمط. وناقشنا فى القسم الأول من هذا الفصل ما إذا كان علم الاجتماع علماً أم لا. ويناقد القسم التالى هذه الموضوعات بقدر من التفصيل مع التركيز على الحداثة ونظرية ما بعد الحداثة.

التقليدية والحداثة

ذاعت مصطلحات: المجتمع التقليدى، والحداثة، وما بعد الحداثة فى علم الاجتماع للإشارة إلى ثلاثة أنماط مختلفة من المجتمع. وهذا يعطيه مرتبة أولى من حيث الأهمية فى جدول مفاهيم علم الاجتماع. وهناك شبه إجماع على معانى المصطلحين: الأول والثانى، إلا أن هناك خلافاً حول المصطلح الثالث الذى سنعود إليه لاحقاً. ويلقى التعريف التالى للتقليدية والحداثة قبولاً عاماً.

"التقليدية هى" مجموعة من الممارسات الاجتماعية التى تستهدف الاحتفاء

ببعض المعايير والقيم السلوكية وغرسها في ذهن الأفراد، وهي معايير وقيم تعنى استمراراً وتوصلاً مع ماضٍ حقيقي أو تخيلي، كما ترتبط عادة ببعض الشعائر أو غيرها من أشكال السلوك الرمزي (الأضاحي والقرابين، الأعياد المقدسة على سبيل المثال) التي تحظى بقبول واسع النطاق".

(Oxford Dictionary of Sociology: ٥٣٧)

ويعرف ساروب الحداثة باختصار بأنها:

"مصطلح جامع يشير إلى مجموعة من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي ظهرت إلى الوجود في الغرب في بعض بلدانه منذ حوالي القرن الثامن عشر وما بعده". (Sarrup: ١٩٩٣)

ومن المفترض أن يتضمن التعريف المختصر لساروب التطورات الثقافية والفكرية ضمن النظم "الاجتماعية". وهذه التطورات هي التي سنركز عليها في هذا الفصل؛ لأننا عرضنا بإيجاز في الفصل الأول للتغيرات الراديكالية: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي حدثت في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.

ستيوارت هول: الحداثة والتقليدية

نركز الآن على التعبيرات الجذرية التي جلبتها الحداثة إلى المجتمع التقليدي. ويمكن أن نستعين بتلخيص ستيوارت هول للخصائص المميزة للمجتمع الحديث كأساس للمقارنة بين المجتمع الحديث والمجتمع التقليدي:

(١) **سياسية:** سيادة السلطة السياسية العلمانية على الدولة القومية الجديدة، وتهميش تأثير الكنيسة / الدين في أمور الدولة / الأمور السياسية.

(٢) **اقتصادية:** استبدال الاقتصاديات الإقطاعية والاقتصاديات الأخرى قبل الرأسمالية باقتصاد يقوم فيه النظام النقدي (المالي) المتقدم بدور الوسيط في التبادل (التجارة) القائم على الإنتاج الكبير واستهلاك السلع نيابة عن السوق، وانتشار الملكية الخاصة، وتراكم رأس المال على أساس منتظم طويل المدى (وصف يعكس أعمال ماركس بدرجة كبيرة).

(٣) **اجتماعية:** ذبول النظام الاجتماعي التقليدي (النظام الإقطاعي مثلاً)، ونمو تقسيم جديد للعمل، وظهور طبقات جديدة، وظهور علاقات متغيرة (ولكنها لا تزال قائمة

على نظام سلطة الأب) بين الرجال والنساء.

(٤) دينية: ضعف الدين وظهور ثقافة مادية علمانية.

(٥) فكرية: ظهور الطريقة العقلانية العلمية فى تصنيف العالم والنظر فيه.

وهناك ارتباط وثيق بين الخصائص الدينية (٤) والفكرية (٥) وهذا يعكس أعمال ماكس فيبر).

(٦) ثقافية: نشوء مجتمعات محلية جديدة – بعضها عرقية أو قومية – تتحدى المجتمع المسيحى التقليدى. وقد طوّرت الأمم الجديدة رموزها الخاصة بها وتفسيراتها للتاريخ، وهى عملية زادت قوتها فى القرن التاسع عشر. وتبنى الأمم الحديثة هويتها وتقاليدها الخاصة بطريقة انتقائية لتناسب أهدافها الخاصة. ولذلك تشكلت الهوية القومية الفرنسية بمعارضة الأرستقراطية والملكية، فى حين ظلت الملكية فى بريطانيا رمزاً للأمة عند الكثرة.

وكانت هذه العمليات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية – كما يقول هول – بمثابة المحركات التى شكلت الحداثة. وعلى الرغم من قوة التحول، فلم يكن فورياً أو كاملاً. وظل التراث حياً خاصة فى بريطانيا، حيث استمر ليس فى شكل رواسب مثل الملكية ومجلس اللوردات فحسب، بل وفى جهود جميع أنواع الجماعات للبحث عن وقائع سالفة وسلطة لمعتقداتهم وأنشطتهم فى الماضى.

فعلى سبيل المثال نجد الاشتراكي المعاصر تونى بين لا يزال – على الرغم من تنكره لطبقة النبلاء التى ينتسب إليها بالوراثة – يبحث عن سواف تقليدية لمعتقداته الاشتراكية فى أنشطة الجماعة الراديكالية فى القرن السابع عشر، والمعروفة باسم حزب المساواة Levellers.

أنتونى جينز: التقليدية والحداثة

فى مقاله المعنون "الحياة فى المجتمع بعد التقليدى" (١٩٩٤) قام أنتونى جينز بتحليل طبيعة التراث وتواصل الاهتمام به وابتداعه فى المجتمعات الحديثة. ويعرف جينز التراث على النحو التالى:

"أفهم التراث بالطريقة التالية. التراث يتصل بالذاكرة، خاصة ما أطلق عليه موريس هالفاس "الذاكرة الجمعية"، ويشمل التراث الشعائر؛ ويرتبط بما سوف أسميه "الفكرة التقليدية للحقيقة" Formulaic notion of truth. والتراث له حراسه، والتراث – على العكس من العادات – قوة

ملزمة لها مضمون مزدوج أخلاقي وعاطفي. والذاكرة مثل التراث –
بمعنى أو بآخر – تتعلق بتنظيم الماضي في علاقته بالحاضر".

(Giddens, 1994: 90)

ويمكن أن نعيد صياغة تعريف جيدنز للتراث كما يلي: أوضح جيدنز أن الوعي بالتراث نوع من الذاكرة الجماعية أو الذاكرة التخيلية للماضي؛ والتراث يتضمن الشعائر؛ وهو وصفة طبيعية للحقيقة؛ وله حراسه مثل الأئمة أو الكهنة، وعلى العكس من العادات اليومية يُؤد التراث روابط أخلاقية وعاطفية عميقة.

وتعد الذاكرة الفردية والتراث الجمعي طريقتان لاستعادة الماضي أو الإحساس به أو ربط الماضي بالحاضر. وذكر جيدنز في موضع آخر أن التراث يفعل مفعول "الصمغ"، حيث يربط المجتمع بعضه بعضاً. ومن الأمثلة على ذلك الأعياد القومية، وأعياد الاستقلال، وعيد الهدنة، وأعياد ميلاد أفراد العائلة الملكية.

وعلى الرغم من أن جيدنز شدد بوضوح على أن الحداثة تحقق التراث، فإنه يزعم أن الاتجاهات والسلوكيات التقليدية – خاصة في مرحلة الحداثة المتأخرة – تظل مستمرة وتسهم فعلياً في المراحل المبكرة للتنمية الاجتماعية الحديثة. ففي بدايات القرن التاسع عشر كانت الصفوات المركزية والمحلية تستشهد بالسلطات التقليدية: السياسية والدينية لتشجيع العمل الشاق والامتثال ولو في سياق صناعي وحضري متنام. كما أكد جيدنز – شأنه في ذلك شأن هول – على الطبيعة الإبداعية للتراث، خاصة التشديد المتزايد على "الأمة" كنواة للولاء والتضامن الاجتماعي. ومع ذلك لا ينتهي المجتمع المحلي التقليدي بين عشية وضحاها في مواجهة الإحساس المتنامي بالهوية القومية، بل إن المناطق والضواحي الحضرية الجديدة غالباً ما تُبنى شخصيتها وتقاليدها المستقلة استقلالاً جزئياً عن الاتجاهات القومية: الاقتصادية والثقافية.

وفي رأي جيدنز أن المجتمعات المحلية وتقاليدها الراسخة تيلي تماماً بفعل الحداثة في مرحلة الحداثة المتأخرة (أو ما يسميها البعض ما بعد الحداثة). ويحدث ذلك بسبب العولمة. فوسائل الإعلام الحديثة المسموعة – المرئية لديها المقدرة على اختراق كل بيت وكل مجتمع محلي في العالم، وتنقل معها التصوير التجاري للرأسمالية المعاصرة. وكما يقول جيدنز "المجتمع ما بعد التقليدي هو المجتمع الكوني الأول". وتتولى عملية العولمة تفرغ المجتمعات المحلية من تراثها الراسخ.

ومن المؤكد أن جيدنز على صواب فيما يتعلق بتأثير العولمة على تفكك التقاليد الراسخة. ومع ذلك فقد أبخس في تقدير المدى الذي يتعلق به الناس بالتقاليد أو يبتدعوها

حتى فى مرحلة الحداثة المتأخرة. ولا تقوم التقاليد بتقوية التضامن الجماعى فحسب، ولكنها أيضاً تدعم وتثرى هوية الفرد والجماعة.

ومن الأمور الثابتة أن جانباً من توكيد الهوية يستوجب وجود تاريخ أو تراث. فعلى سبيل المثال يبدو أن البريطانيين المتحمسين لانضمام بريطانيا إلى الاتحاد الأوروبى، وكذا المتشككين فى هذا الأمر يتساوون فى قدرتهم على الاستشهاد بتقاليد الصداقة أو التنافس مع أوروبا، وهذا يتناسب مع الهوية التى يريدون بناءها لبريطانيا اليوم.

ومن القضايا المعاصرة الهامة هو ما إذا كان العالم الإسلامى يمكنه أن يحتفظ بتقاليده وأساليب حياته الأصيلة فى مواجهة تيار التفكك للرأسمالية الكونية.

وعلى الرغم من التجدد المتواصل للتراث فى المجتمعات الحديثة، فقد قابل جيدنز بوضوح بين الحداثة والتقليدية. ومنتقل الآن إلى وصف جيدنز للخصائص الرئيسية للحداثة. وفى رأيه أن الحداثة تنسم بخصيقتين أساسيتين هما:

(١) التصنيع:

أ- جوانبه المادية مثل الآلات.

ب- علاقاته الاجتماعية مثل الطبقات الاجتماعية بصفة أساسية.

(٢) الرأسمالية، أى إنتاج السلع باستخدام العمل المأجور من أجل السوق التنافسية.

وللحداثة خصائص أخرى أساسية هى:

(٣) المراقبة، أى قدرة التنظيمات – بما فيها الدولة – على الحصول على معلومات عن الأفراد والجماعات ومراقبتهم.

(٤) المقدرة على الحرب الشاملة بسبب التكنولوجيا الصناعية.

ويواصل جيدنز تحليله فيرى أن أوضح الصور الاجتماعية للحداثة هى الدولة القومية Nation – State (التي تواجه بعض التحدى اليوم من العولمة فى مرحلة الحداثة المتأخرة). وتعد الخصيقتان الثالثة والرابعة إضافة هامة إلى قائمة هول.

الحداثة وعلم الاجتماع

الحداثة عصر يصبح فيه العلم والعقل الوسيلتين الأساسيتين اللتين تسعى بهما الكائنات الإنسانية إلى فهم العالم وحل مشكلاته. وقد بدأ العصر الحديث للبحث والاستكشاف منذ عهد الإصلاح، إلا أن ساروب يرى أن قوة الدفع لهذا العصر اقترنت

بالتورات الصناعية والسياسية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ونركز هنا على علاقة الحداثة كظاهرة ثقافية وفكرية بعلم الاجتماع فى بداية ظهوره. ولقد ظهرت الحداثة فى حد ذاتها نتيجة الإيمان بقوة العقل الإنسانى على فهم العالم وتغييره، أو - بعبارة موجزة - السيطرة عليه.

ويرتبط علم الاجتماع بالحداثة بعلاقة مزدوجة. فمن ناحية كان علم الاجتماع نتاجاً للحداثة وانعكاساً لها، وهو - من ناحية أخرى - محاولة لوصف المجتمع الحديث وتفسيره.

جدول ٢ - ٣
الحدائثة وعلم الاجتماع

الحدائثة	علم الاجتماع (القرن التاسع عشر)
تقدم العلم	يعرف علم الاجتماع بأنه علم (كونت، دور كايم، ماركس)
التأكيد على العقل	يتبنى علم الاجتماع مدخلاً عقلانياً
الإيمان بالتقدم	الإيمان بالتقدم أكدت عليه أعمال سوسيولوجية كثيرة
النظرة إلى العلماء على أنهم خبراء "موضوعيين" بالعالم الطبيعي	يرى علماء الاجتماع فى أنفسهم خبراء "موضوعيين" بالعالم الاجتماعى
يسعى العلم إلى اكتشاف قوانين الكون	يسعى بعض علماء الاجتماع (الوضعيين) إلى اكتشاف قوانين التاريخ والمجتمع
يطبق العلم النظرية التطورية للكشف عن نظم التصنيف التطورى	يصنف علم الاجتماع المجتمعات تبعاً لمرحل النمو (بسيطة، تقليدية، حديثة)
النظرة إلى الكائنات الإنسانية على أنها قادرة على امتلاك سيطرة أكبر على الطبيعة والبيئة	يثق علماء الاجتماع فى إمكانية تطبيق معرفتهم بالمجتمع فى التوجيه العملى له (التخطيط / السياسة)
النظرة إلى العمل والعلم على أنهما قادرين بدرجة كبيرة على تحسين أوضاع الإنسان، أى تحقيق التقدم	يرى علماء الاجتماع أنه بوسعهم المساعدة فى فهم المشكلات الاجتماعية وحلها، أى أنهم يسهمون فى التقدم
النظرة إلى الحكومة والدولة على أنهما أساسيين فى إحداث التقدم / التحسين الاجتماعى	يتوقع علماء الاجتماع أن يُطلب منهم تقديم المشورة للحكومة بشأن كيفية تحقيق أهدافها
ولكن	ولكن
الحركة الرومانسية تدافع عن الطبيعة ضد ما أتى به العلم التطبيقى (التنمية الصناعية)، كما أنها تضع "التقدم" موضع المساءلة	تطور علم الاجتماع التأولى كبديل عن الوضعية، ليؤكد على المعنى تمييزاً له عن الأداء الوظيفى

يوضح الجدول السابق كيف أن الحدائثة أنتجت علم الاجتماع وصاغته وشكلته. وعندما ذهب كونت إلى أن الغرض من علم الاجتماع هو "أن نفهم، من أجل أن نتنبأ، من

أجل أن نتحكم"، فإنه كان يحكى الادعاءات الواضحة للعلماء الطبيعيين فى ذلك الوقت. وبعد مرور ما يقرب من ١٥٠ عاماً على وفاة كونت، يصعب أن نعثر على عالم اجتماع اليوم يفخر بتكرار ما قاله كونت.

وبالنسبة لكونت ودور كايم فى فرنسا، ومن بعدهم رادكليف براون فى مدرسة لندن للاقتصاد، كانت المحاكاة الناجحة لنموذج العلم الطبيعى (أى إثبات صحة قوانين علمية اجتماعية عامة) هى السبيل إلى ضمان الجدارة المهنية وإعلاء مكانة علم الاجتماع.

ويتبنى كثير من علماء الاجتماع – فى محاولة منهم لتحليل المجتمع الحديث – مدخل العلم الطبيعى بلا انتقاد فى بعض الأحيان. وتشمل هذه المحاولة بناء النماذج. فقد قامت النظريات البنائية – التى عرضنا لها فى الفصل الأول – ببناء نماذج "علمية" محكمة عن المجتمع أستخدمت بالتالى فى تفسير السلوك الاجتماعى. وفى النماذج الماركسية والوظيفية الفجة يبدو البناء الاجتماعى على أنه هو الذى يحدد – دوماً – سلوك الأفراد والجماعات، مما يضى بالتالى طابعاً ميكانيكياً على هذه النظريات.

ومثلما كان الشعر والأدب والفن الرومانسى رد فعل ضد طغيان العلم والعقل، كانت النظريات التأويلية – فى جانب منها – رد فعل مناوئ لعلم الاجتماع البنائى "العلمى". وقد انقسم علم الاجتماع إلى المعسكر البنائى والمعسكر التأويلى منذ الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية حتى أوائل الثمانينيات. فمن ناحية نجد الوظيفة والماركسية، ومن الناحية الأخرى نجد النظريات التأويلية المتعددة ومنها التفاعلية الرمزية والمنهجية الشعبية.

إن الاتجاه إلى رؤية النظريات البنائية والتأويلية على أنهما "شيئان متعارضان" أو فى سياق "الثنائيات" – كما يرى جيدنز – يعكس الطريقة التى يتعارض بها العلم والعقل فى المجتمع الحديث مع ما هو شخصى وعاطفى. وقد بدأ عديد من علماء الاجتماع منذ فترة حديثة جداً فى اتخاذ مدخل تكاملى إلى النظريات البنائية والتأويلية، وتخلوا إلى حد كبير عن العراك بين النظريات والذى ساد فى العقود الماضية.

الحدثة وما بعد الحدثة وعلم الاجتماع

هناك فكرة تقول بأن كل عصر تاريخى هو عصر من التغيير. ومع ذلك يوجد إجماع متزايد بين طائفة كبيرة من علماء الاجتماع على أن الثلاثين عاماً الأخيرة من القرن العشرين أو نحوها تميزت بتغير اجتماعى سريع وجذرى. ويشار إلى هذا التغيير بالتحول من الحدثة إلى ما بعد الحدثة أو الحدثة المتأخرة؛ وهو المصطلح الذى يفضلته جيدنز. وقد رأينا فى القسم السابق أن عملية العولمة – خاصة عولمة المعلومات

والاتصالات – هي التي جعلت التغير في العصر الحالي راديكالياً وعمومياً.

ويتضمن تعريف مادن ساروب للحادثة فائدة المصطلح وغموضه في ذات الوقت:

"تتصل ما بعد الحادثة بكل ما أتى بعد الحادثة؛ وتعنى التلاشى الأولى أو الحالي لتلك الصور الاجتماعية المرتبطة بالحادثة. ويفترض بعض المفكرين أن ما بعد الحادثة حركة في اتجاه عصر ما بعد الصناعة، ولكن هناك قدر من الغموض المحيط بهذا المصطلح: هل ما بعد الحادثة يجب أن نعدها جزءاً من الحادثة؟ هل هي تواصل أم تغير جذري؟ هل هي تغير طبيعي أم أنها تشير إلى حالة مزاجية أو عقلية؟"

(Sarrup, 1993: 130)

وهذا التعريف السابق لما بعد الحادثة تعريف ممتاز على أساس أن علم الاجتماع يدور حول مجموعة من الأسئلة والأجوبة عنها، ولكننا لا نتوقع أن نكون قادرين على الإجابة عن جميع الأسئلة.

وهناك مجموعة من علماء الاجتماع – من بينهم أنتوني جيدنز وأولريش بيك – يفضلون مصطلح "الحادثة المتأخرة" ويرفضون الرأي القائل بأن المجتمع الآن يعيش مرحلة ما بعد الحادثة.

ويعرف جيدنز الحادثة المتأخرة بأنها عصر يكون فيه المجتمع الحديث أكثر وعياً بتبعات الحادثة – خاصة تبعاتها السلبية – ويؤمن بأن المشروع الحديث لتحسين الأوضاع الإنسانية (أى التقدم) لا يزال إنجازاً ممكناً. وليس الوقت متأخراً لكى لا نستفيد من أخطائنا. ويستخدم جيدنز مصطلح "الانعكاسية" Reflexivity للإشارة إلى الوعي الناقد القوى، والذي يربطه بالحادثة المتأخرة، ويعده من الخصائص الأساسية للحادثة المتأخرة. ونحن نتبنى استخدام جيدنز لمصطلح الانعكاسية بدلاً من الاستخدام المفيد والمعقد لـ"بيك" والذي سوف نناقشه الآن.

يرى أولريش بيك أيضاً أن الانعكاسية ملمح أساسى من ملامح الحادثة المتأخرة، ولكنه يعطى المصطلح صيغة مختلفة اختلافاً طفيفاً. ففي تعريفه للانعكاسية يشدد بيك بصفة خاصة على الآثار التدميرية غير المقصودة للحادثة (مثل تأثير الصناعة على البيئة):

"هذه المرحلة الجديدة (الحادثة المتأخرة) – التي يقوض فيها نوع من التحديث نوعاً آخر ويغيره – هي ما أسميتها مرحلة التحديث الانعكاسية".

(Beck et al., 1994: 2)

إن التحديث الانعكاسى - أى التدمير والدمار الطائش وغير المقصود - الذى يسببه التحديث أوجد ما أسماه بيك "مجتمع المخاطر" أو ما أشار إليه جیدنز بمصطلح "عدم اليقين المصنوع" Manufactured uncertainty. فارتفاع درجة حرارة الأرض؛ وتلوث واستنزاف أجزاء من البيئة؛ والمخاطر المرتبطة بالإنتاج الضخم من الدواجن والحيوانات من أجل الغذاء (مثل المناعة ضد بعض المضادات الحيوية)؛ وتكاثر الأسلحة النووية والكيميائية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل - كل هذه أمثلة على التبعات الخطيرة غير المقصودة الحادثة. وفى مرحلة ما بعد الحادثة تظهر الآثار السلبية للعلم والتصنيع والحكومات الكبيرة كأشباح حقيقية وليست أشباحاً شاحبة فى وليمة الحادثة.

وعلى الرغم من الآثار الجانبية المدمرة للتصنيع، فقد نجح نجاحاً باهراً فى إنتاج السلع والخدمات. ولم يقل بيك أو جیدنز بأن عملية تكوين الثروة المادية ينبغى تحريكها فى الاتجاه المعاكس، ولم يفكرا فى ضرورة وجود تأييد عام لهذا الاتجاه. وفى رأيهما أنه من الضرورى الالتفات إلى ورطة الخاسرين فى مجتمع الحادثة المتأخرة فى الغرب وعلى مستوى العالم. ولا تشمل فئة الخاسرين فى مرحلة الحادثة المتأخرة أولئك الذين أفقرتهم التنمية وظلمتهم فحسب، بل وتضم أيضاً شعوب العالم الغنى. وهنا نتذكر الكلمات المشهورة التى قالها بيك: "الفقر متدرج هرمياً، ولكن الضباب المشوب بالدخان متوزع ديمقراطياً - أى بالعدل" Poverty is hierarchic, Smog is democratic.

ويوضح جدول (٢-٣) الخصائص الأخرى للحادثة المتأخرة أو ما بعد الحادثة كما اقترحها جیدنز وبيك وآخرون:

جدول ٢ - ٣
الحدث وما بعد الحدث

الحدث	ما بعد الحدث (أو الحدث المتأخر)
الإيمان بالعلم / العقل	الانعكاسية (الوعي النقدي المتزايد) تميز ما بعد الحدث؛ أي الاهتمام بالآثار المدمرة للعلم التطبيقي والبيئة والإنسانية. ويمتد الاهتمام إلى المستوى الكوني (ارتفاع درجة حرارة الأرض، ومستوى المخزون من الأسماك على سبيل المثال) بالإضافة إلى المستويات الأخرى.
الإيمان بالتقدم الاجتماعي	الوعي المتنامي بالمخاطر والآثار العكسية غير المقصودة لمسيرة التقدم (بيك، جيدنز) (مثلاً: التلوث الناتج عن السيارات / حوادث السيارات).
ظهور القومية، والنظر إلى الدولة القومية باعتبارها هي حدود "المجتمع".	حدث عملية العولمة، وتزايد تصدع الدولة القومية - "المجتمع" - بفعل العوامل الكونية: الاقتصادية والثقافية والسياسية.
التأكيد على الإنتاج / التنمية الاقتصادية	تزايد أهمية ما هو ثقافي: (١) تبادل المعلومات - وهي عملية ثقافية تتم من خلال وسائل الإعلام - هو الملمح المميز لمجتمع ما بعد الصناعة (بيل) (٢) الثقافة - في صورة الاستهلاك وأسلوب الحياة - هي التي تحدد الهوية بدلاً من العمل.
السياسة، والحكومة، والدولة هم أساس المجتمع	الشك في السياسة / الحكومة التقليدية تنامي "سياسة الحياة"، أي ربط الشخصي والعام كما في الحركات الاجتماعية مثل النسوية والنزعة البيئية.
الاتجاه إلى رؤية العالم في سياق ثنائيات أو شيين متعارضين، مثلاً: الموضوعي/الذاتي، ذكور/إناث (أعداد متعارضة).	الاتجاه إلى رؤية الترابط والتشابه والتوحد، مثلاً: الذاتي والموضوعي لا ينفصلان.
النظر إلى الطبيعة على أنه أمر مسلم به	تزايد الإحساس القوي بالمسئولية عن الطبيعة / البيئة.

وهناك خصيصتان لم نذكرهما في هذا الفصل، وتحتاجان إلى شرح مختصر قبل

أن نناقشهما بإسهاب فيما بعد، أو **لاهما**: يبدو أن شكوكاً متزايدة فى السياسة التقليدية، وتنامياً موازياً لما أطلق عليه جينز "سياسة الحياة". ويشير هذا المصطلح إلى محاولات تحقيق تغير شامل من خلال الفعل الشخصى والجماعى بدلاً من تحقيقه بصفة أساسية من خلال السياسة الحزبية والحكومة المركزية. وهذا المدخل العضوى للتغير ينشأ من خلال الحركات النسوية والبيئية والحركات الاجتماعية الأخرى. ويجسد هذا المدخل شعار النسوية: "كل ما هو شخصى هو سياسى". The personal is political.

وثانية هاتين الخصيصتين فى الجدول السابق هى اتجاه منظرى ما بعد الحداثة إلى رفض طرق التفكير الاستقطابية أو الثنائية. ولذلك ينظر هؤلاء المنظرون إلى الإدراك الحسى على أنه وجهة نظر لا رؤية "موضوعية" أو رؤية "خبير" للحقيقة أو الواقع. وفى حياتنا اليومية يبدو أن مجال النوع الاجتماعى والسلوك الجنسى Sexuality أصبح مجرداً من الاستقطاب. وينظر كثير من الناس اليوم إلى الهوية النوعية Gender والجنسية Sexual فى سياق الاختيار الشخصى / الاجتماعى بدلاً من القدر البيولوجى.

ومثلما تأثر مؤسسو علم الاجتماع بالحداثة، نجد علماء الاجتماع المعاصرين – بعد مائة عام أو نحوها – يتأثرون بما بعد الحداثة أو الحداثة المتأخرة. ويوضح جدول (٢-٤) أن مدى هذا التأثير كان ضخماً. ومع ذلك، نجد أن المسائل الأساسية حول طبيعة المجتمع والى شغلت مؤسسى علم الاجتماع، لا تزال هى نفسها المسائل التى ينشغل بها كثير من علماء الاجتماع المعاصرين، حتى ولو جاء عرضهم لها وإجابتهم عنها مختلفاً إلى حد ما. ويمكن أن تتغير المسائل التى تنشغل بها العلوم مثلما تتغير الإجابات عنها، إلا أن الاهتمام المحورى لعلم الاجتماع بعلاقة الفرد بالجماعات الاجتماعية وبعلاقات القوة من جميع الأنواع وبأسباب التغير الاجتماعى ونتائجه، سيظل هذا الاهتمام المحورى مستمراً.

ما بعد الحداثة أم الحداثة المتأخرة ؟

هناك قدر كبير من الاتفاق فى الجوهر بين من يستخدمون مصطلح "ما بعد الحداثة"، ومن يفضلون مصطلح "الحداثة المتأخرة". إذ يتفق كثير من منظرى ما بعد الحداثة مع القضايا التى أثارها جينز وبيك اللذين قدماها لوصف الحداثة المتأخرة أو الحداثة الانعكاسية. وإذا كان منظرو ما بعد الحداثة يرون أن المجتمع الغربى المعاصر يعيش الآن فى مرحلة ما بعد الحداثة، فإن جينز يزعم أن هذا المجتمع لا يزال مجتمعاً "حديثاً"، ولو أنه فى مرحلة متأخرة أو متقدمة من الحداثة.

ما بعد الحداثة وعلم الاجتماع

علم الاجتماع	ما بعد الحداثة
الاهتمام الانعكاسى بالآثار العكسية للعلم التطبيقي على الطبيعة والبيئة والإنسان.	الاهتمام الانعكاسى بالآثار العكسية للعلم التطبيقي على الطبيعة والبيئة والإنسانية.
يبتعد علماء الاجتماع عن النظريات التي تدل دلالة ضمنية على التقدم مثل الماركسية والليبرالية، وأصبح علماء الاجتماع أقل تزمناً وأكثر وعياً بالصلوات بين القيم الذاتية / الأخلاق والبحث.	الوعي المتنامي بالمخاطر والآثار العكسية غير المقصودة لمسيرة التقدم
تطور علم اجتماع العولمة	حدوث عملية العولمة
يركز علم الاجتماع تركيزاً متزايداً على القضايا الثقافية، إلا أن بعضاً من علماء الاجتماع يصرون على أن الرأسمالية لا تزال هي النظام الأساسي الذي ينبغي تحليله.	الاهتمام المتزايد بما هو ثقافي: الاتصال، الاستهلاك، أسلوب الحياة.
تحول الاهتمام من الحكومة المركزية إلى الحركات الاجتماعية وأسلوب الحياة (مثلاً: حركة حقوق الحيوان). ويشير جيدنز إلى محاولة ربط الشخصي والعام بمصطلح "ديمقراطية الحوار" (مما يدل على حوار / تأثير من الجهتين).	الشك في السياسة / الحكومة التقليدية تنامي "سياسة الحياة".
يسعى علم الاجتماع سعياً متزايداً إلى إظهار التمازج العميق بين "الثنائيات" المفترضة مثل الفرد/المجتمع، الذاتي/الموضوعي. ولذلك ينظر علم الاجتماع إلى العلاقة بين الفرد والمجتمع على أنها عملية بدلاً من النظر إليها في سياق تأثير أحدهما على الآخر.	الاتجاه إلى رفض النظرة إلى العالم في سياق التعارض، والبحث عن الترابط.
تزايد اهتمام علم الاجتماع بالبيئة وعلاقة الإنسان بها. بداية تطور علم اجتماع ما بعد الحداثة.	بزوغ الإحساس المتزايد بالمسئولية عن الطبيعة / البيئة.

ويعكس الاختلاف في استخدام المصطلحات في جانب منه اختلاف تقييم التغييرات موضع الاهتمام بدلاً من الاختلاف حول ماهية هذه التغييرات. ويرى جيدنز أن الانتقال من الحداثة المبكرة إلى الحداثة المتأخرة انتقال لا يستوجب تغييراً أساسياً في طبيعة المجتمع. فالمقدرة على النقد الذاتي – التي كانت دوماً ملمحاً مميزاً للمجتمع الحديث –

أصبحت ببساطة أكثر قوة وأفضل صقلاً بالخبرة فى الحداثة المتأخرة. وهناك وعى متزايد بالأخطاء التى ارتكبت والدمار الذى وقع فى مسيرة التقدم المادى. وعلى النقيض من ذلك نجد الذين يفضلون مصطلح ما بعد الحداثة على مصطلح الحداثة المتأخرة يعتقدون أن الفترة الحالية تمثل خصاماً شديداً مع الحداثة، وبداية فترة تاريخية متميزة. ولذلك يقول زيجمونت بومان:

"يصور مصطلح "ما بعد الحداثة" تصويراً دقيقاً السمات المميزة للأوضاع الاجتماعية التى ظهرت فى الدول الغنية فى أوروبا، ولأجيال الأوروبية فى مسيرة القرن العشرين، وأخذت شكلها الحالى فى النصف الثانى من هذا القرن".

(Bauman, 1993: 181)

ويصف بومان الاختلافين التوأمين اللذين يفصلان مجتمع ما بعد الحداثة عن مجتمع الحداثة على النحو التالى:

- ١-مجتمع ما بعد الحداثة متحرر من "الوعى الزائف" أو الأوهام المتفائلة للحداثة.
- ٢-مجتمع ما بعد الحداثة نمط جديد من الأوضاع الاجتماعية التى بنيت على – أو تأسست على بلغة بومان – مجموعة كلية من الخصائص السلبية إلى حد كبير، مثل الدمار البيئى، وهى الخصائص التى لم تكن متوقعة أو لم يُكترث بها فى مرحلة الحداثة. وتحاكى هاتان النقطتان تحليل جيدنز، باستثناء أن جيدنز لم يعتقد أنهما دليل على الإدعاء بأن المجتمع الغربى تجاوز الحداثة أو انتقل إلى ما بعد الحداثة. وإذا كان جيدنز يرى أن المشروع التحديثى لضبط التقدم لم يتحقق بعد، فإن بومان يؤكد على استحالة تحقيقه.

ولتجنب مزيد من المجادلة الاصطلاحية يقترح جيدنز استخدام مصطلح "الحداثة الانعكاسية" لوصف المجتمع الغربى المعاصر. وهذا يزيد من المخاطرة بتعقيد الصورة، ولذلك سوف نستخدم مصطلحى نظرية ما بعد الحداثة Postmodernism وما بعد الحداثة Postmodernity لتبسيط الأمور، مع الاعتراف بأن مسألة ما إذا كان المجتمع الغربى قد تجاوز مرحلة الحداثة أم لا مسألة ستبقى بلا حل.

المسائل الأساسية لما بعد الحداثة

ركز الفصل الأول على بعض المسائل الأساسية التى شغلت مؤسسى علم الاجتماع حول طبيعة المجتمع خاصة المجتمع الحديث. ولم نناقش نظرية ما بعد الحداثة فى

علاقتها بهذه المسائل؛ لأن هذه النظرية لم تزل غير مألوفة لدى الكثرة، مما يستوجب أولاً فهمها فى سياقها الصحيح قبل أن تُعرضها للمسائل المتعلقة بعلم الاجتماع. وهذا ما سوف نقوم به فى الفصل الثالث. ويكفى هنا أن نشير إلى أن نظرية ما بعد الحداثة تحاول أن تتجاوز المدخل الثنائى (أو مدخل إما / أو) إلى البناء والفعل (الفعل الذاتى / المعنى) للنظريات البنائية والتأويلية. ومن المفيد أن نعرض فى عجلة لبعض المسائل الإمبيريقية التى تهتم منظرى ما بعد الحداثة وهى:

- ١- هل تمثل ما بعد الحداثة فترة يكون فيها ثمن التقدم - أى التدمير البيئى - أكثر أهمية من تحقيق مزيد من التقدم المادى؟
- ٢- هل حلت قضايا الثقافة / المعرفة كل القضايا الاقتصادية والمادية كأحد الملامح المميزة لمجتمع ما بعد الحداثة؟
- ٣- هل حدثت العولمة بالفعل، أى هل يوجد رأى حاسم فى ماهية قوى الاتصال التى أنتجت مجتمعاً كونياً؟
- ٤- هل تضاعفت أهمية المسائل التطبيقية مقارنة بمسائل النوع الاجتماعى، السلالة / العرق، والجنسية وغيرها من الأسس الأخرى للهوية؟
- ٥- هل أضحى الفراغ / الاستهلاك أكثر أهمية من العمل / الإنتاج؟

استخلاصات أساسية

- ١- يمثل العلم الطبيعى - خاصة التجربة المعملية - نموذجاً اتجه علماء الاجتماع الأوائل إلى محاكاته. وبسبب القيود المفروضة على التجريب على البشر، فقد تطور المنهج المقارن كبديل عن التجربة. ويستوجب هذا المنهج القيام بمقارنة منظمة لطواهر متشابهة فى سياقات اجتماعية مختلفة، مثلاً: تطور الأسرة فى مجتمعين أو أكثر. ويمكن أن يكون مفهوم النمط المثالى عند فيبر مفيداً فى التحليل المقارن. والنمط المثالى هو نموذج من العناصر الأساسية لظاهرة اجتماعية ما.
- ٢- عرضنا لمجموعة من الثنائيات المتعارضة للإشارة إلى مجال علم الاجتماع وتنوعه. إذ يسعى هذا العلم إلى تفسير تأثير المجتمع على الناس من ناحية، وتأثير الناس على المجتمع وتفسيرهم له من ناحية أخرى. وهذا الاختلاف فى الاهتمام أفضى إلى التفرقة بين البحوث الكمية والكيفية، والبيانات الموضوعية والذاتية، والنظريات البنائية / التأويلية، والمناهج الوضعية / والمعادية للوضعية. كما أدى إلى التفرقة الجزئية بين

الثبات والصدق.

٣- تنتج المصادر الأولية للبيانات من البحوث الأصلية التي يقوم بها عالم الاجتماع. وتعد الملاحظة والمقابلة والاستبيان وسائل أساسية لإنتاج البيانات الأولية.

٤- يجمع المسح الاجتماعى بيانات مقننة حول مجتمع كبير فى العادة. ويتطلب المسح الاجتماعى - عادة - سحب عينة.

٥- العينة جزء من مجتمع شامل. وعادة ما يُبذل كل جهد لاختيار عينة ممثلة قدر الإمكان للمجتمع الكلى، إلا أن هناك مواقف يمكن فيها استخدام عينة غير ممثلة بدرجة مفيدة. وتوجد أنواع متعددة من العينات، كل نوع له مزاياه ومثالبه.

٦- المقابلات على ثلاثة أنواع: مقننة، وشبه مقننة، وغير مقننة. وفى المقابلة المقننة يتم توجيه أسئلة "مغلقة"، أما فى المقابلة غير المقننة فتوجه أسئلة "مفتوحة". وفى المقابلة شبه المقننة يتم توجيه المبحوث إلى تناول قضايا معينة مع ترك الحرية له فى هذا الصدد. وتستخدم بعض المقابلات كل هذه الأساليب المذكورة معاً.

٧- تعكس مزايا المقابلة ومثالبها إلى حد كبير حقيقة أنها تستوجب التفاعل المباشر (الوجه للوجه) بين الباحث والمبحوث. ويمكن تقديم العون والتوجيه، إلا أن التحيز وارد الحدوث.

٨- يمكن تقسيم الملاحظة إلى ملاحظة غير مشاركة وملاحظة مشاركة. وللملاحظة غير المشاركة ميزة تحقيق قدر كبير من الموضوعية لعدم تدخل الباحث تدخلاً مباشراً، ولكنها - ولنفس السبب - تفتقد فوائد الخبرة الذاتية. ويصدق العكس على الملاحظة المشاركة.

٩- يرتبط علم الاجتماع البنائى بالمسح الاجتماعى والمناهج الكمية، كما يرتبط بالمنهج التاريخى المقارن كما فى حالة ماركس ودور كايم وفيبر. وترتبط النظريات التأويلية ارتباطاً قوياً بالمناهج الكيفية. ومع ذلك فإن كثيراً من البحوث والتحليلات فى علم الاجتماع تعتمد بحرية على تنوع فى النظرية والمنهج.

١٠- المصادر الثانوية هى البيانات الموجودة بالفعل. وهناك كم غزير من البيانات الثانوية، ومع أن بعضها ذات نوعية جيدة عالية، فإنه ينبغي استخدامها عموماً بعين ناقدة.

١١- فى الغالب يفكر علماء الاجتماع فى المجتمعات فى سياق التقليدى والحديث وما بعد الحديث. ومع ذلك يمكن أن يكون هناك تداخل شديد بين هذه الأنماط الثلاثة.

١٢- تأسس علم الاجتماع فى العصور الحديثة، وهو يعكس اهتمامات وقضايا القرن

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ويعكس علم الاجتماع اليوم القضايا والاهتمامات الأساسية لما يطلق عليه عصر ما بعد الحداثة أو الحداثة المتأخرة. ومع ذلك يتواصل الاهتمام المحورى لعلم الاجتماع بعلاقة الفرد بالجماعات الاجتماعية، وبعلاقات القوة، وبأسباب التغيير الاجتماعى ونتائجه.

الفصل الثالث نظرية علم الاجتماع نموذج واحد أم نماذج متعددة؟(*)

مقدمة

يناقش هذا الفصل نظرية علم الاجتماع بمستوى أكثر تقدماً مما عرضناه في الفصلين السابقين. وكما هو الحال في الفصل الأول، فكل اتجاه من الاتجاهات النظرية الرئيسية ستتم مناقشته بالإضافة إلى مبحث متعلق بالظواهراتية. وتتمثل القضية المحورية هنا فيما إذا كان علم الاجتماع يتحرك صوب مدخل نظري واحد أو منظور واحد متفق عليه، أم أن قدر هنا العلم محتوم بعدة اتجاهات نظرية – وربما يكون بعضها متعارضاً – مثلما يزعم أنصار نظرية ما بعد البنيوية.

ومع هذا دعونا نبدأ ببعض المسائل الرئيسية الراسخة في علم الاجتماع والتي أعطاها جل اهتمامه.

المسائل الرئيسية في علم الاجتماع

وضع تشارلز رايت ميلز نصب عينيه أعمال ماركس ودوركايم وفبير وغيرهم من علماء الاجتماع "الكلاسيكيين" عندما زعم أن هؤلاء المفكرين انشغلوا بثلاث مسائل أساسية هي:

- ١- ما هو بناء مجتمع بعينه ككل؟ (أو مم يتكون هذا المجتمع؟)
- ٢- ما هي العلاقة بين الفرد أو الذات – بما فيها أنماط معينة من الأفراد – وهذا المجتمع؟
- ٣- أين يقف هذا المجتمع في تاريخ البشرية؟

وإذا أخذنا المسألتين الأولى والثانية معاً فإن ذلك يعود بنا إلى العلاقة بين الذات والمجتمع التي أثارناها في الفصل الأول. ولكن دعونا ننظر في هذه المسائل التي طرحها ميلز كل على حدة.

وقبل أن نثير المسألة الأولى "ما هو بناء مجتمع ما؟" نحتاج إلى معرفة ما المقصود بالبناء. يشير بنا المجتمع إلى نظمه، خاصة الأنساق المؤسسية الرئيسية

(*)
: Mike O'Donnell. Introduction to Sociology. th ed., Nelson, Surrey, U.K., pp. - .

كالإقتصاد والنظام السياسى، والأسرة. وهذه المؤسسات لها جانب مادى (فالبنوك على سبيل المثال جزء من الإقتصاد) وجانب معيارى وسلوكى، بمعنى أن السلوك فى مجالات تنظيمية محددة محكوم بمجموعة من المعايير، مثلاً الإجراءات المهنية التى تحكم العمل فى البنوك. وقد استخدم ميلز مصطلح "المكونات" ليصف النظم، وليؤكد على أهمية تحليل كيفية ارتباطها ببعضها ببعض وأسباب تغييرها ومداه. كما أكد كذلك على أنه يمكننا أن نتعلم كثيراً من خلال مقارنة الأبنية الاجتماعية للمجتمعات.

وتمثل **المسألة الثانية** عند ميلز - العلاقة بين الفرد والمجتمع - مسألة محورية فى علم الاجتماع. وكان ميلز على وعى بقوة المجتمع فى تشكيل السلوك الفردى (وصف ميلز الطبيعة البشرية بأنها طبيعة مرنة)، إلا أنه أكد أيضاً - وكما أوضحنا من قبل - أن المعرفة والفهم يمكن أن تحرك الفعل الفردى وتيسره. ومن المسائل المهمة فى علم الاجتماع - فى زعم ميلز - تفسير ظهور أنماط معينة من الشخصية (تسلطية، أو مادية، أو مثالية) بدرجة أكبر فى ظروف اجتماعية معينة عنها فى غيرها. وهنا نراه يثير مسألة العلاقة بين شخصية الجماعة والبناء الاجتماعى.

أما **المسألة الثالثة**: "أين يقف هذا المجتمع فى تاريخ البشرية؟" فهى تعنى أنه بالإمكان التوصل إلى منظور عن المجتمع من خلال معرفة كيفية وأسباب تغييره بالمقارنة مع مجتمعات أخرى. وقد أمكن لعلماء الاجتماع بهذا العمل المقارن والتاريخى تصنيف المجتمعات إلى أنماط، ومن ثم رسم بانوراما للتجربة الاجتماعية الإنسانية.

وتغطى المسائل الثلاثة التى طرحها ميلز - من وجهة نظر أكثر عمومية - كثيراً من المسائل التى أثارها فى بداية الفصل الأول، بقصد التركيز على الاهتمامات الرئيسية لعلم الاجتماع، والتعرف على الملامح الأساسية للفكر عند ماركس وفير و دوركايم.

وهذه هى المسائل التى أثارها:

- ١- مم يتكون المجتمع؟
- ٢- كيف يقوم المجتمع بأداء وظائفه؟
- ٣- لماذا تكون بعض الجماعات فى المجتمع أكثر قوة من جماعات أخرى؟
- ٤- ما الذى يُسبب التغيير الاجتماعى؟
- ٥- هل المجتمع بطبيعته فى حالة توازن أم صراع؟
- ٦- ما علاقة الفرد بالمجتمع؟
- ٧- ما هو الهدف الأساسى من وراء دراسة علم الاجتماع؟

والسؤال الأول "مم يتكون المجتمع؟" يقابل تقريباً سؤال ميلز "ما هو بناء مجتمع بعينه ككل؟". أما الأسئلة (الثانى والثالث والخامس) فهى أسئلة فرعية من السؤال الأول.

والسؤال السادس: "ما هي علاقة الفرد بالمجتمع؟" يقابل تقريباً سؤال ميلز: "ما هي العلاقة بين الفرد أو الذات... وهذا المجتمع؟". ويقترب السؤال الرابع: "ما الذي يُسبب التغيير الاجتماعي؟" من سؤال ميلز: "أين يقف هذا المجتمع في تاريخ البشرية؟". ويستهدف سؤال ميلز بشكل دقيق أهمية المقارنة والتاريخ في المنهج والخيال السوسيولوجيين. ويصنف السؤال السابع: "ما هو الهدف الأساسي من وراء دراسة علم الاجتماع؟" ضمن السؤال السادس، حيث إن إجابته هي الكشف عن معاني الفاعلين الاجتماعيين وعلاقتهم بالمجتمع.

ومن المؤكد أن البحث عن أجوبة عن هذه المسائل السابقة – وما شابهها من مسائل – قد أزر تطور علم الاجتماع كعلم مستقل في فترة زمنية قصيرة نسبياً. وفوق كل هذا وذاك فإن هذه المسائل عامة وهامة بما يؤدي إلى الاستمرار في البحث فيها والتنظير لها بلا انقطاع.

ولو أجرينا تعديلات بسيطة على المسائل التي طرحها ميلز، فإنها لا تزال تكتسب أهمية اليوم. ومع ذلك فإن هذه المسائل قد طبقت بواسطة فيبر وماركس ودوركايم على فترة تاريخية محددة. وربما تكون أقوى المزاعم التي يتعين على علماء الاجتماع أن يعيدوا التفكير فيها تفكيراً راديكالياً هي أن تلك المسائل التي أثارها علماء الاجتماع الكلاسيكيون كانت تناسب الزمن الذي عاشوا فيه، ولكنها ليست ملائمة تماماً للزمن الذي نعيش نحن فيه. وأحد طرائق تنفيذ هذا الادعاء هي القول بأن علماء الاجتماع الكلاسيكيون كانوا يسعون إلى تفسير التحول من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث (أو الرأسمالي الحديث)، في حين أن قضية اليوم الأساسية هي تفسير التحول من المجتمع الحديث إلى مجتمع ما بعد الحداثة. ويزعم آخرون أن القضايا الأساسية في علم الاجتماع لم تتغير تغيراً كبيراً، بل إن علماء الاجتماع الكلاسيكيين استطاعوا التنبؤ بالتغيرات المحتملة.

وربما يكون معيناً لنا – قبل أن نواجه هذا الجدل المحموم – أن نستعرض ما حققه علم الاجتماع من إنجاز حتى أوائل الستينيات عندما بدأ يلوح في الأفق تحدى المنظورات الراسخة.

الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع:

المنظورات البنائية والتأويلية (١٨٨٠-١٩٦٠)

لابد لأي اتجاه نظري ملائم في علم الاجتماع أن يتصدى للعلاقة بين الذات والمجتمع التي أشرنا إليها آنفاً. ومع ذلك فإن الفترة التي تشملها هذه المناقشة شهدت شقاً

داخل علم الاجتماع بين الاتجاهات التي تركز على البناء أساساً، والاتجاهات التي تركز على تفاعل الذات والآخرين، أو بعبارة أخرى بين الاتجاهات الكبرى والصغرى على التوالي. وتتمثل المنظورات البنائية في الوظيفية والماركسية. أما المنظورات التأويلية فيجسدها التفاعلية والمنهجية الشعبوية (الإثنوميثودولوجيا)، وهي تهتم بصفة أساسية بكيفية تأويل الذات (في علاقتها مع الآخرين) للمجتمع والوصول إلى معنى من وراء ذلك. ويحتوى علم الاجتماع عند فيبر على عناصر مهمة من كلا المنظورين: البنائي والتأويلي.

علم الاجتماع البنائي

يصف الماركسي توم بوتومور والوظيفي روبرت نيسبت جوهر نظرية علم الاجتماع بقولهما:

"... محاولات متعددة لتحديد العناصر الأساسية للبناء الاجتماعي - تلك العناصر العامة وكذا العناصر التي لها طابع تاريخي خاص - وطرح بعض التفسيرات أو التأويلات لوحدة المجتمعات واستمرارها، بالإضافة إلى صراعاتها الداخلية واحتمالات تغييرها".

(Bottomore & Nisbet, 1979: vii)

وهذا يلخص مدخل علم الاجتماع البنائي الذي يتجه إلى التركيز على المسألتين الأولى والثانية التي أثارهما مليرز، أي البعد البنائي والبعد التاريخي / المقارن. ويواصل بوتومور ونيسبت حديثهما لتعيين مؤسسي البنائية في علم الاجتماع:

"في رأينا أن البنائية في علم الاجتماع ظهرت في أعمال أوجست كونت في فرنسا وكارل ماركس في ألمانيا. وفي فرنسا كان دوركايم أبرز البنائيين في علم الاجتماع".

(Bottomore & Nisbet: 559)

الوظيفية (نظرية الإجماع)

يدرس المنظور الوظيفي بناء المجتمع وأدائه لوظائفه. ويطلق على هذا المنظور في بعض الأحيان "البنائية - الوظيفية". وقد أوضحنا - بما يكفي - مفهوم البناء. أما مفهوم الوظيفة فهو يعنى ببساطة أثر أو محصلة عمل النظام الاجتماعي. ومن ثم فوظيفة الاقتصاد هي إنتاج السلع والخدمات بغرض الاستهلاك. وسوف نعرض لاحقاً لوصف بناء المجتمع ووظيفته كما يفهمه أبرز الوظيفيين بعد الحرب العالمية الثانية: تالكوت بارسونز. وتؤكد الوظيفية بصفة عامة وأعمال بارسونز بصفة خاصة على أهمية

الإجماع القيمي (الاتفاق على القيم الأساسية) كشرط لقيام المجتمع بأداء وظائفه على نحو فعال. وقد أثر فيبر ودوركايم – بصفة خاصة – على الوظيفية، إلا أنه يصعب إدراج أفكار ماركس ضمن هذا المنظور.

تأثير كونت ودوركايم وفيبر على الوظيفية

ميز كل من كونت ودوركايم بين الاستاتيكا الاجتماعية (الاستقرار الاجتماعي) والديناميكا الاجتماعية (التغير الاجتماعي). وتشير الاستاتيكا الاجتماعية إلى بناء المجتمع (أى المعايير / القواعد)، فى حين تشير الديناميكا الاجتماعية إلى العلاقات القائمة بين مختلف أجزاء المجتمع. وهذا يتشابه مع تمييز الوظيفيين بين البناء والوظيفة. ومن أكثر الآثار عمومية لكونت ودوركايم على الوظيفية التزامها بتأسيس علم للمجتمع بناظر العلوم الطبيعية فى دقتها.

وقد ترك كونت ودوركايم تراثاً للوظيفية يعكس وجهة نظرهما بأن المجتمع لديه قوة هائلة لتشكيل وصياغة أفكار أعضائه وسلوكهم. ويذهب دوركايم إلى أن علم الاجتماع هو دراسة "طائفة من الوقائع Facts، أى أساليب السلوك والتفكير والإحساس، الخارجة عن الفرد، والمزودة بقوة القهر التى تسيطر بها عليهم". ومن هنا فإن مهمة علم الاجتماع – فى رأى دوركايم – هى تحديد قواعد المجتمع أو معاييرها، وكيفية السيطرة على السلوك بواسطتها. ويضيف أن النظام الناشئ عن ذلك ضرورى لقيام المجتمع بوظائفه على نحو مرض. وقد أقر دوركايم بوجود الفردية، ولكنه ذهب إلى أنها ليست هى الموضوع الذى يدرسه علم الاجتماع. فهذا العلم يختص بدراسة تأثير الأوضاع الاجتماعية على السلوك، مثل تأثير الأزمة الاقتصادية على معدل الانتحار.

وعلى النقيض من دوركايم لم يحاول معاصره – ماكس فيبر – فصل دراسة الفرد عن دراسة المجتمع، وفى رأيه أن هذا الفصل مستحيل، لأن الفرد والمجتمع يوجدان فى حالة من التفاعل يمكن لكليهما فيها أن يغير من الآخر، وليس فى حالة من الاستقلال. وتتأثر قيم الناس وأفكارهم بالمجتمع، كما أن الناس يغيرون من المجتمع أيضاً. وتفترض نظرية فيبر فى الفعل الاجتماعي أن الفعل ذا المعنى هو نقطة البداية لعلم الاجتماع. وتعكس دراسته للتنظيم تقديره لقوة ما أسماه دوركايم "الوقائع الاجتماعية" فى تشكيل حياة الناس، إلا أن تحليله للشخصيات الملهمة (الكارزمية) مثل لوثر ونابليون يعنى أنه آمن – بنفس القدر – أن شخصية الفرد وأفكاره يمكن أن يكون لهما تأثير بالغ على المجتمع.

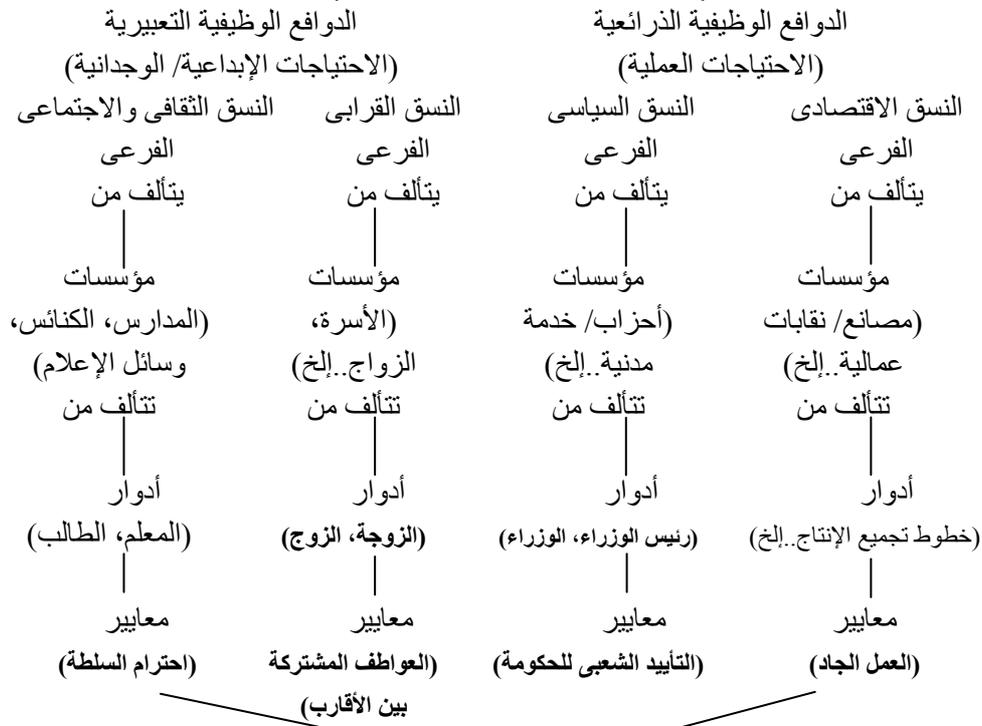
تالكوت بارسونز

هو مؤسس الوظيفية الحديثة (لم يستخدم دوركايم وفيبر مصطلح الوظيفية لوصف توجهاتهما). وتحاول نظرية الأنساق الاجتماعية عند بارسونز التوليف بين المنظور

البنائى الاجتماعى عند دوركايم ومنظور الفعل الاجتماعى عند فيبر مع آراء من علماء اجتماعيين آخرين أبرزهم فرويد. ويرى بارسونز أن الناس يكتسبون القيم والمعايير (القواعد) والأدوار الأساسية من خلال التنشئة الاجتماعية، وأن النجاح فى استئماج قيم المجتمع ومعاييره وأدواره شرط لازم للنظام الاجتماعى، وأن الإخفاق فى اكتسابها أو قبولها علامة على الانحراف.

شكل ٣-١

المجتمع كنسق اجتماعى



المعايير (والنسق برتمته) تدعمه قيم أساسية مثل الولاء

ويحتاج الشكل السابق (نموذج النسق الاجتماعى عند بارسونز) إلى قدر من التوضيح: يشمل مفهوم النسق الاجتماعى البناء والأداء الوظيفى معاً. وكل نسق من الأنساق الفرعية الأربعة يشبع حاجة إنسانية أساسية. ويشير بارسونز إلى هذه الحاجات بـ"الدوافع" أو "اللوازم الضرورية". فالاقتصاد يشبع دافع التكيف (أى الاحتياجات المادية)، وتوفر الأنساق السياسية الفرعية أو نظام الحكم إطاراً مؤسسياً لتحقيق الأهداف،

وتعمل المؤسسات القرايية على المحافظة على النمط (أنماط السلوك المقبولة) وإدارة التوتر (العواطف)، ويحقق النسق الثقافى والاجتماعى الفرعى وظيفة التكامل (التنسيق بين مختلف أجزاء النسق وضبطها) والوصول إلى الأهداف.

وتبدو الوظيفة التكاملية للنسق الثقافى والاجتماعى على درجة كبيرة من الأهمية فى النظرية الوظيفية. ويتحقق ذلك من خلال تعزيز القيم والسلوك المقبول اجتماعياً، وهى وظائف مألوفة للكنيسة والمدرسة. وتخرق هذه القيم النسق بأكمله، وهى أساس الإجماع الاجتماعى الذى يدعم النظام الاجتماعى. والمجتمع عند بارسونز - شأنه شأن دوركايم - كيان أخلاقى يتطلب انصياعاً من أعضائه حتى يؤدى وظائفه بفاعلية. ويرى بارسونز - مثله فى ذلك مثل معاصره إدوارد شيلز - أن صفوة المجتمع عليها دور مهم فى المحافظة على نسق القيم. وقد وُجه انتقاد إلى كليهما - لاتجاههما إلى مساواة قيم الصفوة بقيم المجتمع - من جانب منظرى الصراع الذين أشاروا إلى القيم الطبقيّة والسلالية وغيرها من القيم المتعارضة بين الجماعات.

المماثلة العضوية

ذكرنا فى الفصل الأول تشبيه الوظيفة بالمجتمع بالكائن الحى. وسوف نناقش لاحقاً الاستخدامات المتعددة للمماثلة العضوية. ومن أكثر هذه الاستخدامات التى نوقشت بقدر من التفصيل الطريقة التى يتطور بها المجتمع من الشكل البسيط إلى الشكل المركب على غرار الطريقة التى ينمو بها جسم الكائن الحى. ويؤكد هذا المدخل على الجانب التطور للمماثلة، وهو يتضح فى أعمال دوركايم وبارسونز، إلا أنه يُعزى إلى عالم الاجتماع البريطانى هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣) الذى تأثر تأثراً كبيراً بنظرية دارون فى التطور البيولوجى. وسوف نناقش فى عجالة ما إذا كان مفهوم التطور يشكل أساساً ملائماً لفهم التغير الاجتماعى.

وبالإضافة إلى استخدامات المماثلة العضوية استناداً إلى المنظور التطورى، فقد عكس علماء آخرون وجهة النظر القائلة بأن المجتمع يتشكل بناؤه ويقوم بوظائفه شأنه فى ذلك شأن الكائن الحى. وهذا ما تعبر عنه تعبيراً واضحاً كتابات عالم الأنثروبولوجيا البريطانى رادكليف براون (١٨٨١-١٩٥٥)، كما أنها تشكل أساس نظرية الأنساق الاجتماعية عند تالكوت بارسونز. والقضية الرئيسية هنا هى أن مختلف أجزاء المجتمع تعمل فى علاقة مترابطة مع بعضها البعض، وأن أفضل طريقة لفهم المجتمع هى تحليل هذه العلاقات المتبادلة. وإذا كانت بعض أجزاء الجسم أكثر أهمية - من الناحية الوظيفية - من أجزاء أخرى، فإن المجتمع - فى رأى الوظيفيين - لا بد أن يكون مرتباً على شكل

تدرج هرمى (وظيفى) لأغراض وظيفية. ويتضح هذا الرأى فى أعمال ديفيز ومور، وميشيلز. ومن المفاهيم الأخرى المهمة مفهوم التوازن الاجتماعى، وبه يُفترض أن المجتمع يسعى إلى التوازن والقيام بوظائفه بطريقة منظمة بنفس طريقة الكائن الحى. ويعد الإجماع على المعايير والقيم ضرورياً لقيام المجتمع بوظائفه بطريقة صحية، مع أن المماثلة يندر مطابقتها حرفياً على هذا النحو. ومع ذلك يغلب على الوظيفيين - ومنهم دوركايم - تشبيه السلوك الانحرافى بالمرض البدنى.

نقد الوظيفية (خاصة المماثلة العضوية)

نعرض فيما يلى للانتقادات الموجهة إلى الوظيفية على النحو التالى:

(١) التصور المفرط للطبيعة الاجتماعية للكائنات الإنسانية

بالإشارة إلى المماثلة العضوية فإن الأعضاء لا تفكر، فى حين يمتاز الناس بالتفكير. أو بعبارة أكثر دقة فإن المماثلة العضوية لم تفسح المجال للنظر فى الفعل الاجتماعى المقصود. ولا تتم العمليات البيولوجية بصفة عامة باستخدام الإرادة والعقل والتخيل، ولكنها تحدث أساساً دون مستوى الإدراك الواعى.

وعلى الرغم من أن بارسونز حاول أن يوازن بين الفردية وتأثير البناء الاجتماعى، فقد طور نموذجاً للمجتمع أكثر اقتراباً من البنائية الاجتماعية لدى دوركايم منه إلى تشديد فيبر على الفعل الاجتماعى. وأياً كانت مقاصد بارسونز، فقد نظر إلى القيم على أنها "أشياء" مفروضة اجتماعياً على الفرد بدلاً من كونها محصلة لاختياره المدروس. والقيم - كما يتضح من شكل (٣-١) - ملك للأنساق لا للأفراد والجماعات.

وفى رأى أنتونى جيدنز: "يبدو أن الفاعلين يعترفون بأنهم يتمصلون من فهم الصورة التخطيطية التى رسمها بارسونز: خشية المسرح معدة، والنص مكتوب، والأدوار محددة، إلا أن الممثلين غائبون عن المشهد، وهذا هو الغريب فى الأمر". ومحصلة كل هذا وذاك أن الوظيفية تقدم لنا ما أسماه دينيس رونج "تصوراً مفرطاً للطبيعة الاجتماعية للكائنات الإنسانية".

(٢) المبالغة فى دور الإجماع

تبالغ الوظيفية فى دور الإجماع وتبخس من دور الصراع فى قيام المجتمع بأداء وظائفه. ولا بد أن نضيف هنا أن مفهومى الإجماع والتوازن مترابطان، أى أن الوظيفيين يرون أن الإجماع شرط سابق على التوازن. وينعكس هذا التشديد على الاستقرار والنظام على المماثلة العضوية ذاتها، بمعنى أن الكائنات العضوية - خاصة الحيوانات - تجاهد

من أجل المحافظة على التوازن الداخلى (ويحدث هذا جزئياً من خلال عملية معقدة هي الاتزان الحيوى أو التكيف)، ولكنه لا يتوفر دليل- ولن يتوفر- على أن المجتمعات - كوحدة - غير مزودة وراثياً بميكانيزمات تكيف مماثلة. فالنظام والتوازن الاجتماعيان يمكن المحافظة عليهما عن طريق الفعل الواعى للأفراد والجماعات، ولكن هذا أمر مختلف. فعلى الرغم من أن الإجماع يسهم بالفعل فى النظام الاجتماعى، إلا أنه - أى الإجماع - لا بد من ابتداعه والمحافظة عليه عن قصد. ومن المؤكد أنه لا يمكن النظر إلى الإجماع على أنه منتظم ومستمر بذاته بطريقة آلية. وبعبارة أخرى، يحدث التوازن الاجتماعى والإجماع بطريقة مختلفة عن التوازن العضوى. ولا يوجد تماثل يمكن تفسيره تفسيراً مناسباً بين المجالات العضوية والاجتماعية.

وإذا كان بارسونز قد أدرج الصراع فى مخططه، فإنه يفترض أن "النسق" لديه القدرة على تحييد الصراع. ومن ثم فهو - أى بارسونز - يجيز إمكانية حدوث "توتر" داخل المجتمع، ولكنه يسلم بحقيقة أن هذا التوتر يمكن تدبيره داخل نسق الأسرة والقرابة، مما يعنى أن بارسونز كان ينظر إلى التوتر على أنه مشكلة فردية. وبالتالي لم ينل الصراع بين الطبقات، والجماعات العرقية، والذكور والإناث إلا اهتماماً شحيحاً من بارسونز فى أعماله.

وقد طرح ميرتون - الذى عمل فى سياق التراث الوظيفى - مفهوم الاختلال الوظيفى الذى يعنى به أن البناء الاجتماعى قد يؤدى وظائفه بطريقة ذات تأثير سلبى على المجتمع أو تؤدى إلى سوء التكيف فيه. وبالتالي يمكن الزعم بأن الوسائل المتاحة للفقراء مختلفة وظيفياً؛ لأنها تبعد بعضهم عن استعمالها فى تحقيق هدف الأمن الاجتماعى.

(٣) الفصل المضلل بين البناء والنسق

الانتقاد الثالث الموجه إلى المماثلة العضوية هو أنها تؤدى إلى فصل مضلل بين البناء (أجزاء المجتمع أو مؤسساته) والنسق (قيام المجتمع بوظائفه)، كما تؤدى بصفة خاصة إلى معالجة جزئية - من زاوية المفهوم - لمشكلة التغير الاجتماعى. وعلى النقيض من ذلك يبدو أن هذا الفصل مفيد فى العلوم الطبيعية، حيث يساعد فى علم الأحياء - على دراسة بناء النبات أو الحيوان (التشريح)، وبعدها وصف كيفية قيام الأجزاء المختلفة بوظائفها فى علاقتها مع بعضها البعض ومع الكل.

ويمكن أن يكون نفس المدخل مفيداً فى علم الاجتماع بمعنى وصفى ضيق، على الرغم من استحالة تشريح المجتمع بطريقة مشابهة بغرض الدراسة. ويقوم المجتمع بأداء وظائفه فى الحياة الواقعية من خلال الأفعال المنظمة تقريباً للأفراد والجماعات. وليس

بالطريقة الطائشة للكائن الحى. ولا يحدث التغير من خلال التطور والتكيف فحسب، مع أنه قد يحدث على هذا النحو إلى حد ما. وتعد الثورات والخصام العنيف مع الماضى على درجة متعادلة من الأهمية فى تاريخ الأمم والثقافات وتطورها. ولا تزال فكرة التوازن الدينامى عند بارسونز – وتعنى أن التوازن الاجتماعى يتكيف مع الظواهر الجديدة داخل النسق – بمثابة تشديد على الاستمرار على حساب التغير والانقطاع. وفى رأيه أن الأنساق تغير الناس وتصنعهم فى الغالب، وليس العكس.

وتعد محاولات روبرت ميرتون استخدام مفهوم الوظيفة ليشمل طائفة عريضة من الأحداث الاجتماعية أشبه بسكرة الموت لنظرية امتدت خارج نطاق قدرتها الملازمة لها. كما أن مفهومه عن الوظيفة الظاهرة الذى استخدمه ليصف المصاحبات المقصودة – فى مقابل المصاحبات غير المقصودة (الكامنة) – لقيام المؤسسة بوظائفها لا يناسب معالجة مفهوم دور الاختيار فى الحياة الاجتماعية. وتكمن المشكلة الأساسية فى أنه يستحيل تقديم تفسير مناسب لفعل موجه بوعى فى سياق إطار يتخذ من قيام الكائن الحى بوظائفه بلا وعى نموذجاً له.

(٤) تكرار المعانى

الانتقاد الأخير الموجه إلى الوظيفية هو أنها غائية أو تكرر المعانى بلا جدوى على حد تعبير كريس براون. ونظراً لأن الوظيفيين يرون وظائف معينة تقوم بها مؤسسات بعينها، فإنهم يخلصون إلى أن ثمة حاجة إلى هذه المؤسسات، بمعنى أنهم يفسرون الأسباب بنتائجها. والحقيقة أن كثيراً من المؤسسات موجودة، وهذا أمر لا يرتاب فيه اثنان، إلا أن الحاجة إلى تلك المؤسسات هو الأمر المشكوك فيه. ومن الحتمى أن تختلف الآراء بشأن أى المؤسسات أكثرها أهمية، فقد يرى البعض أنه النظام الطبقي، ويرى البعض الآخر أنه الأسرة النووية. يضاف إلى هذا أن الناس يؤسسون تنظيمات أو مؤسسات ليس بهدف إشباع احتياجات اجتماعية فحسب، بل لتحقيق أغراضهم ومصالحهم التى قد تكون على حساب مصالح الآخرين فى بعض الأحيان.

ومع أنه لا يمكن لأحد منا أن يسقط من حساباته التفسير الوصفى للوظائف التى تقوم بها المؤسسات، فإن هذا يمثل جانباً واحداً فقط من جوانب التحليل فى علم الاجتماع. فهناك مسائل أخرى على نفس الدرجة من الأهمية أبخسها الوظيفيون حقها، ومنها: من الذى يُسِير الأمور على النحو الذى تحدث به؟ ولمصلحة من؟

وليست القضية هى ما إذا كانت الوظيفية منظوراً على صواب أم على خطأ، بل القضية هى كيف تبدو الوظيفية مفيدة ومرشدة لنا؟ ومن المؤكد أن الوظيفية تساعدنا فى

التفسير الوصفي لما تقوم به المؤسسات، كما أنها تروق لكثير من الطلاب. فالتحليل الوظيفي للتنشئة الاجتماعية ينبهنا – بطريقة مفيدة – إلى ما يحدث لنا بشكل فردي حتى نصير أعضاء ممثلين في المجتمع. ومع ذلك فإن هذه الجوانب من التحليل في علم الاجتماع واضحة تمام الوضوح، وعالجتها اتجاهات نظرية أخرى. وعلى الوظيفية إما أن تتمسك بجدوى مفاهيمها المحورية التي عرضنا لها في المماثلة البيولوجية أو في نظرية الأنساق عند تالكوت بارسونز، أو أن تتخلى عنها. وفي كلتا الحالتين لا بد من لفظ كثير من التطورية وقليل من القصدية Intentionality.

إن المحتوى التطوري للوظيفية أكثر وضوحاً عنه في نظرية التحديث، كما أن المفهوم الوظيفي للتطور الشامل نحو الحياة الأمريكية هو الذي جعلها تعين ملامحها لا على أنها علم اجتماع الحداثة فحسب، بل وكمنظور محدود بالافتراضات التفاضلية عن الحداثة. وكانت الرسالة الموجهة من الوظيفية إلى الدول الأكثر فقراً هي:

"تكيفوا، وسوف تصبحون مثلنا".

الماركسية (نظرية الصراع I)

إذا كانت الوظيفية تقوم على افتراض أن الإجماع على القيم والنظام الاجتماعي بمثابة أمر عادي في المجتمع، فإن الماركسيين يرون أن الصراع على القيم والمسائل المادية أمر عادي في المجتمعات المنقسمة طبقياً. وهذا يعود – في رأى ماركس – إلى أن مختلف جماعات أو طبقات الناس لها حاجات أو رغبات مختلفة تجلب الصراع بينها في نهاية الأمر. ومع ذلك يعترف الماركسيون بأن المجتمعات المنقسمة طبقياً يمكن أن تظل في حالة استقرار ونظام لفترات زمنية طويلة.

البناء والأيدولوجية

يبدأ تحليل ماركس لبناء المجتمع بمسألة البقاء الإنساني: الحاجة إلى إنتاج السلع. والاقتصاد هو ذلك المجال من مجالات المجتمع الذي يختص بإنتاج السلع. وقد أشار ماركس إلى قوى الإنتاج، ووسائل الإنتاج، والعلاقات الاجتماعية للإنتاج، ونمط الإنتاج. ويقصد بقوى الإنتاج جميع العوامل – بما فيها العوامل العلمية والتكنولوجية – التي تسهم في الإنتاج. وتتضمن قوى الإنتاج وسائل الإنتاج التي تعنى الوسائل الملموسة للإنتاج مثل الأرض في المجتمعات الإقطاعية، والمصانع في المجتمعات الصناعية الرأسمالية. وتشير العلاقات الاجتماعية للإنتاج إلى الطريقة التي يتم بها تنظيم الإنتاج اجتماعياً.

وفى جميع المجتمعات غير الشيوعية توجد طبقة تملك وسائل الإنتاج، وطبقة تقوم بتشغيل هذه الوسائل. وفى المجتمع الرأسمالى فى القرن التاسع عشر الذى عاش فيه ماركس وصف الطبقة التى تملك وسائل الإنتاج بـ"الطبقة الرأسمالية أو البورجوازية"، والطبقة التى تبيع عملها بـ"الطبقة العاملة أو البروليتارية". أما نمط الإنتاج فهو وصف أكثر عمومية لنوع الإنتاج السائد فى المجتمع مثل أنماط الإنتاج الإقطاعى أو الرأسمالى أو الاشتراكى.

ويشار إلى الاقتصاد والطبقات معاً كوحدة متكاملة بـ"البناء التحتى للمجتمع". وما عدا ذلك يطلق عليه "البناء الفوقى" الذى يضم السياسة والثقافة / الأيديولوجية، أو مجال الأفكار تقريباً. وقد قال ماركس:

"إن أفكار الطبقة الحاكمة فى كل حقبة تاريخية هى الأفكار المهيمنة، بمعنى أن الطبقة التى تحوز القوة المادية فى المجتمع هى التى تحوز فى نفس الوقت القوة العقلية (الفكرية). فالطبقة التى تكون وسائل الإنتاج المادى تحت تصرفها تتحكم فى نفس الوقت فى وسائل الإنتاج العقبلى".

(The German Ideology, Cited in Bottomore & Rubel, 1961: 93)

وتلخص العبارة الشهيرة التى أطلقها ماركس عن الدين وجهة نظره بأن وظيفة الدين الأساسية هى إقناع الجماعات الخاضعة أو المستغلة بأن تؤمن بضرورة امتثالها للجماعات التى تقوم باستغلالها. وقد أطلق ماركس مصطلح "الوعى الزائف" على تلك المعتقدات الامتثالية المضللة من وجهة نظره. ويشير الماركسيون المعاصرون إلى التعليم ووسائل الإعلام باعتبارها وسائل أساسية لهيمنة الأيديولوجية. وقد أكد الماركسى الفرنسى ألتوسير على قوة الطبقة الحاكمة أو المسيطرة على أن تحقق لنفسها قبولاً ذاتع الانتشار لمعتقداتها الأيديولوجية بين باقى الطبقات بما فيها الطبقة العاملة. ويشار إلى هذا التحليل بمصطلح "نظرية الأيديولوجية المسيطرة" Dominant Ideology Thesis. ومع ذلك شدد ماركسيون آخرون – ومنهم نيكولاس أبيركرومبى – على جانب آخر من جوانب تحليل ماركس للأيديولوجية، وهو أن الطبقة العاملة لديها أسس أيديولوجية بديلة عن الأيديولوجية الرأسمالية السائدة، وهى أيديولوجية ناتجة عن خبرات العمل لدى هذه الطبقة. ويرى ماركس أن المعاناة المشتركة للطبقة العاملة من الاستغلال فى العمل يمكن أن تدعم تضامن الطبقة العاملة وقيامها بعمل جمعى، أى تؤدى بهم إلى الاشتراكية. وهذا يعنى أن ماركس أشار إلى إمكانية وجود انصياح إيديولوجى، وإمكانية وجود إيديولوجية بديلة لدى الطبقة العاملة.

التناقض والتغير

من المهم الإشارة إلى أن ماركس لم يقل بأن الأفكار وحدها هي التي يمكن أن تغير المجتمع تغيراً جذرياً. فقد ذهب إلى أن الشرط الأساسي للتغير في المجتمع يتحقق عندما يتطور التناقض أو التناقضات الأساسية إلى درجة تهدد النظام الاجتماعي القائم بالانهيار. وأبرز تناقض أساسي يمكن أن ينميه المجتمع هو عندما يحدث عداء بين نمط الإنتاج وعلاقاته الاجتماعية. وقصد ماركس بذلك أن توازن القوة الاقتصادية يمكن أن ينتقل إلى جماعة جديدة دون المساس بالنظام الاجتماعي القديم. ومن ثم يرى أن الرأسماليين يصبحون في النهاية عاجزين عن التحكم في نظام الإنتاج الرأسمالي؛ لأنهم يعجزون عن الحفاظ على سيطرتهم على الطبقة العاملة (مثلما فقد النبلاء الإقطاعيون قدرتهم على السيطرة على البورجوازية الصاعدة).

كما وصف ماركس مجموعة من التناقضات الكامنة ضمن هذا التناقض الرئيسي: انخفاض معدل الربحية للرأسماليين، وزيادة التنافس بين الرأسماليين، وتزايد استغلال (إفقار) الطبقة العاملة بما يؤدي إلى رد فعل ثوري. ويحاول كثير من الماركسيين المعاصرين تفسير أسباب عدم حدوث سيناريو الثورة عند ماركس. وقد أقر بعض المرتدين عن الماركسية Ex-Marxists بأن ذلك لن يحدث.

ويشير مصطلح "المادية الجدلية" إلى نظرية ماركس القائلة بأن التغير التاريخي يحدث من خلال توليفة من المتناقضات داخل النسق، وهي مادية لأنه يرى أن القوى الاقتصادية هي المحرك للتغير التاريخي، وهي جدلية لأن التناقضات تنتج عن العلاقات العدائية: الاقتصادية والاجتماعية بين الطبقات.

نقد الماركسية "الفجة"

يتسم الميراث الماركسي بغموض حاد. وقد ترك ماركس ميراثاً بوصييتين دون أن يكون هذا في مقصده، أولاهما تقوم على الاعتقاد بأن الصراع الطبقي والثورة الاشتراكية حتميان من الناحية التاريخية، وثانيهما تنهض على وجهة النظر القائلة بأن تحقيق الثورة الاجتماعية يستوجب العمل على تغيير وعي الطبقة العاملة (عندما تدرك هذه الطبقة طبيعة الاستغلال الرأسمالي، فمن المؤكد أنها سوف تنظم نفسها للتخلص منه). وقد وجهت سهام نقد حاد لوجهة النظر الأولى. ونعرض فيما يلي لبعض الانتقادات الموجهة إلى الماركسية خاصة الماركسية "الفجة":

(١) الاعتقاد في أن ثورة البروليتاريا حتمية

وجهت انتقادات متتالية إلى الاعتقاد في أن ثورة البروليتاريا حتمية نتيجة لتناقضات

اقتصادية معينة فى النظام الرأسمالى. فهذا ضرب من ضروب التفكير الحتمى الفج؛ لأنه يعنى أن مناصرى ذلك الاعتقاد يرون أننا نعرف المستقبل من الماضى، وأن أحداثاً مستقبلية سوف تحدث بسبب قوانين التاريخ (راجع تعقيب كارل بوبر على هذه القضية فى الفصل الثانى). ويتم الاستشهاد أحياناً بتطبيق ماركس للنظرية الجدلية على التغير الاجتماعى على أنها محاولة لكشف النقاب عن قوانين التاريخ.

وينهض مبدأ الجدل على أن العناصر المتضادة (الموضوع ونقيض الموضوع) تتحد لتنتج ظاهرة جديدة (مركب الموضوع). وهذا المفهوم مأخوذ من العلوم الطبيعية، إلا أن تطبيق ماركس له على التاريخ الحديث يعنى أن صدام الطبقة الرأسمالية مع الطبقة البروليتارية سوف يفضى إلى مركب جديد: المجتمع اللاتبقى. ومن المشكوك فيه أن يكون فى نية ماركس قبول هذا النموذج قبولاً حتمياً، ولكن إذا كان ذلك كذلك، فهذا يعد مثلاً صارخاً على الحتمية الفجة.

وربما يكون ماركس قد عانى كثيراً من أفكار بعض تلاميذه، مثلما عانى من الانتقادات التى وجهت إليه فى حياته، ولذا فلا عجب فى قوله ذات مرة "أنا لست ماركسياً". ويوافق الماركسيون المعاصرون على التنفيذات الأساسية للحتمية، ويرون أن الناس – فى سياق الواقع البنائى المعاصر – يصنعون تاريخهم، ولهذا السبب لا يمكن التنبؤ بالمستقبل.

(٢) تشديد التأكيد على الصراع

الانتقاد الثانى الموجه إلى الماركسية هو عكس الانتقاد الموجه ضد الوظيفة، أى أن الماركسية بالغت فى تشديدها على الصراع وتقليلها من دور الإجماع فى المجتمع. ويحتاج هذا النقد إلى قدر من التوضيح. فمفهوم "الوعى الزائف" عند ماركس يعنى أنه يعترف اعترافاً كلياً بأن ما يراه "إجماعاً زائفاً" False Consensus – وهو ما يكشف النقاب عن حقيقة الصراع الطبقي – وارد الحدوث. وهناك إمكانية لأن يسعى كثير من الناس بوعى وذكاء نحو الإجماع والاتفاق عبر الجماعات الطبقية، وهذا ما يتعارض مع النموذج النظرى عند ماركس. وتذهب الانتقادات بشأن هذه النقطة إلى أن كثيراً من الناس يتصرفون على هذا النحو بشكل عادى وعقلانى. وإذا كان ذلك صحيحاً، فإنه يهدم أساس نموذج ماركس عن المجتمع والتغير الاجتماعى.

(٣) الفجوة بين المثاليات والواقع

الانتقاد الثالث الموجه إلى الماركسية أنها مثالية من الناحية النظرية، ولكنها يمكن أن تكون محبطة وقاسية من الناحية الواقعية. وعندما يُذكر هذا الانتقاد نسترجع مثال النظام الشمولى والإمبريالى السوفيتى. ويزعم موجهو هذا النقد أن السجل السوفيتى بشأن حقوق الإنسان والسياسة الخارجية لا يعزى ببساطة إلى فظاعة السوفيت، ولكنه يشكل ملمحاً أصيلاً من ملامح العقيدة الماركسية. ويضيف هؤلاء النقاد أنه لا يمكن الجمع فى العالم الواقعى بين المساواة المادية ومستوى مرتفع من الحرية والتعبير الفرديين. وعندما تحكم الدولة جماعة غير ممثلة، فإنها تستخدم قوتها فى قمع المعارضة السياسية وتنظيم طائفة عريضة من الأنشطة الأخرى والسيطرة عليها وكبحها، بما فى ذلك الأنشطة الثقافية.

ويسلم كثير من الماركسيين الأوربيين والأمريكيين بهذه الانتقادات، ولكنهم ينكرون أن تجربة نظام الحكم السابق فى الاتحاد السوفيتى تمثل صورة صافية من صور الماركسية. وناقش فيما يلى بعضاً من أفكارهم حول هذا الموضوع.

الاتجاهات الحديثة فى الفكر الماركسى

(١) النزعة الإنسانية الماركسية

يؤكد هذا المذهب على كبح إمكانيات الإنسان فى المجتمع الرأسمالى وإطلاق العنان لها فى المجتمع الشيوعى. وتتمثل مصادر النزعة الإنسانية فى أعمال ماركس من خلال كتاباته المبكرة عن إمكانيات الإنسان وتحليله للاغتراب. ومن أبرز ممثلى النزعة الإنسانية الماركسية ريموند ويليامز وطومسون فى بريطانيا، كما ترك رايت ميلز تأثيراً بالغاً فى الولايات المتحدة.

(٢) مدرسة فرانكفورت

تثير النظرية النقدية – كما يستدل من اسمها – إمكانية نقد الطريقة التى تسير بها الأمور من وجهة نظر أخرى. وقد كان هيربرت ماركيوز مفكراً نظرياً نقدياً حتى وفاته عام ١٩٧٩. وهاجم ماركيوز الواقع الرأسمالى، خاصة من زاوية أنه يقمع الطبقة العاملة بصفة خاصة. وقبل هجرته إلى أمريكا من ألمانيا النازية، عمل ماركيوز فى جامعة فرانكفورت معقل المنظرين النقديين. وقد تأثر تأثراً كبيراً بفرويد وماركس، ووفق بين آرائهما بطريقة أثرت خيال كثير من الطلاب الراديكاليين فى الستينيات. وقد أخذ من فرويد مفهوم الكبت النفسى وطبقه على المجتمع الرأسمالى. ويزعم ماركيوز أن النظام الرأسمالى لا يهتم بإطلاق حرية التعبير ونمو الإنسان على نحو تام، ولكنه مهتم أساساً باستغلال العمال. وفى سبيل القيام بذلك تقوم الرأسمالية بقمع الإمكانيات الإنسانية

واختزال الناس إلى مستوى الآلة.

ويعد هابرماس أكثر أعضاء مدرسة فرانكفورت تأثيراً اليوم. وإذا كان ماركيز قد شدد على الكبت العاطفي والجنسي والفني للنظام الرأسمالي، فإن هابرماس يزعم أن الرأسمالية فشلت في تعزيز الحوار العقلاني المفعم بالثقة. ويرفض هابرماس - شأنه في ذلك شأن ماركيز - إمكانية قيام مجتمع أكثر حرية وعقلانية. وقد برهنت أعمال هابرماس - شأنها في ذلك شأن أعمال ويليامز، وطومسون، وميلز - على أن اهتمامات الماركسيين لا تنحصر في مجال علم الاجتماع وحده، بل تتعداه إلى مجال أرحب من التعبير الثقافي الإنساني.

(٣) البنيوية الماركسية

تمثل البنيوية الماركسية الاتجاه الثالث من الاتجاهات المعاصرة للماركسية، وهي ترتبط ارتباطاً خاصاً بالماركسيين الفرنسيين: ألتوسير وبورديو. ويرى البنيويون أن هناك توافقاً شديداً بين البنائين: التحتى والفوقى. وبعبارة أخرى فإنهم ينظرون إلى الثقافة في أدنى مراتبها على أنها تعبير حر، وفي أعلاها على أنها مجال يترسخ فيه الامتثال الإيديولوجي للمجتمع الرأسمالي. وبهذا المعنى يتشابه البنيويون مع الوظيفيين البنائين، على الرغم من أن الوظيفيين يسلمون عموماً بفكرة الانصياع للمجتمع الرأسمالي، وهذا ما لا يقبله البنيويون الماركسيون بكل تأكيد.

(٤) التأكيد على الفاعل والفعل

تبلورت التطورات في الفكر الماركسي في الممارسات السياسية جنباً إلى جنب الدراسات الأكاديمية. فقد كان كل من لينين، وماو، والثوري الكوبي شي جيفارا رجالاً مؤثرين إضافة إلى أنهم مفكرون. وكانوا جميعاً ثوريين ناجحين، وليس من الغرابة أنهم شددوا على حاجة الماركسيين إلى التنظيم من أجل إحداث التغيير الذي يبتغوه بدلاً من افتراض أن التاريخ في صفتهم حتماً. كما أكدوا على دور كل من الحزب الثوري والقيادة الملتزمة في المساعدة في حدوث الثورة.

وممكن الخطر في هذا هو أن القيادة تفقد صلتها بغالبية الشعب الذي من المفترض أن تقوم الثورة على أكتافهم. ومع فرض الثورة لأبد أيضاً من فرض التغيير الذي يعقبها على سكان ربما يكون وعيهم بعيداً عن الوعي الشيوعي.

ويختلف الماركسيون حول ما إذا كان هذا الفرض له ما يبرره. والبديل عن ذلك هو

السعى إلى إحداث تغيير جذري: تدريجي أو ثوري من خلال تأييد الجماهير. وتكمن الصعوبة هنا في أن قوى النظام التي تحول دون تطور هذا التأييد قوى عديدة.

وإحدى طرائق قياس التأييد الجماهيري تكون من خلال صناديق الاقتراع. فقد انتخبت زيمبابوي حكومة ذات توجهات ماركسية جديدة، إلا أنها ظلت تكافح من أجل المحافظة على السياسات الاشتراكية ضد معارضة الدول القوية والمصالح الاقتصادية الدولية. وقد مُنعت الحكومة الماركسية المنتخبة برئاسة إيندي من القيام بذلك.

وليس من السهل تصنيف الإسهامات النظرية للنشطاء الماركسيين Marxist Activists تصنيفاً دقيقاً. وقد شدد الثوريون الثلاثة الذين ذكروا آنفاً على حاجة الشعب إلى فرض قضيتهم التاريخية من أجل إحداث التغيير الاشتراكي، وعند هذا الحد يعد هؤلاء الثوريون إنسانيين. أما لجورهم إلى العنف في سبيل التغيير وتعارضه مع نزعتهم الإنسانية فهي نقطة يمكن أن يحتدم حولها الجدل طويلاً.

ويلاحظ أن معظم النشطاء الماركسيين في التسعينيات في الغرب أكثر ميلاً إلى الانخراط في حركات بديلة سياسية واجتماعية بدلاً من الانشغال بخطاب الثورات العنيفة، كما أنهم كانوا أكثر تأثراً بـ"جرامشي" منهم بـ"الينين".

(٥) الماركسية والثقافة وما بعد الحداثة

للماركسيين بصفة عامة رأى مبتذل بشأن الثقافة في المجتمع الرأسمالي، ذلك المجتمع الذي صار الآن مجتمعاً كونياً في جوانب رئيسية عديدة. ويزعم الماركسيون من أمثال جيمسون أن أيديولوجية النزعة الاستهلاكية مكنت الرأسمالية من استمالة الناس – حتى الفقراء منهم – إلى النظام الرأسمالي، بل إن الذين تستغلهم الرأسمالية زرعت فيهم الأمل في الإشباع الاستهلاكي من خلال وسائل الإعلام. ويميل الماركسيون – في حوارهم المحموم مع نظرية ما بعد الحداثة – إلى الإدعاء بأن الأمور يمكن أن تتغير بل وينبغي أن تتغير، إلا أنهم يزدادون حيرة حول كيفية حدوث ذلك.

الخلاصة: أزمة الماركسية

قبل ظهور الرئيس جورج باتشوف وأفول الشيوعية في أوروبا الشرقية عاشت الماركسية المعاصرة في جدال عنيف بعد أن أضحت كثير من القضايا أكثر وضوحاً. وهناك قلة من الماركسيين الآن تؤمن بالحتمية التاريخية، باستثناء البنيويين الفرنسيين الذين قاموا بمجرد إحلال العوامل الثقافية محل العوامل الاقتصادية. كما أن ثلثة من الماركسيين في أوروبا الشرقية تؤيد استخدام الوسائل العنيفة لتحقيق التغيير في أوروبا

الغربية (هذا على الرغم من النظر إلى هذه الوسائل على أنها وسائل مشروعة للإطاحة بنظم الحكم الاستغلالية وغير الممثلة في العالم الثالث).

ويمكن القول بأن معظم الماركسيين الغربيين اليوم ديمقراطيين؛ بمعنى أنهم لم يعودوا يؤيدون حكم الحزب الواحد. وتقودنا هذه الملاحظات إلى تساؤلين: **أولهما:** هل الماركسيون بهذه المعتقدات يعدون ماركسيين حقاً؟ **وثانيهما:** هل يختلف هؤلاء الماركسيون عن الاشتراكيين الديمقراطيين؟ وسوف نتضح الإجابة عن هذين السؤالين في (هذا العقد) ونحوه، وهذا يتوقف على المستقبل الذي ستؤول إليه الماركسية. والقضية المثارة على المستويين النظرى والعملى هي: ما إذا كان هناك حل ذو طابع ماركسى لعدم المساواة والاستغلال الناجمين عن الرأسمالية، ذلك الحل الذى لا يحط من قيمة الحرية الشخصية والمدنية.

ماكس فيبر: نظرية الفعل الاجتماعى (نظرية الصراع II)

أسهم ماكس فيبر إسهاماً بارزاً فى كل من الاتجاهين: التأويلى والبنائى فى علم الاجتماع. ومع ذلك فقد كانت نقطة الانطلاق عنده وهدفه النهائى - فى زعمه - هى تحليل الفرد:

"يدرس علم الاجتماع التأويلى الفرد وفعله باعتباره الوحدة الأساسية لهذا العلم أو نرتته ... وبذلك يكون الفرد هو أيضاً النهاية القصوى للفعل ذى المعنى والناقل الوحيد له ... وبالنسبة لعلم الاجتماع بصفة عامة فإن مفاهيم مثل "الدولة" و"المنظمة" و"النظام الإقطاعى" وما شاكلها إنما ترمز إلى طوائف معينة من التفاعل الإنسانى. ومن هنا تكون مهمة علم الاجتماع اختزال هذه المفاهيم إلى فعل "قابل للفهم"، أى دون استثناء أفعال الأفراد المشاركين".

(Quoted in Gerth & Mills (eds.), 1970: 55)

ويصعب أن نعثر على التزام أوضح من هذا بعلم الاجتماع التأويلى: علم اجتماع الفعل الاجتماعى. ومع هذا، وعلى الرغم من هذا الإقرار الواضح بعلم الاجتماع التأويلى من حيث المبدأ، فإن الإسهامات النظرية الرئيسية لفيبر فى علم الاجتماع تقع فى دائرة التحليل البنائى.

الأنماط الأربعة للفعل الاجتماعي

قسم فيبر الفعل الاجتماعي إلى أربعة أنماط:

- الفعل الرشيد عملياً (الفعل الذي يختار فيه الفاعلون غاياتهم ووسائل تحقيقها بطريقة محسوبة).
- الفعل الرشيد قيمياً (الفعل الذي يتحدد بالاعتقاد الواعي في قيمة بعض الصور الأخلاقية والجمالية والدينية للسلوك في حد ذاتها بغض النظر عن احتمالات النجاح في ذلك).
- الفعل العاطفي (الفعل الذي يتحدد بالحالة العاطفية أو الوجدانية للفاعلين).
- الفعل التقليدي (الفعل الذي يتحدد بما اعتاد عليه الفاعلون في سلوكهم).

وباختصار صنف فيبر الفعل كما يحدده العقل، والقيم، والعاطفة، والتقاليد، أو بمزيج من بعضهم. وقد قصد فيبر من تنميته للفعل أن يشمل مدى يراوح بين الرشيد وغير الرشيد.

ويبدو أن تنميط فيبر للفعل الاجتماعي كان خطوة تمهيدية لتطوير علم اجتماع يتخذ من الذات مرتكزاً له. ومع ذلك يزعم ميلز وآلان داو A.Dawe أن فيبر لم يفلح في هذا. ويرى داو أن ذلك مرجعه أن فيبر استعان بتنميته للفعل في تعيين أنماط معينة للنظام الاجتماعي (البيروقراطي، الديني على سبيل المثال) بدلاً من الاستعانة به في تحليل الطبيعة المركبة للدافعية والفعل الذاتي (الفردى). ويُصنف الأفراد كأعضاء في أنماط معينة للمجتمع والمؤسسات أو الحركات بدلاً من تصنيفهم في ضوء طبيعتهم الفردية المركبة. ويرى ميلز أن انصراف فيبر عن علم الاجتماع التأويلي إلى علم الاجتماع البنائي ليس بالأمر الغريب. ولا يوجد عالم اجتماع حتى الآن استطاع أن يتصدى لتلك المهمة الثقيلة بتحليل ذاتية أعضاء المجتمع – وربما يستثنى من ذلك البحوث التي تجرى على نطاق ضيق جداً – ناهيك عن ربط هذا التحليل بعوامل وقضايا أكبر. وقد تكون هذه مشكلة غير قابلة للحل.

الفعل الرشيد والبيروقراطية والحدائثة

يرى فيبر أن نمط الفعل الأكثر تمييزاً للمجتمع الرأسمالي هو الفعل الرشيد عملياً، أى الفعل المنظم منطقياً لتحقيق أهداف معينة. ويزعم أن التنظيمات الكبيرة التي تتصف بالتسلسل الهرمي والتنظيم المعقد للعمل هي المثال الرئيسي الذي يجسد الفعل الرشيد في المجتمع الرأسمالي. ويذهب فيبر إلى أبعد من هذا حيث يزعم أن الفعل الرشيد هو أيضاً

النمط السائد للفعل في المجتمعات الاشتراكية. والحقيقة أن فيبر كان يؤمن بأن الفعل الرشيد خصيصة من خصائص المجتمعات الحديثة ذاتها. والبيروقراطية هي الطريقة التي يتم بها التعبير عن التفكير الرشيد و"العلمي" في شكل تنظيمي. ويرى فيبر أن التفكير والفعل الديني والتقليدي يميل إلى الانحسار أمام الزحف السريع للمنطق والعلم. وأشار إلى هذه العملية بتعبير شعري هو مصطلح "التحرر من الوهم" Disenchantment.

وعلى الرغم من إيمان فيبر الواضح بسيادة البيروقراطية، فلم يفقد اهتمامه بالفرد، حتى ولو عبر عن ذلك بنبرة متشائمة ومتغطسة:

"إن هذا الولع بالبيروقراطية كافٍ لأن يدفع بالفرد إلى حافة اليأس. ويبدو الحال كما لو كنا نتحول عن قصد إلى رجال يحتاجون إلى النظام ولا شيء غيره، رجال تتناهم العصبية والهلع إذا اضطرب هذا النظام لحظة واحدة، ويسيطر عليهم العجز إذا انزعوا من اندماجهم الكلي فيه. ولا ينبغي للعالم أن يعرف رجالاً غير هؤلاء، وهذا هو التطور الذي وقعنا بالفعل في شركه، ولا تصبح المسألة الكبرى هي كيف نستطيع أن نعزز هذا التطور ونعجل به، ولكن ماذا بوسعنا أن نحتج على هذه الآلية حتى نبقى على نسبة من الجنس البشري متحررة من هذا القيد على أرواحها، متحررة من هذا الطغيان القوي للأسلوب البيروقراطي في الحياة". (Cited by Dawe in Bottomore Nisbet, 1979: 391)

البناء والتعددية والفردية

إن نظرية الفعل عند فيبر – وخاصة تحليله للبيروقراطية كفعل رشيد منظم – لم تكن مطلقاً عقيدة جامدة مثلما أصبح مفهوم الطبقة عند الماركسية "الفجة". وتكشف العبارة السابقة لفيدر عن محاولته فهم التوتر والتفاعل بين الفردية والبناء الاجتماعي، وهي المحاولة التي لم يخضعها أبداً لمدخل أكثر بساطة.

وبصفة عامة اشتمل التحليل البنائي عند فيبر على البحث في تعددية العوامل، والتي لا يمكن التنبؤ بالعلاقة الدقيقة بينها. وفي رأي ميلز أن مدخل فيبر إلى الديناميكا الاجتماعية (التفاعل والتغير) كان مدخلاً "تعددياً". فقد بحث في تعددية الجماعات المنخرطة في التفاعل الاجتماعي، بدلاً من الاقتصار على طبقتين رئيسيتين فقط. ومن ثم درس فيبر التدرج الطبقي في المجتمع الرأسمالي أساساً في ضوء العلاقة بين الطبقة والمكانة والجماعات السياسية، ووصف هذه العلاقة بأنها علاقة صراع مقيد أو تنافس

(ولهذا السبب يوصف فيبر بأنه منظر من منظري الصراع). وتختلف العلاقات بين الجماعات باختلاف المجتمعات الرأسمالية، وتكون الطريقة الوحيدة لفهم هذه العلاقات فى مجتمع ما من خلال التحليل الدقيق والخاص. ويحبذ فيبر استخدام المنهج المقارن من أجل تعيين وتفسير أنماط التشابه والاختلاف بين المجتمعات، إلا أنه أصر كذلك على أن كل مجتمع – أو "حالة" – تمتاز بالتفرد فى جوانب معينة من الناحية التاريخية، ولا بد من دراسته لوحده.

وفى رأى فيبر أن تفرد المجتمعات وتعقد العمليات والأبنية الاجتماعية يعكس تفرد الأفراد وجماعات الأفراد. ويوضح استخدام فيبر لمفهوم "الكاريزما" وجهة نظره القائلة بأن الفرد يؤثر فى المجتمع تأثيراً كبيراً. وتعنى الكاريزما اصطلاحاً "موهبة إلهية"، وقد استخدم فيبر هذا المفهوم ليقصد به القادة المنتخبين Self-appointed الذين يراهم أتباعهم أشخاصاً غير عاديين (أو منقذين فى بعض الأحيان). وفى عالمنا المعاصر هناك قادة يبدون كارزميين مثل نيلسون مانديلا وصادق حسين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يرى فيبر أن كثيراً من الناس العاديين يمكن أن يشكلوا صفوة مهمة. وهنا نجد مرة ثانية أن وجهة نظره فى المجتمع تعددية، وتعكس صراعاً لا يمكن التنبؤ به فى الأفكار والقيم. وليست هذه الأفكار والقيم مجرد انعكاس للمصالح الذاتية أو الطبقية – كما كان ينظر إليها ماركس فى اعتقاد فيبر – ولكنها فى جزء منها محصلة للأفكار والقيم والمعتقدات الشخصية للناس.

تعقيب على فيبر

إذا كانت المنظورات الأخرى فى علم الاجتماع يمكن انتقادها لتشيدها المفرط فيه على جانب أو آخر من جوانب العلاقة بين الذات / البناء، فإن النقد الموجه إلى فيبر هو أنه لم يحقق المهمة العسيرة بدمج هذين الجانبين معاً، وبدلاً من ذلك تأرجح بينهما. وإذا كان هناك من شئ يمكن قوله فى هذا الصدد – كما يزعم ميلز وداو – فهو أن أعمال فيبر اتجهت أكثر إلى علم الاجتماع البنائى، فى حين أن مقصده كان محاولة تطوير علم اجتماع الفرد أو علم اجتماع المعنى الذاتى.

أما الانتقاد الثانى فهو أن تصوره عن سيادة البيروقراطية فى المجتمع الحديث أخس من أهمية وتواتر الأشكال التنظيمية الأخرى، ومن قدرة الناس داخل الأجهزة البيروقراطية على اكتشاف طرائق للعمل أقل رسمية وأكثر إشباعاً وفاعلية. وفى هذا تهكم على فيبر بالنظر إلى تعهده الشخصى بفهم الفردية. وثمة تناقض فى صميم خيال فيبر وفى علم الاجتماع لديه.

وسوف ننظر باختصار فى بعض المحاولات المعاصرة التى انشغلت بإشكالية العلاقة بين الفعل والبناء، تلك العلاقة التى تظل محورية فى نظرية علم الاجتماع.

التفاعلية (والمنظور البنائى): نحو مزيج مركب ؟

ليس هناك داع لأن نلخص أسس المنظور التفاعلى مرة ثانية. وبدلاً من ذلك سوف نناقش فيما يلى موضوعاً أكثر تحديداً. ومع ذلك فإن النظر فى المفاهيم المحورية لمنظور التفاعل يمثل أحد طرائق تمحيصه.

ويمكن استخدام قائمة مفاهيم المنظور التفاعلى كأساس يُعتمد عليه فى وصفه. ومع أن معظم هذه المفاهيم موجودة فى الاتجاهات النظرية الأخرى، فإن استخدامها العام فى نظرية التفاعل يبدو مميزاً من ناحية، ويحدد هذه النظرية بدرجة كبيرة من ناحية ثانية.

شكل ٣ - ٢

المفاهيم الأساسية فى نظرية التفاعل

بعض المفاهيم الأساسية فى نموذج التفاعل	
• الذات	: الآخر المهم : الآخر العام
• المعنى	: التفاعل : التفاوض
• الوصم	: القولية : النبوءة ذاتية التحقق
• السلك المهنى	: التعبير : التضخم

وقد حققت التفاعلية الرمزية - منذ ميد - تقدماً على المستوى النظرى من خلال التطبيق العملى والتنظير المجرد. وبناءً عليه أصبحنا قادرين على أن ندرس - بقدر من التفصيل - التحليلات التفاعلية الحديثة للعمل والانحراف والتنظيم. ولسنا بحاجة إلى استعراض هذه البحوث الآن.

وعوضاً عن ذلك سوف نناقش النقد الموجة دوماً إلى التفاعلية، وهو أنها تفتقر إلى بعد بنائى. ونركز هنا بصفة خاصة على المقارنة التى عقدها توم جوف بين علم الاجتماع عند كل من ميد وماركس. وقد حاول جوف فى كتابه "ماركس وميد" (١٩٨٠) أن يبرهن على أن أعمالهما - بصفة أساسية - متكاملة وليست متعارضة. وبالقدر الذى وفق فيه جوف فى هذا المجال، فإنه تحليله له دلالاته بالنسبة لإعادة بناء النظرية فى علم الاجتماع. وتعد محاولة جوف بصفة خاصة واحدة من محاولات عديدة لربط النظرية البنائية بالنظرية التأويلية.

وأول جوانب التقارب بين ماركس وميد أنهما شجدا على أن المجتمع يشكل الفرد، وأكدوا بطريقة مماثلة على تأثير البناء الاجتماعى على الناس. وقد أسهب ميد فى تفصيل

الكيفية التي يحدث بها هذا التأثير، وأصبح علم النفس الاجتماعي عنده مفيداً للغاية فى كثير من البحوث التأويلية التطبيقية. ويبدو أن الماركسيين من أمثال بول ويلييز تأثروا بهذه البحوث وغيرها من الاتجاهات الأخرى المتناغمة فى الظاهر اتية.

وثانى جوانب التقارب أن كليهما وصف الناس بأنهم كائنات واعية بقدرتها على تغيير بيئتهم الاجتماعية وإعادة تشكيلها. ولا يكون الفرد أو الجماعة فى حالة ضعف دائم أمام المجتمع. وإذا كان ميد قد بلغ رسالة يتعلق مضمونها بدرجة أكبر بعلم نفس اختيار الفرد وفهمه، فإن ماركس وجّه رسالة عاجلة عن التحرر من القهر الاجتماعي والبحث عن أسلوب حياة متحررة.

ويمكن اشتقاق الجانب الثالث من جوانب التقارب بين ماركس وميد من الجانبين السابقين. ففي رأيهما أن البناء الاجتماعي والإبداع الإنسانى ليسا منفصلين، بل مترابطان ترابطاً جدلياً، بمعنى أن الناس يتفاعلون مع البيئة الاجتماعية، ويمكن لكليهما أن يغير من الآخر.

وهذا يقودنا إلى نقطة الاتفاق الرابعة بين ماركس وميد، وهى أن التفكير الإنسانى ينشأ فى سياق اجتماعى، ويتكون من خلال الخبرة. وبهذا المعنى يكون التفكير عملياً بطبيعته، ومن ثم يمكن توجيهه - فى رأى ماركس على الأقل - توجيهاً أكثر عقلانية نحو تحسين نوعية الحياة الإنسانية تحسباً جذرياً.

وقد أشار جوف إلى مفهوم الاغتراب عند ماركس كمجال رئيسى من مجالات الخلاف بينه وبين ميد. ومن المؤكد أن ميد لم ينتابه إحساس خاص بأن تقسيم العمل فى المجتمع الرأسمالى يؤدى إلى الاغتراب، والحقيقة إنه كان أميل إلى الزعم بأن عملية التجزؤ الإنتاجى يمكن أن تستمر دون أن تصيب أحداً بالألم. ومع ذلك فقد كان لدى ميد إحساس قوى بالطريقة التى يمكن بها للنظم الاجتماعية أن تكبح الفردية، وهو الإحساس الذى يتفق مع النظرية الماركسية - الفيبيرية عن الاغتراب. ويوضح الاقتباس التالى ما نقصده:

"إن النظم الاجتماعية المستبدة والجامدة والأكثر محافظة - مثل الكنيسة - ... من خلال معاداتها للتقدمية تمحق الفردية وتمحوها، وتثبط أى تفكير وسلوك متميز أو أصيل فى ذوات أو شخصيات الأفراد الذين يذعنون لها..."

(Mead, First Published 1934, 1-962)

وليست هناك مبالغة أن نخلص - إذن - إلى أن إطار التحليل الاجتماعي عند ميد يمكن تكيفه ليسع مفهوم الاغتراب.

وإذا كانت المناقشة السابقة قد أشارت إلى أن الفكر الاجتماعي عند ميد ينسجم مع الأبعاد البنائية للنظرية الماركسية بل ويكملها، فإن ميد أقرب إلى التحليل على مستوى الوحدات الصغرى، وماركس أقرب إلى التحليل على مستوى الوحدات الكبرى. وقد طور ميد إطاراً تصورياً تفصيلياً للتفاعل على المستوى المصغر، وطور ماركس إطاراً للتحليل النظامي والصراع الطبقي، هذا على الرغم من أن هناك مجالاً للمزاوجة بين هذين المستويين للتحليل. وحتى إذا قبلنا بأن هاتين النظريتين أكثر فعالية عند مستويات مختلفة من التحليل الاجتماعي، وأن ذلك سوف ينعكس على النظرية والبحث، فإنه من الخطأ أن نعرض لهاتين النظريتين وكأنهما متضادتين، وقد أوضحت المناقشة السابقة أنهما ليسا كذلك.

الظاهراتية والمنهجية الشعبية

الظاهراتية

كانت الظاهراتية في الأصل نظرية فلسفية، ولكنها دخلت إلى علم الاجتماع خلال المنهجية الشعبية. وقد رغب إدموند هوسرل - أكثر فلاسفة الظاهراتية نفوذاً - في تطوير فلسفة تظهر الفعل الإنساني في سياق معاني الفاعلين بدلاً من كونه محصلة مؤثرات "خارجية". ويزعم هوسرل أنه لا يوجد واقع موضوعي خارج عنا قابل للمعرفة، بل إن كل فرد يصنع واقعة بتصنيف أو فرز خبراته الشخصية. ومن ثم فإن ما قد يفسره فرد ما بأنه "مرض"، قد يفسره آخر بأنه عقاب "روحي"، ويفسره ثالث بأنه مجرد سوء حظ. وتظهر المعاني أو التعاريف المشتركة للواقع عندما تتفق التعاريف الفردية أو الذاتية.

ويرى هوسرل أن أحد الأغراض الأساسية للفلسفة هي تحديد المعاني المشتركة في جماعة ما، وكيفية ارتباط هذه المعاني بالثقافة الأشمل. وعودة إلى المثال السابق نجد أن تفسير خبرة شخصية على أنها "مرض" أو "علة" هو ما يميز الثقافة العلمية الغربية، في حين نرى أن التفسير في ضوء العقاب الروحي يناسب بدرجة أكثر الإطار المرجعي السحري.

وقد قام الفريد شوتز (١٨٩٩ - ١٩٥٩) بتطبيق مدخل هوسرل على علم الاجتماع وتطويره. وعلى غرار ما فعله هوسرل، أغفل شوتز قضية ماهية الواقع الموضوعي،

وركز على كيفية قيام الفاعلين الاجتماعيين بإضفاء معنى على خبراتهم وتصنيفها، بما فى ذلك تأويل أفعال الآخرين. وهذا – بالنسبة له – هو الغرض من علم الاجتماع، وليس تفسير السلوك الإنسانى باعتباره نتاج أسباب خارجية بعينها.

ولم يزعم شوتز أن الفاعلين يبتدعون المعنى ويؤولونه دون الإشارة إلى الآخرين. وعلى العكس من ذلك يرى شوتز أن الجماعات – بمرور السنين – تنتج رصيذاً مشتركاً من المعانى التى تمكن أعضائها بدرجة أو بأخرى من أن يفهموا بعضهم بعضاً ويتوقعوا أفعالهم.

ويعد مفهوم التصنيف Typification مفهوماً محورياً فى فهم فكرة رصيد المعانى المشتركة. والتصنيف فئة تصورية تستخدمها جماعة ما لوصف الظواهر (الأشياء) المتشابهة بدرجة تكفى لوضعها فى نفس المجموعة الوصفية. ومن ثم تعرف الأكثرية فى الثقافة البريطانية من يصنف على أنه "حارس مرمى" فى مقابل "ظهير الدفاع"، أو ما يصنف على أنه "مقاتل من اللحوم" فى مقابل "مقاتل من الحلوى".

وتختلف التصنيفات باختلاف الثقافات. ومن ثم نجد أنه إذا كان الأمريكيون البيض يصنفون التغيرات الموسمية السنوية إلى أربع مجموعات (تصنيفات)، فإن عديداً من القبائل الهندية الأمريكية تصنف هذه التغيرات إلى ما يقرب من ١٨ مجموعة. وتعكس هذه التصنيفات المختلفة اختلاف طريقة فهم أو تفسير الظواهر. وتمكن التصنيفات المشتركة داخل جماعة ما أعضائها من فهم بعضهم بعضاً وتأسيس حياة اجتماعية منظمة.

ويميز شوتز بين المنظور الطبيعى لعضو الجماعة الاجتماعية والمنظور الظاهراتى للملاحظ الخارجى (الذى يتبنى منظوراً ظاهراتياً). ويصف مصطلح "الطبيعى" المدخل الفطرى والبديهى الذى يسلم به أعضاء جماعة اجتماعية معينة. وينظر هؤلاء الأعضاء إلى أسلوب حياتهم على أنه "عادى"، وهم بصفة عامة غير واعين بالمدى الذى يعكس به هذا الأسلوب خبراتهم الذاتية فقط.

وعلى النقيض من ذلك يسعى الملاحظ الخارجى (الذى يتبنى منظوراً ظاهراتياً) إلى وصف أسلوب حياة جماعة ما. ومع هذا، فهو يقوم بهذه المهمة من زاوية الفاعلين لا من زاوية منظور تفسيرى خارجى. وهذا يؤدى إلى اختيار منهجية مختلفة عن منهجية علم الاجتماع البنائى. إذ يميل أنصار الظاهراتية – من أجل الاقتراب من الفاعلين الاجتماعيين – إلى المناهج الكيفية مثل الملاحظة بدلاً من المناهج الكمية.

ويستحق شوتز أن نقارنه بكل من فيبر ومشايعى التفاعلية. وفى تقدير شوتز أن فيبر

أخفق فى تطوير مدخل سوسولوجى يعتمد اعتماداً كلياً على معانى الفاعلين الاجتماعيين. ويرى أن أنماط الفعل الاجتماعى عند فيبر بعيدة كل البعد عما يفكر فيه الفاعلون ويفعلونه، ومن ثم لا تشكل هذه الأنماط أساساً لعلم اجتماع تأويلى أصيل. وعلى نحو مماثل نجد أن مجموعة معاصرة من علماء الاجتماع ممن تأثروا بشوتز – وهم أنصار المنهجية الشعبية – يرون أن التفاعلية لم تؤسس علم اجتماع الذات، أى منظوراً سوسولوجياً يعتمد اعتماداً كلياً على الكيفية التى يخلق بها الفاعلون المعانى ويؤولونها ويشتركون فيها. وقد كان شوتز نفسه مفكراً نظرياً لا باحثاً تطبيقياً. إن الحكم على ما إذا كان مدخل شوتز قد أفلح فى وضع أساس لعلم اجتماع تأويلى وذاتى لابد أن يتم من خلال تقدير وإسهام مجموعة من علماء الاجتماع الذين أثار فيهم شوتز أعظم الأثر، ونقصد بهم أنصار المنهجية الشعبية.

المنهجية الشعبية

تأسست المنهجية الشعبية فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات على يد عالم الاجتماع هارولد جارفينكل. ومن المفيد أن نذكر فى جارفينكل على أنه هو الذى طبق عملياً المدخل الظاهراتى عند شوتز وطوره. وتعد المنهجية الشعبية – بعبارة بسيطة – هى علم الاجتماع الظاهراتى.

وقد أشرنا فى الفصل الأول إلى أن المنهجية الشعبية هى بمثابة محاولة لوصف الكيفية التى يفهم بها الأفراد وخبراتهم ويفسرونها. ونود أن نستطرد فى هذه النقطة قبل أن نعود إلى القضية الأعم: العلاقة بين المنهجية الشعبية والنظرية البنائية.

وهناك مفهومان يستخدمهما أنصار المنهجية الشعبية لابد من تقديمهما. وللأسف فإن كلا المفهومين يعكسان الإطناب الشديد الذى ارتبط بالمنهجية الشعبية، ولكن لا بأس من تعريفهما وتوضيحهما. وهذان المصطلحان هما: المنهج التوثيقى Documentary method والإشارية Indexicality.

أما المنهج التوثيقى فجميعنا يستخدمه، وهو يتضمن افتراض أن أى حدث أو مناسبة ما يمكن فهمها بالنظر إليها على إنها مثال أو وثيقة أو نمط عام. ولنأخذ مثلاً على ذلك من دراسة سيكوريل Cicourel عن الجُنَاح. فقد ينظر ضابط الشرطة إلى شاب بعينه فى سياق ما يعتبره خصائص للجانحين، وبناءً عليه يصنفه ضمن الطائفة العامة للجانحين، بمعنى أن ضابط الشرطة يتفاعل مع (أو يتأثر بـ) الشواهد "التوثيقية" مثل حلق شعر الرأس بالموسى أو الأذرع الموشومة. وقد يكون ضابط الشرطة على خطأ.

ويقصد بمفهوم الإشارية أن فهم أى موضوع أو حدث يمكن أن يتحقق فقط بربطه

ورده إلى السياق أو الظروف التي حدث فيها. ومن ثم فإن كلمة "خمسة" تُفهم كإجابة عن هذا السؤال: كم الساعة الآن؟، ولكن ليس كإجابة عن هذا السؤال: كم عدد اللاعبين في فريق الكريكت؟. وإذا وصلنا الاستمرار مع المثال الذى يروق لهارولد جارفينكل – مؤسس المنهجية الشعبية – فإن ضابط الشرطة يفهم مهرج السيرك فى سياق تصويره عن نمط الزى بين هؤلاء المهرجين، وليس فى سياق حملة على المخدرات.

ويستخدم منظرو المنهجية الشعبية مفهوم الانعكاسية Reflexivity للإشارة إلى العلاقة المتبادلة التى تصل إلى حد التكافؤ بين المعنى والحدث. ويعد مفهوم الانعكاسية المفهوم المحورى الثالث من مفاهيم المنهجية الشعبية. ونظراً لأن منظري المنهجية الشعبية يحترمون تفرد المعنى الشخصى وصعوبة التنبؤ به، فإنهم يدرسون النشاط الاجتماعى بالارتداد إلى السياق الذى حدث فيه والأوصاف اللفظية المتعددة (ناقلات المعنى) التى يقدمها عنه الفاعلون الاجتماعيون. ومن الضرورى أن تكون الدراسة من ذلك النوع العميق والتفصيلى على نطاق محدود مثل دراسة سيكوريل عن التنظيم الاجتماعى لجنوح الأحداث، وبحث أتكسون عن أسباب الانتحار.

تعقيب على المنهجية الشعبية

يمكن توجيه ثلاثة انتقادات إلى المنهجية الشعبية: **أولهما:** أن أنصار المنهجية الشعبية – وهم يحصرون أنفسهم فى وصف معانى الفاعلين الاجتماعيين دون تفسيرها – يغمضون الطرف عن سؤال مهم، وهو: لماذا يحاول أعضاء جماعة ثقافية معينة تبرير الطريقة التى يتصرفون بها؟. وسوف يتضح من النقطة التالية أن هذا السؤال يصبح أكثر إلحاحاً عندما يوضع فى سياق مقارنة.

وثانى هذه الانتقادات أنه من المشكوك فيه أن تكون المنهجية الشعبية مُبدعة كما يدعى أنصارها. فهى لا تختلف كثيراً عن الأنثروبولوجيا الثقافية الوصفية التى تولى عنايتها بملاحظة وتفسير الحياة الاجتماعية فى جماعة ثقافية معينة. ومن الحتمى أن تفرض الأنثروبولوجيا الثقافية المقارنة هذا السؤال: لماذا تتصرف الجماعات الثقافية بطريقة مختلفة؟ وهو سؤال كلاسيكى فى علم الاجتماع. ولا يحاول أنصار المنهجية الشعبية الإجابة عن هذا السؤال، لأنه يتضمن تفسيرات لا يشترك فيها أعضاء الجماعات الثقافية موضوع الدراسة.

وثالث هذه الانتقادات أنه على الرغم من التزام منظري المنهجية الشعبية بوصف الحياة الاجتماعية من خلال المعانى الذاتية، فإن مفاهيم مثل التصنيف والمعانى المشتركة تتشابه مع المفاهيم البنائية: المعايير والقيم والمعتقدات. ومن الناحية الافتراضية يعد

التأثير الخارجى للتنشئة الاجتماعية جزءاً من عملية يقبل بواسطتها الأفراد بدهاءة التصنيفات والمعانى المشتركة. وهذه قضية أخرى أخفق منظرو المنهجية الشعبية فى التصدى لدراستها.

لقد قدمت المنظورات البنائية والتفاعلية الرمزية نظريات عن النظام والبناء الاجتماعيين. ويكمن النظام والبناء – بالنسبة للمنظورات البنائية – فى الإطار المؤسسى الذى يقصر أعضاء المجتمع، أما بالنسبة للتفاعلية الرمزية فإن النظام يوجد من خلال ابتداء المعانى المشتركة. وتراجع منظرو المنهجية الشعبية خطوة إلى الوراء بدراسة كيفية تعايش الأفراد مع الأوضاع القائمة (سواء أكانت أوضاعاً منظمة أم لا) وفهمها. وفى رأى أن هذا الاهتمام لا يحتاج إلى أن يكون منسجماً مع المنظور البنائى. وإذا افترضنا أن الأنماط الأساسية والافتراضات البديهية التى يبحث عنها الأفراد وتعززها الخبرة (الانعكاسية) أنماط مشتركة على نطاق واسع، فإن هذه الحقيقة تشكل التفاعل. وإذا لم يكن الأمر كذلك عمت الفوضى المجتمع.

اليمين الجديد: بيتر سوندرز

تلخص الأعمال الحديث لبيتر سوندرز – إذا نظرنا إليها نظرة كلية – نظرية شمولية لليمين الجديد فى علم الاجتماع. ويزعم سوندرز أن أكثر أنماط المجتمع كفاءة (وعداً) هو الذى ينهض على السوق الحرة وتكافؤ الفرص. ولم يكن سوندرز مبدعاً فى هذا الجانب، فهو يعكس فكر عالمي الاقتصاد النمساوى فريدريك فون هايك، والأمريكى ميلتون فريدمان. ويذهب هؤلاء الثلاثة إلى أن التكافؤ فى الوصول إلى السوق الحرة يُمكن الأفراد من التنافس على أساس من القدرات والخصائص. وتعمل المكافآت على التنافس الناجح بمثابة حافز على الجهد والإنتاجية من جهة، وتقدير للعمل الشاق والجدارة من جهة ثانية. وتعد السوق الحرة أو النظام الرأسمالى فعلاً من الناحية الاقتصادية لدرجة تؤدى إلى رفع المستوى العام للمعيشة باضطراد، وليس مستوى معيشة الناجحين وحدهم.

وعلى الرغم من التزام سوندرز بتكافؤ الفرص، فإنه يؤمن إيماناً صارماً باللامساواة الطبيعية أو البيولوجية، بمعنى أن الأفراد موهوبون بقدرات عقلية وغيرها بطريقة مختلفة ومتفاوتة. وعلى النقيض مما يجمع عليه معظم العلماء الاجتماعيين، يرى سوندرز أن نظام التدرج الطبقي غير المنصف فى بريطانيا هو تجسيد عادل للامساواة الطبيعية بين الناس. ويزعم أن المجتمع البريطانى مفتوح إلى درجة تكفى لأن يتمكن ذوو الأصول الطبقيّة الدنيا من الحراك صاعداً، وأن النسبة المحدودة للحراك الهابط بين

الطبقات العليا يمكن تفسيرها بذكائهم الحاد. ومن ثم يؤكد سوندرز أن بريطانيا هي بالفعل مجتمع الجدارة Meritocracy. وهذا يجره إلى خلاف حاد مع علماء الاجتماع الماركسيين والفيبريين الذين يرون أن هذا أبعد كثيراً عن الواقع.

ولا يؤمن سوندرز - على غرار غيره من مفكرى اليمين الجديد - بتكافؤ الإنتاج، وهو الموقف الذى يكون فيه لكل فرد فرصة متكافئة فى الوصول إلى نفس الموارد المادية والثقافية. وهناك قلة محدودة من المنظرين الذين سلموا بالمساواة التامة بهذا المعنى، حتى أن ماركس نفسه قال بمبدأ "من كل حسب عمله، ولكل حسب حاجته".

والحقيقة أن الإدعاء الحقيقى حول المساواة المادية والثقافية إدعاء يتعلق بنطاقها: أى قدر قليل أو كثير مسموح للفرد أن يناله مقارنة بالآخرين؟. ويرى سوندرز واليمين الجديد بصفة عامة أن اللامساواة المادية مرغوبة ووظيفية اجتماعياً. ويعزز هذا التحليل ادعائهم بأن تدخل الدولة لتحقيق مزيد من المساواة المادية أو الثقافية أو كليهما معاً له نتائج عكسية ثابتة. ومع ذلك لم يحتج اليمين الجديد على السياسات التى تتعامل مع الفقر "الحقيقى"، على الرغم من توجيه انتقاد لها بأنها غير ملائمة فى هذا الصدد.

وقد استعرض سوندرز - فى كتابه: "الرأسمالية: تدقيق اجتماعى" (١٩٩٥) - الوضع الحالى للنظام الرأسمالى، وتنبأ لها بأن تكسب الرهان. وقام سوندرز باختبار النظام الرأسمالى فى سياق ثلاث قضايا ملحة:

- هل فى مقدور النظام الرأسمالى أن يجلب الرخاء للبلاد الفقيرة؟
- هل يمكن أن يستمر النمو الرأسمالى دون مزيد من التدهور البيئى الخطير؟
- هل الرأسمالية تشكل إطاراً أفضل من الأنظمة الاجتماعية الأخرى لتحقيق السعادة الإنسانية؟

وكانت إجابة سوندرز باختصار على هذه الأسئلة الثلاثة: نعم، نعم، نعم. وكانت الركيزة الأساسية التى قامت عليها ادعاءات سوندرز هى أن الرأسمالية هزمت الاشتراكية. فالرأسمالية هى "اللعبة الوحيدة فى المدينة" الآن، والأمر الأهم أن النظام الرأسمالى حقق نتائج إيجابية فى هذه المجالات الثلاثة السابقة. ومع ذلك لم يقل سوندرز بأن الرأسمالية سوف تحقق حتماً هذه النتائج فى غياب جهد الفرد واختياره الأخلاقى. وفى رأيه أن السوق الحرة ليست إلا جانباً واحداً فقط من جوانب فلسفة اليمين الجديد. وهناك جانب آخر مكمل له يعبر عنه سوندرز بقوله:

"تحتاج الرأسمالية - مثل أى نظام آخر اجتماعى / اقتصادى - إلى إطار

مشترك تعمل من خلاله: تحتاج إلى أفراد محفزين للعمل بطرائق معينة. وتحتاج إلى رموز تضيفى شرعية على اللامساواة فى الأوضاع الناجمة عن التعاملات التجارية فى السوق. وتحتاج إلى مجموعة أساسية من القيم التى تربط الناس معاً بروابط من الالتزام المتبادل والمسئولية الاجتماعية. وقد اعتقد المفكرون الليبراليون فى القرن التاسع عشر مثل جون ستيوارت ميل بأن هذه الأخلاق تكون مضمونة فى مجتمع مؤلف من أفراد أقوياء وأحرار، لأنه لم يكن يؤمن بأن الكائنات الإنسانية المتعلمة والرشيده تخفق فى فهم كيف أن حرية الفرد تعتمد على احترام حرية الآخرين، وأن المصلحة الذاتية لكل فرد تستوجب الاعتراف بالواجبات والالتزامات الاجتماعية من قبل الجميع".

(Saunders, 1990: 119)

وبعبارة دقيقة فإن سوندرز يقول أنه ضماناً لتحقيق النزعة الفردية الرأسمالية والمصلحة الذاتية، فمن الضرورى على الناس أن يؤمنوا بوجود العمل امتثالاً للنسق (الدافعية)، والتعرض للإشارات الثقافية (الرموز)، وأن اللامساواة صحيحة (مشروعة) اجتماعياً، بمعنى أن البعض لديه ممتلكات سلعية معينة والبعض الآخر لا يملكها؛ والمشاركة فى نسق عام للقيم (أبرز هذه القيم الاحترام المتبادل من أجل توازن المصلحة الذاتية). ويرى سوندرز أن جون ستيوارت ميل اتخذ هذا الموقف أيضاً.

ومن النقاط الأساسية حول منظور سوندرز أنه منظور سوسولوجى أصيل: فالإطار الذى حدد فيه ما تحتاجه الرأسمالية إطار مجتمعى (أو اجتماعى) بدرجة واضحة لا لبس فيها. فهو يقول ما يتفق معه عليه علماء الاجتماع، وهو أنه ما لم يتم تنشئة الناس على قيم وسلوكيات مشتركة، فسوف تكون هناك فوضى اجتماعية، ولن يكون هناك مجتمع. وهذا ما يميز سوندرز عن المتطرفين من منظرى اليمين الجديد الذين يزعمون بأن هناك فعلاً فردياً، ولكنه لا يوجد شئ اسمه مجتمع.

والانتقاد الرئيسى الموجه إلى سوندرز هو أنه أظهر اهتماماً ضئيلاً بالحاجة إلى الطبيعة المخططة والقانونية والمؤسسية لمعظم المجتمعات الرأسمالية الحديثة، وظل يستمر فى ادعائه - بنبرة ليبرالية كلاسيكية تعود إلى القرن التاسع عشر - بأن الأفراد ينبغى أن يحترموا بعضهم بعضاً، لأن هذا هو الشئ الصحيح. والحقيقة أن سوندرز كان متشائماً للغاية من أن كثيراً من الناس فى المجتمع المعاصر لا يقومون بالشئ الصحيح، وأن هذا المجتمع فى انحطاط. ولم يكن لديه ما يقوله أكثر من أن الناس عليهم بذل ما فى

وسعهم. ومع ذلك، ففي كل المجتمعات الحديثة (حتى الآن) نجد أن كلاً من العلاقات الإنسانية (مثل الزواج/الطلاق) والحاجات الإنسانية (مثل الفقراء) منظمة ومؤسسة بدرجة عالية. ومن الصعب أن نتصور ما سيكون عليه الحال في عالم تُترك فيه الأمور لتقدير الناس، ويعجز هؤلاء الناس عن الاتفاق (بشأن الطلاق مثلاً) أو لا يساعدون بعضهم بعضاً (كالفقراء مثلاً).

ومرة ثانية يمكن القول بأن القضية الحقيقية المتعلقة بالتشريعات والتخطيط الحكومي في المجتمعات الحديثة هي التوازن الأمثل بين القيود الاجتماعية الخارجية (التخطيط، القواعد، المؤسسات) والحرية الفردية. وثمة ادعاء بأن إطار الدولة الذى نشأ فى القرن العشرين يعد الآن جزءاً لا يتجزأ من الإطار المجتمعى الذى يراه سوندرز ضرورياً. ومن المؤكد أن سبعة عشر عاماً من إيديولوجية اليمين الجديد وحكم المحافظين قد أخفقت فى الحد من هيمنة الدولة (مع أنها أفلحت فى إعادة ترتيبها من جديد).

المعركة بين الاتجاهات النظرية: من السبعينيات إلى الثمانينيات

اتضح لنا مما سبق أن تشارلز رايت ميلز حاول فى كتاب له نشره عام ١٩٦٠ أن يلخص ما اعتبره "التراث الكلاسيكى" فى علم الاجتماع. ولم يكن ميلز - وهو يقوم بهذه المهمة - يسعى إلى فرض نموذج تفصيلى للمجتمع على زملائه؛ فهو يعلم أن هذه النماذج مختلفة وسوف تظل هكذا. ومع ذلك فهو يرى أن المنظرين الكلاسيكيين انكبوا على اهتمامات أساسية مشتركة.

وبعد وفاة ميلز (عام ١٩٦٢) برقع قرن أصبح علم الاجتماع مشهوراً بمعاركه النظرية الداخلية. وعلى الرغم من حدوث بعض التقدم النظرى الفعلى خلال تلك الفترة؛ فقد اتسم الجدل فى معظمه بتكرار لا متناه عن مثالب ومزايا الماركسية والوظيفية والتفاعلية الرمزية. وقد أطلق ميلز بنفسه بعضاً من الشرارات الأولى فى هذا الجدل فى هجومه المعروف على ما أسماه "النثر النظرى الطنان" عند تالكوت بارسونز (قام ميلز بترجمة كتاب "النسق الاجتماعى" لبارسونز إلى عبارات واضحة موجزة). ولو كان ميلز على قيد الحياة، فمن المشكوك فيه أنه كان سيدلى بدلوه كثيراً فى هذا الجدل الدورى بين الاتجاهات النظرية.

وقد برهن الجدل بين الاتجاهات النظرية الرئيسية الثلاثة - كما كان متوقفاً - على أنه وسيلة ناجعة لتدريس مبادئ علم الاجتماع على مستويات متعددة. ومع ذلك فقد كان من تأثير هذا الجدل إبطاء التقدم النظرى فى علم الاجتماع. وقد انصف المشتغلون

بتدريس علم الاجتماع كلاً من ماركس وفير و دور كايم، ونال هؤلاء الثلاثة احتراماً جليلاً من الأجيال اللاحقة. وإذا كان حقيقياً أن إحياء علم الاجتماع الماركسي في الستينيات والسبعينيات، وكذا مجموعة الدراسات الامبيريقية التي استلهمت التفاعلية الرمزية تمثل إنجازاً ملموساً فى سياق النماذج الموجودة بالفعل، فقد أغفل علماء الاجتماع بعضاً من المسائل "الكبرى" الجديدة.

الحدثة المتأخرة والمسائل الجديدة لعلم الاجتماع: التسعينيات

على الرغم من أن علم الاجتماع أصبح - إلى حد ما - محركاً لكل ضروب الفكر المتعلق بما بعد الحدثة، فإن نظرية ما بعد الحدثة تسللت منذ ظهورها إلى علم الاجتماع على حين غرة. وقد نظر مؤسسو هذه النظرية - فوكوه، بودريار، ليوتار - فى العلوم المختلفة، ومع ذلك فقد كانوا فلاسفة أكثر منهم علماء اجتماع. وإذا كانت نظرية بيل عن مجتمع ما بعد الصناعة قد تبلورت داخل العلم الاجتماعى، فإن هذا المفهوم أخذ بعض الوقت حتى اكتسب أهميته. وقد كانت نظرية بيل نظرية مبكرة لافتة للنظر مفادها أن ثقافة المعلومات سوف تصبح الجانب الأهم من الاقتصاد نفسه فى دفع المجتمع إلى التغيير.

ومنذ ذلك الحين تغلغت نظرية ما بعد الحدثة إلى جوانب عديدة فى الفكر السوسيولوجى. ويتعين علينا أن نكرر المسائل الجديدة - أو المتجددة - التى دفعتها تلك النظرية إلى المقدمة.

المسائل الرئيسية للحدثة المتأخرة (أو ما بعد الحدثة)

- (١) هل تمثل ما بعد الحدثة فترة يكون فيها ثمن التقدم - أى التدمير البيئى - أكثر أهمية من تحقيق مزيد من التقدم المادى؟
- (٢) هل حلت قضايا الثقافة / المعرفة محل القضايا الاقتصادية والمادية كأحد الملامح المميزة لمجتمع ما بعد الحدثة؟
- (٣) هل حدثت العولمة بالفعل، أى هل يوجد رأى حاسم فى ماهية قوى الاتصال التى أنتجت مجتمعاً كونياً؟
- (٤) هل تضاءلت أهمية المسائل الطباقية مقارنة بمسائل النوع الاجتماعى، والسلالة / العرق، والجنسية وغيرها من الأسس الأخرى للهوية؟
- (٥) هل أضحت الفراغ / الاستهلاك أكثر أهمية من العمل / الإنتاج؟

وإذا كانت هذه المسائل جديدة إلى حد نسبي، ومثيرة للجدل، فهل تعبر عن تغير جذري في محور اهتمام علم الاجتماع؟

أنا أزعج أن جوهر المنظور السوسيولوجي بقي كما هو دون المساس به، بمعنى البحث في علاقة الفردى الاجتماعى فى سياق مقارن بلغة ميلز. وقد يكون الشىء الوحيد الذى لم يشملته تحديد ميلز - ولم يكن يتوقعه - هو إلى أى مدى ينظر كثير من علماء الاجتماع اليوم إلى المجتمع الكونى - بدلاً من المجتمع القومى - على أنه الإطار المرجعى الأوسع لهم. وثمة اتجاه حثيث إلى تجاهل الدولة القومية والمجتمع. ويعنى "المجتمع" الآن تفاعل مستويات متعددة من القوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، (ليست مرتبة حسب أهميتها بالضرورة)، ويتفاعل الفرد مع واحدة منها أو جميعها.

وتشير أهمية الإطار المرجعى الكونى إلى اتجاه التحول الذى حدث - كما يرى منظرو ما بعد الحداثة - مع أفول الاتجاهات الماركسية والليبرالية وظهور مجموعة جديدة من الاهتمامات التى تعكسها - إلى حد ما - المسائل الخمسة السابقة. وهذا المستوى من الاهتمام أكثر وضوحاً من المستوى الذى أشار إليه ميلز. وإذا كان ميلز قد وصف الحدود الرئيسية لعلم الاجتماع، فإن منظرى ما بعد الحداثة يسألون أسئلة مختلفة تتعلق بعالم يرونه تغيراً تغيراً ضخماً عن العالم الذى واجهه ماركس وفيرر ودوركايم.

علم الاجتماع الجديد

ميشيل باريت

نالت ميشيل باريت شهرة بين أولئك الذين حاولوا دمج آراء نظرية ما بعد الحداثة فى علم الاجتماع. ومع رفضى لما ينطوى عليه ذلك من ضرورة إحلال علم الاجتماع "الجديد" محل علم الاجتماع الراسخ (فيرر، ماركس، دور كايم)، فليس ثمة شك فى أن باريت تنوى أن تكون راديكالية ومتحدية.

وتطرح باريت خمس قضايا فرضية لعلم الاجتماع الجديد، وهى:

- النشاط الاجتماعى يتم فى سياق كونى.
- الهوية والذات مفهومان محوريان فى علم الاجتماع.
- يتم إنتاج المعنى الاجتماعى ثقافياً.
- القوة والأفضلية لها مصادر متعددة.

• الأخلاق تحدد الاختيارات السياسية.

ولا تدعى باريت أن هذه القضايا الفرضية من إبداعها، ولكن المهم هنا أنها جمعت هذه القضايا معاً لتشكل إطاراً مؤقتاً لعلم اجتماع جديد. وتعكس القضية الخامسة انشغال باريت بما يقوم به علماء الاجتماع – فى الغالب – باستدلال الحقائق السياسية من منظوراتهم السوسولوجية. وما تريد أن تشدد عليه باريت هو أن قيم الشخص أو أخلاقه هى ما ينبغي أن تُكون أساس الاختيارات السياسية. وتحذر باريت من استخدام علم الاجتماع لأغراض سياسية متحيزة.

وتستمر باريت لتطرح ثلاث أفكار (أو انتقادات) أساسية لما بعد الحداثة (أو ما بعد البنيوية كما تفضل هى) ترى أنه يمكن تطبيقها تطبيقاً مفيداً على علم الاجتماع الراسخ. وتوجه نظرية ما بعد الحداثة انتقاداتها إلى الافتراضات الشائعة التالية فى علم الاجتماع:

- العمومية
- المادية
- الرشد

وهى الافتراضات التى جعلها فوكوه وليوتار تكتسب ذبوعاً وشهرة فى المناقشات الدائرة فى علم الاجتماع. وتحتاج هذه الافتراضات إلى النظر فيها فى سياق مراجعة شاملة لعلم الاجتماع مثل المراجعة التى قامت بها باريت.

ويتفق كثير من علماء الاجتماع اليوم على أن الهدف المتعلق بنظرية عامة واحدة فى علم الاجتماع (النموذج الموحد) لا هو بالهدف المرغوب فيه، ولا هو بالهدف الذى يمكن تحقيقه. ولقد فشلت المنظورات الكبرى فى علم الاجتماع فى تطوير التنوع، وصعوبة التنبؤ، وتعقد التغيير. وتستشهد باريت بمثال على ذلك هو أن النسوية لا يمكن أن نتوقع منها أن تخرج "صوتاً واحداً" باسم جميع النساء، فالنساء السود يتكلمن بطريقة مختلفة عن النساء البيض.

ويرتبط رفض باريت للعمومية باحتجاجها على "الجوهرية" Essentialism. إذ لا توجد هويات (نوعية Gender، أو سلالية أو طبقية) جوهرية أو ثابتة وغير متغيرة يمكن إحكامها وحمايتها وتدعيمها. وهذه الهويات العامة سوف تستمر – بلا شك – كنقاط مرجعية حيوية بالنسبة للأفراد والجماعات الذين يصيغون هم – وليس علماء الاجتماع – معانيها والترابط بينها.

كما يتفق كثيرون مع اعتراض باريت على هيمنة المنظور المادى فى علم

الاجتماع. وتربط باريت هذا المنظور بالاقتصادية الماركسية الفجة التي تشدد على أن الاقتصاد هو أكثر أجزاء المجتمع تأثيراً. وتقر باريت بصحة رأى فوكوه الذى عكس التسلسل الهرمى عند ماركس، حيث وضع فوكوه الثقافة فى مركز العمليات الاجتماعية. وينتهج هول S.Hall مدخلاً أقل استقطاباً، حيث يرى أن الثقافة تتقدم الآن نحو الصدارة فى علم الاجتماع اليوم بأسرع من البناء، وهو وضع يبدو أنه يروق لـ"هول". ومع هذا، فإننى اتفق معه إذا كان مدلول آرائه هو أن العلاقة بين الثقافة والبناء يمكن أن تتغير.

وتقتبس باريت مرة ثانية من فوكوه فى نقدها للرشد. فقد كشف فوكوه – شأنه فى ذلك شأن كثيرين غيره – عن الجانب المظلم من الرشد المعاصر بما فيه القسر الناشئ عن المشروع الليبرالى للإصلاح والنظام والتحسين. واستشهدت باريت بدراسة بومان عن "المحرقة" كمثال على الرشد الذى يفيد – كوسيلة أخلاقية – الإنتاج البيروقراطى للإبادة الجماعية.

تعقيب على باريت

ركزت باريت فى إعادة تأطيرها لنظرية علم الاجتماع تركيزاً شديداً على جانب الثقافة بدلاً من البناء. وفى رأيها أن الهوية والذات والمعنى محور اهتمام علم الاجتماع، ويتم دراستها فى سياق الثقافة والفاعل لا فى سياق "المحددات" الاجتماعية – الاقتصادية. ويمكن القول بأن النزعة الاختيارية الإرادية الثقافية Cultural voluntarism تبخس من قدرة "أبنية القوة" على تحديد وتقييد الفرص الفردية والجماعية وتطويرها (عقليا وإبداعياً وعملياً). وسوف يتضح هذا الانتقاد عندما ننظر فى أحد الأعمال النظرية الحديثة لـ"ديريك لايدر".

ديريك لايدر والثنائية فى علم الاجتماع:

التحرك بالجدل خطوة إلى الأمام

اتجه كثير من الجدل فى علم الاجتماع إلى التأكيد إما على الحرية الفردية أو على الجبر الاجتماعى. وظل هذا الجدل يتسم أحياناً بالتكرار مع اتجاه المواقف إلى التشبث بهذا الجانب أو ذاك من تلك الثنائية. أضف إلى ذلك أن تكرار هذين الرأيين – مع إبراز تعارضهما – حال دون النمو التراكمى للنظرية والبحث فى علم الاجتماع.

واتخذت الوظيفية والماركسية – فى هذا الجدل – جانب الحتمية الاجتماعية أو البنائية، واتجهت التفاعلية الرمزية إلى جانب الحرية والمعنى الفرديين. وقد حاول فيبر أن يدمج هذين المنظورين فى نظريته عن الفعل الاجتماعى. وبالطبع كان فيبر هو الوحيد

الأكثر وضوحاً في محاولته للتوفيق بين الفردية والبناء الاجتماعي. وحاول علماء اجتماع آخرون بدرجات متفاوتة أن يتوصلوا إلى تفاهم مع وجهة النظر الأخرى.

وعلى الرغم من أن المعركة بين الاتجاهات النظرية في الستينيات والسبعينيات أظهرت التقسيم السابق بشكل كاريكاتيري (ساخر)، فقد كانت الاختلافات حقيقية بدرجة كافية. ومنذ السبعينيات ظهرت عدة محاولات لتجاوز الطبيعة الدورية لهذا الجدل. ومن أفضل المحاولات التي لخصت هذه الجهود كتاب "فهم النظرية الاجتماعية" (١٩٩٤) لمؤلفه ديريك لايدر.

وقبل أن نلقى إطلاله على إسهام لايدر بشكل تفصيلي، يجدر بنا أن نناقش في عجالة ما تدل عليه عبارة "النظرية الاجتماعية" في عنوان كتابه: فهم النظرية الاجتماعية. ويمكن القول بأن اختيار مصطلح "النظرية الاجتماعية" له مدلولان: أولهما أن كثيراً من الإسهامات المهمة لفهم المجتمع في الربع الأخير من القرن الماضي أتت من خارج علم الاجتماع، وثانيهما أن الحدود بين علم الاجتماع وعلوم أخرى بعينها أصبحت ضبابية، وهذا يمثل عودة إلى تقليد قديم عندما استفاد ماركس وفيرر في أعمالهما من عدد من العلوم الاجتماعية.

الثنائيات الرئيسية الثلاثة في النظرية الاجتماعية

يرى لايدر أن النظرية الاجتماعية اتجهت إلى الانتظام حول ثلاث ثنائيات رئيسية مترابطة (انظر شكل ٣-٣). ويمكن التفكير في كل عمود من العمودين بالجدول على أنه عناوين من المفاهيم المترابطة.

شكل ٣-٣

الثنائيات النظرية الرئيسية في علم الاجتماع

وحدات صغرى (مايكرو)	وحدات كبرى (ماكرو)
الفعل	البناء
الفرد	المجتمع

وقد لاحظ لايدر أن ثنائية الفرد / المجتمع ربما تكون أقدم الثنائيات، وهي تمثل إشكالية مستمرة تتعلق بالتوافق بين الاحتياجات الفردية والجمعية. وإذا كانت القضية في جوهرها هي الجدل المشار إليه سابقاً بين الحرية والحمية، فإن هناك خصائص أخرى للفردية (مثل القدرة على ابتداع المعنى) وللمجتمع (مثل توفير الفرصة) تدخل الجدل

حول تلك الثنائية.

وينظر لايدر إلى الفعل / البناء، والفرد / المجتمع على أنهما ثنائيات مترابطة ترابطاً وثيقاً. ومن مزايا استخدام الثنائية الأولى (الفعل والبناء) – بدلاً من الثنائية الثانية – أن الأولى تركز على التأثير المتبادل للنشاط الاجتماعي والسياق الاجتماعي الذي يحدث فيه. وبعبارة أخرى فإن الفعل جزء من نسيج البناء الاجتماعي. ومن هنا يستخدم لايدر هذين المصطلحين في هذه الثنائية على النحو التالي:

"يشير الفعل إلى قدرة الكائنات الإنسانية على أن تحدث اختلافاً في العالم ... ويشير البناء إلى العلاقات الاجتماعية التي توفر السياق أو الظروف الاجتماعية التي يقوم الناس بأفعالهم في ظلها".

(Layder, 1994: 5)

ويقول لايدر في تمييزه بين الفعل/ البناء والوحدات الصغرى/ الكبرى:

"إذا كان الفعل البناء يشير من حيث المبدأ إلى الملامح الصغرى والكبرى للحياة الاجتماعية، فإن التفرقة بين الوحدات الكبرى والصغرى تتعلق أساساً بالاختلاف في مستوى التحليل ونطاقه ... فعلى سبيل المثال تتصل الظواهر الصغرى بالجوانب الشخصية والخاصة للسلوك المباشر (الوجه للوجه) [مثل التصنيف الفئوي في قاعة الدراسة]، وتتعلق الظواهر الكبرى بالظواهر اللاشخصية التي تحدث على نطاق واسع (مثل علاقة النظام التعليمي بالاقتصاد)".

(Layder, 1994: 5-6)

ويعد تلخيص لايدر لهذه الثنائيات الرئيسية الثلاثة مفيداً في حد ذاته، إلا أن ثمة هدف آخر من الإشارة إليها هنا، وهو التمهيد لنظرية علم الاجتماع التي اهتمت بهذا الانقسام أو هذه الانقسامات بين تلك الثنائيات الاستقطابية (هذا على الرغم من اقتناع لايدر بأن ثنائية الفعل / البناء تشجع على تجسير العلاقة بينهما لا انقطاعها).

المدخل النظرية إلى الثنائيات

شكل 3 - 4

التشديد على الفعل أو البناء في الاتجاهات النظرية الراسخة في علم الاجتماع

البناء	الفعل	
--------	-------	--

✓	-	الماركسية
✓	-	الوظيفية
-	✓	التفاعلية الرمزية

يلخص الجدول السابق كيفية ارتباط بعض النظريات الاجتماعية الرئيسية بتلك الثنائيات التي أشرنا إليها آنفاً، وذلك بالاستفادة من تصنيف لايدر. ويمكن استخدام مداخل هذه النظريات إلى ثنائية الفعل / البناء كمؤشر عام على موقعها من الثنائيات بصفة عامة. وقد صنف لايدر المنظرين المعاصرين إلى فريقين: **الفريق الأول** الذي حاول أن يتجاوز الثنائيات بأن يلحمها معاً في كل متكامل، و**الفريق الثاني** الذي سلم بانفصال هذه الثنائيات، ولكنه حاول أن يربط بينها. وسوف نناقش بالتفصيل كلاً من إلياس وهابرماس. ويلى ذلك قائمة مختصرة بموقع بعض المنظرين المهمين.

تجاوز الثنائيات

فوكوه (نظرية ما بعد البنيوية): حاول فوكوه أن يتجاوز الثنائيات بتحليل الأساس الأوسط للممارسات الاجتماعية، وكيفية تعبيرها عن علاقات القوة.

إلياس (علم الاجتماع التشكيلي): نظر إلياس إلى المجتمع في ضوء أشكال أو سلاسل من العلاقات، ومن ثم لا تبدو الثنائيات ذات أهمية في هذا الصدد.

جيدنز (نظرية التشكيل البنائي): اتجه جيدنز إلى إحلال مفهوم الازدواجية محل مفهوم الثنائية. وهو ينظر إلى الفعل / البناء على أنهما متكاملان وليسا متعارضين.

الربط بين الثنائيات

بورديو (نظرية الممارسة الاجتماعية): حاول الربط بين الجوانب الاجتماعية والذاتية للحياة الاجتماعية.

هابرماس (النظرية النقدية): يذهب إلى أن الحياة اليومية أو الواقع المعاش يتقاطع (يُنظم، يتأثر بـ) مع عالم الأنساق العامة (الذى ينتجه ويشغله الخبراء مثل وسائل الإعلام).

المقابلة بين إلياس وهابرماس

يمكن لنا أن نقول المزيد عن محاولة نوربرت إلياس لتجاوز الثنائيات، ومحاولة هابرماس الربط بين ما أرتأه – على العكس من إلياس – مستويات متميزة ومتداخلة للنشاط الاجتماعي. وقد اكتفينا بذكر إلياس وهابرماس كمثالين على المدخلين السابقين

(تجاوز الثنائيات؛ الربط بين الثنائيات) نحو علم اجتماع أقل استقطاباً.

إلياس: نظرية التشكيل

وجه إلياس (١٨٩٧-١٩٩٠) نقداً لاذعاً لكل من الوظيفية والبنائية على السواء؛ لأنهما اعتبرا الأفراد أشياء مادية، وعالجا العمليات الاجتماعية معالجة ميكانيكية. وبدلاً من ذلك حاول إلياس أن يطور علم الاجتماع التشكيلي أو علم اجتماع العمليات الاجتماعية الذى يشخص الفردية تشخيصاً ملائماً. ولذلك فقد درس العمليات الاجتماعية بدلاً من النسق الاجتماعى الافتراضى الذى لم يره موجوداً خارج الناس. ويزعم إلياس أن التصور الشائع عن انقسام الفرد / المجتمع يحدث كجزء من عملية الحضارة - المحور الأساسى لاهتماماته البحثية. وقد تطورت عملية الحضارة كقيود عامة خارجية على السلوك، ثم يحل محلها بالتدريج تنظيم أخلاقى فردى داخلى. ويؤمن إلياس بأن على علم الاجتماع أن ينظر إلى السلوك الفردى على أنه جزء من سلاسل من التساند الاجتماعى. وكلما صارت هذه السلاسل أو الشبكات أكثر ابتعاداً عن الفرد، تصبح أكثر اصطفاً بالطابع اللاشخصى. ومع ذلك فهذه السلاسل أو الشبكات هى حلقات من الفعل وليست أنساقاً منفصلة عن الناس.

ويقر لايدر أن إلياس أنار لنا الطريق لفهم الفردية فى سياق تاريخى تطورى. ومع ذلك فهو يرى أن علم الاجتماع التشكيلي عند إلياس لا يبدو ملائماً على نحو تام على المستويين: مستوى الوحدات الصغرى ومستوى الوحدات الكبرى. ويضيف لايدر أن إلياس أغفل تعقد المعنى الذاتى وقوة المؤسسات على حد سواء.

هابرماس

فى الفترة التى شهدت هجوماً ضارياً على مشروع التنوير، ظل يورجين هابرماس مدافعاً ومؤمناً بإمكانية التقدم الفردى والإنسانى. والحقيقة أن هابرماس عمل حتى يُتِم مشروع التحديث. ويمثل مفهوم "الرشد الاتصالى" Communicative rationality المفهوم المحورى عنده، ويقصد به الطريقة التى ينشغل بها الناس فى تفاعلهم من أجل الوصول إلى الفهم. ويزعم هابرماس أن المقصد الأساسى للناس المتفاعلين هو الاتصال الفعال مع بعضهم بعضاً. ويحدث الفعل التعاونى على هذا الأساس. وهذه النزعة إلى تحقيق "الرشد الاتصالى" تخترق المجتمع كله الذى ينقسم بدوره إلى "عواالم" Worlds متميزة ولكنها متشابكة.

وقد أشار هابرماس إلى عالم الحياة Life-world (العالم [١]) والعالم التقنى للعلم بما فيه العلم الاجتماعى (العالم [٢])، وكل عالم يستعمل محكات مختلفة للصدق فيما

يتعلق بالرشد الاتصالي. ويقدم لنا قاموس بنجوين لعلم الاجتماع تفرقة واضحة بين هذين العالمين:

"يشير عالم الحياة إلى عالم الحياة اليومية كما يعايشه كل رجل وامرأة. وبالنسبة لعلم الاجتماع الظاهراتي ... فإن عالم الحياة هو الواقع الأسمى والموضوع الرئيسي للبحث في علم الاجتماع. وتتمثل خصائصه الأساسية في أنه بلا مشاكل ومُسلّم به، ومن ثم يمكن مقابله بعالم العلماء وعلماء الاجتماع الذي لا يتم فيه التسليم بالأشياء المادية والتفاعلات الاجتماعية".

(Penguin Dictionary of Sociology: ٢٣٨)

وقد حاول هابرماس أن يربط عالم الحياة بالمجتمع كنسق اجتماعي (العالم [٣]). ويزعم - شأنه في ذلك شأن جينز الذي اقتبس من هابرماس في هذه النقطة - أن كثيراً من الوظائف تنفصل عن العالم المعاش ويضطلع بها النسق الاجتماعي. ولذلك فإن عديداً من الوظائف الاقتصادية والسياسية التي كانت تتم داخل القرابة اضطلعت بها المؤسسات العامة. ويضيف هابرماس أن عالم الحياة لم يفقد وظائفه فحسب، بل يستعمره النسق الاجتماعي باضطراد من خلال وسائل الإعلام والنزعة الاستهلاكية إلى حد كبير. وينظر هابرماس إلى الحركات الاجتماعية الجديدة على أنها محاولة لاستعادة النوعية المفقودة للحياة بما في ذلك الحقوق والحريات الشخصية والسياسية.

وعلى الرغم من تأييد لايدر للتفرقة التي أقامها هابرماس بين المستويات الصغرى (عالم الحياة) والكبرى (النسق الاجتماعي)، ومحاولته الربط بينهما، فإنه - أي لايدر - يشعر بأن هابرماس يميل إلى دمج عالم التفاعل اليومي في السياق الاجتماعي الأكبر. ويرى لايدر أن دراسة جوفمان عن "نظام التفاعل" Interaction order ربما توفر مستوى التحليل الضروري لهذا الربط.

الخلاصة

يفضل لايدر حل مشكلة الفاعل / البناء وما يرتبط بها من أشكال أخرى للاستقطاب من خلال قبول التفرقة الموجودة وصياغة الروابط بينها. وبعبارة أخرى كان لايدر مؤيداً بصفة عامة لمدخل هابرماس. ومع ذلك فقد كان للحل الذي طرحه منظرو ما بعد الحداثة - وهو تجاوز أو دمج المفاهيم الاستقطابية السابقة - أكبر الأثر في السنوات الحديثة. وسوف نناقش فيما بعد نظرية ما بعد الحداثة بقدر من التفصيل.

النزعة التصورية الاجتماعية: فيفيان بور

يمكن تسمية أنصار المداخل النظرية السابقة بصفة عامة بـ"أصحاب النزعة التصورية الاجتماعية" Social Constructionists. ولقد كان قبول هذا المدخل على نطاق واسع فى علم الاجتماع (والعلوم الاجتماعية الأخرى خاصة علم النفس) أهم التطورات النظرية فى السنوات الحديثة. وسوف نقدم أولاً موجزاً واضحاً عن النزعة التصورية الاجتماعية Social Constructionism، ثم بعض التعقيبات الإضافية عليها.

تورد فيفيان بور النقاط الأربعة التالية التى تميز مدخل التصور الاجتماعى (ولا يعنى هذا بالضرورة أن أنصار هذه النظرية يلتزمون بهذه النقاط جميعها أو معظمها):

١- موقف نقدى من المعرفة البديهية.

٢- الخصوصية التاريخية والثقافية.

٣- المعرفة تعززها العمليات الاجتماعية.

٤- المعرفة والفعل الاجتماعى متناغمان.

وبالنسبة للنقطة الأولى فقد بات واضحاً وضوحاً كافياً أن علماء الاجتماع لا يسلمون بالأنماط الجامدة والمعرفة اليومية على أنها "حقائق"، وينصرف جانب كبير من علم الاجتماع إلى الكشف عن الأسباب الأقل وضوحاً وراء تفكير الناس وسلوكهم على النحو الذى هم فيه.

وتلقى النقطة الثانية حول الخصوصية التاريخية والثقافية قبولاً متزايداً فى جميع العلوم الاجتماعية، وهى تشكل جزءاً من منهج علم الاجتماع بالنظر إلى المؤسسات (مثل الأسرة) والممارسات الاجتماعية (مثل التغذية والصحة) فى سياق ثقافى خاص مقارن.

وقد أصبحت النقطة الثالثة - المعرفة تعززها العمليات الاجتماعية - مهمة فى كثير من الأعمال السوسيولوجية والتاريخية. والفكرة الرئيسية هنا هى أن الحياة الثقافية يبتدعها الناس، ولا بد أن تكون موجودة قبل أن يكتشفها الخبراء. أما النقطة الخاصة بتناغم المعرفة والفعل الاجتماعى فهى ليست دعوة لمساواة علم الاجتماع بالسياسة، ولكنها - ببساطة - إعادة تأكيد للحقيقة القائلة بأن "المعرفة قوة"، بمعنى أن المعرفة يمكن أن تكون الفعل. ومن ثم فإن المعرفة بمؤسسات اجتماعية معنية وبالطريقة التى تعمل بها هى التى ألهمت بعض الحركات الاجتماعية الكبرى فى عصرنا. ومن الممكن أن ندرس عدم المساواة النوعية Gender والعنصرية دون السعى إلى اتخاذ إجراء

ضدها، ولكنه ليس عجيبياً أن يختار السود – ومنهم النساء – أن يربطوا بينهما. ولا بد أن نقول مرة ثانية أن هناك حداً بين المعرفة الأكاديمية والإجراء الاجتماعى، ولكنه حد يمكن عبوره بطريقة مشروعة.

والنزعة التصورية الاجتماعية لها جذورها فى التفاعلية الرمزية ونظرية ما بعد البنيوية خاصة أعمال فوكو. ولاقت هذه النظرية قبولاً واسعاً كمدخل يجمع بين تحليل السياق الاجتماعى / الثقافى والفعل الإنسانى. ويمكن استخدام مصطلح "النزعة التصورية الاجتماعية" لوصف أعمال علماء الاجتماع الذين عرضنا لهم فى القسم السابق.

نظرية ما بعد الحداثة وعلم الاجتماع

نظراً للتأثير الضخم لنظرية ما بعد الحداثة على علم الاجتماع، فإنه يبدو ملائماً أن نقوم بتقييم نقدى لهذه النظرية المؤثرة، وأن نحاول قياس علاقتها بعلم الاجتماع.

نظرية ما بعد الحداثة: ملخص

نقد الحداثة (الجوانب السلبية)

١- رفض النظريات الشمولية (الأساطير الكبرى) Metanarratives.

٢- نظرية ما بعد الحداثة ليست نظرية شمولية.

القضايا الفرضية / الخصائص لنظرية ما بعد الحداثة (الجوانب الإيجابية)

١- الثقافة أصبحت هى الجانب المهيمن على الحياة الاجتماعية.

٢- العولمة (خاصة عولمة وسائل الإعلام) تشكل "انفجار" الثقافة.

٣- نظرية ما بعد الحداثة يمكن ان تتصف بأنها نظرية / حركة رومانسية.

٤- تؤكد نظرية ما بعد الحداثة على الهوية، والاختلاف، والتعددية.

نقد نظرية ما بعد الحداثة للنظريات الشمولية (الأساطير الكبرى)

مما لا شك فيه أن نظرية ما بعد الحداثة لها أهدافها النقدية بغض النظر عن الجوانب الظاهرية التى تبدو عليها. فلم يمر تصريح ليوتار – أن الأساطير الكبرى بما فيها الماركسية والمشروع الليبرالى للتتوير نضب معينها – دون أن يصاحبه تنفيذ شامل لهذه الاتجاهات. وعلى الرغم من أن التراب بدأ يعلو الآن على هذا الجدل المتواتر، فمن

الواضح أن الماركسية والليبرالية فقدتا مصداقيتهما بالنظر إلى صياغتهما الشمولية المبالغ فيها. ومن المؤكد أن نغراً قليلاً يؤمن بالمسيرة الحتمية للتقدم سواء فى أشكالها الماركسية أو الليبرالية الفجة. فلا الثورة ولا التطور سوف يفضيان إلى المثالية. واتفق مع الأساس العام لهذه الانتقادات. ولكن إذا كان الحديث ينصرف إلى الماركسية، نجد أن كثيراً من منظرى ما بعد الحداثة يميلون إلى ترك الأمور جانباً، ومن ثم أخفقوا فى إعادة تقييم ما يمكن أن يكون له أهمية متواصلة فى هذا المنظور. وإذا كان الحال كذلك بالنسبة للماركسية، فقد كانت معالجة منظرى ما بعد الحداثة لليبرالية أكثر إنصافاً. ويعود ذلك فى جانب منه إلى أن النظرية الليبرالية فى التعددية تتفق كثيراً فى الرأى مع التحليل التعددى لما بعد الحداثة. وسوف أعود إلى هذه الأمور بعد النظر فى بعض المعتقدات الأساسية لنظرية ما بعد الحداثة، وخاصة مدى جدة وإبداع هذه المعتقدات.

نظرية ما بعد الحداثة ليست نظرية شمولية

ليست نظرية ما بعد الحداثة نظرية شمولية (أو عمومية)، أى أنها لا تحاول تفسير كل شئ يتعلق بالحياة الاجتماعية. وهى - فى هذا الجانب - ليست مثل النظريات الكلية (الماركسية والوظيفية) التى قدمت نماذج للعالم الاجتماعى باعتباره نسخاً كلياً يجدد نفسه. ويرى منظرو ما بعد الحداثة أن العالم الاجتماعى يتكون من أفراد وجماعات وثقافات عديدة ومختلفة يكون سلوكها وهويتها متغيرة، ولا يمكن التنبؤ بها على نحو دقيق. ومن ثم لا يوجد مجال لمحاولة ابتداء نظرية تسعى إلى تفسير كل ما يفعله الناس طوال الوقت، وهذه محاولة لا يمكن الوصول إليها.

ويورد منظرو ما بعد الحداثة سبباً آخر لتجنب "النظرية الكلية"، فهم يرون أن أية نظرية فى علم الاجتماع سوف تعكس أولويات واهتمامات عالم الاجتماع الذى بناها. ومع أن هذه الأولويات والاهتمامات يمكن أن يشاركه فيها آخرون (مثلما يشترك بعض الماركسيين فى منظور عام)، فلا يوجد مبرر عقلى للإصرار على أن ذلك يشكل الطريقة الوحيدة للنظر فى الحياة الاجتماعية أو تنظيرها.

ويذهب بعض العلماء إلى أن نظرية ما بعد الحداثة من الأساطير الكبرى فى حد ذاتها، ويرد ليوتار على ذلك بأنها - أى نظرية ما بعد الحداثة - الأسطورة الكبيرة التى تنهى كل الأساطير الكبرى. وهذه لغة وقحة، والحقيقة هى أن نظرية ما بعد الحداثة - فى أحسن أحوالها - منفتحة وتعددية ومؤقتة، وهى بمثابة مبادئ تختلف تمام الاختلاف عن المبادئ التى تجسدها النظرية الكلية.

وربما يكون من أهم إسهامات نظرية ما بعد الحداثة أنها تقدم منظوراً نقدياً إلى

الحدث ذاته بما في ذلك نظريات الحدث مثل الماركسية والوظيفية. وفي رأي زيجمونت بوتمان أن ما بعد الحدث انعكاس للحدث إلى درجة كبيرة، وأنها – أي ما بعد الحدث – تشترك مع الحدث في خاصيتي الرشد والانعكاسية النقدية.

وبعبارة أخرى فإن ما بعد الحدث لم تنزل بعد جزءاً من الحدث. وعلى نحو مشابه يرى أنتوني جيدنز أن ما أشار إليه كثيرون بـ"ما بعد الحدث" مرحلة من مراحل الحدث، على الرغم من أنه يفضل مصطلح "الحدث المتأخرة" أو "الحدث العليا" على مصطلح ما بعد الحدث. وهناك خلاف شديد – مع ذلك – على أن ما بعد الحدث أكثر من مجرد تشخيص للحدث المترنحة. ويذهب كريشان كومار إلى أن منظري ما بعد الحدث وكذا أبرز الماركسيين الناقدين للرأسمالية المتأخرة – مثل جيمسون وهارفي – يبدو أنهم يشيرون إلى بدء ما يمكن أن نطلق عليه "عصر جديد". وإذا كان الأمر كذلك، فما هي أهم الخصائص الإيجابية لهذا العصر في رأيهم؟

هل هي حقبة ما بعد الحدث أم أنها مجرد حقبة حدث متأخرة؟

لا بد لنا أن نضع في أذهاننا نقطتين قبل الاستطراد في المناقشات التالية لنظرية ما بعد الحدث، أولهما أن هناك ادعاءً قوياً بأن البشرية تدخل الآن حقبة تاريخية جديدة بصرف النظر عن اختلافنا في تعريفها. وإذا فكرنا في التاريخ حتى هذه اللحظة من منظور ثلاث حقوب: قديمة ووسطى وحديثة، فإن ما بعد الحدث هي الحقبة الرابعة. ولا بد من تقديم مبررات واقعية ومقنعة – قبل قبولها – بأن هناك انبلاجاً تاريخياً يحدث الآن إلى حقبة جديدة أو عصر جديد. ويتردد كثير من منظري ما بعد الحدث ومنظري الحدث المتأخرة في التشديد على أن تغييراً يحدث الآن على هذا النطاق، ويفضلون بدلاً من ذلك النظر إلى أن ما بعد الحدث تحدث الآن داخل الحقبة الحديثة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هبوب رياح النظريات "البعديّة" – نظرية ما بعد المجتمع الصناعي، ونظرية ما بعد الفوردية، ونظرية ما بعد البنوية، ونظرية ما بعد الحدث – تدل دلالة ضمنية على نهاية عصر وبداية عصر آخر، خاصة عند ربط هذه النظريات بعضها ببعض على غرار ما فعل كومار.

شكل ٣-٤: هل حدث تحول من عصر الحدث إلى عصر ما بعد الحدث؟

أربع مراحل تاريخية أم ثلاثة؟
قديمة



وسطى
حديثه
ما بعد الحديثه

والنقطة الثانية التى ينبغى أن نضعها فى أذهاننا هى أنه إذا كانت هناك مرحلة تاريخية جديدة آخذة فى الظهور – وهى مرحلة ما بعد الحداثة – فهى لا تزال قيد التشكل. وبالنسبة لمن يؤمنون فى قوة الفعل الإنسانى، فإن ذلك يعنى أن الناس – فرادى وجماعات – لا يزالون يشكلون مجتمع ما بعد الحداثة ويغيرونه. وهذا المدخل الذى يقر التدخل والإبداع هو روح نظرية ما بعد الحداثة (هذا على الرغم من أن منظرى ما بعد البنيوية الفرنسيين – خاصة فوكو وديريدا – يسلمون بجنوح فكر ما بعد الحداثة إلى الحتمية). وبوسعنا الآن أن نعود إلى تحليل المحتوى "الإيجابى" أو "الجديد" لنظرية ما بعد الحداثة.

(١) الثقافة أصبحت هى الجانب المهيمن على الحياة الاجتماعية

يزعم منظرو ما بعد الحداثة أن الثقافة – نتيجة لتقدم تكنولوجيا الاتصال – أصبحت هى الجانب المهيمن على الحياة الاجتماعية، وتشعب كل جانب من جوانبها. ويعبر دومينيك إستريناتى عن هذا الرأى بقوله:

"يمكن القول بأن نظرية ما بعد الحداثة تصف ظهور نظام اجتماعى نجد فيه أن أهمية وقوة وسائل الإعلام الجماهيرى والثقافة الشعبية تعنى أنها تتحكم فى كل الأشكال الأخرى للعلاقات الاجتماعية وتشكلها. والفكرة هنا هى أن الرموز الثقافية الشعبية والتجسيد الإعلامى يسيطر باطراد على إحساسنا بالواقع، وعلى الطريقة التى نحدد بها أنفسنا والعالم من حولنا".
(Strinati, 1995: 224)

وإذا كان منظرو ما بعد الحداثة على حق، فإن الحكم فى عصر ما بعد الحداثة يكون – إذن – للثقافة. ويقدر هؤلاء المنظرون أن سيادة الثقافة لن تحدث – بالطبع – بدون تكنولوجيا الاتصال. ومع ذلك فإن ما يرونه حاسماً هو المدى الطلق للانفجار الثقافى والاتصال الذى تتيحه التكنولوجيا. ويختلف منظرو ما بعد الحداثة – بتشديدهم على أهمية ما هو ثقافى على ما هو تكنولوجى واقتصادى – اختلافاً جذرياً عن الماركسيين التقليديين الذى أكدوا عكس ذلك.

(٢) العولمة تشكل "انفجار" الثقافة

النقطة الثانية التي يجمع عليها منظرو ما بعد الحداثة هي أن سيادة الثقافة والاتصال تتحقق في سياق كوني وتتأثر به تأثراً عميقاً. ويبرز كثير من المنتجات الثقافية من خلال وسائل الإعلام التي تعمل في سوق كونية يمولها رأس مال يعمل أيضاً في سوق كونية. فالكوكا كولا والمونديو هما - على التوالي - مشروب عالمي وسيارة عالمية. وكلاهما منتج اقتصادي، إلا أن المكانة والأسلوب والمعنى الذي يمكن أن يشير إليه هذان المنتجان ثقافية بطبيعتها. كما يتفق منظرو ما بعد الحداثة - بصفة عامة - على أن الإنتاج الثقافي يمكن أن يحدث - بل ويحدث بالفعل - على مستويات أخرى غير المستوى الكوني بما في ذلك المستويين المحلي والفردي. ولا ينكر هؤلاء المنظرون أن المشاهدين يمكن أن يشتركوا مشاركة فعالة في الإضافة إلى معنى الرسائل الإعلامية وتفسيرها. ومع ذلك فإن ما يسعى منظور ما بعد الحداثة إلى التشديد عليه هو تنامي البعد الكوني للثقافة.

(٣) نظرية ما بعد الحداثة نظرية أم حركة رومانسية

الملمح الثالث الميز لفكر ما بعد الحداثة أنه ذو طبيعة رومانسية، وأنه يؤكد على الذاتي والوجداني. وهذا هو الجانب المعاكس لرفض المزاعم الفخيمة عن العلم والمنطق. ويصنف كريشان كومار نظرية ما بعد الحداثة - لاحتفائها بالفرديّة والوجدانية - ضمن تيار الحركات الرومانسية التي ترتبط في علاقة تبادلية - ولكنها علاقة متوترة - مع الحداثة العقلانية. وتشمل هذه الحركات الشعراء الرومانسيين الإنجليز، وحديثاً الدادية Dadaism والسيريالية مروراً بحركة الثقافة المضادة في الستينيات. وما يستدل من ذلك هو أن ما كان يمثل بديلاً فيما مضى أصبح الآن أكثر ذبوعاً.

ولم يعد منظرو ما بعد الحداثة يعترضون كثيراً على العلم والعقل بقدر ما يعترضون على التكنولوجيا. وتتعلق تحفظاتهم على العلم والعقل بكيفية استخدامهما. فعلى سبيل المثال تزعم الماركسية عن نفسها أنها "علمية" وأنها اكتشفت منطق التغيير التاريخي. وعلى نحو مشابه تتباهى حركة التنوير الليبرالية بأن استعمال العقل يمكن أن يحل جميع المشكلات الاجتماعية ويؤدي إلى بلوغ الإنسان مرتبة الكمال. ولم يتحقق ما ذهب إليه الماركسية أو الليبرالية؛ بسبب المبالغة في المزاعم والتوقعات. وقد أصبح بعض الماركسيين وأنظمة الحكم الماركسية متورطة في شمولية دموية من أجل لهفتها على تحقيق أهدافها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تكمن خطورة الهدف الليبرالي نحو حداثة منظمة بشكل جيد في تدمير كوكب الأرض بدرجة لا يمكن معها العودة إلى الوضع السليم. كما أن الآثار غير المقصودة للسلوك العلمي والعقلاني آثار مدمرة إلى حد كبير في كلتا

الحالتين (الماركسية والليبرالية).

ويذهب منظرو ما بعد الحداثة إلى أن العلم والعقل لا ينبغي اعتبارهما وسائل حيادية لتحقيق أهداف مرغوب فيها، ولكن يجب أن يكون استعمالهما موزوناً بدقة من حيث تأثيرهما على الكائنات الإنسانية وغيرها من الكائنات الحية الأخرى. وقد أوضح زيجمونت بومان هذا الادعاء – بلغة أكثر فصاحة – فيما يتعلق بالإبادة الجماعية، حيث يرى أن تكنولوجيا تنفيذ حكم الإعدام الجماعي مكنت منفذى هذا الحكم من إبعاد أنفسهم عن الواقع الأخلاقي والإنساني لأفعالهم، ويبررون الإبادة الجماعية بأنها مجرد قيامهم بواجبهم ليس إلا.

(٤) تؤكد نظرية ما بعد الحداثة على الهوية، والاختلاف، والتعددية

الجانب الرابع لنظرية ما بعد الحداثة والذي يجئ مكملاً للجوانب المذكورة آنفاً – هو تأكيدها على الهوية والاختلاف والتعددية. وسوف أبدأ بالتعددية نظراً لأن ارتباطها بالجوانب الثلاثة السابقة أكثر وضوحاً؛ ولأنها توفر السياق اللازم لتحليل الهوية والاختلاف كما يفهمها منظرو ما بعد الحداثة. وتشير التعددية إلى مجتمع ونسق سياسى مكون من عدة جماعات مختلفة ومتنوعة، ولا توجد جماعة واحدة أو حزب واحد يتمتع بسيطرة كاملة.

ويؤمن منظرو ما بعد الحداثة بالرغبة فى التعددية، ويرون أن العالم صار الآن أكثر تعددية. وكان التزام هؤلاء المنظرين بالتعددية نتيجة منطقية لتحليلاتهم التى خلصت إلى أن الأساطير الكبرى الشمولية – أى المخططات الكبرى لما يجب أن يكون عليه المجتمع – قد نضب معيها وأفلس. ومن المنطقى أنه إذا لم تكن هناك مجرد رؤية واحدة فقط للمجتمع، فلا بد أن تكون هناك إمكانية لرؤى متعددة.

ولذلك يقر منظرو ما بعد الحداثة الالتزام الليبرالى بالديموقراطية والتسامح (مع أنهم وصلوا إلى هذه النقطة من طريق مختلف إلى حد ما). يضاف إلى ذلك أن هؤلاء المنظرين يزعمون أن التعددية – بمعنى ثقافى أشمل – أصبحت بشكل متزايد خصيصة للعالم المعاصر. وقد أصبح ذلك ممكناً مع ارتفاع متوسط الثروات الشخصية؛ ومن ثم تزايد القدرة على الاستهلاك، وكذلك التنوع الهائل فى السلع المتاحة.

وقد درج العرف بين علماء الاجتماع على تفسير الهوية الجمعية والمجتمعية وحتى الشخصية فى ضوء الاختلافات حسب الطبقة، والنوع الاجتماعى، والمراحل العمرية التى تتحدد اجتماعياً، والسلالة. وعلى النقيض من هذا، يرى منظرو ما بعد الحداثة أن هذه الاختلافات عامة بدرجة لا يمكن معها تفسير تنوع الهويات وتعقدتها (هذا على الرغم

من أن هؤلاء المنظرين يعترفون بالنفوذ القوى المستمر للهويات السلالية والقومية).

ويرى كثير من منظرى ما بعد الحداثة أن النسق الطبقي أخذ فى التشظى وتضاءلت أهميته كأساس للهوية. فالاختيارات الاستهلاكية للفرد وأسلوب معيشته أكثر أهمية لهويته من وضعه الطبقي (سواء حددناه بالمفهوم الماركسى أو الفييرى). ويتسق هذا التحليل مع النزعة الثقافية لنظرية ما بعد الحداثة. فالأفراد والجماعات يشكلون هويتهم من الزخم المتدفق من الصور الإعلامية والمنتجات الاستهلاكية. وقد طور بول ويليس مثل هذا التحليل فى كتابه "الثقافة العامة" (١٩٩٠) الذى يعد شاهداً على تحوله بعيداً عن الماركسية إلى نظرية ما بعد الحداثة.

اختلاف الهويات النوعية Gender، والشبابية، والسلالية

مالت أنجيلا مكروبي حديثاً إلى نزعة ما بعد الحداثة. ففى كتابها "نظرية ما بعد الحداثة والثقافة الشعبية" (١٩٩٤) ابتعدت عن الفئات البنائية الضخمة مثل ثقافة النوع الاجتماعى وثقافة الشباب (أو حتى الثقافة الفرعية). ويمكن أن تكون هذه الفئات نقطة بداية مناسبة للتحليل النظرى، ولكن الأفراد داخل هذه الفئات نراهم متنوعين ومختلفين بدرجة كبيرة، ومعرضين لمؤثرات متعددة. ولذلك استخدمت مكروبي مصطلحى "الأنماط المتغيرة للأنثوية" و"اختلاف الخبرات الذاتية الشبابية".

وبعبارة أخرى، توجد طرق عديدة مختلفة للتعبير عن الهوية "الأنثوية" والهوية "الشبابية". إن البحث عن نسوية مشتركة أو متفق عليها يقهره التنوع المطلق فى الهويات والتطلعات "الأنثوية".

وعلى نحو مشابه نجد أنه على الرغم من استمتاع الشباب بالنشاط المرتبط بالعمر، فإنهم يتجنبون بإرادتهم "الهويات" النمطية الثقافية الجامدة، ويفضلون عليها التحرك وفقاً للتباين فى هويتهم الفردية. ومع ذلك ترى مكروبي أنه لا توجد هوية جوهرية؛ فهى ترى أن الأفراد معرضين دوماً لوابل من النصوص والرموز التى تشكل ذاتيتهم إلى حد جزئى.

ويبدو أن "السلالة" تقف فى وضع أفضل من الفئات الثلاثة الأخرى الرئيسية الكونية للتدرج الطبقي. ومما لاشك فيه أن الهويات السلالية والقومية ألهبت الحماس الشعبى – ولو بشكل فج ودموى – فى أجزاء كثيرة من العالم فى النصف الأول من العقد الأخير من القرن العشرين. وإذا كنا بصدد الحديث عن ادعاء نظرية ما بعد الحداثة بشأن انتهاء الفئات الكبرى للتدرج الطبقي – الهوية، فإن هذا التطور يعد مضللاً إلى حد ما.

وعندما رحب هول S. Hall ترحيباً مشوباً بالحذر بالاهتمام السوسيولوجي المتنامي بـ"السلالية الجديدة" New Ethnicities، فقد كانت نقطة الانطلاق عنده هي أن الجماعات السلالية غير البيضاء كان يصنفها علماء الاجتماع فيما مضى ضمن فئة "السود". ويقر هول بأن هناك جماعات عديدة مختلفة ومتنوعة داخل هذه الفئة (السياسية) العريضة، وبذلك تحول هول - مثل ويليس ومكروبي - إلى نظرية ما بعد الحداثة.

ومن الإنصاف أن نقول أن البحث في الهويات السلالية الذي قام به علماء الاجتماع ومنظرو الثقافة المتأثرين بنظرية ما بعد الحداثة يعد بحثاً متميزاً بصفة عامة. فالهويات السلالية والقومية يُنظر إليها على أنها تتشكل اجتماعياً ولا تتحدد بيولوجياً.

وقد قامت مكروبي حديثاً بإجراء تحليل مم عن الصداقة السلالية بين الشباب، وتذهب فيه إلى أن المبادرة بالصداقة يلتزم بها هؤلاء الشباب في منطقة الكاريبي من أصل أفريقي (١٩٩٤). وفي كتابه بعنوان "المحيط الأطلسي الأسود: الحداثة والوعي المزدوج" (١٩٩٣) يتجاوز بول جيلروي آرائه السابقة عن أشكال الهوية السلالية (١٩٨٧). فالتشتت الثقافي للسود بين أفريقيا والأمريكيتين وأوروبا يتجاوز الشؤون القومية الضيقة.

ويبدو - إذن - أن الأعمال الحديثة لكل من جيلوري وهول ومكروبي تتبنى مدخلاً إلى الثقافة يبحث عن الاختلاف والتنوع والتغير. ولم يعد هؤلاء الباحثون يطبقون المنظورات الراسخة: الماركسية (أو النسوية أو "السوداء") للربط بين التدرج الطبقي والثقافة، بل إن هناك افتراضاً بحدوث مزيد من الاندماج بينهما، إن لم يكن اتجاه أحدهما إلى السيطرة على الآخر.

نقد نظرية ما بعد الحداثة

تعرضت نظرية ما بعد الحداثة لانتقادات من كل من المدافعين الليبراليين عن الرشد التنويري، والماركسيين الملتزمين بالنقد المتواصل للرأسمالية (بدلاً من الحداثة). وقد شدد هؤلاء وهؤلاء من جديد على نظرياتهم الأصلية وسخروا من مزاعم نظرية ما بعد الحداثة. ونذكر من هؤلاء بصفة خاصة إرنست جلنر الذي فند تفصيلاً قاسياً ما أسماه "النسبية العقلية" لنظرية ما بعد الحداثة (١٩٩١).

ونناقش الانتقادات التالية لنظرية ما بعد الحداثة:

١- أنها نسبية (جلنر).

٢- أنها حتمية.

٣- لا يزال المجتمع المعاصر مجتمعاً رأسمالياً (جيمسون، هارفى).

٤- لا تصلح نظرية ما بعد الحداثة للقيام بمهمة تحليل المجتمع المعاصر.

(١) النقد الليبرالى

لم يكتفِ جانر احتقاره لنظرية ما بعد الحداثة كما نستشهد على ذلك من عبارته التى يقول فيها:

"يستحيل أن نقدم تعريفاً أو تفسيراً متماسكاً لنظرية ما بعد الحداثة... وكل ما يمكن للمرء أن يقوله أنها نوع من الهستيريا الذاتية..."

(Gellner, ١٩٩١: ٢٩)

ويعبر جانر عن اشمئزازه من فشل منظرى ما بعد الحداثة فى قبول الخطاب العقلى أو مفهوم القيود المؤسسية (البنائية) الخارجية بقوله:

"وفى نهاية المطاف يبدو المعنى الإجرائى لنظرية ما بعد الحداثة كالاتى:
رفض تأييد أى وقائع موضوعية، أية أبنية اجتماعية مستقلة، واستبدالها بالمعانى.."

(Gellner, ١٩٩١: ٢٩)

وعلى النقيض من ذلك يشدد جانر على صحة وجدوى الالتزام الأساسى للتنوير بالعلم والعقل بقوله:

"يوجد التزام بالرأى القائل بأن هناك معرفة خارجية موضوعية متسامية ثقافياً، وتوجد بالفعل معرفة وراء الثقافة. ولا بد لكل معرفة أن تُنطق بلغة، ولكن هناك لغات قادرة على صياغة أسئلة بطريقة لم يعد من الحتمى الإجابة عنها بالخصائص الداخلية للغة أو الثقافة التى تنقلها، ولكن - على العكس - بالواقع المستقل".

(Gellner, ١٩٩١: ٧٥)

وفى تقديرى أنه ليس كل منظرى ما بعد الحداثة - أو على الأقل هناك قلة منهم فقط - نسبين بالمعنى الذى شدد عليه جانر. ويرى معظم هؤلاء المنظرين أن مهمتهم هى اكتشاف المعانى الذاتية، إلا أن هناك قلة منهم تنبذ الإطار الراسخ للنظرية والمنهج

العلمى (الاجتماعى). وقد أدى اهتمام منظرى ما بعد الحداثة بالذاتية إلى تبنى مناهج كيفية للبحث، وكان بعضهم مجدداً بالمعية فى هذا الصدد. ومن ثم أصبحت الآن بيانات السيرة الذاتية لكل من المبحوثين والباحث ذات أهمية بالنسبة لتفاعل المعانى والتفسيرات. وسوف أعود إلى هذه القضية لاحقاً.

(٢) الحتمية

أما الانتقاد الثانى لنظرية ما بعد الحداثة فهو أنها حتمية ومعادية للإنسانية. وقد أكد جلنر على اتجاهين متعارضين فى فكر ما بعد الحداثة، أحدهما يؤكد على الفردية والاختلاف، والآخر يزعم أن الفردية (الذاتية) يشكلها "الخطاب" أو الأيديولوجيات التى لا يفهمها بصفة عامة الذين يؤمنون بها ويمارسونها.

ويرتبط فوكوه ارتباطاً خاصاً بوجهة النظر الثانية، ألا أن نسخة معدلة منها ذاعت بشكل مؤثر على يد بودريار فيما يتعلق بوسائل الإعلام. ولابد من القول أن فوكوه وغيره من منظرى ما بعد البنوية الفرنسيين كان فى نيتهم اتخاذ موقف معادٍ للإرادة والإنسانية.

ولا يوجد حل نهائى للجدل المتصل بالطوعية فى مقابل الحتمية، على الرغم من أن بعض المواقف النظرية المتوازية بين هذين الطرفين هى أكثر قوة. وأنا اتفق – بشأن هذه القضية – مع جلنر اتفاقاً شديداً على أن فوكوه وكثير من البنيويين وما بعد البنيويين الفرنسيين اتجهوا إلى تبنى موقف نظرى كئيب وقدرى. وإذا ما كان لنا الاختيار فإن موقف هابرماس هو أفضل هذه المواقف النظرية، حيث التزم بتحرير الإنسانية من خلال استعمال "الرشد الاتصالى".

ومع ذلك – وكما يرى جلنر – فإن ثمة تياراً قوياً من تيارات فكر ما بعد الحداثة يؤكد على – بل وييجل – الحرية والتنوع الإبداعى. ويصف كريستوفر جينكس هذا التيار الإيجابى بقوله:

"عصر ما بعد الحداثة هو عصر الاختيار المتواصل، عصر لا يمكن ن يتم فيه تبنى معتقدات تقليدية دون وعى ذاتى وتهكم؛ لأن كل التقاليد فيها بعض الصدق... وتعد التعددية هى المشكلة الكبرى، وهى الفرصة الكبرى أيضاً: حيث يصبح كل رجل مواطناً عالمياً، وكل امرأة فرداً متحرراً"

(Jencks, 1989: ١)

(٣) النقد الماركسى

يذهب النقد الماركسى الرئيسى لنظرية ما بعد الحداثة إلى أنها تفتقر إلى ركيزة قوية فى النظرية الاجتماعية – الاقتصادية (فى مقابل النظرية الثقافية). ومن ثم يصف

جيمسون (١٩٩٢) ولاش (١٩٩٠) المجتمع الأوروبي (والكونى) بأنه يعيش فى مرحلة "الرأسمالية المتأخرة" و"الرأسمالية المشوشة"، بمعنى أنهما يصنفان هذا المجتمع حسب رؤيتهما لماهيته الاقتصادية.

ويستخدم جيمسون ولاش مصطلح "ما بعد الحداثة" لوصف ثقافة الرأسمالية المتأخرة. وبالتالي فإن نظرية ما بعد الحداثة – فى رأيهما – جانب من جوانب مجتمع الرأسمالية المتأخرة. وعند هذه النقطة ينحصر تفكير جيمسون ولاش فى الإطار الماركسى التقليدى لتحليل البناء التحتى / الفوقى، ولذلك ابتعدا بدرجة واضحة عن منظرى ما بعد الحداثة. ومع هذا فإنهما يزعمان – شأنهما فى ذلك شأن هؤلاء المنظرين – أن ما هو ثقافى أصبحت له أهمية كبيرة فى مجتمع الرأسمالية "المتأخرة" أو "المشوشة". وتوضح الفقرة التالية المقتبسة من جيمسون أفكار ما بعد الحداثة، مع أنه عدل عن رأيه هذا. يقول جيمسون (نقلاً عن كومار):

"امتدت الثقافة امتداداً هائلاً إلى كل جوانب العالم الاجتماعى – من القيمة الاقتصادية وقوة الدولة إلى الممارسات إلى البناء الجوهري للنفس – إلى الحد الذى أصبح معه كل شئ فى حياتنا الاجتماعية "ثقافياً" بالمعنى الجوهري والواقعي للكلمة. وفى موضع آخر يرى أن مصطلحاً "الاقتصادى" و"الثقافى" تراجعاً إلى الوراء، وقال نفس الشئ بالنسبة للبناء التحتى والفوقى".

(Quoted, Kumar, PP. 115-116)

وبمتابعة اهتمام جيمسون ولاش بالتحليل الثقافى – ومن ثم بالركيزة التى اختارها منظرى ما بعد الحداثة – نلاحظ أنهما اغفلا أقوى النقاط التى يمكن أن يوجهها الماركسيون إلى هؤلاء المنظرين، وهى أنهما أهملتا الحقيقة الموجعة التى مؤداها أن الرأسمالية مستمرة فى إنتاج اللامساواة المستفحلة على المستويات الوطنية والكونية.

وفى السنوات العشرين الأخيرة من القرن العشرين زادت اللامساواة زيادة كبيرة داخل بريطانيا من جهة وبين الغرب والعالم الفقير من جهة ثانية. ويمكن للماركسيين ومنظرى الصراع بصفة عامة أن يجعلوا من هذه القضية محور اهتمامهم [مثلما فعل وستر جارد (١٩٩٤) وجولد ثورب ومارشال (١٩٩٢)]. ولقد تغيرت مصادر اللامساواة فى مجتمع الرأسمالية المتأخرة إلى حد ما، ولكن لا تزال تلك المصادر تتعلق بالعمل أساساً. ومما لا شك فيه أن اللامساواة أصبح لها أبعاد ثقافية جديدة ومهمة، ولكنها تعد فى الأساس قضية مادية لمن يقفون على الطريق المغلوط إليها.

ومن المحتمل أن يحدث إحياء لعلم اجتماع الصراع الراديكالي مع تجدد الاهتمام باللامساواة. إن جدوى أو عدم جدوى الإبقاء على مفاهيم البناء الاجتماعي - خاصة اللامساواة البنائية - فى أجندة البحث يبدو أقل أهمية من الكشف عن إنتاج اللامساواة المستمرة ومعدلاتها وآثارها.

(٤) الملائمة النظرية لنظرية ما بعد الحداثة

يتعلق الانتقاد الرابع والأخير لنظرية ما بعد الحداثة بملاءمتها النظرية. هل تقدم نظرية ما بعد الحداثة - أو على الأقل بدأت فى تقديم - إطاراً نظرياً يسلط الضوء على طبيعة المجتمع المعاصر؟

النقطة الأولى التى تثار هنا هى أن منظرى ما بعد الحداثة لا يدعون أنهم يقومون بالتفسير على نفس النطاق أو نفس الطريقة التى تتطلع إليها النظريات الشمولية فى علم الاجتماع. ويذهبون صراحة إلى أن التفسيرات الشمولية للحياة الاجتماعية مستحيلة ومضللة. ويسعى منظرو ما بعد الحداثة - فى تفسيرهم للعالم المعاصر - إلى إدخال تعديلات هامة على المدخل التقليدى الذى يعتمد اعتماداً كلياً على البحث العقلى - ولم يكن رد فعل هؤلاء المنظرين إزاء شكوكهم فى مقدرة المنهج العلمى على تفسير كل شئ هو الاحتكام إلى اللاعقلانية Irrationality، بل اتجهوا - بدلاً من ذلك - إلى استكمال التحليل العقلى بمرجعية أخلاقية وعاطفية وجمالية. ويبدو أن الأخلاق والعواطف والإحساس بالجمال ورؤى علماء الاجتماع والمبوضين مسموح به بدرجة أكبر فى تحليلات ما بعد الحداثة عنها فى التحليلات التقليدية فى علم الاجتماع (بما فيها المداخل التأويلية). ومثل هذه البيانات يستخدمها دائماً علماء الاجتماع، إلا أن منظرى ما بعد الحداثة يستخدمون هذه البيانات لا على أنها مجرد شواهد، بل كطريقة لكبح جماح قرائن الادعاءات الأكثر شمولية للعلم والعقل.

وبناء عليه فإن نظرية ما بعد الحداثة ليست نظرية كلية للمجتمع، كما أنها لا تتبنى مدخلاً تقليدياً - بكل ما فى الكلمة من معنى - إلى البحث العلمى الاجتماعى. والسؤال المطروح الآن: ماذا يعنى كل ذلك بالنسبة لمكان نظرية ما بعد الحداثة داخل علم الاجتماع أو علاقتها به؟

يرى على راتانسى - فى استعراض حديث قام به لعدد من المؤلفات عن نظرية ما بعد الحداثة - أن علم الاجتماع الراسخ ومدخل ما بعد الحداثة يمكن الاستعانة بهما معاً. وتوقع أن تحتوى مؤلفات علم الاجتماع على "نظرية ما بعد الحداثة" كمنظور فى علم الاجتماع (١٩٩٥: ٣٤٨). وعلى نحو مشابه وضع كريشان كومار يده على كثير من

الأهمية فى هذه النظرية (وغيرها من النظريات البعدية) على الرغم من اتجاهاته النقدية نحوها:

"أمل أن أكون قد أوضحت أن هذه النظريات تتكلم بالفعل عن ظروفنا الراهنة. وهى - مثل كل النظريات - أحادية الجانب ومُبالغة. وهذا هو السبب فى أنها مفيدة ومثيرة. ومما لا شك فيه أن هذه النظريات تترك كثيراً مما يحتاج إلى التفكير فيه... ومع ذلك فإن ما لفت نظرى أن كثيراً من جوانب الوضع الراهن للعالم حاولت تلك النظريات أن تستأثر به".

(Kumar, 1995: 201)

واستناداً إلى ذلك يمكن القول بأن هناك مكاناً داخل علم الاجتماع لنظرية ما بعد الحداثة ومفاهيمها. وثمة شكوك حول ما إذا كانت القضايا الفرضية لهذه النظرية ومفاهيمها - التى ناقشناها آنفاً - جميعها مبتكرة (على الرغم من أن تحليلاتها للاختلاف والهوية تحليلات متميزة). ويمكن القول بأن نظرية ما بعد الحداثة سوف توجه علم الاجتماع إلى حد ما نحو قضايا أكثر نوعية وإنسانية (باستبعاد فوكوه). وقد تطورت ثلاثية كانط (الأخلاق، والجمال، والعقل) كمجالات مستقلة.

ولعلم الاجتماع تاريخ طويل من الاستغراق فى النموذج العلمى - العلقى. ويمكن أن ننظر إلى نظرية ما بعد الحداثة - فى جانب منها - على أنها استمرار لمشروع الستينييات عن أهمية إعادة تقييم علاقة العقل بالأخلاق والجمال (هربرت ماركيز). وهنا نجد فى بؤرة اهتمام هذه النظرية الآثار العكسية لاستخدام العلم والعقل.

وفوق كل هذا وذاك لم يقدم منظرو ما بعد الحداثة سبباً وجيهاً لتجاهل المفاهيم المحورية فى علم الاجتماع مثل البناء، والفعل، والقوة، واللامساواة، والاعتراب. وقد أنت بعض التطورات الأكثر تأثيراً لتحليلات ما بعد الحداثة من علماء اجتماع أمثال هارفى وجيمسون وجيدنز الذين تعلقوا بالنظرية الكلاسيكية تعلقاً شديداً. ومع أنهم أعادوا تنظير مفهوم البناء الاجتماعى وأثاره، فإنهم لم يتخلوا عنه. وعلينا أن نرى كيف تشابك التأكيد الجديد على الثقافة مع الاهتمامات الراسخة فى علم الاجتماع.

ومن السابق لأوانه أن نحكم على ما إذا كنا قد ولجنا أم لم نلج بعد عصر ما بعد الحداثة بخصائصه المميزة عن خصائص الحقب الحديثة والوسطى والقديمة. وبالنسبة لبعض منظرى ما بعد الحداثة فإن ذلك يعد - فى كل الأحوال - طريقة أكثر حداثة للنظر فى الأمور.

خاتمة: علم الاجتماع والحال الذى آل إليه

ناقشت فى طبعات سابقة من هذا الكتاب إمكانية ظهور نموذج نظرى موحد فى علم الاجتماع من المنظورات المتعددة فيه. ويبدو أن ذلك غير وارد الآن، ولا أريد أن أجعل من هذه القضية محور هذه المناقشة الختامية. ومع هذا يجدر بنا أن نكرر أن المحاولات العديدة لنسج الثنائيات معاً – مثلما أشار إليها لايدر – هى ممارسة على هذا الدرب أكثر تواضعاً من محاولة الوصول إلى "نظرية شمولية".

ويبدو أن الحقيقة القائلة بأن النموذج الموحد لا يلوح فى الأفق الآن لا يعيرها بعض علماء الاجتماع اهتماماً كثيراً، مع أن البعض الآخر لا يوافق على ذلك. ويزعم ليوتار وفوكوه أن "الصور الضخمة" Big Pictures للواقع ليست هى بيت القصيد. فهذا الواقع ليس ساكناً ولكنه فى تغير مستمر. ومع ذلك فإن ما يحدث بالفعل فى علم الاجتماع والعلم الاجتماعى يبدو مهماً ومثيراً، بل ويصعب متابعته أحياناً.

ولقد قلت فى الطبعة السابقة من هذا الكتاب أن النظرية ومناهج البحث لهما استخدامات متعددة. فالذين يسعون إلى دراسة تأثير البناء على الأفراد والجماعات أكثر ميلاً إلى الجمع بين النظرية البنائية والمناهج الكمية، والذين يريدون فهم المعنى والخبرات والمشاعر أميل إلى الجمع بين النظرية التأويلية والمناهج الكيفية. وهناك دراسات عديدة جمعت كلا المدخلين. ولذلك نجد أن مارشال وزملاؤه فى دراستهم الامبيريقية والإحصائية عن "الطبقة الاجتماعية فى بريطانيا الحديثة" حاولوا دراسة الوعى الطبقي الذاتى.

إن تأثير نظرية ما بعد الحداثة وغيرها من النظريات على علم الاجتماع هو أنها دفعت به للمضى قدماً فى اتجاه التعددية النظرية والمنهجية (مع أن دلالات ذلك لم تتحقق بشكل تام حتى الآن). وهذا ما ترتب عليه أولاً قبول الفكرة القائلة بأن المستوى الكونى والمستويات الاجتماعية – المكانية الأخرى – تؤثر الآن فى خبرانا الاجتماعية اليومية، وثانياً تصدير عدد كبير من المفاهيم الثقافية – وكثير منها له جذوره فى علم العلامات (السيميوطيقا) – إلى علم الاجتماع. وقد كان للمزج بين هذين الجانبين بالغ الأثر فى دراسة عولمة وسائل الإعلام.

وعندما كتب هالسى أن "علم الاجتماع لم يعد له موضوع واحد" كان فى ذهنه أساساً الدراسة الامبيريقية للمجتمع من النوع الذى قام بإجرائه جولدثورب ومارشال وهالسى نفسه من ناحية، والدراسات التأويلية وكذا الثقافية التى قام بها هوجارت وطومسون وهول من ناحية ثانية. يقول هالسى:

"إن علم الاجتماع لم يعد له موضوع واحد. فالذين عرفوا هذا العلم بأنه تراكمى وتفسيري في تطلعاته مع احترام نماذج العلم الطبيعي (دون الخنوع لها) ومحاولات التكميم والمقارنة، هؤلاء لهم رأى جدير بالثقة. كما أن الذين جعلوا موضوع العلم مشابهاً للفنون (أو الأدب) كتاريخ عقلي وتأويل نظري، هؤلاء لهم رأى مختلف ولكنه جدير بالثقة أيضاً".

(Halsey, 1996: 15)

وقد اعترض هالسي على احتواء نظرية ما بعد الحداثة داخل علم الاجتماع، ويربط هذه النظرية بما أرتأه الاتجاهات المغالية في نزعاتها السياسية والذاتية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات والتي أثرت في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى. وما يشغلني بالدرجة الأولى بشأن نظرية ما بعد الحداثة هو ما قاله جلنر عن نزعتها الخطيرة المعادية للإنسانية. ومع ذلك فإن لهذه النظرية – أو على الأقل التحليلات المتصلة بمجتمع الحداثة المتأخرة مثل تحليلات جيدنز وبيك وباريت – قدمت إسهامات مهمة إلى علم الاجتماع، بل إن تأثير هذه النظرية كان أكبر من ذلك.

لقد واكب نظرية ما بعد الحداثة أو تحليل مجتمع الحداثة المتأخرة مجموعة من الرؤى والمفاهيم النظرية المترابطة التي أدت إلى تحول بؤرة اهتمام علم الاجتماع على الأقل بالنسبة للذين اختاروا إتباع هذه الرؤى والمفاهيم. وقد أدى دفن "الأساطير الكبرى" على يد ليوتار إلى جعل الحديث عن التحول النظري في علم الاجتماع حديثاً طناناً. ومع ذلك فإن نفعاً كبيراً من علماء الاجتماع يقومون الآن بدراسة قضايا عديدة مختلفة بطريقة مختلفة عن مؤسسى هذا العلم. وقد بقى الأساس الجوهرى لعلم الاجتماع – كما وصفه ميلز – كما هو دون مساس به، إلا أن تطبيقاته ومحتواه تغير تغيراً ضخماً كما نلمسه في أعمال جيدنز وهول وكونل على سبيل المثال. وعلى الرغم من تشديد هالسي على حدوث انشقاق في علم الاجتماع – وفق تبريراته – فقد اتضح لنا في هذا الفصل أن هناك أعمالاً مهمة حاولت أن تحقق التكامل بين جوانب علم الاجتماع.

ويبدو أن علم الاجتماع يعادى نفسه عداءً شرساً. ودائماً ما يستعير هذا العلم من العلوم الأخرى ويُعيرها. وقد أدت الاستعارة من علم الاجتماع إلى تصلب المحتوى النظري للدراسات الإدارية والتنموية على سبيل المثال. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يدين علم الاجتماع بالفضل الكبير للدراسات الثقافية والفلسفة. ويبدو أن هذا المد والجزر أكثر حيوية اليوم من العراك النظري المتواصل أو البحث المضنى عن نموذج موحد. وقد يستغرق هذا وقتاً طويلاً.

استخلاصات أساسية

- (١) توجد ثلاث قضايا أساسية تشكل محور اهتمام علم الاجتماع:
 - أ- طبيعة البناء الاجتماعي.
 - ب- العلاقة بين الذات والمجتمع.
 - ج- التطور التاريخي للمجتمع.
- (٢) تقوم الوظيفية بتحليل وظائف المجتمع واختلاله الوظيفي كما لو كانت المجتمع كائناً حياً. وثمة انتقاد موجه إلى الوظيفية لأنها تبخس كلاً من الفردية والصراع الاجتماعي.
- (٣) تأخذ الماركسية أشكالاً متعددة جميعها تقوم على مقدمة منطقية هي مفهوم الصراع الطبقي. وتنتقد الماركسية لكونها حتمية ولا تدعمها التطورات التاريخية الواقعية.
- (٤) حاول ماكس فيبر أن يطور علم اجتماع يربط الفعل الاجتماعي والقوة المؤسسية المؤثرة. والانتقاد الموجه إلى فيبر هو تشديده المفرط على القوة المؤسسية المؤثرة، وإخفاقه في تحقيق تركيبة مقنعة بينهما.
- (٥) تدرس التفاعلية المجتمع بمحاولة فهم المعاني المشتركة للفاعلين الاجتماعيين. ويمكن الإدعاء بقوة أن التفاعلية وعلم الاجتماع البنائي متكاملان وليسا متعارضين.
- (٦) الظاهراتية والمنهجية الشعبوية منظوران مترابطان يختصان بتحليل المجتمع في ضوء محاولات أعضائه تكوين نظام اجتماعي. وثمة انتقاد موجه إلى هذين المنظورين لتجاهلهما القوة المؤثرة للمؤسسات.
- (٧) أفسحت المعركة بين الاتجاهات النظرية الطريق إلى فترة مهمة من الجدل في علم الاجتماع طرحت خلالها أفكار جديدة ومبتكرة عن العولمة والثقافة.
- (٨) يحاول عدد من المنظرين الاجتماعيين مواجهة الانقسام في علم الاجتماع بين الفعل والبناء، مما أسهم بالتالي في إعادة تشكيل هذا العلم.
- (٩) تقوم نظرية ما بعد الحداثة على قضايا فرضية أساسية تعرضت لانتقادات ليبرالية وماركسية.
- (١٠) باستعراض الحال التي آل إليها علم الاجتماع، يبدو أن هناك بعض الأسباب وراء النزعة التفاؤلية بإمكانية الوصول إلى نموذج موحد مع أن هذا النموذج لا يلوح في

الأفق حتى الآن.

الفصل الرابع التطورات المعاصرة فى نظرية علم الاجتماع(*)

مقدمة

لنظرية علم الاجتماع تاريخ طويل فى تقييم نفسها. وتقع هذه النظرية ضمن تخصصات أكاديمية متميزة لا تكون فيها المراجعة العامة للأدبيات الموجودة مشروعاً عارضاً. ولكنها جزء من الجهد المتكرر لكثير من علماء الاجتماع المتخصصين فى النظرية، وملح من ملامح متطلبات تدريس مقررات النظرية الاجتماعية، وعنصر ضرورى من عناصر أية دراسة تدعى أنها تضيف إضافة إبداعية إلى هذا المجال.

وفى سياق ما سبق ذكره لا يوجد نقص فى المقالات والدراسات والكتب المدرسية والكتب المحررة الحديثة التى تحلل التطورات المعاصرة فى مجال النظرية، وهو الموضوع الذى تناولته مجلدات سابقة من "المجلة السنوية لعلم الاجتماع" Annual Review of Sociology.

ومن هذه الإسهامات المتعددة نذكر جيدنز وجوناثان تيرنر (١٩٨٧)، وريتزر (١٩٨٨c, ١٩٩٠b)، وبرايان تيرنر (١٩٩٦b)، وجوناثان تيرنر (١٩٩١)، وروث والاس ووولف (١٩٩٥) الذين ناقشوا الاتجاهات فى مجال النظرية، والمنظرين، والمؤلفات فى النظرية، والتيارات الفكرية التى شكلت هذه الاتجاهات، والمزاعم الأساسية وأطر المفاهيم المرتبطة بهذه التطورات.

ولا يقوم هذا الفصل مقام هذه المحاولات السابقة، فهذه الأساسى ليس تلخيص مشروعات المفاهيم والمزاعم الأساسية الموجودة فى النظريات المعاصرة، بل يهدف إلى تحديد واستعراض بعض المشروعات الفكرية الرئيسية التى تمضى قدماً فى مجال النظرية حالياً. وفى بحوثنا عن فترات تاريخية مبكرة (مثلاً: Gross ١٩٩٧, Camic ١٩٨٩) أوضحنا أن الالتفات إلى الأهداف والأغراض الفكرية للمنظرين تزيد من فهمنا للأدوات المفاهيمية والادعاءات الإمبريقية التى يتوحدون معها.

وعندما نتحدث عن "مشروعات" فى هذا الفصل؛ فإننا نبذل محاولة أولية لتطبيق

(*) :

Charles Camic & Neil Gross. Contemporary Developments in Sociological Theory: Current Projects and Conditions of Possibility. Annual Review of Sociology, , pp. - .

هذا المدخل على الفترة المعاصرة، وذلك بالتركيز على بعض المهام الرئيسية التي يسعى المنشغلون بالنظرية إلى إنجازها، وعلى تنظيم البرامج التي يحاول من خلالها المنظرون تطوير مفاهيمهم ومزاعمهم، وعلى التقدير الوصفي والتقييمي للوضع الحالي لمجال النظرية، والذي يصاحب هذه البرامج في الغالب.

ونبدأ بتحديد ثمانية مشروعات، وننتهي بمناقشة حول الشروط التنظيمية لتحقيقها. وكل هذه المشروعات الثمانية مشروعات معاصرة موجودة في التراث النظرى خلال الفترة التي نركز عليها، أى منذ منتصف الثمانينات وحتى اليوم. ومن الضروري أن يودى تحليل فترات زمنية أخرى إلى مجموعة مختلفة من البرامج التي تكون درجة تشابكها مع القائمة التي ستلى مسألة إمبريقية. وسوف نتعامل فى هذا الفصل مع التطورات الأمريكية بصفة أساسية، مع إدماج الأعمال التي قدمها المنظرون الأوروبيون مع ظهورها باللغة الإنجليزية منذ منتصف الثمانينات، وبرزت أهميتها تبعاً فى المناقشات الأمريكية. ومع مراعاة تلك القيود، يظل استعراض التراث بهذا الشكل انتقائياً، ولذلك لا تغطى المشروعات الثمانية تصويراً شاملاً لكل ضروب النشاط النظرى الحالى.

يضاف إلى ما سبق ضرورة الاعتراف بأن هذه المشروعات الثمانية - كقاعدة - ليست جامعة مانعة، بمعنى أن هناك منظرين خاضوا فى أكثر من مشروع فى نفس الوقت أو فى مراحل مختلفة، وذلك على الرغم من استحالة أن نكرس اهتماماً كافياً هنا لأفراد بعينهم لتحديد مشروعاتهم بمرور السنين أو حتى فى عمل واحد من أعمالهم. كما نؤكد أيضاً على أن المشروعات الثمانية غير متجانسة داخلياً، وأنها تجمع معاً منظرين يختلفون فى جوانب أخرى، وتفرق بين منظرين متشابهين فى تصنيفات علمية أخرى. وهذا يظهر ببساطة قيمة مشروعات التصنيف المتعدد، فهناك مفكرون يشتركون فى نفس مشروعاتهم النظرية فى علم الاجتماع، ولكنهم يختلفون فى المفاهيم والادعاءات التي يستخدمونها لتقديم هذه المشروعات. تماماً مثلما أن هناك منظرين يلتقون فى نفس المزاعم والمفاهيم ولكنهم يستخدمون هذه الوسائل لتقديم مشروعات مختلفة تمام الاختلاف فى مجال النظرية.

وفى مناقشتنا للنظرية المعاصرة فى علم الاجتماع نحن ندرس منطقة حدودها غائمة بدرجة واضحة. ولتحديد الأعمال التي تقع داخل هذه الحدود نستعير فكرة "التشابه العائلى" Family Resemblances عند لودفيج فيتجنشتين. فقد قام فيتجنشتين (١٩٥٣) (٣١-٣٣) بتحليل مجموعات العناصر التي لا يوجد بينها شئ واحد مشترك بما يجعلنا نستخدم نفس الكلمة للتدليل على كل العناصر؛ مثلما أن هناك أوجه شبه عديدة بين أعضاء الأسرة فى البنية والملامح ولون العيون وطريقة المشى والمزاج وما إلى ذلك،

وبذلك يوجد تشابه عائلي بين عناصر هذه المجموعات الأخرى، أى شبكة معقدة من أوجه الشبه المتداخلة والمتقاطعة: ويكون هذا التشابه عاماً فى بعض الأحيان، وتفصيلاً فى أحيان أخرى.

وهذا التشابه العائلي هو الذى يشكل مجال النظرية المعاصرة، فهو تشابك متقاطع فى القضايا والمشكلات التحليلية، والمصادر الأساسية الفكرية ونقاط الانطلاق، والمفردات المستخدمة فى تقديم المزاعم وأسلوبها، والتوحد الذاتى (أى إطلاق لفظ "نظرية" على العمل الذى يقدمه عالم الاجتماع)، والعضوية المؤسسية (العضوية فى قسم النظرية بالجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع)، والاعتراف الجماعى (أى أن المنظرين يثنون على هذا الإسهام) وغيرها وغيرها الكثير. ولا توجد مجموعة ثابتة من هذه السمات تحدد عضو الأسرة، مثلما يصعب اقتفاء أثر أولاد الزوج (أو الزوجة) من زواج سابق، والقرابة المتباعدة، وعضو الأسرة الذى لا يلقى احتراماً منها. ومع ذلك لا يبدو من الصعب أن نعترف بالفروع المختلفة لشجرة العائلة بعد أن يقضى الفرد فترة زمنية بين أعضائها.

المشروعات الثمانية للنظرية المعاصرة فى علم الاجتماع

المشروع الأول: بناء أدوات عامة لاستخدامها فى التحليل الإمبريقي

تتمثل المهمة الأساسية لنظرية علم الاجتماع بين مجموعة من المنظرين المعاصرين فى بناء أدوات تحليلية (المفاهيم، القضايا التفسيرية، الموجهات التأويلية... إلخ) قابلة للتطبيق تطبيقاً مباشراً فى دراسة مشكلات إمبريقية. ويلاقى هذا المشروع - فى رأى كثير من المنظرين المعاصرين المشايخين له - تحدياً متزايداً من التنظير التجريدى الذى ينأى بنفسه عن القضايا الأساسية التى تظهر فى مجالات البحث الاجتماعى الإمبريقي.

وهذا هو موقف شافيتز حيث تقول: "ترتبط نظرية علم الاجتماع بالبحث ارتباطاً تاماً" (٢ : ١٩٨٨)، وتسجن هذه النظرية نفسها عندما تنزلق إلى "المناقشات الإبستمولوجية والأنطولوجية المجردة لقضايا مثل الفعل / الوحدات الصغرى، البناء/ الوحدات الكبرى" (٦٢-٦٠ : ١٩٩٣). واحتجاجاً على ذلك حددت شافيتز للنظرية مهمة تطوير مجموعة متنوعة من الأدوات العملية (المقولات التفسيرية العامة والمفاهيم التى تتضمنها) التى يمكن للباحث أن يختار من بينها ما يكون أكثر عوناً له فى حل أية مشكلة إمبريقية معينة. وقد جعلت شافيتز هذا المشروع فى الصدارة من خلال طرح "نظرية بنائية انتقائية" عن أسباب التدرج الطبقي على أساس النوع الاجتماعى

(١٩٨٨: ١, ٥١-٥٤).

وعلى غرار هذا الضرب من ضروب التفكير يحتج رول (١٩٩٧) على أن يكون مجال النظرية اليوم مجموعة متنافرة من المداخل المتعارضة (الاختيار الرشيد، تحليل الشبكات الاجتماعية... إلخ)، وكل مدخل منها ذو نطاق محدود مما جعل علم الاجتماع يتراجع عن قضاياها الدائمة، أى مسائله الأساسية مثل الانحراف والنمو الاقتصادي والعنف المدنى... إلخ.

وفى رأى رول أن المهمة الرئيسية لنظرية علم الاجتماع هى تطوير أدوات تحليلية للتصدى لتلك المسائل؛ وهى المهمة التى أخذها على عاتقه من خلال صياغة قضايا عامة حول مصادر العنف المدنى (٢٧١-٢٦١, ١٩٩٧: ١, ٥, ١٩, وانظر أيضاً: Skocpol ١٩٨٨, Rule ١٩٨٦).

وينادى كالهون أيضاً بمزيد من الدراسات التى تسعى إلى تقدم النظرية المعنية بأسباب البحث فى النظرية المعاصرة وفهمها، تمييزاً لها عن الدراسات التى تهدف أساساً إلى توضيح ما قاله المنظرون بالفعل (٢: ١٩٩٧). ولا يفضل كالهون النظرية التى تطرح مجموعة من القضايا والمفاهيم العامة، بل النظرية التى تطرح "موجهات" أو "أطر تفسيرية" للممارسات الاجتماعية المتغيرة (١٩٩٦a, ١٩٩٥, Calhoun. ١٩٩٦b: ٨٦, ٩٢).

وتجسد كتابات بيير بورديو (١٩٨٨, ١٩٩٠a, ١٩٩٠b, ١٩٩٣a, ١٩٩٣b؛ ١٩٩٢ Bourdieu & Wacquant) أكثر الحالات التفصيلية لهذا المشروع. ويرفض بورديو "النزعة التنظيرية الجوفاء" - أى الخطاب المبرمج العام الذى يركز هدفه الوحيد على النظريات التجريدية الأخرى ولا يريد أن يلطخ يده بالبحث الإمبريقي. وينحصر مشروع بورديو فى تطوير مجموعة من الأدوات والإجراءات المفاهيمية لتفسير الظواهر ونقل المعرفة من مجال بحثى إلى آخر (٧٧٤: ١٩٨٨, Bourdieu. ١٩٩٣b: ٤٥؛ ٧٧٧؛ ١٩٩٢: ٥ Bourdieu & Wacquant).

ومع ذلك، لا يتصور بورديو - عكس غيره من مشايخي هذا المشروع - هذه الأدوات على أنها مجموعة عامة انتقائية تناسب أغراضاً محددة. وبدلاً من ذلك ركز على مجموعة محددة من المفاهيم أكثرها ذيوياً: "الطابع الاجتماعى الثقافى" Habitus، و"طاقم النوازع" Ensemble of Dispositions نحو الفعل والإدراك اللذين يحدثان من داخل الفاعلين الاجتماعيين، و"المجال" Field؛ أى ترتيب العلاقات بين الأوضاع الاجتماعية، أو الحيز البنائى الذى تترعرع فيه الصراعات الاجتماعية (Bourdieu & Wacquant ١٩٩٢: ١٦-١٩).

وبإصراره على العلاقة ثنائية الاتجاه بين الطابع الاجتماعي الثقافي والمجال، يسعى بورديو إلى تجاوز التناقض الفكري العتيق بين النزعة الموضوعية والنزعة الذاتية وذلك بدمج تحليل خبرات الفاعلين الاجتماعيين من جهة وتحليل الأبنية الاجتماعية التي تجعل هذه الخبرات ممكنة من جهة ثانية في نموذج واحد (٨٤-٧٨٢: ١٩٨٨)، ثم ذبوع هذا النموذج فى الدراسات الإمبريقية لمجالات متعددة تتراوح من الآداب والعلوم إلى الاقتصاد والقانون. ولم يفترض بورديو أن هذا النموذج بمثابة "منظومة" عامة أو "خطاب" عام عن العالم الاجتماعى، ولكنه "آلة مؤقتة للبحث" تظهر جدواها من عدمه فى العمل العلمى الذى تساعد فى إنتاجه (١٥٩: ١٩٩٢ Bourdieu & Wacquant ١٦١؛ ٢٩: ١٩٩٣b) (لمزيد من المناقشة ارجع إلى: Calhoun. et al. ١٩٩٣). (Swartz ١٩٩٧).

وعلى النقيض مما سبق يؤمن والتر والاس بأن المنظر يمكنه فى نهاية المطاف أن ينظم "نسقاً لغوياً" عاماً أو "مصفوفة مفاهيمية واحدة" - تتألف من ثمانية متغيرات وصفية واثنى عشر متغيراً تفسيرياً - لاستخدامها فى علم الاجتماع، وهذه المصفوفة تشكل أساس الإجماع فى هذا العلم (٦٠: ١٩٨٨). وبهذا البرنامج غير والاس اتجاهه إلى المشروع الثانى، مع أنه لم يطرح أية ادعاءات حول الموالفة النظرية، وهو يعد منظومته لتكون بمثابة مصدر لمجموعة مصطلحات للبحوث الإمبريقية، أى أنها مخصصة لإيجاد أنواع متعددة من الوصف والتفسير (٩: ١٩٨٣، ٦٠: ١٩٨٨).

المشروع الثانى: الموالفة بين المداخل النظرية المتعددة

شجع تحليل النظريات الاجتماعية الموجودة - والتى لاقت انتقاداً من أنصار المشروع الأول - على المضى قدماً فى المشروع الثانى المعاصر. وينهض هذا المشروع على الإيمان الراسخ بأنه قد أصبح من الممكن الآن تحقيق موالفة نظرية بين الاتجاهات النظرية المتباعدة. ويرى بعض المنظرين أن هذه الموالفة تمضى قدماً الآن، ويرى آخرون أن هذه الموالفة فرصة حيوية ينبغى انتهازها.

وقد تنبأ ريتزر (١٩٨٨a, ١٩٩٠a) منذ عقد مضى بقدم عصر الموالفة النظرية، واليوم يمكن أن نعثر على محاولات فى طريق الموالفة فى اتجاهات متعددة: فى برنامج شيف لاحتواء المواقف النظرية المتعارضة فى العلوم الإنسانية فى مصفوفة أكبر باستخدام التحليل اللغوى المجهري Micro للخطاب فى سياق كلييات أشمل (-٧: ١٩٩٧، ١٠؛ وانظر أيضاً ١٩٩٠)؛ وفى "نظرية العلاقات الاجتماعية، والبناء الاجتماعى، والتطور الاجتماعى"، وهى نظرية تاريخية - كبرى Macro طرحها رينسمان كموالفة عامة تهدف إلى أن تقدم لدراسة المجتمع ما قدمه دارون لدراسة الأنواع (٦٠: ١٩٨٩b).

١٣: ١٩٨٩a; ٤٤٩، وانظر أيضاً ١٩٨٣)، وفي البيان الحديث لـ"امبرباير" عن علم الاجتماع الاتصالي الذي يحاول ربط التحليلات المجهرية الكبرى وصياغة إطار مرجعي موحد يحقق التقارب السريع بين مختلف المفكرين الاجتماعيين (٣١٢-٣١١: ١٩٩٧؛ ١٩٩٤ Emirbayer & Goodwin).

كما لاقى مشروع الموالفة النظرية ترحيباً من بعض الشخصيات البارزة في النظرية المعاصرة، ومنهم من يتعاطف مع التركيز على البحوث في المشروع الأول. إذ نجد جوناثان تيرنر يلح في اتخاذ الخطوات لكسر الحواجز التي تفصل بين المنظرين، والمضى قدماً في اتجاه الموالفة النظرية على المستويات الكبرى والوسطى والصغرى، خاصة المستوى الأخير الذي طرح عند نظرية توليفية عن التفاعل الاجتماعي (١٩٨٧، ١٩٩١، ١٩٨٨). وعلى الرغم من اعتراف تيرنر بأن الوصول إلى نظرية توحد بين جميع هذه المستويات أمر بعيد المنال، فإنه يعتقد بأن النظريات الموجودة عند كل مستوى تحتوى على عديد من الديناميات الفعالة للكون الاجتماعي، مما يجعل علم الاجتماع يقترب من النظرية العامة القابلة للاختبار الإمبريقي من النوع الموجود في العلوم الطبيعية، أي المبادئ الصحيحة التي تنطبق على مجالات عديدة (١٩٩١: ١٧، ١٩٨٩: ٥٩١).

ومع ذلك فقد أبدى تيرنر مخاوفه من سحق هذا الهدف من خلال النزعة المضادة للوضعية عند منظرين آخرين، أو من خلال الانقسامات التنظيمية المتعددة داخل علم الاجتماع (١٩٩٢، ١٩٩٠، ١٩٩٠؛ S. Turner & J. Turner). وبلغة أكثر تفاؤلاً يتصور كولنز نظرية شاملة لكل جوانب المجتمع، نظرية على شاكلة "نماذج تفسيرية عامة" للعمليات الاجتماعية الرئيسية، مع أن تلك النظرية لن تتشكل على الفور (١٩٩٢، ١٩٨١b، ١٢٤، ١٩٨٩: ١٣٥١، ١٩٨٦a).

وبالنظر إلى التجزؤ الحالي في علم الاجتماع، فإن مهمة المنظرين الآن هي أن يوازنوا بين الاتجاهات النظرية الموجودة، وأن يقيموا جسراً بين المجالات الرئيسية للبحث من أجل المقارنة والموالفة والتراكم، مثلما فعل كولنز في تحديده للقوة والمكانة كبعدين محوريين في شتى أشكال التفاعل، وفي اقتراحه بأن تكون "سلاسل التفاعل" Interaction Ritual Chain جزءاً من الأساس المجهرى للبناء الأكبر (١٩٩٠ Kemper & R. Collins; ١٩٨١a; ١٣٥٥، ١٩٨٦a: ٢٩٥، ١٩٩٤) (وانظر Fararo ١٩٨٩a،) أيضاً البرنامج الذي اقترحه فارارو عن "نظرية شاملة موحدة" (Fararo ١٩٨٩b، ١٩٩٦، Skvoretz & Fararo ١٩٨٦).

وظهرت أيضاً أشكال مهمة مختلفة لمشروع الموالفة بين من يرون أن النظرية

مستقلة استقلالاً كبيراً عن البحث الإمبريقي. وبمساواة النظرية بالافتراضات المسبقة العامة حول الفعل الإنساني والنظام الاجتماعي حاول الكسندر البرهنة على التقارب وشيك الحدوث عند هذا المستوى بين جميع النظريات الرئيسية الكلاسيكية والمعاصرة، معلناً أن الموالفة النظرية – وليست المجادلة النظرية – هي المهمة التي تنتظرنا اليوم (١٩٨٨d: ٧٧).

وحول مضمون هذه الحركة الجديدة تنبأ الكسندر وشجع على ما يلي: "موالفة متعددة الأبعاد بين وجهتي النظر المعيارية والنفعية للفعل، ووجهتي النظر المادية والمثالية للنظام (١٩٨٣-١٩٨٢)؛ والوظيفية الجديدة المستوحاة من بارسونز، والتي تعيد ترابط التنظير حول الفعل والنظام، الصراع والاستقرار، البناء والثقافة (Alexander ١٩٨٥ ; ٥٧ Alexander & Colomy ١٩٩٠)، والموالفة بعد البارسونية بين التحليل على مستوى الوحدات الصغرى والكبرى، بدمج الفعل والبناء، والذاتي والموضوعي - ٣٧٦ Alexander ١٩٨٧: ٤; Alexander & Giesen ١٩٨٧) (Alexander & Giesen ١٩٨٨b, d, ٣٧٧، وشكل جديد من النظرية الاجتماعية التوليفية التي تتجاوز الوظيفية الجديدة وتحمل معها موالفة بين التحليل على مستوى الوحدات الصغرى والكبرى في اتجاه النظريات الثقافية التي تتسع لنموذج الثقافة كلغة (Alexander ١٩٩٨: ٢٨٨, ١٩٩٥, ١٩٨٨c, ١٩٨٨). وعلى نفس المنوال كانت دعوة مانس ({١٩٨٢}) (١٩٨٧, {١٩٨٢}) (١٩٨٨) إلى موالفة تنهض على نظرية الفعل عند بارسونز، ثم أصبحت برنامجاً لموالفة جديدة تربط "نظرية بارسونز بالمداخل النظرية المتنافسة" التي تدرس الاقتصاد والسياسة ورموز الفعل (١٩٩٤, ١٤٩, ١٩٨٧).

واتبع جيدنز (١٩٨٤, ١٩٨٧, ١٩٩٥, ١٩٩٦) مساراً مشابهاً، حيث تنبأ بموالفة ثورية جديدة – تشق طريقها خارج نطاق علم الاجتماع لتلائم المجتمع العالمي في القرن الحادي والعشرين – تحل محل نظريات الماضي المتنافسة. وفي رأيه أن التقدم النظري هو ركيزة هذا التغيير. وليس المقصود بالتقدم النظري تراكم التعميمات كما هو الحال في العلوم الطبيعية، وإنما المقصود به التجديد في المفاهيم.

وعند هذا الحد يعيب جيدنز على البنائية والوظيفية أنهما أغفلتا أن الفاعلين في منتهى المهارة في الإنجاز العملي للأنشطة الاجتماعية، كما انتقد أيضاً الظاهرانية والمنهجية الشعبية لتجاهلهما "الإلزام البنائي" الذي يؤثر في هذه الأنشطة (١٩٨٧: ٤٣, ٢٦, xxvii, ١٩٨٤).

ويطرح جيدنز "نظرية التشكيل البنائي" كبديل يقر بازواجية البناء – أي حقيقة أن الصفات البنائية للأنساق الاجتماعية [أي قواعدها ومواردها] هي وسيط ونتاج

الممارسات التي تنظمها باستمرار من جهة، وينظر في مشكلة الظروف التاريخية الخاصة، والعلاقة بين النشاط المعرفي وإعادة الإنتاج الاجتماعي، تلك العملية التي تحدث بطريقة غير متعمدة من جهة أخرى (٢٥: ١٩٨٤، ٧٢: ١٩٩٦)؛ وانظر أيضاً (Cohen ١٩٨٩).

وبدرجة أكثر طموحاً ينبه لومان (١٩٨٥، ١٩٨٧، ١٩٩٥) إلى ضرورة تجاوز أزمة النظرية في علم الاجتماع لصياغة ما يراه "نظرية موحدة عن الأنساق الاجتماعية". وإيماناً منه بأن هذه الأنساق لا تتألف من أفعال وإنما تتألف من تبادل الأفكار، وتحليل كيفية ظهور هذه الأنساق أو تكيفها مع البيئة من خلال هذا التبادل، يرى لومان في هذا المدخل أساساً مطلوباً لنظرية شاملة عن ما هو اجتماعي، نظرية لكل شيء اجتماعي (xxxvii & lvii: ١٩٩٥).

ولا يمكن أن ندع التناقض في هذه المشروعات المتعددة للموافقة النظرية دون أن نبدي ملاحظتنا عليه. فعلى الرغم من اتحاد هذه المشروعات في برنامج الموافقة، إلا أنها تختلف حول جوهر هذا البرنامج، حيث تقطع جزءاً منه وتركز عليه. ولا بد من التأكيد على أن هناك تداخلاً في المصطلحات (الفعل/البناء، الوحدات الصغرى/الوحدات الكبرى)، وتشترك مشروعات عديدة (وليس جميعها) في اهتمامها بتجاوز هذه التقسيمات، وشاعت الدعوة إلى التوفيق بين النظام / التغيير أو الإجماع / الصراع منذ جيل مضى. ويسلم المناصرون للموافقة النظرية بأن النظريات الحالية تستخدم مصطلحات مثل الوحدات الصغرى والكبرى بشكل مختلف تمام الاختلاف، ولا تضع أسساً ملائمة للتعامل مع التكامل بين الوحدات الصغرى والكبرى (Ritzer. ١٩٨٨b: ٧٠٦-٧٠٥). ويخلص تيرنر وتيرنر (١٧٠: ١٩٩٠) من مسح هذه المشروعات المتعددة للموافقة النظرية إلى أن: "النظريات التوفيقية المعاصرة أخفقت في تحقيق الوحدة النظرية"، واتخذ هولموود وستيوارت (١٩٩٤) من هذا الإخفاق فرصة لإثارة مشكلات تفسيرية جديدة.

المشروع الثالث: صقل البرامج البحثية في مجال النظرية

يرى بعض الباحثين أمثال برايان تيرنر (١٩٩٦a، ١٩٨٩) أن تنافر النظريات التوليفية يجعل التجزؤ والانقسام – بدلاً من التراكم الناجح – هو الاتجاه السائد في نظرية علم الاجتماع، على الرغم من وجود استثناءات من هذا النمط. وهذه موجودة في جيوب علم الاجتماع، والتي كانت يطلق عليها "مدارس"، أي في المجالات الملتزمة بتوجه نظري واحد يرتبط بالبحث الإمبريقي ارتباطاً وثيقاً (٩-١٠: ١٩٩٦a; B. Turner). ويشكل التطور المستمر لهذه "البرامج البحثية النظرية" (إذا استعرنا المصطلح من فاجنر

وبيرجر (D. Wagner & Berger ١٩٨٥) المشروع الرئيسى الثالث فى مجال النظرية المعاصرة.

وتعد نظرية الاختيار الرشيد أبرز هذه المداخل. ويدخل تحت هذا العنوان نظريات مختلفة بعضها يوحى بالأهداف التوليفية للمشروع الثانى (انظر: Abell ١٩٩٦a, Lindemberg ١٩٨٦, ١٩٩٣, Coleman ١٩٨٩). ويتحرر هذا المدخل - إلى حد نموذجى - من موضوعات عديدة ليتركها لنظريات أخرى، حتى يركز على بناء نماذج صورية (شكلية) للعمليات التى من خلالها يتحد الفاعلون المترابطون لإنتاج المخرجات الاجتماعية.

ثم يسعى هذا المدخل إلى التوسع فى الميدان الإمبريقي لهذه النماذج (Coleman ١٩٩٦b; Abell ١٩٨٣; Hechter ١٩٩٠, Coleman ١٩٩٠a: xi- xii; Fararo & فى هذا السياق يعمل أصحاب نظرية الاختيار الرشيد حالياً على دمج البناء الاجتماعى فى نماذج الاختيار الفردى (Macy & Flache ١٩٩٥)، واستخدام هذه النماذج فى مجالات كان يبدو من المستحيل تطبيقها عليها مثل دراسات الأسرة والدين والنوع الاجتماعى، والبحوث حول التضامن الاجتماعى (Hechter, ١٩٨٣, ١٩٨٧; Kanazawa & Barnes ١٩٩٧). **وحول النقد الموجه لهذه النظرية** انظر: (Coleman & Fararo ١٩٩٢, England & Kilbourne ١٩٩٠, Smelser ١٩٩٨).

وهناك مشروع نظرى مماثل يتم صقله حالياً فى سياق الماركسية التحليلية. وهنا نرى النماذج الصورية (الشكلية) للاختيار الرشيد يتم صقلها كجزء من برنامج لإخراج الماركسية من القرن التاسع عشر لتوضيح مفاهيمها المحورية، ولإختبار أطروحاتها البنائية - الكبرى Macro على أسس صغرى Micro تحدد ميكانيزماتها العليا، ولتطبيق هذا المنظور على البحوث المتعلقة بالبناء الطبقي، والاستغلال... الخ. (Wright ١٩٨٦, ١٩٨٦, Mayer ١٩٩٤, Elster ١٩٨٥, ٤٩-٤٧، **وحول النقد الموجه لهذا المشروع** انظر: Baurwoy ١٩٨٩).

ومن الاهتمامات المعاصرة لمشروع الصقل النظرى نظرية المكانات المتوقعة Expectation Status Theory التى توصل جهودها لصوغ مفاهيم وقضايا عامة تصف وتفسر بناء المكانة للجماعات الصغيرة، والامتداد بهذه الأفكار إلى جوانب أخرى لعمليات التفاعل الجماعى، واختبار هذه الصياغات إمبريقياً (Berger et al. ١٩٨٩, Berger & Zelditch ١٩٩٣, Fisek et al. ١٩٩٥, D. Wagner & Berger ١٩٨٥). وقد تفرع عن هذا البرنامج برامج فرعية عديدة إلى جانب المحاولات النشطة للتكامل بينها، وكل خطوة جديدة تستلزم صياغة للنظرية أكثر وضوحاً، وإجراء البحوث لاختبار

مضمونها المصقول (D. Wagner & Berger ١٩٨٥). وبهذه الطريقة يعكس برنامج المكانات المتوقعة التطورات فى المداخل الصورية (الشكلية) الأخرى لتحليل التفاعل مثل نظرية التبادل، وتحليل الشبكات الاجتماعية، والمشروعات التى تجمع بينهما (انظر: Burt ١٩٩٢, Cook ١٩٨٧, Cook & Whitmeyer hitmeyer White ١٩٩٤؛ وقارن مع ١٩٩٤ Blau).

وثمة مشروعات نظرية أخرى ذات صلة بالمداخل النظرية الصورية (الشكلية)، ومنها التفاعلية الرمزية التى نهضت من سباتها خلال الستينيات والسبعينيات، حيث تمر الآن بحالة من "الإحياء" و"التثوير" بالإبقاء على جانب من اهتمامها التقليدى بالأسس العيانية للتفاعل: المعنى، والهوية، والذات؛ مع التحرك فى اتجاهات جديدة بالتحول نحو القوة والتاريخ والجوانب المميزة للبناء الاجتماعى كموضوعات للبحث والتنظير فى التفاعلية من جهة (٢٣٦-٢٣٨: Plummer ١٩٩٦)، وإقامة جسور للتواصل مع النظريات الأخرى المعاصرة خاصة الدراسات الثقافية ونظرية ما بعد الحداثة من جهة ثانية (Denzin ١٩٩٢, Fine ١٩٩٣, Goffman ١٩٨٣, Joas ١٩٨٧, Becker & Stryker ١٩٨٧, McCall ١٩٩٠). وفى المنهجية الشعبية بدأ يلوح فى الأفق بشكل واضح برنامج متنوع ومتواصل لتطوير البحث فى النظرية (Maynard & Clayman ١٩٩١).

المشروع الرابع: الحوار بين المداخل النظرية المتعددة

إذا كان تعدد المواقف الموجودة داخل مجال النظرية قد دفع بعدد من المنظرين إلى شجب التجزؤ، ووجدوا ضالتهم - كبدل عن ذلك التشتت - إما فى البحث الإمبريقي أو فى تصور موالفة تشمل جميع النظريات، أو فى التعلق بمدخل نظرى بعينه، أو الاندفاع إلى العمل فى مشروع راجح يقوم على الترحيب بالمداخل النظرية المتعددة باعتبارها فرصة كامنة لحوار نظرى مثمر.

ويرتبط هذا البرنامج بالمشروع التعددى الذى اقترن منذ جيل مضى بمنظرين أمثال ميرتون، الذى يؤمن بأن "تعدد النماذج لا يشكل أزمة عميقة يتلوها ركود، بل إن الأزمة تكمن فى قبول علماء الاجتماع لنموذج نظرى واحد على أنه الدواء لكل داء". (Merton, ١٩٧٥ قارن مع: Rorty ١٩٧٩, Eisenstadt & Curelaru ١٩٧٦). غير أن الحوار الحالى لا يسعى فحسب إلى التشديد على وظائف التنوع النظرى، بل يسعى أيضاً إلى الاعتراف بالجمع والتفاعل بين الاتجاهات النظرية المختلفة وتعزيزه، وهو هدف قد يُفهم بطرق مختلفة.

ويُنظر إلى الحوار النظرى فى بعض المشروعات المعاصرة - على سبيل المثال -

على أنه وسيلة لتحقيق أنواع أخرى من الأهداف النظرية منها بناء الأدوات (Rule ١٩٩٧) والموافقة النظرية الكلية (أو الجزئية) (Munch ١٩٩٤, Collins ١٩٩٤) وإعادة بناء النظرية (Calhoun ١٩٩٥، وانظر أيضاً Bauman ١٩٩٢).

وإلى جانب هذه الاستخدامات النفعية للحوار، فقد أصبح هذا الحوار مشروعاً في ذاته ولذاته على يد كل من موزيليس (١٩٩٥) وويلي (١٩٩٠) وليفين (١٩٨٦، ١٩٩٥). وإيماناً منه بأن تبادل الأفكار – أى الفهم الرصين لوجهات النظر الأخرى – هو الدواء الذى يشفى من التجزؤ، فقد عهد ليفين إلى المنظرين مهمة تشجيع روح الحوار، وذلك بتقدير قيمة الصور المتعددة لمعرفتنا الاجتماعية، ومن ثم بناء لغة مشتركة يمكن للعلماء الاجتماعيين استخدامها فى حوارات بناءة حول الاختلاف فى وجهات النظر، مع الانفتاح على مدى أوسع من البدائل (٣٢٩، ٣٢٤، ٣٠٥، ٢٩٧، ٢: ١٩٩٥). وقد شكل هذا المشروع أساس المحاولات التى قام بها ليفين (١٩٨٥، ١٩٩١) لدراسة التفاعل الجدلى بين أفكار زيمل وبارسونز، ويمكن أن نرى هذا التفاعل فى أعمال الدارسين الذين انشغلوا بالحوار بين ماركس وفيرير (١٩٨٧، Wiley ١٩٨٥، Antonio & Glassman).

المشروع الخامس: توسيع / إعادة بناء المداخل النظرية الحالية

كانت البدائل المتاحة أمام عدد من المنظرين المعاصرين محدودة فى بعض الجوانب، ولذلك تمثل مشروعهم فى تحديد الثغرات النظرية والمنهجية والاجتماعية والأخلاقية أو السياسية فى الاتجاهات النظرية الموجودة، والعمل على ملء هذه الثغرات، ومن ثم استنباط ما ينطوى على توسيع النظرية فى علم الاجتماع من دلالات بنائها، تلك الدلالات التى تختلف فى مداها وعمقها من منظر إلى آخر.

وقد كانت الاقتراحات المتعلقة بالتوسيع النظرى متعددة ومتنوعة ومتباعدة المسافات ما بين برنامج برايان تيرنر ليشمل الجسد البشرى وتجاوز إهمال نظرية علم الاجتماع لأوضح حقائق الوجود الإنسانى، وهى أن البشر لهم أجساد (٤١: ١٩٨٤)، إلى الخطوات التى قام بها الكسندر (١٩٨٨a) وآرشر (١٩٨٨)، وكونور (١٩٩٦) وهول J. Hall (١٩٩٠b)، وسومرز (١٩٩٥)، وسويدلر (١٩٨٦)، لتنبية النظرية المعاصرة إلى الأبعاد البنائية والرمزية والمؤسسية للثقافة، وإلى الأعمال الحديثة فى الأنثروبولوجيا والدراسات الثقافية.

وفى موضع آخر دعا تيرنر S. Turner (١٩٩٤) وكاميك (١٩٨٦، ١٩٨٩) إلى إعادة الاهتمام بالفعل الاعتيادى Habitual Action. حيث نجد تيرنر يهاجم مفهوم الممارسات الاجتماعية، ونرى كاميك يدافع عن علم اجتماع أشكال الفعل أو علم اجتماع الممارسات. ودعا منظرون آخرون إلى الانهماك النظرى بمراجعة مفاهيم الذات

(Campbell ١٩٩١, Wolfe ١٩٩٤, Wiley ١٩٩٤, Seidler ١٩٩٤) والعاطفة وعدم الرشد (Urry أيضاً ١٩٩٦) Scheff ١٩٩٧, Sica ١٩٨٨) حول غياب موضوع الزمان والمكان فى نظرية علم الاجتماع قبل بدايات الثمانينيات).

ويعد مفهوم الفعل الاتصالى Communicative Action عند هابرماس من الجهود الرائدة فى سياق المشروع الخامس. وانطلاقاً من محاولة الفاعلين التكيف مع الظروف، نجد أن الأفعال التى يقومون بها لا يتم التنسيق بينها من خلال حسابات النجاح - كما هو مفترض فى النظريات التى تعرف الفعل بمصطلحات نفعية أو موجهة نحو هدف وما إلى ذلك - ولكن من خلال الوصول إلى الفهم الذى يعد بمثابة عملية تعاونية للتفسير. وبناءً على ذلك كان مفهوم الفعل الاتصالى مفهوماً مضاداً شاملاً؛ أى وسيلة لإعادة صياغة مفهوم الرشد (مثل الرشد الاتصالى)؛ ولتنظيم العالم الاجتماعى (مثل العلاقة بين عالم الحياة القائم على الاتصال من ناحية والعمليات الذرائعية للنسق من ناحية ثانية)، وأيضاً تطور المجتمع ووضع الحال (Joas ١٩٩١: ٩٩-١٠١, Joas ١٩٨٤, {١٩٨١} Habermas, {١٩٨٣} ٢٠٠٥-٨٥, وانظر أيضاً {١٩٨٩} Habermas, {١٩٩٠} ١٩٨٣, {١٩٨٥} ١٩٩٢, {١٩٨٨} ١٩٩٦, {١٩٩٢} Calhaun ١٩٩٢a, Honneth, {١٩٩١} Joas &).

وحديثاً قدم جوس - الذى انتقد نظريات هابرماس - بديلاً طموحاً عن المداخل النظرية السائدة للفعل، ويجمع هذا البديل فى بؤرته "إبداع الفعل"، أى البعد الإبداعى الكامن فى جميع الأنشطة الإنسانية (Joas ١٩٩٣, ١٩٩٦, Joas ١٩٩١b: ٤, Honneth & Joas). ونظراً لأن الاتجاه بين المنظرين المعاصرين إلى اختزال الفعل الاجتماعى إلى ثنائية الفعل الرشيد فى مقابل الفعل المعيارى ينطوى على مثالب، فقد اعتمد جوس على الرواد الأوائل للفلسفة البراجماتية الأمريكية لإيضاح أن الفعل بجملته يأخذ شكلاً متبدلاً بين "الفعل الاعتيادى الطائش" وابتداع نمط جديد من الفعل الذى يترسخ تدريجياً ومن ثم يصبح هو نفسه وتيرة طائشة (١٢٩: ١٩٩٦). وقد استخدم جوس هذا التوجه لإعادة بناء نظريات فى الثقافة المعاصرة، والفعل الجمعى، والتفسير الاجتماعى.

واتخذت الاقتراحات المتعلقة بملء الثغرات من النوع المنهجي أشكالاً متعددة. وبدأت البرامج المطروحة فى انتقاد الفلسفة الوضعية للمعرفة التى لا تزال تهيمن على مجال النظرية، وتضمنت تلك البرامج محاولات لربط نظرية علم الاجتماع بالتطورات الحديثة فى الفلسفات الواقعية والتأويلية (الهرمطيقية) للعلم (Quthwate ١٩٨٧, ١٩٩٦, Sayer ١٩٩٢, Shapiro & Sica & Sica ١٩٨٤). جنباً إلى جنب مع بعض الدروس المعرفية (الابستمولوجية) المتنوعة للنظرية النقدية، والنظرية النسوية، ونظرية ما بعد

البنائية، ونظرية ما بعد الحداثة، وعلم اجتماع العلم، (Agger ١٩٩١, DeVault ١٩٩٦, Fuller ١٩٨٨, J. Hall ١٩٩٠a).

وثمة اتهام موجه إلى الأعمال في مجال النظرية على يد الجيل السابق من المنظرين مؤداه أنها أهملت التاريخ، وطبقت مصطلحات نظرية عمومية على جميع جوانب الحياة الاجتماعية بغض النظر عن الزمان والمكان (٢-٣: Skocpol, ١٩٨٤). وقد شجع هذا الانتقاد على تقديم إسهامات نظرية عديدة في العقدين الماضيين تأخذ في اعتبارها مواصفات الزمان والمكان (حول هذه الإسهامات انظر: Mandaliou ١٩٩٦). ومن هذه الإسهامات نذكر نظرية مان (١٩٨٦, ١٩٩٣) عن القوة الاجتماعية، ومحاولات سيويل (١٩٩٢, ١٩٩٦) لإعادة صياغة مفهوم البناء الاجتماعي عند جيندز، ولجعل "الأحداث" Events مقولة نظرية مهمة (انظر أيضاً: Abbott, ١٩٩٥).

وربما كان "واقع التمايزات" Reality of Differences (Lemert ١٩٩٥) هو أوضح بؤر الاهتمامات الحالية، ذلك الواقع الذي تم إغفاله، وسلطت الضوء عليه الحركات الاجتماعية المتعددة المعاصرة. ويعرف كالهون (١٩٩٥: xix-xxii) Calhoun واقع التمايزات بأنه "المشروع الأساسي والملح لتطوير طرق جادة لدراسة التمايزات الفئوية الرئيسية" مثل النوع الاجتماعي، والأعراق، والإثنية، والجنسية Sexuality، واللغة، والطبقة، والإقليم، والأمة.

ومن بين هذه التمايزات نال موضوع النوع الاجتماعي الاهتمام الأكبر مع الهجوم الضارى الذى شنته عالمات النسوية على نظرية علم الاجتماع لافتراضاتها الحصرية على جوانب الواقع الاجتماعي التى تستحق التحليل، وتهميشها الإسهامات النسوية، واعتمادها الذكوري على "ثنائيات منطقية"، ونزوعها إلى قمع أفعال الأفراد وعزوها إلى الظواهر الاجتماعية (٤٩: Smith ١٩٨٩, ٩٣: Sprague ١٩٩٧، وانظر أيضاً: Wallace ١٩٨٩, Stacey & Thorne ١٩٨٥, ١٩٩٦, Lengerman & Niebrugge ١٩٩٥, Alway ١٩٩٥, Brantley ١٩٩٠).

وبناءً على هذه الأسس اقترحت منظرات النسوية درجات متفاوتة من إعادة بناء النظرية اشتملت فى بعض الأحيان على تضمين النوع الاجتماعي فى المداخل النظرية الراسخة (١٩٨٨, Chafetz ١٩٨٨, Walby ١٩٨٨)، واشتملت فى أحيان أخرى على بدائل راديكالية - فى أهدافها وإجراءاتها - عن جميع المداخل الموجودة (Smith ١٩٩٠, ١٩٨٥, Haraway ١٩٩٣، ولاستعراض هذه المحاولات انظر: Chafetz ١٩٩٧, Lovell ١٩٩٦, Clough ١٩٩٤).

وظهرت اتجاهات نظرية مترابطة تمثلت فى المطالبة بنظريات عن الاضطهاد

والنضال والأمومة والمجتمع المحلى، وبنيت هذه النظريات من وجهة نظر النساء السود، وهى وجهات نظر فريدة لم تكن متاحة للجماعات الأخرى (P. Collins ١٩٩٠: ٣٣). كما تمثلت تلك الاتجاهات النظرية فى نقد نظرية علم الاجتماع لتجاهلها اهتمامات وإسهامات الشعوب الملونة فى كل من العالم الغربى وعالم ما بعد الاستعمار (Connell ١٩٩٧، ١٩٩٦، S. Hall ١٩٩٣، Gilroy)، وتمثلت كذلك فى الادعاء بأن هذه النظرية تحاشيت أيضاً مسائل الهوية الجنسية من خلال عدم الاكتراث بالشواذ والسحاقيات والجنسيين المثليين والمتوحدين مع الجنس المضاد Transsexuals، ومن خلال عدم الرغبة فى إعادة النظر فى المصطلحات الأساسية للنظرية من منظور الاختلاف الجنسى Sexual Difference (Butler ١٩٩٣، Clough ١٩٩٤، Seidman ١٩٩٦).

ووسط هذه التطورات وجهت اتهامات عديدة إلى نظرية علم الاجتماع لاستبعادها للقضايا الأخلاقية، واقتلاعها من جذورها لى تتحول إلى مشروع منفصل من المشكلات التجريدية التى تفتقد الدلالات المباشرة للمشروعات اليومية للعمل والاعتقاد الأخلاقى والسياسى (Levine ١٩٩٥، B. Turner ١٩٨٩، Wardell & S. Turner ١٩٨٦: ١١).

ويشكل الانشغال بإنهاء هذا الاستبعاد فكرة مهيمنة فى كثير من الأعمال التى عرضنا لها فى هذا القسم، وبعض هذه الأعمال يناصر مناصرة واضحة تجديد "النظرية النقدية" كما فى حالة هابرماس من وجهة نظر الرشد الاتصالي، وكالهنون من منظور "التمايز" أو "الاختلاف" Difference. كما يتضح الاهتمام الملموس بالنظرية كمشروع أخلاقى وسياسى فى مصادر أخرى عديدة منها برنامج سيلزنيك (١٩٩٢) لبناء "النزعة الجماعية الاشتراكية الليبرالية" على أسس النظرية الاجتماعية البراجماتية (النفعية) (Wallerstein ١٩٩٣، Horowitz ١٩٩٦، Etzioni ١٩٨٥، Bellah et al. ١٩٩٧، Wolfe ١٩٨٩).

المشروع السادس: الانشغال بالأفكار النظرية الماضية

يختلف أنصار المشروعات السابقة اختلافاً واضحاً فى اتجاههم نحو الضرب السادس من ضروب النشاط النظرى؛ ونقصد به تحليل الأفكار النظرية المهمة الجديدة الموجودة فى كتابات المفكرين الاجتماعيين فى الماضى؛ وهو مشروع يجمع بين المنظرين الذين يعملون على تطوير بعض هذه المشروعات المعاصرة من ناحية والعلماء الذين ابتعدوا نسبياً عن هذه المحاولات من ناحية ثانية.

ويتسع مجال العمل الذى يندرج تحت هذا المشروع اتساعاً شديداً. ولقد شهدت السنوات الحديثة انهماكاً فى البحوث حول أبرز المنظرين الكلاسيكيين: كونت، وسبنسر،

وماركس، ودوركايم، وفيبر، وزيميل، وميد (لمزيد من التفاصيل انظر: Camic 1997a)، ناهيك عن إحياء نظرياتهم مثلما هو الحال فى الفيبرية الجديدة (1986b) R. Collins، 1996، 1992، 1987، Eisenstadt، 1994، Kalberg، 1993 Lenhman & Roth، 1989، Scaff، 1989، Schluchter، 1988، Sica، 1987 (Whimster & Lash). كما تزايد الاهتمام بأفكار شخصيات معاصرة مثل بارسونز، ومناهيم، وميرتون، وجارفينكل (1992، 1991، Camic، Crothers، 1987، 1984، Heritage، 1922، Hilbert، 1984، Kettler et al.، Sztompka، 1986)، وبأعمال المفكرات الأوائل (1994، McDonald)، والمفكرين من أصول أفريقية (1994a، Seidman، 1993، Lemert)، وطائفة منسية من المنظرين (1995-1994، Sociological Theory) أشهرهم نوربرت إلياس (1997، Fletcher) (1989، Mennell).

ولا يمكن استعراض هذه الدراسات هنا كل على حدة، وهى بصفة عامة تعد فى حد ذاتها مشروعات تتكامل مع مجال النظرية على أسس مختلفة، وليست إسهامات إلى تاريخ علم الاجتماع. وتنطلق هذه الدراسات من ادعائين أولهما نفعى مؤداه أن الماضى يحتوى على مفاهيم وتعميمات تستحق الاستعادة والاستخدام من أجل التصدى للمسائل البحثية المعاصرة (3: 1986b، R. Collins)، وثانيهما ادعاء غير نفعى هو أن الحوار مع العقول العظيمة من خلال كتابات نسيج علمى بسيط يعد خبرة حيوية (1996، Poggi 42-40، قارن مع: Alexander 1989). وبين هذا وذاك يدعو بعض العلماء إلى التطبيق الدقيق للمناهج التأويلية على الأعمال النظرية السابقة بدلاً من تفكيك النظريات الكلاسيكية بحثاً عن أجزاء قابلة للاختبار، وتسعى هذه المناهج إلى فهم شمولى لمشروع كل منظر (138: 1988، Sica). وبهذه الطريقة يوسع هؤلاء العلماء من مجال البدائل النظرية لتجاوز حدود الإمكانات الحالية، وكذلك الكشف عن العمليات التاريخية العارضة التى تأسست عليها بعض المداخل النظرية على حساب المداخل الأخرى (1997b، Camic، قارن مع: 1995، Calhoun، S. Turner، 1996 a).

المشروع السابع: تشخيص الأوضاع الاجتماعية المعاصرة

يشكل الواقع الاجتماعى الراهن - وليست الأفكار النظرية الماضية - محور اهتمام المشروع السابع. وينيط هذا المشروع بالنظرية مهمة أن تقدم لأواخر القرن العشرين ما قدمه المنظرون الكلاسيكيون لعصرهم، وهذا ما يتطلب الآن تمحيصاً دقيقاً، أى تحليل ماهية الحداثة ودينامياتها، والقوى الاجتماعية التى تشكل الحياة الإنسانية فى الفترة

الحالية.

ويسير هذا المشروع في بعض الأحيان في اقتران وثيق مع المشروعات الأخرى التي حددناها آنفاً. فعلى سبيل المثال نرى هابرماس (١٩٨٩ {١٩٨١}) – استناداً إلى مفهوم الفعل الاتصالي عنده – يدرس العالم الحديث دراسة وصفية ومعيارية في ضوء التغلغل أو "الاستعمار" المتزايد للعمليات الاتصالية لعالم الحياة، ذلك التغلغل الذي نجده في مجالات منها الأسرة والمناقشات العامة من خلال العمليات الهادفة للأنساق الاقتصادية والسياسية والقانونية. واعتمد لومان بدوره على نظرية النظم Systems Theory في ادعائه بان النظم الوظيفية في المجتمع الحديث لديها إمكانية التسيير الذاتي Self-Steering، ومع ذلك توجد حدود متوارثة على المدى الذي يمكن به أن يقوم النظام السياسي بتنظيم المجالات الاجتماعية الأخرى تنظيمياً فعالاً (٤٥: ١٩٩٧).

وفي رأى لومان أن العالم المعاصر ينفرد بمطالبته الشديدة لهذا التنظيم؛ ومن هنا فإن تحليل حدود التسيير المجتمعي يشكل جزءاً من الوصف الذاتي للمجتمع الحديث (٥٤: ١٩٩٧). ومن جانبه جند جيدنز نظرية التشكيل البنائي ليصف العصر الحالي للحدث المتأخرة بالترابط المتزايد بين التنظيم الانعكاسي للهوية الذاتية (عندما يواجه الأفراد أشكالاً متميزة من المخاطرة وسط تحول الصداقة الحميمة وعلاقات الثقة) من جهة، والعولمة بأبعادها الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية من جهة ثانية (١-٦: ١٩٩١ Giddens، وانظر أيضاً: ١٩٨٧، ١٩٩٤b، ١٩٩٦).

ولم ينفرد جيدنز وحده بهذا التشديد على العولمة، إذ يرى ألبروف أن علماء الاجتماع المعاصرين يندفعون بحماس عاجل إلى إعادة كتابة الموضوعات القديمة في ضوء عمليات العولمة (٧٣٢: ١٩٩٣). وهذا ما يجسده بصفة خاصة علم الاجتماع البريطاني (انظر على سبيل المثال: ١٩٩٠ Featherstone، ١٩٩٢ Robertson). إلا أن أعمال ألبروف الحديثة (١٩٩٧) عن العولمة، ومحاولة سكلير (١٩٩٥) تجاوز وجهات النظر المتمركزة حول الدولة بشأن النظام الكوني إلى نظرية في "الممارسات عبر الحدود القومية" Transnational Practices، وتحليل ماير وزملائه (١٩٩٧) لانتشار نموذج الدولة القومية في سياق "المجتمع العالمي" – كلها جميعاً ضروب من التفكير الدال على تنامي الاهتمام بديناميات وتداعيات الأنماط الجديدة للترابط بين مجتمعات العالم ومؤسساته وشعوبه.

وقد اتخذت محاولات تنظير الأوضاع المعاصرة اتجاهات عديدة، إذ يرى تورين أن الحياة الاجتماعية تتشكل من خلال النضال والتفاوض حول تحقيق اتجاهات ثقافية، ذلك النضال الذي يتمركز في مجتمع ما بعد الصناعة اليوم حول إنتاج وتوزيع

التصورات والمعلومات واللغات توزيعاً جماهيرياً، وهذا بدوره يحول النشاط التحليلي باتجاه الحركات الاجتماعية المعاصرة (١٩٨٨، ٣٨٥: ١٩٩٥)، وانظر أيضاً: Offe (١٩٩٣، Eder ١٩٨٥).

ويذهب بيك إلى أن العالم الحديث شهد انبعاث "الذاتية السياسية" نتيجة لظهور "مجتمع المخاطرة" الذي تكتنفه المخاطر البيئية، وهنا نجد المخاطر المعترف بها اجتماعياً تتضمن انفجاراً سياسياً خاصاً يلهب النشاط خارج دائرة علم السياسة التقليدي (١٩٩٢: ٢٤، ١٨: ١٩٩٤).

واهتم المنظرون في أعمال أخرى بمجال الحياة العامة (Calhoun, ١٩٩٢a)، والهويات السياسية (Calhoun, ١٩٩٤)، وانهيار المعسكر الشيوعي (Offe, ١٩٩٧)، وانحسار أيديولوجية النزعة الإصلاحية الليبرالية (Wallerstein, ١٩٩٥)، والشكوك حول وضوح العالم الاجتماعي وتشكله (P.Wagner, ١٩٩٤)، والمنظرات حول المواطنة (B.Tumer, ١٩٩٣, Laclau, ١٩٩٠)، وطبيعة الرأسمالية المعاصرة (Lash ١٩٨٧, & Urry, ١٩٩٢)، والثقافة (Bauman, ١٩٩٢) (وانظر أيضاً: ١٩٩٦ {١٩٧٦} Bell) – كل ذلك من أجل التواصل الفكري مع الخصائص المميزة للحقبة التاريخية الراهنة.

المشروع الثامن: فناء نظرية علم الاجتماع

مع اهتمام المنظرين بلامح العصر الحالي ظهر مشروع مختلف تمام الاختلاف – يمكن وصفه بأنه مشروع مضاد – يتمثل في الاقتراحات المتعلقة بإعلان وفاة مشروع نظرية علم الاجتماع. وتطالب هذه الاقتراحات عموماً بتطوير متعدد المداخل لأنساق تفسيرية نقدية علمية غير اجتماعية، وتستند هذه الاقتراحات على قبول هجوم ما بعد الحداثة على النظرية العلمية – الاجتماعية وعلى حقيقة ما هو اجتماعي.

وقد أعلن ليمرت تحديه للنظرية، حيث استخدم الانتقادات المعرفية لنظرية ما بعد الحداثة ليزعم أنه أياً ما تكون النظرية الاجتماعية اليوم، فإن لديها خيارات ضئيلة لقبول أو تجنب أو رفض الشكوك الجوهرية والمتواصلة حول المفردات النهائية المتاحة للاستخدام في الحديث عن العالم الاجتماعي (١٩٩٢: ٢٠). وبناءً على ذلك يؤمن ليمرت (١٩٩٢، ١٩٩٣، ١٩٩٤a,b, ١٩٩٥) بأنه يتعين على المنظرين في علم الاجتماع أن يتخلوا عن طموحاتهم بأن يكونوا متعهدين للحقائق العلمية التجريدية، وبدلاً من ذلك عليهم أن يكونوا "ساخرين"، أي أن يكونوا مفكرين يعترفون بأنه لا يوجد لغة نظرية للفصل الموضوعي بين الادعاءات الصادقة المتنازعة.

واعتماداً على مفكرين أمثال فوكوه (١٩٧٢) وليوتار (١٩٨٤) بدأ سيدمان بشن

هجوم مماثل على نظرية علم الاجتماع لطموحاتها العمومية والشمولية، مع ملاحظة أنه لما انتزع منظرو ما بعد الحداثة قناع الامتياز المعرفى من نظرية علم الاجتماع، بدت النظرية العلمية – الاجتماعية كقوة اجتماعية وقعت فى شرك نضالات ثقافية وسياسية معينة (١٢٤: ١٩٩٤c).

وهذا النوع من نظرية علم الاجتماع ينبغى إذن إحلاله بمجموعة متنوعة من "النظريات الاجتماعية" فى شكل "قصص" Narratives اجتماعية عامة تربط بين قصص الأصل والنمو، وقصص الأزمة والنكوص أو التقدم، ولكنها لا تدعى أنها تكشف اللغة الحقيقية التى تعكس الكون الاجتماعى (١٢٠: ١٩٩٤c). يضاف إلى ذلك أنه نظراً لعدم وجود سيطرة لعلماء الاجتماع على هذه القصص، فإن المنظرين بحاجة إلى تحريك علم الاجتماع بعيداً عن دوره التاريخى كعلم، والانفتاح على رؤى حول ما هو اجتماعى من النظرية النسوية، ودراسات ما بعد الاستعمار، ونظرية الورطة Queer theory وما إلى ذلك (٢٦٨: ١٩٩٤a: Lemert,؛ وانظر أيضاً: (B.Turner, ١٩٩٠, Seidman, ١٩٩٤c).

وكان مفهوم "الاجتماعى" إشكالية عويصة بالنسبة لبعض العلماء المعاصرين، ومنهم جيم (١٩٩١) الذى أشار إلى أن كتابات بارثيس وديريدا واريجاراى أوضحت أن ما هو اجتماعى مكتوب، ولا يوجد شئ له منطق خارج الأنظمة الثقافية (٤: ١٩٩١). ولهذا السبب فإن جميع أشكال نظرية علم الاجتماع التى تقترض أن المصطلحات النظرية تصوير مثالى للواقع لا بد أن تفسح الطريق لعلم الاجتماع التفتيكي Deconstructive sociology الذى يتخيل ويحلل ما هو اجتماعى باعتبارها نصاً ينبه إلى مصالح القوة التى تكمن وراء التفكير التصورى (انظر أيضاً: Clough ١٩٩٣, Brown ١٩٩٠).

وعلى النقيض من ذلك يرى بودريار (١٩٨٣) أن الفترة التاريخية الحالية ذاتها علامة على نهاية فترة ما هو اجتماعى. ونتيجة للانتشار المعاصر لتكنولوجيا المحاكاة Simulation، فقد اصبح نشاط التصوير (التمثيل) مستحيلاً، وانهار ما هو اجتماعى باعتباره تصويراً للواقع. يقول بودريار: "أن ما هو اجتماعى موجود فقط فى حيز المنظور، ويموت فى حيز المحاكاة" (٨٣: ١٩٨٣). وفى ظل هذه الظروف تفقد نظرية علم الاجتماع بالضرورة كل حيويتها باعتبارها خطاباً عن ما هو اجتماعى (انظر: ١٩٩٠ Bogard, ١٩٨٦, Denzin, ١٩٩١, Gane, ١٩٩٤, Kellner), ولمزيد من المناقشات النقدية انظر: (Seidman ١٩٩٤b, Siedman & D. Wagner ١٩٩٢, Bauman ١٩٩٢).

مناقشة وخاتمة

هناك مجالات فى علم الاجتماع تبرهن على أن وجود هذا العدد من المشروعات الراجحة والمتنوعة دليل على النشاط الفكرى. وليس هذا هو الرأى السائد – مع ذلك – بين الغالبية فى مجال النظرية. فعدد المتشائمين المصابين بخيبة الأمل فى الاضطلاع باتجاه معين فى النظرية يفوق كثيراً عدد المتفائلين بمجال النظرية أو بمشروع معاصر بعينه.

ويتم التعبير عن هذا الاتجاه بطرق شتى على الرغم من محدودية الجهود التى تحاول تقصى جذوره. ويصور أنصار المشروعات النظرية التى عرضنا لها أنفاً أنفسهم بأنهم يعيشون فى فزع لأنهم يواجهون معركة شرسة من جانبهم. ومع ذلك لم يقم هؤلاء المنظرون – إلا فى حالات نادرة – بتقديم تقييم جاد وبناء للقوى المضادة لمشروعاتهم النظرية. وعلى العكس من ذلك تركز معظم البرامج النظرية المعاصرة على أسس فكرية تماماً دونما أدنى اهتمام بالشروط التنظيمية التى تواجههم، تلك الشروط التى ينبغى أن تقدرها هذه البرامج بواقعية إذا ما أرادت أن تمضى قدماً نحو أهدافها. ونناقش فيما يلى أربعة شروط مهمة، وهى:

(١) المشروعات الأخرى

هناك مشروعات معاصرة قليلة تعى بالمشروعات الأخرى التى تشترك معها فى مجال النظرية. ويحول هذا الوضع دون البحث المنظم فى مجال العلاقات الممكنة بين المشروعات؛ أى المسائل الفكرية المختلفة التى تنطبق عليها المشروعات المتعددة بطريقة مختلفة، والنقاط التى تركز عليها المشروعات المختلفة بشكل تعاونى وتكاملى أو متقاطع مقارنة بالنقاط التى تختلف عليها هذه المشروعات (انظر: Levine ١٩٨٦).

يضاف إلى هذه المشكلة اتجاه المشروعات المتعددة إلى الجمع بين غالبية المشروعات البديلة معاً فى كتلة غير متماسكة. ومن هنا يميل أنصار المشروع الأول (بناء الأدوات) إلى اعتبار جميع الجهود النظرية الأخرى ليست إلا تأويلاً للأفكار الماضية (المشروع السادس)، مع تجاهل عدد من البدائل المصاغة بطريقة مختلفة لمشروعهم، وهذا التجاهل نجده فى مشروعات أخرى أيضاً.

وبهذا النوع من التكتل تخطئ مشروعات عديدة فى تقدير موقعها النسبى فى مجال النظرية. فأصحاب المشروع الأول يقدمون مشروعهم بطريقة خاطئة على أنه موقف عقلى متميز، ويخطئ أصحاب المشروع الثانى فى اتجاه معاكس يستوعب كل صنوف العمل النظرى الأخرى فى برنامجهم، ومن ثم يدعمون وجهة نظر مقبولة – ولكنها خاطئة – بأن هذا المشروع – فى حد ذاته – نظرية معاصرة فى علم الاجتماع.

(٢) علم الاجتماع ككل

تؤكد البيانات الكمية عن تنظيم علم الاجتماع أنه خلال الفترة التي مضت فيها هذه المشروعات النظرية المعاصرة قدماً، فشلت هذه المداخل النظرية الجديدة في تقديم نظرية موحدة لعلم الاجتماع ككل، كما أن الإسهامات في مجال النظرية كفت عن الترابط الوثيق مع تراث علم الاجتماع بصورة عامة (Crane & Small ١٩٩٢: ٢٢٩-٢٣٠). وتؤكد الشواهد التاريخية أن هذا ليس ملمحاً حديثاً، ذلك أن تأثير نظرية علم الاجتماع على البحث تأثير ضعيف، حيث لم يكن للنظرية وجود في كثير من مجالات البحث المتغيرة في علم الاجتماع (Sica ١٩٨٩ a,b).

وتباطأ المنظرون - مع استثناءات عارضة - في التفكير حول دلالات ذلك وصياغة أدوار مناسبة لهم في ظل هذه الظروف وعلى العكس من ذلك تقوم المشروعات النظرية الحالية بقراءة الجهود المتشابهة للتملص من هذه الشروط، وإنكار أن الترابط الداخلى القوى بين المجالات البحثية - والذي يعطى للنظرية أهمية محورية في علوم مثل علم الاقتصاد - ليس ببساطة ملمحاً تنظيمياً من ملامح علم الاجتماع (Crane & Small ١٩٩٢: ٢٠٨-٢٣١).

(٣) العوامل الخارجية

نتيجة لمكانته المهنية الهشة يشق علم الاجتماع برمته طريقة في هذه الفترة الحديثة في خضم تغيرات رئيسية في علاقاته الاجتماعية والمؤسسية مع العلوم الأكاديمية الأخرى، وفي علاقاته مع الخاصة والعامة، وفي حجم طلابه وتركيباتهم (Halliday ١٩٩٢). ولم يهتم المنظرون بتأثير هذه التطورات على حيوية مشروعاتهم.

وقد اختلفت آراء هؤلاء المنظرين بشأن النقطة الأولى - علاقة علم الاجتماع بالعلوم الأخرى - حيث يتوقع بعضهم حدوث تغيرات طفيفة للغاية في هذه العلاقة، ويتوقع آخرون - بل ويطالبون - بعلاقات أوثق بين نظرية علم الاجتماع بكل شئ بدءاً من البيولوجيا ووصولاً إلى جميع العلوم الاجتماعية، بالإضافة إلى التاريخ والدراسات الثقافية.

ويحدو الفريق الثانى الأمل فى وجود تبادل بين هذه العلوم الأخرى والعمل فى نظرية علم الاجتماع (Calhoun ١٩٩٢b)، إلا أن هناك المنظرين عليهم الاعتراف بأن هذا التبادل كان هو الاستثناء، بمعنى أن المشروعات النظرية داخل علم الاجتماع اعتمدت على العلوم الأخرى بدرجة أكبر مما اعتمدت تلك العلوم عليها (Crane & Small ١٩٩٢: ٢٣١-٢٣٢).

(٤) التراث التاريخى

من الأمور الثابتة أن المشروعات النظرية المعاصرة تقوم على السرد التاريخي، والتفسيرات في مجال النظرية (وعلم الاجتماع والقوى الخارجة عنه في بعض الأحيان) في الفترات السابقة (الأربعينيات والخمسينيات، الستينيات والسبعينيات) ويختلف المنظرون في اختيار الفترات الزمنية. وهذا السرد التاريخي يشكل أساساً لمشروع خاص يسعى المنظرون إلى وضعه على الأجندة في المستقبل، كما يشكل تحليلاً لما يقدمه مجال النظرية وما لا يقدمه، كما يشكل كشافاً بالموارد والثغرات والمشكلات والإمكانيات لهذا المجال.

وإذا نحينا السرد التاريخي جانباً، وتغاضينا عن مبررات المشروع الذي يصاحبه، نجد أن نفراً قليلاً من المنظرين يهتمون كثيراً ببناء الروايات التاريخية، وتحديد التراث الفكري والمؤسسي الذي يواجهه مجال النظرية المعاصرة. والحقيقة أن المنظرين لا يهتمون بالصرامة في هذا الجانب لدرجة أن مزاعمهم التاريخية تبطل بعضها البعض، بل ويثبت زيفها عند إخضاعها للبحث التاريخي المباشر (انظر Platt ١٩٩٦). وهناك قلة من المنظرين المعاصرين أبدت اهتماماً جاداً ببعض هذه العوامل التنظيمية في مسار تطوير مشروعاتهم المختلفة (Bourdieu & Waquant ١٩٩٢، Calhoun ١٩٩٢b، ١٩٨٩، R. Collins ١٩٨٦a، Levine ١٩٩٥، Sica ١٩٨٩b، S. S. Turner & J. Turner ١٩٩٠)، إلا أن الدراسة المنظمة للعلاقات الفكرية والمؤسسية بين المشروعات المتعددة التي تشكل مجال النظرية اليوم، وكذا التراث التاريخي لمجال النظرية، ووضعها الراهن داخل علم الاجتماع، وعلاقتها مع القوى الخارجية - كل ذلك يبلور برنامجاً أو مشروعاً في حد ذاته يثير إشكالية الشكل أو الأشكال الملائمة لنظرية علم الاجتماع في ظل الظروف الممكنة الراهنة. وإذا قدر النجاح لبعض المشروعات الحالية، فإن التطورات المعاصرة يبدو أنها سوف تكفل إدراج هذا المشروع على أجندة المنظرين.

الفصل الخامس من علم الاجتماع النظرى إلى علم الاجتماع التطبيقى والإكلينيكى (*)

"يضعنا علم الاجتماع فى سياق الجماعات والثقافات والمجتمعات. ونحن نتفاعل مع الآخرين فى بيئات رسمية نسبياً مثل مكان العمل، وفى أوضاع يغلب عليها الطابع اللارسمى مثل مهرجان الشباب فى النرويج".

(R. Schaefer)

مشيت لأول مرة فى طريقى إلى ميدان المسجد الأزرق Blue Mosque فى ربيع عام ١٩٩٦ بصحبه صديقة لى تشيم ذراعها للمرة الأولى. وقبل دخولى إلى محل الوشم الذى يتصف بأنه نظيف ومريح وبيعت على البهجة، لم يدر بخلقى مطلقاً أن أشيم جسدى وشماً دائماً. والحقيقة أننى قطعت على نفسى عهداً أمام عائلتى بأن لا أشيم أى جزء من جسدى. وبعد أن شاهدت صديقتى تمر بهذه التجربة غيرت رأيى، وبدأت أفكر فى أى أشكال تزيين الجسد بالوشم يبدو مريحاً لى. وقد شجعتنى جو الألفة فى محل الوشم على أن أتردد عليه مرات عديدة حتى استقر بى الأمر فى النهاية على الوشم بواسطة الوخز بالإبر. وخلال هذه الزيارات كوَّنت صداقات مع جميع الفنانين، وبدأت أداوم التردد على هذا المحل. وفى النهاية تزوجت مالكة المحل، واسمها "ليفتى". وأصبح بيتنا مكاناً للتسوق لمن يفدون إلى المدينة للوشم، كما أصبح مركزاً اجتماعياً أيضاً لمحل الوشم. وقد أصبح الوشم موضوعاً مثيراً للبحث بعد أن قضيت عطلة مع زوجتى ليفتى فى كاليفورنيا، واستأجرنا عربة للتجول بها فى سواحلها، وزرنا مجموعة من محلات الوشم، وتجادبنا أطراف الحديث حول معنى الوشم فى المجتمع، ولاحظت التغيرات العديدة التى طرأت على صناعة الشم.

وفى ختام واحدة من هذه المناقشات ذكرت ليفتى أنه لا بد أن يقوم شخص بإعداد دراسة تؤرخ لهذه التغيرات. ونظراً لأننى تخرجت فى قسم الاجتماع وأبحث عن موضوع لأطروحة فى هذا العلم، فقد اندفعت إلى مهمة البحث، وتولت ليفتى مسئولية القيام بدور "الإخبارى الرئيسى" فى البحث، مما أتاح لى اكتساب وجهة نظر فريدة عن

(*)

Richard T. Schaefer. Sociology. th edition. Boston: McGraw Hill,

pp. -

هذا العالم الاجتماعي. وخلال فترة الدراسة التي اعتمدت فيها على الملاحظة المشاركة لمدة تزيد عن عامين، قمت بزيارة المحل ما بين مائة إلى مائتين مرة، كما كنت متواجداً استمع إلى آلاف الحوارات التي تدور بين فناني الوشم في المنزل وفي المناسبات الاجتماعية.

وخلال تواجدي بالمنزل وقيامى بواجباتى الاجتماعية ركزت على العالم الاجتماعي لفناني الوشم المحترفين: استمع إلى حواراتهم اليومية حول تفاعلاتهم مع العملاء، وآمالهم، وطموحاتهم، وأهدافهم. وقد لاحظت أن المترددين على محل الوشم يتساوى عددهم بين الذكور والإناث، وتتراوح أعمارهم بين ١٨ – ٦٠ عاماً، وأكثرهم من الطبقة الوسطى أو الوسطى – العليا. وتعكس ملاحظاتي خبرة باحث من الطبقة الوسطى منذ ولوجه إلى عالم الوشم لأول مرة (Irwin, ١٩٩٩a).

ما الذي يجعل من الوشم موضوعاً مناسباً للدراسة في علم الاجتماع؟ إن ما يوحد بين جميع الدراسات في علم الاجتماع أنها تركز على أنماط السلوك الإنساني. ففي بحثها عن الوشم تعقبت كاترين إيروين التغيرات المثيرة التي طرأت على الوشم في التسعينيات مقارنة بفترة سابقة ارتبط فيها الوشم ارتباطاً وثيقاً بالجماعات المتطرفة مثل عصابات الدرجات، وقطاع الطرق، والنصابين. ووجدت إيروين أن زبائن الوشم في التسعينيات يحاولون أن يفعلوا شيئاً يدل على هويتهم، لا أن يفصلوا أنفسهم عن المجتمع، وبذلك أصبح الوشم أمراً مألوفاً من خلال تفاعل هؤلاء الزبائن – سواء أكانوا طلاباً أو موظفين أو مجرد أعضاء في الأسرة التقليدية – مع هذا المجتمع. وبالتدريج أصبح الوشم شعراً على مكانة اجتماعية شائعة بدلاً من كونه رمزاً على مكانة منبوذة (Irwin, ١٩٩٨, ١٩٩٩b).

ولا ينشغل علماء الاجتماع بما يفعله – أو لا يفعله – فرد بعينه بقدر ما يهتمون بما يفعله الناس كأعضاء في جماعة، أو تفاعلهم مع بعضهم البعض، وما يعنيه ذلك بالنسبة للأفراد والمجتمع ككل. والحقيقة أن الوشم موضوع يمكن لعلماء الاجتماع أن يدرسوه بعدة طرق. فقد يدرسون تاريخه الذي يعود إلى ٣٠,٠٠٠ عاماً مضت، أو يدرسونه استخدام الوشم في جماعات وثقافات مختلفة. فقد اهتمت إحدى الدراسات – على سبيل المثال – بكيفية تجسيد الوشم بين أعضاء زمرة السجن لمكانتهم ورتبتهم وإنجازاتهم الشخصية (Phelan & Hunt ١٩٩٨, Mascia – Less & Shape ١٩٩٢).

ومن هنا يتسع مجال البحث في علم الاجتماع من الانتحار إلى عادات مشاهدة التلفزيون، ومن مجتمع الأميش Amish إلى الأنماط الاقتصادية الكونية، ومن ضغوط جماعة الرفاق إلى أساليب النسل. وينظر علم الاجتماع في كيفية تأثير الآخرين في

سلوكنا إلى جانب كيفية تأثير النظم الاجتماعية الرئيسية - كالحكومة والدين والاقتصاد -
فينا.

ويدرس هذا الفصل طبيعة علم الاجتماع كمجال للبحث من جانب وكممارسة للخيال
السوسيولوجي من جانب آخر. كما نناقش علم الاجتماع كعلم، وكذا علاقته بالعلوم
الاجتماعية الأخرى. كما أننا سوف نقيم إسهامات ثلاثة من المفكرين الرواد في تطور
علم الاجتماع، وهم إميل دور كايم وماكس فيبر وكارل ماركس، ثم نناقش عدداً من
الاتجاهات النظرية المهمة التي يستخدمها علماء الاجتماع، ونستعرض التطبيقات العملية
لعلم الاجتماع في مجال السلوك الإنساني والتنظيمات. وأخيراً نبحث في الطرق التي
يمكن لعلم الاجتماع أن يساعدنا من خلالها في تطوير خيالنا السوسيولوجي.

ما هو علم الاجتماع ؟

علم الاجتماع هو الدراسة المنظمة للسلوك الاجتماعي والجماعات الإنسانية. ويركز
هذا العلم بصفة أساسية على تأثير العلاقات الاجتماعية على اتجاهات الناس وسلوكهم،
كما يركز على كيفية نشوء المجتمعات وتغيرها. وتتعدد الموضوعات التي يختص علم
الاجتماع بدراستها مثل الأسرة، ومكان العمل، وعصابات الشوارع، والشركات
التجارية، والنقابات العمالية. كما يهتم علم الاجتماع بدراسة الحب، والفقر، والامتنال،
والتمييز، والمرض، والتكنولوجيا، والمجتمع المحلي.

الخيال السوسيولوجي

يعتمد علماء الاجتماع على نمط غير مألوف للتفكير الإبداعي لمحاولة فهم السلوك
الاجتماعي. ويصف تشارلز رايت ميلز (١٩٥٩) هذا التفكير بـ"الخيال السوسيولوجي"،
أى الوعي بالعلاقة بين الفرد والمجتمع الأكبر. ويتيح هذا الوعي لنا جميعاً (وليس لعلماء
الاجتماع وحدهم) فهم الصلات بين أوضاعنا الاجتماعية الشخصية القريبة منا من جهة
والعالم الاجتماعي اللاشخصي البعيد عنا والذي يحيط بنا ويساعد في تشكيلنا من جهة
ثانية.

ومن العناصر الأساسية للخيال السوسيولوجي قدرة عالم الاجتماع على النظر إلى
مجتمعه نظرة الدخيل عليه أو الغريب عنه، وليس من منظور خبراته الشخصية ونزعاته
الثقافية. ولنأخذ مثلاً بسيطاً هو عادة الأكل أثناء المشى. وليس فى الأمر من شئ أن نرى
الناس فى الولايات المتحدة يستهلكون الأيس كريم ويشربون المياة الغازية أثناء مشيهم.
ويرى علماء الاجتماع فى ذلك نمطاً سلوكياً مقبولاً لأن الآخرين يعدونه كذلك. ومع ذلك
يحتاج هؤلاء العلماء إلى تجاوز حدود ثقافة ما ليروا موقف الثقافات الأخرى من هذا
السلوك. فهذا السلوك "العادى" غير مقبول بالمرّة فى ثقافات أخرى. فالناس فى اليابان -

على سبيل المثال - لا يأكلون أثناء المشى. وعلى الرغم من أن الباعة متواجدون في الشوارع وآلات البيع منتشرة في كل مكان، إلا أن اليابانيين يتوقفون لأكل أو شرب ما يشترونه قبل أن يواصلوا سيرهم، لأن الانخراط في نشاط آخر أثناء الأكل يعبر - في رأيهم - عن عدم احترام الطعام حتى ولو كان الأكل يأتي من آلة البيع.

ويسمح لنا الخيال السوسولوجي بتجاوز الخبرات والمشاهدات الشخصية إلى فهم القضايا العامة. ومما لا شك فيه أن البطالة - على سبيل المثال - تمثل معاناة شخصية للمتعلل رجلاً كان أم امرأة. ويرى ميلز أنه عندما تكون البطالة مشكلة اجتماعية تمس ملايين الناس، فإنه يبدو من المناسب أن نتساءل عن طريقة تشكيل المجتمع أو تنظيمه. وعلى نحو مماثل استخدم ميلز الخيال السوسولوجي لينظر في الطلاق لا على أنه مشكلة شخصية تخص رجلاً بعينه أو امرأة بعينها، ولكنه يبحث فيه كمسألة اجتماعية ناتجة عن كثرة الزواج. وكان ميلز يكتب ذلك في الخمسينيات عندما كان معدل الطلاق لا يشكل إلا جزءاً بسيطاً من معدله اليوم (I.Horowitz, 1983).

ويمكن أن يساعدنا الخيال السوسولوجي في فهم الحياة اليومية من حولنا فهماً جديداً. فقد قام عالما الاجتماع ديفيد ميلر وريتشارد شيفر منذ عام 1992 بدراسة نظام بنوك الطعام في الولايات المتحدة التي تقوم بتوزيع الطعام على الجوعى من الأفراد والأسر. وبدا الأمر كما لو كانت تلك البنوك فوق اللوم. وتعلم ميلر وشيفر في هذا البحث أن أكثر من 25% من الأطفال في الولايات المتحدة جوعى، كما تبين أن ثلث المشردين يأكلون وجبة واحدة أو أقل في اليوم، مما يعنى أن ثمة أشياء خاطئة تتعلق بالمؤسسات الخيرية التي تتولى هذه المسؤولية. ففي عام 1997 تبين أن منظمة Second Harvest - وهي منظمة لتوزيع الطعام - قامت بتوزيع بليون رطل من الأطعمة - التي تبرع بها مئات من الأفراد والشركات - على أكثر من (50,000) جهة لتتولى مسؤولية توزيعها على المحتاجين.

وقد يستحسن كثير من الباحثين - بلا نقد - توزيع أطنان الأطعمة على المحتاجين. ولكن دعنا ننظر في الأمر نظرة أكثر تعمقاً. فعلى الرغم من تأييد ميلر وشيفر لهذه الجهود ومشاركتها فيها، إلا أنهما ارتكنا إلى الخيال السوسولوجي ليقدمنا وجهة نظر متعمقة في هذه الجهود. فقد لاحظنا أن هناك عوامل قوية في المجتمع الأمريكى - مثل الحكومة الفيدرالية، وتجار التجزئة، والمؤسسات الكبرى - تشترك في التنظيم الخيري لتوزيع الأطعمة. ونتيجة لذلك كان مجال برامج الإعانة هذه محدوداً للغاية، حيث انصب التركيز على إطعام المشردين دون إسكانهم، وعلى تقديم الوجبات للعاطلين لا توفير فرص العمل لهم. إذ أن جهود الإعانة تساعد الجوعى من الأفراد والأسر دون تحدى

النظام الاجتماعى القائم (من خلال المطالبة بإعادة توزيع الثروة على سبيل المثال). وبدون هذه النجاحات المحدودة فى توزيع الطعام، فمن الممكن أن يقوم الجوع باغتيال رواد المطاعم، ونهب متاجر الأغذية، أو يموتون جوعاً على بعد خطوات من البيت الأبيض. ومثل هذا التفكير النقدى هو التفكير النموذجى لعلماء الاجتماع مادام أنهم يعتمدون على الخيال السوسولوجى فى دراسة القضايا الاجتماعية مثل قضية الجوع فى الولايات المتحدة (انظر: ١٩٩٨، Vladimiroff).

علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية

هل علم الاجتماع علم؟ يشير مصطلح العلم إلى مجموعة المعارف التى يتم الحصول عليها بواسطة مناهج تعتمد على الملاحظة المنظمة. وعلم الاجتماع - شأنه فى ذلك شأن العلوم الأخرى - يقوم بالدراسة المنظمة للظواهر (السلوك الإنسانى فى هذه الحالة) من أجل تعزيز فهمها. ويحاول جميع العلماء - سواء من يدرس نبات الفطر (عيش الغراب) أو القتلة - جمع بيانات دقيقة من خلال مناهج للدراسة تتسم بالموضوعية قدر الإمكان، حيث يعتمدون على التسجيل الدقيق للملاحظات وتراكم البيانات.

وهناك فارق كبير - بالطبع - بين علم الاجتماع والفيزياء، وبين علم النفس والفلك. ولهذا السبب تنقسم العلوم - عموماً - إلى علوم طبيعية وأخرى اجتماعية. ويقصد بالعلوم الطبيعية دراسة الملامح الفيزيقية للطبيعة وطرق تفاعلها وتغيرها. ومن الأمثلة على العلوم الطبيعية: الفلك، والأحياء، والكيمياء، والجيولوجيا، والفيزياء. أما العلم الاجتماعى فهو يختص بدراسة الجوانب المتعددة للمجتمع الإنسانى. وتشمل العلوم الاجتماعية: علم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والاقتصاد، والتاريخ، وعلم النفس، وعلم السياسة.

وتشترك هذه العلوم الاجتماعية فى تركيزها على السلوك الاجتماعى للناس، إلا أن كل علم منها له توجهه الخاص. فعلماء الأنثروبولوجيا عادة ما يدرسون الثقافات الماضية والمجتمعات قبل الصناعية المستمرة حتى اليوم، بالإضافة إلى أصول الرجال والنساء، وتستخدم هذه المعرفة فى دراسة المجتمعات المعاصرة بما فيها المجتمعات الصناعية. ويدرس علماء الاقتصاد الطرق التى ينتج بها الناس السلع والخدمات ويتبادلونها، إلى جانب دراسة النقود والموارد الأخرى. ويهتم المؤرخون بالشعوب وأحداث الماضى ودلالاتها لنا اليوم. ويدرس علماء السياسة العلاقات الدولية، وأشكال الحكومات، وممارسة القوة والسلطة. ويبحث علماء النفس فى الشخصية والسلوك الفردى. والسؤال هنا: ماذا يدرس علم الاجتماع؟ ويؤكد علم الاجتماع على تأثير المجتمع على اتجاهات الناس وسلوكهم، والطرق التى يشكل بها الناس المجتمع. ونظراً لأن الإنسان حيوان اجتماعى،

فإن علماء الاجتماع يقومون بدراسة علاقاتنا الاجتماعية مع الناس دراسة علمية. ودعونا الآن نستعرض كيف تتطرق العلوم الاجتماعية المختلفة لواحدة من القضايا المثيرة للجدل، ونقصد بها قضية السيطرة على الأسلحة الشخصية.

جدول ٥ - ١

حيازة الأسلحة في الولايات المتحدة

الجنس	
رجال	٤٧%
نساء	٢٧%
السلالة	
بييض	٤٠%
غير بييض	١٩%
العمر	
١٨ - ٢٩	٢٨%
٣٠ - ٤٩	٣٧%
٥٠ - ٦٤	٤٦%
٦٥ -	٣٦%
المنطقة	
جنوب	٤٦%
وسط غرب	٣٩%
شرق	٢٩%
غرب	٣٣%

ملحوظة: استناداً إلى المسح القومي (فبراير ١٩٩٩)

المصدر: ١٩٩٩ Gallup Poll. In M. Gillespie

يطالب كثير من الناس اليوم - وهم المهتمون بسوء استخدام الأسلحة النارية في الولايات المتحدة - بوضع قيود على شراء الأسلحة الشخصية واستخدامها. ويبحث علماء السياسة في تأثير جماعات النشاط السياسي - مثل جمعية الرماة الوطنية National Rifle Association - NRA - على المشرعين. ويدرس المؤرخون الاتجاهات نحو الأسلحة النارية، وكيفية استخدامها بمرور السنين في الولايات المتحدة وغيرها. ويركز علماء الأنثروبولوجيا على استخدام الأسلحة في الثقافات المتعددة كوسيلة للحماية وكرمز

للقوة أيضاً. وينظر علماء النفس فى حالات فردية لتقدير أثر الأسلحة النارية على ملاكها وعلى الأفراد من ضحايا إطلاق النار. ويهتم علماء الاقتصاد بتأثير صناعة الأسلحة النارية وبيعها على المجتمعات المحلية.

ويقوم علماء الاجتماع بجمع بيانات تفيد صناعة السياسة، إذ يمكنهم - على سبيل المثال - جمع بيانات من مختلف الولايات لتقييم تأثير القيود على الأسلحة الشخصية على معدل الحوادث الناتجة عن هذه الأسلحة أو جرائم العنف التى تتضمن أسلحة نارية. كما يمكن لعالم الاجتماع النظر فى البيانات التى يحتويها جدول (٥-١)، والذى يعطينا فكرة عن يملك الأسلحة الشخصية فى الولايات المتحدة: ما هى التفسيرات التى يمكن تقديمها للاختلاف فى ملكية هذه الأسلحة حسب النوع الاجتماعى، والسلالة، والعمر، والمنطقة الجغرافية؟ كيف تؤثر هذه الاختلافات على إعداد السياسات الاجتماعية على مستوى حكومتى المدينة والولاية والحكومة الفيدرالية؟ كما يمكن لعلماء الاجتماع أن يدرسوا بيانات توضح مدى تشابه الولايات المتحدة مع الأمم الأخرى فى حيازة الأسلحة الشخصية واستخدامها.

ويستخدم علماء الاجتماع خيالهم فى مجالات متعددة. ويضم جدول (٥-٢) قائمة بالتخصصات داخل علم الاجتماع المعاصر.

جدول (٥ - ٢)

التخصصات داخل علم الاجتماع			
-التعمير/علم الشيخوخة الاجتماعى	-العجز	-الهجرة والوفود	-الممارسة الاجتماعية/ السياسة الاجتماعية
-الكحول / المخدرات	-الاقتصاد والمجتمع	-المهن، والمهن الفنية	-علم الاجتماع الأدبى
-علم الاجتماع التطبيقي/البحوث التقييمية	-التربية / التعليم	-علم الاجتماع السياسى	-علم اجتماع المعرفة/ العلم
-علم الاجتماع البيولوجى	-علم الاجتماع البيئى	-الأعراق / السلالات /علاقات الأقليات	-علم الاجتماع اللغوى/ علم اللغة الاجتماعى
-السلوك الجمعى / الحركات الاجتماعية	-تاريخ علم الاجتماع / الفكر الاجتماعى	-الأقليات	-علم اجتماع الأسواق
-المجتمع المحلى / علم الاجتماع الريفى	-الايكولوجيا البشرية	-الدين	-علم اجتماع الصحة العقلية
-علم الاجتماع التاريخى	-علم الاجتماع الصناعى	-الجنس والنوع	-علم اجتماع العمل

المقارن	الاجتماعى		
-العدالة الجنائية/إصلاح المنحرفين	-القانون والمجتمع	-الجماعات الصغيرة	-التدرج الطبقي/ الحراك
-علم الإجرام / الجناح	-وقت الفراغ/الألعاب الرياضية / الترويح	-الضبط الاجتماعى	-النظرية
علم الاجتماع الثقافى	-الزواج والأسرة	-الشبكة الاجتماعية	-علم الاجتماع الحضرى
-علم السكان	-الاتصال الجماهيرى /الرأى العام	-التنظيم الاجتماعى: الرسمى / المركب	-علم الاجتماع المرئى (البصرى)
-التنمية / التغير الاجتماعى	-علم الاجتماع الطبى	-علم النفس الاجتماعى	
-السلوك الانحرافى / التفكك الاجتماعى	-مناهج البحث: الأساليب الكيفية والكمية	-التنشئة الاجتماعية	

المصدر: الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع (٢٠٠٠).

علم الاجتماع والمعرفة البادئة المشتركة

يركز علم الاجتماع على دراسة السلوك الإنساني. وجميعنا لديه خبرة بهذا السلوك والنذر اليسير – على الأقل – من المعرفة المتصلة به. وربما يكون لدينا جميعاً نظريات حول أسباب قيام الناس بالوشم، أو أسباب تشردهم. وعادة ما تكون نظرياتنا وآراؤنا مصدرها المعرفة البادئة المشتركة، أى من خبراتنا وحواراتنا، مما نقرأه، ومما نشاهده فى التلفاز وما إلى ذلك.

ونحن نعتمد فى حياتنا اليومية على المعرفة البادئة المشتركة لاجتياز المواقف العديدة غير المألوفة، إلا أن هذه المعرفة – مع ذلك – لا تكون دائماً صادقة مع أنها تكون دقيقة فى بعض الأحيان، لأنها معرفة تتأسس على معتقدات شائعة لا على تحليل منظم للحقائق. وفيما مضى كان بمثابة معرفة بادئة مشتركة أن نقبل أن الأرض مسطحة، وهى وجهة نظر أثار حولها الشكوك فيثاغورث وأرسطو. وليست الأفكار البادئة المشتركة غير الصحيحة مجرد جزء من الماضى السحيق، ولكنها باقية معنا إلى اليوم.

وفى الولايات المتحدة تخبرنا المعرفة البادئة المشتركة أن انتشار الحمل بين المراهقات مسئول اليوم عن معظم الولادات خارج نطاق الزواج، مما يشكل عبئاً على نظام الرعاية. كما تخبرنا المعرفة البادئة المشتركة أن الناس يصابون بالذعر عندما

تواجههم كوارث طبيعية مثل الفيضانات والزلازل، أو فى أعقاب الأحداث المأساوية، مثل الانفجار الذى حدث فى مدينة أوكلاهوما عام ١٩٩٥.

وليس هاتان الفكرتان البادهتان المشتركتان – مثل الفكرة القائلة بأن الأرض مسطحة – فكرتين صحيحتين؛ ولا يؤيدهما البحث فى علم الاجتماع. فالحقيقة أن نسبة الأمهات غير المتزوجات فى العشرينيات من العمر أخذت فى الانخفاض، كما أن النساء اللاتى لسن فى العشرينيات يشكلن أغلب الأمهات غير المتزوجات. وهن يشكلن نحو ٩٣% من النساء اللاتى يعتمدن على المساعدات الحكومية (١٩٩٩, ١٩٩٦, Luker). ولا تقضى الكوارث عموماً إلى الذعر. وفى أعقاب الكوارث – بل والانفجارات – يظهر مزيد من التنظيم الاجتماعى للتعامل مع المشكلات الناجمة. ففى الولايات المتحدة تقوم جماعة عمليات الطوارئ بالتنسيق مع الخدمات العامة وخدمات معينة يقوم بها القطاع الخاص مثل توزيع الطعام. ويكون اتخاذ القرار أكثر مركزية فى أوقات الكوارث.

ولا يقبل علماء الاجتماع – شأنهم فى ذلك شأن العلماء الاجتماعيين الآخرين – كل شئ على أنه حقيقة لأن كل فرد يعرفها، فأية معلومة ينبغى اختبارها وتسجيلها ثم تحليلها فى علاقتها بالبيانات الأخرى. وفى بعض الأحيان تبدو النتائج التى يتوصل إليها علماء الاجتماع متشابهة مع المعرفة البادئة المشتركة لأنها تتعلق بمظاهر الحياة اليومية. والاختلاف هنا هو أن نتائج علماء الاجتماع قام الباحثون باختبارها. وتخبّرنا المعرفة البادئة المشتركة اليوم أن الأرض كروية، إلا أن هذه الفكرة العامة تنهض على قرون من العمل العلمى الذى يؤيد التقدم الذى حققه فيثاغورث وأرسطو.

ما هى نظرية علم الاجتماع ؟

لماذا يقدم الناس على الانتحار؟ إحدى الإجابات التقليدية على هذا السؤال مستمدة من المعرفة البادئة المشتركة هى أن الناس يتوارثون الرغبة فى قتل أنفسهم. وهناك وجهة نظر أخرى هى أن كُلف الشمس تدفع الناس إلى الانتحار. وقد لا تبدو هذه التفسيرات مقنعة للباحثين المعاصرين بصفة خاصة، ولكنها شكلت معتقدات ظلت سائدة حتى عام ١٩٠٠.

ولا يهتم علماء الاجتماع اهتماماً خاصاً بأسباب إقدام فرد ما على الانتحار؛ فهم أكثر اهتماماً بالعوامل الاجتماعية التى تدفع بعض الناس إلى الانتحار. ومن أجل إجراء مثل هذا البحث طور علماء الاجتماع نظرية تقدم تفسيراً عاماً للسلوك الانتحارى.

ويمكن أن نفكر فى النظريات على أنها محاولات لتفسير الأحداث، والعوامل،

والماديات، والأفكار، أو السلوك بمعناه الشامل. ويقصد بالنظرية فى علم الاجتماع مجموعة من المقولات التى تسعى إلى تفسير المشكلات والأفعال أو السلوك. والنظرية المؤثرة هى التى لها قوة: تفسيرية وتنبؤية، أى أنها تستطيع مساعدتنا فى تطوير وجهة نظر عامة ومتكاملة حول العلاقات بين الظواهر التى تبدو منفصلة، إلى جانب المساعدة فى فهم الكيفية التى يؤدى بها نوع ما من التغير فى بيئة معينة إلى أنواع أخرى.

وقد فحص إميل دوركايم (١٩٥١، النسخة الأصلية صدرت عام ١٨٩٧) بيانات الانتحار بعناية شديدة، وطور نظرية على قدر عال من الإبداع حول العلاقة بين الانتحار والعوامل الاجتماعية. ولم يكن دوركايم مهتماً بصفة أساسية بشخصيات ضحايا الانتحار الفردى، ولكنه اهتم بمعدلات الانتحار واختلافها من دولة إلى أخرى. وبناءً عليه، نظر فى عدد حالات الانتحار المسجلة فى فرنسا وإنجلترا والدانمرك عام ١٨٦٩، كما فحص سكان تلك الدول لتحديد معدلات الانتحار فيها، ووجد أنه فى الوقت الذى توجد فيه ٦٧ حالة انتحار مسجلة لكل مليون نسمة فى إنجلترا، بلغ المعدل ١٣٥ لكل مليون فى فرنسا و٢٧٧ فى الدانمرك. ومن ثم يصبح السؤال: لماذا يرتفع معدل الانتحار فى الدانمرك مقارنة بفرنسا؟

وقد تعمق دوركايم أكثر وأكثر فى بحثه عن معدلات الانتحار، وكانت النتيجة هى عمله المتميز بعنوان "الانتحار" الذى نشر عام ١٨٩٧. وقد رفض دوركايم أن يقبل على نحو تلقائى التفسيرات المتعلقة بالانتحار التى لا يقوم عليها برهان، ومن هذه التفسيرات الاعتقاد بأن القوى الكونية أو النزعات الوراثية هى التى تؤدى إلى هذه الوفيات. وبدلاً من ذلك ركز دوركايم على مشكلات مثل تماسك أو انعدام تماسك الجماعات المهنية والدينية.

وتقوم بحث دوركايم على إدعاء مؤداه أن الانتحار – مع أنه فعل فردى – يرتبط بحياة الجماعة، إذ ترتفع معدلات الانتحار بين البروتستانت عنها بين الكاثوليك، وبين الأعزاب عنها بين المتزوجين، وبين الجنود عنها بين المدنيين. يضاف إلى ذلك أن معدلات الانتحار ترتفع فى أوقات السلام عنها فى أوقات الحروب والثورات، وترتفع فى أوقات عدم الاستقرار والانحسار الاقتصادى عنها فى أوقات الرخاء الاقتصادى. وخلص دوركايم إلى أن معدلات الانتحار فى مجتمع ما تعكس مدى اندماج الناس أو عدم اندماجهم مع الحياة الجمعية بالمجتمع.

ولقد طور دوركايم – شأنه فى ذلك شأن غيره من العلماء الاجتماعيين – نظرية توضح كيف أن السلوك الفردى يمكن فهمه داخل البيئة الاجتماعية، حيث أوضح تأثير

الجماعات والعوامل الاجتماعية على ما كان ينظر إليه دوماً على أنه فعل شخصي محض.

ومن الواضح أن دوركايم قدم تفسيرات أكثر علمية لأسباب الانتحار من التفسيرات المرتبطة بكلف الشمس أو النزعات الوراثية. ونظرية دوركايم لها قوة تنبؤية، مادامت أنها تقترح أن معدلات الانتحار سوف ترتفع أو تنخفض تزامناً مع تغيرات اجتماعية واقتصادية معينة.

وليست النظرية – حتى أفضل النظريات – قولاً فصلاً حول السلوك الإنساني، وليست نظرية دوركايم في الانتحار استثناء من ذلك. ويستمر علماء الاجتماع في دراسة العوامل التي تسهم في اختلاف معدلات الانتحار على المستوى العالمي؛ وعلى مستوى تجمع بعينه. فعلى سبيل المثال يرتفع المعدل الإجمالي للانتحار في نيوزلاند ارتفاعاً طفيفاً عن المعدل في الولايات المتحدة، في حين يرتفع المعدل بين الشباب في نيوزلاند بمقدار ٤١% عن المعدل في الولايات المتحدة. ويذهب علماء الاجتماع وعلماء التحليل النفسى إلى أن هذا المجتمع القاصى مخلخل السكان يحافظ على معايير مبالغ فيها للرجولة تبدو صعبة على الشباب من الذكور بصفة خاصة. فالمرهقون الذين يفشلون في الامتثال لتفضيلات أقرانهم للألعاب الرياضية يكونون أكثر عرضة للانتحار (Shenon, ١٩٩٥)، وحول نقد دراسة دوركايم انظر: (Douglas, ١٩٦٧).

تطور علم الاجتماع

للناس فضول دائم حول موضوعات علم الاجتماع: كيف ننسجم مع المجتمع، ماذا نفعل فيه، ومن نختارهم قادة لنا... إلخ. ولقد أبدى الفلاسفة وأصحاب المرجعية الدينية في المجتمعات القديمة والوسطى ملاحظات لا حصر لها بشأن السلوك الإنساني. ولم يتم اختبار هذه الملاحظات أو التحقق منها علمياً. ومع ذلك فقد أصبحت هذه الملاحظات – فى الغالب – أساس المبادئ الأخلاقية. وقد تنبأ عدد من الفلاسفة الاجتماعيين الأوائل بظهور الدراسة المنظمة للسلوك الإنساني فى يوم من الأيام. ومع بداية القرن التاسع عشر قدم المنظرون الأوروبيون إسهامات رائدة إلى تطور علم السلوك الإنساني.

المفكرون الأوائل: كونت، ومارتينيو، وسبنسر

كان القرن التاسع عشر فترة اضطراب بالنسبة للمفكرين فى فرنسا، حيث قضت ثورة ١٧٨٩ على الملكية، وذاق نابليون مرارة الهزائم المتتالية فى محاولته لغزو أوروبا. ووسط هذه الفوضى انشغل الفلاسفة بكيفية إصلاح حال المجتمع. فقد آمن كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) – الذى ذاع صيته وتأثيره بين هؤلاء الفلاسفة فى أوائل القرن التاسع

عشر – بأن وجود علم نظري للمجتمع وبحث منظم للسلوك أمر لا بد منه لإصلاح حال المجتمع. وصك كونت مصطلح "علم الاجتماع" Sociology ليدل على علم السلوك الإنساني.

وأبدى كونت مخاوفه من أن تؤدي تجاوزات الثورة الفرنسية إلى إعاقة دائمة لاستقرار المجتمع الفرنسي. ومع ذلك فقد كان يحذره الأمل في أن تؤدي دراسة السلوك الإنساني بطريقة منظمة في نهاية المطاف إلى تفاعلات إنسانية أكثر رشداً. وفي ترتيبه للعلوم وضع كونت علم الاجتماع على قمته، وأطلق عليه "ملك العلوم"، وعلى المشتغلين به "القديسين العلماء". ولم يعط هذا المنظر الفرنسي علم الاجتماع اسمه فحسب، بل وضع هذا العلم الناشئ في تحد أكثر طموحاً.

ولقد أصبح بمقدور العلماء أن يتعلموا من أعمال كونت بدرجة كبيرة من خلال الترجمات التي قامت بها عالمة الاجتماع الإنجليزية هاريت مارتينييو (١٨٠٢-١٨٧٦)، إلا أن مارتينييو كانت مُصلحة اجتماعية بحكم لقبها كعالمة اجتماع. وقدمت مارتينييو نافذة عن العادات والممارسات الاجتماعية في وطنها (بريطانيا) والولايات المتحدة. وفي كتابها المعنون "المجتمع في أمريكا" (١٩٦٢، صدرت النسخة الأصلية عام ١٨٣٧) قامت بدراسة الدين والسياسة وتربية الأطفال والوفود Immigration في هذه الأمة الناشئة. وقد أولت مارتينييو اهتماماً خاصاً بالتمايزات بين الطبقات الاجتماعية، وبعوامل مثل النوع الاجتماعي والأعراق.

وأكدت كتابات مارتينييو على التأثير المحتمل للاقتصاد والقانون والتجارة والسكان على المشكلات الاجتماعية للمجتمع المعاصر. وعبرت مارتينييو عن رأيها بوضوح دفاعاً عن حقوق المرأة، وتحرير العبيد، والتسامح الديني. وفي رأيها (١٨٩٦) أن المفكرين والعلماء لا ينبغي أن يقتصروا على دراسة الأوضاع الاجتماعية، بل عليهم أن يتحركوا – عن اقتناع – بطريقة تفيد المجتمع. واتساقاً مع هذا الرأي، قامت مارتينييو بإجراء بحوث عن طبيعة عمل المرأة، وأشارت بضرورة إجراء بحوث أخرى عن هذه القضية المهمة (Lengerman & Niebrugge-Brantley, ١٩٩٨).

ومن الشخصيات الأخرى المهمة التي أسهمت في تطور علم الاجتماع هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣). ولم يشعر سبنسر (وهو الإنجليزي الثرى في عصر الملكة فيكتوريا) – على العكس من مارتينييو – بأنه ملزم بتصحيح أحوال المجتمع أو تحسين شأنه، وكان كل أمله هو أن يفهم هذا المجتمع على نحو أفضل. واعتماداً على دراسة شارلز دارون عن "أصل الأنواع"، قام سبنسر بتطبيق مبدأ تطور الأنواع على

المجتمعات من أجل تفسير الكيفية التي تتغير - أو تتطور - بها بمرور السنين. كما تبنى وجهة النظر التطورية عند دارون - وهي أن البقاء للأصلح - ليزعم أنه "طبيعي" أن يكون بعض الناس أغنياء وبعضهم الآخر فقراء.

وقد شاع مدخل سبنسر إلى التغيير المجتمعي بدرجة ملموسة طيلة حياته. وعلى العكس من كونت يرى سبنسر أن المجتمعات عرضة للتغيير، ومن ثم فليس ثمة داع لأن يكون الفرد ناقداً للأوضاع الاجتماعية القائمة أو أن يعجل بالتغيير الاجتماعي. وقد أعجب هذا الموقف كثيراً من الأشخاص المؤثرين في إنجلترا والولايات المتحدة الذين كانت لهم مصلحة راسخة في الوضع القائم، كما انتابهم الشك في المفكرين الاجتماعيين الذين أقروا بالتغيير.

إميل دوركايم

قدم إميل دوركايم (١٨٥٨-١٩١٧) إسهامات عديدة إلى علم الاجتماع، بما فيها دراسته النظرية المهمة عن الانتحار. وقد تلقى دوركايم - وهو ابن حاخام يهودى - تعليمه في كل من فرنسا وألمانيا، وحقق لنفسه سمعة أكاديمية مرموقة، وتم تعيينه كواحد من أوائل أساتذة علم الاجتماع في فرنسا. وفوق كل هذا وذاك سوف نتذكر دوركايم بإصراره على أن السلوك يتعين فهمه في السياق الاجتماعي الأكبر، وليس في السياق الفردى فحسب.

وقد طور دوركايم (١٩٤٧، النسخة الأصلية صدرت عام ١٩١٢) نظرية رئيسية - نقدمها هنا كمثال على هذا الإصرار - لتساعد في فهم كافة أشكال المجتمع من خلال دراسة مكثفة على قبيلة الـ"أروننتا" الأسترالية. وركز دوركايم على الوظائف التي يؤديها الدين في هذه القبيلة، كما أكد على الدور الذي تلعبه الحياة الجمعية في تحديد ما هو "دينى". وخلص دوركايم من دراسته إلى أن الدين - شأنه شأن الأشكال الأخرى للسلوك الجمعى - يعزز تضامن الجماعة.

وكانت تداعيات العمل في المجتمعات الحديثة من الاهتمامات الأخرى الرئيسية لإميل دوركايم. وفي رأيه أن تزايد تقسيم العمل الموجود في المجتمعات الصناعية - عندما يصبح العمال أكثر تخصصاً في أعمالهم - يؤدي إلى ما أسماه "اللامعيارية" Anomie التي تعنى فقدان التوجيه الذى يشعر به المجتمع عندما يصبح الضبط الاجتماعي للسلوك الفردى عقيماً. وتحدث حالة اللامعيارية عندما يفقد الناس إحساسهم بالهدف أو التوجيه خاصة خلال فترات التغيير الاجتماعي العميق. ويكون الناس - عندما يعيشون فترة من اللامعيارية - مشوشين وعاجزين عن التعايش مع البيئة الاجتماعية

الجديدة لدرجة قد تدفع بعضهم إلى الانتحار.

وكان دوركايم مشغولاً بالأخطار التي يفرضها الاغتراب والوحدة والعزلة على المجتمعات الصناعية الحديثة. وقد شارك كونت إيمانه بأن علم الاجتماع ينبغي أن يوجه التغيير الاجتماعى، وبالتالي دافع عن وجود جماعات اجتماعية جديدة – بين أسرة الفرد والدولة – توفر الإحساس بالانتماء بين أعضاء المجتمعات الكبيرة.

ولم تكن اهتمامات دوركايم – مثل غيره من كثير من علماء الاجتماع – مقصورة على جانب واحد فقط من جوانب السلوك الاجتماعى. فقد اهتم بالجريمة والعقاب، والدين، ومكان العمل. وهناك نفر قليل من علماء الاجتماع ممن لهم هذا التأثير الطاعى على مجالات عديدة متنوعة داخل علم الاجتماع.

ماكس فيبر

كان ماكس فيبر من المفكرين النظريين الأوائل المهمين. وقد ولد فى ألمانيا عام ١٨٦٤، وتلقى تعليمه الأكاديمى فى التاريخ القانونى والاقتصادى، ثم أظهر اهتمامه تدريجياً بعلم الاجتماع. وفى النهاية أصبح أستاذاً فى عدة جامعات ألمانية. وقد علم فيبر تلاميذه أنه يتعين عليهم استخدام "الفهم" أو "الاستبصار" فى عملهم الفكرى، وأوضح أنه لا يمكننا تحليل كثير من سلوكنا الاجتماعى بأنواع المحكات الموضوعية التى نستخدمها عند قياس الوزن أو الحرارة. ولكى يتسنى فهم السلوك فهماً كاملاً ينبغي أن نتعلم المعانى الذاتية التى تلازم أفعال الناس – أى: كيف يرى الناس سلوكهم ويفسرونه؟

ولنفترض على سبيل المثال أن أحد علماء الاجتماع يقوم بدراسة الترتيب الاجتماعى للأفراد فى إحدى الجماعات. ولذلك يتوقع فيبر من الباحث أن يستخدم الفهم لتحديد دلالة التسلسل الاجتماعى للجماعة بالنسبة لأعضائها. وقد يقوم الباحث بدراسة تأثير الألعاب الرياضية، أو الدرجات، أو المهارات الاجتماعية، أو الأقدمية على المكانة داخل الجماعة. ويسعى الباحث إلى تعلم كيفية ارتباط أعضاء الجماعة بأعضاء آخرين ذوى مكانة أعلى أو أقل. ويأخذ الباحث فى اعتباره – عند البحث فى هذه المسائل – عواطف الناس وأفكارهم ومعتقداتهم واتجاهاتهم (L.Coser, ١٩٥٦).

كما ندين بالفضل لفيدر فى أداة تصورية أساسية، وهى النمط المثالى. وهو عبارة عن نموذج تركيبى يُستخدم كمقياس يمكن تقييم الحالات الواقعية بناءً عليه. وقد قام فيبر فى أعماله بتحديد خصائص متعددة للبيروقراطية كنمط مثالى. وفى تقديمه لنموذج البيروقراطية لم يصف فيبر تنظيمياً بعينه، ولم يستخدم مصطلح "مثالى" بمعنى يوحى

بالتقييم الإيجابي. فقد كان هدفه تقديم معيار مفيد لقياس درجة البيروقراطية في التنظيم الواقعي (Gerth & Mills, ١٩٥٨). ويُستخدم مفهوم النمط المثالي في دراسة الأسرة والدين والسلطة والنظم الاقتصادية، وفي تحليل البيروقراطية.

وعلى الرغم من تطابق التخصص المهني بين إميل دوركايم وماكس فيبر، إلا أنهما لم يلتقيا البتة، ولم يكن كل منهما على دراية بوجود الآخر، ناهيك عن عدم الإلمام بأفكار كل منهما. ومن المؤكد أن هذا الوضع لا ينطبق على أعمال كارل ماركس. إذ أن تفكير دوركايم بشأن تأثير تقسيم العمل في المجتمعات الصناعية يرتبط بكتابات ماركس، كما أن اهتمام فيبر بعلم الاجتماع الموضوعي المتحرر من القيم كان استجابة مباشرة لآراء ماركس. ومن ثم فليس عجباً أن يُنظر إلى كارل ماركس على أنه شخصية بارزة في تطور علم الاجتماع شأنه في ذلك شأن غيره من العلماء الاجتماعيين.

جدول (٥ - ٣)

المفكرون الاجتماعيون الأوائل

كارل ماركس	ماكس فيبر	إميل دوركايم	
(١٨٨٣-١٨١٨)	(١٩٢٠-١٨٦٤)	(١٩١٧-١٨٥٨)	المولد والوفاة
الفلسفة، القانون	القانون، الاقتصاد، التاريخ، الفلسفة	الفلسفة	التأهيل الأكاديمي
١٨٤٨-البيان الشيوعي ١٨٦٧-رأس المال	١٩٠٤/١٩٠٥-الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية ١٩٢٢-الاقتصاد والمجتمع	١٨٩٣-تقسيم العمل الاجتماعي ١٨٩٧-الانتحار: دراسة في علم الاجتماع ١٩١٢-الأشكال الأولية للحياة الدينية	المؤلفات الرئيسية

كارل ماركس

يشترك كارل ماركس (١٨٨٣-١٨١٨) مع دوركايم وفيبر في الاهتمام المزدوج بالقضايا الفلسفية التجريدية والواقع العياني للحياة اليومية. وكان ماركس - على العكس

من غيره - ناقداً للنظم القائمة بدرجة يستحيل معها دراستها بالمسلك الأكاديمي التقليدي. وعلى الرغم من مولده وتعليمه في ألمانيا، فقد قضى الجانب الأكبر من حياته في المنفى. وكانت حياة ماركس الشخصية سلسلة من الكفاح المرير. وعندما مُنع من نشر بحث قام بكتابته، هجر وطنه إلى فرنسا. وهناك التقى في باريس مع فريدريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥)، وكون معه صداقة استمرت مدى حياته. وعاش ماركس وإنجلز في فترة كانت الحياة الاقتصادية في أوروبا وأمريكا الشمالية بدأ يسودها باضطراب المصنع لا المزرعة. وفي عام ١٨٤٧ داوم ماركس وإنجلز على حضور اجتماعات سرية في لندن لتحالف غير قانوني من النقابات العمالية عرف باسم "التحالف الشيوعي" Communist League. وفي العام التالي أعد برنامجاً سياسياً أسماه "البيان الشيوعي"، زعماً فيه أن الجماهير التي لا تملك موارد سوى قوة عملها (أى البروليتاريا) عليها أن تتحد لتقاتل من أجل الإطاحة بالمجتمعات الرأسمالية. يقول ماركس وإنجلز:

"إن تاريخ جميع المجتمعات القائمة حتى الآن هو تاريخ النضال الطبقي ... وليس لدى البروليتاريا ما تخسره سوى عبوديتها .. وأمامهم عالم يستطيعوا أن يحققوا فيه النصر .. يا عمال العالم اتحدوا".

(Feuer, ١٩٥٩: ٧, ٤١)

وبعد أن فرغ ماركس من كتابه "البيان الشيوعي" عاد إلى ألمانيا ليتم نفيه منها، وبعدها انتقل إلى إنجلترا، حيث استمر في كتابة الكتب والمقالات. وعاش ماركس هناك في فقر مدقع، وخسر معظم ممتلكاته، وتوفي عديد من أطفاله بسبب سوء التغذية والمرض. وكان ماركس غريباً في المجتمع البريطاني، وهذه حقيقة أثرت بجلاء في آرائه بشأن الثقافات الغربية.

ووفقاً لتحليل ماركس ينقسم المجتمع أساساً إلى طبقات تتصارع من أجل مصالحها الطبقيّة. وعندما درس ماركس المجتمعات الصناعية في عصره - مثل ألمانيا وإنجلترا والولايات المتحدة - وجد أن المصنع هو مركز الصراع بين المستغلين (ملاك وسائل الإنتاج) والمستغلين (العمال). ونظر ماركس في هذه العلاقات بطريقة منظمة، بمعنى أنه آمن بأن النظام الكلي للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية يحافظ على قوة الملاك وهيمنتهم على العمال. ومن ثم يزعم ماركس وإنجلز أن الطبقة العاملة في حاجة إلى الإطاحة بالنظام الطبقي القائم. وكان تأثير ماركس على الفكر المعاصر تأثيراً ضخماً. فقد ألهمت كتابات ماركس أولئك الذين قادوا فيما بعد الثورات الشيوعية في روسيا والصين

وكوبا وفيتنام وغيرها.

وبصرف النظر عن الثورات السياسية التي عززتها كتاباته، فقد كان تأثير ماركس على الفكر المعاصر تأثيراً مثيراً. فقد شدد على أن التوحيد والترابط مع الجماعة يؤثر في وضع الفرد في المجتمع، وهذا المجال من مجالات الدراسة أصبح يشكل الآن اهتماماً رئيسياً لعلم الاجتماع المعاصر، حيث نجد أن العضوية حسب النوع الاجتماعي، والعمر، والأعراق، والطبقة الاجتماعية تؤثر في اتجاهات الشخص وسلوكه. وتُعزى هذه الطريقة من طرق فهم المجتمع إلى الأعمال الرائدة لكارل ماركس.

التطورات الحديثة

بُنِيَ علم الاجتماع اليوم على أساس متين وضعه إميل دوركايم وماكس فيبر وكارل ماركس. ومن المؤكد أن علم الاجتماع لم يظل راكداً طيلة القرن التاسع عشر. ففي الوقت الذي استمر فيه الأوروبيون في تقديم إسهامات إلى هذا العلم، شارك علماء الاجتماع من شتى أرجاء العالم – خاصة الولايات المتحدة – في تقدم النظرية والبحث في علم الاجتماع. وساعدت آراؤهم الجديدة في فهم تشكيل المجتمع على نحو أفضل.

ويعد شارلز هورتون كولي (١٨٦٤-١٩٢٩) نموذجاً من علماء الاجتماع الذين ذاع صيتهم في أوائل القرن العشرين. وقد ولد كولي في آن أربور بولاية ميتشجان، ودرس الاقتصاد، ثم أصبح في النهاية أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة ميتشجان. ويلاحظ أن كولي – مثل غيره من علماء الاجتماع الأوائل – أصبح مهتماً بالعلم الجديد (علم الاجتماع) في الوقت الذي كان يتابع فيه مجالاً للدراسة مرتبطاً بهذا العلم.

وقد شارك كولي كلاً من دوركايم وفيبر وماركس رغبتهم في أن يكتشفوا المزيد عن المجتمع. ولتحقيق ذلك بدرجة أكثر نجاحاً فضل كولي استخدام منظور علم الاجتماع لينظر أولاً في الوحدات الصغيرة، أي الجماعات الحميمة التي تسودها علاقة الوجه للوجه مثل الأسرة والزمرة وجماعة الأصدقاء. ورأى كولي في هذه الجماعات بذرة المجتمع، بمعنى أنها تشكل مثل الناس ومعتقداتهم وقيمهم وطبيعتهم الاجتماعية. وقد أدت دراسات كولي إلى زيادة فهمنا للجماعات ذات الحجم الصغير نسبياً.

وفي أوائل القرن العشرين رأى كثير من علماء الاجتماع في الولايات المتحدة في أنفسهم مصلحين اجتماعيين كرسوا حياتهم للدراسة المنظمة ومن ثم إصلاح المجتمع الفاسد، واهتموا اهتماماً حقيقياً بحياة المهاجرين في المدن الناشئة، سواء أكان هؤلاء المهاجرون من أوروبا أو من ريف الجنوب الأمريكي. وقد لعبت عالِمات الاجتماع –

الأوائل بصفة خاصة – أدواراً إيجابية في المناطق الحضرية الفقيرة كقائدات لمراكز المجتمع المحلي المعروفة باسم "النزل" Settlement Houses. وكانت جين آدمز (١٨٦٠-١٩٣٥) – على سبيل المثال – عضوة نشطة في الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع، وشاركت في تأسيس نزل شهير في شيكاغو اسمه "هل هاوس" Hull House.

وجمعت آدمز وغيرها من رائدات علم الاجتماع بين البحث العلمي، والعمل في مجال الخدمة الاجتماعية والنشاط السياسي – كل ذلك بهدف مساعدة الفقراء وخلق مجتمع أكثر عدلاً. وعملت آدمز مع الصحفية والمربية السوداء إيدا ويلز Ida B. Wells بنجاح للحيلولة دون تنفيذ سياسة التفرقة العنصرية في المدارس الحكومية بشيكاغو. وبذلت آدمز جهوداً لإنشاء محكمة للأحداث ونقابة عالمية للنساء مما يعكس الطابع التطبيقي لأعمالها (Addams ١٩١٠, ١٩٣٠, Lengerman & Niebrugge-Brantly ١٩٩١; Deegan ١٩٩٨).

وتحول اهتمام علم الاجتماع مع منتصف القرن العشرين، فقد حصر علماء الاجتماع معظم جهودهم في التنظير وجمع البيانات، تاركين مهمة تغيير المجتمع إلى الأخصائيين الاجتماعيين وغيرهم. وقد صاحب هذا التحول بعيداً عن الإصلاح الاجتماعي التزام متنام بالمناهج العلمية للبحث وبالتفسير المتحرر من القيم. ولم يكن كل علماء الاجتماع سعيدين بهذا التحول، ولذلك تأسس تنظيم جديد – جمعية دراسة المشكلات الاجتماعية SSSP – عام ١٩٥٠ لتتعامل مباشرة مع اللامساواة الاجتماعية والمشكلات الاجتماعية الأخرى.

وقدم عالم الاجتماع روبرت ميرتون (١٩٦٨) إسهاماً هاماً إلى علم الاجتماع بالمزج الناجح بين النظرية والبحث. وقد ولد ميرتون عام ١٩١٠ في فيلادلفيا لأبوين مهاجرين من سلوفاكيا، وحصل على منحة دراسية في جامعة تمبل، ثم واصل دراسته في جامعة هارفارد حيث أبدى اهتمامه المستمر بعلم الاجتماع. وتركز جهده التدريسي في جامعة كولومبيا.

وقد وضع ميرتون نظرية يُستشهد بها كثيراً في تفسير السلوك الانحرافي. فقد حدد ميرتون الطرق المختلفة التي يحاول بها الناس إحراز النجاح في الحياة. وفي رأيه أن بعض الناس قد لا يشتركون في الهدف المتفق عليه اجتماعياً لتراكم السلع المادية أو الوسائل المقبولة لتحقيق هذا الهدف. ووفقاً للمخطط التصنيفي عند ميرتون يكون "المجددون" Innovators هم الناس الذي يقبلون هدف تحقيق الثروة المادية، ولكنهم

يلجأون إلى وسائل غير مشروعة لتحقيق ذلك بما فيها السرقة والابتزاز والسطو.

وقد بنى ميرتون تفسيره للجريمة على السلوك الفردى المتأثر بالأهداف والوسائل التى يقرها المجتمع، إلا أن هذا التفسير كانت له دلالات أشمل، حيث يساعد فى تفسير ارتفاع معدلات الجريمة بين الفقراء الذين لا يرون أى بصيص للأمل فى حصر أنفسهم فى الطرق التقليدية للنجاح.

كما شدد ميرتون على أن علم الاجتماع يتعين عليه المزاجية بين المداخل على المستويات الكبرى Macro والصغرى Micro فى دراسة المجتمع. ويختص علم اجتماع الوحدات الكبرى بالطواهر على نطاق واسع أو بالحضارات. ولذلك تعد الدراسة الثقافية المقارنة التى قام بها دوركايم عن الانتحار مثلاً على البحوث التى تجرى على نطاق واسع. وحديثاً يقوم علماء اجتماع الوحدات الكبرى بدراسة المعدلات الدولية للجريمة، والنمط الثابت للأسويين الأمريكيين كأقلية نمطية، والأنماط السكانية للدول الإسلامية.

وعلى العكس من ذلك يركز علم اجتماع الوحدات الصغرى على الجماعات الصغيرة، وغالباً ما يستخدم الدراسة التجريبية فى المعامل. وتشمل بحوث علم الاجتماع على المستويات الصغرى - على سبيل المثال - كيفية انسحاب المطلقين من الرجال والنساء من الأدوار الاجتماعية الهامة، وكيفية تأثير الامتثال على التعبير عن الاتجاهات المتعصبة، وكيفية تأثير توقعات المدرسين على الإنجاز الأكاديمي للطلاب.

ويعكس علم الاجتماع المعاصر الإسهامات المتعددة للمنظرين الأوائل، فعندما يتطرق علماء الاجتماع لدراسة موضوعات مثل الطلاق وتعاطي المخدرات والطوائف الدينية، فإنهم يعتمدون على الآراء النظرية لرواد علم الاجتماع. ويستطيع القارئ المتمعن أن يسمع صوت كونت ودوركايم وفيبير وماركس وكولى وأدمز وغيرهم يتحدثون عبر صفحات البحوث المعاصرة. كما تجاوز علم الاجتماع الحدود الفكرية للمنظرين فى أوروبا وأمريكا الشمالية. وتأتى الإسهامات إلى علم الاجتماع اليوم من علماء الاجتماع الذين يقومون بدراسة السلوك الإنسانى والبحث فيه فى أجزاء أخرى فى العالم. وحتى يتسنى لنا وصف أعمال علماء الاجتماع اليوم، فإنه يبدو من المفيد أن ندرس عدداً من المداخل النظرية المؤثرة (أو ما تعرف أيضاً بـ"المنظورات").

المنظورات الرئيسية فى علم الاجتماع

ينظر علماء الاجتماع فى المجتمع بطرق مختلفة، فبعضهم يرى المجتمع أساساً على أنه وحدة مستقرة ومستمرة، وينطبق فى أذهانهم بقاء الأسرة والدين وغيرهما من

النظم الاجتماعية. وينظر فريق ثان من علماء الاجتماع إلى المجتمع على أنه يتألف من عدة جماعات تتصارع وتتنافس على موارد نادرة. وفي رأى فريق ثالث من علماء الاجتماع أن أكثر جوانب العالم الاجتماعى اللافتة للنظر هى التفاعلات اليومية الروتينية بين الأفراد التى نستخف بها فى بعض الأحيان. وهذه الآراء – أو وجهات النظر – الثلاثة هى أكثرها شيوعاً واستخداماً بين علماء الاجتماع، وهى المنظورات: الوظيفية، والصراعية، والتفاعلية على الترتيب. وهى تمثل مدخلاً أولياً إلى علم الاجتماع.

المنظور الوظيفى

يفكر هذا المنظور فى المجتمع ككائن حى يسهم كل عضو فيه فى بقائه. ويؤكد المنظور الوظيفى على هذا الرأى، أى الطريقة التى تتضافر بها أجزاء المجتمع للمحافظة على استقراره.

ويعد **تالكوت بارسونز** (١٩٠٢-١٩٧٩) – وكان عالم اجتماع بجامعة هارفارد – من الشخصيات البارزة فى تطور النظرية الوظيفية. وقد تأثر بارسونز تأثراً شديداً بأعمال إميل دوركايم وماكس فيبر وغيرهما من علماء الاجتماع الأوروبيين. وهيمن بارسونز – لمدة تربو على أربعة عقود – على علم الاجتماع فى الولايات المتحدة بمشايعته للوظيفية. ونظر بارسونز إلى المجتمع على أنه شبكة واسعة من الأجزاء المترابطة، كل جزء منها يساعد فى المحافظة على النظام ككل. ويزعم المدخل الوظيفى أنه إذا لم يسهم جانب ما من جوانب الحياة الاجتماعية فى استقرار المجتمع أو بقائه – أى إذا لم يقوم بوظيفة مفيدة محددة أو يعزز من الإجماع القيمى بين أعضاء المجتمع – فلن ينتقل هذا الجانب من جيل إلى الجيل الذى يليه.

ودعنا ننظر إلى الدعارة من المنظور الوظيفى. والسؤال هنا: لماذا تستمر هذه الممارسة رغم إدانتها؟ يرى الوظيفيون أن الدعارة تشبع احتياجات أفراد لا يتسنى لهم إشباعها على نحو عاجل من خلال أكثر الصور قبولاً من الناحية الاجتماعية مثل الزواج. ويحصل "المشترى" على الجنس دون أدنى مسئولية عن الإنجاب أو الاقتراب العاطفى. وفى المقابل تحصل "البائعة" على قوت يومها من خلال هذا التبادل.

ويخلص بنا هذا التحليل إلى أن الدعارة تحقق وظائف معينة يحتاجها المجتمع، وهذا لا يعنى أن الدعارة شكل مرغوب فيه أو شكل مشروع من أشكال السلوك الاجتماعى. ولا يطلق الوظيفيون مثل هذه الأحكام، ولكنهم يأملون فى تفسير كيف أن جانباً من جوانب المجتمع – والذى يتعرض للهجوم بصفة مستمرة – يمكنه مع ذلك أن يظل باقياً (K.Davis, ١٩٣٧)، رغم كل هذه الإدانة الدينية والأخلاقية.

الوظائف الظاهرة والكامنة

عندما تطلع على دليل الكلية الجامعية سوف تجد فيه حصراً بالوظائف المتعددة لهذه المؤسسة. فقد تقرأ فيه على سبيل المثال أن الجامعة تهدف إلى توفير التعليم الشامل لكل طالب في الفكر الكلاسيكي والمعاصر: في الإنسانيات، وفي العلوم، وفي الآداب. ومع ذلك فسوف تصيبك الدهشة عندما تطالع في دليل آخر أن الجامعة تأسست عام ١٨٩٥ لإبعاد الناس في فئة العمر ١٨ - ٢٢ سنة عن سوق العمل، ومن ثم الحد من البطالة. ولن تجد دليلاً للجامعة يعلن أن هذا هو الهدف من إنشاء الجامعة. ومع ذلك فإن المؤسسات الموجودة في المجتمع تقوم بعدة وظائف، وتؤدي بعضها على نحو دقيق. والحقيقة أن الجامعة تقوم فعلاً بتأخير دخول الناس إلى سوق العمل.

وقد فرق روبرت ميرتون (١٩٦٨) تفرقة مهمة بين الوظائف الظاهرة والكامنة. والوظائف الظاهرة للمؤسسات، هي الوظائف الصريحة والمعلنة والمقصودة. وتشمل هذه الوظائف الأهمية المقصودة والمعروفة مثل دور الجامعة في ضمان التنافس والامتياز الأكاديميين. وعلى العكس من ذلك لجانب معين في المجتمع تكون الوظائف الكامنة وظائف غير مقصودة وغير معلنة، وتعكس أهدافاً خفية للمؤسسة. ومن الوظائف الكامنة للجامعة الحد من البطالة. كما تؤدي الجامعة وظيفة كامنة أخرى كمكان يلتقى فيه الأشخاص الذين يبحثون عن قرين يرتبطون به عن طريق الزواج.

الاختلال الوظيفي

يعترف الوظيفيون بأنه ليست كل أجزاء المجتمع تسهم في استقراره طول الوقت. ويقصد بالاختلال الوظيفي أن عنصراً من عناصر المجتمع أو عملية من عملياته تقوض النظام الاجتماعي أو تؤدي إلى تهديد استقراره.

ونحن نعتبر كثيراً من الأنماط السلوكية المختلفة وظيفياً - مثل القتل - أنماطاً غير مرغوب فيها. ولا يعنى هنا أننا ينبغي أن نفسر الاختلالات الوظيفية تفسيراً تلقائياً بأنها وظائف سلبية. إذ أن تقييم الاختلال الوظيفي يعتمد على القيم الموجودة لدى الفرد أو على الوضع القائم. فعلى سبيل المثال تتمثل وجهة النظر الرسمية في سجون الولايات المتحدة في أنه ينبغي التخلص من عصابات نزلاء السجون لأن ذلك يخل بوظائف السجن، إلا أن بعض الحراس اقتنعوا عملياً بأن وجود عصابات السجون مفيد وظيفياً في قيامهم بعملهم. إذ أن الخطر الذي تفرضه هذه العصابات يهدد الأمن في السجن مما يتطلب مزيداً من المراقبة وساعات عمل زائدة للحراس (٤٠٠ : ١٩٩٣، Hunt et al.).

منظور الصراع

ينظر علماء الاجتماع – على العكس من تشديد الوظيفيين على الاستقرار والإجماع – إلى العالم الاجتماعى على أنه فى حالة صراع متواصل. ويفترض منظور الصراع أن السلوك الاجتماعى يحسن فهمه فى سياق الصراع أو التوتر بين الجماعات المتنافسة. وليس من الضرورى أن يكون هذا الصراع عنيفاً؛ إذ يمكنه أن يأخذ شكل المفاوضات العمالية، والسياسات الحزبية، والتنافس بين الجماعات الدينية على الأعضاء، أو النزاع على الميزانية الفيدرالية.

وقد هيمن المنظور الوظيفى على علم الاجتماع فى الولايات المتحدة حتى أواخر الستينيات عندما أصبح مدخل الصراع أكثر قدرة على الإقناع. فمع انتشار القلاقل الاجتماعية الناجمة عن النزاع على الحقوق المدنية، والانقسام المرير على الحرب فى فيتنام، وظهور حركات التحرير النسائية، وفضيحة ووترجيت، وأحداث الشغب الحضرية، والخلافات فى الرأى على عيادات الإجهاض – كل ذلك كان مؤيداً لمدخل الصراع، أى أن عالمنا الاجتماعى يتميز بالنضال المتواصل بين الجماعات المتنافسة. ويقبل علم الاجتماع حالياً نظرية الصراع كأحدى الطرق الصحيحة للنظر فى المجتمع.

الرؤية الماركسية

اتضح لنا فيما سبق أن كارل ماركس نظر إلى النضال بين الطبقات الاجتماعية على أنه حتمى بالنظر إلى استغلال العمال فى ظل الرأسمالية. وامتداداً لأعمال ماركس بدأ علماء الاجتماع وغيرهم من العلماء الاجتماعيين ينظرون إلى الصراع لا على أنه مجرد ظاهرة طبقية فحسب، ولكنه جزء من الحياة اليومية فى جميع المجتمعات. ولذلك يرغب علماء الاجتماع – عند دراسة أى ثقافة أو تنظيم أو جماعة اجتماعية – فى معرفة من المستفيد، ومن الذى يعانى، ومن الذى يسود على حساب الآخرين.

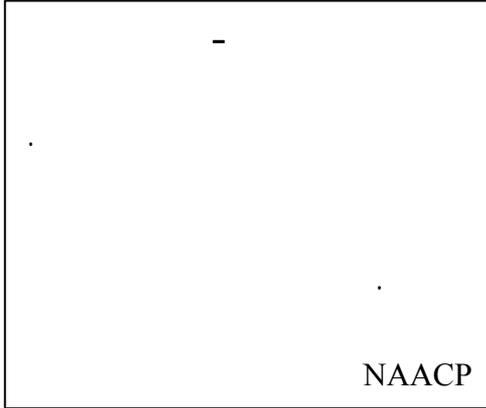
ويهتم علماء الاجتماع بالصراع بين النساء والرجال، بين الآباء والأطفال، بين المدن والضواحي، بين البيض والسود، وغيرها كثير. وينشغل منظرو الصراع بالكيفية التى تساعد بها نظم المجتمع – بما فيها الأسرة والحكومة والدين والتعليم ووسائل الإعلام – فى الحفاظ على الامتيازات التى تتمتع بها بعض الجماعات، والإبقاء على جماعات أخرى فى وضع الخنوع. إن تشديد منظرى الصراع على التغيير الاجتماعى وإعادة توزيع الموارد جعلهم أكثر راديكالية من الراديكاليين (Dahrendorf, ١٩٥٨).

الرؤية العرقية: دوبوا

من الإسهامات المهمة لنظرية الصراع أنها شجعت علماء الاجتماع على النظر في المجتمع من عيون قطاعات السكان التي ليس لها تأثير في صنع القرار. وقد قام علماء الاجتماع السود الأوائل مثل دوبوا (١٨٦٨-١٩٦٣) بإجراء بحوث كانوا يأملون من ورائها المساعدة في النضال من أجل مجتمع المساواة العرقية.

ويؤمن دوبوا بأن المعرفة تعد ضرورية في مواجهة التعصب وتحقيق التسامح والإنصاف، كما آمن بأن علم الاجتماع عليه أن يعتمد على المبادئ العلمية في دراسة المشكلات الاجتماعية مثل المشكلات التي يعاني منها السود في الولايات المتحدة. ولقد قدم دوبوا إسهاماً مهماً إلى علم الاجتماع من خلال دراسته المتعمقة للحياة الحضرية للبيض والسود.

وقد ضاق دوبوا ذرعاً بالمنظرين أمثال هربرت سبنسر الذي يبدو أنهم كانوا



قائمين بالوضع القائم. وأيد دوبوا إجراء بحوث أساسية عن حياة السود بما يساعد في فصل الرأي عن الحقيقة، وقام بتوثيق مكانتهم المتدنية نسبياً في فيلادلفيا وأتلانتا. وآمن دوبوا بأن منح السود كافة الحقوق السياسية يعد أساساً لتقدمهم الاجتماعي والاقتصادي في الولايات المتحدة. ولقد شكلت كثيراً من آراء دوبوا تحدياً للوضع القائم، ومع ذلك لم تجد

جمهوراً يؤيدها في الأوساط الحكومية أو في المجال الأكاديمي. ونتيجة لذلك أصبح دوبوا أكثر انخراطاً في التنظيمات التي يعترض أعضاؤها على النظام الاجتماعي الراسخ، وساعد في تأسيس الرابطة الوطنية لتقدم الشعوب الملونة، المعروفة اختصاراً بـ NAACP (Green & Driver, ١٩٧٨).

لقد أدت إضافة رؤى متعددة داخل علم الاجتماع في السنوات الحديثة إلى إجراء بعض البحوث المفيدة خاصة عن الأمريكيين من أصل أفريقي الذين انتابهم الحذر لسنوات طويلة من المشاركة في البحوث الطبية، لأن هذه البحوث كانت تستخدم لأغراض مثل تبرير العبودية أو تحديد أثر مرض الزهري الذي لا يوجد له علاج. أما اليوم فإن علماء الاجتماع الأمريكيين وغيرهم من العلماء الاجتماعيين من أصل أفريقي

يعملون على مشاركة السود فى بحوث طبية عرقية مفيدة فى موضوعات مثل مرضى السكر والأنيميا الخلوية اللذين يصيبان السكان السود (St – John, ١٩٩٧).

الرؤية النسوية

على الرغم من أن النظرية النسوية بنت نفسها على جوانب مهمة من منظور الصراع، فإنها تأثرت بالحاجة إلى التكامل الاجتماعى الذى دافع عنه الوظيفيون. ويرى علماء النسوية – شأنهم فى ذلك شأن منظرى الصراع – فى الفروق النوعية Gender انعكاساً لخضوع جماعة ما (النساء) لجماعة أخرى (الرجال). واعتماداً على أعمال ماركس وإنجلز ينظر منظرو النسوية المعاصرون إلى خضوع النساء باعتباره من موروثات المجتمعات الرأسمالية. ويرى بعض منظرى النسوية الراديكاليين أن اضطهاد النساء حتمى فى جميع المجتمعات التى يهيمن عليها الرجال، ومنها المجتمعات التى نسميها رأسمالية، واشتراكية، وشيوعية (Tuchman, ١٩٩٢).

وكما هو الحال بالنسبة لأعمال علماء الاجتماع الأمريكيين من أصل أفريقى، فقد أسهمت المدرسة النسوية فى علم الاجتماع فى زيادة فهمنا للسلوك الاجتماعى بتجاوز وجهة نظر الرجال البيض. فلم يعد الوضع الاجتماعى للأسرة – على سبيل المثال – يُحدد من خلال مكانة الزوج ودخله فقط.

وقامت عالِمات النسوية بتحدى الصورة النمطية الجامدة عن النساء، كما طالبن بإجراء دراسات عن المجتمع تأخذ فى اعتبارها التوازن النوعى وخبرات النساء وإسهاماتهن (Brewer ١٩٨٩, Komarovsky ١٩٩١, P.England ١٩٩٩).

ولقد قدم المنظور النسوى لعلماء الاجتماع رؤى جديدة عن السلوك الاجتماعى المؤلف. فعلى سبيل المثال نلاحظ أن البحوث السابقة عن الجريمة نادراً ما درست النساء، وعندما فعلت ذلك اتجهت إلى التركيز على الجرائم "التقليدية" التى ترتكبها النساء مثل سرقة المتاجر. وتتجاهل مثل هذه الرؤية الدور الذى تلعبه المرأة فى كافة أنماط الجريمة، وكذا تجاهل الدور الذى يلعبه كضحايا للجريمة. وقد خلصت البحوث التى قامت بإجرائها ميدا شيسنى – ليند ونويلى رودريجوز (١٩٩٣) إلى أن جميع النساء المسجونات تقريباً عانين فى الصغر من سوء معاملة بدنية وجنسية؛ كما أن نصفهن تعرضن للاغتصاب. وقد أثرت الإسهامات التى قدمها علماء النسوية والأقلييات على جميع المنظورات فى علم الاجتماع.

المنظور التفاعلي

إن التفاعل بين العمال في مكان العمل، والمناوشات التي تحدث في الأماكن العامة مثل محطات الأتوبيس والحدائق، والسلوك في الجماعات الصغيرة – كلها جميعاً جوانب من علم اجتماع الوحدات الصغرى والتي تثير انتباه أنصار التفاعلية. وإذا كان منظرو الوظيفة والصراع يقومون بتحليل أنماط السلوك في المجتمع على نطاق واسع، فإن المنظور التفاعلي يستقري الصور اليومية للتفاعل الاجتماعي من أجل فهم المجتمع ككل. ونعطي مثلاً على ذلك هو عمل هيئة المحلفين الذي أصبح في التسعينيات موضوعاً للرأي العام، حيث انتهت محاكمات مشهورة إلى أحكام تركت بعض الناس يهزون رؤوسهم عجباً. ويحاول علماء التفاعلية أن يفهموا على نحو أفضل السلوك الذي يحدث بين جماعة صغيرة (أى هيئة المحلفين) في غرفة المداولات بالمحكمة قبل دخولهم إلى قاعة المحكمة. (انظر إطار ٥-٢).

إطار ٥ - ٢

اتخاذ القرار بين هيئة المحلفين

تخيل أنه تم اختيارك ضمن هيئة المحلفين. كيف تصل أنت وغيرك من أعضاء هيئة المحلفين إلى اتخاذ قرار بالإجماع؟ كيف تتشكل الآراء؟ وكيف تتغير؟ ويعد تفاعلك مع زملائك من هيئة المحلفين عاملاً حاسماً في عملية اتخاذ القرار.

ولم تحظ الجماعات الصغيرة الأخرى بنفس القدر من الاهتمام الذي حظيت به هيئة المحلفين في التسعينيات. ومن بين هيئات المحلفين التي أثار الاهتمام العام تلك الهيئة التي نظرت قضية ضباط الشرطة الأربعة في لوس أنجلوس المتهمين بضرب رودنى كينج، وكذلك هيئة المحلفين في محاكمتى إيريك وليلى

والتفاعلية إطار مرجعي في علم

الاجتماع لدراسة الكائنات الإنسانية كما تعيش في عالم من الموضوعات ذات المعنى. وتشمل هذه الموضوعات: الأشياء المادية، والأفعال، والناس الآخرين، والرموز.

وإذا كانت بداية المدخلين: الوظيفي

والصراعي في أوروبا، فقد ظهرت التفاعلية أول ما ظهرت في الولايات

المتحدة. ويعد جورج هربرت ميد (١٨٦٣-

١٩٣١) مؤسس المنظور التفاعلي. وقد قام

ميد بالتدريس في جامعة شيكاغو منذ عام

١٨٩٣ حتى مماته. ويركز التحليل

السوسيولوجي عند ميد - شأنه في ذلك

شأن شارلز هورتون كولى - على

التفاعلات الإنسانية في المواقف المباشرة

one-to-one والجماعات الصغيرة. وكان

مينديز لقتل أبويهما، وأيضاً هيئة المحلفين التى برأت سيمبسون. ويهتم العلماء الاجتماعيون بكيفية وصول هيئة المحلفين إلى قرارهم.

تابع إطار ٥-٢

ويستخدم أنصار التفاعلية أربعة أنواع من أدوات البحث: المقابلات مع أعضاء هيئة المحلفين الذين يحاولون إعادة تمثيل كيفية وصولهم إلى الحكم القضائي؛ وملاحظة هيئة المحلفين وهم يجلسون ويتفاعلون مع الأحداث فى قاعة المحكمة، وملاحظة المداولات الفعلية لهيئة المحلفين (بعد استئذان القاضى فى حالات محددة)؛ والتجارب التى تستعين بمتطوعين لتشكيل هيئة محلفين صورية.

وندرس هنا بعض النتائج المتعلقة بتأثير أعضاء هيئة المحلفين على اتخاذ القرار، واحتمال إدانة المدعى عليه، وتأثير حجج هيئة المحلفين على قراراتهم، والتغيرات الحديثة فى نظام هيئة المحلفين. وفى عام ١٩٥٧ نجد مشهداً فى فيلم Twelve Angry Men يلعب فيه الممثل هنرى فوندا دور عضو فى هيئة المحلفين، ويبدأ بكونه الصوت الوحيد الذى يميل إلى إدانة المجرم المدعى عليه، ولكنه فى النهاية يقنع كافة أعضاء هيئة المحلفين ببراءة المدعى عليه. وعلى الرغم من الطابع الدرامى لأحداث الفيلم، فإن البحوث الحديثة تؤكد أن هيئة المحلفين عموماً لا تغير رأيها بعد الاقتراع الأول. وفى دراسة

ميد مهتماً بملاحظة أدق صور الاتصال (الابتسام، والتجهم، وإيماءة الرأس) وفهم الكيفية التى يتأثر بها سلوك الفرد بالسياق الأكبر للجماعة أو المجتمع. وعلى الرغم من هذه الرؤى المبتكرة، إلا أن ميد كتب مقالات بين الفينة والفينة، ولكنه لم يقدّم مطلقاً بتأليف كتاب. وقد ذاعت شهرة ميد كمعلم بارع، وجاءت معظم آرائه الناقدة إلينا من خلال محاضراته التى نشرها تلاميذه فى مجلدات مُحررة بعد وفاته.

ويشار إلى المنظور التفاعلى فى بعض الأحيان بـ"المنظور التفاعلى الرمزي" لأن أنصار التفاعلية يرون فى الرموز جزءاً مهماً من أجزاء الاتصال الإنسانى. ويشترك أعضاء المجتمع فى المعانى الاجتماعية للرموز. وفى الولايات المتحدة على سبيل المثال نلاحظ أن التحية ترمز للاحترام، فى حين يدل إمساك قبضة اليد بإحكام على التحدى. وقد تستخدم ثقافة أخرى - مع ذلك - إيماءات مختلفة للتعبير عن مشاعر الاحترام أو التحدى.

ولننظر فى الطرق المختلفة التى تصور بها المجتمعات المختلفة الانتحار دون استخدام الكلمات. فالناس فى الولايات المتحدة يشيرون بأصابعهم إلى الرأس (إطلاق النار)، ويضع سكان الحضر فى اليابان أيديهم على المعدة (الطعن)، وفى جنوب غينيا الجديدة يحكمون قبضة اليد على الحنجرة (الشنق). وتُصنف هذه

أجريت على ٢٢٥ قضية تبين أنه إذا صوت أغلب أعضاء هيئة المحلفين بإدانة المدعى عليه في الاقتراع الأول، فإن هناك احتمالاً بنسبة ٥% بتبرئة المدعى عليه فيما بعد.

ويمكن أن يحدث اتخاذ القرار بين هيئة المحلفين قبل الاقتراع الأول. وعلى

تابع إطار ٥ - ٢

الرغم من تعليمات القضاة بالعمل في الاتجاه المعاكس (المتهم بريء حتى تثبت إدانته)، فإن عدداً كبيراً من أعضاء هيئة المحلفين يصلون إلى حكم موقت في مرحلة مبكرة من المحاكمة. وتوضح الدراسات أن هيئة المحلفين التي تبدأ بمشاعر الإدانة أو عدم الإدانة تعطى وزناً أكبر لتأييد البينة التي تعزز حكمهم الأولي، وإسقاط الحجة التي تقوض هذا الحكم.

وتركز معظم البحوث على اتخاذ القرار بين هيئة المحلفين في المحاكمات الجنائية عن كيفية وصول هذه الهيئة إلى قرار بما إذا كان المدعى عليه مذنباً أم بريئاً، إلا أن المدعى عليه في عدد كبير من القضايا الإجرامية يمكن محاكمته في عدة محاكم، أو أن احتمالاً لاتخاذ قرار ببراءته لسبب أحق.

وقد أوضحت عدة دراسات أن هيئة المحلفين أكثر ميلاً إلى إدانة المدعى عليه بناءً على بعض الاتهامات إذا توفرت لديهم بدائل عديدة للوصول إلى حكم نهائي بالبراءة.

وقد اهتم الباحثون اهتماماً خاصاً بعقد

الأنماط للتفاعل الرمزي على أنها صور من التفاعل اللفظي الذي يتضمن الإشارات وتعبيرات الوجه والإيماءات.

ومنذ انتشار آراء ميد، عبر علماء الاجتماع عن اهتمامهم المتزايد بمنظور التفاعل. فقد تحول كثير منهم عن الانشغال الزائد بالمستويات الكبرى للسلوك الاجتماعي، وأعادوا توجيه اهتمامهم إلى السلوك الذي يحدث في الجماعات الصغيرة (المستويات الصغيرة). وكان إرفنج جوفمان (١٩٢٢-١٩٨٢) وراء ذبوع نوع خاص من أنواع المنهج التفاعلي عُرف باسم "المدخل المسرحي" Dramaturgical Approach، الذي يشبه الحياة اليومية بالمسرح وخشبيته. ومثلما يقوم الممثلون بإبراز صور معينة، نسعى جميعاً إلى تقديم ملامح معينة لشخصياتنا ونخفي صفات أخرى. ولذلك نشعر في الفصل المدرسي بالحاجة إلى إبراز صورة جادة، بينما نرغب أن نظهر في إحدى الحفلات في صورة ودودة لا رسمية.

المدخل السوسيولوجي

السؤال إذن: أي المداخل يتعين على عالم الاجتماع استخدامه في دراسة السلوك الإنساني: الوظيفي، أم الصراع، أم التفاعلي؟

الإجابة عن هذا السؤال هي أن علم الاجتماع يمكنه استخدام كل هذه

المنظورات الثلاثة (انظر جدول ٥-٤)، مادام أن كل منظور يمكنه أن يقدم آراء ينفرد بها عن نفس القضية.

ودعنا نفكر الآن في كاترين إيرون وكيف مضت في دراسة ثقافة الوشم في الولايات المتحدة اليوم (التي عرضنا وصفاً لها في افتتاحية هذا الفصل). فقد ركزت على استخدام الوشم كرمز على المكانة الاجتماعية (المنظور الوظيفي)، كما درست الصراع بين الأب والطفل الذي قرر أن يَشم نفسه (منظور الصراع). كما أن البحث في عملية الوشم كما تحدثت في الواقع بما في ذلك التفاوض الذي يحدث بين فنان الوشم والشخص الذي يتم وشمه، هذا البحث يستفيد من منظور التفاعل.

ونعطي مثلاً آخر (انظر إطار ٥-٣) يوضح كيف أن التفاز يمكن دراسته من خلال المنظورات: الوظيفي والصراعي والتفاعلي.

ولا يمكن القول بأن الاقتصار على منظور بعينه في دراسة قضية معينة نهج صحيح، ذلك أنه بوسعنا أن نحقق فهماً أفضل لمجتمعنا بالاعتماد على هذه المنظورات الثلاثة في دراسة السلوك الإنساني والنظم. وتتداخل هذه المنظورات لاتفاقها في الاهتمامات، ولكنها يمكن أن تختلف تبعاً لما تمليه طبيعة كل منظور، وتبعاً للقضايا التي تتم دراستها. فالتوجه النظري لعالم الاجتماع يؤثر في مدخله إلى مشكلة البحث من زوايا مهمة.

المقارنات بين هيئة المحلفين المكونة من ستة أعضاء وتلك المؤلفة من اثني عشر عضواً. وقد أبدى أعضاء الهيئة التشريعية اهتمامهم بخفض حجم هيئة المحلفين توفيراً للمال ولالإسراع بإجراءات المحاكمة. وقد بحث العلماء الاجتماعيون في كيفية تأثير ذلك على

تابع إطار ٥ - ٢

اتخاذ القرار بين هيئة المحلفين. وقد أوضحت إحدى الدراسات عن القضايا الجنائية أن حجم هذه الهيئة لا يؤثر على احتمال الإدانة إذا ظهر أن المدعى عليه بريء. ومع ذلك فقد اتضح أنه إذا كانت إدانة المدعى عليه واضحة، فإن هيئة المحلفين المكونة من ١٢ شخصاً أكثر نزوعاً من الهيئة المكونة من ٦ أشخاص إلى إدانته.

ويستوجب البحث في أعضاء هيئة المحلفين إلى دراسة التغيرات الناجمة عن هذا العمل، إذ أن الزيادة في جرائم العنف في الولايات المتحدة وتقدم أساليب تصوير مسرح الجريمة يعنى أن هيئة المحلفين أكثر عرضة لما يترتب على وصف مناظر العنف والدم، حيث رصد المتخصصون في الصحة العقلية وكذا العلماء الاجتماعيون الصدمات التي يعاني منها أعضاء هيئة المحلفين والتي تضاعف عندهم أعراض الضغط مثل الاكتئاب والقلق ونقص الوزن وقلة ساعات النوم واضطراب العلاقات الاجتماعية الحميمة. وكما هو الحال بالنسبة للجماعات الصغيرة الأخرى، يمكن أن تكون المشاركة في هيئة المحلفين

تجربة مجهدة، خاصة فى المحاكمات
الجنائية التى تركز على العنف وإراقة
الدماء.
المصادر: (Hare ١٩٩٢; Abramson
١٩٩٤, Roan ١٩٩٥; MacCoun
١٩٨٩, Sabini ١٩٩٢).

جدول (٥ - ٤)

مقارنة بين المنظورات الرئيسية فى علم الاجتماع

أوجه المقارنة	المنظور الوظيفى	منظور الصراع	منظور التفاعل
رؤيته للمجتمع	مستقر ومتكامل	يتميز بالتوتر والنضال بين الجماعات	إيجابى فى تأثيره على التفاعل الاجتماعى اليومى
مستوى التحليل	الوحدات الكبرى	الوحدات الكبرى	التحليل المجهرى Micro كطريقة لفهم الظواهر الكبرى
رؤيته للفرد	يتم تنشئة الناس لإنجاز الوظائف المجتمعية	ينشكّل الناس بواسطة القوة والقسر والسلطة	يستخدم الناس الرموز ويخلقون عالمهم الاجتماعى من خلال التفاعل
رؤيته للنظام الاجتماعى	تتم المحافظة عليه من خلال التعاون والإجماع	تتم المحافظة عليه من خلال القوة والقسر	تتم المحافظة عليه من خلال الفهم المشترك للسلوك اليومى
رؤيته للتغير الاجتماعى	ينبغى تعزيزه وتأكيده	التغير يحدث دوماً، وقد تكون له مصاحبات إيجابية	ينعكس التغير فى الأوضاع الاجتماعية للناس واتصالاتهم مع الأخرين
مثال	العقوبات العامة تدعم النظام الاجتماعى	القوانين تدعم أوضاع أصحاب القوة	يحترم الناس القوانين أو ينتهكونها استناداً إلى خبراتهم الماضية

مشایعوه	- ایمیل دورکایم - تالکوت بارسونز - روبرت میرتون	- کارل مارکس - دوبوا - راییت میلز	- جورج هربرت مید - شارلز هورتون کولی - ایرفنج جوفمان
---------	---	---	--

علم الاجتماع التطبيقي والإكلينيكي

انشغل كثير من علماء الاجتماع الأوائل - خاصة جين آدمز وجورج هربرت ميد - انشغالا تاماً بالإصلاح الاجتماعي. فقد رغبوا في أن تكون نظرياتهم ونتائجهم ذات صلة وثيقة بصناع السياسة وحياة الناس بصفة عامة. فعلى سبيل المثال عمل ميد أميناً لصندوق "هل هاوس" لسنوات عديدة، حيث طبق نظريته لتحسين حياة الضعفاء (خاصة المهاجرين الوافدين). كما عمل ميد في لجان تتعامل مع مشكلات العمال والتعليم العام في شيكاغو (Miller, 1973).

واليوم يقصد بعلم الاجتماع التطبيقي Applied sociology استخدام علم الاجتماع في التطبيقات العملية على السلوك الإنساني والتنظيمات. والهدف من ذلك هو المساعدة على حل المشكلات الاجتماعية. فعلى سبيل المثال قام سبعة رؤساء للولايات المتحدة على مدى ثلاثين عاماً الماضية بتشكيل لجان للتنقيب عن الهموم المجتمعية الرئيسية التي تواجه أمتنا. وطلب من علماء الاجتماع أن يطبقوا خبراتهم في دراسة قضايا مثل العنف، والصور الإباحية، والجريمة، والهجرة الوافدة، والسكان. وتقدم مراكز البحوث الأكاديمية والحكومية في أوروبا دعماً مالياً متزايداً للدراسات التطبيقية.

ويعد تنامي البحوث على مستوى المجتمع المحلي مثلاً حياً على علم الاجتماع التطبيقي. ويمثل مركز دراسة القضايا المحلية CSLI - وهو وحدة بحثية

إطار (٥-٣)

الرؤى الوظيفية والصراعية والتفاعلية في التليفزيون

يمثل التليفزيون بالنسبة لمعظمنا صندوقاً قابلاً على الرف أو على المنضدة، وهو ذلك الجهاز الذي يلهينا، ويسلينا، وفي بعض الأحيان يدفعنا إلى النوم. وينظر علماء الاجتماع إلى التليفزيون نظرة أكثر عمقاً، وهنا نجدهم يستعينون بالمنظورات الرئيسية الثلاثة في علم الاجتماع.

الرؤية الوظيفية: يؤكد الوظيفيون في دراستهم لأي جانب من جوانب المجتمع - بما فيها التليفزيون - على إسهامه في الاستقرار الاجتماعي الكلي. ويرى الوظيفيون في التليفزيون عاملاً قوياً في نشر القيم الشائعة في المجتمع وتقوية الشعور العام بالوحدة والتضامن الاجتماعي:

- ينقل التليفزيون الأخبار الحية المهمة على المستويين: الوطني والدولي. وينشر التليفزيون على المستوى المحلي معلومات على كل شيء من التحذير من هبوب عاصفة وإغلاق مدرسة إلى مواقع مأوى الطوارئ.

- تنقل برامج التليفزيون مهارات التعلم المفيدة والمعلومات الحقيقية.

- يجمع التليفزيون بين أبناء المجتمع المحلي أو حتى أبناء الأمة لمتابعة الأحداث والمناسبات المهمة (افتتاح

تابع إطار (٥-٣)

تابعة لكلية "أن أرونديل" التي تقع في مدينة أرنولد بولاية ميريلاند - مؤسسة رائدة في هذا المجال، حيث يشجع المركز كلاً من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس فيه على تطبيق مناهج البحث العلمي الاجتماعي على دراسة قضايا المجتمع المحلي مثل فرص العمالة لأصحاب الإعاقات.

وفي مثال آخر على بحوث المجتمع المحلي قام علماء الاجتماع بجامعة دي بول في شيكاغو مع طلابهم بدراسة تأثير افتتاح محطة الهاتف المحمول (موتورولا) التي يعمل بها ٣٠٠٠ مستخدم في مدينة "هارفارد" الصغيرة بولاية إلينوى. ويقطن هذا المجتمع المحلي الريفي الذي يعتمد على الزراعة ٦٥٠٠ نسمة فقط، ويبعد ٨٠ ميلاً عن شيكاغو (خارج شريط الضواحي). ويرى بعض سكان هارفارد أن وصول موتورولا يعزز من الاقتصاد المحلي، بينما يبدي آخرون مخاوفهم من قوة هذه الشركة التي تبلغ قيمة أصولها ٣٣ بليون دولار. ولم يهتم الباحثون في جامعة دي بول - في دراستهم للأثار الاجتماعية والاقتصادية لموتورولا على هارفارد - بالآثار المحتملة لهذه الشركة الضخمة على المدينة فحسب، بل اهتموا كذلك بما إذا كان أسلوب معيشة هذا المجتمع المحلي يمكن أن يؤثر في مجلس إدارة الشركة Koval (١٩٩٦، et al., وانظر أيضاً: Pestello) et al., ١٩٩٦.

وقد أدى الاهتمام المتزايد بعلم الاجتماع التطبيقي إلى تخصصات مثل علم الاجتماع الطبي وعلم الاجتماع البيئي.

مشروعات جديدة، مؤتمرات صحفية، استعراضات عسكرية، جنازات رسمية، ومن خلال تغطية الكوارث مثل انفجار تشالنجر (١٩٨٦) وانفجار ١٩٩٥ في مدينة أوكلاهوما.

- يسهم التلفزيون في الاستقرار والرخاء الاقتصاديين بالإعلان عن الخدمات وباعتباره سوقاً مباشرة للمنتجات (من خلال قنوات التسوق).

الرؤية الصراعية: يزعم منظرو الصراع أن النظام الاجتماعي ينهض على القسر والاستغلال، ويؤكدون على أن التلفزيون يعكس - بل ويزيد من - الانقسامات في المجتمع والعالم، بما فيها الانقسامات القائمة على النوع الاجتماعي، والعرق، والجنسية، والطبقة الاجتماعية:

-التلفزيون شكل من أشكال المشروعات الكبيرة التي تعد الأرباح فيها أكثر أهمية من نوعية المنتج (إعداد البرامج).

-أن متخذى القرار في التلفزيون أغلبيتهم من البيض والرجال والأثرياء؛ وعلى النقيض تتجاهل برامج التلفزيون حياة الجماعات الخاضعة وطموحاتها، ومنها الطبقة العاملة والعجزة وكبار السن.

-يشوه التلفزيون العملية السياسية مادام أن المرشحين الذين لديهم أموال طائلة (غالباً ما تساندهم جماعات اللوبي

تابع إطار (٥-٣)

القوية) يشترتون ثمن عرضهم على

المصوتين ويشجعون البث بالإعانات التجارية.

- أن بعض البرامج التلفزيونية تقوض التقاليد الأصيلة والصور الجمالية للمجتمعات الأخرى وتشجع على تبعيتها الثقافية والاقتصادية للولايات المتحدة.

الرؤية التفاعلية: فى دراستهم للنظام الاجتماعى يهتم أنصار التفاعلية اهتماماً خاصاً بالفهم المشترك للسلوك اليومي. وبناء عليه يدرس منظرو التفاعلية التلفزيون على مستوى الوحدات الصغيرة بالتركيز على كيفية تشكل السلوك الاجتماعى اليومي بواسطة التلفزيون:

-يقوم التلفزيون بدور "الحاضنة" أو "رفيق اللعب" لكثير من الأطفال - وحتى الرضع منهم - لفترات طويلة من حياتهم.

-يمكن أن تنشأ شبكة علاقات الصداقة من المشاركة فى عادات المشاهدة أو من تذكر المسلسلات التى تعلق فى الأذهان، أو أن يجتمع أفراد الأسرة والأصدقاء بمتابعة أحداث مهمة مثل توزيع جوائز الأوسكار.

-أن تكرار ظهور العنف فى الأخبار وبرامج المنوعات يخلق مشاعر الخوف، وقد يسهم بالفعل فى مظاهر العدوانية فى العلاقات بين الأشخاص.

-أن قوة التلفزيون تشجع القادة السياسيين وحتى الشخصيات الفنية على

تابع إطار (٥-٣)

التأثير فى الرموز (من خلال المظهر العام) ومحاولة نقل التعاريف الذاتية

ويركز علم الاجتماع الطبى على الكيفية التى يتعامل بها المتخصصون فى الرعاية الصحية والمرضى مع المرض. ومثالنا على ذلك أن علماء الاجتماع الطبى درسوا تأثير الإيدز على الأسرة والأصدقاء والمجتمعات المحلية. ويدرس علماء الاجتماع البيئى العلاقة بين المجتمعات الإنسانية والبيئة الطبيعية. ومن القضايا التى يركزون عليها فى دراساتهم قضية "العدالة البيئية" التى أثرت لأن الباحثين والنشطين فى المجتمع المحلى وجدوا أن المخاطر الناجمة عن مقلب النفايات أكثر وضوحاً فى الجبرات التى يقطنها الفقراء والأقلية (M.Martin, ١٩٩٦).

وقد أدى تنامى ذىوع علم الاجتماع التطبيقى إلى ظهور تخصص علم الاجتماع الإكلينيكي Clinical Sociology. وقد كتب لويس فيرث (١٩٣١) منذ ما يزيد عن ٦٠ عاماً مضت عن علم الاجتماع الإكلينيكي، إلا أن المصطلح ذاته اكتسب شهرة فى السنوات الحديثة فقط. وإذا كان علم الاجتماع التطبيقى علماً تقويمياً بالدرجة الأولى، فإن علم الاجتماع الإكلينيكي مكرس لتغيير العلاقات الاجتماعية (كما فى العلاج الأسرى) أو لإعادة هيكلة المؤسسات الاجتماعية (كما فى إعادة تنظيم المراكز الطبية).

وقد تأسست الرابطة الأمريكية للممارسة Sociological Practice Association عام ١٩٧٨ لتدعيم تطبيق المعرفة السوسولوجية على التدخل من أجل التغيير الفردى والاجتماعى. وقد

تأسست هذه الرابطة كإجراء للاعتراف
بعلماء الاجتماع الإكلينيكي مثل المعالج
البدني أو علماء النفس. وقد بدأت الرابطة
الأمريكية لعلم الاجتماع ASA فى عام
١٩٨٩ فى نشر مجلة جديدة لعلم الاجتماع
الإكلينيكي اسمها Sociological Practice
Review

للمواقع الاجتماعية.
وعلى الرغم من هذه الاختلافات، فإن
الوظيفيين ومنظري الصراع وأنصار
التفاعلية يتفقون على أن هناك ما هو أكثر
من الترفيه يمكن أن يقال بشأن التليفزيون.
كما يتفق هؤلاء المنظرون أيضاً على أن
التليفزيون والصور الشائعة الأخرى للثقافة
موضوعات تستحق الدراسة الجادة من
علماء الاجتماع.

وقد ترك علماء الاجتماع التطبيقي مهمة تقييم جهودهم إلى غيرهم. وعلى العكس
منهم يتولى علماء الاجتماع الإكلينيكي بأنفسهم المسؤولية المباشرة عن التنفيذ والتعامل
مع عملائهم. وقد أصبح تخصص "علم الاجتماع الإكلينيكي" أكثر جاذبية للطلاب
المتخرجين من أقسام علم الاجتماع، لأنه يوفر لهم فرصة تطبيق المعرفة النظرية بطريقة
عملية، وأصبح هذا التخصص مغرباً لندرة المتخصصين فيه فى سوق العمل حتى الآن.
ويمكن مقابلة علم الاجتماع التطبيقي والإكلينيكي بعلم الاجتماع النظرى (أو البحث)
Basic (or pure) sociology، الذى يسعى إلى معرفة أكثر عمقاً بالجوانب الأساسية
للظواهر الاجتماعية. وليس من الضروري أن نأمل من وراء هذا النوع من البحوث
تطبيقات عملية، على الرغم من إمكانية الوصول إلى هذه الأفكار بمجرد تحليل النتائج.
وعندما قام دوركايم بدراسة معدلات الانتحار، لم يكن مهتماً أساساً باكتشاف سبل
الخلاص من الانتحار. وبهذا المعنى كان بحثه مثلاً على علم الاجتماع النظرى لا علم
الاجتماع التطبيقي.

تنمية الخيال السوسولوجي

نوضح فيما يلى كيفية تنمية الخيال السوسولوجي بطرق عديدة مختلفة منها توضيح
النظرية فى الواقع، والبحث الإجرائى، والحديث من خلال السلالة، والنوع الاجتماعى،
والطبقة، والحدود القومية، وتسليط الضوء على السياسة الاجتماعية فى شتى أرجاء
العالم.

النظرية فى الواقع

تساعد المنظورات الرئيسية الثلاثة فى علم الاجتماع – الوظيفية، والصراعية،
والتفاعلية – فى فهم قضايا الساعة سواء أكانت عقوبة الإعدام أو تمويل الرعاية الصحية.
وليس من الضروري أن يصرح عالم الاجتماع علانية ليقول "هنا أنا استخدم الوظيفية"،

إلا أن بحوث ومدخل علماء الاجتماع تعتمد بالفعل على واحد أو أكثر من هذه الأطر المرجعية النظرية.

البحث الإجراني

يبحث علماء الاجتماع في عدد من القضايا والسلوك الاجتماعي. وقد أوضحنا آنفاً أن هذه البحوث قد تتضمن الوشم واتخاذ القرار بين هيئة المحلفين. وغالباً ما تكون للبحوث تطبيقات مباشرة لتحسين حياة الناس، كما أوضحنا في حالة زيادة مشاركة الأمريكيين من أصل أفريقي في اختبار مرض السكر. وتسلط البحوث التي يقوم بإجرائها علماء الاجتماع وغيرهم من العلماء الاجتماعيين الأضواء على السلوك الجماعي بكافة أنواعه.

الحديث من منظور السلالة والنوع الاجتماعي والطبقة والحدود القومية

يُضمّن علماء الاجتماع في بحوثهم الرجال والنساء، والناس من طبقات اجتماعية - اقتصادية متعددة (بعضهم أغنياء وأكثرهم فقراء)، والأفراد من أصول سلالية، وجنسية National ودينية مختلفة. ويحاول علماء الاجتماع في بحوثهم الوصول إلى نتائج تتحدث إلى جميع الناس وليس إلى الأغنياء أو الأقياء منهم فقط. وليس هذا الأمر سهلاً على الدوام. فإجراء بحث عن كيفية زيادة إحدى الشركات لأرباحها يلقي اهتماماً ودعماً مالياً أكثر من بحث آخر عن مزايا نظام التبادل بين سكان المناطق الحضرية الفقيرة. ويسعى علم الاجتماع اليوم أكثر من أى وقت مضى إلى فهم أفضل لخبرات جميع الناس. ويوضح الإطار (٤-٥) كيف أن دور المرأة في الأماكن العامة يتحدد بطريقة مختلفة عن دور الرجل في أرجاء مختلفة من العالم.

السياسة الاجتماعية في شتى أرجاء العالم

من الطرق المهمة لاستخدام الخيال السوسيولوجي هي تعزيز فهمنا للقضايا الاجتماعية الراهنة في العالم مثل الدعم الحكومي لمراكز رعاية الطفل، والتحرش الجنسي... إلخ. وهذه المجالات للسياسة الاجتماعية توضح لنا كيف أن المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع يمكن أن تدعم مهارات التفكير النقدي عندنا، وتساعد في أن نفهم على نحو أفضل الجدل الدائر في

إطار (٤-٥)

النساء في الأماكن العامة

على مستوى العالم

المكان العام - حسبما يدل عليه المصطلح - مثل رصيف المشاة أو الحديقة - مفتوح لجميع الأشخاص، حتى أن بعض المؤسسات الخاصة - مثل

تابع إطار (٤-٥)

المطاعم - قصد منها أن تخص الناس جميعهم. ولكن علماء الاجتماع وغيرهم من العلماء الاجتماعيين وجدوا أن

أنحاء العالم حول السياسة العامة الحالية. يضاف إلى ذلك أن علم الاجتماع يستخدم في تقييم نجاح البرامج أو تأثير التغييرات التي تحدث نتيجة السياسة العامة والعمل السياسى. وهذا يؤكد التطبيقات العملية العديدة للنظرية والبحث في علم الاجتماع. ويتوقع علماء الاجتماع أن يكون الربع الأول من القرن الحادى والعشرين أكثر الفترات أهمية فى تاريخ علم الاجتماع؛ وذلك لأن هناك اعترافاً متزايداً فى الولايات المتحدة وفى كل مكان من العالم بأن المشكلات الاجتماعية يتعين مواجهتها قبل أن يغمر خطرهما المجتمعات الإنسانية. ونحن نتوقع لعلماء الاجتماع أن يلعبوا دوراً متزايداً فى القطاع الحكومى من خلال إجراء البحوث وتطوير بدائل السياسة العامة.

ملخص الفصل

علم الاجتماع هو الدراسة المنظمة للسلوك الاجتماعى والجماعات الإنسانية. وقد درسنا فى هذا الفصل طبيعة نظرية علم الاجتماع، ومؤسسى العلم، والمنظورات الرئيسية فى علم الاجتماع المعاصر، وتطبيقات علم الاجتماع، وطرق ممارسة "الخيال السوسولوجى".

ويمكن تلخيص أهم ما ورد فى هذا

الفصل فى النقاط التالية:

١- من العناصر الأساسية للخيال السوسولوجى - وهو الوعى بالعلاقة بين الفرد والمجتمع الأكبر - قدرة عالم

المجتمعات تحدد ارتياد هذه الأماكن بطريقة تختلف بين النساء والرجال.

وتُحرم النساء فى كثير من مجتمعات الشرق الأوسط من ارتياد الأماكن العامة، وتظل المرأة محصورة فى المنزل أو فى أماكن معينة. وفى هذه المجتمعات تكون المقاهى والأسواق هى عالم الرجال.

وهناك مجتمعات أخرى - مثل مدغشقر - تفرض قيوداً على وجود المرأة فى الأماكن العامة، ومع ذلك يسمح لها بالمساومة كجزء من عملية التسوق فى الأسواق المفتوحة. وتسيطر النساء فعلياً على الأسواق فى بعض مجتمعات غرب أفريقيا. وتتمتع النساء فى عديد من دول أوروبا الشرقية وتركيا بحرية الحركة فى الأماكن العامة، إلا أن المقاهى لا تزال مقصورة على الرجال. وعلى نحو مشابه نلاحظ أن محلات الخمور فى تايوان اليوم مخصصة لرجال الأعمال فقط؛ ولا تلقى المديرات أى ترحيب فى هذا المكان. وعلى العكس من ذلك تختلط المقاهى والحانات فى أمريكا الشمالية بالنساء والرجال الذين يتجاذبون معاً أطراف الحديث.

ومع أن بعض الباحثين ينظرون إلى الأماكن العامة - وبخاصة فى الولايات

تابع إطار (٥-٤)

المتحدة - على أنها أماكن محايدة حسب النوع الاجتماعى، فإننا يجب أن نتذكر أن النوادى الخاصة بالرجال موجودة، وأن النساء فى الأماكن العامة يعانين بعض

أشكال اللامساواة. وقد قام إرفنج جوفمان - وهو من منظري التفاعل - بإجراء دراسات كلاسيكية على الأماكن العامة، حيث وجدها أماكن حميدة للتفاعلات الروتينية مثل مساعدة المشاة في معرفة اتجاهات السير. وشنت كارول جارندر هجوماً على أعمال إرفنج جوفمان من منظور نسوي بقولها "لم يشدد جوفمان على الخوف الذي يمكن أن ينتاب النساء من الرجال في الأماكن العامة، ناهيك عن الذعر الذي يسيطر على الأقليات العرقية والسلافية وكذلك المعاقين" (٤٥ : ١٩٨٩).

وتعى النساء جيداً أن المشاحنات مع الرجال في الأماكن العامة يمكن أن تؤدي بسهولة إلى تعرضهن للتحرش الجنسي.

وإذا كان جوفمان يرى أن ما تتعرض له النساء في الشارع أمر نادر ولا يترتب عليه أذى أو تهديد، فإن جارندر (: ١٩٨٩ ٤٩) ترد على ذلك بأن ظهور النساء صغيرات السن بصفة خاصة في الأماكن العامة يصاحبه بصفة مستمرة تحية تقدير وإعجاب، ولكن الأمور ليست كذلك في الحقيقة، حيث يمكن أن تنقلب إلى إهانات قاسية ومبتذلة إذا تطور الموقف إلى الأسوأ. وتضيف

تابع إطار (٥-٤)

جارندر أن ظهور النساء في الأماكن العامة يصاحبه في بعض الأحيان المرز والقرص والصفير، وهو ما يكشف القناع عن العداء الكامن لدى كثير من الرجال

الاجتماع على النظر إلى مجتمعه نظرة الدخيل عليه أو الغريب عنه، وليس من منظور خبراته الشخصية المحدودة ونزعاته الثقافية.

٢- لا تكون المعرفة البادئة المشتركة صادقة دوماً. ويتعين على علماء الاجتماع اختبار وتحليل كل معلومة يستخدمونها.

٣- يؤكد علم الاجتماع - على العكس من العلوم الاجتماعية الأخرى - على التأثير الممكن للجماعات على سلوك الناس واتجاهاتهم، والطرق التي يشكل بها الناس المجتمع.

٤- يستخدم علماء الاجتماع النظريات في دراسة العلاقات بين المشاهدات أو البيانات التي قد تبدو غير مترابطة كلية.

٥- من المفكرين الذين أسهموا في تطور علم الاجتماع في القرن التاسع عشر نذكر أوجست كونت الفيلسوف الفرنسي، وهاريت مارتينو عالمة الاجتماع الإنجليزية، وهربرت سبنسر العالم الإنجليزي.

٦- من الشخصيات الأخرى المهمة في تطور علم الاجتماع إميل دوركايم الذي كان له سبق الريادة في دراسة الانتحار، وماكس فيبر الذي علمنا الحاجة إلى الاستبصار في العمل الفكري، وكارل ماركس الذي شدد على أهمية الاقتصاد والصراع في المجتمع.

٧- يدين علم الاجتماع في القرن العشرين بالفضل لعالمي الاجتماع الأمريكيين

حيال النساء فى الشارع. وفى رأى جاردر أن كثيراً من النساء يتخوفن من التحرش والانتهاك والاعتصاب الجنسى الذى يمكن أن يحدث لهن فى الأماكن العامة. وتخلص جاردر إلى أن الأماكن العامة هى بمثابة مجالات تجسد عدم المساواة فى الحياة اليومية للنساء وغيرهن (١٩٨٩:٥٦).

شارلز هورتون كولى وروبرت ميرتون. ٨-يركز علم اجتماع الوحدات الكبرى على الظواهر على نطاق واسع أو الحضارات الكبرى، فى حين ينصب اهتمام علم اجتماع الوحدات الصغرى على دراسة الجماعات الصغيرة. ٩-يؤكد المنظور الوظيفى فى علم الاجتماع على الطريقة التى تتشكل بها أجزاء المجتمع للمحافظة على استقراره، ولا بد للتغير الاجتماعى أن يكون بطيئاً وتطورياً.

- ١٠-يفترض منظور الصراع أن السلوك الاجتماعى يحسن فهمه فى ضوء الصراع أو التوتر بين الجماعات المتنافسة. ولا بد للتغير الاجتماعى - الذى يحفزه الصراع والتنافس - أن يكون سريعاً وثورياً.
- ١١-يهتم منظور التفاعل اهتماماً أساسياً بالصور اليومية للتفاعل، ومنها الرموز وغيرها من أنواع الاتصال غير اللفظى. ويظل التفاعل الاجتماعى مستمراً مادام أن الأفراد يشكلهم المجتمع، وهم - بدورهم - يشكلون المجتمع.
- ١٢-يستفيد علماء الاجتماع من جميع هذه المنظورات الثلاثة، لأن كل منظور منها يقدم رؤية فريدة لنفس القضية.
- ١٣-إن علم الاجتماع التطبيقى - أى استخدام علم الاجتماع فى التطبيقات العملية على السلوك الإنسانى والتنظيمات - يقابله علم الاجتماع النظرى الذى يسعى إلى معرفة أكثر عمقاً بالجوانب الأساسية للظواهر الاجتماعية.
- ١٤-يمكن الاستفادة من الخيال السوسىولوجى فى توضيح النظرية فى الواقع، والبحث الإجرائى، والحديث من منظور السلالة والنوع الاجتماعى والطبقة والحدود القومية، وتخليط الضوء على السياسة الاجتماعية فى شتى أرجاء العالم.

الفصل السادس

مختصر بتاريخ نظرية علم الاجتماع السنوات الحديثة(*)

- ❖ **بدايات النظرية الأمريكية فى علم الاجتماع:**
 - الأبعاد السياسية لبدايات علم الاجتماع الأمريكى.
 - التغيير الاجتماعى والتيارات الفكرية وبدايات علم الاجتماع الأمريكى.
 - مدرسة شيكاغو.
- ❖ **نظرية علم الاجتماع حتى منتصف القرن العشرين:**
 - ظهور مدرسة هارفارد، والمدارس الجامعية، والوظيفية البنائية.
 - أفول مدرسة شيكاغو.
 - التطورات فى النظرية الماركسية.
- ❖ **نظرية علم الاجتماع منذ منتصف القرن العشرين حتى الوقت الحاضر:**
 - الوظيفية البنائية بين الصعود والهبوط.
 - علم الاجتماع الراديكالى فى أمريكا: س. رايت ميلز.
 - تطور نظرية الصراع.
 - بزوغ نظرية التبادل.
 - التحليل المسرحى: أعمال إرفنج جوفمان.
 - تطور علوم الاجتماع الإبداعية.
 - بزوغ نظرية النظم وأفولها.
 - هيمنة علم الاجتماع الماركسى.
 - تحدى النظرية النسوية.
 - البنيوية وما بعد البنيوية.

(*)
Ritzer, George. Contemporary Sociological Theory. nd ed. New York:
McGraw-Hill, Inc. , PP. - .

- الوظيفة الجديدة.
- الربط بين النظريات: الكبرى والصغرى.



ناقشنا فى الفصل الأول تطور نظرية علم الاجتماع - خاصة فى أوروبا - فى القرن التاسع عشر^(١). ومنتقل فى هذا الفصل إلى التطورات التى حدثت فى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، مع إشارة خاصة إلى التطورات فى الولايات المتحدة. ويوضح شكل (٦-١) المؤثرات الفكرية الهامة على هذا التطور، إضافة إلى أبرز النظريات والمنظرين.

❖ بدايات النظرية الأمريكية فى علم الاجتماع

يصعب أن نحدد تاريخاً دقيقاً لتأسيس علم الاجتماع فى الولايات المتحدة. فقد كان هناك مقرر فى المشكلات الاجتماعية يتم تدريسه فى جامعة أوبرلين عام ١٨٥٨؛ كما استخدم جورج فيتز هوه G. Fitzhugh عام ١٨٥٤ مصطلح علم الاجتماع الذى صكه كونت، وقام وليم جراهام سمنر بتدريس مقررات فى العلم الاجتماعى فى جامعة ييل مع بداية عام ١٨٧٣. وخلال ثمانينيات القرن التاسع عشر بدأ تدريس مقررات تحت اسم "علم الاجتماع". وقد أنشئ أول قسم لعلم الاجتماع فى جامعة كنساس عام ١٨٨٩. وفى عام ١٨٩٢ انتقل الليون سمول إلى جامعة شيكاغو، وانشأ بها قسماً جديداً لعلم الاجتماع. وقد أصبح هذا القسم أول المراكز الهامة لعلم الاجتماع الأمريكى بصفة عامة ولنظرية علم الاجتماع بصفة خاصة (Matthews, ١٩٧٧).

• الأبعاد السياسية لبدايات علم الاجتماع الأمريكى

تذهب دراسة هامة عن الأبعاد السياسية للنظرية الأمريكية فى علم الاجتماع سنواتها الأولى (Schwendinger & Schwendinger, ١٩٧٤) إلى أن أفضل وصف لعلماء الاجتماع الأوائل - من الناحية السياسية - هو أنهم كانوا ليبراليين ولم يكونوا

محافظين كما كان الحال بالنسبة لمعظم المنظرين الأوروبيين الأوائل. وتميزت النزعة الليبرالية لعلم الاجتماع الأمريكي في بدايته بملمحين أساسيين أولهما أنها سايرت الاعتقاد في حرية الفرد ورفاهيته، وكانت - في هذا الصدد - أكثر تأثراً باتجاهات سنبرس منها بالموقف الجمعي عند كونت؛ وثانيهما أن عديداً من علماء الاجتماع الذين ارتبطوا بهذه الاتجاهات تبنا وجهة نظر تطويرية في التقدم الاجتماعي (W. Fine, 1979).

ومع ذلك اختلف هؤلاء العلماء حول أفضل السبل لتحقيق هذا التقدم، إذ يرى بعضهم أنه ينبغي اتخاذ خطوات من جانب الحكومة للمساعدة في الإصلاح الاجتماعي، في حين طالب آخرون بمبدأ حرية العمل على أساس أنه يتعين ترك المكونات المتعددة للمجتمع ككل كي تحل مشكلاتها بنفسها.

وتقترب النزعة الليبرالية في شكلها المتطرف اقتراباً شديداً من النزعة المحافظة. وقد أدى الاعتقاد في التقدم الاجتماعي - إما بالإصلاح أو بمبدأ حرية العمل - وكذا الاعتقاد في أهمية الفرد إلى اتخاذ مواقف تدعم النسق ككل. وساد الاعتقاد في أن النسق الاجتماعي يقوم بدوره أو يمكن إصلاحه للقيام بهذا الدور، وانعدم توجيه الانتقاد للنسق ككل، ويعنى ذلك بالنسبة للمجتمع الأمريكي بصفة عامة عدم الاعتراض على النظام الرأسمالي. وذهب علماء الاجتماع الأوائل إلى أن المستقبل يتميز بالتآلف والتعاون بين الطبقات بدلاً من الصراع وشيك الحدوث بينها. ويعنى ذلك في نهاية المطاف أن نظرية علم الاجتماع الأمريكي في سنواتها الأولى أسهمت في تبرير الاستغلال والاستعمار الداخلي والعالمي وعدم المساواة الاجتماعية (Schwendinger & Schwendinger, 1974). وأخيراً كانت للنزعة الليبرالية السياسية التي ميزت علماء الاجتماع الأوائل مضامين محافظة قوية.

● التغيير الاجتماعي والتيارات الفكرية وبدايات علم الاجتماع الأمريكي

قام روسكو هنكل Roscoe Hinkle (1980) وإيلسوورث فورمان Ellsworth Fuhrman (1980) - في تحليلهما لتأسيس النظرية الأمريكية في علم الاجتماع - بتحديد السياقات المتعددة التي انبثقت منها هذه النظرية. وتعد التغييرات الاجتماعية التي حدثت في المجتمع الأمريكي بعد الحرب الأهلية أهم هذه السياقات (Branson, 1961). وقد ناقشنا في الفصل الأول مجموعة العوامل التي أسهمت في تطور نظرية علم الاجتماع في أوروبا، ويلاحظ أن عديداً من هذه العوامل (كالتصنيع والتحضر) أسهمت أيضاً في تطور نظرية علم الاجتماع في أمريكا. وفي رأى فورمان أن علماء الاجتماع الأمريكيين الأوائل أثنوا على النتائج الإيجابية للتصنيع، غير أنهم كانوا على وعى بمخاطرها. وعلى الرغم من أن هؤلاء العلماء فتنوا بالأفكار المتعلقة بمخاطر التصنيع

التي نجمت عن الحركات العمالية والجماعات الاشتراكية، فإنهم لم يميلوا إلى تفضيل المجتمع الراديكالي بمعناه الدقيق.

وقد اهتم آرثر فيديش وستانفورد ليمان (١٩٨٥) بدراسة تأثير المسيحية - خاصة المذهب البروتستانتي - على تأسيس علم الاجتماع الأمريكي. وفي رأيهما أن علماء الاجتماع الأمريكيين وضعوا في اعتبارهم اهتمام البروتستانتية بإنقاذ العالم من الخطيئة وإحلال لغة (العلم) محل أخرى (الدين). يقول فيديش وليمان: "كان علم الاجتماع بمثابة استجابة أخلاقية وفكرية لمشكلات المجتمع الأمريكي وأفكاره ونظمه وعقائده منذ عام ١٨٥٤ مع ظهور الأعمال الأولى في علم الاجتماع في الولايات المتحدة حتى نشوب الحرب العالمية الأولى" (١: ١٩٨٥, Vidich & Lyman). وسعى علماء الاجتماع إلى تحديد هذه المشكلات الاجتماعية ودراستها والمساعدة في حلها. وإذا كان رجال الدين قد انشغلوا بالدين للمساعدة في تحسين أحوال من آمنوا به، فإن علماء الاجتماع قاموا بنفس الدور في المجتمع. ولم تعارض الغالبية العظمى من علماء الاجتماع الشرعية الأساسية للمجتمع انطلاقاً من تنشئتهم الدينية والتزامهم الديني.

ومن العوامل الأخرى الهامة في تأسيس علم الاجتماع الأمريكي - التي ناقشها هنكل وفورمان - ظهور المهن الأكاديمية (بما فيها علم الاجتماع) ونظام الجامعة الحديثة في أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر. وقد ترسخ نظام الجامعة في أوروبا - على العكس من أمريكا - قبل ظهور علم الاجتماع. وإذا كان تأسيس علم الاجتماع في أوروبا قد استغرق وقتاً طويلاً، فإن هذا العلم شق طريقه بسهولة في ظل النظام الجامعي الجديد في أمريكا.

وهناك عامل آخر يتمثل في تأثير النظرية الأوروبية على النظرية الأمريكية في علم الاجتماع. فقد أسهم المنظرون الأوروبيون في تطور نظرية علم الاجتماع إسهاماً كبيراً، وأصبح بمقدور علماء الاجتماع الأمريكيين الاعتماد على هذا الأساس. ويعد سبنسر وكونت من أهم علماء الاجتماع الأوروبيين بالنسبة لعلماء الاجتماع الأمريكيين. وقد نال زيميل بعض الاهتمام في السنوات المبكرة، غير أن تأثير دوركايم وفيرر وماركس ظل محدوداً لسنوات عديدة. ونستشهد فيما يلي بتأثير النظرية الأوروبية في سنواتها المبكرة على علم الاجتماع الأمريكي من خلال استعراض أفكار هربرت سبنسر (انظر إطار ٦-١: لمحة عن حياة هربرت سبنسر).

تأثير هيربرت سبنسر على علم الاجتماع

توجد تفسيرات عديدة وراء تأثير أفكار سبنسر على السنوات الأولى من علم الاجتماع الأمريكي بدرجة أكثر وضوحاً من تأثير كونت ودوركايم وماركس وفيلبر. وابتسط هذه التفسيرات أن سبنسر كتب أعماله باللغة الإنجليزية، في حين لم يقرأ الآخرون بكتابة أعمالهم بهذه اللغة. يضاف إلى ذلك أن سبنسر لم يكتب أعماله بلغة متخصصة مما جعل هذه الأعمال يسيرة الفهم. ويرى البعض أن انعدام اللغة المتخصصة يعود إلى أن سبنسر لم يكن عالماً محنكاً.

ومع ذلك توجد أسباب أخرى أكثر أهمية وراء ذبوع صيت سبنسر. فقد طرح اتجاهاً علمياً جذب جمهور القراء الذي أصبح مفتوناً بالعلم ومخرجاته التكنولوجية. كما قدم سبنسر نظرية شاملة تتناول الحركة الكلية للتاريخ الإنساني. وقد أدى انتشار أفكاره - جنباً إلى جنب مع غزارة مؤلفاته - إلى اختلاف مضامين نظريته باختلاف القراء. وأخيراً فإن نظرية سبنسر بثت الطمأنينة في المجتمع الذي يمر بتحول عنيف مع التصنيع، وهو المجتمع الذي يتحرك بخطى وثيقة - في رأى سبنسر - في اتجاه نحو مزيد من التقدم.

وكان وليام جراهام سمنر أشهر أتباع سبنسر الأمريكيين. وقد قبل سمنر كثيراً من أفكار الدارونية الاجتماعية عند سبنسر وطورها. كما ترك سبنسر تأثيراً في عدد من علماء الاجتماع الأمريكيين الأوائل ومنهم: ليستر وارد، وتشارلز هورتون كولي،

إطار (٦-١)

هيربرت سبنسر (لمحة عن حياته)

ولد هيربرت سبنسر في ديربي بانجلترا في ٢٧ أبريل عام ١٨٢٠. ولم يتلق تعليمه في الآداب والإنسانيات، ولكنه تعلم الموضوعات التقنية. وفي عام ١٨٣٧ بدأ عمله كمهندس مدني في السكك الحديدية، وظل في هذه المهنة حتى عام ١٨٤٦. وخلال تلك الفترة ظل سبنسر يواصل دراسته على نفقته الخاصة، وبدأ ينشر أعماله العلمية والسياسية.

وفي عام ١٨٤٨ عُين محرراً لمجلة "الإيكونوميست" The Economist، وبدأت تترسخ أفكاره الإبداعية. وفي عام ١٨٥٠ أتم أول أعماله الهامة "الاستاتيكا الاجتماعية". وأثناء كتابته لهذا العمل بدأ سبنسر يعاني لأول مرة من الأرق، ومع مرور السنين زادت مشكلاته العقلية والبدنية. كما عانى من سلسلة من الاضطرابات العصبية طيلة البقية الباقية من حياته.

وفي عام ١٨٥٣ حصل سبنسر على ميراث مكنه من ترك وظيفته، وعاش بقية حياته كعالم صاحب ثروة تغنيه عن الكدح والعمل. ولم يحصل سبنسر على درجة جامعية، كما لم يعتلى منصباً أكاديمياً. وقد زادت إنتاجية سبنسر كعالم مع زيادة عزله ومضاعفات مرضه البدني والعقلي. وبدأ سبنسر يحقق لنفسه بالتدريج شهرة داخل إنجلترا، كما حقق سمعة دولية.

وروس، وروبرت بارك.

ومع حلول الثلاثينيات من القرن العشرين أقل نجم سبنسر في المحافل الفكرية بصفة عامة بالإضافة إلى علم الاجتماع. فقد أصبحت أفكاره المتصلة بالداروينية الاجتماعية ومبدأ حرية العمل مثار سخيرية في خضم المشكلات الاجتماعية الضخمة، والحرب العالمية، والكساد الاقتصادي العظيم. وقد أعلن تالكوت بارسونز عام ١٩٣٧ وفاة سبنسر فكراً في علم الاجتماع عندما ردد كلمات المؤرخ كرين برينتون منذ سنوات قليلة مضت: "من يقرأ لسبنسر الآن؟".

ولا تزيد أهمية سبنسر اليوم عن مجرد اهتمام تاريخي، غير أن أفكاره كانت هامة في تشكيل النظرية الأمريكية في علم الاجتماع في بداياتها. وسوف نلقى إطلالة سريعة فيما يلي على أعمال اثنين من المنظرين الأمريكيين اللذين تأثرا إلى حد ما بأعمال سبنسر، وهما وليام جراهام سمنر، وليستر وارد.

وليام جراهام سمنر (١٨٤٠-١٩١٠)

من الطبيعي أن نبدأ مناقشتنا عن المنظرين الأمريكيين الأوائل بوليام جراهام سمنر؛ لأنه كان أول من قام بتدريس مقرر يمكن أن يطلق عليه "علم الاجتماع" في الولايات المتحدة. وكان سمنر مقتنعاً بأنه بدأ تدريس علم الاجتماع "لسنوات عديدة قبل أية محاولة من هذا النوع في أية جامعة أخرى في العالم". (B. Curtis, ١٩٨١: ٦٣).

يعد سمنر من أبرز أنصار الداروينية الاجتماعية في الولايات المتحدة مع أنه غير

تابع إطار (٦-١)

ويعبر ريتشارد هوفستادر عن ذلك بقوله: "كان من المستحيل في العقود الثلاثة التي تلت الحرب الأهلية أن يكون الفرد ذا شأن في أي مجال من مجالات العمل الفكري دون أن يفهم سبنسر فهماً كاملاً" (٣٣: ١٩٥٩). وكان رجل الصناعة المهم أندرو كارنيجي من مؤيدي سبنسر، وقد كتب إليه أثناء مرض الموت في عام ١٩٠٣ ما يلي:

"عزيزي المعلم الأكبر.. أنت ترد على فكري كل يوم.. ويبدو أن العالم لا يعي بوجود أحد العقول العظيمة. ولكن سوف يصحو العالم يوماً ما ليضع سبنسر في مصاف العظماء".
(Peel, ١٩٧١: ٢).

ولكن هذا لم يكن من قدر سبنسر ونصيبه.

ومن أبرز خصائص سبنسر - وهي الخصيصة التي كانت في النهاية سبباً في تحطيم آماله الفكرية - عدم رغبته في الاطلاع على أعمال الآخرين. وهو يتشابه في هذا الأمر مع أحد عمالقة علم الاجتماع الأوائل، وهو أوجست كونت الذي كان يلتزم بمبدأ الصحة العقلية. وقد قال سبنسر في شأن الحاجة إلى قراءة أعمال الآخرين: "كنت طيلة حياتي مفكراً لا قارئاً، وكنت قادراً على أن اردد مع هوبز: "إذا قرأت كثيراً مثل

تابع إطار (٦-١)

الآخرين، فسوف أعرف قليلاً". وقد سأل صديق سبنسر ذات مرة عن رأيه في أحد الكتب، فكان جوابه أنه "عندما ألقيت نظره على هذا الكتاب، وجدت أن مزاعمه الأساسية خاطئة، ولذلك لم أهتم بقراءته". وكتب أحد المؤلفين عن طريقة سبنسر المبهمة في استيعاب المعرفة من خلال مسام جلده.. ويبدو أنه لم يقرأ البتة" (٦٧: ١٩٧٨، Wiltshire).

والسؤال إذن: إذا لم يكن سبنسر قد قرأ أعمال الآخرين، فمن أين جاء بأفكاره وآراءه؟ يقول سبنسر إن هذه الأفكار مصدرها عقله، وأنها برزت تدريجياً بطريقة لا فضولية دون انكباب مقصود على العمل أو جهد خارق". وفي رأى سبنسر أن هذه البديهة أكثر أهمية من الاستغراق في القراءة، وهو حل أصدق من الانبهار بقراءة أعمال الآخرين مما يسبب انحرافاً في التفكير". (٦٦: ١٩٧٨، Wiltshire).

وقد عانى سبنسر بسبب عدم رغبته في أن يطلع بجديّة على أعمال من الكتاب. والحقيقة أنه لو فعل ذلك لوجد بيئة على آرائه المستقلة والمبتكرة. وكان يتجاهل الآراء التي لا تتفق مع آرائه. ولذلك قال عنه معاصره شارلز دارون: "لو كان سبنسر قد درب نفسه على الملاحظة، حتى ولو على حساب ضياع قدر من القوة الفكرية، لأصبح

تابع إطار (٦-١)

وجهة نظره في أواخر حياته (N. Smith, ١٩٧٩). ويوضح الحوار التالي بين سمندر وأحد تلاميذه وجهات نظره الليبرالية حول الحاجة إلى الحرية الفردية وموقفه المعارض للتدخل الحكومي:

التلميذ: أستاذي، هل تؤمن بتقديم أية مساعدات حكومية للصناعة؟

سمندر: لا.

التلميذ: إذن أنت تؤمن - أستاذي - بنظام واحد هو النظام التنافسي - التعاقدى.

سمندر: هذا هو النظام الاقتصادي الوحيد القويم، وما عداه من أنظمة وهم.

التلميذ: حسن، ولكن لنفترض أن أحد أساتذة الاقتصاد السياسى استطاع أن يأخذ منك وظيفتك.. ألا تشعر بالأسى؟

سمندر: مرحباً بأى أستاذ يحاول ذلك.. وإذا أخذ منى وظيفتى فهذا خطأى. فعلمى أن أقدم بالتدريس على أتم وجه بما لا يدع الفرصة لغيرى أن يأخذ منى وظيفتى.

(٥٤: ١٩٥٩، Hopstadter، نقلا عن Phelps)

وقد أقر سمندر تطبيق مبدأ "البقاء للأصلح" على العالم الاجتماعى. وعلى غرار ما ذهب إليه سبنسر، رأى سمندر أن الناس يتصارعون مع بيئتهم، وأن النجاح مكتوب للأصلح منهم. وبذلك كان سمندر مؤيداً للكفاح والتنافس الإنسانى، ومن ينجح يستحق النجاح، ومن يفشل يستحق الفشل. واعترض سمندر - شأنه في ذلك شأن سبنسر

– على الجهود – خاصة الجهود الحكومية – التي تبذل لمساعدة الفاشلين. وفي رأيه أن هذا التدخل ضد الانتخاب الطبيعي الذي يساعد الأصلح من الناس – والحيوانات أيضاً – على البقاء، كما يؤدي بالطالح إلى الفناء.

من العظماء" (Wiltshire, ١٩٧٨: ٧٠). وقد أدى استخفاف سينسر بقواعد العلم إلى سلسلة من الأفكار الخيالية والبراهين الواهية عن تطور العالم. ولهذه الأسباب يرفض علماء الاجتماع في القرن العشرين أعمال سينسر، ويستعيضون عنها بالدرس العلمي الدقيق والبحوث الإمبريقية. وقد توفي سينسر في ٨ ديسمبر عام ١٩٠٣.

يقول سمنر: "إذا لم نسلم بالبقاء للأصلح، فليس أمامنا سوى بديل واحد هو "البقاء للأصلح" (B. Curtis, ١٩٨١: ٨٤). ويتفق هذا النسق النظري اتفاقاً تاماً مع تطور النظام الرأسمالي؛ لأنه يوفر الشرعية النظرية لوجود التمايزات الضخمة في الثروة والقوة.

ولا يمثل سمنر أكثر من أهمية تاريخية لسببين أولهما أن اتجاهه ودارونيته الاجتماعية تعد تبريراً فحماً للنظام الرأسمالي التنافسي والوضع القائم، وثانيهما أنه فشل في وضع أساس قوى لبناء مدرسة في علم الاجتماع لها تلاميذها في جامعة ييل. وقد تحقق هذا النوع من النجاح بعد ذلك بعدة سنوات في جامعة شيكاغو على يد ألبين سمول (Heyl & Heyl, ١٩٧٦). وعلى الرغم من النجاح الذي حققه سمنر في حياته، فإن نفراً قليلاً يتذكرونه اليوم (B. Curtis, ١٩٨١: ١٤٦).

ليستر ف. وارد (١٨٤١-١٩١٣)

يعد ليستر وارد من علماء الاجتماع الذين ذاع صيتهم في حياتهم، غير أن أهميته لم تدم طويلاً. وقد قضى وارد معظم حياته المهنية بالعمل كعالم للحفريات في الحكومة الفيدرالية، وخلال تلك الفترة قرأ أعمال سينسر وكونت. وأبدى اهتماماً شديداً بعلم الاجتماع، ونشر عدداً من المؤلفات في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين طرح فيها نظريته في علم الاجتماع. ونتيجة لذلك حققت أعماله شهرة. وقد انتخب وارد كأول رئيس للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع عام ١٩٠٦. ومنذ ذلك الوقت حاز منصباً أكاديمياً لأول مرة في جامعة براون، وظل فيه حتى وفاته.

وقد تأثر وارد – شأنه في ذلك شأن سمنر – بأفكار هربرت سينسر، وسلم بالفكرة القائلة بأن الناس تطوروا من الصور الدنيا إلى حالتهم الراهنة، وأمن بأن المجتمع البدائي تميز بالبساطة والانحطاط الأخلاقي، في حين يتميز المجتمع الحديث بأنه أكثر تعقيداً وسعادة ويتمتع بدرجة أكبر من الحرية.

ومن مهام علم الاجتماع – علم الاجتماع النظرى Pure – دراسة القوانين الأساسية للتغير والبناء الاجتماعيين. ومع ذلك لم يكن وارد على قناعة بأن مهمة علم الاجتماع هي دراسة الحياة الاجتماعية فقط. فقد آمن بأن علم الاجتماع ينبغي أن يكون له جانب تطبيقي، بمعنى أنه يتعين أن يكون هناك علم اجتماع تطبيقي Applied يستخدم المعرفة العلمية استخداماً واعياً للوصول إلى مجتمع أفضل. ولذلك لم يكن وارد متطرفاً في الدارونية الاجتماعية، فقد اعتقد في ضرورة الإصلاح الاجتماعى وأهميته.

وعلى الرغم من الأهمية التاريخية لكل من سمنر و وارد، فإن أهميتها بالنسبة لنظرية علم الاجتماع لم تدم طويلاً.

وننتقل الآن إلى تأمل أعمال بعض المفكرين والتعرف على إحدى المدارس، وهي مدرسة شيكاغو التي سادت علم الاجتماع فى أمريكا. وتعد مدرسة شيكاغو علامة بارزة فى تاريخ علم الاجتماع، لأنها تمثل أحد المشروعات الفكرية الجمعية من النوع المتكامل فى تاريخ علم الاجتماع (مثل مدرسة دوركايم فى باريس) (Blumer, ١٩٨٤: ١). وقد بدأ هذا التقليد فى جامعة شيكاغو، ولا تزال أهميته مستمرة بالنسبة لعلم الاجتماع ومكانته النظرية (والتطبيقية).

مدرسة شيكاغو^(١)

تأسس قسم علم الاجتماع فى جامعة شيكاغو عام ١٨٩٢ على يد أليون سمول. وتعد الأعمال الفكرية لسمول أقل أهمية فى الوقت الراهن مقارنة بالدور البارز الذى لعبه فى تأسيس علم الاجتماع فى الولايات المتحدة (Matthews, ١٩٧٧, Faris, ١٩٧٠). كما كان سمول ذا تأثير فى تأسيس قسم علم الاجتماع فى جامعة شيكاغو الذى أصبح معقلاً لهذا العلم فى الولايات المتحدة لعدة سنوات. وقد اشترك سمول فى تأليف أول كتاب مدرسى فى علم الاجتماع عام ١٨٩٤. وفى عام ١٨٩٥ أسس المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع AJS، وهى المجلة التى تعد من المعالم البارزة لهذا العلم حتى اليوم. وفى عام ١٩٠٥ اشترك فى تأسيس الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع ASS التى تعد أشهر رابطة مهنية لعلماء الاجتماع الأمريكيين حتى يومنا هذا (Rhoades, ١٩٨١). وقد أدى الضعف الذى واجهته الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع فى بداية تكوينها إلى تغيير اسمها فى عام ١٩٥٩ ليصبح "الرابطة الأمريكية لعلم الاجتماع" ASA.

() () ()

(Amsterdamska,)

بدايات علم الاجتماع فى شيكاغو

تميز قسم علم الاجتماع فى بدايته بعدة خصائص أولها ارتباطه القوى بالدين (Vidich & Lyman, ١٩٨٥). فقد كان بعض أعضاء القسم من الكهنة، وبعضهم الآخر أبناء كهنة. ونرى سمول – على سبيل المثال – يؤمن بأن "الهدف النهائى لعلم الاجتماع ينبغى أن يكون فى الأساس هدفاً مسيحياً" (Matthews, ١٩٧٧: ٩٥). وقد أدى هذا الرأى إلى وجهة النظر القائلة بأن علم الاجتماع يجب أن يهتم بالإصلاح الاجتماعى، واقترن ذلك بالاعتقاد فى ضرورة علمية علم الاجتماع^(١). ومن ثم بدأ التدريب العملى على علم الاجتماع العلمى الذى يهدف إلى الإصلاح الاجتماعى فى مدينة شيكاغو التى نمت نمواً سريعاً صاحبته آثار إيجابية وعكسية للتحضر والتصنيع.

ونشير هنا إلى إسهامات أحد الأعضاء الأوائل لقسم علم الاجتماع فى شيكاغو، وهو **وليام توماس** (١٨٦٣-١٩٤٧). وقد انضم توماس إلى هذا القسم عام ١٨٩٥ حيث كتب أطروحته للدكتوراه عام ١٨٩٦. وتتمثل أهمية توماس فى تأكيده على الحاجة إلى إجراء البحوث العلمية فى قضايا علم الاجتماع (Lodge, ١٩٨٦).

وعلى الرغم من دفاعه عن هذا الرأى لسنوات عديدة، فقد أكده عام ١٩١٨ عندما نشر كتاب "الفلاح البولندى فى أوروبا وأمريكا" الذى ألفه بالاشتراك مع فلورىان زنانيكى. ويرى مارتين بولمر أن هذا الكتاب يعد دراسة رائدة، لأنها نقلت علم الاجتماع من النظرية التجريدية والبحث المكتبى إلى دراسة العالم الإمبريقي استناداً إلى إطار نظرى (٤٥: ١٩٨٦). وهذا الكتاب هو محصلة بحث استمر ثمانى سنوات فى كل من أوروبا والولايات المتحدة بهدف دراسة التفكك الاجتماعى بين المهاجرين البولنديين. وعلى الرغم من تساؤل أهمية بيانات هذا البحث حالياً، إلا أن منهجه لا يزال مهماً. فقد تضمن هذا البحث مصادر عديدة للبيانات منها السيرة الذاتية، والكتابات المدونة، والخطابات الأسرية، والأرشيفات الصحفية، والوثائق العامة، والمكتبات الرسمية.

وعلى الرغم من أن "الفلاح البولندى" يعد بصفة أساسية دراسة فى النظم الاجتماعية من وجهة نظر علم اجتماع الوحدات الكبرى، فإن توماس تحول فى بقية حياته العلمية إلى الاتجاه المجهرى: الاجتماعى النفسى. واشتهر توماس بمبديته الاجتماعى – النفسى الذى مؤداه: "إذا قام الأفراد بتحديد المواقف تحديداً واقعياً، فإن هذه المواقف تكون واقعية فى نتائجها" (Thomas & Thomas, ١٩٢٨: ٥٧٢). ويكون التركيز منصباً على أهمية ما يفكر فيه الناس، وكيف يؤثر ذلك فى أفعالهم. ويتعارض هذا التركيز المجهرى: الاجتماعى – النفسى مع المنظورات الكبرى: الاجتماعية –

البنائية والاجتماعية – الثقافية لبعض العلماء الأوروبيين أمثال ماركس وفيرر ودوركايم. وقد أصبح هذا التركيز المجهري أحد الملامح المميزة لمدرسة شيكاغو، والذي يتمثل في التفاعلية الرمزية (Rock, 1979: 5).

ويعد روبرت بارك (1864-1944) من الشخصيات البارزة في مدرسة شيكاغو (انظر إطار ٦-٢: لمحة عن حياة روبرت بارك). وقد عمل بارك محاضراً لبعض الوقت في شيكاغو عام 1913، وسرعان ما شق طريقه ليلعب دوراً بارزاً في قسم علم الاجتماع. ولا تعود أهمية بارك – ببساطة – إلى إسهاماته الفكرية شأنه في ذلك شأن سمول؛ إذ أن أهميته في تطور علم الاجتماع تتمثل في مجالات عديدة:

إطار (٦-٢) روبرت بارك (لمحة عن حياته)

لم يسلك روبرت بارك المسار المهني التقليدي لعالم الاجتماع الأكاديمي من الكلية إلى الدراسات العليا إلى الأستاذية. فقد عمل – بدلاً من ذلك – في عدة مهن قبل أن يصير عالم اجتماع في فترة متأخرة من حياته. وعلى الرغم من هذه البداية المتأخرة، فقد كان لبارك تأثير عميق على علم الاجتماع بصفة عامة والنظرية بصفة خاصة. وقد منحته هذه الخبرات المتعددة توجهاً غير عادي نحو الحياة، وساعده ذلك على تشكيل مدرسة شيكاغو، والتفاعلية الرمزية، وجانباً كبيراً من علم الاجتماع في النهاية.

ولد بارك في ١٤ فبراير عام ١٨٦٤

تابع إطار (٦-٢)

في هارفي فيل بولاية بنسلفانيا (Matthews, 1977). وقد درس – وهو طالب في جامعة ميتشجان – على يد مجموعة من المفكرين العظماء ومنهم جون ديوى. وعلى الرغم من انبهاره

أولها أنه أصبح أبرز شخصيات قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو، ذلك القسم الذي هيمن على علم الاجتماع حتى الثلاثينيات من القرن العشرين.

وثانيها أن بارك تلقى تعليمه في أوروبا، وكان ذا تأثير في نقل أفكار العلماء الأوروبيين إلى علماء الاجتماع في شيكاغو. وقد تلقى بارك محاضرات على يد زيمل، ومن المعروف أن أفكار زيمل – خاصة تركيزه على الفعل والتفاعل – كانت مؤثرة في تطور الاتجاه النظري لمدرسة شيكاغو (Rock, 1979: 36-48).

وثالثها أن بارك عمل مراسلاً صحفياً قبل اشتغاله بعلم الاجتماع، وقد أفادته هذه التجربة في تكوين إحساس لديه بأهمية المشكلات الحضرية، والنزول إلى الميدان لجمع البيانات من خلال الملاحظة الشخصية.

ورابعها أن بارك لعب دوراً أساسياً في توجيه الدارسين وتطوير برنامج شامل للبحوث لطلاب الدراسات العليا (Bulmer, 1984: 13).

بأفكار هؤلاء العظماء، إلا أنه شعر برغبة شديدة في العمل في العالم الواقعي. ويعبر بارك عن ذلك بقوله: "عزمت على أن أخوض التجربة بنفسى.. وأن أفهم بنفسى مباحج الحياة ومآسيها" (١٩٧٣ / ١٩٢٧) (٢٥٣).

وبعد تخرجه بدأ حياته المهنية كصحفي مما أعطاه فرصة الدخول إلى هذا العالم الواقعي. وكان يحب بصفة خاصة أن يستكشف وينقب في بيوت المقامرة وأوكار الأفيون (٢٥٤: ١٩٧٣) / (١٩٢٧ / Park). وكتب عن حياة المدينة بتفاصيل حية. ونزل بارك إلى الميدان يلاحظ ويحلل ويدون ملاحظاته في النهاية. والحقيقة أنه كان يقوم فعلاً بذلك النوع من البحوث (التقرير العلمي) الذي أصبح من السمات المميزة لعلم الاجتماع في شيكاغو، أي الإثنولوجيا الحضرية التي تستخدم أدوات الملاحظة المشاركة.

وعلى الرغم من أن الوصف الدقيق للحياة الاجتماعية ظل إحدى هواياته، فقد ضاق بارك ذرعاً بالعمل الصحفي لأنه لم يعد يفى باحتياجات أسرته أو يرضى طموحه الفكرى. هذا بالإضافة إلى أن العمل الصحفي يبدو أنه لم يسهم في

تابع إطار (٦-٢)

إصلاح أحوال العلم، وكان لدى بارك ولع شديد بالإصلاح الاجتماعى.

وفى عام ١٨٩٨ - عندما كان عمره ٣٤ سنة - ترك بارك العمل الصحفي، والتحق بقسم الفلسفة في جامعة هارفارد.

وأخيراً أن بارك وارنست بيرجل قاما فى عام ١٩٢١ بنشر أول كتاب مدرسى مهم فى علم الاجتماع بعنوان "مقدمة فى تاريخ علم الاجتماع". وقد ترك هذا الكتاب تأثيراً لعدة سنوات، ونال شهرته لالتزامه بالعلم وبالبحث وبدراسة طائفة عريضة من الظواهر الاجتماعية.

ومع أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات أمضى بارك قليلاً من وقته فى شيكاغو، كما أن اهتمامه المستمر بالعلاقات السلالية (عمل بارك سكرتيراً عند بوكر واشنطن قبل أن يشتغل بعلم الاجتماع) أدى به إلى اعتلاء منصب فى جامعة فيسك (وهى جامعة للسود) عام ١٩٣٤.

ومع أن تضاؤل أهمية قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو لا يعود أساساً إلى رحيل بارك، فقد أقل نجم هذا القسم فى الثلاثينيات. وقبل أن نناقش نكوص علم الاجتماع فى شيكاغو وظهور أقسام ونظريات أخرى، نعود إلى السنوات المبكرة فى مدرسة شيكاغو مع اثنين من الشخصيات التى استمرت أهميتها النظرية، وهما: تشارلز هورتون كولى، وجورج هربرت ميد.

تشارلز هورتون كولى (١٨٦٤-١٩٢٩)

يبدو اقتراح اسم كولى بمدرسة شيكاغو لافتاً للنظر، لأنه أمضى معظم حياته العلمية فى جامعة ميتشجان لا فى جامعة شيكاغو، غير أن التوجه النظرى عند كولى كان متفقاً مع نظرية التفاعلية

الرمزية التي أصبحت أهم المنتجات النظرية لمدرسة شيكاغو.

وقد حصل كولى على درجة الدكتوراه من جامعة ميتشجان عام ١٨٩٤، وكان مولعاً بعلم الاجتماع، غير أنه لم يكن هناك قسم لعلم الاجتماع في هذه الجامعة. ونتيجة لذلك وردت أسئلة امتحان الدكتوراه من جامعة كولومبيا التي كانت قد بدأت تدرس علم الاجتماع منذ عام ١٨٨٩ تحت قيادة فرانكلين جينجز. وبدأ كولى حياته في سلك التدريس في جامعة ميتشجان عام ١٨٩٢ قبل اكتمال أطروحه الدكتوراه. وظل يعمل في هذه الجامعة طيلة حياته العملية.

وعلى الرغم من تعدد وجهات نظر كولى، إلا أننا نتذكره اليوم – بصفة أساسية – بسبب آرائه حول الجوانب الاجتماعية – النفسية للحياة الاجتماعية. وتتفق أعماله في هذا المجال مع أعمال جورج هربرت ميد، مع أن تأثير ميد على علم الاجتماع كان أعمق وأبقى من تأثير كولى. وكان كولى مهتماً بالوعى؛ إلا أنه رفض – مثل ميد – فصل الوعى عن السياق الاجتماعى. ويبدو هذا واضحاً من خلال المفهوم الذى صكه ولا يزال يستخدم حتى اليوم، وهو مفهوم "مرآة الذات" Looking-glass Self. ووفقاً لهذا المفهوم يرى كولى أن الناس يمتلكون الوعى، وأن هذا الوعى يتشكل من خلال التفاعل الاجتماعى المستمر.

ويعد مفهوم "الجماعة الأولية" Primary Group من المفاهيم الأساسية

وظل في هذا القسم سنة واحدة قرر بعدها أن يرحل إلى ألمانيا التي كانت وقتئذ قلب الحياة الفكرية فى العالم. وفى برلين التقى مع جورج زيمل الذى كان لأعماله تأثير عميق على علم الاجتماع عند بارك. والحقيقة أن محاضرات زيمل كانت هى الدرس السوسولوجى الرسمى الوحيد الذى تعلمه بارك. ويقول بارك فى هذا: "لقد تكونت جل معرفتى بالمجتمع والطبيعة الإنسانية من ملاحظاتي الشخصية". (٢٥٧: ١٩٧٣ / ١٩٢٧).

وفى عام ١٩٠٤ أتم بارك أطروحته للدكتوراه فى جامعة هايدلبرج. ولم يكن بارك راضياً عن هذه الأطروحة حيث قال: "كل ما حاولت أن أشرحه هو ذلك الكتاب ضئيل الحجم الذى أجب منه" (٥٧: ١٩٧٧، Matthews). ورفض أن يعمل فى وظيفة التدريس صيفاً فى جامعة شيكاغو، وابتعد عن المجال الأكاديمى. كما سبق له أن ترك العمل الصحفى من قبل.

إن رغبة بارك فى المشاركة فى الإصلاح الاجتماعى دفعت به إلى العمل كسكرتير ومدير مكتب الدعاية لرابطة إصلاح الكونغو Congo Reform

تابع إطار (٦-٢)

Association التي تأسست للمساعدة فى التخفيف من الأعمال الوحشية والاستغلال الذى يحدث فى الكونغو البلجيكية. وخلال تلك الفترة التقى بارك مع بوكر واشنطن، وانشغل بالعمل لتحسين أحوال الأمريكين السود. وقد أصبح بارك سكرتيراً لواشنطن

التي تعكس اهتمامات كولى الاجتماعية – النفسية، ولا يزال هذا المفهوم مستمراً في أهميته. ويقصد بالجماعات الأولية الجماعات التي تقوم على علاقات المواجهة المباشرة الوطيدة، وهي تلعب دوراً أساسياً في ربط الفاعل بالمجتمع الأكبر. وتعد الأسرة وجماعة الرفاق أهم هذه الجماعات الأولية. ويتحول الفرد في هذه الجماعات إلى كائن اجتماعي، وتتمو مرأة الذات في الجماعة الأولية، ويتعلم الطفل المتمركز حول ذاته أن يضع الآخرين في اعتباره، وبالتالي يصبح عضواً له دوره في المجتمع.

وقد رفض كل من كولى وميد وجهة النظر السلوكية إلى الكائنات الإنسانية؛ وهي وجهة النظر التي ترى أن الناس يستجيبون استجابة عمياء وغير واعية للمثيرات الخارجية. ومن الناحية الإيجابية يمتلك الناس الوعي والذات، وتصبح مهمة عالم الاجتماع دراسة هذا الجانب من جوانب الواقع الاجتماعي. ويطالب كولى علماء الاجتماع أن يحاولوا وضع أنفسهم محل الأفراد الفاعلين عند القيام بدراساتهم، وأن يستعينوا بمنهج الاستبطان الوجداني Sympathetic Introspection من أجل تحليل الوعي. ويستطيع علماء الاجتماع فهم المعاني والدوافع التي تشكل أساس السلوك الاجتماعي عندما يقومون بتحليل ما يمكن أن يسلكه الأفراد كفاعلين في مختلف الظروف. ويرى كثيرون أن منهج الاستبطان الوجداني منهج غير علمي إلى حد كبير، وعند هذه النقطة تتفوق أعمال

ولعب دوراً مهماً في أنشطة معهد توسكيجي Tuskegee Institute.

وفي عام ١٩١٢ التقى مع ويليام توماس عالم الاجتماع في جامعة شيكاغو الذي كان يلقي محاضرات في هذا المعهد. وقد وجه توماس الدعوة لبارك لتدريس مقرر عن "الزواج في أمريكا" لمجموعة صغيرة من الطلاب المتخرجين في جامعة شيكاغو، ولبي بارك هذه الدعوة عام ١٩١٤. وكان هذا المقرر ناجحاً، وقام بتدريسه في العام التالي لمجموعة يبلغ حجمها ضعف المجموعة السابقة. وفي تلك الأثناء انضم بارك إلى الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع. وبعد عشر سنوات من انضمامه إليها أصبح رئيساً لهذه الجمعية. وسلك بارك طريقه بالتدرج للعمل طول الوقت في جامعة شيكاغو، غير أنه لم يتقلد منصب الأستاذية حتى عام ١٩٢٣ عندما كان عمره قد بلغ ٥٩ سنة. ولعب بارك دوراً أساسياً في تشكيل التوجه الفكري لقسم الاجتماع بجامعة شيكاغو خلال فترة العشرين عاماً تقريباً التي أمضاها في هذه الجامعة.

تابع إطار (٦-٢)

وظل بارك مشائياً حتى بعد إحالته إلى المعاش من جامعة شيكاغو في أوائل الثلاثينيات. فقد كان يدرس المقررات ويشرف على البحوث في جامعة فيسك حتى بلغ الثمانين عاماً تقريباً. وكان بارك كثير الترحال. وتوفي في ٧ فبراير ١٩٤٤، أي قبل أسبوع من بلوغ عيد

ومع ذلك فإن ثمة أوجه شبه كثيرة فى اهتمام هذين العالمين، ومنها اتفاقهما على أن علم الاجتماع يتعين عليه أن يركز على الظواهر الاجتماعية - النفسية كالوعى والفعل والتفاعل.

جورج هربرت ميد (١٨٦٣-١٩٣١)

لم يكن جورج هربرت ميد - باعتباره أهم المفكرين الذين ارتبطوا بمدرسة شيكاغو وبالتفاعلية الرمزية - عالم اجتماع بل كان فيلسوفاً^(١). وقد بدأ ميد بتدريس الفلسفة فى جامعة شيكاغو عام ١٨٩٤، وظل يعمل بالتدريس فيها حتى وفاته فى عام ١٩٣١. وهناك مفارقة فيما يتعلق بأهميته المحورية فى تاريخ نظرية علم الاجتماع؛ لأنه قام بتدريس الفلسفة لا علم الاجتماع؛ كما أنه نشر أعمالاً قليلة إلى حد نسبي طيلة حياته. ويمكن تفسير هذه المفارقة بحقيقتين:

أولاهما أن ميد قام بإلقاء محاضرات فى علم النفس الاجتماعى فى قسم الفلسفة، وهى المحاضرات التى تلقاها طلاب تخرجوا من قسم علم الاجتماع. وكان لأفكار ميد تأثير قوى على عدد من هؤلاء الطلاب الذين جمعوا بينها وبين الأفكار التى درسوها فى قسم علم الاجتماع على يد بارك وتوماس وغيرهما. وعلى الرغم من عدم وجود نظرية معروفة فى ذلك الحين باسم "التفاعلية الرمزية"، فقد ظهرت هذه النظرية على يد هؤلاء الطلاب نتيجة لهذه المعارف المتعددة. ولذلك ترك ميد تأثيراً شخصياً عميقاً على الذين طوروا التفاعلية الرمزية فيما بعد.

وثانية هاتين الحقيقتين أن هؤلاء الطلاب دونوا ملاحظاتهم على محاضرات ميد وقاموا بنشر مجلد باسمه بعد وفاته تحت عنوان "العقل والذات والمجتمع" (Mead ١٩٣٤ / ١٩٦٢)، مما أدى إلى نقل أفكار ميد من التراث الشفاهى إلى التراث المكتوب. ويشكل هذا المجلد - الذى يقرأ على نطاق واسع حتى الآن - الدعامة الفكرية الأساسية للتفاعلية الرمزية.

وسوف نناقش أفكار ميد فى الفصل الخامس^(٢)، غير أنه يجدر بنا هنا أن نشير إلى نقاط محددة تضع ميد فى مكانه التاريخى. وتحتاج أفكار ميد إلى أن تُفهم فى سياق النزعة السلوكية النفسية. فقد تأثر ميد تأثراً شديداً بهذا الاتجاه، وقبل كثيراً من معتقداته خاصة التركيز على الفاعل وسلوكه. كما اقتنع باهتمام العلماء السلوكيين بالعائد والتكلفة فى

() (Lewis & Smir,)

()

.(

سلوكيات الفاعلين. غير أن ما انزعج منه ميد هو أن النزعة السلوكية لا تذهب إلى أبعد من هذا، بمعنى أنها لا تأخذ الوعي في اعتبارها مأخذ الجد على أساس أن الوعي غير قابل للدراسة العلمية. وقد اعترض ميد اعتراضاً شديداً على ذلك، وسعى إلى الامتداد بتطبيق مبادئ النزعة السلوكية على تحليل العقل. ولتحقيق ذلك أعلن ميد عن موقف مشابه لموقف كولي، غير أن هذا الموقف عند كليهما لا يبدو موقفاً علمياً. وقد توقع ميد أن تتم الدراسة العلمية للوعي بتطبيق المبادئ العلمية للنزعة السلوكية النفسية ومناهجها.

وقد قدم ميد إلى علم الاجتماع الأمريكي نظرية اجتماعية – نفسية تتعارض تعارضاً شديداً مع النظريات المجتمعية التي طرحها معظم المنظرين الأوروبيين البارزين أمثال ماركس وفيبير ودوركايم وكونت وسبنسر مع استثناء زيمل منهم. ولذلك تطورت التفاعلية الرمزية تطوراً كبيراً نتيجة لاهتمام زيمل بالفعل والتفاعل واهتمام ميد بالوعي. ومع ذلك فقد أدى هذا الاهتمام إلى إضعاف أعمال ميد وكذا إضعاف التفاعلية الرمزية بصفة عامة على المستويين: المجتمعي والثقافي.

تساؤل أهمية مدرسة شيكاغو في علم الاجتماع

وصل علم الاجتماع في شيكاغو إلى الذروة في عشرينيات القرن العشرين، غير أن قسم علم الاجتماع بدأ يفقد وضعه من حيث أهميته المحورية في علم الاجتماع الأمريكي منذ الثلاثينيات. وقد أشار ماثيوس (١٩٧٧، وانظر أيضاً بولمر، ١٩٨٤) إلى عدة أسباب وراء تساؤل أهمية مدرسة شيكاغو في علم الاجتماع، ونشير هنا إلى أهم سببين منها:

أولهما أن علم الاجتماع انشغل انشغالاً واضحاً بالنزعة العلمية بمعنى استخدام المناهج الدقيقة والاعتماد على التحليل الإحصائي، أما مدرسة شيكاغو فقد ركزت على الدراسات الإثنوجرافية الوصفية التي تهتم في الغالب بالاتجاهات الشخصية للفرد (أو بـ"تحديد الموقف" إذا استعرنا مصطلح توماس). وقد أظهر بارك استخفافه بعلم الإحصاء (الذي أطلق عليه "السحر المخيف"؛ لأنه يحول دون تحليل الذاتي والخاص. والحقيقة أن هناك دراسات هامة في المناهج الكمية قدمتها مدرسة شيكاغو (١٨٩-١٥١: Bulmer, ١٩٨٤)، إلا أن ارتباط هذه المدرسة ارتباطاً طاعياً بالمناهج الكيفية أدى إلى تجاهل هذه الدراسات.

وثاني هذين السببين أن هناك عدداً كبيراً من الأفراد خارج مدرسة شيكاغو أظهروا امتعاضهم من هيمنة هذه المدرسة على الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع ASS والمجلة الأمريكية لعلم الاجتماع AJS. ولذلك تأسست الجمعية الشرقية لعلم الاجتماع ESS عام ١٩٣٠، وأصبح علماء الاجتماع الشرقيون أكثر احتجاجاً بصفة علنية على هيمنة الغرب الأوسط بصفة عامة، وشيكاغو بصفة خاصة (٦٣: Wiley, ١٩٧٩). وقد أدت الثورة على شيكاغو إلى تشكيل سكرتارية لرابطة علم الاجتماع من خارج شيكاغو، وإصدار

مجلة رسمية جديدة باسم "مجلة علم الاجتماع الأمريكية" ASR عام ١٩٣٥
(Lengermann, ١٩٧٩).

وفى رأى ويلي "أن مدرسة شيكاغو سقطت سقوط شجرة البلوط الضخمة"
(٦٣: ١٩٧٩). وكانت هذه إشارة إلى ظهور مراكز قوى أخرى أهمها مدرسة هارفارد
بصفة خاصة والمدارس الجامعية بصفة عامة، وأصبحت التفاعلية الرمزية لغزاً غامضاً
وتراثاً شفاهياً، مما أفسح الطريق فى نهاية الأمر أمام أنساق نظرية أكثر وضوحاً واتساقاً
مثل البنائية الوظيفية التى ارتبطت بالمدارس الجامعية
(Rock, ١٩٧٩: ١٢).

نظرية علم الاجتماع حتى منتصف القرن العشرين

ظهور مدرسة هارفارد والمدارس الجامعية، والوظيفية البنائية

يمكن أن نحدد بداية ظهور علم الاجتماع فى جامعة هارفارد مع وصول بيتريم
سوروكين عام ١٩٣٠. ولم يكن هناك قسم لعلم الاجتماع فى هذه الجامعة مع وصول
سوروكين، ومع نهاية العام الأول على قدومه أنشأ قسمًا لعلم الاجتماع وعُين رئيساً له.
وعلى الرغم من أن سوروكين كان منظرًا فى علم الاجتماع واستمر ينشر أعماله حتى
الستينيات، فإنه يبدو من الغرابة الاستشهاد بهذه الأعمال اليوم، كما أن تنظيره لا يساير
روح العصر على نحو دقيق. وترتبط أهمية سوروكين بإنشاء قسم لعلم الاجتماع بجامعة
هارفارد، وتعيين تالكوت بارسونز (الذى كان يعمل محاضراً فى علم الاقتصاد فى هذه
الجامعة) فى وظيفة محاضر فى علم الاجتماع. وقد أصبح بارسونز أبرز الشخصيات فى
علم الاجتماع الأمريكى، لأنه عرف القراء الأمريكيين بالمنظرين الأوروبيين، ولنظرياته
فى علم الاجتماع، ولتلاميذه الكثيرين الذين أصبحوا منظرين بارزين فى علم الاجتماع.

بيتريم سوروكين (١٨٨٩-١٩٦٨)

كتب سوروكين مؤلفات ضخمة، وطور
نظرية تفوق نظرية بارسونز فى مجالها
وتركيبتها (انظر لمحة عن حياة سوروكين
فى إطار (٣-٦). وقد ضمن نظريته فى
شكلها المتكامل فى كتابه "الديناميات
الاجتماعية والثقافية" الذى نشر بين عامى
١٩٣٧ و١٩٤١. اعتمد سوروكين فى هذا
الكتاب على مجموعة ضخمة من البيانات

إطار (٦-٣)

بيتريم سوروكين (١٨٨٩-١٩٦٨)

ولد بيترم سوروكين فى قرية نائية فى
روسيا فى ٢١ يناير عام ١٨٨٩. وفى
العشرينيات من عمره - وكان وقتها طالباً
بالتعليم الثانوى - ألقى القبض عليه لنشاطه
الثورى وقضى فى السجن أربعة شهور.
وفى نهاية المطاف شق سوروكين طريقه
إلى جامعة سانت بطرسبورج، حيث

الإمبيريقية فى تطوير نظرية عامة للتغير الاجتماعى والثقافى. وعلى العكس ممن حاولوا تطوير نظريات تطويرية فى التغير الاجتماعى، قام سوروكين بتطوير نظرية دورية.

وفى رأيه أن المجتمعات تتقلب بين ثلاثة أنماط مختلفة من التفكير: حسية Sensate، وفكرية Ideational، ومثالية Idealistic. وتؤكد المجتمعات التى تسودها النزعة الحسية على دور الأحاسيس فى فهم الواقع، أما المجتمعات التى تسودها النزعة الفكرية فيسيطر عليها طريقة لفهم الواقع تقوم على الدين وتجاوز الوجود المادى، أما المجتمعات المثالية فهى أنماط انتقالية توازن بين النزعة الحسية والنزعة الدينية.

وتوجد القوة المحركة للتغير الاجتماعى فى المنطق الداخلى لكل نظام من هذه النظم، بمعنى أنها تتعرض لضغط داخلى لكى تمتد بنمط تفكيرها إلى نهايتها المنطقية. ومن ثم يصبح المجتمع الحسى فى النهاية شهوانياً بدرجة تودى إلى زواله. وعندما تصل النزعة الحسية Sensatism إلى نقطة النهاية المنطقية. يتحول الناس إلى النظم الفكرية كملاذ لهم. ولكن عندما يتحقق لهذا النظام سطوته، يصل إلى نقطة نهايته، وتكون النتيجة أن المجتمع يصبح دينياً إلى حد بعيد. وتمهد هذه المرحلة لظهور ثقافة مثالية، وإعادة الدورة من جديد. ولم يبتكر سوروكين نظرية متقنة للتغير الاجتماعى فحسب، ولكنه نظم براهين تفصيلية من الأدب والفلسفة

وأصل دراساته باجتهاد وتولى مهاماً تدريسية وشارك فى الأنشطة الثورية التى زجت به مرة ثانية إلى السجن لفترة قصيرة.

وكان من المقرر أن تتم مناقشة أطروحته فى مارس ١٩١٧، غير أن الثورة الروسية قامت قبل عقد الامتحان. وبذلك لم يتمكن سوروكين من الحصول على درجة الدكتوراه حتى عام ١٩٢٢. وقد حاز سوروكين على منصب مؤقت فى حكومة كيرنيسكى لمشاركة فى الثورة رغم اعتراضه على الحكم البلشفى. وعندما تحقق النصر المظفر للبلاشفة وجد سوروكين نفسه مرة ثالثة فى السجن، ولكن هذه المرة على يد البلاشفة. وبناءً على أوامر مباشرة من لينين أطلق سراح سوروكين وسمح له بالعودة إلى الجامعة بنفس الوضع الذى كان عليه. ومع ذلك فقد وُضع تحت المراقبة

تابع إطار (٦-٣)

وتعرض لمضايقات من البوليس السرى. وفى النهاية سُمح لسوروكين بمغادرة روسيا. وبعد أن أمضى فترة فى تشيكوسلوفاكيا، استقر به المقام فى الولايات المتحدة فى أكتوبر ١٩٢٣.

وفى بداية الأمر ألقى سوروكين محاضراته فى عدة جامعات، إلا أنه فى النهاية حاز منصباً فى جامعة مينسوتا، وسرعان ما أصبح أستاذاً. وكان سوروكين قد نشر بالفعل عدة كتب فى روسيا، واستمر فى توزيعها بمعدلات ضخمة فى الولايات المتحدة. ويقول سوروكين عن

والسياسة وما إلى ذلك ليدعم نظريته، وكان ذلك إنجازاً مثيراً بدرجة واضحة.

وهناك الكثير مما يمكن أن يقال عن التنظير عند سوروكين، إلا أن هذه المقدمة تكفى لإعطاء القارئ انطباعاً عن غزارة أعماله. ويصعب أن نقدم تفسيراً لأسباب بغض سوروكين لنظرية علم الاجتماع. وربما يكون ذلك لأنها كانت واحدة من الأشياء التي يجب أن يهاجمها. وكتب سوروكين في هذا كتاباً بعنوان "البدع والأوهام في علم الاجتماع والعلوم الأخرى الحديثة" (١٩٥٦). وربما يعاد اكتشاف سوروكين على يد جيل قادم من المنظرين في علم الاجتماع، إلا أن أعماله تبقى في الوقت الحاضر بعيدة عن التيار الرئيسي للتنظير في علم الاجتماع الحديث.

تالكوت بارسونز (١٩٠٢-١٩٧٩)

على الرغم من أن بارسونز نشر بعض المقالات في فترة مبكرة من حياته. إلا أن الإسهام الرئيسي له في السنوات المبكرة تمثل في تأثيره على الخريجين من الطلاب الذين أصبحوا منظرين بارزين في علم الاجتماع. وأشهر هؤلاء الطلاب روبرت ميرتون الذي حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٣٦، وسرعان ما أصبح منظرًا مهماً وقلب التنظير على النمط البارسوني في جامعة كولومبيا. وفي نفس العام (١٩٣٦) حصل كنجزلى ديفيز على درجة الدكتوراه، واشترك مع ولبرت مور (الذي حصل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام ١٩٤٠) في كتابة أحد

إنتاجه العلمى فى مينسوتا: "أنا أعلم أنها تفوق إنتاجية عالم الاجتماع العادى طيلة حياته" (٢٢٤ : ١٩٦٣). وقد حقق سوروكين شهرة على المستوى القومى من خلال مؤلفاته مثل الحراك الاجتماعى والنظريات المعاصرة فى علم الاجتماع. وفى عام ١٩٢٩ عُرض عليه كرسى الأستاذية فى علم الاجتماع فى جامعة هارفارد. وقد نال هذه الدرجة فى قسم الاقتصاد لعدم وجود قسم لعلم الاجتماع بالجامعة.

وبعد وصوله إلى جامعة هارفارد بفترة وجيزة تأسس قسم مستقل لعلم الاجتماع، وكان سوروكين أول رئيس له. ومن خلال هذا الموقع تمكن من بناء أهم قسم لعلم الاجتماع فى الولايات المتحدة. وأتم سوروكين فى تلك الفترة أشهر أعماله: "الديناميات الاجتماعية والثقافية" (١٩٣٧-١٩٤١).

تابع إطار (٦-٣)

وقد وُصف بيتريم سوروكين بأنه "الولد الشقى ونصير الشيطان فى علم الاجتماع الأمريكى" (١٩٨٠: R. Williams). وكانت الأنا عند سوروكين متضخمة لدرجة أنه كان ناقداً لكل فرد ولكل شئ، ونتيجة لذلك تعرض هو نفسه وأعماله لكثير من التحليلات النقدية. ويتضح كل ذلك من هذا الاقتباس من رسالة كتبها إلى محرر المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع:

"إن مراجعة كتبى للحط من قدرها كانت بمثابة قائل حسن؛

الأعمال الهامة فى النظرية الوظيفية البنائية، تلك النظرية التى أصبحت أهم منتجات بارسونز والبارسونيين. ولم يقتصر تأثير بارسونز على فترة الثلاثينيات، حيث تخرج على يديه حتى الستينيات مجموعة من طلابه ممن كان لهم تأثير ملموس على علم الاجتماع.

وكان عام ١٩٣٧ عاماً حاسماً فى حياة بارسونز ونظرية علم الاجتماع الأمريكى، فقد كان العام الذى نشر فيه كتابه "بناء الفعل الاجتماعى". ويعد هذا الكتاب مهماً بالنسبة لنظرية علم الاجتماع فى أمريكا لأربعة أسباب رئيسية:

أولها أنه قدم لقطاع عريض من القراء الأمريكيين كبار المنظرين الأوروبيين، حيث خصص جانباً كبيراً من هذا الكتاب لدور كايم وفيير وباريتو. وقد أسهمت شروحه لهؤلاء المنظرين فى تشكيل صورتهم فى علم الاجتماع الأمريكى لسنوات عديدة.

وثانيها أنه لم يظهر أدنى اهتمام بماركس، على الرغم من أنه أكد على أعمال دوركايم وفيير، وحتى باريتو. ونتيجة لذلك استمرت النظرية الماركسية مستبعدة إلى حد كبير من علم الاجتماع الشرعى المعترف به.

وثالثها أن "بناء الفعل الاجتماعى" جعل من التنظير نشاطاً مشروعاً ومهماً فى علم الاجتماع. وتدين حركة التنظير التى حدثت فى الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت بالفضل الكبير لهذا المؤلف المهم من مؤلفات بارسونز.

لوجود ارتباط قوى بين التقليل من شأن هذه الكتب والنجاح الذى حققته. وكلما تعرضت كتبى لمزيد من الاستخفاف (خاصة أن كل كتبى تعرضت لذلك فى مراجعاتكم) زادت أهميتها وزاد نجاحها".

(Sorokin, ١٩٦٣: ٢٢٩)

وقد كانت العداوة بين سوروكين وتالكوت بارسونز عداوة مشهورة واستمرت رديحاً من الزمن. وكان بارسونز قد عُين فى وظيفة محاضر فى علم الاجتماع عندما كان سوروكين رئيساً لقسم علم الاجتماع. ومع ذلك فقد بزغ نجم بارسونز تدريجياً حتى أصبح مهيمناً على علم الاجتماع فى جامعة هارفارد والولايات المتحدة.

ومما زاد الصراع اشتعالاً بين سوروكين وبارسونز التداخل الشديد بين

تابع إطار (٦-٣)

نظريتهما. وعلى الرغم من التشابه بينهما. إلا أن أعمال بارسونز حققت ذيوماً وانتشاراً أكثر مما حققته أعمال سوروكين. ومع مرور السنين تكون لدى سوروكين اتجاه مثير حيال أعمال بارسونز، وانعكس هذا الاتجاه فى كثير من مؤلفات سوروكين. فمن ناحية كان سوروكين أكثر نزوعاً إلى نقد بارسونز بأنه سرق كثيراً من أفضل أفكاره. ومن ناحية أخرى كان سوروكين ناقداً حاداً للنظرية البارسونية.

وكان طلاب الدراسات العليا أحد المجالات الأخرى للصراع بين سوروكين

وبارسونز. ومن الإنجازات العظيمة لقسم علم الاجتماع في جامعة هارفارد في بداية تأسيسه قدرته على جذب الطلاب المتخرجين الموهوبين مثل روبرت ميرتون. وعلى الرغم من تأثر هؤلاء الطلاب بأفكار هذين الرجلين، إلا أن تأثير بارسونز أثبت أنه كان أكثر بقاءً من تأثير سوروكين. وقد حل بارسونز محل سوروكين في رئاسة قسم علم الاجتماع، وحوّله إلى قسم للعلاقات الاجتماعية. ويعبر سوروكين عن رأيه في هذا التحول بقوله:

"إذن أنا لست مسئولاً عن أي شيء يحدث للقسم منذ هذه اللحظة، لا عن اندماجه مع علم نفس الشواذ وعلم النفس الاجتماعي والأنثروبولوجيا الثقافية لإنشاء قسم للعلاقات

تابع إطار (٦-٣)

الاجتماعية؛ ولا عن إغراق علم الاجتماع في خضم هذا الخليط غير المتجانس من العلوم المتنثرة.. ولم يتخرج من قسم العلاقات الاجتماعية عدد كبير من علماء الاجتماع المتميزين مثلما تخرج من قسم علم الاجتماع تحت رئاستي".

(Sorokin, 1963: 251)

وانتهى المطاف بسوروكين إلى أن أصبح معزولاً في قسم الاجتماع بجامعة هارفارد، ومنفيماً في مكتب مقفر، واختزل هو الأمور في عبارة وضعها على أبواب

وأخيراً أن بارسونز زعم بأن نظريات معينة في علم الاجتماع سيكون لها عميق الأثر في هذا العلم. ففي البداية برز بارسونز كمنظر للفعل^(١)، حيث ركز على الفاعلين وأفكارهم وأفعالهم. إلا أنه بعد الانتهاء من تأليف كتابه "بناء الفعل الاجتماعي" عام ١٩٣٧ وما تلاه من أعمال، بدا بارسونز منظرراً وظيفياً بنائياً يركز على الأنساق الكبرى: الاجتماعية

(١) لمزيد من التفاصيل عن نظرية الفعل بصفة عامة وإسهامات بارسونز بصفة خاصة راجع الفصل السابع.

والثقافية^(١). وعلى الرغم من ادعاء بارسونز بعدم وجود تناقض بين هاتين النظريتين، إلا أنه أصبح مشهوراً بأنه "وظيفي بنائي"، وكان النصير الرئيسي لهذه النظرية التي اكتسبت هيمنة على علم الاجتماع، واستمرت على هذا الحال حتى سنوات حديثة. وتكمن القوة النظرية عند بارسونز - وعند الوظيفية البنائية - في استجلاء العلاقات بين الأبنية والمؤسسات الاجتماعية الكبرى.

وقد ظهرت الأطروحات الأساسية لبارسونز حول النظرية الوظيفية البنائية عنده في أوائل الخمسينيات في عدة أعمال أبرزها "النسق الاجتماعي" (١٩٥١). وركز بارسونز في هذا الكتاب وغيره على أبنية المجتمع وعلاقتها ببعضها ببعض، وهذه الأبنية تدعم بعضها بالتبادل، وتتجه

نحو التوازن الدينامي.

المكاتب بالقسم كتب عليها أن بارسونز
سرق أفكاره. (Coser, ١٩٧٧: ٤٩٠).
وقد توفي سوروكين في ١١ فبراير
١٩٦٨.

وانصب الاهتمام على كيفية المحافظة على النظام بين العناصر المتعددة للمجتمع،
والتغير بمثابة عملية منظمة.

وقد انتهى الأمر ببارسونز (١٩٦٦، ١٩٧١) إلى تبني رؤية تطويرية جديدة للتغير
الاجتماعي. ولم يهتم بارسونز بالنسق الاجتماعي في حد ذاته فحسب، بل اهتم أيضاً
بعلاقته بأنساق الفعل، خاصة النسق الثقافي ونسق الشخصية. إلا أن وجهة نظره في
العلاقات بين الأنساق كانت مماثلة – في الأساس – لوجهة نظره في العلاقات داخل
الأنساق، بمعنى أنها علاقات تمتاز بالتماسك والإجماع والنظام. وبعبارة أخرى، تقوم
الأبنية الاجتماعية المتعددة بإنجاز مجموعة من الوظائف الإيجابية لبعضها البعض.

(١) لمزيد من التفاصيل عن الوظيفية البنائية وإسهامات بارسونز إليها انظر الفصل الثالث من
كتاب ريتزر: النظرية المعاصرة في علم الاجتماع (١٩٨٨).

يتضح لنا – إذن – سبب وصف بارسونز بأن "وظيفي بنائي". وكما ازدادت
شهريته، ازدادت قوة النظرية الوظيفية البنائية في الولايات المتحدة. وتشكل أعمال
بارسونز جوهر هذه النظرية، غير أن تلاميذه وحواربيه ركزوا أيضاً على التوسع في
هذه النظرية وهيمنتها في الولايات المتحدة.

وعلى الرغم من أن بارسونز لعب عدة أدوار مهمة وإيجابية في تاريخ نظرية علم
الاجتماع في الولايات المتحدة، إلا أن أعماله كان لها أيضاً مجموعة آثار سلبية. أولها أنه
قدم شروحاتاً للمنظرين الأوروبيين بدت لتعكس توجهه النظري أكثر مما تجسد توجهات
هؤلاء المنظرين. وبذلك تعرض كثير من علماء الاجتماع الأمريكيين في بداية الأمر
لشروحات خاطئة لأعمال الرواد الأوروبيين. وثانيها أن بارسونز – كما أشرنا آنفاً –
تجاهل في بداية حياته الأكاديمية ماركس تجاهلاً كبيراً، مما ترتب عليه أن أفكار ماركس
ظلت لسنوات عديدة على هامش علم الاجتماع. وثالثها ان نظرية بارسونز التي طورها
بمرور السنين تعاني نقاط ضعف خطيرة. إلا أن هيمنة بارسونز على علم الاجتماع
الأمريكي أخرست أو سحقت هذه الانتقادات سنوات طويلة. وبعد ذلك برزت هذه
الانتقادات الموجهة إلى نظرية بارسونز بصفة خاصة والوظيفية البنائية بصفة عامة.

ويبدو أننا قطعنا شوطاً كبيراً في سرد قصة علم الاجتماع الأمريكي، ونحتاج إلى

العودة إلى أوائل الثلاثينيات والتطورات الأخرى التي حدثت في جامعة هارفارد، وذلك من خلال إطلالة على إحدى الشخصيات البارزة، ونقصد به جورج هومانز.

جورج هومانز (١٩١٠-١٩٨٩)

حصل جورج هومانز - ذلك الثرى من بوسطن - على درجته الجامعية الأولى من جامعة هارفارد عام ١٩٣٢ (١٩٨٤؛ ١٩٦٢، Homans). ونتيجة للكساد العظيم عانى هومانز من البطالة، ولكنه لم يعانى بالتأكيد من الإفلاس. وفى خريف ١٩٣٢ كان عالم النفس هندرسون يقوم بتدريس مقرر فى نظريات فلفريدو وباريتو، والتحق هومانز بهذا المقرر، كما انضم بارسونز إلى حلقات النقاش حول باريتو. ويكشف وصف هومانز لأسباب ولعه واقتنائه بباريتو عن كثير من أسباب هيمنة النزعة المحافظة على نظرية علم الاجتماع الأمريكى ونزعتها المعادية للماركسية:

"كنت مولعاً بباريتو لأنه كشف لى بجلاء عما كنت مستعداً بالفعل للإيمان به. ولا أعرف كل الأسباب التى جعلتنى مقتوناً به، ولكن بوسعى أن أذكر منها سبباً واحداً. لقد قال (أحد علماء الاجتماع) أن جُل علم الاجتماع الحديث عبارة عن محاولة للإجابة عن مزاعم أصحاب النزعات الثورية. ولقد شعرت خلال الثلاثينيات - كمواطن جمهورى من بوسطن لم ينبذ أسرته الثرية نسبياً - أننى أتعرض لهجوم شخصى أكثره جاء من الماركسيين. وكنت مستعداً لتصديق باريتو لأنه زودنى بما يحمينى".

(Homans, ١٩٦٢: ٤)

وقد أدى تعرض هومانز لأفكار باريتو إلى أن يقوم بتأليف كتاب بعنوان "مقدمة فى باريتو" (بالاشتراك مع تشارلز كورتس) نشر عام ١٩٣٤. وكان نشر هذا الكتاب كفيلاً بأن يجعل من هومانز عالم اجتماع على الرغم من أن أعمال باريتو كانت هى الأعمال السوسولوجية الوحيدة التى اطلع عليها حتى ذلك الوقت.

وفى عام ١٩٣٤ عُين هومانز عضو بعثة بجامعة هارفارد، وهو برنامج بدأته الجامعة لتلافي المشكلات المرتبطة ببرنامج الدكتوراه. ولم يحصل هومانز على درجة الدكتوراه، مع أنه أصبح أهم الشخصيات البارزة فى علم الاجتماع فى أيامه. وظل هومانز عضو بعثة حتى عام ١٩٣٩. وخلال هذه السنوات استوعب المزيد من علم الاجتماع. وفى عام ١٩٣٩ انضم إلى أعضاء هيئة التدريس بقسم علم الاجتماع، غير أن هذه العلاقة تقطعت أوصالها بسبب الحرب.

وبعد عودة هومانز من الحرب كان قسم العلاقات الاجتماعية بجامعة هارفارد برئاسة بارسونز، وانضم هومانز إليه. وعلى الرغم من تقدير هومانز لبعض الجوانب

في أعمال بارسونز، إلا أنه كان ناقداً شديداً لأسلوبه في التنظير. وبدأ السجال في الرأي بين هذين الرجلين لفترة طويلة، وظهر ذلك فيما بعد بشكل علني على صفحات الكتب والمجلات. ويدعى هومانز أن نظرية بارسونز ليست بنظرية على الإطلاق، ولكنها مجرد نسق ضخم من المقولات الفكرية تنطبق على معظم جوانب العالم الاجتماعي. ويؤمن هومانز بأن النظرية ينبغي أن تُبنى من أسفل إلى أعلى على أساس الملاحظات الدقيقة لعالم الاجتماع، ولكن نظرية بارسونز بدأت بالمستوى النظري العام ثم هبطت إلى المستوى الإمبريقي.

وقد قام هومانز في دراساته بتجميع عدد هائل من الملاحظات الإمبريكية على عدة سنوات، حتى اكتشف في الخمسينيات مدخلاً نظرياً مقنعاً يتم به تحليل هذه البيانات. وكانت هذه النظرية هي النزعة السلوكية النفسية كما عبرت عنها خير تعبير أفكار زميله في جامعة هارفارد عالم النفس سيكنر. وعلى أساس هذه النظرية طور هومانز نظريته في التبادل⁽¹⁾. وسوف نسترجع قصة هذا التطور النظري لاحقاً في هذا الفصل. والنقطة المحورية التي نؤكد عليها هنا أن جامعة هارفارد ومنتجها النظري الرئيسي – الوظيفية البنائية – هيمنت على علم الاجتماع في أواخر الثلاثينيات لتحل محل مدرسة شيكاغو ومحل التفاعلية الرمزية.

• أفول مدرسة شيكاغو

تركنا قسم علم الاجتماع في جامعة شيكاغو في منتصف الثلاثينيات في حالة من الضعف مع وفاة ميد ورحيل بارك وثورة علماء الاجتماع الشرقيين وتأسيس مجلة علم الاجتماع الأمريكية. إلا أن مدرسة شيكاغو لم تختفي، حيث استمرت كقوة مهمة في علم الاجتماع حتى أوائل الخمسينيات. وظهرت أطروحات دكتوراه مهمة مثل أطروحة أنسيلم ستروس A. Strauss وأرنولد روز. وبقيت شخصيات بارزة في شيكاغو مثل إيفيرت هيوز E. Hughes (Faight, ١٩٨٠) الذي كان على درجة كبيرة من الأهمية في تطوير علم الاجتماع المهني.

وكان **هربرت بلومر** (١٩٠٠-١٩٨٧) الشخص المحوري في قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو في تلك الفترة. وكان بلومر نصيراً بارزاً للمدخل النظري الذي تطور في شيكاغو انبثاقاً من أعمال ميد وزيميل وبارك وتوماس وآخرين. والحقيقة أن بلومر هو الذي صك عبارة التفاعلية الرمزية Symbolic Interactionism عام ١٩٣٧. ولعب بلومر دوراً مهماً في المحافظة على هذا التراث حياً من خلال تدريسه بالجامعة، كما كتب عدداً من المقالات التي كانت ذات تأثير في الحفاظ على أهمية التفاعلية الرمزية حتى الخمسينيات. كما تعود أهمية بلومر إلى تقلده عديد من المناصب الإدارية في علم

الاجتماع. فقد كان سكرتيراً للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع وأمين صندوقها خلال الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٥. وفي عام ١٩٥٦ أصبح رئيساً لهذه الجمعية. والأكثر أهمية من ذلك أنه تقلد مناصب مؤسسية أثرت على طبيعة ما ينشر في علم الاجتماع. فقد عمل محرراً للمجلة الأمريكية لعلم الاجتماع في الفترة من ١٩٤١ إلى ١٩٥٢. ولعب دوراً مؤثراً في جعل هذه المجلة أحد المنابر الهامة لمدرسة شيكاغو بصفة عامة والتفاعلية الرمزية بصفة خاصة.

وبينما كانت جامعات الساحل الشرقي تحت نفوذ الوظيفة البنائية، ظلت جامعات الغرب الأوسط (ولا تزال حتى اليوم) معقلاً للتفاعلية الرمزية. ففي الأربعينيات انتشر أنصار التفاعلية الرمزية في أرجاء الغرب الأوسط: أرنولد روز في مينسوتا، ووبرت هابنشتين في ميسوري، جريجورى ستون في جامعة ولاية ميتشجان، ومانفورد كون (١٩١١-١٩٦٣) - أكثرهم أهمية - في جامعة أيوا.

وحدث شقاق بين بلومر في شيكاغو وكون في أيوا، مما دفع بالناس - في حقيقة الأمر - إلى الحديث عن الاختلافات بين مدرسة التفاعلية الرمزية في شيكاغو ونظيرتها في أيوا. وحدث الخلاف حول قضية العلم ومناهج البحث. فقد قبل كون تركيز التفاعلية الرمزية على الفاعلين وأفكارهم وأفعالهم، ولكنه زعم بأنه يتعين دراستهم بطريقة أكثر علمية باستخدام الاستبيانات على سبيل المثال. وكان بلومر يفضل أدوات مثل الاستبطان الوجداني والملاحظة المشاركة.

وعلى الرغم من فورة النشاط في مدرسة شيكاغو، فقد بدأت في الأفول، خاصة مع انتقال بلومر عام ١٩٥٢ من جامعة شيكاغو إلى جامعة كاليفورنيا في بيركلي. واستمر قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو قسماً قوياً، مع قدر ضئيل من التواصل مع تقاليد مدرسة شيكاغو. وعلى الرغم من احتضار هذه المدرسة، فقد دبت الحياة بعض الشيء في التفاعلية الرمزية مع انتشار مناصريها في شتى أرجاء الولايات المتحدة.

التطورات في النظرية الماركسية

منذ أوائل القرن العشرين وحتى الثلاثينيات منه استمرت النظرية الماركسية في التطور مستقلة إلى حد كبير عن التيار الرئيسي في نظرية علم الاجتماع. ويستثنى من هذا بزوغ مدرسة فرانكفورت، تلك المدرسة النقدية التي انبثقت عن الماركسية الهيجلية. وكانت فكرة مدرسة فرانكفورت لتطوير النظرية الماركسية من بنات أفكار فيليكس فايل و F. J. Weil. وقد أنشئ معهد البحوث الاجتماعية بصفة رسمية في فرانكفورت بألمانيا في ٣ فبراير ١٩٢٣ (Jay, ١٩٨٦, Bottomore, ١٩٨٤). ومع مرور السنين انضم عدد من أشهر المفكرين في النظرية الماركسية إلى المدرسة النقدية ومنهم ماكس هوركهايمر، وتيودور أدورنو، وإيريك فروم، وهربرت ماركيز، وانضم إليها حديثاً يورجين

هايرماس.

وظل هذا المعهد يؤدي دوره في ألمانيا حتى عام ١٩٣٤، غير أن الأمور سارت على غير ما يرام في ظل الحكم النازي. فلم يكن لدى النازيين أدنى حاجة إلى الأفكار الماركسية التي سيطرت على المعهد، وزاد من عداوتهم لهذا المعهد أن كثيراً ممن يعملون فيه كانوا يهوداً. وفي عام ١٩٣٤ وصل هوركهaimer - بصفته مديراً للمعهد - إلى نيويورك ليناقدش وضعه مع رئيس جامعة كولومبيا. ومما أثار دهشة هوركهaimer أن رئيس الجامعة وجه له الدعوة لينضم المعهد إلى جامعة كولومبيا؛ وتخصيص مبنى للمعهد بحرم الجامعة. وبذلك انتقل معقل من معاقل النظرية الماركسية إلى قلب العالم الرأسمالي. واستمر هذا المعهد في جامعة كولومبيا حتى بعد انتهاء الحرب، وعندئذ تزايدت الضغوط لعودته إلى ألمانيا. وبالفعل عاد هوركهaimer إلى ألمانيا عام ١٩٤٩، ونقل المعهد معه. وعلى الرغم من انتقال المعهد إلى ألمانيا، فإن كثيراً من الشخصيات المرتبطة به سلكت مسارات مهنية مستقلة.

ونوجز فيما يلي أكثر الجوانب أهمية في النظرية النقدية^(١). ويلاحظ - أولاً - أن الذين ارتبطوا بمعهد البحوث الاجتماعية كانوا ماركسيين تقليديين خصصوا الجانب الأكبر من اهتمامهم بالميدان الاقتصادي، غير أنه حدث تغير رئيسي حوالى عام ١٩٣٠ مع بدء تحول اهتمام هذه المجموعة من النظام الاقتصادي إلى النظام الثقافي، وهو التحول الذي كان يُنظر إليه على أنه القوة الرئيسية في المجتمع الرأسمالي الحديث. وكان ذلك متسقاً مع الموقف الذي اتخذته من قبل الماركسيون الهيجلييون مثل جورج لوكتاش، كما كان امتداداً لهذا الموقف. وقد التفت المنظرون النقديون إلى أعمال ماكس فيبر لتساعدهم في فهم الميدان الثقافي (Greisman & Ritzer, ١٩٨١). وكانت محاولة الجمع بين ماركس وفيبر ما أعطى للمدرسة النقدية بعضاً من توجهاتها المتميزة، كما منح الشرعية في السنوات التالية لعلماء الاجتماع الذين بدأ اهتمامهم يزداد بالنظرية الماركسية.

وكانت الخطوة الرئيسية الثانية التي مشاها بعض أعضاء المدرسة النقدية هي استخدام الأساليب العملية - الاجتماعية الدقيقة التي طورها علماء الاجتماع الأمريكيون، وذلك بغرض البحث في القضايا التي تهم الماركسيون، الأمر الذي جعل المدرسة النقدية أكثر قبولاً بين علماء الاجتماع البارزين، وهو نفس التأثير الذي أحدثه قبول النظرية الفيبرية بين الماركسيين.

أما الخطوة الثالثة فهي أن المنظرين النقديين بذلوا محاولة لدمج النظرية الفرويدية ذات التوجه الفردي مع آراء ماركس وفيبر على المستوى المجتمعي والثقافي، وهو ما بدا

:

()

() .

لكثير من علماء الاجتماع على أنه يمثل نظرية أكثر شمولاً من النظرية التي طرحها
ماركس أو فيبر كل على حدة. وبرهنت محاولة الجمع بين هذه النظريات المتباينة على
أنها محاولة مثيرة لعلماء الاجتماع وعدد كبير غيرهم من المفكرين.
وقد قدمت المدرسة النقدية إسهامات مفيدة منذ العشرينيات. وكان جزء كبير من هذا
الإسهام مهماً لعلماء الاجتماع. ومع ذلك فإن المدرسة النقدية كان عليها أن تنتظر حتى
أواخر الستينيات قبل إعادة اكتشافها على يد عدد كبير من المنظرين الأمريكيين.

نظرية علم الاجتماع

منذ منتصف القرن العشرين حتى الوقت الحاضر

الوظيفية البنائية بين الصعود والهبوط

كانت الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين فترة التآرجح المتناقض
للوظيفية البنائية بين الهيمنة العظمى وبدايات الأفول. ففي تلك السنوات أنتج بارسونز
أطروحاته الرئيسية التي عكست بوضوح تحوله من نظرية الفعل إلى الوظيفية البنائية.
وانتشر تلاميذ بارسونز في شتى أرجاء الولايات المتحدة وشغلوا مناصب قيادية في كثير
من أقسام علم الاجتماع المهمة (كولومبيا وكورنيل على سبيل المثال). وقد أنتج هؤلاء
التلاميذ أعمالاً اكتسبت اعترافاً على نطاق واسع كإسهامات في النظرية الوظيفية البنائية.
ففي عام ١٩٤٥ - على سبيل المثال - قام كنجزلي ديفيز وولبرت مور بنشر مقالة
تحلل التدرج الطبقي الاجتماعي من منظور وظيفي - بنائي^(١). وكانت هذه المقالة واحدة
من أوضح الأطروحات للرؤية الوظيفية - البنائية. ويذهب ديفيز ومور في هذه المقالة
إلى أن التدرج الطبقي عبارة عن بناء يعد ضرورياً من الناحية الوظيفية لوجود المجتمع.
وبعبارة أخرى، انحاز ديفيز ومور - من الناحية الأيديولوجية - إلى جانب اللامساواة.
وفي عام ١٩٤٩ نشر ميرتون (١٩٤٩ / ١٩٦٨) مقالة أصبحت بمثابة البيان
الرئيسي للوظيفة البنائية. وسعى ميرتون في هذه المقالة سعياً دقيقاً لتوضيح العناصر
الأساسية لهذه النظرية وامتدادها إلى بعض الاتجاهات الجديدة. وأعلن ميرتون بجلاء أن
الوظيفية البنائية لا ينبغي أن تدرس الوظائف الإيجابية فحسب، ولكنها يجب أن تهتم أيضاً
بالآثار السلبية (الاختلال الوظيفي)، ويجب أن تركز أيضاً على التوازن الصافي بين
الوظائف والاختلالات الوظيفية، أو على ما إذا كان البناء يقوم بأداء وظائفه أو يعاني
اختلالاً وظيفياً.

وفي الوقت الذي اكتسبت فيه الوظيفة البنائية هيمنة نظرية، فقد تعرضت أيضاً
للهجوم، وتساعد هذا الهجوم حتى وصل أقصاه في الستينيات والسبعينيات. وهُجمت

النظرية الوظيفية البنائية للتدرج الطبقي عند ديفيز ومور منذ البداية، ولا تزال الانتقادات الموجهة إليها مستمرة حتى اليوم. وفوق هذا، بدأت سلسلة من الانتقادات الأكثر عمومية تلقى ترحيباً في علم الاجتماع على نطاق واسع. فقد تصدى رايت ميلز بالهجوم على بارسونز عام ١٩٥٩، وبرزت انتقادات أخرى وجهها ديفيد لوكوود (١٩٥٦) وألفن جولدر (١٩٦٧ / ٥٩، ١٩٧٠) وإرفنج هوروتز (١٩٦٢ / ١٩٦٧). وفي الخمسينيات كان يُنظر إلى هذا الهجوم على أنه "غارة من جانب إحدى العصابات"، ومع انتقال علم الاجتماع إلى الستينيات بدأ يتضح أن هيمنة الوظيفية البنائية تحدى بها الأخطار^(١).

ويربط جورج هواكو (١٩٨٦) بزوغ وأقول نجم الوظيفية البنائية بوضع المجتمع الأمريكي في النظام العالمي. فقد حققت الوظيفية البنائية هيمنة داخل علم الاجتماع مع صعود أمريكا إلى مجال السيطرة العالمية بعد عام ١٩٤٥. وقد عززت الوظيفية البنائية من الوضع المهيمن لأمريكا في العالم بطريقتين: أولاًهما أن الرؤية الوظيفية البنائية القائلة بأن "كل نمط له نتائج تسهم في المحافظة على النسق الأكبر وبقائه ليست إلا "تمجيداً للولايات المتحدة وهيمنتها العالمية" (٥٢: ١٩٨٦، Huaco)، وثانيهما أن تشديد الوظيفية البنائية على التوازن (عدم التغيير هو أفضل تغيير اجتماعي) يتناغم مع مصالح الولايات المتحدة "الإمبراطورية الأغنى والأقوى في العالم". وقد تزامن تضائل الهيمنة العالمية للولايات المتحدة في السبعينيات مع فقدان الوظيفية البنائية لوضعها المهيمن في نظرية علم الاجتماع.

علم الاجتماع الراديكالي في أمريكا: س. رايت ميلز

اتضح لنا فيما سبق أنه على الرغم من تجاهل أبرز علماء الاجتماع الأمريكيين للنظرية الماركسية والحط من شأنها، فقد كانت هناك استثناءات من ذلك أبرزها س. رايت ميلز (١٩١٦-١٩٦٢) [انظر لمحة عن حياته في إطار (٦-٤)].

إطار (٦-٤)

س. رايت ميلز: لمحة عن حياته

ولد س. رايت ميلز في ٢٨ أغسطس ١٩١٦ في واكو بولاية تكساس. وينتمي ميلز إلى عائلة عادية من الطبقة الوسطى،

وعلى الرغم من أن الإسهامات النظرية الجديدة لميلز إسهامات محدودة، إلا أنه اشتهر بجهوده الفردية للحفاظ على التراث الماركسي حياً في نظرية علم الاجتماع. وإذا كان علماء الاجتماع الماركسيون المحدثون قد تفوقوا على ميلز في الحنكة

() P. Wilner ()

وكان والده يعمل مندوباً لشركة تأمين، وكانت أمه ربة منزل. والتحق ميلز بجامعة تكساس، وحصل على درجتي البكالوريوس والماجستير معاً عام ١٩٣٩. وكان ميلز طالباً فذاً، وفي الوقت الذي غادر فيه تكساس كان قد نشر بالفعل مقالات في المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع *AJS* ومجلة علم الاجتماع الأمريكية *ASR*. وحصل ميلز على درجة الدكتوراه من جامعة ويسكونسين (Scimecca, ١٩٧٧). وعمل ميلز لأول

تابع إطار (٦-٤)

مرة في جامعة ميريلاند، ولكنه قضى معظم حياته المهنية في جامعة كولومبيا منذ عام ١٩٤٥ حتى مماته.

وكان ميلز في عجله من أمره (Horowitz, ١٩٨٣). وعندما وافته المنية وعمره ٤٥ سنة نتيجة لأزمة قلبية رابعة، كان قد قدم إسهامات عديدة إلى علم الاجتماع. وكان ولع ميلز بالصراع أبرز صفاته، فكان في حرب مع كل فرد ومع كل شيء. وعاش حياته شخصية مضطربة: علاقات غرامية، ثلاث زيجات، وطفل من كل زواج. كما كانت حياته المهنية مضطربة أيضاً، حيث يتخاصم مع كل شخص ومع كل شيء. فقد تحدى عدداً من أساتذته. كما انتقد في إحدى مقالاته الأولى الرئيس السابق لقسم علم الاجتماع بجامعة ويسكونسين انتقاداً يثير الإشمئزاز. وأطلق على هوارد بيكر المنظر اللامع في ويسكونسين "المجنون الحقيقي"

النظرية، إلا أنهم يدينون له بالفضل العميق بسبب أنشطته الشخصية والمهنية التي ساعدت في تمهيد الطريق أمامهم (Alt, ١٩٨٦-١٩٨٥). ولم يكن ميلز ماركسياً، كما أنه لم يقرأ لماركس إلا في منتصف الخمسينيات، ولم يقرأ سوى الترجمات الإنجليزية المحدودة لأنه لم يكن يحب الألمانية. وعلى الرغم من أن ميلز نشر معظم أعماله الرئيسية في تلك الفترة، إلا أنها لم تجد لها صدًى في النظرية الماركسية المتطورة.

وقد نشر ميلز عمليتين رئيسيتين يعكسان نزعاته السياسية الراديكالية، كما يجسدان ضعفه في النظرية الماركسية. وكان العمل الأول هو "الياقة البيضاء" *White Collar* (١٩٥١)، وهو نقد لاذع لمكانة الفئات المهنية المتزايدة، وهم أصحاب الياقات البيضاء. وكان العمل الثاني هو "صفوة القوة" *The Power Elite* (١٩٥٦)، وهو كتاب يسعى إلى توضيح كيف أن أمريكا يسيطر عليها مجموعة صغيرة من رجال الأعمال، والساسة، والقادة العسكريين. وبين هذين العمليتين كان كتابه "الشخصية والبناء الاجتماعي" (١٩٥٣) الذي ألفه بالاشتراك مع هانز جيرث، وهو أهم أعماله النظرية.

ومن الأمور التي تثير السخرية - إذا نظرنا إلى الدور الرئيسي لميلز في تاريخ نظرية علم الاجتماع الماركسي - أن يكون هذا الكتاب أقوى من زاوية النظرية الفيبيرية والفرويدية منه من زاوية النظرية الماركسية. ومع ذلك فإن كتاب "الشخصية

(Horowitz, ١٩٨٣) كما دخل في صراع في النهاية مع زميله في التأليف هانز جيرث الذي وصف ميلز بأنه "داهية بارع، وتافه، وراعى بقر" (Horowitz, ٧٢: ١٩٨٣). وعاش ميلز كأستاذ في جامعة كولومبيا معزولاً وغريباً بين زملائه، ولقد قال عنه أحد زملائه:

"لا توجد غربة بينى وبين رايت. لقد بدأنا غرباء عن بعضنا. وفي حفل تأبينه

تابع إطار (٦-٤)

الذي نظمته جامعة كولومبيا بعد وفاته، بدا لى أننى الشخص الوحيد الذى لا يمكنه أن يقول لقد تعودت عليه كصديق، ولكننا صرنا بعيدين عن بعضنا بعض الشيء. وطبعاً كنت أقصد العكس".

(Horowitz, ٨٣: ١٩٨٣)

وعاش ميلز غريباً. وكان يعلم هذا عن نفسه: "أنا غريب عن وطنى، وغريب عن نفسى" (Horowitz, ٨٤: ١٩٨٣). وفى كتابه "الخيال السوسيولوجى" (١٩٥٩) لم يقتصر ميلز على تحدى بارسونز ذلك المنظر المهيمن فى زمانه، ولكنه تحدى أيضاً عالم المناهج البارز بول لازارسفيلد الذى تصادف أن يكون زميل ميلز فى جامعة كولومبيا.

ولم يكن ميلز على خصام مع الناس فقط، ولكنه كان على خصام أيضاً مع المجتمع الأمريكى، وأظهر تحديه له فى عدة جهات أبرزها عندما قام بزيارة للاتحاد السوفيتى ولقى هناك حفاوة باعتباره ناقداً بارزاً للمجتمع الأمريكى.

والبناء الاجتماعى" يمثل إضافة نظرية مهمة - مع أنه لا يُقرأ الآن على نطاق واسع - ربما لأنه لا ينسجم مع الأعمال الراديكالية المعروفة لميلز. والحقيقة أن تأليف هذا الكتاب تأثر تأثراً طاعياً بهانز جيرث المعروف باهتماماته بالنظرية الفيبيرية.

وفى الخمسينيات تحول اهتمام ميلز فى اتجاه الماركسية ومشكلات العالم الثالث. وتمخض هذا الاهتمام عن كتابين أولهما عن الثورة الشيوعية فى كوبا بعنوان "انصت أيها الأمريكى: الثورة فى كوبا" (١٩٦٠) Listen Yankee: The Revolution in Cuba. وثانيهما بعنوان "الماركسيون" (١٩٦٢) The Marxists. وهذه النزعة الراديكالية عند ميلز هى التى وضعت على هامش علم الاجتماع الأمريكى، فكان موضوعاً لكثير من الانتقادات، وبدوره أصبح ناقداً لادعاً لعلم الاجتماع. ووصلت النزعة الراديكالية ذروتها فى كتابه "الخيال السوسيولوجى" (١٩٥٩) The Sociological Imagination. ومما يلفت النظر هجوم ميلز الحاد على تالكوت بارسونز ونظريته الكبرى. والحقيقة أن عديداً من علماء الاجتماع أصبحوا أكثر دراية بنقد ميلز منه بتفاصيل أعمال بارسونز.

وتوفى ميلز وهو ينبذ علم الاجتماع. وقبل أن ينقضى عقد الخمسينيات كان كل من علم الاجتماع الراديكالى والنظرية الماركسية فى طريقهما لشن غزوات مهمة

على علم الاجتماع.

تطور نظرية الصراع

كان تطور نظرية الصراع كبديل عن الوظيفة البنائية من النذر الأخرى على الالتحام الحقيقى بين الماركسية ونظرية علم الاجتماع. وقد اتضح لنا فيما سبق أن الوظيفة البنائية سرعان ما بدأت تفقد ريادتها فى نظرية علم الاجتماع مع تزايد الهجوم عليها. وكان هذا الهجوم متعدد

وقد انتهز ميلز هذه المناسبة ليهاجم الرقابة المفروضة فى الاتحاد السوفيتى ليشرىب النخب على تصفية وفصل قائد سوفيتى من أنصار ستالين، حتى جاء اليوم الذى نشرت فيه الأعمال الكاملة "ليون تروتسكى" فى الاتحاد السوفيتى (٨: ١٩٨٤, Tilmon). وقد توفى س. رايت ميلز فى نيويورك فى العشرين من مارس من عام ١٩٦٢.

الوجه؛ فقد أتهمت الوظيفة البنائية بعدة أمور منها أنها محافظة من الناحية السياسية، وعاجزة عن التعامل مع التغير الاجتماعى بسبب تركيزها على الأبنية الساكنة (الاستاتيكية)، وقصورها عن التحليل الملائم للصراع الاجتماعى.

وكانت إحدى ثمرات هذه الانتقادات بذل محاولة من جانب عدد من علماء الاجتماع للتغلب على مشكلات الوظيفة البنائية بدمج الاهتمام بالبناء مع الاهتمام بالصراع. وشكل هذا العمل تطوير نظرية الصراع كبديل عن الوظيفة - البنائية. وللأسف بدت نظرية الصراع كما لو كانت مرآة عاكسة للوظيفة البنائية مع ضعف تكاملها الفكرى^(١).

وأول محاولة بارزة فى هذا الصدد كانت كتاب لويس كوزر (١٩٥٦) عن وظائف الصراع الاجتماعى. وقد حاول كوزر فى هذا الكتاب دراسة الصراع الاجتماعى فى إطار الرؤية الوظيفية - البنائية للعالم. وعلى الرغم من جدوى النظر فى وظائف الصراع؛ إلا أن هناك ما هو أكثر من ذلك فى دراسة الصراع دون الوقوف عند وظائفه الإيجابية فقط.

وحاول باحثون آخرون التوفيق بين الاختلافات التى تفصل بين الوظيفة البنائية ونظرية الصراع (١٩٦٣, Van den Berghe, ١٩٦٦; Himes, ١٩٧١; Coleman). وعلى الرغم من وجود بعض الفائدة من وراء هذه المحاولات، إلا أنها مدانة باستغراقها فى الاختلافات الرئيسية بين هذين الخيارين النظريين (Frank, ١٩٦٦/١٩٧٤).

وتتمثل المشكلة الأكبر فى نظرية الصراع فى أنها تفتقر إلى ما هى أحوج إليه، وهو أساس متين من النظرية الماركسية. ومع ذلك فقد تطورت النظرية الماركسية تطوراً

جيداً خارج نطاق علم الاجتماع، ولا بد لها أن توفر أساساً يتم الاعتماد عليه فى تطوير نظرية سوسولوجية محبوكة فى الصراع، والاستثناء الوحيد من ذلك هو **الف دارندورف** الذى ولد عام ١٩٢٩، وهو عالم أوروبى (ألمانى) ضليع فى النظرية الماركسية. وقد سعى دارندورف إلى أن يجعل من نظرية الصراع جزءاً لا يتجزأ من التراث الماركسى، إلا أن نظريته فى الصراع بدت فى النهاية مرآة عاكسة للوظيفية البنائية أكثر منها نظرية ماركسية فى الصراع. وكان أشهر أعمال دارندورف - "الطبقة والصراع الطبقي فى المجتمع الصناعى" (١٩٥٩) - أكثرها تأثيراً فى نظرية الصراع، ولكن ذلك كان راجعاً - إلى حد كبير - إلى تشابهه كثيراً مع الوظيفية البنائية إلى الحد الذى جعله مستساغاً لدى علماء الاجتماع البارزين، أى أن دارندورف قام بالدراسة عند نفس مستوى التحليل مثل الوظيفيين البنائيين (الأبنية والمؤسسات) ونظر فى كثير من نفس القضايا. ويعترف دارندورف أنه على الرغم من أن جوانب النسق الاجتماعى يمكن أن تتوافق مع بعضها على نحو دقيق، إلا أنه يمكن أن يكون هناك صراع وتوتر شديد بينها.

وختاماً يتعين أن ننظر إلى نظرية الصراع على أنها ليست أكثر من تطور انتقالى فى تاريخ نظرية علم الاجتماع. وقد فشلت هذه النظرية لأنها لم تذهب بعيداً بدرجة كافية فى اتجاه النظرية الماركسية. وكان الوقت لا يزال مبكراً فى الخمسينيات والستينيات لكى يسلم علم الاجتماع الأمريكى بقبول مدخل ماركسى واضح، إلا أن نظرية الصراع ساعدت فى إعطاء إشارة البدء لهذا القبول مع أواخر الستينيات.

ويتعين علينا أن نشير إلى إسهام **راندول كولينز** (١٩٧٥) إلى نظرية الصراع. وقد عانت جهود كولينز من نفس نقطة الضعف التى يعانى منها الأعمال الأخرى فى أدبيات الصراع، وهى افتقارها إلى أساس من النظرية الماركسية. كما أشار كولينز إلى نقطة ضعف أخرى فى نظرية الصراع، وحاول التغلب عليها، وهذه المشكلة هى أن نظرية الصراع تركز عموماً على الأبنية الاجتماعية، وليس لديها ما تقوله - أو لديها القليل مما تقوله - بشأن الفاعلين وأفكارهم وأفعالهم. وقد حاول كولينز الذى تربى فى مدرسة الظاهرانية / المنهجية الشعبية أن يتحرك بنظرية الصراع فى هذا الاتجاه.

بزوغ نظرية التبادل

كان بزوغ نظرية التبادل تطوراً نظرياً مهماً بدأ فى الخمسينيات ليضاف إلى غيره من التطورات النظرية. ويعد جورج هومانز أبرز شخصية فى هذا التطور، وهو عالم الاجتماع الذى تركنا الحديث عنه وهو مفتون بالنزعة السلوكية النفسية عند سكينر التى تعد المصدر الرئيسى لنظرية التبادل عند هومانز بصفة خاصة وعلم الاجتماع بصفة

عامة^(١).

ونظراً لعدم قناعاته باستراتيجية الاستدلال عند بارسونز فى تطوير النظرية، فقد كان هومانز مشغولاً بالبحث عن بديل عملى لمعالجة نظرية علم الاجتماع معالجة استقرائية، ناهيك عن رغبته فى الابتعاد عن بؤرة الاهتمام الثقافية والبنائية فى النظرية البارسونية والتركيز - بدلاً من ذلك - على الناس وسلوكهم. وانطلاقاً من ذلك اتجه هومانز إلى العمل مع زميله فى جامعة هارفارد، وهو سكرن. وفى بداية الأمر لم ينظر هومانز فى كيفية الاستفادة من القضايا الافتراضية عند سكرن - التى طورها للمساعدة فى تفسير سلوك الحَمَام - فى فهم السلوك الاجتماعى الإنسانى. وعندما تمعن هومانز النظر فى بيانات الدراسات السوسولوجية للجماعات الصغيرة والدراسات الأنثروبولوجية للمجتمعات البدائية، بدأ يرى أن النزعة السلوكية عند سكرن قابلة للتطبيق وأنها تشكل بديلاً نظرياً عن الوظيفة البنائية على النمط البارسونى. وهذا ما أدى به إلى مقالة عنوانها "السلوك الاجتماعى كتبادل" عام ١٩٥٨، وإلى كتاب نشره عام ١٩٦١ يتضمن أطروحاته النظرية، وكان عنوان هذا الكتاب "السلوك الاجتماعى: أشكاله الأساسية". وشكل هذان العملان مولد نظرية التبادل كمنظور مهم فى علم الاجتماع. ومنذ ذلك الحين لاقت نظرية التبادل اهتماماً بالغاً بعضه إيجابى وبعضه سلبى.

وتتمثل وجهة النظر الأساسية عند هومانز فى أن دراسة السلوك والتفاعل الفرديين تمثل قلب علم الاجتماع. ولم يأبه هومانز كثيراً بالوعى أو بالأشكال المتعددة للأبنية والنظم الكبرى التى حازت على اهتمام معظم علماء الاجتماع. فقد انصب اهتمام هومانز على أنماط التدعيم، وتاريخ المكسب Rewards والخسارة Costs التى تؤدى بالناس إلى أن يتصرفوا على النحو الذى هم عليه. ولكى نفهم السلوك يتعين علينا أن نفهم تاريخ المكسب والخسارة لدى الفرد. ومن هنا ينبغى ألا ينصب اهتمام علم الاجتماع على الوعى أو الأبنية والنظم الاجتماعية، ولكن على أنماط التدعيم.

ولا تهتم نظرية التبادل - كما يستدل على ذلك من مسماها - بالسلوك الفردى، وإنما تهتم بالتفاعل بين الناس المشاركين فى تبادل المكسب والخسارة. وتتمثل المقدمة المنطقية هنا فى أن التفاعل يستمر عندما يكون هناك تبادل للمكاسب، ويتوقف هذا التفاعل عندما يؤدي إلى خسارة لأحد طرفى التفاعل أو كليهما.

ويعد كتاب بيتر بلاو "التبادل والقوة فى الحياة الاجتماعية" - الذى نشر عام ١٩٦٤ - من الأطروحات الأخرى المهمة لنظرية التبادل. وقد تبنى بلاو منظور هومانز بصفة أساسية، إلا أن هناك اختلافاً مهماً بينهما. فإذا كان هومانز قانعاً بدراسة الصور الأساسية للسلوك الاجتماعى، فقد رغب بلاو فى أن يدمج ذلك مع التبادل على المستويات

البنائية والثقافية، بدءاً بالتبادل بين الفاعلين ثم الانتقال سريعاً إلى الأبنية الكبرى التي تنشأ عن هذا التبادل، وانتهاءً بالتبادل بين الأبنية الكبرى. وهذا يختلف اختلافاً تاماً عن نظرية التبادل التي تصورها هومانز. وتمثل نظرية بلاو - في بعض توجهاتها - عودة إلى نوع من التنظير على النمط البارسوني الذي اعترض عليه هومانز. وعلى أية حال فإن محاولة دراسة التبادل على مستوى الوحدات الصغرى والكبرى بطريقة متكاملة محاولة برهنت على أنها خطوة نظرية مفيدة.

وقد برز ريتشارد إيمرسون (١٩٨١) حجياً كشخصية محورية في نظرية التبادل على الرغم من بعده عن الأضواء لسنوات عديدة تحت تأثير هومانز وبلاو. وقد حاول إيمرسون تطوير مدخل إلى نظرية التبادل يدمج التحليل على مستوى الوحدات الصغرى والكبرى معاً^(١)، كما تعود أهمية إيمرسون إلى جهوده في نظرية التبادل مع ربطها بنظرية شبكة العلاقات^(٢).

وباختصار، لقد تطورت نظرية التبادل اليوم إلى تيار مهم في نظرية علم الاجتماع، وتواصل هذه النظرية جذب مناصرين جدد لها، وتتحو نحو اتجاهات جديدة (Cook, ١٩٨٧).

التحليل المسرحي: أعمال إرفنج جوفمان

يعد إرفنج جوفمان (١٩٢٢-١٩٨٢) آخر المفكرين البارزين الذين ارتبطوا بمدرسة شيكاغو الأصلية. وقد حصل جوفمان على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو عام ١٩٥٣، أي بعد عام واحد من انتقال هيربرت بلومر (الذي كان معلماً لجوفمان) من جامعة شيكاغو إلى جامعة بيركلي. وبعد فترة قصيرة انضم جوفمان إلى بلومر في جامعة بيركلي، حيث استطاع تأسيس ما يشبه مركزاً للتفاعلية الرمزية، إلا أن هذا المركز لم يضارع مدرسة شيكاغو في أهميتها. فقد مضى العمر ببلومر، ولم يصبح جوفمان موضوع اهتمام الخريجين في بحوثهم. وبعد عام ١٩٥٢ تضاءلت أهمية التفاعلية الرمزية على الرغم من استمرارها كنظرية بارزة في علم الاجتماع.

وعلى الرغم من أفول نجم التفاعلية الرمزية بصفة عامة، فقد بنى جوفمان لنفسه مكاناً قوياً و متميزاً في نظرية علم الاجتماع المعاصر. وقد نشر جوفمان خلال الفترة ما بين الخمسينيات والسبعينيات سلسلة من الكتب والمقالات التي كانت المخاض لميلاد التحليل المسرحي كشكل مختلف من أشكال التفاعلية الرمزية. وعلى الرغم من أن

جوفمان غير اهتمامه في سنواته الأخيرة، إلا أنه يظل مشهوراً بنظريته المسرحية^(١).

ويجسد كتاب "تصور الذات في الحياة اليومية" الذي نشر عام ١٩٥٩ - أطروحات جوفمان المعروفة في النظرية المسرحية. وظل جوفمان ينشر على مدى السنوات الخمسة عشرة التالية لهذا العام عدة كتب ومجموعة من المقالات التي شرح فيها بالتفصيل رؤيته المسرحية للعالم. وبلغت مبسطة يرى جوفمان أن هناك تشابهاً كبيراً بين الأداء المسرحي وأنماط الدور الذي نقوم به جميعاً في أفعالنا وتفاعلاتنا اليومية. والتفاعل سريع الزوال ما لم يدعمه الأداء الاجتماعي. ويعد الأداء الهزيل أو المتصدع تهديداً خطيراً للتفاعل الاجتماعي تماماً مثلما يهدد هذا الأداء القيام بالدور على خشبة المسرح.

ومن الواضح أن التحليل المسرحي يتناغم مع جذوره التفاعلية - الرمزية، حيث يركز على الفاعلين والفعل والتفاعل. واستناداً إلى التفاعلية الرمزية التقليدية وجد جوفمان في المسرح استعارة رائعة لتسليط الضوء على العمليات الاجتماعية الصغرى. وتقرأ أعمال جوفمان على نطاق واسع اليوم، ويُعترف بإبداعها وغازرة الآراء النافذة فيها (Collins, ١٩٨٦a; Ditton, ١٩٨٢). وعلى الرغم من النظر إلى جوفمان باعتباره منظراً مهماً، إلا أن هذا الرأي ليس مقبولاً عند الجميع لعدة أسباب:

أولها أنه انشغل بموضوعات محدودة بدلاً من الاهتمام بالجوانب الأساسية الفعلية للحياة الاجتماعية.

وثانيها أنه كان منظراً على المستوى المجهري في وقت كان الإطار فيه من نصيب المنظرين على مستوى الوحدات الكبرى. ويعبر كولينز عن ذلك بقوله: "كلما أمعنا النظر في أعمال جوفمان، برز لنا كشخصية رائدة في علم اجتماع الوحدات الصغرى في أيامنا هذه" (٦: ١٩٨١b).

وثالثها أنه جذب بأعماله عدداً محدوداً من الطلاب الذين استطاعوا أن يبنوا على آرائه، والحقيقة أن بعضهم آمن بأنه يستحيل أن نبني على أعمال جوفمان التي يُنظر إليها على أنها ليست سوى سلسلة من الآراء الذاتية اللامعة.

وأخيراً أنه لا توجد سوى أعمال قليلة قام بها آخرون في سياق التحليل المسرحي (باستثناء دراسات ليمان وسكوت، ١٩٧٠).

ويصعب التنبؤ بمستقبل التحليل المسرحي مع أنه صار تحليلاً باهتاً بسبب جوفمان نفسه الذي تحرك نحو الاتجاه البنائي في أعماله الأخيرة.

()

()

:

تطور علوم الاجتماع "الإبداعية"

شهدت الستينيات والسبعينيات ازدهار (Ritzer, ١٩٨٥) عدة اتجاهات نظرية جمعتها مونيكا موريس (١٩٧٧) معاً تحت عنوان "علم الاجتماع الإبداعي". ويندرج تحت هذا العنوان: علم الاجتماع الظاهراتي، والمنهجية الشعبية، وعلم الاجتماع الوجودي.

علم الاجتماع الظاهراتي

الفلسفة الظاهراتية – مع تركيزها على الوعي – لها تاريخ طويل، إلا أن محاولة تطوير شكل سوسيولوجي للظاهراتية يمكن أن يعزى إلى نشر مؤلف ألفريد شوتز "ظاهراتية العالم الاجتماعي" في ألمانيا عام ١٩٣٢. ولم يُترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية حتى عام ١٩٦٧، وبعدها أصبح له تأثير ملموس حديث على نظرية علم الاجتماع الأمريكي. وقد وصل شوتز إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٩ بعد الفرار من النازيين في النمسا. وبعد وصوله بفترة قصيرة حظى شوتز بمنصب في المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي New School for Social Research في نيويورك، والتي استطاع من خلالها أن يؤثر في تطور علم الاجتماع الظاهراتي ومن بعده علم اجتماع المنهجية الشعبية في الولايات المتحدة.

وينصر القارئ هنا بكلمات موجزة عن علم الاجتماع الظاهراتي عند شوتز^(١). ويمكن القول بأن نظرية شوتز والظاهراتية بصفة عامة على درجة عالية من التجريد، والتعقيد، وعدم الاتساق الداخلي في بعض الأحيان. وقد قدم شوتز في نفس الوقت نظرية في الوعي والفعل، ونظرية تركز على القيود الثقافية (أي المعايير والقيم) على فكر الفرد وفعله. وتكمن المشكلة في أن هاتين النظريتين اتجاهاً متعارضان أحياناً، فعلى المستوى الفردي يناقش شوتز وعى الفاعلين؛ أي الطريقة التي يصوغ بها الناس الواقع الاجتماعي وعلاقته – أي الوعي – بفكر الفرد وفعله. وهنا يتولد لدينا انطباع بأن الفاعلين أحرار أحياناً على الأقل في صوغ أي واقع يريدونه. ولكن عندما يركز شوتز على الواقع الثقافي يتولد لدينا انطباع مختلف تماماً، بمعنى أننا نشعر أن الفاعلين مقيدون – وأحياناً محكومون – بمعايير المجتمع وقيمه.

وكانت فترة منتصف الستينيات فترة حاسمة في تطور علم الاجتماع الظاهراتي. إذ لم يقتصر الأمر على ترجمة الأعمال الرئيسية لألفريد شوتز ونشر مقالاته، بل إن بيتر

)

()

.(

بيرجر وتوماس لويمان اشتراكاً في نشر كتاب بعنوان "التفسير الاجتماعي للواقع" (1967) *The Social Construction of Reality*، والذي أصبح من أكثر كتب النظرية رواجاً وتأثيراً في ذلك الوقت. ويقدم هذا الكتاب إضافتين مهمتين: أولاً أنه يمثل مدخلاً إلى أفكار شوتز كُتب بطريقة ميسورة على عدد كبير من القراء الأمريكيين، وثانيهما أنه يمثل محاولة لدمج أفكار شوتز مع أفكار الاتجاه السائد في علم الاجتماع. وتمتعت الظاهراتية منذ عام 1967 باهتمام بالغ حتى أصبحت واحدة من النظريات "الرائجة" في علم الاجتماع المعاصر.

المنهجية الشعبية

توجد اختلافات مهمة بين الظاهراتية من ناحية والمنهجية الشعبية من ناحية أخرى على الرغم من أن المنهجية الشعبية كاتجاه نظري يصعب تمييزه لدى الكثيرين عن الظاهراتية⁽¹⁾. والحقيقة أن مبتكر المنهجية الشعبية - وهو هارولد جارفينكل - كان تلميذاً لألفريد شوتز في المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي في نيويورك. وكانت الجذور الفكرية لـ جارفينكل مثيرة للاهتمام. فقد كان تلميذاً لبارسونز في أواخر الأربعينيات، ودمج توجهه مع توجه شوتز الذي تأثر به بعد عدة سنوات قليلة. وبعد حصول جارفينكل على درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عام 1952، وصل عام 1954 (Sharrock & Anderson, 1986) إلى جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس (Heritage, 1984)، وفي هذه الجامعة تطورت المنهجية الشعبية على يد جارفينكل وتلاميذه. ومن الزاوية الجغرافية، كانت المنهجية الشعبية أولى المنتجات النظرية المميزة للساحل الغربي، وظلت متمركزة هناك حتى يومنا هذا (على الرغم من وجود عدد ضخم اليوم من علماء المنهجية الشعبية البريطانيين). ويعود هذا في جانب منه إلى رغبة علماء المنهجية الشعبية في التواصل مع بعضهم البعض، وفي جانب آخر إلى احتجاج معظم علماء الاجتماع البارزين على هذا المنظور.

وقد أصبح جارفينكل بؤرة اهتمام مجموعة من الطلاب وأعضاء هيئة التدريس في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس المهتمين بمدخله، وعقدت سلسلة من حلقات النقاش في هذه الجامعة بدءاً من أوائل الخمسينيات. وكان آرون سيكوريل أحد الشخصيات البارزة في هذه الحلقات، وفي المنهجية الشعبية فيما بعد. وقد حصل سيكوريل على درجة الماجستير من جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، ثم التحق بجامعة كورنيل للحصول على درجة الدكتوراه، وبعدها عاد إلى كاليفورنيا كطالب في مرحلة ما بعد الدكتوراه. وبمرور السنين بزغ عدد من علماء المنهجية الشعبية البارزين من هذا الوسط.

وبدأت المنهجية الشعبية تحظى بجمهور عريض على المستوى القومى مع نشر كتاب جارفينكل عام ١٩٦٧ بعنوان "دراسات فى المنهجية الشعبية"، وأثار هذا الكتاب اهتماماً كبيراً على الرغم من كتابته بأسلوب صعب وغامض. وظهرت فى نفس الوقت ترجمة كتاب شوتز "ظاهراتية العالم الاجتماعى"، ونشر كتاب بيرجر ولوكمان "التفسير الاجتماعى للواقع". ويبدو أن ذلك كان إشارة إلى أن علم الاجتماع "الذاتى" أو "الإبداعى" بلغ سن الرشد.

ويقصد بالمنهجية الشعبية - أساساً - دراسة "مجموعة المعارف الفطرية والأساليب والرؤى (المناهج) التى بواسطتها يفهم أعضاء المجتمع العاديين الظروف التى يجدون أنفسهم فيها ويدركونها ويتصرفون حيالها" (٤: ١٩٨٤, Heritage). وينشغل الباحثون فى هذا الاتجاه بدراسة الحياة اليومية على المستوى الفردى، على الرغم من انشغالهم الشديد بالجوانب الذاتية على المستوى الأكبر (مجموعة المعارف الفطرية والأساليب والرؤى) للحياة الاجتماعية: المعايير والقيم والثقافة وما إليها. ويقف هؤلاء الباحثون فى موقف متعارض مع التيار الرئيسى لعلماء الاجتماع خاصة تركيزهم النظرى على الظواهر الموضوعية على نطاق واسع مثل الأجهزة البيروقراطية والرأسمالية وتقسيم العمل والنسق الاجتماعى. وقد يهتم علماء المناهج الشعبية بهذه الأبنية كسياق للحياة اليومية، ولكنهم لا يهتمون بهذه الأبنية كظاهرة فى حد ذاتها.

وعلى الرغم من ارتباط أعمال علماء المنهجية الشعبية بالنظريات المبكرة فى علم الاجتماع كالتفاعلية الرمزية والتحليل المسرحى، إلا أن هناك ما تتطوى عليه المنهجية الشعبية من تهديد لعلماء الاجتماع البارزين المسيطرين على علم الاجتماع. ونعطى مثالين على ذلك الأول من المراجعة التى قام بها جيمس كولمان لكتاب جارفينكل "دراسات فى المنهجية الشعبية" حيث يقول:

"لقد أخفق جارفينكل فى ابتكار رؤى نافذة من هذا المدخل. وربما كان يمكن لهذا المدخل أن يكون أكثر إثراء لو كان فى متناول شخص قادر على الملاحظة الدقيقة، والغريب أن يكون هذا المدخل عقياً هنا... ولا يبدو أن هذا الفصل (من الكتاب) مجرد كارثة إثنوميثودولوجية فى حد ذاتها فحسب، ولكنه برهان أيضاً على القصور العام فى المنهجية الشعبية ..

وهذا فصل آخر يعد كارثة أساسية أخرى .. يجمع بين صرامة الأساليب الرياضية المبهجة والارتباك والأخطاء التحليلية الخالية من الرؤى أو الكفاءة الفنية لعالم الاجتماع المبدع والمتمرس ..

ومرة ثانية نجد جارفينكل يستطرد فى نقاط مهمة للغاية، وهى نقاط عادية تبدو تافهة إذا كتبت بلغة إنجليزية بسيطة".

Coleman, ١٩٦٨: ١٢٦-)
(١٣٠)

والمثال الثاني من الكلمات الافتتاحية التي ألقاها لويس كوزر عام ١٩٧٥ أمام الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع، حيث لم ير في المنهجية الشعبية سوى مميزات محدودة، وشن عليها هجوماً ضارياً، واصفاً إياها بالتفاهة، والمروق عن المؤلف، والانغماس في النزعة الذاتية.

ويعد هذا الهجوم المرير مؤشراً على نجاح كل من المنهجية الشعبية والظاهرانية، ودرجة تهديدها لرسوخ علم الاجتماع.

علم الاجتماع الوجودي

يعد علم الاجتماع الوجودي أقل علوم الاجتماع الإبداعية الثلاثة شأناً على الأقل في الوقت الراهن^(١). ويشترك علم الاجتماع الوجودي مع الظاهرانية والمنهجية الشعبية في الاهتمام بالفاعلين وأفكارهم وأفعالهم. ويركز علم الاجتماع الوجودي على تعقد الحياة الفردية، والطرق التي يحاول بها الفاعلون التعامل مع هذا التعقيد. ويهتم علم الاجتماع الوجودي اهتماماً خاصاً بالمشاعر والعواطف والذات الفردية. وعلى الرغم من اشتراك علم الاجتماع الوجودي في عدد من جذوره الفكرية مع الظاهرانية والمنهجية الشعبية، إلا أنه يحاول أيضاً فصل نفسه عنهما (انظر: ١٩٨٤؛ Fontana, ١٩٨٠). ويرى أنصار علم الاجتماع الوجودي أنه أكثر انغماساً في العالم الفعلي مقارنة بالظاهرانية والمنهجية الشعبية. ولعلم الاجتماع الوجودي مصادر عديدة متميزة مثل أعمال جان بول سارتر (١٩٧٦، Graib). وعلى الرغم من أن علم الاجتماع الوجودي حقق لنفسه بعض التقدم (انظر على سبيل المثال؛ ١٩٧٧؛ Douglas & Johnson ١٩٨٠؛ Hayim, Kotarba؛ ١٩٨٤؛ Fontana؛ ١٩٧٣؛ Manning؛ ١٩٥٦؛ Tiryakian)، إلا أنه لا يزال على هامش علم الاجتماع. ولكن عندما نضم تأثيره إلى تأثير المنهجية الشعبية والظاهرانية، نرى أن علوم الاجتماع الإبداعية بدأت تغزو علم الاجتماع على الرغم من الاحتجاج الواضح عليها من جانب كثير من علماء الاجتماع.

ناقشنا في الصفحات القليلة الماضية مجموعة من النظريات الصغرى: نظرية التبادل، وعلم الاجتماع الظاهراتي، والمنهجية الشعبية، وعلم الاجتماع الوجودي. وعلى الرغم من اتفاق النظريات الثلاثة الأخيرة على وجود فاعل مفكر ومبدع، إلا أن هذه الرؤية لا يعتنقها منظرو التبادل. ومع ذلك فإن هذه النظريات الأربعة ذات توجه مجهري حيال الفاعلين وأفعالهم وسلوكهم. ولقد زادت قوة هذه النظريات في علم

الاجتماع فى السبعينيات، وباتت تهدد بأن تحل محل النظريات الكبرى (مثل الوظيفية البنائية، ونظرية الصراع، والنظريات الماركسية الجديدة) كنظريات مهيمنة فى علم الاجتماع (Ritzer, ١٩٨٥; Knorr-Cetina ١٩٨١).

بزوغ نظرية النظم وأفولها

من التطورات المثيرة فى علم الاجتماع بزوغ نظرية النظم وأفولها مثل بزوغ النيازك وأفولها^(١). وقد برزت نظرية النظم للعيان فجأة على السطح فى الستينيات، وبلغت أوجها فى كتاب والتر بكلى "علم الاجتماع ونظرية النظم الحديثة" عام ١٩٦٧. ونظرية النظم مشتقة من العلوم البحتة، حيث يُنظر إلى الكيانات العضوية والآلية (الميكانيكية) فى سياق النظم. وتتنظر نظرية النظم إلى المجتمع على أنه نظام ضخم يتألف من عدد من الأجزاء المترابطة، ومن الضرورى دراسة العلاقة بين الأجزاء إلى جانب العلاقة بين النظام وغيره من النظم الاجتماعية، كما ينصب الاهتمام على مدخلات النظام الاجتماعى، وطرق معالجة المجتمع لهذه المدخلات، والمخرجات الناجمة عن ذلك.

وقد جذبت نظرية النظم علماء الاجتماع إليها فى الستينيات. ومع تعرض الوظيفة البنائية للهجوم، بدت نظرية النظم كوريث محتمل لها. وعلاوة على ذلك جعل بارسونز "النظام الاجتماعى" The Social System عنواناً لكتابه الذى صدر عام ١٩٥١، وتحدث فيه بلغة قريبة من نظرية النظم. يضاف إلى ذلك أن نظرية النظم بجذورها الموجودة فى العلوم البحتة كانت ذات جاذبية لعلماء الاجتماع المهتمين بعلم الاجتماع العلمى، إلا أن نظرية النظم كانت أشبه بنير سطع ثم ما لبث أن انطفأ، وأجريت بحوث محدودة للغاية على المستويين: النظرى والإمبيريقى. وبعد إحدى عشرة سنة من نشر كتاب بكلى، قام روبرت ليلينفيلد (١٩٧٨) بنشر كتاب هاجم فيه نظرية النظم لإخفاقها، وغرورها العلمى، وأيديولوجيتها المحافظة الضمنية. وليس من المرجح الآن أن تفى نظرية النظم بوعدا الذى آلته على نفسها لمشايعها فى الستينيات.

هيمنة علم الاجتماع الماركسى

كانت فترة أواخر الستينيات أيضاً هى الفترة التى بدأت فيها أخيراً النظرية الماركسية تغزو نظرية علم الاجتماع الأمريكى (Jay, ١٩٨٤). وكانت هناك عدة أسباب وراء ذلك:

أولها أن النظرية السائدة (الوظيفية البنائية) تعرضت لهجوم من جوانب شتى منها نزعتها المحافظة.

وثانيها أن علم الاجتماع الراديكالي ونظرية الصراع عند ميلز – مع أنهما لا يمثلان نظرية ماركسية محبوكة – وضعنا الأساس لنظرية أمريكية طبق الأصل من الاتجاه الماركسي.

وثالثها أن فترة الستينيات كانت فترة احتجاج السود، وإعادة إحياء الحركة النسائية، والحركات الطلابية، والحركة المعادية لحرب فيتنام. وانجذب عديد من علماء الاجتماع الشبان الذين تدربوا في هذا المناخ إلى الأفكار الراديكالية. وقد اتضح هذا الاهتمام في البداية فيما أطلق عليه في ذلك الوقت "علم الاجتماع الراديكالي" (Colfax & Roach, 1971). وكان ذلك مفيداً حيثما تحقق له قدر من النجاح، إلا أن علم الاجتماع الراديكالي – شأنه في ذلك شأن أعمال ميلز – كان ركيكاً بالنظر إلى تفاصيل النظرية الماركسية.

ويصعب أن نختار عملاً واحداً نعدده أساساً في تطور علم الاجتماع الماركسي في أمريكا، إلا أن العمل الذي لعب دوراً مهماً كان كتاب هنري ليفيفر بعنوان: "علم الاجتماع عند ماركس" (1968). وتبدو أهمية هذا الكتاب في إدعائه الأساسي، ومؤداه أنه على الرغم من أن ماركس لم يكن عالم اجتماع، فقد كان هناك علم اجتماع في مؤلفاته.

ومنذ ذلك الوقت زاد عدد علماء الاجتماع الذين التفتوا إلى الأعمال الأصلية لماركس – وغيره من الماركسيين – لاستبصار الرؤى التي أفادت في تطور علم الاجتماع الماركسي. وكان ذلك يعني في البداية أن المنظرين الأمريكيين قرأوا ماركس في النهاية قراءة جادة، إلا أننا نرى اليوم أطروحات مهمة عن الماركسية قدمها علماء الاجتماع الأمريكيون.

وكانت أعمال المدرسة النقدية ذات جاذبية خاصة للمنظرين الأمريكيين بسبب دمجها للنظرية الماركسية والنظرية الفيبيرية في قالب واحد. وترجمت معظم الأعمال إلى اللغة الإنجليزية، واتخذ عدد من علماء الاجتماع الأمريكيين لأنفسهم مساراً بتأليف كتب عن المدرسة النقدية لجمهور القراء الأمريكيين (انظر مثلاً: Jay, 1973; 1986).

واتساقاً مع هذا الاهتمام المتزايد كان هناك تدعيم مؤسسي لهذا الاتجاه، حيث كرست مجالات عديدة اهتماماً واضحاً بنظرية علم الاجتماع الماركسي، ومنها "النظرية والمجتمع" Theory & Society، و"النهايات" Telos، و"دراسات ماركسية" Marxist Studies. كما تأسس قسم لعلم الاجتماع الماركسي بالجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع عام 1977. ولم يكن الجيل الأول فقط من المنظرين النقديين هم المشهورون الآن في أمريكا، بل إن الجيل الثاني من المفكرين – خاصة يورجين هابرماس – لاقى اهتماماً على نطاق واسع.

ومن الأمور المهمة تطور أعمال رائدة فى علم الاجتماع الأمريكى من المنظور الماركسى. فهناك مجموعة من علماء الاجتماع أجروا بحوثهم فى علم الاجتماع التاريخى من هذا المنظور. ومنهم - على سبيل المثال - سكوبول (Skocpol, ١٩٧٩) ووالرشتاين (Wallerstein, ١٩٧٤). واهتمت مجموعة ثانية بتحليل الميدان الاقتصادى من منظور علم الاجتماع ومنهم - على سبيل المثال - باران وسويزى (١٩٦٦) وبرافمان (١٩٧٤) وبوراوى (Burawoy, ١٩٧٩). وهناك مجموعة ثالثة انشغلت بعلم الاجتماع الإمبريقي التقليدى متأثرة بالنظرية الماركسية مثل كون (Kohn, ١٩٧٦). وهناك اتجاهات وتطورات أخرى عديدة فى هذا المجال، إلا أن النقطة الهامة هى أنه مع حلول الثمانينيات حقق علم الاجتماع الماركسى نجاحاً فى أمريكا، ومع ذلك لا يزال كثير من علماء الاجتماع البارزين يعادون النظرية الماركسية (٤٩٨: ١٩٨١, Bierstadt).

تحدى النظرية النسوية

فى أوائل الثمانينيات وفى نفس اللحظة التى اكتسب فيها علم الاجتماع الماركسى قبولاً من علماء الاجتماع الأمريكيين، أظهر رافد نظرى جديد تحديه للنظريات الراسخة فى علم الاجتماع، ولعلم الاجتماع الماركسى نفسه. وكان هذا الجناح الأحدث من أجنحة التفكير الاجتماعى الراديكالى هو النظرية النسوية المعاصرة.

وتعود الكتابات النسائية النقدية فى المجتمعات الغربية إلى نحو ٤٠٠ عاماً مضت (Spender, ١٩٨٢; Rossi, ١٩٧٤)، وكانت هناك حركة نسائية منظمة بواسطة النساء ومن أجلهن منذ ما يزيد عن ١٥٠ عاماً مضت (O'Neill, ١٩٧١; Banner, ١٩٨٤; Chafetz & Dworkin, ١٩٨٦; Carden, ١٩٧٤; Deckard, ١٩٧٩).

وقد كسبت الحركة النسائية فى أمريكا عام ١٩٢٠ حق النساء فى التصويت وبعد ذلك بخمس وخمسين عاماً امتد هذا الحق دستورياً ليشمل الرجال السود. وبعد أن تشبعت الحركة النسائية فى أمريكا بهذا الانتصار، ضعفت فى حجمها وتأثيرها خلال الثلاثين عاماً التالية، حتى دب فيها النشاط مرة ثانية فى الستينيات. وكانت هناك ثلاثة عوامل أسهمت فى وجود الموجة الجديدة لنشاط الحركة النسائية؛ وهى: المناخ العام للفكر النقدى الذى ميز تلك الفترة؛ وغياب القيادات النسائية النشطة اللاتى احتشدن لتأييد الحركات المناوئة للحرب وحركة حقوق المدنية والحركات الطلابية وذلك لمواجهة الاتجاهات المنحازة للرجال من جانب الليبراليين والراديكاليين من الرجال فى هذه الحركات (Evans, ١٩٨٠; Snitow et al., ١٩٨٣)؛ ومعايشة النساء للتعب والتفرقة مع دخولهن بأعداد كبيرة إلى مجالى العمل المأجور والتعليم العالى (Lengerman & Wallace, ١٩٨٥). ولهذه الأسباب - خاصة السبب الأخير منها - استمرت الحركة

النسائية فى هذه المرحلة الثانية الجديدة فى الاتساع خلال السبعينيات وحتى الثمانينيات على الرغم من خبو نشاط كثير من الحركات الأخرى فى الستينيات. يضاف إلى ذلك أن الحركات النشطة بواسطة النساء ومن أجلهن أصبحت فى هذه السنوات ظاهرة دولية.

ومن الملامح المميزة لهذه الحركة النسائية الدولية ظهور تراث جديد وغزير عن النساء كشف النقاب عن جميع جوانب حياة النساء وخبراتهم، تلك الجوانب التى لم تتم دراستها حتى الآن. وهذا التراث – الذى اشتهر باسم "دراسات المرأة" أو "علم المرأة الجديد" – هو نتاج عمل مجموعة من الكاتبات – على المستوى الدولى من تخصصات متعددة فى الجامعات وخارجها – اللاتى يكتبن لعموم القراء وللأكاديميين المتخصصين منهم. واشتمل هذا التراث على أمثلة مثيرة على الأعمال الفكرية البارعة فى السنوات الحديثة، ومن ثم شنت علماء النسوية نقداً دقيقاً متعدد الأوجه أوضح تعقد النظام الذى يضع النساء فى مرتبة دنيا.

ويقصد بالنظرية النسوية التيار النظرى الذى يتضمنه هذا التراث، وأحياناً ما يكون ذلك بشكل ضمنى فى الكتابات حول قضايا جوهرية مثل التنظيم المؤسسى (Kanter, 1977) أو تدريب أطباء النساء (Scully, 1980)؛ وأحياناً أخرى بشكل صريح مثل التحليلات التى قامت بها أدريين ريتش (1976) ونانسى شودوروف (1978) عن الأمومة. ومن هذا الفيض من الكتابات النظرية برزت أطروحات معينة تهم علم الاجتماع لأنها موجهة إلى علماء الاجتماع من جانب باحثات ضليعات فى نظرية علم الاجتماع (Fonow, 1986; Stacey & Thoene, 1986; Hartsock, 1983; Cook & 1979; 1978; 1975; 1974; Smith, 1984; Chafetz). وهناك مجلات جذبت اهتمام علماء الاجتماع بالنظرية النسوية، ومنها: إشارات Signs، دراسات نسائية Feminist studies، البحث السوسولوجى Sociological Inquiry، النوع الاجتماعى والمجتمع Gender & Society؛ ولعبت نفس الدور الرابطة المهنية المعروفة باسم Sociologists for Women in Society (S.W.S).

وتنظر النظرية النسوية فى العالم من زاوية أقلية غير معترف بها وغير منظورة حتى الآن – وهى النساء – أملاً فى اكتشاف الطرق الأساسية – ولكنها طرق غير مقبولة – التى بواسطتها تساعد أنشطة هذه الأقلية فى خلق عالم النساء. وأسهمت هذه الرؤية فى تنقيح فهمنا لمعظم الموضوعات ومنها الحياة الاجتماعية. ومن هذا المنطلق بدأ أنصار النظرية النسوية فى تحدى نظرية علم الاجتماع.

وتزعم من تجاهرن بهذا التحدى أن علماء الاجتماع يرفضون بإصرار دمج رؤى العلم الجديد للمرأة فى فهم علم الاجتماع للعالم الاجتماعى. وبدلاً من ذلك انعزلت عالِمات الاجتماع النسوى عن التيار الرئيسى لعلم الاجتماع، واختزلت النظرية النسوية الشاملة

للتنظيم الاجتماعي إلى متغير بحثي واحد هو الجنس Sex، وإلى نمط بسيط للدور الاجتماعي هو النوع الاجتماعي Gender (Stacey & Thorne, ١٩٨٦). وهناك عدة أسباب وراء تحاشي علم الاجتماع للنظرية النسوية، ومنها التحيز الشديد ضد النزعة النسوية، والشك في المصداقية العلمية للنظرية النسوية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنشاط السياسي، والحذر المتولد من المضامين الراديكالية للنظرية النسوية بالنسبة للنظرية والمنهج في علم الاجتماع. ويتعين علينا أن نتذكر هنا أن النظرية الماركسية أخذت بعض الوقت للوصول إلى علم الاجتماع، وأن الكتابات النسوية النظرية تمثل حدثاً جديداً للغاية في الحياة الأكاديمية. ومع ذلك فقد بدأت هذه الكتابات تأخذ لنفسها مكاناً مهماً، حيث أنها تطرح نظرية جديدة مثيرة ومهمة عن الحياة الاجتماعية، مما جعلها تجتذب جمهوراً يتعاطف معها من النساء بصفة عامة ومن النساء والرجال الذين تأثروا بالنسوية بصفة خاصة. ولكل هذه الأسباب بدأت النظرية النسوية تتحرك على نحو متسارع صوب الاتجاه الرئيسي في علم الاجتماع (من المؤشرات على هذا الاتجاه الجديد وجود فصل في كتاب ريتزر عن النظرية النسوية المعاصرة، وهو الفصل الثامن).

البنوية وما بعد البنوية

من التطورات التي تحدثنا عنها قليلاً حتى الآن تزايد الاهتمام بالبنوية. وقد أصبحت البنوية الآن ظاهرة دولية، وتُعزى البنوية في العادة إلى فرنسا (وهو ما يطلق عليه البنوية الفرنسية) (Kurzweil, ١٩٨٠; Clark & Clark, ١٩٨٢). وعلى الرغم من أن جذور البنوية تمتد خارج علم الاجتماع، إلا أنها بدأت تشق طريقها بوضوح إلى هذا العلم. وتكمن المشكلة في أن البنوية في علم الاجتماع لم تنضج بدرجة يصعب معها تعريفها على نحو دقيق. ومما يضاعف من هذه المشكلة أن البنوية تتطور تطوراً متزامناً تقريباً في مجالات عدة، مما يجعل من الصعب العثور على أطروحة واحدة متناغمة عن البنائية. والحقيقة أن هناك اختلافات شاسعة بين الفروع المتعددة للبنوية^(١).

ويمكن أن يتولد لدينا انطباع أولى عن البنوية بتوضيح الاختلافات الأساسية الموجودة بين من يؤيدون المنظور البنوي. فهناك من يركزون على ما يطلقون عليه "الأبنية العميقة للعقل" Deep Structures of the Mind، وفي رأيهم أن هذه الأبنية الكامنة أو اللاواعية Unconscious هي التي تقود الناس إلى أن يفكروا ويتصرفوا على النحو الذي هم عليه. ويمكن النظر إلى أعمال التحليل النفسي سيجموند فرويد كمثال على هذا التوجه. وبلى هؤلاء البنويون الذين يركزون على الأبنية الكبرى غير المنظورة

للمجتمع التي يرون فيها محددات لأفعال الناس وكذا المجتمع في عمومه. ويُنظر إلى ماركس في بعض الأحيان على أنه مارس بالفعل هذا الضرب من ضروب البنيوية بتركيزه على البناء الاقتصادي غير المرئي للمجتمع الرأسمالي. وهناك مجموعة ثالثة من البنيويين تنظر إلى الأبنية على أنها النماذج التي يصيغونها للعالم الاجتماعي. وأخيراً توجد مجموعة من البنيويين تهتم بالعلاقة الجدلية بين الأفراد والأبنية الاجتماعية، حيث يرون أن ثمة صلة بين أبنية العقل وأبنية المجتمع. وغالباً ما يرتبط عالم الأنثروبولوجيا كلود ليفي شتراوس بهذا الرأي.

وتتمثل المشكلة الحالية في علم الاجتماع البنيوي في أنه لا يزال – إلى حد كبير – خليطاً من أفكار مشتقة من عدة تخصصات منها علم اللغة (سوسير) والأنثروبولوجيا (ليفى شتراوس) وعلم النفس (فرويد، لاكان) والماركسية (ألتوسير). وسوف تظل البنيوية على هامش علم الاجتماع إلى أن يتم دمج هذه الأفكار معاً بطريقة متسقة. ومع ذلك فإن التطورات الحادثة في التخصصات ذات الصلة تطورات مهمة وجاذبة لعلماء الاجتماع إلى الحد الذي يرجح معه أن تلقى النظرية البنيوية في علم الاجتماع مزيداً من الاهتمام في السنوات المقبلة.

وفي الوقت الذي تحقق فيه البنيوية ازدهاراً داخل حدود علم الاجتماع، نلاحظ أن هناك حركة خارج حدود هذا العلم أخذت في التطور متجاوزة المقدمات المبكرة للبنيوية، وهذه الحركة هي ما يطلق عليها "ما بعد البنيوية" Poststructuralism. وسوف نناقش ما بعد البنيوية في الفصل التاسع (من كتاب ريتزر)^(١)، ونستعرض بقدر من التفصيل نظريات واحد من أبرز ممثليها، وهو ميشيل فوكو.

الوظيفية الجديدة

عندما ناقشنا الوظيفية البنائية وجدناها في حالة من الأفول في الستينيات، وظل هذا الأفول مستمراً خلال السبعينيات وحتى أوائل الثمانينات. ومنذ منتصف الثمانينات تواصلت الجهود لإحياء الوظيفية البنائية أو ما أطلق عليه "الوظيفية الجديدة"^(٢) Neofunctionalism. ويعبر بول كولومى P.Colomy عن هذا الرأي بقوله: "أن الوظيفية لم تُمتد، وعلى العكس من ذلك توجد إشارات على أن التيار الوظيفي يحيا من جديد" (١٣٩: ١٩٨٦). وتمثل جانب من هذا الإحياء في تجديد الاهتمام بأعمال تالكوت بارسونز. وكان ذلك أوضح ما يكون في علم الاجتماع الألماني خاصة أعمال المفكر النقدي يورجين هابرماس (Alexander, ١٩٨٤)، وكان هناك مناصرون أمريكيون

()
()
" () .

أيضاً (Sciulli, ١٩٨٦; Sciulli & Gerstein, ١٩٨٥). ووقفت وراء تجديد الاهتمام بالنظرية البارسونية جهود قوية سياسية وفكرية للتغلب على بعض نقاط الضعف في الوظيفية البنائية، وبنيت لنفسها مكاناً تدب فيه الحيوية، وهو "الوظيفية الجديدة" (Alexander & Colomy, ١٩٨٥; Alexander, ١٩٨٥a; Faia, ١٩٨٦; Colomy,) (١٩٨٦).

الربط بين النظريات: الكبرى والصغرى

لاحظنا أن فترة الثمانينيات تميزت بوجود نظريات كبرى قوية (النظريات الماركسية الجديدة) أو نظريات تستعيد عافيتها (الوظيفية الجديدة)، ونظريات صغرى متعددة تبدو أقوى مما مضى (الظاهراتية، المنهجية الشعبية، نظرية التبادل). وشاهدنا في نفس الوقت خلال تلك الفترة جهوداً على نطاق واسع لتطوير نظريات في علم الاجتماع تسعى إلى دمج المستويات: الكبرى والصغرى للواقع الاجتماعي (Alexander, ١٩٨٢; Coleman, ١٩٨٦; Collins, ١٩٨١; Giddens, ١٩٨٤; Ritzer, ١٩٨١a). وعلى الرغم من احتمال استمرار النظريات الكبرى والصغرى في قوتها، إلا أنه من المرجح أيضاً أن يكون أحد مجالات الاهتمام المتواصل في علم الاجتماع هو النظريات التي تسعى بطرق شتى إلى الانشغال بطريقة تكاملية بالعلاقة بين المستويات الكبرى والصغرى للواقع الاجتماعي. وقد خصصنا الفصل العاشر لمناقشة عديد من المحاولات النظرية الرامية إلى دمج المستويات الكبرى والصغرى للواقع الاجتماعي^(١).

الخلاصة

يستكمل هذا الفصل ما انتهى إليه الفصل الأول^(٢)، ليستعرض تاريخ نظرية علم الاجتماع منذ بداية القرن العشرين. وبدأنا بالتاريخ المبكر لنظرية علم الاجتماع الأمريكي التي تميزت بنزعتها الليبرالية، واهتمامها بالدارونية الاجتماعية، وبتأثير هربرت سبنسر كنتيجة لازمة لذلك. وناقشنا في هذا السياق أعمال اثنين من المنظرين الأوائل في علم الاجتماع، وهما سمندر ووارد. ومع ذلك لم يترك كلاهما بصمة مستمرة على نظرية علم الاجتماع الأمريكي. وعلى العكس من ذلك تركت مدرسة شيكاغو - كما تتضح في أعمال سمول، وبارك، وتوماس، وكولى وميد بصفة خاصة - علامة قوية في نظرية علم

()
()

:

الاجتماع بصفة عامة والتفاعلية الرمزية بصفة خاصة.

وفي الوقت الذى واصلت فيه مدرسة شيكاغو هيمنتها، بدأ شكل مختلف من أشكال نظرية علم الاجتماع فى الازدهار فى جامعة هارفارد. ولعب بيتريم سوروكين دوراً رئيسياً فى تأسيس علم الاجتماع فى هذه الجامعة، ثم جاء تالكوت بارسونز الذى قاد هارفارد إلى مكانة التفوق فى النظرية الأمريكية لتحل محل التفاعلية الرمزية المرتبطة بجامعة شيكاغو. ولا تعود أهمية بارسونز فحسب إلى إضفاء الشرعية على "النظرية الكبرى" Grand Theory فى الولايات المتحدة وتعريف القراء الأمريكيين بالمنظرين الأوروبيين، وإنما تعود أهميته كذلك إلى دوره فى تطوير نظرية الفعل، والوظيفية البنائية الأكثر منها أهمية. ومما عزز موقف الوظيفية البنائية فى الأربعينيات والخمسينيات تفكك مدرسة شيكاغو الذى بدأ فى الثلاثينيات واكتمل إلى حد كبير مع حلول الخمسينيات.

وكان تأسيس مدرسة فرانكفورت – أو المدرسة النقدية – أبرز تطور فى النظرية الماركسية فى السنوات الأولى من القرن العشرين. وقد عكس هذا الشكل الهيجلى من أشكال الماركسية تأثير بعض علماء الاجتماع مثل فيبر وعالم التحليل النفسى سيجوند فرويد. ولم تكسب الماركسية مناصرين كثيرين من علماء الاجتماع فى النصف الأول من القرن العشرين.

وكانت هيمنة الوظيفية البنائية على النظرية الأمريكية فى منتصف القرن العشرين هيمنة قصيرة الأمد. وبدأ علم الاجتماع الظاهراتى يجذب اهتماماً متزايداً فى الستينيات على الرغم من أنه يعود بتاريخه إلى أبعد من ذلك. وظلت النظرية الماركسية مستبعدة إلى حد كبير عن النظرية الأمريكية، إلا أن س. رايت ميلز حافظ على استمرار حيوية التيار الراديكالى فى أمريكا فى الأربعينيات والخمسينيات. وكان ميلز أيضاً أحد قادة الهجوم على الوظيفية البنائية، ذلك الهجوم الذى زادت حدته فى الخمسينيات والستينيات. وفى سياق هذا الهجوم ظهرت فى تلك الفترة نظرية الصراع كبديل عن الوظيفية البنائية. وعلى الرغم من تأثر نظرية الصراع بالنظرية الماركسية، فقد عانت من عدم تكاملها مع الماركسية على نحو ملائم. وثمة بديل نظرى آخر ولد فى الخمسينيات هو نظرية التبادل التى استمرت فى جذب عدد قليل – ولكنه عدد مستمر – من مؤيديها. وعلى الرغم من خسوف التفاعلية الرمزية، إلا أن أعمال إرفنج جوفمان عن التحليل المسرحى فى تلك الفترة أبعثت عنها شبح الاحتضار.

وحدثت تطورات مثيرة فى علوم الاجتماع الإبداعية فى الستينيات والسبعينيات. واستمر علم الاجتماع الظاهراتى، والمنهجية الشعبوية، وعلم الاجتماع الوجودى فى جذب

قدر كبير من الاهتمام فى علم الاجتماع. وفى نفس الوقت برز علم الاجتماع الماركسى واستمرت أشكاله المتعددة فى جذب الاهتمام فى نظرية علم الاجتماع. وفى الوقت الذى بزغ فيه نجم علم الاجتماع الإبداعى والنظرية الماركسية، اكتسبت نظرية النظم شعبية فى الستينيات لتتقد شعبيتها فى السبعينيات. ومن التطورات الأخرى الحديثة فى نظرية علم الاجتماع نذكر النظرية النسوية، والبنوية وما بعد البنوية، والوظيفية الجديدة، ومحاولات الربط بين النظريات الكبرى والصغرى.

شكل (١-٦)
نظرية علم الاجتماع فى السنوات الحديثة
المنظرون والاتجاهات النظرية

سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣)	سكتر (١٩٠٤-١٩٨٦)
الدارونية الاجتماعية (سمنر ١٨٤٠-١٩١٠) (وارد ١٨٤١-١٩١٣)	بارسونز (١٩٠٢-١٩٧٩)
دوركايم (١٨٥٨-١٩١٧)	البنوية
ماركس (١٨١٨-١٨٨٣)	هومانز (١٩١٠-١٩٨٩)
فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩)	الوظيفية البنائية (ميرتون ١٩١٠-١٩٩٢)
الحتمية الاقتصادية (كاوتسكى ١٨٥٤-١٩٣٨)	علم الاجتماع الراديكالى (ميلز ١٩١٦-١٩٦٢)
فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠)	الماركسية البنائية (التوسير ١٩١٨-١٩٩٠)
هوسرل (١٨٥٩-١٩٣٨)	الماركسية الاقتصادية (سوزى ١٩١٠-١٩٩١) (بريفرمان ١٩٢٠-١٩٧٦)
زيمل (١٨٥٨-١٩١٨)	الماركسية التاريخية والرشتاين (ولد ١٩٣٠)
سمول (١٨٥٤-١٩٢٦)	مابعد البنوية (فوكوه ١٩٢٦-١٩٨٤)
بارك (١٨٦٤-١٩٤٤)	نظرية شبكة العلاقات الاجتماعية
ميد (١٨٦٣-١٩٣١)	نظرية التبادل بلاو (ولد ١٩١٨)
كولى (١٨٦٤-١٩٢٩)	الوظيفية الجديدة
سوروكين (١٨٨٩-١٩٦٨)	نظرية الصراع دارندورف (ولد ١٩٢٩)
الماركسية الهيكلية (لوكاتش ١٨٨٥-١٩٧١)	النظرية النسوية
المدرسة النقدية (هوركهايمر ١٨٩٥-١٩٧٣) (أدورنو ١٩٠٣-١٩٦٩)	نظرية التكامل: الكبرى - الصغرى
شوتز (١٨٩٩-١٩٥٩)	هابرماس (ولد ١٩٢٩)
سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠)	علم الاجتماع الظاهراتى بيرجر (ولد ١٩٢٩) لوكمان (ولد ١٩٢٧)
التفاعلية الرمزية (بلومر ١٩٠٠-١٩٨٧) (مانفورد كون ١٩١١-١٩٦٣)	المنهجية الشعبية جارفينكل (ولد ١٩٢٩)
ليفى شتراوس (١٩٠٨-١٩٨٦)	علم الاجتماع الوجودى
	جوفمان (١٩٢٢-١٩٨٢)

الفصل السابع التطورات الحديثة فى نظرية علم الاجتماع(*)

نظرية الفعل

- نظرية الفعل عند بارسونز.
- مشكلات فى نظرية الفعل عند بارسونز.
- الأعمال الحديثة فى نظرية الفعل.

نظرية النظم

- نقد نظرية النظم.

البنوية

- جذور البنوية فى علم اللغة.
- البنوية الأنثروبولوجية: كلود ليفى – شتراوس.
- الماركسية البنائية.
- البدائل السوسولوجية.
- ما بعد البنوية: أفكار ميشيل فوكو.

النظرية البنائية

- النظرية البنائية عند بيتر بلاو.

نظرية شبكة العلاقات

علم الاجتماع الوجودى

- الوجودية والظاهراتية.
- الاهتمامات الرئيسية.
- الآفاق المستقبلية.

(*) :
Ritzer, George. Contemporary Sociological Theory. nd ed. New York:
McGraw-Hill, , pp. - .

نخصص هذا الفصل لمناقشة عدد من النظريات لم تتم دراستها بالتفصيل في متن هذا الكتاب^(١)، وهي: نظرية الفعل، ونظرية النظم، والبنوية وما بعد البنوية، والنظرية البنائية، ونظرية شبكة العلاقات، وعلم الاجتماع الوجودي. وبعض هذه النظريات بمثابة نجوم زاهرة في نظرية علم الاجتماع، وبعضها الآخر يأفل نجمه في الوقت الراهن على الأقل. ومما يميز نظريات علم الاجتماع أنها لا تتجه إلى الاختفاء، ولكنها تسير بقانون المد والجزر في شعبيتها. ويتفق ديفيد وانر D. Wagner وجوزيف بيرجر J. Berger في الإدعاء بأن النظريات – أو ما أطلقا عليها "الاستراتيجيات الموجهة" Orienting Strategies – نادراً أو مطلقاً ما تحل محلها نظريات أخرى (٧٠١: ١٩٨٥ وانظر أيضاً Wagner, ١٩٨٤). وتقترب رؤية وانر وبيرجر مع رؤيتنا لمعالجة التطورات الحديثة في نظرية علم الاجتماع في هذا الفصل، ويعبر وانر وبيرجر عن وجهة نظرهما بقولهما: "من الطبيعي أن تحدث تغييرات بالفعل داخل الاستراتيجيات الموجهة وفيما بينها، وهناك مراجعة للأفكار وإعادة النظر فيها. ومن المؤكد أن هناك مناقشات مكثفة لهذه الأفكار وتحدياً لها. ولا يحدث التطور النظري بصفة متكررة إذا نظرنا إليه من زاوية أن إحدى الاستراتيجيات تؤدي إلى استراتيجية أفضل أو تتولد عنها تلك الاستراتيجية أو تحل محلها" (P. ٧٠٢). ومع أن وانر وبيرجر لا يلمسان تطوراً في أنواع النظريات التي نناقشها في هذا الكتاب^(٢)، إلا أنهما يؤمنان بأن نظريات علم الاجتماع تتطور بالمعنى الأضيق للتطور.

نظرية الفعل

اهتمت المؤلفات التي ظهرت منذ سنوات عديدة مضت عن نظرية علم الاجتماع اهتماماً شديداً بنظرية الفعل (MacIver, ١٩٣٧; Parsons, ١٩٣٤; Znaniecki, ١٩٤٢), ١٩٣١. وخبأ هذا الاهتمام اليوم بنظرية الفعل، على الرغم من أننا سوف نناقش في نهاية هذا الجزء بعض الأعمال الحديثة (Sciulli, ١٩٨٦; Coleman, ١٩٨٦). التي أعادت الحياة بدرجة ما إلى نظرية الفعل.

ونظرية الفعل لها جذورها في أعمال ماكس فيبر عن الفعل الاجتماعي. ومع أن

()

:

()

()

:

()

فيبر طوّق أعماله بافتراضات عن الفاعلين والفعل، إلا أن اهتمامه الحقيقي انصب على القيود الثقافية والبنائية المفروضة على الفاعلين. وبدلاً من أن تركز نظرية الفعل على هذا الجانب من أعمال فيبر، انشغلت بالتحليل على مستوى التفكير والفعل الفرديين. ويتضح ذلك من تلخيص هينكل للمركزات الأساسية لنظرية الفعل على النحو التالي:

- (١) تنشأ الأنشطة الاجتماعية للأفراد من وعيهم بأنفسهم (كفاعلين) Subjects وبالأخرين وبالمواقف الخارجية (كموضوعات للفعل) Objects.
- (٢) أن الأفراد – كموضوعات للفعل – يقومون بأفعالهم لتحقيق مقاصدهم ومراميمهم وأهدافهم وغاياتهم وأغراضهم (الذاتية).
- (٣) أنهم – أى الأفراد – يستخدمون الوسائل والأساليب والإجراءات والطرق والوسائط المناسبة.
- (٤) أن مسارات الفعل بين الأفراد تحددها أوضاع وظروف غير قابلة للتعديل.
- (٥) أن استخدام الإرادة والعقل هو الذى يمكن الأفراد من اختيار وتقدير وتقييم ما سوف يفعلونه وما يفعلونه وما فعلوه.
- (٦) أن المعايير والقواعد والمبادئ الأخلاقية يعتمد عليها الأفراد فى الوصول إلى القرارات.
- (٧) أن أية دراسة للعلاقات الاجتماعية تستوجب من الباحث أن يستخدم أدوات البحث الذاتية مثل الفهم، وإعادة التركيب التخيلى أو الوجدانى، أو الخبرة البديلة (Hinkle, ١٩٦٣: ٧٠٦-٧٠٧).

وهناك بعض الشواهد على أن مدخل الفعل على المستوى المجهري قد سبق به علماء الاجتماع قبل الحرب العالمية الأولى، ومنهم ليستر وارد، وروس، وفرانكلين جيدنجز، والبيون سمول، وشارلز هورتون كولى، على الرغم من أن صلتهم بنظرية الفعل الحديثة صلة ضعيفة. فقد كان معظم علماء الاجتماع الأوائل مشغولين بمسألة التطور المجتمعي على نطاق واسع. وقد ناقشوا الرؤية العلمية الإبداعية للفرد، إلا أنهم كانوا أميل إلى إعطاء المجتمع قوة قسرية على الفرد. وكان الاستثناء من هذا الاتجاه هو كولى الذى وافق على بعض عقائد معاصريه واهتمامهم بالتطور، ومع ذلك فإن ما يصبح مهماً فى الحياة الاجتماعية فى نهاية الأمر هو الوعى الذاتى والمشاعر والأحاسيس والأفكار أو المثل الشخصية التى من خلالها يبدأ الأفراد وينهون أفعالهم تجاه بعضهم بعضاً (Hinkle, ١٩٦٣: ٧٠٩).

وقد أظهر علماء الاجتماع فى الفترة ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى والكساد العظيم ارتباطاً أقوى بنظرية الفعل، ومن أهم هؤلاء العلماء روبرت بلاك، إلتورث

فارس، ويليام توماس، جورج هيربرت ميد، وتالكوت بارسونز^(*). وكان بارسونز الوريث الأساسي للتوجه الفيبري، وكان استخدامه لنظرية الفعل في أعماله المبكرة هو الذى جذب إلى هذا المدخل مؤيدين على نطاق واسع.

نظرية الفعل عند بارسونز

كان بارسونز تواقاً إلى تمييز نظرية الفعل عن النزعة السلوكية. والحقيقة أنه استخدم مصطلح "الفعل" لأن له دلالة تختلف عن دلالة مصطلح "السلوك". فالسلوك يعنى الاستجابة الآلية (الميكانيكية) للمثير، فى حين يدل الفعل على عملية ذهنية إبداعية مفعمة بالنشاط. وكان بارسونز حريصاً على تمييز نظرية الفعل عن النزعة السلوكية، ويعبر عن ذلك بقوله: "إن النظرية - مثل النظرية السلوكية - التى تصر على البحث فى الكائنات الإنسانية بطريقة تستبعد جوانبهم الذاتية ليست نظرية فى الفعل" (-: ٧٧: ١٩٣٧: ٧٨).

وقد أوضح بارسونز (١٩٣٧) منذ البداية أن نظرية الفعل لا يمكنها أن تفسر الأبنية والنظم الاجتماعية تفسيراً ملائماً، مع أنها تستطيع البحث فى أهم صور الحياة الاجتماعية^(١). وكان ذلك نذيراً لما لمسه كثيرون فى الأعمال الحديثة لبارسونز، حيث تخلى كلية عن نظرية الفعل ليتحول إلى الاتجاه الوظيفى - البنائى^(٢)، وهو الاتجاه الأكثر ملاءمة لدراسة الأبنية الاجتماعية والثقافية.

وحدة الفعل

تتمثل الظاهرة الأساسية فى نظرية الفعل عند بارسونز فيما أسماه "وحدة الفعل" التى عرفها فى ضوء أربعة عناصر أولها أنها تدل على وجود فاعل، وثانيها أن وحدة الفعل تتضمن هدفاً أو حالة مستقبلية يتجه إليها الفعل، وثالثها أن الفعل يحدث فى موقف يشتمل على عنصرين: الأشياء التى لا يستطيع الفاعل السيطرة عليها (الظروف) والأشياء التى يمكن للفاعل أن يمارس سيطرته عليها (الوسائل)، وأخرها المعايير والقيم التى تشكل اختيار الفاعل للوسائل المؤدية إلى الأهداف (Parsons, ١٩٣٧). ويعبر بارسونز عن رأيه بقوله: "لا يوجد شئ يشبه الفعل باستثناء أية محاولة للامتثال للمعايير" (٧٦-٧٧: ١٩٣٧). ونلمس فى وحدة الفعل الاهتمامات التكاملية التى شغلت بارسونز طيلة حياته. وعلى الرغم من أن بارسونز بدأ اهتمامه بالفاعلين وأفعالهم، فقد

(*) (-)
()
()
()

ألمح إلى اهتمامه بالوعي بمعنى الاختيار الإرادى للوسائل المؤدية إلى الأهداف، إلا أن هذا الاختيار ليس حراً، مما يشير إلى الاهتمام من جانب بارسونز بالأبنية الاجتماعية التى تقيد الفعل. وهنا تلعب الكينونات الثقافية دوراً أساسياً مثل الدور الذى لعبته فى أعمال بارسونز.

وكان اهتمام بارسونز الأولى بوحدة الفعل مصدر خلط كبير فى تفسير أعماله؛ لأنه ادعى أنه لم يتخلى مطلقاً عن وحدة الفعل حتى فى تركيزه فيما بعد على القضايا ذات النطاق الأوسع. ونظراً لأن بارسونز كان فى أعماله الأولى أشبه كثيراً بمنظرى التفاعلية الرمزية، فإنه يصعب التوفيق بين ذلك وتحليله الوظيفى البنائى – فيما بعد – للأبنية والنظم. ويرى بعض الباحثين (Toby, 1977; J. Turner, 1974) أن هناك قدراً كبيراً من التفاعلية الرمزية فى النظرية البارسونية. ويعبر جاكسون توبى عن ذلك بقوله:

"يعنى بارسونز بالفعل محاولة الأفراد تحقيق أهدافهم المحددة رمزياً فى بيانات محددة رمزياً... ويبدو بارسونز كما لو كان تفاعلياً رمزياً على نهج كولى – ميد – بلومر. ويتعين علينا أن نقول أنه لا توجد تفرقة فكرية مهمة بين الإطار المرجعى للفعل والإطار المرجعى للتفاعلية الرمزية. فكلاهما يؤكد على أن بعض السلوك لدى المشاركين – وهو المعنى الناتج عن تفسيرهم المشترك للرموز المشتركة – يعد أساساً للفهم السوسولوجى".

(Toby, 1977: 2)

وفى تعقيب بارسونز على مقالة جوناتان تيرنر التى يحلل فيها أوجه الشبه بين نظرية الفعل عنده والتفاعلية الرمزية، يتفق بارسونز مع هذا الرأى فى أعماله بقوله:

"عموماً أنا متعاطف تماماً مع هذا الرأى.. واعتقد أن ثمة تداخلاً شديداً بين نظرية التفاعل الاجتماعى – خاصة طرح جورج هربرت ميد لها – ونظرية الفعل.. وليست هاتان النظريتان متطابقتين على الإطلاق".

(Parsons, 1974: 62)

ويتشابه الموقف الذى نتخذه فى هذا الكتاب مع موقف هربرت بلومر (1974) الذى يزعم أنه على الرغم من أن التوجه الأولى للفعل عند بارسونز كان متشابهاً من عدة نواح مع التفاعلية الرمزية، إلا أن جُل نظريته – بدءاً من الفصل الأخير من كتابه "بناء الفعل الاجتماعى" الصادر عام 1937 – كُرس للتحليل الوظيفى البنائى للأبنية الكبرى خاصة ما أسماها بارسونز "الأنساق الاجتماعية والثقافية".

النزعة الاختيارية الإرادية

يرتبط مفهوم النزعة الاختيارية الإرادية Voluntarism عند بارسونز – وهو المفهوم الذى كان موضوعاً لجدال ساخن – ارتباطاً وثيقاً بوحدة الفعل وبقضية المدى الذى يعد عنده بارسونز من أنصار التفاعلية الرمزية. وتتعلق النزعة الاختيارية الإرادية – وهو المفهوم الذى برز فى كتاب بارسونز "بناء الفعل الاجتماعى" الصادر عام ١٩٣٧ – بالفاعلين الذين يُنظر إليهم على أنهم يقومون بالاختيار فى المواقف الاجتماعية (Parsons, ١٩٧٨). ولا يعنى ذلك القول بأن الفاعلين أحرار بصفة كلية فى اختياراتهم، فالنزعة الاختيارية الإرادية ليست مساوية للإرادة الحرة. ومع ذلك فإن النزعة الاختيارية الإرادية تدل دلالة ضمنية بصورة واضحة على وجود العقل والوعى والأفراد الذين يصنعون القرارات. وكان تركيز بارسونز على النزعة الاختيارية الإرادية عام ١٩٣٧ ومعنى هذا المفهوم فى منتهى الوضوح. إلا أن المسألة هى ما إذا كان بارسونز قد تخلى عن هذا المفهوم بعد عام ١٩٣٧، وتحول بمرور الأيام من علم اجتماع الوحدات الصغرى إلى علم اجتماع الوحدات الكبرى. ويعد جون سكوت (١٩٦٣) أقوى مؤيدى فكرة أن بارسونز تخلى عن النزعة الاختيارية الإرادية بعد عام ١٩٣٧ كجزء من تخليه العام عن علم اجتماع الوحدات الصغرى. ويزعم

إطار (٧ - ١)

تالكوت بارسونز: لمحة من حياته

ولد تالكوت بارسونز عام ١٩٠٢ بمدينة كلورادو سبرينجس بولاية كولورادو. وينحدر بارسونز من أسرة دينية وثقافة، فقد كان أبوه رجل دين، وأستاذاً، وصار أخيراً رئيساً لكلية صغيرة. وقد حصل بارسونز على الدرجة الجامعية الأولى من كلية إمبرست عام ١٩٢٤، ثم بدأ رحلة الدراسات العليا فى مدرسة لندن للاقتصاد. وفى العام التالى انتقل إلى هايدلبرج بألمانيا. وقد استحوذ ماكس فيبر على جانب كبير من مساره الأكاديمى فى هايدلبرج. وعلى الرغم من

تابع إطار (٧ - ١)

وفاة فيبر قبل خمس سنوات من وصول بارسونز إلى ألمانيا، فقد ظل تأثير فيبر

جوناثان تيرنر وليونارد بيجلى (١٩٧٣)؛ وانظر أيضاً: Munch, ١٩٨٢) بأن ثمة تواصلًا فى فكر بارسونز؛ مما يعنى أنه لم يتخلى مطلقاً عن مقولة النزعة الاختيارية الإرادية. وفى رأيهما أن خطأ سكوت كان فى مساواة النزعة الاختيارية الإرادية بالإرادة الحرة. فقد كان بارسونز يعتقد دوماً فى أن الاختيار الفردى يتحدد بالمعايير والقيم والأفكار والمواقف وما إلى ذلك.

مشكلات فى نظرية الفعل عند بارسونز

استهلك هدف دمج الفعل والبناء مساحة كبيرة من كتاب بارسونز "بناء الفعل الاجتماعى". وقد لاقى هذا العمل استحسان البعض، فى حين رأى فيه آخرون تشويشاً وخلطاً (انظر على سبيل المثال: Alexander, ١٩٧٨; Menzies, ١٩٧٧).

متواصلًا، واستمرت أزمته فى عقد لقاءات بمنزلها، وهى اللقاءات التى كان بارسونز يواظب على حضورها. وتأثر بارسونز تأثراً بالغاً بأعمال فيبر، وفى النهاية كتب بارسونز أطروحته للدكتوراه فى جامعة هايدلبرج، تلك الأطروحة التى تناولت فى جانب منها أعمال فيبر.

وقد أصبح بارسونز محاضراً فى جامعة هارفارد عام ١٩٢٧، وعلى الرغم من تنقله بين عدة أقسام بالجامعة، إلا أنه ظل بهذه الجامعة حتى وفاته عام ١٩٧٩. ولم يكن تقدمه فى المسار المهني سريعاً حيث لم يحظى بوضع ثابت إلا فى عام ١٩٣٩. وقبل هذا العام بعامين نشر كتابه "بناء الفعل الاجتماعى"، وهو الكتاب الذى لم يقتصر فحسب على تعريف عدد كبير من علماء الاجتماع بأبرز المنظرين فى علم الاجتماع، ولكنه اشتمل أيضاً على أسس نظرية بارسونز نفسه.

وبعد ذلك حقق بارسونز لنفسه تقدماً أكاديمياً سريعاً. فقد أصبح رئيساً لقسم الاجتماع بجامعة هارفارد عام ١٩٤٤، وبعد ذلك بعامين أنشأ قسماً جديداً "قسم العلاقات الاجتماعية"، وصار رئيساً له. ولم يقتصر هذا القسم على علماء الاجتماع وحدهم، بل ضم أيضاً مجموعة من العلماء الاجتماعيين. وفى عام ١٩٤٩

تابع إطار (٧ - ١)

انتخب بارسونز رئيساً للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع. وفى الخمسينيات والستينيات - ومع نشر مؤلفات مثل النسق

ويرى أصحاب هذه الانتقادات أن بارسونز بدأ كتابه كمنظر للفعل بتوجه نحو الوحدات الصغرى، إلا أنه قبل أن يفرغ من تأليف هذا الكتاب وبمرور السنوات تحرك أكثر فأكثر فى اتجاه النظرية الوظيفية البنائية بتوجه نحو الوحدات الكبرى. ويعود بعض الخلط فى كتاب بارسونز إلى عجزه عن التخلي عن مواقفه النظرية القديمة أو دمجها على نحو ملائم مع مواقفه النظرية الجديدة. وفى تقديمه للطبعة الثانية من كتابه "بناء الفعل الاجتماعى" تحدث بارسونز عن تحوله:

"من تحليل بناء الفعل الاجتماعى فى حد ذاته إلى التحليل الوظيفى البنائى للأنساق الاجتماعية. وهذه الأنساق هى بالطبع - فى التحليل النهائى - بمثابة أنساق للفعل الاجتماعى، إلا أن بناء هذه الأنساق لا يُدرس فى صورته الجديدة بلغة الفعل مباشرة، ولكنه يدرس على أنه أنماط مؤسسية".

(Parsons, ١٩٤٩: D)

وهناك وجهة نظر يشارك فيها مينزيس (١٩٧٧) مؤداها أن إحدى المشكلات الأساسية فى كتاب بارسونز "بناء الفعل الاجتماعى" ناتجة عن أنه لم يتم مطلقاً تحوله من نظرية الفعل إلى الوظيفية البنائية، مما ترتب عليه إقامة علاقة متبادلة مشوشة بين هاتين النظريتين فى هذا الكتاب. ولم يكن دمج نظرية الفعل والوظيفية البنائية معاً بالأمر المستحيل أو المنبوذ، بل إن بارسونز لم يتمكن مطلقاً

الاجتماعى عام ١٩٥١ - صار بارسونز أبرز الشخصيات فى علم الاجتماع الأمريكى.

وفى أواخر الستينيات تعرض بارسونز لهجوم من الجناح الراديكالى الناشئ لعلم الاجتماع الأمريكى. فقد أعتبر بارسونز محافظاً من الناحية السياسية، ونظريته محافظة بدرجة عالية، وليست نظريته أكثر من مخطط تصنيفى محكم. وشهدت الثمانينات إحياء الاهتمام بالنظرية البارسونية لا فى الولايات المتحدة وحدها، بل فى أرجاء العالم (Sciulli & Gerstein, ١٩٨٥)، ناهيك عن أن أفكار بارسونز لم ينحصر تأثيرها على المفكرين المحافظين فقط، بل امتد هذا التأثير إلى منظرى الماركسية الجديدة كذلك.

وعند وفاة بارسونز أثنى عدد من تلاميذه الأول - وهم علماء اجتماع ذوو شأن كبير - على النظرية البارسونية وصاحبها. وقدم هؤلاء العلماء فى بحوثهم رؤى مهمة حول بارسونز وأعماله. ولا تشكل اللمحات القليلة التى قدمناها هنا صورة متكاملة عن بارسونز، ولكنها تقدم بالفعل بعض اللمحات المثيرة عن بارسونز ومؤلفاته.

تابع إطار (٧ - ١)

وكان روبرت ميرتون أحد تلاميذ بارسونز عندما كان بارسونز قد بدأ لتوه سلك التدريس فى جامعة هارفارد. وقد أوضح ميرتون - الذى أصبح منظرأ له شأنه - أن الطلاب الذين التحقوا بجامعة

من التوفيق بينهما على نحو ملائم، وانتهى الأمر فى الغالب بتواجد هاتين النظريتين جنباً إلى جنب بدلاً من دمجهما معاً.

وكان استخدام بارسونز المتكرر لتعريفين مختلفين لكثير من المفاهيم الأساسية بمثابة انعكاس لازدواجية توجهه النظرى. فعلى سبيل المثال ذكر كين مينزيس (١٩٧٧) أن بارسونز استخدم فى تعريفه للانحراف كلاً من المدخل الوظيفى - البنائى ليؤكد على إخفاق النسق فى تنشئة الفاعل تنشئة ملائمة؛ ومدخل نظرية الفعل حيث يعرف الانحراف بأنه نزعة تدفع الفاعل إلى أن يتصرف بطريقة تتنافى مع واحد أو أكثر من الأنماط المعيارية النظامية (Parsons, ١٩٥١: ٢٥٠).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن الطابع التكاملى فى كتاب بارسونز جاء مشوشاً؛ لأنه لم يتمكن مطلقاً من التوفيق بين نظرية الفعل عند فيبر (بالطريقة التى فسر بها فيبر) والوظيفية البنائية عند دوركايم. وهذا هو جوهر الغموض والإشكالية فى نظرية الفعل التى نتجه نحو تفكير الفرد وفعله، فى الوقت الذى كرس فيه اثنان من أبرز مناصريها - فيبر وبارسونز - جل اهتمامهما بالقيود التى تفرضها الظواهر الثقافية. ويتضح هذا الغموض عندما ندرك أنه على الرغم من أن فيبر وبارسونز افترضا أن الفاعلين ديناميون ومبدعون، فإن الجانب الأكبر من علم الاجتماع عندهما خصصاه لتحليل القيود الثقافية. وقد كانت نظرية الفعل أكثر

تأثيراً في تطوير نظريات مثل التفاعلية الرمزية والظاهراتية، إلا أن دورها كان ضئيلاً في تطوير النظريات الكبرى التي ينصب تركيزها الرئيسي على المستوى المجتمعي. ونعطي مثلاً على ذلك بمنهج الفهم الذي يعد أداة لفهم العلاقة بين الوعي والفعل، مع أنه أكثر جدوى في فهم القيود المعيارية على الفاعلين. وتتمثل الفكرة هنا في أن يضع علماء الاجتماع أنفسهم مكان الفاعلين الذين يقومون بدراساتهم من أجل فهم القيود المفروضة عليهم.

وبناءً على ما سبق كان وجود قدر من الخلط في بناء نظرية الفعل منذ البداية أحد الأسباب الرئيسية لتضاؤل أهميتها. كما أن معظم الافتراضات الأساسية لنظرية الفعل حول الوعي والفعل والتفاعل استعارتها النظريات الأخرى ذات التوجه المجهري مثل التفاعلية الرمزية والظاهراتية والمنهجية الشعبية، وقامت بمعالجتها بطريقة أكثر اتساقاً. وتنسجم هذه الافتراضات انسجاماً تاماً مع جوانب أخرى لهذه النظريات، بل إنها - أي الافتراضات - أكثر انسجاماً مع هذه النظريات منها مع العناصر الأخرى لنظرية الفعل. ويبدو أن توجه نظرية الفعل نحو الوحدات الكبرى قد ضاع - لسوء الحظ - مع هذه النظريات الأخرى. وعلى الرغم من أن نظرية الفعل لم تتمكن مطلقاً من تحقيق التكامل الملائم بين اهتماماتها على مستوى الوحدات الصغرى واهتماماتها على مستوى الوحدات الكبرى،

هارفارد في تلك الأيام لم يأتوا لكى يدرسوا مع بارسونز، بل ليدرسوا مع بيتيريم سوروكن الذي كان أعلى أعضاء قسم علم الاجتماع منزلة، كما أنه أصبح العدو اللدود لبارسونز:

"لم يلتحق الجيل الأول من الطلاب بجامعة هارفارد ليدرسوا على يد بارسونز، ولم يخطر ببالهم أن يفعلوا ذلك لأبسط الأسباب، وهو أن بارسونز عام ١٩٣١ لم يكن مشهوراً بوصفه عالم اجتماع. وعلى الرغم من أننا كطلاب جننا لندرس على يد سوروكن المشهور، فإن قلة منا ظلت تدرس على يد بارسونز المغمور".

وكانت انطباعات ميرتون عن أول مقرر لبارسونز في النظرية انطباعات مثيرة، خاصة وأن هذا المقرر وضع أساس أحد أكثر كتب النظرية تأثيراً:

"أصبح بارسونز منذ زمن طويل أحد الرجال العظماء لعلم الاجتماع العالمي.. وكان عظيماً في شبابه في عيون عدد قليل منا، وبدأ ذلك مع مقرره الأول في النظرية الذي شكل أساس رائعته "بناء الفعل الاجتماعي" الذي لم يظهر مطبوعاً

تابع إطار (٧ - ١)

إلا بعد مضي خمس سنوات على نشره شفاهياً" (٧٠-٦٩: ١٩٨٠، Merton).

وعلى الرغم من أن الجميع لا يشاركون ميرتون في تقييمه الإيجابي لبارسونز، إلا أنهم يعترفون بما يلي:

فإن ذلك لا يعنى صعوبة تحقيق ذلك^(١).

الأعمال الحديثة فى نظرية الفعل

سعى جيمس كولمان (١٩٨٦) حديثاً إلى

"كانت وفاة بارسونز علامة على نهاية عصر فى علم الاجتماع. وعندما يبدأ عصر جديد بالفعل، فإنه سوف يتحصن بالتأكيد بالتراث العظيم فى الفكر السوسولوجى الذى خلفه لنا" (Merton,) ٧١: ١٩٨٠).

إحياء نظرية الفعل بالعودة إلى جذورها فى كتاب بارسونز "بناء الفعل الاجتماعى" الصادر عام ١٩٣٧. ويشعر كولمان بأن بارسونز ارتكب خطأ بتخليه عن نظريته للفعل التى طورها فى هذا الكتاب ليتحول إلى الوظيفة البنائية. ويتمثل الإدعاء الأساسى عند كولمان فى أنه يتعين علينا ألا ننبد مفاهيم الهدف وتوجيه الهدف والاتزان الحيوى (مثلما يحدث فى التحليلات العلية على مستوى النسق الاجتماعى)، بل ينبغى علينا أن نقصر استخدامها على مستوى الفاعلين فى النسق الاجتماعى، ولا نفترض وجودها بالنسبة للنسق ذاته (١٣١٢: ١٩٨٦). وبذلك حاول كولمان أن يعود بنظرية الفعل إلى جذورها الصغرى، على الرغم من أن الفاعل بالنسبة لكولمان – كما كان بالنسبة لبارسونز – يمكن أن يكون أشخاصاً أو مؤسسات^(٢) (١٣١٢: ١٩٨٦).

وهناك أيضاً محاولة سيولى (١٩٨٦) توضيح معنى الفعل الاختيارى الإرادى وربطه بالدراسات فى مجال النظرية القانونية. وبدون الدخول فى تفاصيل هذه المحاولة، يمكن القول بأن محاولة سيولى الامتداد بنظرية الفعل إلى اتجاهات جديدة – ناهيك عن سعى كولمان إلى العودة بنظرية الفعل إلى جذورها الأصلية – ربما تساعد فى نهاية الأمر على إحياء هذه النظرية.

نظرية النظم

إذا كانت نظرية الفعل قد أقل نجمها منذ أن بلغت الذروة فى الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، فإن نظرية النظم مرت فى أقل من عقدين بصعود مفاجئ، وهبوط مدهل. ولم تستطع نظرية النظم – التى بزغت وأفلت فى الستينيات والسبعينيات – أن تقى بوعدها – وربما لن تستطيع – الذى آلته على نفسها لمناصريها الأوائل. ونتيجة لذلك فقدت هذه النظرية بعضاً من بريقها فى علم الاجتماع، ولا تستحق اليوم أكثر من مناقشة

()

()

مختصرة لها.

ونظرية النظم نتاج مجموعة متنوعة من الأفكار العلمية التي وردت إلى علم الاجتماع من مجالات أخرى منها السيبرنطيقا ونظرية المعلومات وبحوث العمليات ونظرية النظم الاقتصادية (Lilienfeld, ١٩٧٨)، ثم أعيد صياغة هذه الأفكار لتطبيقها على الحياة الاجتماعية. وفي كتابه "علم الاجتماع ونظرية النظم المعاصرة" (١٩٦٧) يجيب والتر بكلي عن سؤال يتعلق بما استفادة علم الاجتماع من نظرية النظم على النحو التالي:

أولاً: لأن نظرية النظم مشتقة من العلوم البحتة، ولأن هذه النظرية – على الأقل من وجهة نظر أنصارها – قابلة للتطبيق على جميع العلوم السلوكية والاجتماعية، فإنها تبشر بلغة مشتركة توحد بين هذه العلوم.

ثانياً: أن نظرية النظم متعددة المستويات ويمكن تطبيقها بدرجة متكافئة على أكبر الوحدات وأصغرها، وأكثر جوانب العالم الاجتماعي موضوعية وذاتية.

ثالثاً: أن نظرية النظم تهتم بالعلاقات المتعددة بين مختلف جوانب العالم الاجتماعي، ومن ثم تتناهض التحليلات الجزئية للعالم الاجتماعي. وتقوم نظرية النظم على حجة مؤداها أن العلاقة المعقدة بين الأجزاء لا يمكن دراستها بعيداً عن سياق الكل. ويرفض أنصار نظرية النظم الفكرة القائلة بأن المجتمع أو المكونات الكبرى للمجتمع يتعين دراستها باعتبارها ظواهر اجتماعية متحدة. ويكون التركيز – بدلاً من ذلك – على العلاقات أو العمليات عند مستويات مختلفة داخل النظام الاجتماعي. ويصف بكلي هذا التركيز بقوله:

"يمكن وصف نوع النظام الذي نهتم به وصفاً عاماً بأنه كل مركب من عناصر أو مكونات ترتبط بعضها ببعض ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر في شبكة علاقات عليية إلى الحد الذي يكون فيه كل عنصر مرتبطاً ببعض العناصر الأخرى على الأقل بدرجة مستقرة تقريباً في أي فترة زمنية محددة". (Buckley, ١٩٦٧: ٤١)

ويقدم ريتشارد بول تصوراً واضحاً للتوجه العلائقي Relational لنظرية النظم، أو ما أسماه "نظرية النظم العامة" GST بقوله:

"تبدأ نظرية النظم العامة بتصوير عملي للواقع على أنه يتألف أساساً من علاقات بين علاقات كما يتضح من مفهوم الجاذبية كما يستخدم في الفيزياء الحديثة. فمصطلح الجاذبية لا يصف كياناً موجوداً على الإطلاق ولا يوجد "شيء" يطلق عليه الجاذبية. فالجاذبية مجموعة من العلاقات. وإذا فكرنا في

هذه العلاقات على أنها كيانات موجودة، فإننا ننزلق بذلك إلى التجسيد. ويتطلب مدخل نظرية النظم العامة أن يطور علماء الاجتماع منطق العلاقات وصياغة الواقع الاجتماعي بلغة العلاقات".

(Ball, 1978: 66)

رابعاً: ينحو مدخل النظم إلى النظر في جميع جوانب النظام الاجتماعي - الثقافي على أنها سلسلة من العمليات المتعاقبة، أو شبكات من المعلومات والاتصالات بصفة خاصة.

خامساً: (وهذا هو الأهم) أن نظرية النظم نظرية تكاملية بطبيعتها. ويرى بكلي في تعريفه لهذه النظرية أنها تتضمن الأبنية الموضوعية الكبرى، وأنساق الرموز، والفعل والتفاعل، والوعي والوعي الذاتي. ويسلم بول أيضاً بفكرة تكامل المستويات: "يتم دراسة الفرد والمجتمع دراسة متكافئة، ليسا بوصفهما كيانيين مستقلين، بل كمجالين مشتركين مترابطين بواسطة عمليات متعددة من التغذية المرتدة" (68: 1978). والحقيقة أن نظرية النظم تتناغم مع التكامل لدرجة دفعت بكلي إلى نقد نزوع علماء الاجتماع الآخرين إلى التمييز بين مستويات التحليل، حيث يقول في هذا الصدد:

"لاحظنا اتجاه علم الاجتماع في معظمه إلى الإصرار على ما يمكن تسميته بالتمييز التحليلي بين الشخصية (داخل الجمجمة)، والأنساق الرمزية (الثقافة) ومصنوفات العلاقات الاجتماعية (النظم الاجتماعية)، وذلك على الرغم من أن الدراسات الفعلية التي قام بها مشايعو هذا التمييز أثبتت أنه مضلل أو أنه لا يمكن الدفاع عنه في الواقع".

(Buckley, 1967: 101)

(لم يكن بكلي منصفاً إلى حد ما في هذا المقام، لأنه فعل نفس الشيء في كتابه. ويبدو أن القيام بالتمييز التحليلي أمر مقبول بشكل واضح بين أنصار نظرية النظم؛ مادام أن ذلك يساعد في فهم أفضل للعلاقات المتبادلة بين مختلف جوانب الحياة الاجتماعية).

وأخيراً: تميل نظرية النظم إلى النظر في العالم الاجتماعي بلغة ديناميكية، وذلك بتسليط اهتمام متزايد على النشوء والديناميات الاجتماعية - الثقافية بصفة عامة (Buckley, 1967: 39).

وقد ناقش بكلي العلاقة بين النظم الاجتماعية - الثقافية، والنظم الآلية والنظم العضوية، كما ركز على الكشف عن الاختلافات الأساسية بين هذه النظم من خلال

متصل يضم عدة أبعاد يتدرج من النظم الآلية إلى النظم العضوية إلى النظم الاجتماعية – الثقافية، بدءاً من أبسط الأجزاء إلى أكثرها تركيباً، ومن أقل الأجزاء استقراراً إلى أكثرها استقراراً، ومن أدنى إلى أعلى درجة ترتبط بها الأجزاء بالنظام ككل.

وتختلف النظم – استناداً إلى أبعاد أخرى – اختلافاً كبيراً لا كميّاً. وتقوم العلاقات التبادلية بين الأجزاء فى النظم الآلية على انتقال الطاقة، وتقوم العلاقات التبادلية بين الأجزاء فى النظم العضوية بدرجة أكبر على تبادل المعلومات منها على الطاقة. أما فى النظم الاجتماعية – الثقافية، فإن العلاقات التبادلية تقوم بدرجة أكبر على تبادل المعلومات.

كما تختلف الأنواع الثلاثة للنظم فى درجة الانفتاح أو الانغلاق، أى فى درجة علاقتها التبادلية مع جوانب البيئة الأكبر. ويكون النظام الأكثر انفتاحاً أقدر بدرجة أفضل على الاستجابة للبيئة بطريقة انتقائية. وبهذا المعنى تكون النظم الآلية مغلقة، والنظم العضوية أكثر انفتاحاً، والنظم الاجتماعية – الثقافية هى الأكثر انفتاحاً بين النظم الثلاثة. وترتبط درجة انفتاح النظام بمفهومين رئيسيين فى نظرية النظم هما: التفتت Entropy أو اتجاه النظم إلى التوقف عن العمل، والتفتت السلبى Negentropy أو اتجاه النظم إلى تطوير الأبنية. وتكون النظم المغلقة مفتتة، أما النظم المفتوحة فتكون مفتتة سلبياً. ويلزم الأنظمة الاجتماعية – الثقافية جهد بدرجة أكبر من النظامين الآخرين. وأخيراً، تكون الأنظمة الاجتماعية – الثقافية هادفة؛ لأنها تتلقى تغذية مرتدة من البيئة بما يساعدها فى استمرار التحرك نحو أهدافها.

وتعد التغذية المرتدة جانباً أساسياً من جوانب المدخل السيبرنطيقى الذى يتخذه أنصار نظرية النظم من النظام الاجتماعى. وهذا يتعارض مع مدخل التوازن الذى يميز عدداً من علماء الاجتماع (مثل بارسونز) الذين ينطلقون – ظاهرياً – من مدخل النظم. ويساعد استخدام التغذية المرتدة أنصار نظرية النظم السيبرنطيقىة من دراسة النشوء والنمو والتطور والتغيرات الفجائية. ويولى هؤلاء المنظرون أهمية خاصة لانفتاح النسق الاجتماعى على بيئته وتأثير العوامل البيئية على النظام.

وتوجد عدة عمليات داخلية تؤثر أيضاً فى النظم الاجتماعية. وهنا يبرز مفهومان آخران مهمان هما الاستقرار المورفولوجى Morphostasis الذى يشير إلى العمليات التى تساعد النسق فى المحافظة على نفسه، والنشوء المورفولوجى Morphogenesis الذى يشير إلى تلك العمليات التى تساعد النسق على التغير والنمو والتطور. وتصبح النظم الاجتماعية باطراد "نظماً وسيطة" مركبة تتوسط بين العوامل الخارجية والنسق. وتساعد بعض هذه النظم الوسيطة النسق فى المحافظة على نفسه، وبعضها الآخر يساعد النسق على التغير. وتصبح هذه النظم الوسيطة باطراد مستقلة ومحددة لأداء النسق.

وبعبارة أخرى تساعد هذه النظم الوسيطة النسق الاجتماعي في أن يصبح أقل اعتماداً على البيئة.

وتقوم هذه النظم الوسيطة المركبة بعدة وظائف في النسق الاجتماعي، فهي تساعد النسق – على سبيل المثال – على أن يتكيف مؤقتاً مع الظروف الخارجية، كما أنها تستطيع توجيه النسق من بيئة قاسية إلى بيئة أكثر ملاءمة، ويمكن لها أن تساعد النسق على أن يعيد تنظيم أجزائه ليتعامل مع البيئة بدرجة أكثر فعالية.

وينتقل بكلي (١٩٦٧) من مناقشة المبادئ العامة إلى تفاصيل العالم الاجتماعي لتوضيح تطبيقات نظرية النظم. ويبدأ بكلي بالمستوى الفردي – حيث انبهر بأعمال ميد – الذي يرتبط فيه الوعي بالفعل. والحقيقة أن بكلي أعاد صياغة إشكالية ميد بلغة نظرية النظم. فالفعل يبدأ بإشارة من البيئة، وتنتقل هذه الإشارة إلى الفاعل. ومع ذلك يصعب هذا الانتقال بفعل الضوضاء في البيئة. وعندما يحدث الانتقال، تزود الإشارة الفاعل بمعلومات يتمكن الفاعل بناءً عليها من اختيار استجابة ما. ويكون الأساس هنا هو امتلاك الفاعل لميكانيزم وسيط هو الوعي الذاتي. وقد ناقش بكلي الوعي الذاتي بلغة نظرية النظم بقوله:

"يعد الوعي الذاتي – بلغة السيبرنطيقا – بمثابة ميكانيزم للتغذية المرتدة الداخلية للنسق التي يمكن مقارنتها بمعلومات أخرى من الموقف أو من الذاكرة، بما يسمح بالاختيار من مجموعة من الأفعال بطريقة هادفة تأخذ في اعتبارها ذات الفرد وسلوكه بدرجة واضحة".

(Buckley, ١٩٦٧:)

(١٠٠)

وليس الوعي – في رأي ميد وأنصار التفاعلية الرمزية ونظرية النظم – منفصلاً عن الفعل والتفاعل، بل هو جزء متمم لهما.

وعلى الرغم من أن بكلي يرى أن الوعي والتفاعل تربطهما علاقة تبادلية ولا يتعين الفصل بينهما، فقد انتقل من الوعي إلى مجال التفاعل. وتتفق أنماط التفاعل (التقليد والاستجابة تحديداً) بوضوح مع رؤية نظرية النظم إلى العالم. والأهم من ذلك أن بكلي ربط مجال التفاعل بين الأشخاص بنسق الشخصية ربطاً مباشراً، ويرى أن كلا منهما يحدد الآخر. وأخيراً ينتقل بكلي إلى تنظيم المجتمع على المستوى الأكبر – خاصة الأدوار والمؤسسات – الذي نظر فيه بمصطلحات نظرية النظم وكما يرتبط بالمستويات الأخرى للواقع الاجتماعي.

ويختتم بكلي بمناقشة بعض المبادئ العامة لنظرية النظم كما تنطبق على المجال

الاجتماعى – الثقافى، وهى:

أولاً: أن أنصار نظرية النظم يسلمون بالفكرة القائلة بأن التوتر حقيقة طبيعية ودائمة وضرورية من حقائق النسق الاجتماعى.

ثانياً: هناك تركيز على ماهية ومصادر التنوع فى النسق الاجتماعى، وهذا التركيز على التوتر والتنوع يجعل من منظور النظم منظوراً ديناميكياً.

ثالثاً: هناك اهتمام بعملية الاختيار على المستوى الفردى وعلى المستوى بين الأشخاص، حيث تكون الاختيارات المتعددة أمام النسق متنوعة ومتغيرة، وهذا ما يضيف مزيداً من الدينامية.

رابعاً: أن المستوى بين الأشخاص يعد أساس نمو الأبنية الأكبر، إذ أن عمليات التبادل والتفاوض والمساومة هى العمليات التى تنبثق منها أبنية اجتماعية وثقافية مستقرة نسبياً.

وأخيراً: على الرغم من الدينامية الملازمة لمدخل النظم، فهناك اعتراف بعمليات الاستمرار والتحول. وفى هذا يقول بكلى: "ينبثق عن التفاعلات المستمرة قدر من التلاؤم والتكيف المستقر إلى حد نسبى" (١٦٠: ١٩٦٧).

وهناك ملاحظة مهمة هى أن هناك أوجه شبه واضحة بين نظرية النظم والمدخل الجدلى على الرغم من أنهما مشتقان من مصادر مختلفة تمام الاختلاف (فنظرية النظم مصادرهما علمية، والمدخل الجدلى مصادرهما فلسفية) ولهما لغة مختلفة (Ball, ١٩٧٨). وتشمل أوجه الشبه التركيز على العلاقات والعمليات والإبداع والتوتر.

نقد نظرية النظم

على الرغم من أن نظرية النظم كانت مثار اهتمام فى بداية ظهورها، إلا أنها أخفقت فى أن تصبغ النظرية الرئيسية فى علم الاجتماع كما كان يأمل معظم أنصارها. وقد وجه روبرت لينفيلد (١٩٧٨) نقده إلى نظرية النظم على عدة أسس، حيث يزعم أن نظرية النظم قد أخفقت عند استخدامها فى علم الاجتماع إلى جانب العلوم الأخرى.

ولتوضيح ذلك يسوق لينفيلد حالة نظام المرور السريع فى منطقة الخليج بسان فرانسيسكو، ذلك النظام الذى يعتمد على مدخل النظم:

"قام نظام المرور السريع فى منطقة الخليج ببناء طرق تتخلل عدة أماكن كانت مهمة نتيجة تأجيل مراحل تشييدها لعدة سنوات مضت. وكانت المحطات الأخيرة فى الحقل، واحتلت المحطات الوسطى أماكن فى

مناطق تجارية مهجورة"

(Lilienfeld, ١٩٧٨: ١٢٣)

كما عثر ليلنفيلد على اخفاقات مماثلة - ليست كثيرة - فى إنتاج أنصار نظرية النظم من علماء الاجتماع.

وينتقد ليلنفيلد الغرور العلمى لهؤلاء المنظرين الذين ينتقون من العلوم ما يؤيد وجهة نظرهم ويتجاهلون ما يعارضها. كما هاجم ليلنفيلد هجوماً عنيفاً ولع هؤلاء المنظرين بالمماثلة بين علم وآخر، تلك المماثلة التى تبدو مثيرة من الناحية الجمالية، ولكنها لا تكون دقيقة بالضرورة. ثم ينتقد ليلنفيلد عمومية نظرية النظم، زاعماً أنها تحقق عموميتها الشاملة على مستوى التجريد فحسب، مع تجاهل الخاص والعينى والواقعى (١٩٧٨: ١٩٢).

ووجد ليلنفيلد أن نظرية النظم على درجة عالية من التأمل النظرى، وهى مشكلة عامة تفاقمت مع انتقال هذه النظرية من العلوم البحتة إلى العلوم الأخرى، حيث أصبحت فضفاضة فى تعريفها وانطباعية فى استخدامها (٢٧٧: ١٩٧٨). ويضيف أن هذه النظرية خليط من التأمل النظرى والبيانات الإمبريقية بما لا يفى بهذا ولا ذاك. وعندما يبحث أنصار نظرية النظم فى العالم الاجتماعى، نجدهم يعانون فى دراساتهم بسبب جهلهم بالطريقة إلى يسير بها هذا العالم. ويزعم ليلنفيلد أنه لا يمكن العثور على نتائج جديدة فى أى علم استناداً إلى نظرية النظم. وأخيراً يعتقد ليلنفيلد أن نظرية النظم لا يمكن اختبارها ولا يمكن البرهنة على صحتها أو خطئها.

ويختتم ليلنفيلد بأنه يتعين النظر إلى نظرية النظم على أنها نسق أيديولوجى أكثر منها مدخلاً عملياً، ويرى فيها شكلاً من أشكال الوعى وطريقة لتفسير وفهم العالم بما يبرر علاقات القوة ويحافظ عليها. ولا يقتصر الأمر على تأييد نظرية النظم - فى رأى ليلنفيلد - للوضع القائم فحسب، بل إن لها أيضاً مضامين تسلطية.

إن مستقبل نظرية النظم يشوبه الغموض. ومع أنها تشد الانتباه بمدخلها التكاملى متعدد المستويات إلى العالم الاجتماعى، إلا أنها بحاجة إلى التغلب على عدد من نقاط الضعف فيها قبل أن تكسب أنصاراً من المهتمين بعلم الاجتماع كما أخذت على نفسها من قبل عهداً بأن تجذبهم إليها.

البنوية

على الرغم من أننا ألقينا بالفعل إطلالة على البنيوية عدة مرات فى هذا الكتاب^(١)، فقد حان الوقت لمناقشة البنيوية مناقشة منظمة. ولكن ماذا يقصد بالبنيوية تحديداً؟ يمكن تعريف البنيوية بأنها البحث عن "القوانين العامة والثابتة للإنسانية التى تنطبق على جميع مستويات الحياة الإنسانية من أشدها بدائية إلى أقصاها تقدماً" (Ekeh, ١٩٨٢: ١٢٨).

وعلى الرغم من أن البنيوية تعد تطوراً حديثاً إلى حد نسبي فى المجال الفكرى عموماً وفى علم الاجتماع خصوصاً، إلا إنها - فى رأى البعض - قيد المراجعة أو حتى الإحلال. وفى حديثها عن البنيوية الفرنسية (التي لا تزال قلب البنيوية بصفة عامة) قالت إديث كورزويل: "إن عصر البنيوية فى باريس قد ولى تقريباً" (٢: ١٩٨٠). وقد كتبت كورزويل (وآخرون) عن تطور "ما بعد البنيوية"، فى حين ناقش آخرون "البنيوية الجديدة" (Wuthnow et al., ١٩٨٤). وعلى الرغم من أن البنيوية ربما تكون قيد التغير أو التغير الراديكالى، فإنها تظل وثيقة الصلة بالنظرية المعاصرة فى علم الاجتماع التى تتأثر بها الآن تأثراً شديداً (Rossi, ١٩٨٢, ١٩٨٣).

جذور البنيوية فى علم اللغة

انبثقت البنيوية من تطورات متنوعة فى مجالات عديدة. ويعد علم اللغة مصدر البنيوية الحديثة ومعقلها الحصين حتى يومنا هذا. وتبرز أعمال فرديناند دي سوسير (١٨٥٨-١٩١٣) فى تطور علم اللغة البنائى بصفة خاصة والبنيوية فى مجالات أخرى عديدة بصفة عامة (Culler, ١٩٧٦). وما يهمنى هنا بصفة خاصة التفرقة التى أقامها سوسير بين اللغة والكلام. فاللغة هى النسق النحوى الشكلى، وهى نسق من العناصر الصوتية التى تحكم العلاقات بينها - كما يعتقد سوسير وأتباعه - قوانين محددة. واتجه كثير من علماء اللغة منذ زمن سوسير إلى اكتشاف هذه القوانين. ووجود اللغة هو الذى يجعل الكلام ممكناً. والكلام هو اللغة الواقعية، أى الطريقة التى يستخدم بها المتكلمون اللغة للتعبير عن أنفسهم.

وعلى الرغم من اعتراف سوسير بدلالة استخدام الناس للغة بطريقة ذاتية أو خاصة فى الغالب، إلا أنه كان يؤمن بأن ذلك لا يمكن أن يكون محل اهتمام عالم اللغة ذى التوجه العلمى. فعلى هذا العالم أن ينظر فى اللغة، أى النسق الشكلى، لا أن ينظر فى الطرق الذاتية التى يستخدم بها الفاعلون للغة.

وقد اتسع مجال الاهتمام بالبناء ليتجاوز اللغة إلى دراسة جميع أنساق الإشارة (العلامات). ويطلق على هذا الاهتمام ببناء أنساق الإشارة "السيميوطيقا" (علم العلامات) الذى جذب إليه كثيراً من المناصرين (Hawkes, ١٩٧٧). وعلم العلامات

أوسع مجالاً من علم اللغة البنائي، لأنه لا يتضمن دراسة اللغة فحسب، ولكنه يشمل أيضاً الأنساق الأخرى للإشارات والرموز مثل تعبيرات الوجه، ولغة الجسد، والنصوص الأدبية، وكل صور الاتصال في حقيقة الأمر.

وتهتم المجالات العديدة التي امتدت إليها البنيوية بالاتصال بطريقة أو بأخرى. وتشمل هذه المجالات: الماركسية، والتحليل النفسي، والفنون التشكيلية، والمسرح والموسيقى، والنقد الأدبي، والفلسفة، والأنثروبولوجيا – وهي أكثر هذه المجالات أهمية بالنسبة لتطور علم الاجتماع البنيوي – خاصة أعمال كلود ليفي – شتراوس (Ehrmann, 1982, Rossi, 1970). وعلى الرغم من وجود أوجه شبه عديدة في استخدام البنيوية في هذه المجالات، إلا أن هناك أيضاً أوجه اختلاف متعددة. والبنيوية – اليوم – أبعد من أن تكون منظوراً موحداً.

البنيوية الأنثروبولوجية: كلود ليفي – شتراوس

تعد الأعمال التي قام بها كلود ليفي – شتراوس في الأنثروبولوجيا أكثر الأعمال أهمية بالنسبة للبنيوية إذا انصب الحديث على علم الاجتماع (أطلقت كورزويل على ليفي – شتراوس "أبو البنيوية" (13: 1980). فقد قدم ليفي – شتراوس بمرور السنين عدداً هائلاً من الأعمال المركبة التي غيرت مجال الأنثروبولوجيا وغيره من المجالات الأخرى تغييراً مثيراً. وتأثر البنيويون في علم الاجتماع تأثراً قوياً بأعمال ليفي – شتراوس.

ومن أسباب اصطباغ أعمال ليفي – شتراوس بالصبغة التركيبية وجود أنماط متعددة من الأبنية فيها. والنمط الأول – وهو الأبنية والنظم الاجتماعية الكبرى للعالم الاجتماعي – هو النمط الذي بذل بشأنه جهداً عظيماً لتفنيد الزعم بأنها أبنية. وعلى الرغم من أن هذه الأبنية والنظم تشكل واقعاً بنائياً بالنسبة لمعظم علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع، فإنها – بالنسبة لليفي – شتراوس – تخفي الأبنية الأساسية الحقيقية للمجتمع.

وهذا يقودنا إلى النمط الثاني الأهم من أنماط البناء في أعمال ليفي – شتراوس، أي النموذج الذي يصوغه العالم الاجتماعي لتوضيح البناء الأساسي للمجتمع. إلا أن هناك نمطاً ثالثاً من أنماط البناء أكثر أهمية في رأي ليفي شتراوس، وهو بناء العقل الإنساني (Leach, 1974). وتأخذ نماذج العالم الاجتماعي التي يصوغها العلماء الاجتماعيون صوراً متشابهة في المجتمعات المختلفة؛ لأن المنتج الإنساني في شتى أرجاء العالم يصدر عن نفس المصدر الرئيسي وهو العقل الإنساني. ويشكل بناء العقل البناء النهائي في أعمال ليفي – شتراوس.

ويمكن أن ننظر ببساطة إلى ليفي – شتراوس على أنه امتداد لأعمال سوسير في

اللغة إلى القضايا الأنثروبولوجية مثل الأساطير (أو الخرافات) في المجتمعات البدائية. ومع ذلك، فقد ذهب ليفي - شتراوس إلى أبعد من هذا، وطبق البنيوية بدرجة أكثر رحابة على كل صور الاتصال. وكان الإيداع الرئيسي لليفي - شتراوس هو إعادة صياغة طائفة عريضة من الظواهر الاجتماعية (مثل أنساق القرابة) كأنساق للاتصال مما يجعلها بالتالي قابلة للتحليل البنائي (Burris, ١٩٧٩). إذ يمكن تحليل تبادل الزوجين - على سبيل المثال - بنفس طريقة تبادل الكلمات، فكلاهما تبادل اجتماعي يمكن دراسته بواسطة استخدام الأنثروبولوجيا البنائية.

ويمكن أن نوضح تفكير ليفي - شتراوس (١٩٦٧) بإعطاء مثال عن أوجه الشبه بين أنساق اللغة وأنساق القرابة:

وأولها أن المصطلحات المستخدمة لوصف القرابة - مثل الفونيمات في اللغة - هي وحدات أساسية للتحليل عند البنيوي.

وثانيها أن مصطلحات القرابة والفونيمات ليس لها معنى في ذاتها، فكلاهما يستمد معناه عندما يكونان أجزاءً متكاملة من نسق أكبر، والبناء الكلي للنسق هو الذي يعطى كل جزء من أجزائه الأساسية معناه.

وثالثها أن ليفي - شتراوس اعترف بأن هناك تبايناً امبيريقياً من وضع إلى آخر في النسق الفونيمي والنسق القرابي، إلا أن هذه التباينات يمكن إرجاعها إلى قوانين عامة مع أنها قوانين ضمنية.

وأخراها أن هذين النسقين نتاج لبناء العقل، ولكنهما ليسا نتاج عملية شعورية، بل هما نتاج بناء منطقي لاشعوري للعقل. وهذان النسقان - جنباً إلى جنب مع البناء المنطقي للعقل الذي انبثقا عنه - يقومان على أساس قوانين عامة.

وقد أخضع ليفي - شتراوس البيانات الأنثروبولوجية للتحليل البنائي بنفس الطريقة التي حلل بها سوسير البيانات اللغوية. وإذا كان علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع أكثر نزوعاً - في هذا الشأن - إلى قبول التقارير الذاتية للمبحوثين، فإن هذه التقارير - بالنسبة لليفي - شتراوس - هي ببساطة المصادر الأساسية التي تصاغ منها الأبنية الأساسية. وكان ليفي - شتراوس في تحليله للمجتمعات البدائية مهتماً بكشف النقاب عن البناء الأساسي لنسقى الأساطير والقرابة، بل وكشف النقاب عن البناء الأساسي للمجتمع برمته.

وعلى الرغم من أن ليفي - شتراوس كرّس اهتمامه بالمجتمعات البدائية، فقد آمن بأن جميع المجتمعات - بما فيها المجتمعات الحديثة - لها بناء أساسي متشابه. وكان تركيزه على المجتمعات البدائية مرجعه أنها أقل تشوهاً وأيسر في اكتشاف بنائها. وبالنسبة للمجتمعات الحديثة تم تطوير مجموعة من النماذج الشعورية أو الأنساق

المعيارية لتوضيح واقعها البنائي. ولم يشوه ليفي - شتراوس أهمية هذه النماذج على نحو تام. فهذه الأنساق المعيارية - بما تتضمنه من تحريف وانحياز - نتاج مهم للناس في المجتمع. ومع ذلك، فهذه الأنساق ليست ذات أهمية قصوى، لأن "المعايير الثقافية ليست أبنية في حد ذاتها" (Levi - Strauss, ١٩٦٧: ٢٧٤).

ويقوم معظم علماء الأنثروبولوجيا بدراسة ما يقوله الناس ويفعلونه، أما ليفي - شتراوس فكان أكثر اهتماماً بالمنتجات الإنسانية لهؤلاء الناس (Rossi, ١٩٧٤, b). فقد كان مشغولاً بالبناء الاجتماعي لهذه المنتجات وليس بمعانيها الذاتية أو جذورها في العمليات الذاتية. وعندما يبحث في المنتجات الإنسانية المتعددة (الأساطير، أنساق القرابة، وغيرهما) كان يهتم بالعلاقات التبادلية بينها والبناء (أو بناء ما على الأقل) هو رسم مخطط لهذه العلاقات المتبادلة. ونظراً لأن الباحث هو الذي يصوغ البناء، فإن اختلاف الباحثين يمكن أن يفضي إلى صياغة أبنية مختلفة. ويتعين فهم نقطتين هنا هما أن الأبنية من صنع الباحثين، وأن هذه الأبنية ليس لها وجود في العالم الواقعي. ويعبر ليفي - شتراوس عن هذا الرأي بقوله: "إن مصطلح البناء الاجتماعي ليست له علاقة بالواقع الإمبريقي، ولكنه متعلق بالنماذج التي تمت صياغتها بمقتضى هذا الواقع" (١٩٦٧: ٢٧١).

ولم يكن ليفي - شتراوس مهتماً - على نحو بسيط - برسم مخطط لبناء المجتمع البدائي البسيط، بل كان اهتمامه منصباً على مقارنة طائفة عريضة من البيانات المتاحة عن عدد من هذه المجتمعات، على أمل أن تؤدي هذه التحليلات المقارنة إلى فهم البناء الأساسي الشائع في جميع المجتمعات. وعلى الرغم من أنه سعى لاكتشاف هذا البناء، إلا أنه لم يتبن وجهة نظر قطعية مؤداها أن الأبنية متشابهة في جميع الأماكن والأزمنة. وعلى العكس من رؤية معظم الباحثين، رأى ليفي - شتراوس مرونة في منظومته.

وقد رفض ليفي - شتراوس التوجهات التقليدية لعلماء الأنثروبولوجيا، حيث نبذ - على سبيل المثال - الفكرة القائلة بأن الأساطير يمكن تفسيرها إما بمحتواها القصصي أو بوظائفها للمجتمع. إذ أن معنى الأساطير ينبغي بحثه عند المستوى البنائي اللاشعوري. ويمكن تقسيم منهجية ليفي - شتراوس في تحليل الأساطير إلى عدة خطوات أولها دراسة عدد من الأشكال المختلفة لأسطورة بعينها. وثانيها عزل العناصر الرئيسية في هذه الأشكال المختلفة. وثالثها رسم مخطط الأنماط المركبة التي تتشابه فيها العناصر الأساسية داخل كل شكل. ورابعها تصميم جدول من التباديل الممكنة بين هذه العلاقات المتشابهة (Levi - Strauss, ١٩٦٣: ١٦). وخامسها أن هذا الجدول نفسه يصبح هو البناء، أي "الموضوع العام للتحليل الذي يمكن أن يفضي عند هذا المستوى فقط إلى علاقات ارتباطية لازمة، وتصبح الظواهر الإمبريقية المدروسة في البداية مجموعة

مؤلفة بين الظواهر الأخرى" (Levi – Strauss, ١٩٦٣: ١٦). وآخر هذه الخطوات أن هذا الجدول أو البناء يتيح للباحث أن يفهم الأسطورة بصفة عامة إلى جانب صياغة فروض حول معنى أسطورة معينة في مجتمع معين.

ويبدو ظاهرياً أن الأبنية عند ليفي – شتراوس هي نفسها الوقائع الاجتماعية عند دوركايم، بمعنى أن كليهما له وجوده المستقل عن الفاعل ويمارس قهراً عليه. ومع ذلك فإن ليفي – شتراوس لم يقيم بتحليلاته على المستوى المجتمعي، أي مستوى الوقائع الاجتماعية. وقد تأثر ليفي – شتراوس بأعمال دوركايم الأخيرة عن التصنيف البدائي أكثر من تأثره بأعماله المبكرة عن الوقائع الاجتماعية. والفاعلون – عند ليفي – شتراوس – ليسوا مقيدون بالوقائع الاجتماعية، فالناس – في رأيه – مقيدون ببناء العقل.

وربما كان سيجموند فرويد – وليس دوركايم – هو الأقرب إلى ليفي – شتراوس في توجهه وتأثيره على دراساته. ويبدو أن ليفي – شتراوس سلم بوجهة نظر التحليل النفسي الفرويدي التي مؤداها أن الفاعلين مقيدون بقوى لاشعورية. وعلى الرغم من أن ليفي – شتراوس كان مهتماً باللاشعور، فإن هناك اختلافاً جوهرياً بينه وبين فرويد حول هذه القضية (Rossi, ١٩٧٤a). فاللاشعور عند فرويد يُفهم إلى حد كبير في سياق مضمونه العاطفي الخفي، والفاعلون مسيروون بالعواطف غير المعروفة لهم على مستوى الشعور. ولم يكن ليفي – شتراوس مهتماً بدرجة واضحة بالجوانب العاطفية للاشعور؛ فقد انصب اهتمامه باللاشعور على "الأبنية المستمرة والمنطقية للعقل" (Rossi, ١٩٧٤a: ١٩). والفاعلون عند ليفي – شتراوس مقيدون لا بالعواطف اللاشعورية، بل بالأبنية اللاشعورية المنطقية لعقولهم. وهنا يعبر ليفي – شتراوس عن اهتمامه باللاشعور بقوله:

"إذا كان النشاط اللاشعوري للعقل يكمن في فرض أشكال على المحتوى كما نعتقد أن هذا هو الحال، وإذا كانت هذه الأشكال في جوهرها متشابهة في جميع العقول: قديمة أم حديثة، بدائية أم متحضرة، فإنه يبدو ضرورياً وكافياً أن نفهم البناء اللاشعوري الذي يشكل أساس كل تنظيم وكل عادة اجتماعية من أجل الوصول إلى مبدأ تفسيري صالح لكل التنظيمات والعادات الاجتماعية الأخرى، مع التسليم بالطبع بأن التحليل قد تم إجراؤه بدرجة كافية".

(Levi – Strauss, ١٩٦٧: ٢١-٢٢)

وتؤدي وجهة نظر ليفي – شتراوس بالطبع إلى مشكلة شائعة في العلوم الاجتماعية، وهي أن العقل ليس قابلاً للملاحظة المباشرة (Scheffler, ١٩٧٠). وهذا ما أدى بليفى – شتراوس إلى التركيز على المنتجات الإنسانية – التي ناقشناها آنفاً – والعلاقات المتبادلة

بينها. ولم يكن اهتمامه هنا بهذه المنتجات في ذاتها، بل بما يمكن أن تخبرنا به عن البناء المنطقي للعقل. ولذلك لم تكن دراساته عن بناء المجتمع البدائي بصفة عامة والأنساق القرابية والأسطورية بصفة خاصة هدفاً في حد ذاته، بل كانت وسائل لمساعدته في فهم الأبنية العقلية الأساسية.

ويبدو أن ليفي - شتراوس في بحثه عن الأبنية الأساسية للعقل قام بتنفيذ مشروع يتشابه مع مشروعات بعض أنصار الظاهراتية على الأقل. ومع ذلك فقد نفر ليفي - شتراوس - شأنه في ذلك شأن معظم البنيويين - نفوراً شديداً من الظاهراتية (Petit, ١٩٧٥). وفي رأيه أن أنصار الظاهراتية سعوا إلى وضع الوعي الذاتي الإنساني في قلب العلوم الاجتماعية، أما البنيويون فإنهم يرون أن الوعي غير قابل للتحليل العلمي. وإذا كان الظاهراتيون (وغيرهم ممن يرتبطون بهذا المدخل مثل أنصار المنهجية الشعبية والوجوديين) يُنظر إليهم على أنهم مشغولون في محاولة أنسنة العلوم الاجتماعية، فإن البنيويين يسعون بوعي ذاتي إلى تجريد هذه العلوم من طابعها الإنساني؛ حيث يرغبون في استبعاد الناس من بؤرة اهتمام العلوم الاجتماعية لتحل محلهم الأبنية المتعددة مثل البناء المنطقي للعقل واللغة والمكونات المتعددة للمجتمع، أو بناء المجتمع بصفة عامة. فقد عبر شارلز ليمير (١٩٧٩) عن سعادته بأن يرى العلوم الاجتماعية تشهد مدخل استبعاد الناس كبؤرة اهتمام لها. وفي رأيه أن البنيويين أن التركيز على الناس - خاصة عملياتهم الذاتية - يؤخر - إن لم يمنع - تطور العلم الاجتماعي. ويحتم الاشتغال بالعلم تحول الاهتمام من الناس إلى بعض أنواع البناء الموضوعي.

ويعنى توجه ليفي - شتراوس إلى الأبنية العقلية واهتمامه بها أنه كان مشغولاً بمشروع شبيه بالمشروع الذي أخذه إيمانويل كانط على عاتقه. وعلى الرغم من وجود أوجه شبه بينهما، إلا أن هناك أيضاً اختلافاً جوهرياً بينهما. فقد سعى كانط كفيلسوف إلى كشف النقاب عن الفئات العقلية الأساسية من خلال الاستبطان أو التفلسف أو كليهما. أما ليفي - شتراوس كعالم اجتماعي فقد رفض هذه المناهج وسعى - بدلاً من ذلك - إلى دراسة أبنية العالم الاجتماعي دراسة إمبريقية من أجل تسليط الضوء على الأبنية العقلية. وهكذا يبدو لنا أنه على الرغم من أن ليفي - شتراوس كان يقوم بعمل يشبه أعمال عدد من المفكرين الآخرين، فإن الفحص الدقيق يشير إلى وجود اختلافات مهمة بينه وبينهم جميعاً. وهذا يعد - في الحقيقة الأمر - مقياساً على الإسهام المتميز والمهم الذي قدمه ليفي - شتراوس إلى العلوم الاجتماعية.

وتخلص كورزويل إلى نتيجة قاسية إلى حد ما تعبر عنها بقولها: "إن البنيوية كما تخيلها ليفي - شتراوس أصبحت في ذمة التاريخ. ولم تظهر الأبنية العقلية العامة في الواقع، ولم يعد هناك أحد يبحث عنها" (١٠: ١٩٨٠). ومع ذلك تعترف كورزويل أن

ليفى - شتراوس وضع أساس أنواع أخرى من البنيوية وما بعد البنيوية أيضاً.

الماركسية - البنائية

يوجد إلى جانب البنيوية الأنثروبولوجية عند ليفى - شتراوس شكل آخر مختلف ومهم من أشكال البنيوية هو الماركسية البنائية الفرنسية التى ناقشناها فى الفصل الرابع⁽¹⁾.

ونركز فى هذا الجزء على ما يميز الماركسية البنائية الفرنسية ويفرقها عن الأشكال الأخرى المختلفة للبنيوية خاصة بنويوية ليفى - شتراوس. ومع ذلك نطل فى البداية إطلالة على أوجه الشبه بين البنيوية بصفة عامة والماركسية البنائية (Glucksmann, 1974)، أو بعبارة أخرى الأسباب التى تجعل أعمال التوسير وبولانتراس وغيرهما تندرج تحت البنيوية.

ومع أننا ذكرنا فيما مضى أن البنيوية الحديثة بدأت مع أعمال سوسير فى علم اللغة، فإن هناك من يزعم أنها بدأت مع أعمال كارل ماركس "عندما افترض أن البناء لا ينبغى خلطه مع العلاقات المنظورة، وفسر منطقتها الخفى، فقد استهل بذلك التقليد البنيوى الحديث" (Godelier, 1972b: 336). وعلى الرغم من اهتمام كل من الماركسية البنائية والبنيوية عموماً بـ"الأبنية"، فإن كل مجال صاغ مفهوم البناء بطريقة مختلفة.

ويشارك بعض الماركسيين البنائيين - على الأقل - البنيويين الاهتمام بدراسة البناء كمطلب ضرورى لدراسة التاريخ، ويعبر موريس جودلييه عن ذلك بقوله: "إن دراسة الأداء الوظيفى الداخلى للبناء لا بد أن تسبق دراسة نشوئه وتطوره" (1972b: 343). وفى دراسة أخرى يقول: "إن المنطق الداخلى لهذه الأنساق يتعين تحليله قبل تحليل نشوئها" (1972a: xxi). وهناك وجهة نظر أخرى يشترك فيها البنيويون والماركسيون البنائيون، وهى أن البنيوية ينبغى أن تهتم بالأبنية أو الأنساق التى تشكلت نتيجة لتفاعل العلاقات الاجتماعية. وتتنظر كلتا المدرستين إلى الأبنية على أنها شئ حقيقى (ولو أنه غير منظور)، على الرغم من أنهما تختلفان اختلافاً بيناً حول ماهية البناء الذى تعدانه شيئاً حقيقياً. فالبناء الحقيقى - عند ليفى - شتراوس - هو النموذج، وعند الماركسيين البنائيين هو البناء الأساسى للمجتمع.

والشئ الأكثر أهمية هو أن البنيوية والماركسية البنائية تنبذان النزعة الإمبيريقية، وتهتمان بالأبنية الأساسية غير المنظورة. ويزعم جودلييه أن "ما يرفضه كل من البنيويين والماركسيين هو التعاريف الإمبيريقية لما يشكل بناءاً اجتماعياً" (1972a:)

(xviii). يقول جودلييه:

"البناء عند ماركس وليفي - شتراوس ليس واقعاً منظوراً يمكن ملاحظته ملاحظة مباشرة، ولكنه مستوى الواقع الموجود فيما وراء العلاقات المنظورة بين الناس، والأداء الوظيفي الذي يتشكل منه المنطق الأساسي للنسق، والنظام التحتي الذي يمكن به تفسير النظام المرئي".
(Godelier, 1972a: xix)

وقد ذهب جودلييه إلى أبعد من ذلك ليزعم أن هذا النهج يعرف جميع العلوم على النحو التالي: "ما هو منظور هو واقع يخفى واقعاً آخر أعمق وخفى، واكتشاف أى منهما يمثل الهدف الحقيقي للمعرفة العلمية" (1972a: xxiv).

وعلى الرغم من أوجه الشبه بين الماركسية البنائية والبنوية، فإن هناك عموماً اختلافات أساسية بين البنوية (الماركسية وغير الماركسية) والاتجاه الرئيسي للنظرية الماركسية على الأقل. وأول هذه الاختلافات أن هاتين المدرستين تستخدمان ضرباً مختلفة من المنطق، فالماركسيون بصفة عامة يتبنون الاستنتاج الجدلي، في حين نجد البنيويين أكثر نزوعاً إلى استخدام العقل التحليلي. ويدافع البنيويون عن الحاجة إلى إجراء دراسات أنية (متزامنة)، أما الماركسيون فهم أكثر ميلاً إلى المطالبة بالتحليلات التتبعية. وينزع الماركسيون ذوو النزعة الإنسانية إلى التركيز على الفاعل الإنساني، أما البنيويون (الماركسيون وغير الماركسيين) فيرون أن هذا التركيز غير علمي (Burris, 1969). ويؤمن الماركسيون بأن النظرية يمكن أن تساعد في التغيير الاجتماعي. أما البنيويون فيزعمون أن الناس خاصة في المجتمع الحديث - مع التسليم بعمومية أبنية معينة - ينزعون إلى إضفاء الطابع الأسطوري على العالم الاجتماعي، وأن فرص التغيير السياسي الهادف فرص ضئيلة (Glucksmann, 1974).

وربما يكمن الاختلاف الأخير بين البنوية بصفة عامة والماركسية عموماً في مستويات التحليل لديهما. وبلغة فال بوريس (1979) فإن الاختلاف هنا هو بين المادية والنزعة الاختزالية النفسية. إذ يميل الماركسيون إلى التركيز على أبنية المجتمع (الاقتصادية، والسياسية، والأيدولوجية)، في حين يهتم البنيويون بالأبنية العميقة للعقل. ولذلك اهتم ماركس ومعظم الماركسيين بالمنطق الأساسي للأبنية الكبرى للمجتمع الرأسمالي. ومع أن البنيويين قد يهتمون بالأبنية الكبرى، إلا أن ذلك لا يكون - في العادة - هدفاً في ذاته، بل هو مجرد وسيلة فقط لفهم الفاعل النهائي، وهو بناء العقل. ويهتم البنيويون بالمستوى المجتمعي، كما يهتم بعض الماركسيين بأبنية العقل، إلا أن هناك اختلافاً أساسياً في هذا الاهتمام.

ومن المفيد في هذا السياق أن نؤكد على ملاحظة أرباها جودلييه الذي كان في وضع أفضل لتحليل العلاقة بين الماركسية البنائية الفرنسية والبنوية، على أساس أنه كان ماركسياً بنائياً فرنسياً نهل من بنوية ليفي - شتراوس. ومع أن جودلييه اعترف بوجود قدر من التداخل والاختلاف بين الماركسية البنائية والبنوية، إلا أنه نادى بالتكامل بينهما حتى يمكن دمج نقاط القوة فيهما وتجاوز نقاط الضعف. وفي مناقشته لنقاط الضعف في أعمال ليفي - شتراوس على سبيل المثال يقول جودلييه:

"ما ينقص أعمال ليفي - شتراوس هو تحليل الوظائف الدقيقة لهذه الصور من التفكير، وانتشار هذه الصور من الأيديولوجيا في المستويات الأخرى للواقع الاجتماعي، وشروط تحولها ... ولذلك فإن تجاوز ما تعنيه المورفولوجيا البنائية يعني محاولة تفسير صور ووظائف وأساليب التمثيل وشروط تحول الأبنية الاجتماعية في المجتمعات العيانية التي يقوم بدراستها المؤرخ وعالم الأنثروبولوجيا. ومن أجل إنجاز هذه المهمة المعقدة على نحو دقيق - والتي تستوجب الجمع بين عدة مداخل نظرية - لا بد أن يكون الفرض المحوري هو فرض الحتمية عند ماركس، أي صور المجتمعات وتطورها التي تحتمها شروط إنتاج وإعادة إنتاج الحياة المادية".

() Godelier, 1972a:

(zli

ويبدو أن جودلييه متعاطف بصفة أساسية مع الماركسية، إلا أن التكامل الحقيقي بين الماركسية البنائية والبنوية يستلزم الالتفات الجاد إلى نقاط القوة والضعف في هذين الاتجاهين.

البدائل السوسيولوجية

جذبت البنوية إليها عدداً من علماء الاجتماع خاصة أولئك الذين كان توجههم نحو تطوير علمية علم الاجتماع (Goddard, 1976). فالبنوية تمثل نسفاً من التفكير على درجة عالية من التجريد تسمح بقدر كبير من الدقة التحليلية. كما أنها تبشر بإمكانية بقاء النماذج الصورية إلى جانب استخدام الأساليب الإحصائية والرياضية المتطورة. ويبدو أنها تقدم أيضاً منظوراً تاريخياً عن الحياة الاجتماعية، علاوة على أنها تقدم منظوراً ذي مجال رحب قادر على دراسة كل شيء من بناء العقل إلى بناء المجتمع إلى بناء العالم الطبيعي.

ولهذه الأسباب وغيرها انجذب بعض علماء الاجتماع إلى التوجه البنيوي في السنوات الحديثة. فقد سعى بعض أنصار المنهجية الشعبوية – وأبرزهم آرون سيكوريل – إلى استخدام هذا التوجه. ويزعم سيكوريل أن علماء المنهجية الشعبوية عليهم الاهتمام بالإجراءات التأويلية الأساسية للفاعلين التي يراها شبيهة بالقواعد النحوية الأساسية (٢٧: ١٩٧٤). ومما يلفت النظر أن سيكوريل – انطلاقاً من جذوره المتأصلة في المنهجية الشعبوية كعلم اجتماع إبداعي – نظر في هذه الأبنية العميقة بطريقة لا حتمية، بمعنى أنها تولد استجابات إبداعية للمواقف الاجتماعية.

بنيوية جوفمان

إن أعمال إرفنج جوفمان – خاصة أعماله الأخيرة ومنها "تحليل الإطار" (١٩٧٤) – تعطينا مثلاً على التحول نحو البنيوية. ويذهب جورج جونوس إلى أن أعمال جوفمان تمثل "شكلاً أمريكياً من أشكال البنيوية المعاصرة" (٨٥٤: ١٩٧٧). وقد نظر جوفمان فيما وراء وخلف مواقف الحياة اليومية بحثاً عن الأبنية التي تحكمها بطريقة غير منظورة. وهذه الأبنية هي بمثابة "مخططات للتفسير تمكن الأفراد من تحديد وفهم الأحداث التي تحدث في محيط حياتهم وفي العالم ككل. وتقوم الأطر – من خلال تصوير الأحداث الهادفة – بوظيفة تنظيم الخبرات وتوجيه الفعل سواء أكان فعلاً فردياً أم فعلاً جمعياً" (٤٦٤: ١٩٨٦: Snow et al.). وقد أطلق جوفمان على هذه الأبنية غير المنظورة "الأطر". وعلى الرغم من أن المواقف قد تختلف في خصائصها، فإن الأطر تحتفظ بقواعد مستقرة نافذة المفعول. ويتحدث جونوس عن خصائص بنائية أخرى للأطر بقوله:

"يمكن أن نشق بعض الخصائص الأساسية للأطر من تحليلات جوفمان لأنشطة معينة مؤطرة. فالإطار لا يفهم على أنه دمج غير مترابط لمجموعة من العناصر في فترة زمنية قصيرة، بل إنه يتألف من عدد من العناصر الأساسية ذات تنظيم محدد وعلاقات مستقرة. ولم يتم تجميع هذه العناصر من هنا وهناك مثل عناصر موقف ما، بل توجد معاً بصفة دائمة كنسق. وتكون العناصر القياسية مترابطة ومتكاملة. أما العناصر الأخرى الأقل أهمية فهي موجودة في أي مثال إمبيريقى، وتضفى بعضاً من خصائصها على الكل... وبهذا المعنى تقترب الأطر في المفهوم اقتراباً شديداً من الأبنية".

(Gonos, ١٩٧٧:)

(٨٦٠)

وتعد الأطر فى رأى جورج جونوس (١٩٨٠) - إلى حد كبير - بمثابة قواعد أو قوانين تحدد التفاعل. وتكون القواعد - فى العادة - لاشعورية وغير قابلة للتفاوض. ومن تلك القواعد التى ذكرها جونوس ما يحدد كيفية تفسير الإشارات، وارتباط المؤشرات الخارجية بالذات، وماهية الخبرات التى تصاحب النشاط (١٦٠ : ١٩٨٠). ويخلص جونوس إلى أن إشكالية جوفمان لا تدعم بالتالى دراسة التفاعل الملحوظ للحياة اليومية فى حد ذاته، وإنما تدعم دراسة بنائه وأيديولوجيته الدائمين، ولا تدعم دراسة المواقف، وإنما تدعم دراسة أطرها (p. ١٦٠). ويبدو أن جوفمان قدم مفهوماً لأبنية التفاعل يبشر بإمكانية التكامل مع الأبنية عند ليفى - شتراوس والأبنية الكبرى عند الماركسيين البنائيين الفرنسيين.

معوقات قبول البنيوية فى علم الاجتماع

لم تحقق البنيوية - رغم هذه الاتجاهات التى عرضنا لها آنفاً - قبولاً واسع الانتشار فى علم الاجتماع. وهناك بعض المعوقات الصعبة التى يتعين التغلب عليها. وفى رأى ديفيد جودارد (١٩٧٦) أن البنيوية ليس لديها فقط القليل الذى تقدمه إلى الاهتمامات التقليدية فى علم الاجتماع، بل إنها تشكل أيضاً تهديداً عميقاً لهذه الاهتمامات. فالبنويون يولون اهتماماً ضئيلاً بصفة عامة بالموضوعات الصغرى التقليدية فى علم الاجتماع مثل الوعى الإبداعى، والفاعلين، والفعل، والسلوك، والتفاعل. ويصعب أن نعثر فى البنيوية على الفاعل ومختلف العمليات على المستوى الفردى، ناهيك عن استحالة تطبيق البنيوية - باستثناء الماركسية البنائية الفرنسية - على الاهتمامات الكبرى التقليدية لعلماء الاجتماع:

"نقولها بفظاظة إنه إذا كانت ثمة قوانين للتنظيم البنائى فى المجتمعات الكبيرة غير المتجانسة - تلك القوانين المتعلقة بظواهر مهمة كالطبقة والبيروقراطية والقوة والتغير والنمو والتضامن والعلاقات التبادلية المتنوعة بين تلك الظواهر - فإن التحليل البنائى ليس بوسعه تقديم الافتراضات الضرورية والمناهج أو النظريات التى تقود إلى اكتشاف مثل هذه القوانين".

(Goddard, ١٩٧٦:)
(١٢٦)

وتمثل البنيوية فى رأى جودارد وكثيرين غيره هجوماً مباشراً على المقدمات المنطقية الأساسية لعلم الاجتماع. والحقيقة أن جودارد رأى أن هناك توابع رهيبية سوف تترتب على تبني علم الاجتماع للنموذج البنيوى؛ لأن هذا المدخل سوف "يعرض المقدمة

المنطقية الرئيسية لعلم الاجتماع للخطر ... تلك المقدمة القائلة بأن الأفكار والرموز تتشكل في سياقها المادى لبيئة اجتماعية معينة. وهذا يعنى التخلّى كلية عن فكرة النزعة المادية فى علم الاجتماع التى دشنت علم الاجتماع كعلم خاص" (١٣٢: ١٩٧٦). وسوف يصعب على البنيوية - فى زخم هذه الهجمات الشرسة - أن تحقق قبولاً عاماً فى علم الاجتماع.

ما بعد البنيوية: أفكار ميشيل فوكوه

ننتقل الآن إلى أفكار منظر فرنسى معاصر هو ميشيل فوكوه (١٩٢٦-١٩٨٤) الذى ارتبطت أعماله بكل من البنيوية وما بعد البنيوية. وعلى الرغم من أن أعمال فوكوه انتشرت خارج حدود علم الاجتماع، إلا أنه من الواضح أن هناك علم اجتماع أو ربما علوم اجتماع متعددة فى تلك الأعمال (Smart, ١٩٨٥). فهذه الأعمال كانت متنوعة شملت اهتمامات منهجية (١٩٦٩; Foucault, ١٩٦٦) إلى جانب دراسات إمبيريقية خاصة عن الجنون ومستشفى الأمراض العقلية (Foucault, ١٩٦٥)، والطب وميلاد العيادة الطبية (Foucault, ١٩٧٥)، والجريمة ونظام السجون (Foucault, ١٩٧٩)، والجنس والضبط الاجتماعى للسلوك الجنىسى (Foucault, ١٩٨٥, ١٩٨٠).

ولا تقتصر أهمية هذه الأعمال على نظرية علم الاجتماع فحسب، ولكنها تمس أيضاً عدة فروع داخل علم الاجتماع. وإلى جانب شمول أعمال فوكوه لموضوعات متعددة، فقد ذاع انتشارها وأصبحت عرضة لتفسيرات متعددة. ومما يزيد الأمر تعقيداً وغرابة ما قاله فوكوه عن نفسه: "لا تسألنى من أنا، ولا تسألنى أن أظل كما أنا على طول الخط" (١٧: ١٩٦٩). والحقيقة أن فوكوه لم يظل كما هو على طول الخط، فقد أظهرت أعماله تحولات هامة طيلة مساره الأكاديمى.

وتكشف أعمال فوكوه أيضاً عن تنوع فى مداخلته النظرية (Smart, ١٩٨٥). ذلك التنوع الذى جعل تلك الأعمال استفزازية وعسيرة على الفهم. يضاف إلى ذلك أن أفكاره لم يتم تبنيها على نحو بسيط من المفكرين الآخرين، بل تم تحويلها لتندمج فى التوجه النظرى الفريد عند فوكوه. ومن ثم كان لنظرية فيبر عن الترشيح تأثير على فوكوه، إلا أننا نجدها فى مواضع أساسية معينة فقط، والترشيح ليس قفصاً حديدياً، بل إن هناك مقاومة دائمة. وتوجد الأفكار الماركسية (Smart, ١٩٨٣) فى أعمال فوكوه، إلا أنه لم يحصر نفسه فى الاقتصاد، فقد ركز على طائفة من النظم، وكان أكثر اهتماماً بالقوة على المستوى المجهرى منها بالاهتمام الماركسى التقليدى بالقوة على المستوى المجتمعى. كما مارس التأويل (الهرمنوطيقا) من أجل فهم للظواهر الاجتماعية التى تهتم. يضاف إلى ذلك أن فوكوه لم يكن لديه حس بالحقيقة المطلقة العميقة، وكل ما فى الأمر أن هناك أغصاناً يتعين تفسيرها. وهناك تأثير للفلسفة الظاهراتية على فوكوه، إلا أنه رفض فكرة الفاعل

المستقل الهادف. كما أن هناك عناصر مؤثرة للبنىوية في أعماله دون التسليم بوجود نموذج صوري للسلوك تحكمه القواعد. وأخيراً – وهذا هو الأهم – نجد فوكوه يتبنى اهتمام نيتشه بالعلاقة بين القوة والمعرفة، إلا أن هذه العلاقة قام فوكوه بتحليلها بطريقة يغلب عليها الطابع السوسولوجي.

وعلى الرغم من أن هناك عدداً من المسميات النظرية التي تنطبق على فوكوه، إلا أننا أترنا أن نناقش أعماله تحت المسمى العام للبنىوية وما بعد البنوية بصفة خاصة. وسوف نرى فيما بعد أن البنوية كان لها تأثير قوى على الأعمال المبكرة لفوكوه، إلا أن أهميتها تراجع في أعماله الأخيرة (ومن هنا جاء وصفه بلقب "البنىوي"). ولا يقتصر الأمر على التفكير في فوكوه بوصفه من منظري ما بعد البنوية فحسب، بل يمكن كذلك أدرجه ضمن منظري ما بعد الحداثة. وإذا ربطنا الحداثة بمصطلحات مثل الرشد، والهدف، والشمولية، والتركيب، والحتمية، فإن ما بعد الحداثة تجسد عالماً يتصف بمفاهيم مضادة مثل اللارشد، والمناورة، وتحلل البنية، والتناقض، واللاحتمية (Theory, Culture & Society, ١٩٨٥). وسوف نلاحظ كيف نظر فوكوه إلى العالم بهذه الطريقة بعد الحداثة.

ومن الواضح أن فوكوه منظر يتعين أن نقف عنده بعض الوقت، وتستمر أعماله في جذب الاهتمام ولفت الأنظار إليها. ولن نفلح في هذا الجزء المختصر أكثر من تعريف القارئ بأعماله بأن نلقى إطلاقة في البداية على مشروعه النظري، ثم نعرض على بعض دراساته الخاصة.

كان فوكوه (١٩٦٦) يقوم بما أسماه "أركيولوجية (علم الآثار) المعرفة" في أعماله المبكرة عن علم المناهج. وتمثلت موضوعات الدراسة عنده في أبنية المعرفة والأفكار وأشكال الخطاب. وقابل فوكوه أركيولوجية المعرفة عنده بالتاريخ وتاريخ الأفكار اللذين يعتبرهما على درجة عالية من الرشد، وهناك قدر كبير من التواصل في تاريخ المعرفة. ويؤكد آلان شيريدان أن أركيولوجية المعرفة عند فوكوه احتوت على البحث عن "مجموعة من قواعد التشكيل التي تحدد شروط إمكانية كل ما يمكن أن يقال في خطاب معين في أية فترة زمنية معينة" (٤٨ : ١٩٨٠). وهنا نلمس بوضوح تأثير البنوية. فقد أراد فوكوه دراسة الأحداث المنطقية، والنصوص الخطابية والمكتوبة. واهتم بصفة خاصة بالنصوص المبكرة في تاريخ مجال ما بهدف الكشف عن الشروط الأساسية التي تجعل الخطاب ممكناً. ولا تأتي وحدة هذه النصوص والطريقة التي تشكل بها علماً أو منظومة علمية من الفاعل، بل تأتي من القواعد والممارسات المنطقية الأساسية. وبعبارة أكثر تحديداً كان فوكوه مهتماً بالممارسات المنطقية الأساسية التي شكلت أساس الخطاب العلمي خاصة في مجال العلوم الإنسانية. وقد تخلى فوكوه فيما بعد عن هذا المدخل

البنوي في أعماله المبكرة؛ لأنه يغفل قضية القوة جنباً إلى جنب مع الصلة بين المعرفة والقوة.

وتجسد عبارة "جينولوجية (علم أنساب) المعرفة" توجهاً تالياً عند فوكوه (١٩٦٩)، وهنا نجد استيعاباً بدرجة كبيرة من نيته فيلسوف القوة. وقد اهتم فوكوه بالكيفية التي يتحكم بها الناس في أنفسهم وفي الآخرين من خلال إنتاج المعرفة، وهو يرى أن المعرفة – ضمن أشياء أخرى – تولد القوة بتشكيل الناس كفاعلين ثم التحكم في الفاعلين بالمعرفة. وكان فوكوه ناقداً لتدرج المعرفة. ونظراً لأن أعلى صور المعرفة (العلوم) رتبة لها القوة الأعظم، فإنها تكون عرضة لأقصى أنواع النقد. واهتم فوكوه بالأساليب، أي التقنيات المستمدة من المعرفة (خاصة المعرفة العلمية)، وكيف أنها تستخدم بواسطة النظم (المؤسسات) المتعددة لممارسة القوة على الناس. وعلى الرغم من أن فوكوه رأى صلات بين المعرفة والقوة، إلا أنه لم ير أن هناك مؤامرة من جانب أعضاء الصفوة في المجتمع. فمثل هذه المؤامرة تدل دلالة ضمنية على وجود فاعلين واعين، في حين أن فوكوه كان أكثر نزوعاً إلى النظر في العلاقات البنائية خاصة بين المعرفة والقوة. وبالفحص على امتداد التاريخ لم ير فوكوه تقدماً من البهيمية البدائية إلى النزعة الإنسانية الحديثة استناداً إلى نظم معرفية أكثر تعقيداً. وبدلاً من ذلك ينظر فوكوه إلى التاريخ على أنه يتأرجح من نظام ما للسيطرة (القائمة على المعرفة) إلى نظام آخر. وعلى الرغم من هذا التصور الكئيب في عمومها، إلا أن فوكوه يعتقد – على الجانب الإيجابي من هذا التصور – أن هناك صراعاً دائماً في علاقة المعرفة بالقوة، وهناك مقاومة مستمرة دوماً لهذه العلاقة. وقد نظر فوكوه في الشواهد التاريخية، إلا أن اهتمامه الأساسي انصب على العالم المعاصر. ويعبر عن ذلك بقوله أنه "يكتب تاريخ الحاضر" (Foucault, ١٩٧٩: ٣١).

وفي سياق هذه الخلفية دعونا ننظر في بعض الأعمال الرئيسية لفوكوه. ففي كتابه "الجنون والحضارة" (١٩٦٥) كان يقوم بأركيولوجية المعرفة خاصة أركيولوجية التحليل النفسي. وبدأ فوكوه بعصر النهضة حيث لم ينفصل الجنون عن العقل. ومع ذلك ترسخ هذا الانفصال بين عامي ١٦٥٠ و ١٨٠٠ (الفترة الكلاسيكية). وفي النهاية أصبح العقل يستعبد الجنون. وبعبارة أخرى يصف فوكوه "حواراً مبتوراً" بين العقل والجنون (Foucault, ١٩٦٥: x). ويصف فوكوه المحصلة النهائية لذلك بقوله:

"هنا يسود العقل في حالته النقية، وفي انتصار أعد له مقدماً على نوبة الجنون. ولذلك أنتزع الجنون من تلك الحرية الخيالية التي سمحت له بالازدهار في الأفق العقلي لعصر النهضة. ويعد ذلك بفترة قصيرة ازدهار متعثراً في وضوح النهار: في الملك لير وفي دون كيشوت. وفي أقل من نصف قرن انفصل الجنون في حصون السجون والعقل وقواعد الأخلاق

وعن ليااليه الرتبية".

(Foucault, ١٩٦٥:)

(٦٤

ويبدو واضحاً هنا الخيال الفييرى عن القفص الحديدى؛ أى اللياالى الرتبية التى يتعين على المجنون (اللاعقل) أن يقضيها فى القفص الحديدى الذى صنعه أصحاب العقول (الرشد).

لقد برز علم النفس فى القرن التاسع عشر فى آخر الأمر نتيجة الفصل بين المجنون والعاقل فى القرن الثامن عشر (يطلق على التحليل النفسى: "حديث العقل عن الجنون") (Foucault, ١٩٦٥: zi). وفى بداية الأمر كان الطب مسئولاً عن العلاج البدنى والنفسى (المعنوى) للمجنون، وفيما بعد تولى الطب النفسى مسئولية العلاج النفسى. وقد أصبح الطب النفسى ممكناً بعد ما صار الجنون إثمًا (١٨٣-١٨٢ PP). ثم يستطرد فوكوه قائلاً: "إن ما نسميه ممارسة التحليل النفسى هو أسلوب أخلاقى معين معاصر لنهاية القرن الثامن عشر، يصون حقوق الحياة فى مستشفى الأمراض العقلية، وتغلفه أوهام الوضعية" (P. ٢٧٦). ومن ثم فإن علم النفس (والتحليل النفسى) عند فوكوه هو مشروع أخلاقى، وليس محاولة علمية، موجه ضد المجانين الذين يعجزون باطراد عن حماية أنفسهم من هذه المساعدة. ويرى فوكوه أن المجنون محكوم عليه بعقوبة ما يسمى بالتقدم العلمى نحو "السجن المعنوى (النفسى) الضخم".

وغنى عن القول أن فوكوه نبذ هنا فكرة أننا عاصرنا بمرور السنين تقدماً علمياً وطبياً وإنسانياً فى علاج المجنون. وما عاصرناه - بدلاً من ذلك - هو تزايد قدرة العقلاء وممثلهم (الأطباء، وعلماء لنفس، والمحللون النفسيون) على اضطهاد وقمع المجانين الذين كانوا - ويجب ألا ننسى ذلك - على قدم المساواة مع العقلاء فى القرن السابع عشر. والتطور الحديث الآن هو أن المجنون لا يحكم عليه هؤلاء الممثلون الخارجيون، والمجنون مدعو دائماً للحكم على نفسه (P. ٢٦٥). وهذا الضبط الداخلى فى معانيه الكثيرة هو أكثر صور الضبط قمعاً. ومن الواضح أن أركيولوجية المعرفة عند فوكوه أدت به إلى استنتاجات مختلفة تمام الاختلاف عن استنتاجات المؤرخين التقليديين حول تاريخ المجنون ووضع الراهن وعلاقته بالعاقل (وممثليه)، ناهيك عن أن فوكوه كان يبحث فى جذور العلوم الإنسانية (خاصة علم النفس والتحليل النفسى) فى التفرقة بين المجنون والعاقل وممارسة الضبط المعنوى (النفسى) على المجنون. ويشكل ذلك جزءاً من أطروحته الأكثر عمومية حول دور العلوم الإنسانية فى الضبط (المعنوى) النفسى للناس.

وفيما يتعلق ببنويوية فوكوه فى هذا العمل المبكر نجده يزعم أن الجنون يحدث عند مستويين، ويشكل الجنون عند مستواه الأعمق شكلاً من أشكال الخطاب (P. ٩٦). ولم يكن الجنون – بلغة أكثر تحديداً – تغيرات عقلية أو بدنية فى العصر الكلاسيكى على الأقل، بل كانت اللغة الانفعالية هى الحقيقة المطلقة للجنون (P. ٩٧). ومن الملاحظ الأخرى للبنويوية فى هذا العمل ما يجسده قول فوكوه: "عندما تصاغ الثقافة الكلاسيكية فى بنائها العام (خبراتها عن الجنون التى تبرز بنفس المعانى)، وفى نظامها المتجانس لمنطقها الداخلى: نظام التفكير ونظام المؤسسات، وفى خطابها ومرسومها، وفى كلامها وشعارها – عندئذ تبرز قيمة اللغة" (P. ١١٦).

ويواصل فوكوه استخدام المنهج البنويوى فى مؤلفه: "ميلاد العيادة الطبية" الذى ركز فيه على الخطاب الطبى وبنائه الأساسى: "ما يؤخذ بعين الاعتبار فى الأشياء التى يقولها الناس ليس ما يفكرون فيه أو مدى ما تجسده هذه الأشياء لتلك الأفكار، على اعتبار أن ذلك ينظم هذه الأشياء منذ البداية، مما يجعلها فيما بعد قابلة بشكل متواصل لخطاب جديد وقابلة للنقل" (xiv: ١٩٧٥).

وفى كتابه "الجنون والحضارة" يبرز الطب كعامل مهم يبشر بالعلوم الإنسانية، وكان ذلك الموضوع محورياً فى كتابه "ميلاد العيادة الطبية". وفى هذا يقول فوكوه: "بُنى علم الإنسان على الطب" (٣٦: ١٩٧٥). وكان الطب قبل القرن التاسع عشر علماً تصنيفياً، وانصب التركيز بوضوح على النسق المنظم للأمراض، ثم جاء الطب فى القرن العشرين ليركز على الأمراض كما هى متوطنة فى الأفراد وفى المجتمع الأكبر (الأوبئة). وشمل الطب الناس الأصحاء (الرعاية الوقائية)، واتخذ موقفاً معيارياً يميز بين الأصحاء والمرضى، وفيما بعد بين الحالات العادية والمرضية. وقد أصبح الطب مرة ثانية بشيراً للعلوم الإنسانية التى كان عليها أن تتبنى هذا الموقف العادى المرضى من الناس.

ومع ذلك لم يكن قد ظهر بعد بناء إكلينيكى فى الطب، وكان الأساس هو تطور العيادة التى يتم فيها مراقبة المرضى فى الأسرة. وهنا يستخدم فوكوه مصطلحاً رئيسياً هو "النظرة المحدقة" Gaze. وفى هذه الحالة كانت النظرة المحدقة تعنى المعرفة (P. ٨١). وبعبارة أخرى فإن المعرفة تشتق مما يمكن أن يراه الطبيب فى مقابل ما قرأه فى الكتب. ونظر فوكوه باعتباره بنويوياً إلى النظرة المحدقة كنوع من اللغة، "لغة بدون كلمات" (P. ٦٨). وكان مهتماً بالبناء العميق لهذه اللغة. وكانت القدرة على رؤية ولمس الناس المرضى (أو الأصوات) خاصة فى المشرحة تغييراً حاسماً ومصدراً مهماً للمعرفة. ويتحدث فوكوه عن المشرحة بقوله: "الليلة المنيرة التى يتبدد ضوئها ببريق الموت" (P. ١٤٦). ويرى فوكوه فى النظرة المحدقة فى عيادات التشريح بمثابة تغيير عظيم فى

الطب الغربى. وبذلك لم يحدث تطور فى المعرفة، بل حدث تغير معرفى. ولم يعد الأطباء يلعبون نفس اللعبة؛ فقد كانت لعبة مختلفة بقواعد مختلفة. وأصبحت اللعبة هى أن الناس (المرضى) - بدلاً من المرض - أصبحوا موضوعاً للمعرفة والممارسة العلمية. وفى سياق التوجه البنيوى لفوكوه فإن ما تغير هو ماهية الخطاب - أسماء الأمراض، ومجموعات الأمراض، ومجموعات الدراسة وما إلى ذلك (P. ٥٤).

وهنا نجد مرة ثانية أن الطب - فى رأى فوكوه - اضطلع بدور المبشر للعلوم الإنسانية: "من المفهوم إذن أن الطب كان له تلك الأهمية فى تشكيل علوم الإنسان، تلك الأهمية التى لم تكن أهمية منهجية وحسب، بل هى أهمية أنطولوجية. كما تتمثل تلك الأهمية فى تركيزه على الإنسان كموضوع للمعرفة الموضوعية" (Foucault, ١٩٧٥: ١٩٧). ويقول فوكوه فى شأن المشرحة الطبية: "يخلف الموت وراءه فجعة، وأصبح جوهر عاطفة الإنسان: حقيقته غير المنظورة وسره المنظور" (P. ١٧٢). وكان التغير الأثمل - فى رأى فوكوه - هو الفرد كفاعل للمعرفة وموضوع لها، وليس التغير فى الطب سوى "شاهد واحد من الشواهد المنظورة على تلك التغيرات فى الأبنية الأساسية للخبرة" (P. ١٩٩).

وتتجلى كثير من نفس هذه الموضوعات فى كتابه "النظام والعقاب" (Foucault, ١٩٧٩) الذى نرى فيه جينولوجية (علم أنساب) القوة أكثر وضوحاً من البنيوية والخطاب وما شاكلهما. وهنا نجد أن "القوة والمعرفة كلاهما يدل ضمناً على الآخر" (Foucault, ٢٧: ١٩٧٩). ويهتم فوكوه هنا بالفترة بين ١٧٥٧ والثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وهى الفترة التى شهدت إحلال السيطرة على المسجونين بقواعد السجن محل تعذيبهم. (وفى رأى فوكوه أن هذا التغير حدث بطريقة غير نظامية، ولم يحدث بطريقة عقلانية (رشيدة)). ووجهة النظر العامة هى أن التغير جسّد إضفاء الطابع الإنسانى على معاملة المجرمين، حيث أصبحت تلك المعاملة أكثر شفقة وأقل ألماً ووحشية. والحقيقة أن العقاب - من وجهة نظر فوكوه - أصبح أكثر رشداً (فالجلاد فى المقصلة بحاجة إلى أن يكون أكثر من مجرد حارس موسوس (P. ١٣)، ويعتدى كثيراً على حقوق المسجونين بطرق شتى). وكان تعذيب المسجونين فى بداياته من أجل الصالح العام، إلا أنه كان استثماراً سيئاً للقوة لأنه يحرض من يشاهدون مشهد التعذيب على إثارة الاضطراب (P. ٧٩). وتبدو العلاقة واضحة بين المعرفة والقوة فى حالة التعذيب، ثم أصبحت هذه العلاقة أقل وضوحاً مع تطوير قواعد التعذيب. فقد أصبح النظام الجديدة لهذه القواعد أكثر قانونية وفاعلية وثباتاً وتأثيراً، أى أن هذا النظام - باختصار - زاد من تأثيره وقلل من تكلفته الاقتصادية (٨٠-٨٠ PP). وقد وُضع النظام الجديد ليكون أكثر إنسانية، ولكنه وُضع أيضاً من أجل عقاب أفضل، ومن أجل إقحام القوة لمعاقبة الجسد الاجتماعى بدرجة أكثر

وطأة (P. ٨٢). وعلى العكس من التعذيب تحدث هذه التقنية الجديدة للقوة فى العقاب فى مرحلة مبكرة من عملية الانحراف، بشكل أكثر تنوعاً وبيروقراطية وكفاءة وموضوعية وتغيراً واعتدالاً، ولا تقتصر المراقبة على المجرمين وحدهم، بل تشمل المجتمع برمته.

وتعتمد هذه التقنية الجديدة - تكنولوجيا القوة التأديبية - على النموذج العسكرى، وهى لا تتضمن نسقاً وحيداً للقوة، بل تتضمن نسقاً من القوى الصغرى. ويصف ثلاث وسائل للقوة التأديبية أولها المراقبة المترتبة، أو قدرة المسؤولين على مراقبة كل شئ بنظرة مدققة واحدة، وثانيها القدرة على إصدار أحكام معيارية ومعاينة من ينتهكون المعايير، ومن هنا فقد يصدر حكم سلبى ضد شخص ما ويعاقب استناداً إلى بعد الزمن (لتأخره) والنشاط (لإهماله) والسلوك (لفظاظته)، وآخرها استخدام التفتيش Examination لمراقبة الفاعلين ولإصدار أحكام معيارية بشأن الناس. وتتضمن الوسيلة الثالثة الوسيطتين الأولى والثانية.

ولم يتخذ فوكوه وجهة نظر سلبية حيال تطور المجتمع المنضبط، ولكنه نظر أيضاً فيما يترتب على ذلك من نتائج إيجابية. فهو ينظر إلى الانضباط على أنه يؤدي وظائفه أداءً جيداً فى الجيش وفى المصانع. ومع ذلك فقد أبدى فوكوه مخاوفه من الإفراط فى الانضباط خاصة عندما يتغلغل فى شبكة الدولة / الشرطة التى يصبح فيها المجتمع برمته مجالاً للمراقبة وموضوعاً للانضباط. ولا ينظر فوكوه إلى الانضباط على أنه يكتسح المجتمع بشكل منسق، ولكنه يتغلغل فى المجتمع ويؤثر فى كل جزء فيه، وفى نهاية الأمر تتأثر معظم النظم الأساسية بالانضباط. ويتساءل فوكوه بلغة بلاغية: "أليس من العجيب أن السجون تشبه المصانع والمدارس والثكنات والمستشفيات التى تشبه جميعها السجون؟" (P. ٢٢٨). وأخيراً ينظر فوكوه فى تطور نظام السجون الذى ينتقل فيه الانضباط من نظام العقاب إلى الجسد الاجتماعى كله (P. ٢٩٨). وعلى الرغم من وجود تصور يرتبط بالقصص الحديدى هنا، فإن فوكوه - كعادته - يرى تأثير عوامل متضادة مع نظام السجون، مما يعنى وجود جدل بنيوى متواصل فى أعماله.

وعلى الرغم من أن فوكوه ركز بشكل واضح على القوة فى كتابه "النظام والعقاب"، فقد اهتم أيضاً فى هذا العمل بموضوعه المعتاد عن نشأة العلوم الإنسانية، فالانتقال من التعذيب إلى قواعد السجن شكل تحولاً من عقاب الجسد إلى عقاب الروح أو الإرادة، وهذا - بدوره - جلب معه الاهتمام بالمعايير والأخلاق، فالمسؤولون عن السجن ورجال الشرطة يصدرن أحكامهم على معايير المسجون وأخلاقه. وتمتد هذه القدرة على إصدار الأحكام إلى الأحكام الأخرى على المستوى الأصغر مثل المحللين النفسيين والتربويين. وانبثق عن هذا مجموعة جديدة من المعرفة العلمية العقابية التى شكلت أساس المعرفة القانونية العلمية الحديثة. وأصبح اللون الجديد للخضوع هو أن الناس أصبحوا

موضوعاً للمعرفة وللخطاب العلمى، والنقطة الأساسية هى أن جذور العلوم الإنسانية الحديثة تكمن هنا، ويصف فوكوه وصفاً لاذعاً جذور العلوم الإنسانية فى فروع المعرفة بقوله: "إن هذه العلوم التى أدخلت البهجة على الجنس البشرى منشأها هذه الفروع المعرفية القزمية الخبيثة وبحوثها" (P. ٢٢٦).

وهناك ملاحظة أخرى فى كتاب "النظام والعقاب" تستحق الوقوف عندها، حيث اهتم فوكوه بالطريقة التى أدت بها المعرفة إلى ظهور التقنيات التى تمارس القوة. وفى هذا السياق قام بدراسة برج المراقبة Panopticon، وهو عبارة عن بناء يسمح للمسؤولين بإمكانية المراقبة التامة للمجرمين، وهو يأخذ شكل البرج فى وسط السجن، والذى يراقب منه الحراس كل الزنزانات. وبرج المراقبة مصدر هائل للقوة للمسؤولين فى السجن؛ لأنه يتيح لهم إمكانية المراقبة التامة. والأكثر أهمية من ذلك أن قوة هذا البرج تزداد؛ لأن المسجونين يتحكمون فى أنفسهم بالامتناع عن إتيان أفعال عديدة لأنهم يخشون من أن يراهم الحراس. وهناك صلة واضحة بين المعرفة والتكنولوجيا والقوة. وهنا يعود فوكوه إلى اهتمامه بالعلوم الإنسانية؛ لأنه ينظر إلى برج المراقبة على أنه نوع من المختبر لجمع معلومات عن الناس. وكان ذلك نذيراً بظهور المختبر العلمى الاجتماعى والأساليب الأخرى لجمع البيانات عن الناس فى العلوم الاجتماعية الأخرى. ويرى فوكوه أن برج المراقبة عند مستوى آخر يشكل أساساً لنمط كلى من المجتمع (P. ٢١٦)، وهو المجتمع المنضبط.

وأخيراً يمكن أن نلقى نظرة على المجلد الأول من كتاب "تاريخ السلوك الجنىسى" (Foucault, ١٩٨٠). وهنا نجد التركيز ينصب مرة ثانية على جينولوجية القوة. والسلوك الجنىسى عند فوكوه يمثل نقطة تحول شديدة فى علاقات القوة (١٠٣: ١٩٨٠). وكان هدفه هنا تحديد نظام القوة – المعرفة – المتعة الذى يعزز الخطاب عن السلوك الجنىسى البشرى (P. ١١). وقد درس فوكوه الطريقة التى يترجم بها الجنس إلى خطاب، وطريقة اختراق هذه القوة لذلك الخطاب.

وقد انشغل فوكوه بالقضية المتصلة بوجهة النظر التقليدية التى مؤداها أن النزعة الفيكتورية أدت إلى كبت السلوك الجنىسى بصفة عامة والخطاب الجنىسى بصفة خاصة. ويؤمن فوكوه بالرأى المعاكس، أى أن النزعة الفيكتورية أدت إلى انفجار فى الخطاب عن السلوك الجنىسى. ونتيجة لهذه النزعة كان هناك مزيد من التحليل والتقييم والتصنيف والتحديد والدراسات الكمية/العالية للسلوك الجنىسى. يقول فوكوه: "سوف يسأل الناس أنفسهم عن سبب إصرارهم على كسر قاعدة الصمت إزاء أكثر الأمور إزعاجاً" (P. ١٥٨). وهذا هو الحال فى المدارس حيث نجد مسالة الجنس من المسائل التى تثير الاهتمام بصفة مستمرة، وذلك بدلاً من كبت السلوك الجنىسى (P. ٢٧). وهنا يلخص فوكوه

الافتراض الفيكتوري ورأيه البديل عنه بقوله:

"يجب إذن أن نتخلى عن الفرض القائل بأن المجتمعات الصناعية الحديثة بشرت باقتراب عصر من الكبت الجنسي المتزايد. فقد شاهدنا انفجاراً ملحوظاً في السلوكيات الجنسية غير التقليدية.. ولم تعد توجد مطلقاً مراكز للقوة، ولم يعد يوجد مطلقاً مزيد من الاهتمام الظاهر واللفظي.. ولم تعد توجد مواضع لفرض قيود على حدة المتعة واستمرار القوة.. مما أدى إلى الانتشار في كل مكان".

(Foucault, ١٩٨٠:)

(٤٩)

ونجد فوكوه يفرد مرة ثانية مكاناً خاصاً للطب وخطابه عن السلوك الجنسي. وحينما يتجه الطب إلى التحليل العلمي للسلوك الجنسي يرى فوكوه سيطرة النظرة الأخلاقية أكثر من العلمية على الاهتمامات الطبية. (الحقيقة أن فوكوه كان حكمه قاسياً على الطب بصفة خاصة حيث يرى أن الهدف الخطابي منه ليس إظهار الحقيقة بل حجبها عن الجمهور) (P.٥٥). كما انشغل الدين – خاصة المسيحية الغربية – بأخلاقيات السلوك الجنسي وحاجة الفاعل إلى أن يعرف الحقيقة عن السلوك الجنسي. وكل ذلك يرتبط بالعلوم الإنسانية واهتمامها باكتساب المعرفة عن هذا الموضوع. ومثلما يعترف الناس للكهننة، فإنهم يعترفون للأطباء والمحللين النفسيين وعلماء الاجتماع. ويتم إخفاء هذه الاعترافات – خاصة الاعترافات الجنسية – في مصطلحات علمية.

وفى الغرب انجذب المشروع العلمي نحو مسألة الجنس (P.٧٠)، وأصبحت القضايا التي تهدف إلى التحقق من شخصية الفرد تتجه باضطراد إلى الجنس. ويلخص فوكوه كل ذلك بقوله: "الجنس يفسر كل شيء" (P.٧٨).

وبدلاً من التركيز على كبت السلوك الجنسي يرى فوكوه أن الدراسة العلمية للجنس يجب أن تركز على العلاقة بين الجنس والقوة. ولا تنحصر هذه القوة في مصدر رئيسي واحد، بل توجد في عدد من المواقف الصغرى. وكما هو عهدنا بفوكوه نجده يؤكد على أن هناك مقاومة لفرض القوة على الجنس. فالقوة ومقاومتها موجودتان في كل مكان.

وقد سعى المجتمع قبل القرن الثامن عشر إلى السيطرة على الموت، ثم تحول الاهتمام مع بداية ذلك القرن إلى السيطرة على الحياة خاصة الجنس. وتأخذ السيطرة على الحياة (والجنس) شكلين أولهما كانت هناك "السياسة التشريحية للجسد الإنساني" بهدف ضبط هذا الجسد (وسلوكة الجنسي)، وثانيهما كانت هناك "السياسة البيولوجية للسكان" بهدف ضبط وتنظيم النمو السكاني والصحة، والأمد المتوقع للحياة وما إلى ذلك. وفي كلتا

الحالتين نظر المجتمع إلى الحياة كهدف سياسى (P. ١٤٥). وكان الجنس محورياً فى الحالتين. فقد كان الجنس وسيلة للوصول إلى حياة الجسد وحياة النوع البشرى (P, ١٤٦). وأصبح الجنس فى المجتمع الغربى الحديث أكثر أهمية من الروح (ونحن نعرف كيف يعد هذا مهماً فى أعمال فوكوه)، بل هو مهم كالحياة ذاتها. ومن خلال المعرفة المتصلة بالسلوك الجنسى يقترب المجتمع أكثر فأكثر من ممارسة مزيد من القوة على الحياة نفسها. وعلى الرغم من هذه السيطرة المتزايدة، فقد رفض فوكوه التعلق بأمل التحرر منها:

"يجب أن نفلت من قوة الجنس إذا كنا نهدف إلى مقاومة سيطرة القوة المرتبطة بالجسد والمتعة والمعرفة من خلال أساليب مضادة للميكانيزمات المتعددة للسلوك الجنسى. ولا ينبغي أن تكون نقطة الارتكاز للهجوم المضاد على الجنس من خلال الرغبة الجنسية، بل من خلال الجسد والمتعة".

(Foucault, ١٩٨٠: ١٥٧)

وتقدم أعمال فوكوه جنباً إلى جنب مع الأعمال المتواصلة فى نظرية ما بعد البنيوية مجموعة جديدة ومثيرة من المدخلات إلى التيار الرئيسى فى نظرية علم الاجتماع. وإذا كانت البنيوية وما بعد البنيوية قد تطورت خارج حدود علم الاجتماع، فإن النظرية البنائية التى سوف نناقشها الآن كانت تطوراً أصيلاً داخل هذه الحدود. وإذا كان منظرو البنيوية وما بعد البنيوية يرون الأبنية كصياغات نظرية غير منظورة. فإن الأبنية – عند المنظرين البنائيين – ظواهر اجتماعية منظورة وواقعية.

النظرية البنائية

يعد إحياء الاهتمام بالنظرية البنائية – بمعنى العودة إلى جذور علم الاجتماع فى مفهوم الظواهر (الوقائع) الاجتماعية Social facts عند إميل دوركايم – من أهم التطورات فى السنوات الحديثة. وقد قاد هذا الإحياء عديد من قادة علم الاجتماع "الحرس القديم" ومنهم روبرت ميرتون، ولويس كوزر، وويليام جود، وسيمور مارتن ليبست، وأهمهم بيتر بلاو. وشعر هؤلاء العلماء بالحاجة إلى تكرار تركيزهم على الأبنية الكبرى، بعد أن لمسوا الهجوم من جوانب متعددة على توجهاتهم التقليدية.

وتبدو سياسة هذا الإحياء مثيرة للاهتمام، وتخبرنا بالكثير عن النظرية البنائية. فقد أعرب لويس كوزر (١٩٧٥a) عن استيائه من أن عدداً من زملائه فى علم الاجتماع يبدو

أنهم استسلموا "لانغماس حقيقى فى النزعة الذاتية" بتبنى نظريات صغرى كالظاهراتية والمنهجية الشعبية. ويرى كوزر أن الأبنية الكبرى هى حجر الزاوية لعلم الاجتماع، وعلى علماء الاجتماع ألا يستسلموا لأصحاب النزعة الذاتية، وأن يعودوا إلى أعمال دوركايم وزيميل وماركس الذين علمونا أن الكفاح الفردى ليس كافياً لتحريرنا من سيطرة القيود المجتمعية (Coser, ١٩٧٥b: ٢١٠). وينبغى أن ينصب التركيز الأساسى لعلم الاجتماع على النظم البنائية (Coser, ١٩٧٥b: ٢١٠).

ولم يشأ كوزر أن ينصب الاهتمام الكلى على الأبنية الكبرى فحسب، بل أراد أن نتعامل مع هذه الأبنية على أنها المحددات الأساسية للجوانب الأخرى للواقع الاجتماعى. ويتمثل النموذج الأساسى عنده فى أن الأبنية الاجتماعية تؤثر فى العمليات الاجتماعية (كالصراع على سبيل المثال) التى تؤثر بدورها فى السلوك الفردى. ويقدم كوزر مثلاً على هذا المدخل النظرى من خلال قضية العلاقات السلافية:

"شهدت السنوات العشر أو الخمسة عشرة الماضية تغيرات كبرى فى الوعى الاجتماعى، وتشكيل واقع البيض والسود. ولم تقم هذه التغيرات على أساس التحولات البنائية الأساسية فى العلاقة بين السلالات فحسب، بل قامت أيضاً على استراتيجيات الصراع وتعبئة المناضلين السود مما أسهم فى تحويل ما كان مأمولاً فيه إلى واقع ملموس".

(Coser, ١٩٧٥b:)

(٢١٢)

ويكمن المصدر الأساسى لكل ذلك فى الظواهر الكبرى.

وكان العدو الرئيسى الثانى لأنصار النظرية البنائية مجموعة علماء الاجتماع الذين انصب اهتمامهم على المستوى الثقافى، والأنساق المعيارية للمجتمع (Goode, ١٩٧٥)^(١). ومن هؤلاء الذين ذكرهم وليام جود: بارسونز بنزعتة الحتمية الثقافية. ويرى جود أنه بدلاً من التركيز على هذه القوى المعيارية أو الثقافية، ينبغى أن نركز على الظواهر البنائية مثل أنساق الاتصال، وأنساق السلطة، وحركة المرور، والتخطيط الإسكانى.

ويضيف بيتر بلاو (١٩٧٥a) إلى هذه القائمة الأبنية الكبرى التالية: البناء الطبقي، والتغير البنائى، وتقسيم العمل، والروابط التى تشكل بناء العلاقات الاجتماعية. ومركبات

() ()

المكانة والدور، والجذور البنائية للانحراف والتمرد، والعلاقات التبادلية بين البيئة والسكان والبناء الاجتماعي. وإلى جانب هذا الحصر يعرف بلاو البناء الاجتماعي بأنه "الأنماط المنظورة في الحياة الاجتماعية، والنظم الملحوظة، والأوضاع الظاهرة" (٣: ١٩٧٥a). كما حدد بلاو نقائص البناء الاجتماعي بـ"الفوضى، والسلوك الإنساني الخاص غير المنظم والذي لا يتشكل بنائياً" (نقلاً عن: ٣: ١٩٧٥a, Homans).

ويؤيد روبرت ميرتون (١٩٧٥) المدخل البنائي على مستوى الوحدات الكبرى تاييداً واضحاً، ويعترف بأن هذا المدخل لا يجيب عن كل المسائل في علم الاجتماع، ولكنه من أفضل المداخل التي لدينا حتى الآن. وبلغة محددة رغب ميرتون في أن يركز المدخل البنائي على الصلة بين المستويين: المجتمعي والفردى، على الرغم من أنه أقر بأن البناء الاجتماعي هو الذى يشكل الخيارات الفردية. إذ يزعم ميرتون - فى مناقشته للانحراف - أن البناء الاجتماعي هو الذى يؤدي إلى اختلاف معدلات السلوك الانحرافى. ومع ذلك فقد كان ميرتون يميل بصفة عامة إلى اتخاذ مدخل أكثر توازناً إلى العلاقة بين المستويين: المجتمعي والفردى. فهو يرى أن كل فوج جديد يدخل إلى بناء اجتماعى مقيد به مع أنه لم يخلق هذا البناء، ومع ذلك فهو يواصل أيضاً تعديل هذا البناء. والأبنية يمكن تغييرها، والأهم من ذلك أنها لا يمكن أن تفسر جميع مناحى الحياة الاجتماعية تفسيراً شاملاً.

وليس من العجيب أن يجذب بعض الماركسيين أمثال توم بوتومور (١٩٧٥) إلى علم الاجتماع البنائى. والحقيقة أن بوتومور (مستشهداً بماكدونالد) قدم وصفاً جيداً للواقع البنائى الذى يجذب انتباه الماركسيين:

"أتذكر فى إحدى المرات عندما كنت أسير فى الشارع وفجأة وقع بصري على المبانى الضخمة الشاهقة بواقعها الذى يستعصى على المعالجة، وأدركت أنه لا يمكننى ببساطة أن أتخيل حدوث تحول فى كل ذلك بواسطة الاشتراكية. كيف سيكون حال الشارع عندما يتولى العمال السلطة؟ كيف يمكن للثورة أن تغير الشكل الخارجى لهذه الأميال من الأحجار الصلبة؟"

(Bottomore, ١٩٧٥:)
(١٥٦)

ولم ينظر بوتومور إلى جميع الأبنية الاجتماعية على أنها شبيهة بالصخور، ومع ذلك لم يشأ أن يتطرف فى الأمر ويرى هذه الأبنية على أنها جريان متدفق لا ينقطع من الأحداث.

وكان بوتومور - باعتباره ماركسياً - مهتماً بتطوير تصور الأبنية الكبرى يسلم

بالصراع والتغير. وفي رأيه أنه يتعين علينا وصف هذه الأبنية بطريقة لا تجعلنا نهمل "نشأة الأحداث التاريخية بواسطة الأفراد والجماعات الاجتماعية بما يدعم هذا النظام ويعدله أو يدمره" (Bottomore, ١٩٧٥: ١٦٠). وكانت مصادر التغير فى الأبنية الاجتماعية هى ما يشغل بال بوتومور. وأول هذه المصادر دورة العضوية فى الجماعة، حيث نجد أن الداخلين الجدد إلى الجماعة لم يتم تنشئتهم تنشئة كاملة بدرجة تجعلهم يشكلون جماعات فرعية جديدة، ويغيرون أدوارهم وما إلى ذلك. وثانيها نمو المعرفة وما يترتب على ذلك من انتشار العلم والتكنولوجيا مما يؤدي إلى التغير البنائى المستمر. وثالثها العمليات المتدرجة للتفاضل الاجتماعى مما يؤدي إلى حدوث تغيرات فى البناء الاجتماعى، والأوضاع والأدوار الجديدة تفضى إلى أفكار وتوجهات عقلية ومفاهيم واهتمامات اجتماعية جديدة. وأخرها وجود احتمال للتغير داخل الأبنية نفسها وتأثيرها على الثقافة والوعى.

النظرية البنائية عند بيتر بلاو

تعتبر أعمال بيتر بلاو (Blau & Merton, ١٩٨١; ١٩٧٧b, ١٩٧٧a, ١٩٧٥b) صدق تعبير عن هذه البنيوية المتجددة. وقد قدم بلاو شكلاً متطرفاً من أشكال هذا الاتجاه البنائي. وحدد بلاو^(١) تحديداً واضحاً مهمة علم الاجتماع بلغة بنائية: "إن المهمة المميزة لعلم الاجتماع هي التحليل البنائي لمختلف أشكال التمايز، والعلاقات المتبادلة بينها، وشروط إنتاجها، والتغيرات التي تطرأ عليها، ومغزاها بالنسبة للعلاقات الاجتماعية" (Blau, ١٩٧٧a: ٦-٧). ومن الواضح أن بلاو استبعد في هذا التعريف المتغيرات على المستويين الثقافي والفردى في علم الاجتماع. ويقول بلاو في شأن البعد الثقافي: "أنا من أنصار الحتمية البنائية، أو من بأن أبنية الأوضاع الاجتماعية الموضوعية التي يتوزع الناس عليها تمارس تأثيراً هائلاً على الحياة الاجتماعية بدرجة أقوى من تأثير القيم والمعايير الثقافية" (١٩٧٧a: x).

وقد رغب بلاو أن ينظر في الأبنية الاجتماعية دون الاستعانة بالمفاهيم الثقافية والوظيفية للوظيفية البنائية. يضاف إلى ذلك أن بلاو تجاهل المستويات الفردية، وفي رأيه أن أجزاء المجتمع هي الجماعات وليست الفاعلين وأفكارهم وأفعالهم. "ينصب الاهتمام على أبنية الأوضاع المتميزة وتأثيرها على العلاقات بين الكائنات الإنسانية، ولا ينصب الاهتمام على التحليل المكثف للعمليات الاجتماعية - النفسية المتضمنة في العلاقات الإنسانية" (Blau, ١٩٧٧a: ٤). ويعترف بلاو بأهمية هذه العوامل الاجتماعية - النفسية، إلا أنه أقر بأنه لن يدرسها. وهذا معناه أن هناك قصوراً ملازماً لمدخله، حيث يقول في هذا الصدد: "من المؤكد أن هذه النظريات حتمية بالنسبة للجماعات فقط، واحتمالية بالنسبة للأفراد" (Blau, ١٩٧٧a: ٧).

إطار (٧ - ٢)

بيتر بلاو: لمحة عن حياته

ولد بيتر بلاو في فيينا بالنمسا في ٧ فبراير عام ١٩١٨. وهاجر إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٣٩، وأصبح مواطناً أمريكياً عام ١٩٤٣. وفي عام ١٩٤٢ حصل على الدرجة الجامعية الأولى من كلية مغمورة هي كلية المُهرست في مدينة المُهرست بولاية إلينوى. وقطعت الحرب

وقد وجد بلاو أنه من الضروري أن يميز نفسه عن الاتجاه البنيوي عند ليفي - شتراوس، حيث فند ادعاء ليفي - شتراوس بأن مفهوم البناء الاجتماعي - في منظومته - ليست له علاقة بالواقع الإمبريقي، ولكن له علاقة بالنماذج النظرية المصاغة حول هذا الواقع. واتخذ بلاو موقفاً مضاداً، حيث يزعم أن الأبنية الاجتماعية التي يهتم بها هي ظواهر اجتماعية واقعية. وبينما كان

تابع إطار (٧ - ٢)

العالمية الثانية مواصلة الدراسة، حيث خدم بلاو في الجيش الأمريكي وحصل على النجمة البرونزية. وبعد انتهاء الحرب عاد إلى دراسته، وأتم تعليمه حتى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا عام ١٩٥٢.

وقد حظى بلاو باعتراف واسع لأول مرة في علم الاجتماع عن إسهاماته في دراسة التنظيمات الرسمية. ولا يزال يستشهد بدراساته الإمبريقية عن التنظيمات، وبمؤلفاته عن التنظيمات الرسمية، ولا يزال يسهم بصفة منتظمة في علم اجتماع التنظيم. كما بزغ نجم بلاو بسبب الكتاب الذي اشترك في تأليفه مع أوتيس دودلي دونكان بعنوان "البناء المهني الأمريكي"، والذي حاز على "جائزة سوروكين للتفوق" من الجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع عام ١٩٦٨. ويمثل هذا العمل إسهاماً على درجة كبيرة من الأهمية في الدراسة السوسولوجية للتدرج الاجتماعي.

وعلى الرغم من الشهرة التي نالها بلاو بسبب أعماله المتعددة، إلا أن ما يهنا هنا هو إسهاماته في نظرية علم الاجتماع. وما يميز هذه الإسهامات هو أنه قدم إضافات مهمة إلى اتجاهين نظريين متميزين. فقد رأينا في الفصل السابع (*) أن كتابه الذي صدر عام

ليفى - شتراوس يرى أن الأبنية غير منظورة، يزعم بلاو أن هذه الأبنية "جوانب ملحوظة للحياة الاجتماعية، وليست نظريات بشأنها" (٢: ١٩٧٧a).

ويعرف بلاو البناء الاجتماعي بأنه "توزيعات السكان على الأوضاع الاجتماعية عبر اتجاهات متعددة - تلك الأوضاع التي تؤثر في علاقات الأدوار لدى الناس وتفاعلاتهم الاجتماعية" (٢٢١: ١٩٧٥b). وهناك عنصران أساسيان في هذا التعريف هما: الأوضاع والسكان. والأوضاع الاجتماعية هي التي تحدد الأبنية الاجتماعية. وهذه - بدورها - تتحدد بالمعالم المتعددة الكامنة في التمايزات الاجتماعية التي يصنعها الناس في تفاعلاتهم الاجتماعية. ومن هذه المعالم: العمر، والجنس Sex، والسلالة، والمكانة الاجتماعية - الاقتصادية. ويؤكد بلاو أن فكرته الأساسية هي "أن دراسة الأشكال المختلفة للتمايز بين الناس، والعلاقات المتبادلة بينهم، وشروط إنتاجها، ومغزاها - هي المهمة المميزة لعلم الاجتماع" (٢٢٢: ١٩٧٥b).

وكما يتضح مما سبق فقد كان بلاو مهتماً بكل من التمايز في الأوضاع الاجتماعية، والعلاقات المتبادلة بينها. وفيما يتعلق بهذه العلاقات يرى بلاو أن هناك عاملين يرتبطان بالأوضاع الاجتماعية أولهما الروابط الاجتماعية المختلفة بين الناس، وثانيهما عملية

تابع إطار (٧ - ٢)

١٩٦٤ بعنوان "التبادل والقوة فى الحياة الاجتماعية" يشكل ركناً أساسياً من أركان نظرية التبادل المعاصرة. ويتمثل الإسهام الأساسى لبلاو هنا فى أنه انشغل بصفة أساسية بنظرية التبادل على مستوى الوحدات الصغرى، وحاول أن يطبقها على القضايا التى تمس الوحدات الكبرى. وعلى الرغم من وجود بعض نقاط الضعف فى هذه المحاولة، إلا أنها تشكل جهداً مهماً فى الدمج على المستوى النظرى بين قضايا علم الاجتماع على مستوى الوحدات الصغرى والكبرى.

وقد أصبح بلاو حديثاً فى طبيعة منظرى النظرية البنائية. وخلال فترة رئاسته للجمعية الأمريكية لعلم الاجتماع (١٩٧٣-١٩٧٤) جعل من النظرية البنائية موضوعاً للقاء السنوى لهذه الجمعية. ومنذ ذلك الحين بدأ ينشر عدداً من الكتب والمقالات بهدف توضيح النظرية البنائية ونشرها.

ويصف بلاو منطقه فى التحول من نظرية التبادل التى تدرج تحت علم اجتماع الوحدات الصغرى إلى النظرية البنائية التى تدرج تحت علم اجتماع الوحدات الكبرى بقوله:

"كان المدخل الذى بدأت به هو مبادئ علم اجتماع الوحدات الصغرى واستخدام هذه المبادئ كأساس لبناء نظرية علم اجتماع الوحدات الكبرى. أما المدخل البديل فيقوم على افتراض أن مختلف

الحراك الاجتماعى الذى يعرفه تعريفاً واسعاً ليشمل كل تحركات الناس بين الأوضاع الاجتماعية.

وفى مناقشته للتمايز (التفاضل) يلخص بلاو نمطين أساسيين للمعالم البنائية. والنمط الأول هو المعالم الاسمية Nominal التى تفيد فى التمييز بين الناس دون ترتيب المجموعات الفرعية المختلفة. وكل مجموعة فرعية لها حدود متميزة. وقد ناقش بلاو الجنس Sex والسلالة ضمن هذه المعالم الاسمية. أما النمط الثانى فهو المعالم البنائية المتدرجة Graduated التى تفيد فى التمييز بين الناس بناءً على أبعاد المكانة. وتحدد التمايزات فى سياق التدرج، ولا توجد هناك خطوط فاصلة واضحة بين المجموعات الفرعية (الدخل والثروة على سبيل المثال).

واستناداً إلى هذه التفرقة بين المعالم حدد بلاو نمطين للأوضاع الاجتماعية، وكل نمطاً يميزه معلم بنائى محدد. والنمط الأول هو الجماعة Group التى تتحدد على أساس المعالم الاسمية، والثانى هو المكانة Status التى تتحدد على أساس المعالم المتدرجة.

واستناداً إلى المعالم والأوضاع الاجتماعية توصل بلاو إلى شكلين عامين للتمايز (التفاضل)، أولهما هو اللاتجانس الذى يشتمل على توزيع السكان على جماعات متعددة فى ضوء المعالم الاسمية، وثانيهما هو اللامساواة التى تتحدد بتوزيعات المكانة فى ضوء المعالم

تابع إطار (٧ - ٢)

المنظورات والأطر المرجعية التصورية
ضرورية للنظريات الصغرى والكبرى ..
ولقد خلصت إلى أن المدخل الثانى هو
المدخل الوحيد القابل للتطبيق فى هذه
المرحلة على الأقل من مراحل تطور علم
الاجتماع".

ومنذ عام ١٩٧٠ عمل بلاو أستاذاً لعلم
الاجتماع فى جامعة كولومبيا، ومنذ عام
١٩٧٩ حاز - إلى جانبها - على منصب
أستاذ متميز فى جامعة ولاية نيويورك فى
اكبانى.

المتدرجة. وهنا نجد تجسيدا لقيم بلاو التى
تقول بأن هناك قدراً كبيراً من اللامساواة
فى المجتمع، ولا يمكن أن يكون هناك قدر
كبير من اللاتجانس.

ويشرح بلاو بقدر من التفصيل ما يعنيه
بمعالم البناء الاجتماعى، وفعل ذلك
بتوضيح ما تهتم به النظرية البنائية عنده
وما لا تهتم به. فهو لا يهتم - على سبيل
المثال - بالأصول العرقية للأفراد
الفاعلين، بل يهتم باللاتجانس العرقى فى
المجتمع. وهو لا يهتم بالإنجاز المهنى،

بل يهتم بتقسيم العمل. وباختصار، كان بلاو مهتماً بالعوامل البنائية الكبرى وليس
بالعوامل الصغرى: السلوكية والاتجاهية.

ولتوضيح مدخله قام بلاو بتحديد مجالات بحثية تشكل بؤرة اهتمام التحليلات
البنائية. ومن هذه القضايا التفاضل والتكامل الاجتماعيين. وعلى العكس من لبيست
وبارسونز لا يرى بلاو أن عوامل مثل الثقافة والقيم والمعايير تؤدي إلى إنتاج التكامل
الاجتماعى، بل إن درجة التفاضل البنائى هى التى تقضى إلى إنتاج التكامل بين
الجماعات والأفراد. وتحدد المعالم التى ذكرها بلاو - خاصة المعالم الاسمية - درجة
التكامل. وعموماً يحدث التكامل عندما تكون لدى قطاع من السكان درجة عالية من
التشابه فى معالم مثل العمر والجنس والعرق والمهنة والجيرة. ويؤدى اللاتجانس المتزايد
إلى إيجاد الحواجز أمام التكامل الاجتماعى. ومع ذلك، تتحطم الحواجز - فى بعض
الأحيان - عندما يكون درجة اللاتجانس شديدة للغاية. ويميل الناس فى وجود التفاضل
إلى العلاقات خارج الجماعة على عدم وجود علاقات على الإطلاق. والحقيقة أن هناك
معالم اسمية متعددة فى المجتمع الحديث هى التى أدت إلى إنتاج لا تجانس متعدد
الأشكال، مما يعنى أن كل فرد - فى واقع الأمر - ينتمى إلى مجموعة من الجماعات
ويقوم بأدوار متعددة. ومثل هذا البناء يجبر الناس على تكوين علاقات خارج جماعاتهم
(Blau, ١٩٧٥b: ٢٣٣). وهذا من أبرز خصائص علم الاجتماع البنائى، بمعنى أن
الأبنية الاجتماعية تحدد الفعل الفردى.

وفى عام ١٩٨٠ نشر بلاو كتاباً بعنوان "خرافة" Fable حاول فيه أن يوضح

نظريته، حيث وصف سفينة فضاء خيالية تحمل بداخلها اثنين من علماء الاجتماع – ضمن أفراد آخرين معهم – وتهبط على كوكب اسمه Stellar^{AR}. وهناك التقيا "الإيتارز" Aytars، وهي مخلوقات حية وصفها بلاو بأنها أقرب إلى البشر منها إلى الحيوانات وحيدة الخلية. ويتشابه "الإيتارز" – الذين يعيشون في قرى صغيرة بإحدى الجزر – في كل شيء عدا أمرين أولهما أنهما يختلفان في اللون: أزرق وأخضر (معلم اسمي)، وثانيهما أنهما يختلفان في الطول من عشر إلى ثلاثين بوصة (معلم متدرج). ولا يوجد تفاضل في الجنس Sex أو العمر، حيث لم يحدث تغير في هاتين الصفتين رغم مرور الزمن.

وعلى الرغم من أن الناس يختلفون في هاتين الخصيصتين فقط، فقد وجد الباحثان من علماء الاجتماع أن القرى التي يعيش فيها الإيتارز تختلف وفقاً لخمسة أبعاد أولها أن القرى تختلف في حجم السكان من قرى تضم عدداً كبيراً من الإيتارز إلى قرى تضم عدداً صغيراً منهم. وثانيها أن نسبة الإيتارز ذوى البشرة الزرقاء إلى ذوى البشرة الخضراء تختلف بين القرى، فبعض القرى يغلب عليها أصحاب البشرة الزرقاء، وبعضها الآخر يغلب عليها أصحاب البشرة الخضراء. وثالثها أن سكان القرى يختلفون في متوسط الطول، فبعض القرى يغلب عليها السكان طوال القامة إلى حد نسبي، وبعضها الآخر ينخفض فيها متوسط الطول بين سكانها عن المتوسط العام بين الإيتارز. ورابعها أن الاختلافات في الطول أدت إلى اللامساواة في بعض القرى التي يكون فيها الناس غير متجانسين. "ومادام أن الحجم هو الفارق الكيفي الوحيد بين الإيتارز، فإن القرى الكبيرة تسيطر على القرى الصغيرة وتنتشر فيها" (P. ٧٧٧). وخامسها أن القرى تختلف في مدى ارتباط الحجم واللون. فبعض القرى يسودها من الناحية العددية الإيتارز طوال القامة ذوو البشرة الخضراء، وبعضها الآخر يسوده قصار القامة ذوو البشرة الزرقاء. وإجمالاً، فإنه على الرغم من أن السكان يختلفون في خصيصتين فقط، إلا أن هذه الاختلافات أدت إلى اختلافات أساسية في بناء القرى التي يعيشون فيها.

ثم اكتشف عالما الاجتماع أن هناك جزراً أخرى على الكوكب، وأن هناك عدداً أكبر من القرى في كل جزيرة من هذه الجزر. ويتشابه الأفراد إلا في الطول واللون، إلا أن هذه القرى يمكن التمييز بينها في ثمانية أبعاد، منها الأبعاد الخمسة الأولى التي تفرق بين الإيتارز في الجزيرة الأولى.

أما سادس هذه الأبعاد فهو أنه على الرغم من أن نسبة ذوى البشرة الزرقاء إلى ذوى البشرة الخضراء قد تتشابه في جزيرتين أو أكثر، فإن ذلك يمكن أن يكون نتيجة للاختلاف الشديد في هذه النسب في القرى بكل جزيرة. ويمكن أن تكون النسبة الفردية محصلة للنسبة الفردية في معظم القرى، أو يمكن أن تكون محصلة للاختلافات الشديدة

بين القرى التى يخفى بعضها بعضاً.

أما البعد السابع فقد أوضح فيه بلاو نفس الشيء بالنسبة للطول، بمعنى أن متوسط الطول فى جزيرة ما يمكن أن تنتج عن كل القرى أو معظمها متشابهة فى الطول، أو تنتج عن أن بعض القرى يسودها طوال القامة وبعضها الآخر يسوده قصار القامة، فيخفى بعضها بعضاً.

أما البعد الثامن فيتصل بنفس القضية حول العلاقة بين اللون والحجم، فيمكن أن يكون هناك ارتباط متشابه فى معظم القرى، أو أن بعض القرى معظم سكانها طوال القامة ذوو بشرة خضراء، وبعضها الآخر معظم سكانها قصار القامة ذوو بشرة خضراء. ولذلك يمكن أن تختلف الأبنية الايكولوجية للقرى فى هاتين الجزيرتين اختلافاً شديداً على الرغم من تشابه الخصائص الديموجرافية بينهما.

وكان بلاو مهتماً اهتماماً شديداً بتأثير هذه الاختلافات الايكولوجية (أى البنائية) على العلاقات الاجتماعية. ويعبر بلاو عن هذا الرأى بقوله: "إن البناء الديموجرافى والايكولوجى للقرى والجزر يؤثر فى العلاقات الاجتماعية للإيتارز تأثيراً مستقلاً عن اتجاهاتهم النفسية" (P.٧٨٠).

وقد بدأ بلاو بافتراض مؤداه أن الناس بصفة عامة يفضلون إقامة علاقات مع آخرين يشبهونهم. ومع ذلك فقد اكتشف عالما الاجتماع (اللدان كانا على متن سفينة الفضاء) أن الإيتارز المختلفين فى الطول واللون يكونون أحياناً فى صحبة بعضهم بعضاً. وفى المسح الذى قاما به وردت بعض التعليقات المهمة مثل: "نحن نتشابه فى اللون على الأقل، ولا يوجد أحد هنا يشبهنى فى الطول". "صحيح أن صديقى بشرته خضراء، إلا أن الطول بالنسبة لى أهم من اللون" (P.٧٨٠).

ويزعم بلاو أن احتمال أن يكون للشخص من الإيتارز أصدقاء من خارج جماعته يتوقف على عدة عوامل بنائية. فإذا كان هذا الشخص ينتسب إلى أقلية صغيرة فى القرية، يزداد احتمال وجود أصدقاء من خارج جماعته. وإذا كان الشخص يعيش فى جماعات صغيرة، تزداد احتمالات وجود صداقات من خارج جماعته، لأن هذا الشخص سوف يكون أمامه عدد محدود من الناس بخصائص متشابهة لى يختار من بينهم. وأخيراً فإن تشابك المعالم يحول دون الاختيار من خارج الجماعة، بمعنى أنه إذا كان الطول واللون مرتبطين ارتباطاً وثيقاً (مثلاً: ذوو البشرة الخضراء من الإيتارز قصار القامة)، فإن ارتباط هذين العاملين يزيد من احتمال الاختيار من داخل الجماعة.

وتشتمل النظرية البنائية على بعض الأفكار القديمة فى علم الاجتماع (من زيمل ودوركايم على سبيل المثال) فى ثوب جديد. ويتعين علينا أن نرى المدى الذى يمكن أن

تصل إليه النظرية البنائية في علم الاجتماع بتركيزها الكلى على المستوى البنائى للواقع الاجتماعى. ومع أن هذا التركيز المحدود يحد من القوة التفسيرية للنظرية البنائية (مقارنة ببعض النظريات الأكثر تكاملاً في علم الاجتماع)، فسوف تجذب إليها مجموعة من علماء الاجتماع الذين يرفضون أن تكون العوامل الذاتية محور الاهتمام الرئيسى لعلم الاجتماع.

وقد أفضت نظرية بلاو إلى عدد من الدراسات الإمبيريقية (Blau, 1984; Blum, 1984; Blum and Schwartz, 1982; Blau, Becker & Fitzpartick, 1984). ولتأخذ مثلاً حديثاً من دراسة تيرى بلوم الذى قام باختبار فرضين مشتقين من نظرية بلاو هما: (١) أن اللاتجانس العرقى يعزز التفاعل بين السلالات على الرغم من شيوع تفضيل الجماعة الداخلية. (٢) أن اللاتجانس الدينى يشجع على التفاعل بين الجماعات الدينية على الرغم من شيوع تفضيل الجماعة الداخلية (١٩٨٥: ٥١٣). وتؤيد نتائج بلوم نظرية بلاو وأطروحتها العامة التى تنص على أن البناء الاجتماعى الأكبر يفرض قيوداً على التفاعل بين الأشخاص، وذلك بآتاحة الفرص لهذا التفاعل أو الحد منها (-٥٢٠: ١٩٨٥: ٥٢١).

نظرية شبكة العلاقات

تعد نظرية شبكة العلاقات مدخلاً بنائياً آخر فى علم الاجتماع الحديث. ومع أن هذه النظرية تعد ضرباً من ضروب البنيوية، إلا أنها أقل ارتباطاً بأنماط التطورات الخارجية التى ناقشناها آنفاً، وأكثر ارتباطاً بعلم الاجتماع. ولذلك نجد أنه على الرغم من اهتمام أنصار نظرية شبكة العلاقات بالأبنية العميقة، إلا أن الأبنية أقرب إلى الأبنية الاجتماعية فى علم الاجتماع التقليدى منها إلى اهتمام ليفى - شتراوس بالأبنية العقلية. واتساقاً مع ارتباطهم بالتيار الرئيسى فى علم الاجتماع يهتم أنصار نظرية شبكة العلاقات اهتماماً ضئيلاً بالتفلسف حول الأبنية، ويهتمون اهتماماً شديداً بالدقة المنهجية والرياضية البالغة، وبالدراسة الإمبيريقية لمختلف أنواع شبكات المعلومات.

ويبذل محلو شبكة العلاقات جهداً عظيماً لتمييز مدخلهم عما أسماه رونالد بورت المدخل "الذرى" والمدخل "المعيارى" فى علم الاجتماع (Burt, 1982)؛ وانظر أيضاً: (Granovetter, 1985). وتركز الاتجاهات الذرية فى علم الاجتماع على الفاعلين الذين يتخذون قراراتهم فى عزلة عن الفاعلين الآخرين. وتركز هذه الاتجاهات بصفة عامة على "السمات الشخصية" للفاعلين (Wellman, 1983). والمدخل الذرية مرفوضة لأنها مجهرية للغاية، ولأنها تغفل العلاقات بين الفاعلين. ويعبر بارى ويلمان عن ذلك بقوله: "إن تفسير الدوافع الفردية مهمة يحسن تركها لعلماء النفس" (١٦٣: ١٩٨٣).

وهذا الرأي يلقي - بالطبع - معارضة من عدد من النظريات فى علم الاجتماع التى تهتم اهتماماً عميقاً بالدوافع بشكل أو بآخر، ومن هذه النظريات: التفاعلية الرمزية، وعلم الاجتماع الظاهراتى، وعلم الاجتماع الوجودى، والنظرية الفيبرية، ونظرية شوتز، وغيرها.

وفى رأى منظرى شبكة العلاقات أن المداخل المعيارية تركز على الثقافة وعملية التنشئة الاجتماعية التى يستدمج الفاعلون من خلالها المعايير والقيم. وما يربط الناس بعضهم ببعض - فى رأى الاتجاه المعيارى - هو مجموعة الأفكار المشتركة. ويرفض منظرو شبكة العلاقات هذا الرأى، ويرون أنه ينبغى التركيز على النمط الموضوعى للعلاقات التى تربط بعض أفراد المجتمع. ويعبر ويلمان عن ذلك بقوله:

"يرغب محللو شبكة العلاقات فى دراسة الانتظام فى كيفية تصرف الناس والجماعات بدلاً من التناسق فى المعتقدات حول ما ينبغى أن يكونوا عليه فى سلوكهم. ومن هنا يحاول هؤلاء المحللون تجنب التفسيرات المعيارية للسلوك الاجتماعى، ويصرفون نظرهم عن أى تفسير غير بنائى يعالج العملية الاجتماعية على أنها مجموع السمات الشخصية والمعايير المستدمجة للأفراد الفاعلين".

(Wellman, ١٩٨٣:)
(١٦٢)

وبهذا المعنى يرفض منظرو شبكة العلاقات جانباً كبيراً من الوظيفية البنائية، والحتمية الثقافية البارسونية، وتأكيد النزعة الدوركايمية على الضمير الجمعى، واهتمام زيمل بالثقافة الموضوعية والذاتية، واهتمام النظرية النقدية بالثقافة، وما إلى ذلك.

وبهذا القدر من التوضيح لما يرفضه منظرو شبكة المعلومات، يتضح لنا أن الاهتمام الأساسى لهذه النظرية ينصب على النمط الموضوعى للعلاقات التى تربط بين أعضاء المجتمع (أفراداً وجماعات). ويعبر ويلمان عن ذلك بقوله:

"ينطلق محللو شبكة العلاقات من فكرة بسيطة وقوية مؤداها أن الاهتمام الرئيسى لعلماء الاجتماع هو دراسة البناء الاجتماعى ... ومن الطرق المباشرة لدراسة البناء الاجتماعى تحليل نمط العلاقات التى تربط بين أعضائه. وبيحث هؤلاء المحللون فى الأبنية العميقة؛ أى أنماط شبكة العلاقات المنظمة الكامنة وراء الشكل الخارجى المركب للأنساق الاجتماعية ... ويُنظر إلى الفاعلين وسلوكهم على أنهم مقيدون بهذه الأبنية. وبالتالي لا يكون الاهتمام منصباً على الفاعلين باختياراتهم

الإرادية، وإنما على القيود البنائية".

(Wellman, 1983: 156-157)

ومن الملامح المميزة لنظرية شبكة العلاقات اهتمامها بمجال رحب من الأبنية الصغرى والكبرى، بمعنى أن الفاعلين - وفقاً لهذه النظرية - يمكن أن يكونوا: الأفراد، والجماعات، والمؤسسات (Mizruchi, 1986; Clawson, Neustadtl and Bearden, 1986 and Koenig, 1986)، والمجتمعات. وتحدث العلاقات على المستوى البناءى - الاجتماعى الأكبر جنباً إلى جنب المستويات الأصغر. ويصف مارك جرانوفيتز هذه العلاقات على المستويات الصغرى بأنها "فعل ينظر فى العلاقات الشخصية والأبنية العيانية أو شبكات هذه العلاقات" (490: 1985). والفكرة الأساسية فى هذه العلاقات هى أن أى "فاعل" (فرداً أو جماعة) يحصل بدرجة متفاوتة على الموارد القيمة (الثروة، والقوة، والمعلومات)، وتكون النتيجة هى أن الأنساق البنائية تكون متدرجة، وتعتمد بعض مكوناتها على بعضها البعض.

ومن الجوانب الرئيسية لتحليل شبكة العلاقات نزوعها إلى تحريك علماء الاجتماع بعيداً عن دراسة الجماعات والفئات الاجتماعية نحو دراسة العلاقات بين الفاعلين، تلك العلاقات التى لا تكون متشابهة إلى الحد الذى يمكن معه إطلاق مصطلح "الجماعات" عليها (Wellman, 1983: 169). ويميز جرانوفيتز بين "العلاقات القوية" (مثل العلاقات بين الناس وأصدقائهم المقربين) و"العلاقات الضعيفة" (مثل العلاقات بين الناس ومعارفهم). ويميل علماء الاجتماع إلى الاهتمام بالناس الذين تربطهم علاقات قوية أو بالجماعات الاجتماعية، ويعتبرون - أى علماء الاجتماع - أن هذه العلاقات القوية هى العلاقات الحاسمة، أما العلاقات الضعيفة فإنها علاقات "تافهة" من حيث أهميتها بالنسبة لعلم الاجتماع. ويتمثل إسهام جرانوفيتز فى توضيحه أن العلاقات الضعيفة يمكن أن تكون على درجة كبيرة من الأهمية؛ فالعلاقات الضعيفة بين اثنين من الفاعلين يمكن أن تكون جسراً بين جماعتين تربطهما علاقات داخلية قوية. وبدون هذه العلاقة الضعيفة يمكن أن تعيش هاتان الجماعتان فى عزلة تامة، وهذا بدوره يمكن أن يفضى إلى نسق اجتماعى أكثر تجزؤاً، وسوف يجد الفرد الذى تعوزه العلاقات الضعيفة نفسه معزولاً فى جماعة مترابطة ترابطاً وثيقاً. ومن هنا تحول العلاقات الضعيفة دون العزلة وتساعد الأفراد على تكاملهم مع المجتمع الأكبر بدرجة أفضل. ومع أن جرانوفيتز شدد على أهمية العلاقات الضعيفة، فإنه عجل بتوضيح أن العلاقات القوية ذات قيمة أيضاً (1983: 209)؛ فالناس الذين تربطهم علاقات قوية لديهم دافعية أقوى لمساعدة بعضهم البعض وأكثر نفعاً لبعضهم البعض.

وتعد نظرية شبكة العلاقات نظرية جديدة لم تصل إلى مرحلة النضج بعد، ويقول

بيرت في هذا الصدد: "يوجد حالياً اتحاد غير وثيق بين المداخل التي تتدرج تحت تحليل شبكة العلاقات" (٢٠: ١٩٨٢)، إلا أن هذه النظرية أخذت في النمو، ومما يبرهن على ذلك المقالات والكتب المنشورة من منظور شبكة العلاقات، وتوجد الآن مجلة بعنوان "شبكة العلاقات الاجتماعية" Social Networks مخصصة لهذا الغرض.

وعلى الرغم من أن نظرية شبكة العلاقات عبارة عن مزيج غير مترابط، إلا أنها تركز على مجموعة متسقة من المبادئ (Wellman, ١٩٨٣)، وهي:

أولاً أن العلاقات بين الفاعلين عادة ما تكون متماثلة في محتواها وكثافتها، ويسد الفاعلون حاجات بعضهم البعض، وهم يفعلون ذلك بقدر كبير أو يسير من الكثافة.

ثانياً أن العلاقات بين الأفراد يتعين تحليلها في سياق بناء شبكة العلاقات الأكبر.

ثالثاً أن تشكيل العلاقات الاجتماعية يؤدي إلى أنواع مختلفة من شبكات العلاقات غير الجزافية. وشبكة العلاقات انتقالية بمعنى أنه إذا كانت هناك علاقة بين (أ) و(ب) وبين (ب) و(ج)، فإن هناك احتمالاً لوجود علاقة بين (أ) و(ج). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى توجد حدود لكم العلاقات وكثافتها. وتكون النتيجة وجود مجموعات من شبكات العلاقات ذات حدود متميزة تفصل كل مجموعة عن الأخرى.

رابعاً أن وجود هذه المجموعات يعنى إمكانية وجود علاقات بين المجموعات وكذا بين الأفراد.

خامساً هناك علاقات غير متماثلة بين العناصر في النسق مما يترتب عليه توزيع الموارد النادرة توزيعاً متفاوتاً.

سادساً أن التوزيع غير المتكافئ للموارد النادرة يؤدي إلى كل من التعاون والتنافس. فبعض الجماعات تتشابه معاً للحصول على الموارد النادرة من خلال التعاون، في حين تتنافس وتتصارع جماعات أخرى على تلك الموارد. وهذا يضيف على نظرية شبكة العلاقات طابعاً ديناميكياً (Rothenthal et al., ١٩٨٥)، بمعنى أن بناء النسق يتغير مع تغير أنماط التآزر والصراع.

علم الاجتماع الوجودي

ناقشنا آنفاً في هذا الكتاب^(١) عدداً من النظريات الصغرى التي يمكن تجميعها معاً ضمن نزعة التحديد الاجتماعي (Social definitionism) (Ritzer, ١٩٧٥a; ١٩٧٥b)، وعلوم الاجتماع الإبداعية (Creative sociologies) (M.Morris, ١٩٧٧)، أو علوم

اجتماع الحياة اليومية (Sociologies of everyday life (Douglas, ١٩٧٠; Weigert, ١٩٨٠). ويندرج تحت هذه العناوين المتشابهة نظريات مثل التفاعلية الرمزية، وعلم الاجتماع الظاهراتي، والمنهجية الشعبية.

ويمكن إضافة علم الاجتماع الوجودي Existential sociology إلى هذه القائمة. ولم يحقق علم الاجتماع الوجودي بعد المكانة التي حققتها نظريات التحديد الاجتماعي الأخرى، ومع ذلك فقد أصبح هذا العلم موضوعاً لاهتمام ملحوظ في السنوات الحديثة. وربما يتضح في العقد القادم ما إذا كان علم الاجتماع الوجودي سوف يحتل مكانة مهمة في نظرية علم الاجتماع أم يتراجع إلى الوراء.

ونقدم في البداية تعريفاً أولياً لعلم الاجتماع الوجودي بأنه "دراسة الخبرة الإنسانية في العالم في شتى صورها" (Douglas & Johnson, ١٩٧٧: vii) وانظر تعريفاً مشابهاً في: (Fontana, ١٩٨٤). ويتجه علم الاجتماع الوجودي إلى دراسة الطريقة التي يعيش بها الناس ويشعرون ويفكرون ويتصرفون. ويكرس هذا العلم اهتماماً خاصاً بالمشاعر والانفعالات الوجدانية بالإضافة إلى الطبيعة المعقدة والكائنة للخبرات الهادفة (Douglas & Johnson, ١٩٧٧: aiii). (من المجالات الحديثة نسبياً داخل علم الاجتماع الوجودي "علم اجتماع العواطف" Sociology of emotions الذي يهتم أيضاً بتلك القضايا. انظر على سبيل المثال: (Kemper, ١٩٧٨a, b, ١٩٨١). وفي سياق هذا التعريف يرفض علم الاجتماع الوجودي - الرؤية أحادية السبب للحياة الإنسانية؛ فالإنسان - من وجهة نظر علم الاجتماع الوجودي- "متنوع، ومتغير، وشكاك، وميال إلى الصراع، وحر إلى حد جزئي في اختيار ما سوف يفعله وما سيصير عليه؛ لأنه يتعين عليه أن يكون كذلك ليوحد في مجتمع متنوع ومتغير وشكاك وملئ بالصراع" (Douglas, ١٩٧٧: ١٤). وهذا يؤكد على أطروحة أساسية في علم الاجتماع الوجودي مؤداها أن الناس أحرار ومقيدون معاً.

وهذه الفكرة ومعها جوانب أخرى عديدة من علم الاجتماع الوجودي مستمدة من أعمال جان بول سارتر الروائي والفيلسوف الفرنسي. وما يهم علماء الاجتماع بصفة خاصة محاولة سارتر ربط الحرية الفردية بالقيود المجتمعية. وقد سعى سارتر إلى دمج اهتماماته الظاهرية المبكرة واهتماماته الماركسية المتأخرة في وحدة جدلية متكاملة. وفي رأي إيان كريب (١٩٧٦) أن فكر سارتر مر بتطور حيث نراه يركز في أعماله المبكرة على المستوى الفردي خاصة الحرية الفردية. وهنا نجده يعتنق وجهة النظر القائلة بأن الناس لا يذعنون أو يتقيدون بأية قوانين اجتماعية. وبعبارة أخرى "لا يستطيع الإنسان تبرير أفعاله بالاحتكام إلى أي شئ خارج ذاته" (Craib, ١٩٧٦: ٤). ومع ذلك فقد أصبح سارتر في أعماله المتأخرة أكثر افتناناً بالنظرية الماركسية، ونتيجة لذلك حول اهتمامه إلى "الفرد الحر الكائن في بناء اجتماعي قوي ومضطهد يحد من نشاطه ويؤدى

إلى اغترابه" (٩: ١٩٧٦, Craib). ولم يتحول سارتر ببساطة إلى هذا الاهتمام على المستوى المجتمعي، ولكنه سعى إلى دمج هذا الاهتمام باهتمامه المبكر بالفاعل. ويخلص كريب إلى أن سارتر نجح مؤخراً في توحيد النظرية: الكبرى والصغرى. وفي تحليلها لأعمال سارتر ترى جيلا هايم (١٩٨٠) تواسلاً بين أعماله المبكرة والمتأخرة؛ ففي كتابه " الوجود والعدم" Being and Nothingness المنشور عام ١٩٤٣ ركز سارتر بدرجة أكبر على الفرد الحر، وتبنى وجهة النظر القائلة بأن " الوجود يتحدد من خلال أفعال الفرد... فالفرد جماع ما يفعله" (٣: ١٩٨٠, Hayim). وهاجم سارتر في ذات الوقت وجهة النظر السوسولوجية القائلة بأن "الأبنية الموضوعية تحدد السلوك بدرجة تامة" (P.٥).

وفي رأى سارتر والوجوديين بصفة عامة أن الفاعلين لديهم القدرة على تجاوز الحاضر والتحرك نحو المستقبل. ومن ثم فإن الناس أحرار في رأى سارتر، وهم مسئولون عن كل شيء يفعلونه؛ وليست لديهم أعذار في ذلك. وهذا يمثل من ناحية مصدراً هائلاً للألم عند الناس، أى مسئوليتهم عن الحرية (P.١٧). كما يمثل من ناحية أخرى مصدراً للتفاؤل لدى الناس، أى أن مصائرهم فى أيديهم.

وفي كتابه "نقد المنطق الجدلي" Critique of Dialectical Reason المنشور عام ١٩٦٣ كرس سارتر اهتماماً أكبر بالأبنية الاجتماعية، ومع ذلك فقد شدد هنا على امتياز الإنسان بالتسامى، أى تجاوز الواقع (١٦: ١٩٨٠, Hayim). وبهذا كان سارتر ناقداً لكثير من الماركسيين (أنصار الحتمية الاقتصادية؛ الماركسيين البنائين) الذين بالغوا فى التأكيد على دور البناء الاجتماعى وأهميته. ومن وجهة نظر سارتر استبعد الماركسيون الدجماطيقيون (القطعيون) العنصر الإنسانى من الأفكار الأصلية لماركس (P.٧٢). وقد أبقى سارتر كفيلسوف وجودى على هذه النزعة الإنسانية دوماً.

وقد قدمت أندريا فونتانا صورة واضحة عن علم الاجتماع الوجودى استعارتها من قصة قصيرة كتبها جورج أورويل بعنوان "اصطياد الفيل":

"بمجرد أن لمحت الفيل أدركت بما لا يدع مجالاً للشك أنه لا يتعين على إطلاق النار عليه ... وقررت أن أراقبه لبرهة لأتأكد من أنه لم يعد إلى وحشيته مرة ثانية وعاد بعدها إلى بيته ... وفى تلك اللحظة ألقى نظرة على حشد ضخم من الناس كانوا يتبعوننى ويراقبونى ... ولم يكن هؤلاء الناس يحبوننى، ولكنهم كانوا يراقبون البندقية السحرية فى يدي ... وفجأة أدركت أنه يتحتم على إطلاق النار على الفيل برغم كل شيء ... وتوقع الناس منى أن أفعل ذلك، وكان على أن أفعل ذلك، وشعرت برغبتهم تدفعنى إلى الأمام قدماً دون أدنى مقاومة".

(Fontana, ١٩٨٠:)

وتوضح هذه الصورة الموجزة عدة عناصر أساسية للفكر الوجودي:

أولها أن الاهتمام ينصب على الفاعل (وهو الصياد فى هذا المثال) وأفكاره وأفعاله، **وثانيها** هناك الطبيعة المعقدة والكائنة للحياة الاجتماعية، فلو ترك الأمر للصياد ما كان سيقوم بإطلاق النار على الفيل. ومع ذلك وجد نفسه فى موقف دفعه لتغيير مسار فعله.

وثالثها هناك الموقف الاجتماعى، أى الحشد الذى أجبر الصياد على إطلاق النار على الفيل.

وأخرها هناك أطروحة سارتر بشأن "الإيمان الفاسد" Bad faith. فالصياد لم يكن لديه النية على إطلاق النار على الفيل، ولم يكن لديه خيار ليعترض على ضغط الحشد.

وهذا يوضح الأطروحة السياسية للفلسفة الوجودية. فعلى الرغم من وجود ضغوط خارجية، فليس بإمكان الفرد دائماً أن يقول "لا". ويقوم الضابط فى معسكر الاعتقال النازى بممارسة الإيمان الفاسد عندما يقول إنه يقوم فقط بتنفيذ الأوامر، فليس بوسعها أن تقول "لا".

وعلى الرغم من أن علم الاجتماع الوجودي ينتهى إلى استنتاجات سياسية متميزة عن الأفعال، إلا أن التوجه الرئيسى لهذا العلم لا يسهل تمييزها عن توجه نظريات التحديد الاجتماعى الأخرى التى ترى أن الفاعل لديه قدر من الاستقلالية حتى فى ظل قيود خارجية معينة. ومع ذلك فإن الخصائص الفريدة لعلم الاجتماع الوجودي تصبح أكثر وضوحاً عندما نميزها عن خصائص أقرب جيرانه من الناحية النظرية، علم الاجتماع الظاهراتي^(١).

الوجودية والظاهراتية

لعلم الاجتماع الوجودي وعلم الاجتماع الظاهراتي مصادر فلسفية متشابهة، فكلاهما له جذوره العميقة فى الظاهراتية الفلسفية خاصة أعمال إدموند هوسرل. وعلى الرغم من أن علماء الاجتماع الظاهراتي يعترفون بهذا المصدر، فإن علماء الاجتماع الوجودي حاولوا أن يفصلوا أنفسهم عن كل من الظاهراتي الفلسفية والسوسيولوجية. وقد لاحظ كريب (١٩٧٦) على سبيل المثال أنه على الرغم من تأثر سارتر بهوسرل، فإنه لم

Tiryakian, ;)

()
(Manning,

يكن ميالاً إلى قبول فكرة الجوهر (أو الماهية) أو الأبنية الثابتة للوعي. وباستبعاد هذه الأبنية من نظريته ترك سارتر الوعي فارغاً من الأبنية اللانهائية، فالوعي يُفهم على أنه علاقة داخل الفاعل مع العالم الخارجى.

وقد اهتم هربرت سديجلبيرج (١٩٧٦) اهتماماً شديداً بتمييز وجودية سارتر عن ظاهراتية هوسرل على النحو التالى:

أولاً تتطلع الظاهراتية إلى أن تكون علماً دقيقاً، إما الوجودية فليست لها تطلعات مشابهة لذلك.

ثانياً أن الظاهراتية تدع عالم الحياة اليومية جانباً لى تبلغ جوهر الوعي، فى حين تركز الوجودية على عالم الحياة اليومية. ومع أن الوجوديين لا يركزون على الوعي فى حد ذاته، إلا أنهم يقرون أن الوعي الفردى عنصر حاسم فى عالم الحياة اليومية الذى يقومون بدراسته.

ثالثاً أن الظاهراتيين يعتمدون فى منهجهم على الحدس والوصف، فى حين تتحاشى الوجودية الالتزام بمنهج واحد.

رابعاً إذا كان الظاهراتيون يسعون إلى بلوغ جوهر الوعي، فإن الوجوديين يحاولون فهم الموقف الأكبر الذى يحدث فيه التفكير والفعل.

وأخيراً يدرس الظاهراتيون كل أنماط المعتقدات ولا يعبرون عن تفضيلهم لأى نمط بعينه، فى حين يصرح الوجوديون بتفضيلهم لنمط خاص من أنماط الوجود يطلقون عليه "الوجود الحقيقى" Authentic existence. ولتوضيح هذه الفكرة الأخيرة فى سياق المثال السابق نجد أن صائد الفيل لم يكن مستغرقاً فى الوجود الحقيقى، وهدف الفيلسوف الوجودى هو إثارة إحساس الصياد بأنه لم يكن مجبوراً على إطلاق النار على الفيل.

وتفرق أندريا فونتانا (١٩٨٠) بين الوجودية والظاهراتية من خلال بعدين آخرين: أولهما أنه إذا كانت الظاهراتية تهدف إلى الوصول إلى مقولات ذات صبغة عمومية، فإن الوجودية تؤكد على توجه ذى صبغة خاصة. وثانيهما أنه إذا كانت الظاهراتية تنزع لأن تكون تجريدية وغير مستغرقة فى العالم الواقعى، فإن الوجودية تنزع لأن تكون عيانية ومستغرقة فى هذا العالم.

كما أوضحت فونتانا نقطة مفيدة هى أن الفلسفتين: الظاهراتية والوجودية ليستا ذات حدود مشتركة مع علمى الاجتماع المستمدتين منهما. فعلم الاجتماع الوجودى يختلف عن الفلسفة الوجودية فى أن الأول يسعى إلى اكتشاف البناء المنظم للحياة اليومية، ولكنه لا ينكر فى نفس الوقت الطبيعة الكائنة والمعقدة للحياة اليومية، كما أنه لا ينكر حقيقة أن

معرفة بالحياة اليومية تعد إشكالية في حد ذاتها. وعلى الرغم من أن علم الاجتماع الوجودي ليس مقصوداً على منهج بعينه، إلا أن أنصاره يميلون إلى الاعتماد على الملاحظة الشخصية والملاحظة المشاركة.

وحول الفروق بين علم الاجتماع الوجودي وعلم الاجتماع الظاهراتي أوضحت فونتانا أن علم الاجتماع الوجودي - لطبيعته الأساسية - ليس منفصلاً عن عالم الحياة اليومية مثل علم الاجتماع الظاهراتي. يضاف إلى ذلك أنه إذا كان علماء الاجتماع الظاهراتي يميلون إلى التركيز على العناصر الروتينية للحياة الاجتماعية، فإن علماء الاجتماع الوجودي لا يحرصون أنفسهم في هذا النطاق، ويهتمون بكافة جوانب الحياة اليومية.

ومن الحتمي أن تتطوى المقارنات بين النظريات على تفضيل لإحداها على الأخرى. ويبدو أن فونتانا - على سبيل المثال - تفضل علم الاجتماع الوجودي الأكثر واقعية والأكثر اصطبغاً بالطابع السياسي. ويبدو أن سبيلبيرج يتخذ موقفاً مضاداً إذا كنا بصدد الحديث عن الفلسفتين: الظاهراتية والوجودية. وهو يعترف بأن هاتين الفلسفتين متشابهتان، ولكنه انتقد الفلسفة الوجودية عند سارتر لاهتماماتها الانتقائية، وتفسيراتها المتعجلة، وأوصافها غير الوافية. ويخلص سبيلبيرج إلى أن "الوجودية ربما تكون محاولة أكثر أهمية وذات رؤى أكثر فائدة من الفلسفة الظاهراتية البحتة، إلا أن الوجودية لا يزال عليها أن تتعلم دروساً قليلة من الظاهراتية القديمة خصوصاً ظاهراتية هوسرل" (P. ٢٦٦).

الاهتمامات الرئيسية

يلتزم علم الاجتماع الوجودي التزاماً صارماً بالدراسة الطبيعية للفاعلين وأفكارهم ومشاعرهم وأفعالهم. ويؤكد هذا العلم - في سياق هذا المجال العام - على عدة ظواهر. ويهتم علماء الاجتماع الوجودي [مثل ماننج (١٩٧٦) وكوتاربا (١٩٧٩)] اهتماماً قوياً بالمشاعر والأحاسيس وما شاكلها في تعارض شديد مع نزوع معظم علماء الاجتماع إلى التأكيد على الجوانب الرشيدة للوجود الإنساني (يستثنى من ذلك: كمبر ١٩٧٨a; ١٩٨١; ١٩٧٨b). ويعبر جوزيف كوتاربا عن أهمية دراسة المشاعر بالنسبة لعلم الاجتماع الوجودي بقوله: "نعطى الأولوية في جميع أعمالنا للتأكيد والالتزام الصارم بفهم كيفية تشكيل المشاعر لأسس حياتنا، إلى جانب الواقع الاجتماعي المعقد الذي نشكله" (٣٥٠: ١٩٧٩). وبعبارة أخرى فإن فهمنا للناس ومنتجاتهم الاجتماعية يتحقق بدراسة المشاعر الإنسانية.

ومن الاهتمامات الأخرى لعلم الاجتماع الوجودي دراسة الذات (Kotarba and)

١٩٨٤ Fontana) أو الخبرة الكلية للفرد بالوجود. وفي رأى كوتاربا أن الذات الوجودية تعنى الخبرة الفريدة للفرد بالوجود فى سياق الأوضاع الاجتماعية المعاصرة، تلك الخبرة التى يميزها بدرجة واضحة الإحساس المتواصل باللياقة والمشاركة الفاعلة فى التغيير الاجتماعى (٢٢٥: ١٩٨٤). ولا يمكن فصل الذات – فى رأى الفيلسوف الوجودى – عن الجسد الفيزيقي الذى توجد فيه. وتبدو العلاقة بين الأبعاد العقلية والفيزيكية للحياة علاقة مهمة وتستحق الدراسة (Kotarba, ١٩٧٧). والذات ليست بناءً استاتيكيًا، ولكنها عملية، أى بمثابة شئ فى حالة مستمرة من اللياقة (Johnson & Ferraro, ١٩٨٤). وهذا يعنى أن الذات مبدعة وعفوية وتتأثر تأثراً شديداً بالوسط المباشر الموجودة فيه. وبهذا المعنى تتسم الذات بطبيعة معقدة وكائنة.

الآفاق المستقبلية

ما هى الآفاق المستقبلية لعلم الاجتماع الوجودى؟ يتعين على علم الاجتماع الوجودى – لكى يتبوأ مكانة مهمة – أن يتغلب على عدة مشكلات:

أولها أنه ينبغى على مناصرى هذا العلم إقناع عدد كبير من علماء الاجتماع بأن علم الاجتماع الوجودى يقدم شيئاً يختلف ويتفوق على ما تقدمه علوم اجتماع الحياة اليومية الأكثر رسوخاً.

وثانيها أن علم الاجتماع الوجودى – على الرغم مما طرحه سارتر فى أعماله الأخيرة – لم يعد لديه الكثير الذى يقدمه إلى فهمنا للأبنية الكبرى وعلاقتها بالعمليات الصغرى.

وثالثها أن الوجودية بحاجة إلى فهم أفضل للتاريخ؛ حيث أنها تعد لا تاريخية إلى حد كبير. وقد حاول كوتاربا (١٩٧٩) أن يتعامل مع هذه المشكلة تعاملاً مباشراً عندما ادعى أن علم الاجتماع الوجودى تاريخى؛ لأنه يؤدى بالباحثين إلى أن يكونوا ناقدين للوثائق التاريخية باعتبارها نتاجاً "مضللاً" لسياق تاريخى معين. ودعا كوتاربا الوجوديين إلى استخدام الاستغراق الوجدانى Empathic immersion فى التاريخ كاستراتيجية بحثية.

وهناك قضية أخيرة تتعلق بمستقبل علم الاجتماع الوجودى؛ وهى أنه يمثل الموضوع المفضل لطليعة المثقفين من البورجوازية الشابّة فقط لأنه يخاطب اهتماماتها. ويعزز كوتاربا فى تحليله هذا الرأى بقوله: "تعدّ المشاعر أكثر أهمية لعلم الاجتماع عن ذى قبل. وقد أصبح مجتمعنا يتميز باطراد بهيمنة المشاعر. وهذا ما يتضح فى مجالات الجنس وتعاطى المخدرات والسلوك العنيف" (٣٥٨: ١٩٧٩). وهذا ما يؤدى إلى دهشة الباحث مما إذا كان علم الاجتماع الوجودى سوف يستمر فى الاهتمامات الأنيقة لطليعة

المتففين من هذا الجيل. وعلى الرغم من أن علم الاجتماع الوجودى له بعض الجذور النظرية المتينة، إلا أنه يتعين علينا أن ننتظر لنرى ما سيكون عليه الحال فى المدى الطويل.

الخلاصة

كُرس معظم هذا الفصل للحديث عن عدد من النظريات التى حظيت بالقبول فى علم الاجتماع بدرجات متفاوتة. ويبدو أن نظرية الفعل أفل نجمها نتيجة لتناقضاتها الداخلية إلى جانب أن مقدماتها الأساسية ونتائجها الأكثر جدوى اقتبسها نظريات أكثر شيوعاً. وقد حظيت نظرية النظم بازدهار لفترة وجيزة، إلا أن بريقها انطفأ فى السنوات القليلة الماضية نتيجة للهجوم على نتائجها المتواضعة، ونزعتها العلمية الزائفة، وطبيعتها الأيدولوجية المحافظة.

كما ناقشنا أربع نظريات فى علم الاجتماع يزداد رواجها فى الوقت الراهن، وهى: البنيوية، والنظرية البنائية، ونظرية شبكة العلاقات، وعلم الاجتماع الوجودى. وتمثل البنيوية محاولة لتستورد لعلم الاجتماع منظوراً تطور فى مجالات أخرى مثل علم اللغة والأنثروبولوجيا. وعلى الرغم من بشائر النجاح الضخم الذى حققته البنيوية، إلا أن البنيويين لم يوضحوا بعد تطبيق نظريتهم على مجال رحب من القضايا الاجتماعية. ومع ذلك نجد أن أعمال ميشيل فوكو قابلة للتطبيق على جوانب متعددة للعالم الاجتماعى، إلا أن فوكو تجاوز البنيوية، وأصبح ممثلاً لما بعد البنيوية.

وترفض النظرية البنائية (خاصة أعمال بيتر بلاو) الاهتمام الصريح للبنيوية بالأبنية غير المنظورة، حيث تهتم النظرية البنائية بالأبنية الاجتماعية المنظورة. وإذا كانت البنيوية قد استعارت أفكاراً من مجالات أخرى، فإن النظرية البنائية رجعت إلى الجذور الدوركايمية لعلم الاجتماع.

ومن المداخل البنائية الأخرى التى ناقشناها فى هذا الفصل نظرية شبكة العلاقات التى تتجه أيضاً إلى تحليل الأبنية الاجتماعية الأساسية. وترتبط هذه النظرية ارتباطاً وثيقاً بالتيار الرئيسى فى علم الاجتماع، وقد أجريت دراسات إمبريقية على درجة عالية من الدقة لشبكات العلاقات الاجتماعية فى العالم الاجتماعى.

ويشكل علم الاجتماع الوجودى جزءاً من الازدهار فى النظريات المرتبطة بنموذج التحديد الاجتماعى الذى يشتمل أيضاً على الظاهرية والمنهجية الشعبية. ولا يهتم علم الاجتماع الوجودى بالأبنية المنظورة أو غير المنظورة، ولكنه يركز – بدلاً من ذلك – على الفاعلين وأفكارهم وأفعالهم. ويرتبط مستقبل علم الاجتماع الوجودى بمستقبل نزعة

التحديد الاجتماعي بصفة عامة، فإما أن يستمر كجزء من الازدهار الحادث في علم الاجتماع الظاهراتي أو المنهجية الشعبية، وإما أن يجد نفسه في وضع تنضال فيه أهميته.

الفصل الثامن

ظهور مشكلة رئيسية فى النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع: الربط بين النظريات الكبرى والصغرى^(*)

- أنتونى جيدنز: نظرية التشكيل البنائى.
- يورجين هابرماس: تكامل نظريتى الفعل والنظم.
- جيفرى الكسندر: علم الاجتماع متعدد الأبعاد.
- الأسس الصغرى لعلم اجتماع الوحدات الكبرى.
- مدخل الاختيار الرشيد إلى العلاقات الصغرى - الكبرى.
- ندوة ١٩٧٩ عن الوعى والفعل الإنسانى والبناء.
- ندوة ١٩٨٣ عن التحليلات الكبرى والصغرى فى علم الاجتماع.
- جيمس كولمان: تكامل الفعل والنسق.
- تكامل النزعة الإنسانية والبنوية.
- نحو نظرية للتبادل أكثر تكاملاً.
- نحو نظرية بنائية للفعل.
- ريمون بودو: النزعة الفردية المنهجية.
- الاستنتاجات.

ناقشنا بقدر من التفصيل فى هذا الكتاب^(١) مجموعة كبيرة من نظريات علم الاجتماع. ومما يثير الارتباك أن بعض علماء الاجتماع علقوا حديثاً على ما يبدو أنه أزمة فى النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع (Wardell and Tumer, ١٩٨٦; Wiley, ١٩٨٥). وعلى الرغم من استمرار أهمية النظريات والمنظرين الذين قمنا بدراسة آرائهم

(*)
Ritzer, George. Contemporary Sociological Theory. New York:McGraw-Hill, Inc., pp. - .
()

وتحليلها في هذا الكتاب، إلا أننا نشاهد - في حقيقة الأمر - علامات عديدة في الثمانينيات على تزايد التلاحم في نظرية علم الاجتماع، ذلك التلاحم الذي يتمركز حول ظهور إجماع ضخم على أن المشكلة الرئيسية في نظرية علم الاجتماع هي دراسة العلاقة بين النظريات الكبرى (الماكروسكوبية) والصغرى (الميكروسكوبية) أو المستويات الكبرى والصغرى للواقع الاجتماعي.

وليست هذه هي المحاولة الأولى التي تؤكد فيها على أن مشكلة العلاقة بين النظريات الكبرى والصغرى تمثل قضية نظرية رئيسية. فقد أكد راندال كولينز حديثاً على أن الانشغال بهذه المشكلة يدل على أنها مجال مهم من مجالات التقدم النظري لعدة سنوات قادمة (١٣٥٠: ١٩٨٦a). ومع ذلك فقد خصص كولينز سطوراً قليلة لهذه القضية في سياق مناقشة أعم للاتجاهات النظرية الحالية في علم الاجتماع. وفي تقديمهما لكتاب من مجلدين أولهما خصص للنظرية الكبرى (Eisenstadt and Helle, ١٩٨٥a) وثانيهما للنظرية الصغرى (Helle and Eisenstadt, ١٩٨٥)، اتخذ أيزنشتات وهيل موقفاً مشابهاً، وخلصا إلى أن المواجهة بين النظريات الصغرى والكبرى هي من الأمور التي تنتسب إلى الماضي (٣: ١٩٨٥b)^(١).

وقد تفادى هذا الإجماع البازغ الإشارة إلى هذه القضية، لأنه إجماع اتخذ أشكالاً مختلفة، واستخدم مصطلحات مختلفة تمام الاختلاف، وظهر في أعمال منظرين يختلفون فيما بينهم اختلافاً بيناً. ونجد هذا الإجماع على تلك المشكلة النظرية الرئيسية في مؤلف أنتوني جيدنز (١٩٨٤) عن نظرية التشكيل البنائي؛ وتكامل نظرية الفعل ونظرية النظم عند يورجين هابرماس (٣٤٣: ١٩٨٤)؛ ودعوة جيفري الكسندر (١٩٨٢) إلى تكامل الفعل والنظام [إلى جانب محاولة كرييس (٥٠: ١٩٨٥) تحليل الكوارث مستلهماً العلاقة الجدلية التي حددها الكسندر بين الفعل الاجتماعي والنظام الاجتماعي]. وهناك ورقة بنفس التوجه كتبها بوسورث وكرييس (١٩٨٦)؛ ومحاولة راندال كولينز (١٩٨١a) لوصف الأسس الصغرى للظواهر على المستويات الكبرى [هناك جهود مقرنة بذلك قامت بها كنور - ستينا (١٩٨١) وسيكوريل (١٩٨١)؛ والجهد الذي قام به ميشيل هيشتر (١٩٨٣) لدمج نظرية الاختيار الرشيد مع القضايا الكبرى في علم الاجتماع؛ وندوة ١٩٧٩ عن الوعي والفعل الإنساني والبناء (Secord, ١٩٨٢)؛ وندوة التحليلات الكبرى والصغرى في علم الاجتماع في المؤتمر العالمي للجمعية الدولية لعلم الاجتماع ISA عام ١٩٨٣ (Helle and Eisenstadt, ١٩٨٥; Eisenstadt and Helle, ١٩٨٣)؛ ومحاولة جيمس كولمان (١٩٨٦) لدمج الاهتمام بالفعل الاجتماعي مع سلوك

النسق؛ وتحليل بارى هيندس (١٩٨٦) للعلاقة بين الفاعلين والعلاقات الاجتماعية، ومحاولته لتحاشي الآراء المتطرفة "للنزعة الإنسانية النظرية" و"البنوية"؛ ونظرية التبادل الأكثر تكاملاً عند ريتشارد إيمرسون (١٩٨١)؛ والنظرية البنائية للفعل عند رونالد بيرت (١٩٨٢)؛ والنزعة الفردية المنهجية عند ريمون بودو (١٩٧٩/١٩٨١). وسوف نناقش هذه الأعمال في هذا الفصل، إلا أن هناك محاولات أخرى عديدة لن نستطيع أن نتعامل معها هنا مع أنها تسير في نفس الاتجاه^(١).

وعلى الرغم من التزامنا في هذا الفصل بهذا الإجماع البازغ؛ إلا أنه من الخطأ الكبير أن نذهب بهذا الادعاء إلى أبعد مدى، إذ أن وجود هذا الإجماع على تلك المشكلة الرئيسية لا ينفى - كما سوف نرى في هذا الفصل - اختلاف طرق التنظير حول هذه المشكلة. هذا في الوقت الذي نرى فيه عوامل نظرية قوية للغاية تشد علم الاجتماع بعيداً عن هذه المشكلة الرئيسية وفي اتجاهات أخرى متعددة. وبعبارة أخرى يمكن القول أنه قد صاحب ظهور هذا الإجماع النظري وجود وظهور اتجاهات نظرية تهدد هذا الإجماع قبل أن يترسخ. ويندرج تحت ذلك النظريات المتطرفة التي تتجه نحو المستويات الصغرى وتتكسر أو تقلل من شأن وجود ظواهر على المستويات الكبرى [نذكر من هذه النظريات على سبيل المثال: نظرية التبادل عند هومانز (١٩٦٧، ١٩٦٩، ١٩٧٤)؛ والنزعة السلوكية عند سكنر (١٩٧١) وبولدوين وبلدوين (١٩٨٦)؛ والتفاعلية الرمزية عند بلومر (١٩٦٢/١٩٦٩؛ ١٩٦٩) بالإضافة إلى النظريات التي تتجه نحو المستويات

()
 ()
 () : ()
 Reification
 () /
 ()
 () : ()
 ()
 ()
 ()
 ()
 ()

الكبرى وتتكرر أو تقلل من دور الظواهر على المستويات الصغرى [تذكر من هذه النظريات على سبيل المثال: ارتداد بارسونز (١٩٦٦) عن الحتمية الثقافية؛ والنظرية البنائية عند بلاو (١٩٧٧b, ١٩٧٧a)؛ وبنويوية ميهو (١٩٨٠)؛ وما بعد البنويوية عند فوكوه (٢٣٠: ١٩٧٩: Lemert)، وبعض أشكال نظرية شبكة العلاقات (White, Boorman & Breiger, ١٩٧٦).

ومن المصادر الأخرى للحد من بعض علماء الاجتماع الذين ربطوا بين النظريات الكبرى والصغرى انتهى بهم الحال إلى الاتجاه المتطرف نحو النظريات الصغرى (Hechter, Collins) أو الكبرى (Alexander). وهذا التهديد من داخل مجموعة المفكرين الذين من المفترض أن يركزوا على الربط بين النظريات الكبرى والصغرى ربما يكون أكثر خطورة من المتطرفين نحو النظريات الكبرى أو الصغرى.

ومما يدفع بنا إلى الحذر أيضاً أن ظهور الإجماع على الأهمية المحورية الربط بين النظريات الصغرى والكبرى لا يشكل أمراً جديداً، بل هو إعادة اكتشاف لاهتمام رئيسي شكل العمود الفقري لأعمال معظم المفكرين البارزين في تاريخ علم الاجتماع (ماركس، فيبر، زيمل، وحتى دوركايم). ولم يخبو الاهتمام بالربط بين النظريات الكبرى والصغرى على الرغم من أهميته الواضحة. وليست القضية الحقيقية هي: لماذا اتجه كثير من المنظرين إلى الاهتمام بهذا الربط؟، وإنما القضية هي: لماذا فقد علم الاجتماع هذا الاهتمام لعدة سنوات؟

وفي سياق هذه المحاذير نناقش الآن مجموعة من الأعمال الحديثة المهمة التي نظرت إلى الربط بين النظريات الكبرى والصغرى على أنها تشكل مشكلة رئيسية في نظرية علم الاجتماع.

الربط بين النظريات الكبرى والصغرى:

ظهور مشكلة نظرية رئيسية

إذا ركزنا على الأعمال النظرية المنشورة في أواخر السبعينيات وفي الثمانينات، فسوف نلاحظ أهمية مشكلة الربط بين النظريات الكبرى والصغرى. وليس من العجيب أن يكون الجيل الأصغر من المنظرين (جيدنز، وكولينز، والكسندر، وهستر، وكنور-ستينا) في صدارة هذا النمط من التنظير، في الوقت الذي نزع فيه الجيل الأكبر من المنظرين (بلاو، وكوزر) إلى الاستمرار في اعتناق مواقف نظرية أكثر تطرفاً (باستثناء كولمان). ويدعم هذا الاختلاف بين الجيلين وجهة النظر التي تقول بأننا سوف نشهد في المستقبل قليلاً من التطرف النظري وكثيراً من التكامل النظري.

وقبل أن تنتقل إلى الأمثلة النظرية المهمة على الربط بين الظواهر الصغرى والكبرى يتعين علينا أن نوضح أن دراسات مؤلف هذا الكتاب (Ritzer, 1979; 1981) اهتمت في جانب منها على الأقل بقضية التكامل بين النظريات الكبرى والصغرى^(١).

أنتوني جيدنز: نظرية التشكيل البنائي

ربما تكون نظرية التشكيل البنائي عند أنتوني جيدنز أشهر المحاولات المعروفة لتحقيق التكامل بين الاهتمامات الصغرى والكبرى. وقد طرح جيدنز (٨: ١٩٧٦) هذه النظرية في السبعينيات، إلا أنها ظهرت في شكلها الأكثر تطوراً في كتابه "تكوين المجتمع" (١٩٨٤)، ذلك الكتاب الذي يحمل عنواناً فرعياً هو: موجز لنظرية التشكيل البنائي. وفي هذا الكتاب يذهب بعيداً إلى القول "بأن كل بحث في العلوم الاجتماعية أو التاريخ ينشغل بربط الفعل بالبناء... ولا معنى للقول بأن البناء يحدد الفعل أو العكس" (٢١٩: p).

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب مؤلف من عناصر مستمدة من روافد مختلفة، إلا أن هناك تأثيراً ماركسياً قوياً فيه، وهو يرى أن كتابه "تكوين المجتمع" تجسيد متواصل لمقولة ماركس (١٥: ١٨٦٩/١٩٦٣) المأثورة: "الناس يصنعون تاريخهم، ولكنهم لا يصنعونه بالطريقة التي ترضيهم. فهم يصنعون التاريخ في ظل ظروف يختاروها بأنفسهم، ولكنها ظروف تنتقل إليهم من الماضي". (١٥: ١٨٦٩ / ١٩٦٣)^(٢).

وقد اهتم جيدنز بقضية الربط بين الظواهر الكبرى والصغرى، إلا أنه لم يستخدم مصطلحي "الكبرى" و"الصغرى" لعدة أسباب أولها أنه يشعر أن هذين المصطلحين كانا مجالاً للخلاف بين علماء الاجتماع، وهو لا يعتقد أن أحدهما يجب أن تكون له الأفضلية على الآخر. وثانيهما أنه حتى عندما لا يكون هناك صراع بين النظريات الكبرى والصغرى، إلا أن ثمة اتجاه إلى تطوير تقسيم غير وظيفي للعمل بين نظريات علم الاجتماع، بمعنى أن نظريات مثل التفاعلية الرمزية تنزع إلى التركيز على أنشطة الفاعلين الأحرار، في حين تركز نظريات مثل الوظيفية البنائية اهتمامها بالقيود البنائية. وفي النهاية يخلص جيدنز إلى أن "التمييز بين النظريات الصغرى والكبرى ليس مفيداً". (١٤١: ١٩٨٤).

(-)

()

()

(Ritzer, :)

لأسباب أفعالهم (٦٠, ٥, PP). ولدى الفاعلين دوافع للفعل، وهذه الدوافع تحتوى على الرغبات التى تحت على الفعل. وعلى الرغم من أن المراقبة الانعكاسية والترشيد يتضمنها الفعل بصفة مستمرة، فإنه من الأفضل أن نفكر فى الدوافع على أنها بمثابة قوة دافعة للفعل. وتحدد الدوافع الغايات العامة للفعل، إلا أن معظم أفعالنا - فى رأى جيدنز - لا تحركها الدوافع بشكل مباشر. والدوافع لا شعورية بصفة عامة، إلا أنها مهمة بالنسبة للسلوك الإنسانى. وفيما يتعلق بالوعى يميز جيدنز بين الوعى الخطابى Discursive (القدرة على التعبير عن الأشياء بالكلام)، والوعى العملى Practical (ما يتم القيام به دون القدرة على التعبير عنه بالكلام). ويرى جيدنز أن الوعى العملى له أهمية خاصة بالنسبة لنظرية التشكيل البنائى، وهو الاهتمام الذى تشترك فيه تلك النظرية مع النظريات الصغرى الذاتية مثل التفاعلية الرمزية والمنهجية الشعبية، وهو نفس الاهتمام الذى تتجاهله النظريات الكبرى مثل الوظيفية البنائية والبنوية.

وينتقل جيدنز من الفاعلين إلى الفعل، أى الأشياء التى يقوم الفاعلون بها. ولا يتعلق الفعل بنوايا الفاعلين، ولكنه يتعلق بما يقوم به الفاعلون فعلاً: "يتعلق الفعل بالأحداث التى يصوغها الفرد.. وما حدث لم يكن ليحدث ما لم يتدخل فيه الفرد" (٩, p). وقد بذل جيدنز جهداً واضحاً ليفصل الفعل عن النوايا (المقاصد)؛ لأنه كان يريد أن يوضح أن ما ينتهى إليه الفاعلون غالباً ما يكون مختلفاً عما كانوا يقصدونه؛ وبعبارة أخرى فإن الأفعال المقصودة غالباً ما يكون لها نتائج غير مقصودة.

ويربط جيدنز الفعل بالقوة، بمعنى أن الفاعل لديه المقدرة على التأثير. والأهم من ذلك أن الفاعل يكف عن كونه فاعلاً إذا انتقد المقدرة على التأثير. ومن المؤكد أن جيدنز يعترف أن هناك قيوداً فى العالم، إلا أن ذلك لا يعنى أن الفاعلين لا خيار لهم. والقوة - فى رأى جيدنز - تسبق الذاتية منطقياً؛ لأن الفعل يتضمن القوة أو القدرة على تغيير الموقف. ومن ثم يعترض جيدنز على النظريات الثنائية التى تنزع إلى مطابقة القوة إما مع نية الفاعل (التفاعلية الرمزية) أو مع البناء (الوظيفية البنائية).

وتشكل مفاهيم البناء، والنسق، وازدواجية البناء جوهر نظرية التشكيل البنائى. ويعرف البناء بأنه "تلك الخصائص البنائية (القواعد والموارد) التى تسمح بعقد الصلة بين الزمان والمكان فى إطار النسق الاجتماعى، وهى خصائص تجعل من الممكن للممارسات الاجتماعية الملاحظة، التى يمكن تمييزها بصعوبة نظراً لشدة تشابهها، أن توجد عبر مجالات زمانية ومكانية مختلفة وتضفى عليها شكلاً منتظماً". ويقصد بالأنساق الاجتماعية الممارسات الاجتماعية التى يُعاد إنتاجها، أو "العلاقات التى يُعاد إنتاجها بين الفاعلين أو الجماعات، تلك العلاقات التى تنتظم كممارسات اجتماعية مطردة" (١٧, PP). (٢٥). والأنساق الاجتماعية ليست لها أبنية، ولكنها تتصف بخصائص بنائية، ويتجلى

البناء فى الأنساق الاجتماعية "فى الممارسات التى يعاد إنتاجها ويطوقها الزمان والمكان" (P. ١٧٠) وفى "بقايا الذاكرة الموجهة لأفعال الفاعلين الإنسانيين الذين يتمتعون بمعرفة كفاءة" (P. ١٧). ويربط جيدنز البناء (كقواعد وموارد) بكل من المستويات الكبرى (الأنساق الاجتماعية) والصغرى (الذاكرة)، ويرى أن هذا التكامل مهم، حيث يقول: "أحد الافتراضات الأساسية لنظرية التشكيل البنائى هى أن القواعد والموارد المعتمدة على إنتاج وإعادة إنتاج الفعل الاجتماعى هى فى نفس الوقت وسائل إعادة إنتاج النسق (ازدواجية البناء)" (P. ١٩).

لقد أصبحنا الآن مستعدين لمفهوم التشكيل البنائى الذى يقوم على فكرة مؤداها أن "تشكيل الفاعلين والأبنية ليسا ظاهرتين مستقلتين (أى ثنائيتان) ولكنهما تمثلان ازدواجية... فالخصائص البنائية للأنساق الاجتماعية هى بمثابة وسيلة ونتيجة للممارسات التى تنظمها بصورة متكررة" أو أن "لحظة إنتاج الفعل هى أيضاً لحظة إعادة إنتاجه فى سياق الأحداث اليومية للحياة الاجتماعية" (٢٦, ٢٥ PP). وقد أوضحنا أن البناء ليس خارجاً عن الفاعل، فهو موجود فى كل من بقايا الذاكرة والممارسات الاجتماعية. وقد أوضح جيدنز بشكل حاسم أن "البناء دائماً ما يعيق الفرد عن تحقيق ما يريده من ناحية، ويمكنه من تحقيق ما يريده من ناحية أخرى (١٦٣, ٢٥ PP). وبذلك يتعد جيدنز عن المفهوم الدوركايمى للبناء بأنه يعيق الفرد عن تحقيق ما يريده. ومع ذلك فإن الفاعلين يمكن أن يفقدوا السيطرة على "الخصائص البنائية للأنساق الاجتماعية" مع امتداد الزمان والمكان، إلا أن فقدان هذه السيطرة ليس أمراً حتمياً.

وتعد فكرة النتائج غير المقصودة إحدى ركائز مدخل جيدنز، ويقصد بذلك أن أفعال الناس لها نتائج غير مقصودة بصفة مستمرة. وهذه النتائج تصبح شروطاً غير معروفة للفعل وتغذية تغذية مرتدة، وتحول تلك الشروط دون جهود السيطرة عليها. ومع ذلك يبذل الفاعلون قصارى جهدهم بصفة مستمرة لوضع تلك النتائج غير المقصودة تحت السيطرة.

وهناك الكثير الذى يمكن أن نقدمه هنا عن نظرية التشكيل البنائى؛ فقد أسهب جيدنز فى العناصر المتعددة التى ناقشناها آنفاً، وأوجز فى عناصر أخرى، وقام بتحليل ونقد كثير من الأفكار النظرية. وعلى خلاف مع كثير من المنظرين ذهب جيدنز فيما وراء مشروع التكامل بين الظواهر الكبرى والصغرى، حيث قدم تحليلاً مفصلاً لعناصره المتعددة، والأهم من ذلك أنه ركز على طبيعة العلاقة التبادلية بين الظواهر. ولعل أكثر الأمور إقناعاً فى مدخل جيدنز هى أن اهتمامه الأساسى - أى التشكيل البنائى - تم تعريفه بمصطلحات متكاملة تكاملاً متلازماً. وليس تشكيل الفاعلين والأبنية مستقلين عن بعضهما البعض، كما أن خصائص الأنساق الاجتماعى هى بمثابة وسيلة ونتيجة

لممارسات الفاعلين، وهذه الخصائص تنظم ممارسات الفاعلين بصورة متكررة.

يورجين هابرماس: تكامل نظريتي الفعل والنظم

اتجه يورجين هابرماس في أحدث مؤلفاته "نظرية الفعل الاتصالي" (١٩٨٤) إلى مدخل أكثر تكاملاً في التنظير الاجتماعي كما يدل على ذلك العنوان الفرعي لهذا الكتاب: المنطق وترشيد المجتمع. وقد ركزنا في الفصل الرابع^(١) على دراساته حول الفعل الاتصالي العقلاني. ويرى هابرماس نفسه في هذه الدراسات يعمل في سياق نظرية الفعل ويعززها. وقد حوّل هابرماس بعضاً من اهتماماته إلى تحقيق التكامل بين نظرية الفعل ونظرية النظم (٣٤٣: ١٩٨٤)، حيث يميز بين عالم الحياة (عالم على المستوى الأصغر يتوصل فيه المشاركون في الاتصال إلى فهم مشترك حول شيء ما) (P. ٣٣٧) والنسق الاجتماعي الأكبر وأنساقه الفرعية. وينبغي القيام بهذا التمييز بين عالم الحياة والنسق الاجتماعي، ودراسة ترشيد كل منهما دراسة مستقلة، وبدون ذلك يمكن أن توقعه جهوده – أي هابرماس – لتحقيق التكامل النظري في نفس الشرك الذي وجد بارسونز نفسه فيه، بمعنى أن نظرية النظم يمكن بسهولة أن تمتص نظرية الفعل وتخضع لها. ولم يكن هابرماس يرغب لنظرية الأنساق على المستويات الكبرى أن تسحق نظرية الفعل، وبالتالي حاول أن يطور مدخلاً لتحقيق التكامل بين هاتين النظريتين.

ويفرق هابرماس – على نحو مميز – بين ترشيد النسق الاجتماعي (المجتمع) وترشيد عالم الحياة. فإذا كان الترشيد المجتمعي يتضمن إضفاء الطابع المؤسسي على النسق المعياري، فإن ترشيد عالم الحياة يسمح بالتفاعلات التي لا يوجهها الاتفاق المعياري الموروث، وإنما يوجهها الفهم الاتصالي المكتسب توجيهاً مباشراً وغير مباشر (P. ٣٤٠). وبعبارة أخرى، فإن ترشيد عالم الحياة يتطلب أن يتوصل الناس إلى اتفاق بإرادتهم الحرة بدلاً من وصولهم إلى اتفاق تحدده عوامل خارجية.

واستناداً إلى التمييز بين الترشيد عند هذين المستويين يزعم هابرماس أن الترشيد في العالم المعاصر لا يحدث بمعدل متساوٍ؛ فالنسق الاجتماعي يترشد بدرجة أسرع من عالم الحياة. ونتيجة لذلك أصبح عالم الحياة يسوده نسق اجتماعي رشيد. ولذلك أصبحت الحياة اليومية مسلوبة القوة، "أصبح عالم الحياة مقفراً لا حياة فيه بدرجة متزايدة" (McCarthy, ١٩٨٤: xxxvii). ويكمن الحل – في رأى هابرماس – في التحرر من الاستعمار المجتمعي لعالم الحياة بما يسمح له أن يترشد بالطريقة المناسبة له (الاتفاق الاتصالي الحر).

وبإضافة عالم الحياة والمجتمع إلى دائرة اهتمامه بالفعل الاتصالي، حدد هابرماس لنفسه في السنوات الحديثة مهمة أكثر طموحاً وتكاملاً، وبهذا تحول بعيداً عن جذوره في النظريتين الماركسية والنقدية إلى الانشغال بأعمال كل من بارسونز (مستوى النسق) وشوتز (عالم الحياة). ويتعهد هابرماس الآن بمزيد من التكامل في تحليلاته المقبلة لأعمال ميد مع تأسيسه النظرى الاتصالي لعلم الاجتماع، ولأعمال دوركايم مع نظريته في التضامن الاجتماعى التى تربط بين التكامل الاجتماعى وتكامل النسق (Habermas, ١٩٨٤: ٣٩٩).

ويهتم هابرماس بدراسة التكامل على المستويين: النظرى والأنطولوجى. فعلى المستوى النظرى نجده يسعى إلى ربط نظرية الفعل ونظرية النظم. وعلى المستوى الأنطولوجى يحاول توطيد العلاقة بين عالم الحياة والنسق الاجتماعى. ويعد هابرماس نموذجاً يقتدى به فى دراسة التكامل على المستويين: النظرى والأنطولوجى.

جيفرى الكسندر: علم الاجتماع متعدد الأبعاد

يبحث جيفرى الكسندر فى المجلد الأول من عمله الرائد (الذى لاقى نقداً): "المنطق النظرى فى علم الاجتماع" عن منطق نظرى جديد لعلم الاجتماع (xv: ١٩٨٢). وهذا المنطق الجديد يؤثر فى الفكر السوسولوجى عند كل مستوى من مستويات المتصل الفكرى (٦٥ P). ويفضل الكسندر مصطلح علم الاجتماع متعدد الأبعاد الذى يتضمن تناوباً بين الحرية والقسر (٧٤ P). ويقوم هذا المنطق على افتراضين عامين أولهما يتصل بمشكلة الفعل Action أو "الطبيعة الخاصة للمعايير والدوافع" (٧٠ P)، وثانيهما يتعلق بمشكلة النظام Order أو بالكيفية التى يصبح بها تعدد هذه الأفعال مترابطاً ومنظماً (٩٠ P).

ودعونا نبدأ بمشكلة النظام؛ لأنها أكثر مشكلات الربط بين الظواهر الكبرى والصغرى وضوحاً. ويرى الكسندر أن هناك متصلاً كبيراً – صغيراً Macro-Micro Continuum (المستوى الفردى أو الجمعى للتحليل) (٩٣ P) ينشأ عليه النظام فى المجتمع. وعند الطرف الأكبر من المتصل ينشأ النظام من عوامل خارجية ويكون جمعياً فى طبيعته (أى ينجم عن الأبنية الجمعية)، وعند الطرف الآخر ينشأ النظام من عوامل داخلية ويكون فردياً فى طبيعته (أى ينجم عن التفاوض الفردى). ويتضمن الفعل متصلاً مادياً – مثالياً يتضمن أيضاً بُعداً كبيراً – صغيراً. فعند الطرف المثالى (الذاتى) يتصف الفعل بأنه معيارى (بما يدلل على الذاتية على المستوى الأكبر) وغير رشيد وعاطفى. وعند المستوى المادى (الموضوعى) يكون الفعل هادفاً (بما يدلل على الموضوعية على المستوى الأصغر) ورشيداً وشرطياً.

وعلى الرغم من أن الكسندر لم يقارن صراحة بين متصلى الفعل والنظام، فقد ألمح إلى إمكانية القيام بذلك فى حاشية كتابه فى تعليقه على دراسة أندرو إفرات، حيث يقول: "تتشابه دراسة إفرات مع مدخلنا إلى النظام. وقد قام إفرات بإجراء تقاطع لمعيار الذات/ الموضوعى عنده مع فئة "مستويات التحليل" التى تتماثل بصفة أساسية مع التقسيم الفردى/ الجمعى" (P. ٢١١).

ولذلك يمكن تصوير اتجاه الكسندر بالطريقة التالية:

شكل (٨-١)

النموذج التكاملى عند الكسندر

النظام		الأبنية المادية	الفعل
المعايير	جمعى		
معيارى		هادف	
(مثالى)		(مادى)	
الفعل الاختيارى	فردى	الفعل الرشيد	

ومع أن نموذج الكسندر ييشر بتحقيق التكامل بين الظواهر الكبرى - الصغرى، فقد انتهى به الأمر إلى تبنى نظرية محدودة للغاية. ويرفض الكسندر تحديداً جميع النظريات (مثل التفاعلية الرمزية) التى تبدأ عند المستويات الصغرى بالفعل الاختيارى لتصل إلى المستويات الكبرى. وفى رأيه أن إشكالية هذه النظريات أنها على الرغم من أنها تُبقى على الحرية والنزعة الاختيارية الإرادية الفردية، إلا أنها أخفت فى معالجة الصفات الفريدة للظواهر الجمعية. كما يرفض الكسندر النظريات التى تبدأ بالفعل الرشيد وتربطه بالأبنية المادية كالاقتصاد (مثل نظرية التبادل)، ويرفض أخيراً النظريات المادية "الجمعية الرشيدة" (مثل الحتمية الاقتصادية والبنائية) التى تؤكد على النظام القسرى وتتجاهل الحرية الفردية.

وعلى الرغم من أن الكسندر (١٢٣: ١٩٨٢) كان يرغب دائماً فى التركيز على العلاقة الجدلية بين جميع المستويات الأربعة، إلا أنه أعطى أولوية للنظرية المعيارية الجمعية (وليس هذا عجباً بالنظر إلى تعاطفه مع الوظيفة الجديدة). ويعبر الكسندر عن ذلك بقوله: "إن الأمل فى الجمع بين النظام الجمعى والنزعة الإرادية الفردية يكمن فى الاتجاه المعيارى لا فى الاتجاه العقلانى (الرشيد)" (P. ١٠٨). ويرتبط بذلك الرأى القائل بأن النزعة الإرادية الاختيارية تظل باقية فى موازاة مع النظام؛ لأن مصادر النظام داخلية وليست خارجية.

وفى مقالة تالية يزعم الكسندر أن المنظور الفردى ينتهى بالعشوائية وانعدام التنبؤ (٢٧: ١٩٨٥) ولا يفضى إلى النظام. وعلى الرغم من أن الكسندر كان ناقداً لكثير من المنظرين الآخرين بسبب دمج مستويات التحليل، إلا أنه مدان بنفس الاتهام أيضاً. ويعبر عن ذلك بقوله: "إن الإطار المرجعى العام للنظرية الاجتماعية يمكن اشتقاقه من المنظور الجمعى فقط" (P. ٢٨). وفى رأيه أن المنظرين الاجتماعيين عليهم الاختيار ما بين المنظور الجمعى أو المنظور الفردى. وإذا اختاروا النظرية الجمعية فإنهم يستطيعون إدماج عنصر صغير جداً من التفاوض الفردى، أما إذا اختاروا النظرية الفردية فسوف يواجهون "المعضلة الفردية" فى محاولة إدماج الظواهر فوق الفردية فى نظريتهم لمعالجة العشوائية المتأصلة فى نظريتهم. والحل الوحيد لهذه المعضلة هو التخلّى عن الالتزام الرسمى بالنزعة الفردية (P. ٢٧).

وعلى الرغم من هذه الآراء الواعدة التى قدمها الكسندر، فقد انتهى به الأمر إلى التخلّى عن إضفاء الأهمية المغالى فيها للظواهر الكبرى (الذاتية)، ونتيجة لذلك كان إسهامه فى تطوير نظرية التكامل بين الظواهر الكبرى والصغرى إسهاماً محدوداً.

ومع أن جيدنز (١٩٨٤) لم يوجه كلامه بشكل مباشر إلى أعمال الكسندر، فقد خلص إلى استنتاج مشابه لذلك الاستنتاج الذى ذكرناه آنفاً بشأن جميع الأعمال المشتقة من التمييز البارسونى بين الفعل والنظام. فهذه الأعمال - فى رأيه - تنتهى بالضعف عند المستويات الصغرى خاصة فيما يتصل بالمعرفة الكفؤ للفاعلين الاجتماعيين باعتبارها جزءاً من الممارسات الاجتماعية. ولا أعتقد أن أية وجهة نظر تعود إلى بارسونز تستطيع أن تتعامل على نحو مرض مع تلك القضية التى تشكل جوهر النظرية الاجتماعية" (P. xxxvii)^(١).

الأسس الصغرى لعلم اجتماع الوحدات الكبرى

فى مقالة عنوانها "حول الأسس الصغرى لعلم اجتماع الوحدات الكبرى" قدم راندال كولينز (١٩٨١a)، وانظر أيضاً (١٩٨١b) اتجاهاً اختزالياً بشأن مسألة الربط بين

()

(Kreps, ; Bosworth and Kreps,)

:

"

(Bosworth & Kreps, :) "

Role-Taking () Role-Making

الظواهر الكبرى والصغرى (حول نقد هذا الاتجاه انظر: Ritzer, ١٩٨٥). وعلى الرغم من العنوان التكاملي الأصيل في هذه المقالة، فإن كولينز أطلق على مدخله "علم اجتماع الوحدات الصغرى الراديكالي" Radical Microsociology. وينصب اهتمام كولينز – أو اهتمام علم اجتماع الوحدات الصغرى الراديكالي – على ما سماه "سلاسل التفاعل" أو "حزمة السلاسل الفردية لخبرات التفاعل المتقاطعة مكانياً وزمانياً" (Collins, ٩٩٨: ١٩٨١a). وقد سعى كولينز بتركيزه على سلاسل التفاعل أن يتفادى ما رآه اهتمامات أكثر اختزالاً بالسلوك والوعي الفرديين. ويرفع كولينز مستويات التحليل إلى التفاعل وسلاسل التفاعل وساحة هذا التفاعل، ومن ثم يرفض المستويات الصغرى للتفكير والفعل (السلوك) إلى أبعد حد، وينقد النظريات التي تركز على هذه المستويات (مثل الظاهراتية ونظرية التبادل).

كما سعى كولينز إلى الابتعاد عن النظريات الكبرى واهتمامها بالظواهر على المستويات الكبرى. فقد انتقد – على سبيل المثال – الوظيفيين البنائين واهتمامهم بالظواهر الكبرى – الموضوعية (البناء) والصغرى – الذاتية (المعايير). والحقيقة انه ذهب إلى أبعد من ذلك ليطالب بإسقاط مصطلح المعايير من نظرية علم الاجتماع (٩٩١ P). وكان لديه اتجاه سلبي مشابه للمفاهيم المتعلقة بنظرية الصراع زاعماً – على سبيل المثال – أنه لا توجد كيانات موضوعية متأصلة مثل الملكية أو السلطة، وإنما هناك فقط أحاسيس متباينة يشعر بها الناس في أماكن وأزمنة معينة بقوة هذه الائتلافات (P. ٩٩٧). ووجهة نظر كولينز هي أن الناس فقط هم الذين يفعلون كل شيء، أما الأبنية والتنظيمات والطبقات والمجتمعات فهي "لا تفعل أي شيء مطلقاً، وأي تفسير على لابد أن يهبط في النهاية إلى أفعال الأفراد الفعليين" (١٢: ١٩٧٥ Collins).

وقد سعى كولينز إلى توضيح كيف أن جميع الظواهر الكبرى يمكن ترجمتها إلى مجموعات من الأحداث الصغرى (٩٨٥: ١٩٨١a). وبعبارة محددة يزعم كولينز أن الأبنية الاجتماعية يمكن ترجمتها إمبيريقياً إلى أنماط من التفاعلات الصغرى المتكررة (P. ٩٨٥).

وهكذا يتضح لنا في النهاية أن كولينز لم يقصد مدخلاً تكاملياً، وإنما كان يقصد النظرية الصغرى والظواهر على المستوى الأصغر (حول نقد مماثل انظر: جيدنز، ١٩٨٤). ويعبر كولينز عن هذا الرأي بقوله: "إن محاولة إعادة تأسيس علم اجتماع الوحدات الكبرى على أسس صغرى إمبيريقية يعد الخطوة الحاسمة نحو علم اجتماع أكثر نجاحاً" (٨٢: ١٩٨١b).

ويمكن أن نقارن اتجاه كولينز باتجاه كارين كنور – سيتينا (١٩٨١) التي وضحت نظريتها في مقدمة مجلد ظهرت فيه واحدة من مقالات كولينز عن علم اجتماع الوحدات

الصغرى الراديكالى. وعلى الرغم من أنها عزت أهمية كبيرة لمجال التفاعل، إلا أنها أضفت أهمية أكبر فى دراستها على دور كل من الوعى والظواهر الكبرى. ومع أنها سعت – شأنها فى ذلك شأن كولينز – إلى إعادة تأسيس راديكالى للنظرية الكبرى على أسس سوسولوجية صغرى، فقد رغبت أيضاً فى دراسة الطريقة الأقل راديكالية لإدماج النتائج السوسولوجية الصغرى فى النظرية الاجتماعية الكبرى.

وعلاوة على ذلك يبدو أنها اتخذت موقفاً مفاده أن الهدف النهائى للبحث فى علم اجتماع الوحدات الصغرى هو الوصول إلى فهم أفضل للمجتمع الأكبر وبنائه ونظمه:

"أؤمن بأننا سوف نتعلم كثيراً عن النظم الكبرى من خلال المداخل الاجتماعية الصغرى؛ لأن تلك المداخل بنزعتها الإمبيريقية تسمح لنا بإلقاء نظرة سريعة عن الواقع الذى نتحدث عنه. ومن المؤكد أننا لن نفهم هذا الواقع برمته عن طريق التسجيل المجهري للتفاعل المباشر. وربما يكفيننا أن نبدأ بذلك لدراسة النظم الكبرى".

(Knorr-Cetina, 1981: ٤١-٤٢).

وهكذا يبدو من الواضح أن كنور-سيتينا تتخذ موقفاً أكثر توازناً من موقف كولينز فيما يتعلق بالعلاقة بين المستويات الكبرى والصغرى.

وثمة موقف أكثر تكاملاً اتخذه أرون سيكوريل (1981)، وهو المحرر الآخر للمجلد الذى أشرنا إليه آنفاً. ويزعم سيكوريل أن الأبنية الصغرى والكبرى ليست مستويات مستقلة للتحليل؛ فهى تتفاعل مع بعضها البعض فى جميع الأوقات على الرغم من الإسراف المشكوك فى نتائجه من دراسة مستوى واحد فقط أو غيره من مستويات التحليل (P. ٥٤). وهنا نلمس انتقاداً ضمناً لكولينز. إلا أن سيكوريل تبنى موقفاً آخر يعد بمثابة نقد مباشر للموقف الذى اتخذه كولينز. يقول سيكوريل فى هذا الصدد: "ليست القضية بساطة رفض مستوى أو آخر من مستويات التحليل، بل إن القضية هى توضيح كيفية وجوب التكامل بين هذه المستويات إذا لم نقتنع بمستوى معين مع استبعاد الآخر، وذلك بتجاهل الأطر المرجعية الكفؤة للبحث والنظرية (P. ٧٦). ولا يقتصر الأمر عند سيكوريل على فهم أهمية ربط المستويات الكبرى والصغرى، بل لابد من حدوث هذا الترابط أنطولوجياً ونظرياً ومنهجياً.

مدخل الاختيار الرشيد إلى العلاقات الصغرى – الكبرى

اتخذ ميشيل هيشتر (1983a) مدخل الاختيار الرشيد للربط بين الظواهر على

المستويات الصغرى والكبرى. ويبدأ هيشتر بتحليل نقدي لمدخلين من المداخل الكبرى (بتركيزهما على الظواهر المعيارية والبنائية) بما يضيق أو يحد من الاختيار الفردى. وفى رأيه أن الفاعل لا تزال لديه القدرة على القيام بالاختيار بغض النظر عن قوة القيود المعيارية أو البنائية. ويعترف هيشتر بأن المعايير والأبنية تحدد القيود التى يتصرف الأفراد فى ضوءها (P. ٨). ومع ذلك فإن هذه القيود تمثل حدوداً، وهى لا تحدد السلوك الفردى. ولذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار نتائج الفعل الفردى وأغراضه، إلا أن ذلك لا يعنى إعطاء وزن أكبر للصفات الفردية على الخصائص البنائية (P. ٨).

وقد اتخذ هيشتر من نظريات الاختيار الرشيد نقطة البداية للتحليل على المستويات الصغرى، وتفرض تلك النظريات أن أغراض الفرد أو تفضيلاته محددة ومتبلورة، وأن الفاعلين يتعين عليهم الانتقاء من بين الاختيارات البديلة للفعل من أجل تحقيق هذه الأهداف، وأن اختيارهم لمسار معين للفعل سوف يكون اختياراً رشيداً (أى فعلاً) (P. ٨). ومع أن هيشتر يطرح مدخلاً تكاملياً يستند إلى نظرية الاختيار الرشيد، فإنه قارن تلك النظرية مع النظريات الكبرى ليرى أيهما يمكن أن يقدم تفسيرات أفضل للمشكلات الرئيسية فى علم اجتماع الوحدات الكبرى (P. ١٠).

وفى دراسته عن التضامن الجماعى فضل هيشتر نظرية الاختيار الرشيد، حيث يقول: "بغض النظر عن كون التضامن ظاهرة ناتجة عن الأعراف والمعايير، فإنه يمكن أن يكون له أساس فى الفعل الرشيد للأفراد. وبناءً على ذلك تستحق أن تؤخذ نظرية الاختيار الرشيد للتضامن الجماعى مأخذ الجد" (١٩٨٣b: ٥٠). وكان هيشتر يقصد بذلك تبنى نظرية الاختيار الرشيد فى مقابل المدخلين المعيارى والبنائى بدلاً من سعيه إلى تبنى مدخل تكاملى. وتوضح ديبرا فريدمان هذه النقطة بوضوح بقولها: "إن المحاولات السابقة لتفسير الظواهر السوسولوجية الكبرى باستخدام نظريات الاختيار الرشيد تقوم على إبراز محاسن هذه النظريات فى مقابل النظريات المعيارية والبنائية" (١٩٨٣: ٢٥١). وفى دراستها عن الإضرابات طرحت فريدمان مدخلاً أكثر تكاملاً جمعت فيه بين عوامل الاختيار الرشيد مثل حسابات العمال حول نصيبهم من المكسب والخسارة بسبب الإضراب من جهة والعوامل البنائية مثل سوق العمل وربحية المشروع وما إليهما من جهة ثانية.

■ ندوة ١٩٧٩ عن الوعى والفعل الإنسانى والبناء

أثمر هذا المؤتمر عن مجلد حرره بول سيكورد بعنوان: "تفسير السلوك الإنسانى: الوعى والفعل الإنسانى والبناء الاجتماعى" (١٩٨٢). ويزعم سيكورد فى الفقرة الافتتاحية لمقالته الاستهلاكية إننا بحاجة إلى ابتكار تفسيرات للسلوك الاجتماعى تربط بين الظروف الموضوعية فى العالم الطبيعى والعالم الاجتماعى، ووعى الفاعلين،

والأبنية الاجتماعية" (١٣: ١٩٨٢a). وفي تعقيبه الختامى على الأوراق التى قدمت فى المؤتمر يهاجم سيكورد "الأفق المحدود للمداخل المتعددة فى العلم الاجتماعى، وكل مدخل يبالغ فى قيمة موقفه، ويسخر من المداخل الأخرى... إن مكونات مركب الفرد / البناء الاجتماعى التى يتم إسقاطها من الحسبان لا يتم تجاهلها فحسب وإنما يتم رفضها من الناحية الموضوعية" (٣١٣-٣١٢: ١٩٨٢b).

وعلى الرغم من أن سيكورد يعترف بالفكرة المحورية عند جيننز (الذى كتب مقالاً فى هذا المجلد) التى مؤداها أن "البناء يُعاد إنتاجه، وهو يوفر فى نفس الوقت الظروف التى تجعل إعادة الإنتاج ممكناً"^(١)، فإنه طالب بالاحتراس من هذه التعميمات لسببين: أولهما أنه يشعر أنه لا يمكننا أن نتحدث كثيراً عن مثل هذه العلاقات بصفة عامة؛ فهذه العلاقات تعتمد على سياق بعينه، وثانيهما أنه يتعجب مما إذا كانت التعميمات من النوع الذى طرحه جيننز تنطبق فقط على الأبنية غير القوية أم لا.

ومما يؤسف له أن علماء النفس وعلماء النفس الاجتماعى زاد عددهم فى هذا المؤتمر إلى الحد الذى جعل كثيراً من المقالات تميل إلى الاتجاه المجهرى وتركز على الفعل (Harre: ١٩٨٢). ومع ذلك توجد استثناءات منها مقالة باسكار التى ناقش فيها مدخله التكاملى "النموذج التحويلى للنشاط الاجتماعى" الذى يصفه بمصطلحات شبيهة بنظرية التشكيل البنائى^(٢)، حيث يقول: "يفهم المجتمع بأنه وضع دائم الوجود ومحصلة مستمرة لإعادة إنتاج الفعل الإنسانى. ويفهم الفعل الإنسانى بأنه عمل، أى إنتاج (واع) وإعادة إنتاج لشروط الإنتاج، أى المجتمع" (٢٨٥-٢٨١: ١٩٨٢).

ندوة ١٩٨٣ عن التحليلات الكبرى والصغرى فى علم الاجتماع

أثمرت هذه الندوة عن مجلدين أحدهما يتعلق بالنظرية الكبرى (Eisenstadt & Helle, ١٩٨٥a). وثانيهما يتصل بالنظرية الصغرى (Helle & Eisenstadt, ١٩٨٥). وكان من المفترض أن يتجه هذان المجلدان نحو التحول من النزعة المتطرفة الصغرى أو الكبرى إلى مزيد من التكامل النظرى. ومع ذلك فقد أدى تنظيم هذه الندوة وهذين المجلدين إلى تقوية الشقاق بين النظرية الكبرى والنظرية الصغرى بدلاً من العمل على تعزيز التكامل بينهما. ويتضمن المجلد المتعلق بالنظرية الكبرى مقالات إما ركزت على الظواهر على المستويات الكبرى أو أكدت على أن المستويات الصغرى أقل شأنًا من المستويات الكبرى. وعلى نحو مشابه ركز المجلد المتعلق بالنظرية الصغرى بدرجة

()
()
Bhaskar (;) .

" (:) .

أكبر على طائفة من النظريات الصغرى لا على تكاملها مع النظريات الكبرى. وعلى الرغم من أن هذه الندوة وهذين المجلدين يشيران إلى الرغبة في الحديث عن التكامل، إلا أن الانزلاق إلى ضرب أو آخر من ضروب التنظير يبدو سهلاً.

جيمس كولمان: تكامل الفعل والنسق

ناقشنا في الفصل التاسع⁽¹⁾ نقد كولمان لتخلي بارسونز عن نظرية الفعل وتحوله إلى الوظيفية البنائية. ولم يقتصر كولمان على نقد بارسونز، وإنما حاول أن يطور نظرية له في الفعل أكثر تكاملاً. ويزعم كولمان أن ثمة مشكلتين نظريتين رئيسيتين أولاهما كيف تتحد الأفعال الهادفة للفاعلين لتحديث السلوك على مستوى النسق، وثانيهما كيف تتشكل هذه الأفعال الهادفة بدورها بالقيود الناجمة عن سلوك النسق (١٣١٢: ١٩٨٦). ويرى كولمان أنه لا يتعين علينا نبذ مفاهيم الهدف وتوجيه الهدف والاتزان الحيوى (كما هو الحال في التحليلات العلية على مستوى النسق الاجتماعى)، ولكن نقصر استخدامها على مستوى الفاعلين فى النسق الاجتماعى، لا أن نثبت وجودها على مستوى النسق " (P. ١٣١٢). وهكذا يسعى كولمان إلى العودة بنظرية الفعل إلى جذورها الصغرى والتركيز على الفاعل مع أن هذا الفاعل يمكن أن يكون أشخاصاً أو جماعة من الفاعلين (P. ١٣١٢).

وعلى الرغم من وضوح كولمان فى الربط بين الفعل والنسق، فإنه قام بذلك فى سياق نظرية الفعل والوظيفية البنائية ومصطلحاتهما، مما أدى به إلى عدة تساؤلات منها: لماذا قصر تحليله على الفعل الهادف؟ ألا توجد أنماط أخرى للفعل؟ وإذا لم تكن هناك أنماط أخرى، فلماذا يتم تقييد الفعل بالفعل الهادف؟ ما هى الحاجة إلى استخدام مصطلحات الوظيفية - البنائية؟ والاهم من ذلك: لماذا اختزل ذلك إلى القضية التقليدية فى الوظيفية - البنائية؟ ويختم كولمان حديثه بقوله: "إن البحث فى هاتين المشكلتين معاً يفضى بنا إلى النتيجة المحيرة التى يبحث عنها التحليل الوظيفى، وهى تحديد خصائص الأداء الوظيفى المستمر والمتوازن - ذاتياً إلى حد ما - للنسق الاجتماعى (P. ١٣١٢). ويعد اختزال المشكلة إلى اهتمامات الوظيفية البنائية ومصطلحاتها مثيراً لمشكلات أخرى.

ويوضح كولمان الصلة بين الفعل والنسق باستخدام أطروحة فيبر عن الأخلاق البروتستانتية^(٢):

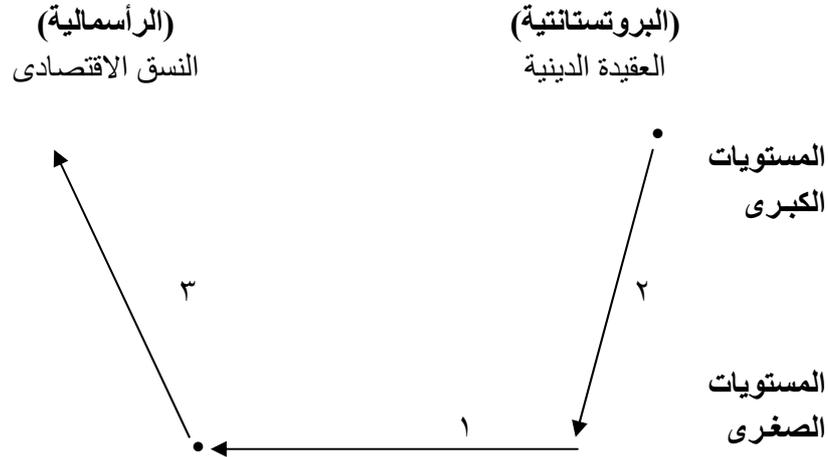
()

:

()

شكل (٢-٨)

النموذج التكاملي عند جيمس كولمان



المصدر: James Coleman: "Social Theory, Social Research and Theory of Action", American Journal of Sociology, ٩١ (١٩٨٦).

وتمثل العلاقة رقم (١) جوهر نظرية الفعل وفقاً لهذا النموذج، ولكن ينبغي ربطها بالمستويات الكبرى في العلاقتين رقم (٢) ورقم (٣). وفي رأى كولمان إن العلاقة رقم (٣) هي الإخفاق الرئيسي في نظرية الفعل خاصة نظرية الفعل البارسونية.

وينطوى نموذج كولمان على مشكلات عديدة على الرغم من أنه يشكل محاولة واضحة لربط المستويات الكبرى والصغرى؛ فهو يفتقر إلى التفاصيل حول الأنماط العامة للظواهر عند المستويات: الكبرى والصغرى. وهناك إغفال واضح للربط بين الظواهر الكبرى والصغرى، ذلك الربط الذي يبدو أن كولمان أحاله إلى مدخل نظري آخر. وأخيراً يفتقر نموذج كولمان إلى حلقة من التغذية المرتدة، بمعنى أنه أحادى السبب إلى حد كبير وغير كفؤ من الناحية الجدلية.

ويتفوق المخطط البياني الذي قدمه ريتزر^(١) حول الربط بين الظواهر الكبرى والصغرى على نموذج كولمان بعدة مميزات، منها أن عناصره مصاغة بمصطلحات عامة بدلاً من المصطلحات الخاصة النموذجية، وأنه جدلي بدرجة واضحة، كما أنه يبرز بوضوح الفروق الرئيسية بين الموضوعية والذاتية عند المستويات الكبرى من جهة (كما تتضمنها أمثلة كولمان) والموضوعية والذاتية عند المستويات الصغرى من جهة ثانية (يتضمنها نموذج كولمان في العلاقة رقم (٣) فقط، ولكنها أسقطت من اهتماماته عند المستويات الصغرى). ومع ذلك فإن محاولة كولمان لها عنصر تاريخي حيث يحدث التغيير، أما نموذج ريتزر فإنه يبدو لا تاريخياً، إلا أنه بذل مجهوداً واضحاً ليعاكس التصور اللاتاريخي الذي يوضحه مخطته البياني، ويعبر ريتزر عن ذلك بقول: "ترتبط السمة الديناميكية للنموذج التكاملي بتوجهه التاريخي المتلازم. ويتعين على هذا النموذج أن يهتم بالجذور التاريخية للظواهر المعاصرة بدلاً من النظر في شرائح استاتيكية لا تاريخية من العالم الاجتماعي" (٢٠٨: ١٩٨١).

تكامّل النزعة الإنسانية والبنويّة

سعى بارى هيندس (١٩٨٦) إلى تجنب الجوانب المتطرفة ونقاط الضعف في "النزعة الإنسانية النظرية" و"البنويّة". وتعرف النزعة الإنسانية النظرية - في رأي هيندس - بإصرارها على أن الحياة الاجتماعية يتعين فهمها في ضوء الأفعال التأسيسية للأفراد، في حين تقوم البنويّة بتحليل الحياة الاجتماعية في ضوء الأداء الوظيفي للكيانات الاجتماعية الكلية التي تنتج آثارها المهمة عن البناء" (١١٣ P). ويرفض هيندس الآراء المتطرفة الصغرى للنزعة الإنسانية النظرية والآراء المتطرفة الكبرى للبنويّة، ويُنظر إلى كليهما على أنهما نزعتان اختراليتان، وي طرح تصوراً أكثر تكاملاً يعبر عنه بقوله:

"اقترح مدخلاً بديلاً إلى النظرية الاجتماعية، وليس هذا المدخل بنائياً أو إنسانياً.. بل هو نزعة لا اخترالية راديكالية ترى أن الظواهر الاجتماعية تعتمد دائماً على ظروف محددة من أنواع متنوعة. وتتضمن تلك الظروف قرارات الفاعلين وأفعالهم، والظروف الاجتماعية الخارجة عن أي فرد والتي لا يمكن اختزالها إلى أي مبدأ عام من مبادئ التفسير".

(Hindess, 1986: 114)

ولم يتناول هيندس مدخله التكاملي بقدر من الإسهاب، ولكنه أوضح نقطتين

)

(A-)

()

.)

أساسيتين أولاًهما أن الفعل لا يقتصر على الأفراد فقط، ولكنه يشمل أيضاً بعض أنماط الجماعات؛ وثانيهما أنه على الرغم من رفض هيندس لفكرة الكيانات الاجتماعية الكلية، فإنه يزعم أن الظروف الاجتماعية المتعددة تحد من قرارات الفاعلين وأفعالهم. والفاعلون الإنسانيون مبدعون ومقيدون، وقادرون على تغيير العالم الاجتماعى ولكن ليس بدرجة سريعة أو وفق مشيئتهم.

نحو نظرية للتبادل أكثر تكاملاً

تبدأ ريتشارد إيمرسون وتلاميذه (خاصة كارين كوك) مقعد الصدارة فى تطوير نظرية للتبادل تهتم بصفة أساسية بالربط بين الظواهر الكبرى والصغرى. ويعبر إيمرسون عن ذلك بقوله: "أحاول أن أمتد بالنظرية والبحث فى التبادل من المستويات الصغرى إلى المستويات الكبرى للتحليل من خلال دراسة أبنية شبكات التبادل". (Cook, a, 1987). وتتفق كوك على أن "استخدام فكرة شبكات التبادل يسمح بتطوير نظرية تجسر الفجوة النظرية بين الأفراد المنعزلين أو الجماعات الثنائية والتجمعات الأكبر أو مجموعات الأفراد (مثل الجماعات والروابط الرسمية، والتنظيمات، والجيرات، والأحزاب السياسية... إلخ" (b, 1987). ويسلم إيمرسون وكوك بالمقدمات المنطقية الأساسية لنظرية التبادل عند المستويات الصغرى: "يهتم مدخل التبادل أول ما يهتم بالمنافع التى يجنيها الناس من عملية التفاعل الاجتماعى، والمنافع التى يضيفونها إلى تلك العملية" (Emerson, 1981: 31). ويلخص إيمرسون ثلاثة افتراضات أساسية لنظرية التبادل:

- 1- أن الناس الذين تكون الأحداث نافعة لهم يميلون إلى التصرف بعقلانية حتى تقع تلك الأحداث.
- 2- أن الناس فى آخر الأمر يحققون إشباعاتهم كاملة مع الأحداث السلوكية حتى تصبح تلك الأحداث ذات فائدة ضعيفة.
- 3- أن المنافع التى يجنيها الناس من خلال العمليات الاجتماعية تتوقف على المنافع التى يستطيعون إضافتها بالتبادل، وهذا يجعل نظرية التبادل تركز على تدفق المنافع من خلال التفاعل الاجتماعى (P. 33).

وتبدو جميع هذه الافتراضات مألوفة، إلا أن إيمرسون يضع نظرية التبادل فى مسار مختلف بتمييزه بين النظريات الاقتصادية والنظريات الاجتماعية للتبادل. فإذا كان المنظرون الاقتصاديون يركزون على الصفقات المستقلة بين الناس، فإن المنظرين الاجتماعيين يركزون على الصفقات المتكررة بين الفاعلين الذين يعتمدون على بعضهم البعض اعتماداً متبادلاً، أو العلاقات الاجتماعية الوثيقة بينهم (P. 36). وبذلك يفتح

إيمرسون المجال للتركيز على الأبنية الاجتماعية المركبة للتبادل (P. ٣٦).

وقد طور إيمرسون نظريته في التبادل بدءاً بعلم نفس التبادل، ثم انتقل بعد ذلك إلى الظواهر عند المستويات الكبرى. ومما يلفت النظر أن إيمرسون بدأ ينقد هومانز وغيره من منظري التبادل لنزعتهم النفسية غير الملائمة، ولتركيزهم بدرجة أكبر على التفاعل وبدرجة أقل على علم النفس. والمطلوب مزيد من البحث فيما يضيف الناس قيمة عليه بدلاً من مجرد مساواة ذلك بالحرمان؛ فالشئء يصبح ذي قيمة لدى الناس إذا حرموا منه^(١). ويزعم إيمرسون أنه بالإضافة إلى الحرمان تتأثر هذه القيمة بحاجات الناس، أي الحصول على بعض المنافع (انظر الفصل السابع)^(٢). والاهم من ذلك أن إيمرسون كان يريد أن تتضمن نظرية التبادل علم النفس بما يشمل تأكيد هومانز على الاختيارات اللاشعورية المشروطة والأهمية العقلية للبدائل التي تميز نظرية الاختيار الرشيد.

وينتقل إيمرسون بعد ذلك إلى التبادل الثنائي (بين شخصين). ولن نتوقف هنا كثيراً، إلا أن ما يهمنا هو أن إيمرسون خلص إلى أن هذه الظاهرة الاجتماعية البورية – باعتبارها تعبيراً عن القوة أو إمكانية استغلال الآخرين – لا يمكن دراستها في الجماعة الثنائية، حيث يقول في هذا الصدد: "لن نتعلم كثيراً عن القوة من خلال دراسة التفاعل الثنائي؛ لأن القوة – بالمعنى السوسولوجي – ظاهرة بنائية اجتماعية" (٤٦-٤٥ PP). وتوضح كوك وإيمرسون (١٩٧٨) في دراسة تجريبية أن القوة دالة للوضع الذي يحتله الفاعلون في البناء الأكبر حتى عندما لا يكون الفاعلون الذين يشغلون هذا الوضع على وعى ببناء شبكة العلاقات وموقعهم فيها.

وينتقل إيمرسون إلى تطبيق نظرية التبادل على الجماعة المؤسسية (جماعة تشتمل على شخصين أو أكثر) وشبكة العلاقات (مجموعة من الفاعلين المستقلين المترابطين في نفس الوقت)^(٣). ويؤدي تطبيق نظرية التبادل على الجماعة المؤسسية إلى دراسة التبادل بين التنظيمات، في حين يؤدي تطبيقها على شبكة العلاقات إلى التركيز على علاقات التبادل بين الأوضاع داخل شبكات العلاقات. والحقيقة أن كوك وزملاءها (١٩٨٣: ٢٧٧، وانظر أيضاً: Cook, ١٩٨٧ b) – في مناقشتهم لشبكات التبادل أو الأبنية الاجتماعية التي تتكون من اثنتين أو أكثر من علاقات التبادل بين الفاعلين (مجموعات من فرص التبادل تطورت تاريخياً ويتم استخدامها) – أوضحوا أن هذا المفهوم له ميزة

() (Emerson,)

()

()

()

نظرية تسمح بامتداد وتطبيق التصورات الثنائية للتبادل على المستويات الكبرى للتحليل" (٢٧٧: ١٩٨٣). ويرى إيمرسون أن نظرية التبادل – إلى جانب فائدتها فى دراسة الجماعات وشبكات العلاقات – قابلة للتطبيق على النظم الاجتماعية المستقرة كالزواج.

والحقيقة أن نظرية التبادل عند إيمرسون تحركت إلى أبعد حد فى الاتجاه البنائى إلى الحد الذى جعل البعض يتعجب مما إذا كانت تلك النظرية قادرة على الاحتفاظ بجذورها الصغرى. ويميز ماكماهون (١٩٨٤) اتجاه إيمرسون (وغيره) عن موقف هومانز وبلاو اللذين يعنى التبادل عندهما العمليات النفسية التى تؤدى إلى أنماط بنائية للتفاعل؛ فى حين تكون الأنماط البنائية الخارجية – فى رأى إيمرسون – أنماط موجودة. ويقوم الفرد باختيار مسارات السلوك التى تبشر بمنافع قصيرة وطويلة الأمد. والحقيقة أن هذه النظرية يمكن أن تتحرك إلى أبعد حد فى الاتجاهات البنائية الكبرى لدرجة تهدد بضياح عملية التبادل بين الأشخاص. وفى رأى ماكماهون أنه كلما تحركت هذه النظرية فى ذلك الاتجاه، فإنه يصعب أن نتخيل ما إذا كان أنصارها قادرين على الإبقاء على "التبادل" كفكرة نظرية. ويتحدد تقديم الأفراد للمنافع وحصولهم عليها بالبناء وتوزيع موارده بصفة أساسية (١٣١ P).

إن التحدى الذى تواجهه نظرية التبادل الأكثر تكاملاً سوف يغلف توجهاتها البنائية الكبرى مع الإبقاء على جذورها فى الجوانب النفسية والشخصية للتبادل.

■ نحو نظرية بنائية للفعل

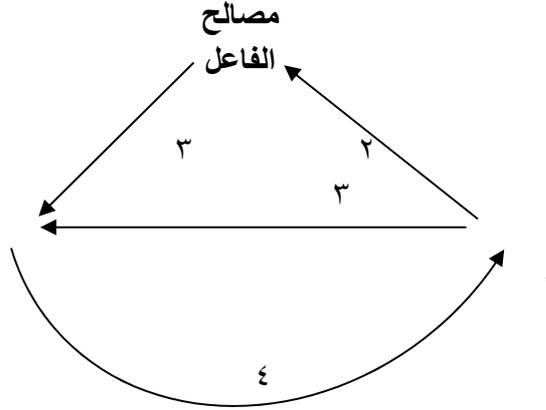
كان رونالد بيرت (١٩٨٢) فى طليعة منظرى شبكة العلاقات الذين سعوا إلى تطوير مدخل تكاملى يجمع بين المستويات الكبرى والصغرى بدلاً من شكل أو آخر من أشكال الحتمية البنائية. ويبدأ بيرت بتوضيح الشقاق فى نظرية الفعل بين الاتجاهات "الذرية" و"المعيارية". ويفترض الاتجاه الذرى أن "الأفعال الاختيارية يتم تقييمها تقيماً مستقلاً بواسطة الفاعلين المستقلين بدرجة يتم معها هذا التقييم دون الإشارة إلى الفاعلين الآخرين" فى حين يتحدد المنظور المعيارى بواسطة الفاعلين المستقلين داخل النسق، والذين لهم مصالح متشابهة بتأثير المعايير الاجتماعية التى أوجدتها الفاعلون وتقوم بتنشئتهم" (٥ P).

وقد طور بيرت منظوراً يتغلب على الشقاق بين الفعل الذرى والفعل المعيارى، وهو منظور أقرب إلى توليفة من المنظورين الموجودين عند الفعل منه إلى رؤية ثالثة تجسر بينهما فكراً (٨ P). وعلى الرغم من أن بيرت يعترف بأنه قد استعار منظوره من هذين المنظورين، فإنه طور ما أطلق عليه "المنظور البنائى" الذى يختلف عنهما فى محكات التقييم الهامشى. والمحك الذى يفترضه المنظور البنائى المقترح هو مكانة الفاعل

ودوره باعتبارهما نتاجاً لتقسيم العمل. ويقوم الفاعل بتقييم منافع الأفعال الاختيارية في ضوء ظروفه الشخصية من جانب وظروف الآخرين من جانب آخر (P. ٨). ويرى بيرت أن مدخله امتداد منطقي للمدخل الذرى وقيد دقيق على النظرية المعيارية من الناحية الإمبيريقية.

ويوضح الشكل التالى النظرية البنائية للفعل عند بيرت:

شكل (٨-٣) النموذج التكاملى عند رونالد بيرت



المصدر: Ronald Burt, Toward a Structural Theory of Action Network Models of Social Structure, Perception and Action (New York: Academic Press, ١٩٨٢).

ويصف بيرت المقدمة المنطقية للنظرية البنائية فى الفعل بقوله: "الفاعلون لهم أهداف فى ظل قيود بنائية اجتماعية" (P. ٩) وأن:

"الفاعلين يجدون أنفسهم فى بناء اجتماعى، وهذا البناء الاجتماعى هو الذى يحدد أوجه التشابه الاجتماعى بينهم، والذى يَتمِط بدوره تصوراتهم للمزايا التى يحصلون عليها من جراء الاختيار بين الأفعال المتعددة. وفى الوقت نفسه يقيد البناء الاجتماعى الفاعلين بدرجات مختلفة فى قدرتهم على القيام بأفعالهم. وفى نهاية الأمر تكون الأفعال التى قام بها الفاعلون دالة مشتركة لسعيهم إلى تحقيق مصالحهم فى حدود قدراتهم، حيث يحدد البناء الاجتماعى أنماط مصالح الفاعلين وقدراتهم. وأخيراً فإن الأفعال التى يقوم بها الفاعلون فى ظل قيود بنائية اجتماعية يمكن أن تغير من البناء الاجتماعى نفسه، وهذا التغيير من شأنه أن يوجد قيوداً جديدة

يواجهها الفاعلون داخل البناء".

(Burt, 1912: 9)

ريمون بودو: النزعة الفردية المنهجية

طرح عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر ريمون بودو (1979/1981) منظوراً تكاملياً أطلق عليه "النزعة الفردية المنهجية". ويعرف بودو النزعة الفردية المنهجية بأنها المبدأ القائل بأن:

"عالم الاجتماع يتعين عليه استخدام منهج يدرس الأفراد، أو الأفراد الفاعلين الموجودين في نسق للتفاعل، باعتبار أن هؤلاء الأفراد هم الذرات المنطقية لتحليله... ولا يمكن لعالم الاجتماع أن يكون مقتنعاً بنظرية تدرس تجمعاً (طبقة، جماعة، أمة) باعتباره الوحدة الأساسية التي تهبط إليها النظرية... أو يكون مقتنعاً بجهد يقوم به لتحليل ردود أفعال الأفراد حيال القيود التي يفرضها النسق".

(Boudon 1979/1981: 36)

وعلى الرغم من تأكيد بودو على الفاعل الفرد، إلا أنه عبر تعبيراً واضحاً عن العلاقة الأكثر تكاملاً بين الظواهر الكبرى والصغرى.

وينتقل بودو إلى وصف الإنسان الاجتماعي Home Sociologicus، ويقارن هذا النموذج بالإنسان الاقتصادي Home Economicus. ومن جوانب الاختلاف أن الإنسان الاجتماعي لا يفعل دائماً ما يفضل، بل إن العادات والقيم المستدمجة والظروف العامة هي التي تجبره على أن يفعل ما يفعله (P. 106). ومن الجوانب الأخرى أن تفضيلات الفاعل - في رأى عالم الاقتصاد - تحددها الأنثروبولوجيا الفلسفية، أما عالم الاجتماع فإنه يفترض أن اختيارات الفاعل تتحدد في جانب منها ببناء الموقف ووضع فيه. ويلخص بودو موقفه وموقف علم الاجتماع الكلاسيكي بأنه يدرس الفاعل الذي يتمتع باستقلالية تختلف تبعاً لاختلاف السياق الذي يجد نفسه فيه (P. 163).

الاستنتاجات

استعرضنا في هذا الفصل عدداً من الأعمال (جميعها منشورة في الثمانينيات) التي ركزت بشكل أو بآخر على قضية الربط بين الظواهر الكبرى والصغرى. وعلى الرغم من أن هذه المشكلة ظلت موجودة معنا منذ البدايات المبكرة لعلم الاجتماع، إلا أنها تفرقت إلى النزعة المتطرفة الصغرى أو النزعة المتطرفة الكبرى. ويقوم هذا الفصل على أطروحة مؤداها أن الثمانينيات شهدت اعتلاء مؤيدي التنظير حول الربط بين

الظواهر الكبرى الصغرى – بما فيهم بعض أهم شباب المنظرين من هذا الجيل – موقع الصدارة على الرغم من عدم اختفاء الساحة من المتطرفين.

ومن المفيد عند ختام هذا الفصل وهذا الكتاب^(١) أن نلخص بعض القضايا المتواصلة في التكامل بين النظريات الكبرى والصغرى على النحو التالى:

(١) على الرغم من الحاجة إلى مواصلة العمل حول الربط بين الظواهر الكبرى والصغرى، إلا أننا فى حاجة أيضاً إلى أعمال إضافية فى مجال النظرية الكبرى والنظرية الصغرى.

(٢) أن كثيراً من الأعمال المطلوب القيام بها للربط بين الظواهر الكبرى والصغرى عليها أن تنصرف إلى تحديد مفصل لطبيعة الاتجاه العام فى هذا الصدد، لأن كثيراً من الأعمال المتعلقة بهذه القضية العامة تركز فى حقيقة الأمر على أشياء مختلفة تماماً.

(٣) ينبغى إيلاء عناية للتأكد من أن المحاولات التى لا تزال فجوة حتى الآن لتحقيق التكامل بين الظواهر الكبرى والصغرى لا يهيمن عليها المؤيدون النشطون للنزعة المتطرفة الصغرى أو النزعة المتطرفة الكبرى.

(٤) ربما يكون مكنم الخطر فى المتطرفين داخل الجماعة التى تعمل على تحقيق التكامل بين النظريات الكبرى والصغرى. وتذكر هنا المتطرفين نحو النظريات الكبرى مثل الكسندر والمتطرفين نحو النظريات الصغرى مثل كولينز وهيشتر. وهؤلاء يهددون بتمزيق هذا التطور الفكرى قبل أن يأخذ فرصته فى النضج نضجاً تاماً.

(٥) لابد من بذل الجهد لتوضيح العلاقة بين العالم الاجتماعى والنظرية فى هذا المجال. ويهتم بعض المنظرين اهتماماً أساسياً بالتكامل (جيدنز، ريتزر) فى العالم الاجتماعى، بينما يبدى بعضهم الآخر اهتماماً أكبر بتكامل النظريات المختلفة. وهناك فريق ثالث يقف ضد إمكانية تحقيق التكامل النظرى (Bhaskar, ١٩٨٢; Gergen & Gergen, ١٩٨٢).

وعلى الرغم من هذه المشكلات وغيرها من المشكلات المروعة، فهناك دلائل تبشر بأن نظرية علم الاجتماع سوف تستمر فى تطوير مزيد من الإجماع والمعرفة حول الربط بين النظريات الكبرى والصغرى. ومع أننا لن نرى ولا ينبغى أن نتوقع إجماعاً نظرياً فى علم الاجتماع، فسوف نشاهد عدداً متزايداً من المنظرين من منظورات مختلفة

يركزون على العلاقة بين النظريات الصغرى والكبرى. وربما نشاهد ظهور نموذج جديد فى علم الاجتماع (انظر الملحق)^(١) يحتوى على نظرية أو أكثر من نظريات علم الاجتماع، ويتخذ هذا النموذج من العلاقة الجدلية بين الظواهر الاجتماعية الميكروسكوبية (الصغرى) والماكروسكوبية (الكبرى) محوراً لاهتمامه. وإذا تطور هذا النموذج الجديد (ونظرياته)، فإنه لن يحل محل النماذج الموجودة (ونظرياتها)، ولكنه سوف يكمل تركيزها على المستويات الصغرى أو الكبرى. مع الاهتمام بالعلاقة الجدلية بين هذين المستويين للواقع الاجتماعى.

خلاصة الفصل

استعرضنا فى هذا الفصل طائفة عريضة من الأعمال نشرت الغالبية العظمى منها فى الثمانينيات، وتركز هذه الأعمال بشكل أو بآخر على الربط بين الظواهر الكبرى والصغرى. ونذكر من هذه الأعمال بصفة خاصة نظرية التشكيل البنائى عند جيدنز، وتكامل نظريتي الفعل والنظم عند هابرماس، وتكامل الفعل والنظام عند الكسندر. وثمة جهود أخرى تشمل أعمال مجموعة متنوعة من علماء الاجتماع. وإذا كانت قضية التكامل بين الظواهر الكبرى والصغرى قد سادت الجانب الأكبر من نظرية علم الاجتماع فى الثمانينيات، فمن المتوقع أن تشغل اهتمام المنظرين فى علم الاجتماع خلال عقد التسعينيات وما بعده.

ومع قرب الانتهاء من إعداد هذا الكتاب نُشرت إضافة رئيسية جديدة إلى التراث المتعلق بالربط بين النظريات الكبرى والصغرى [جيفرى الكسندر، برنارد جيسين، ريتشارد مانس، ونيل سملسر (تحرير): الربط بين النظريات الكبرى والصغرى. بيركلى: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٧]. وهذا الكتاب ثمره لمؤتمر عقد عام ١٩٨٤ بالاشتراك بين قسمي النظرية بالجمعيتين الألمانية والأمريكية لعلم الاجتماع. ويتضمن هذا الكتاب مقالات بقلم عدد من المنظرين الذين ناقشنا أعمالهم فى هذا الفصل (الكسندر، بودو، كولمان، كولينز) إلى جانب عدد آخر من المنظرين الألمان والأمريكيين. ولا تزال مزايا هذه المقالات وإسهاماتها بحاجة إلى تقييم، إلا أنه من الواضح أن هذا الكتاب يسهم فى بروز الربط بين الظواهر الكبرى والصغرى كمشكلة محورية فى نظرية علم الاجتماع.

الفصل التاسع

نظرية علم الاجتماع(*)

- المفاهيم الأساسية
- الإجماع.
- الصراع.
- البناء الاجتماعي.
- الاتجاه النظرى.
- النظرية.
- الاتجاهات النظرية
- الوظيفية.
- البنيوية.
- التفاعلية الرمزية.
- الماركسية.
- المعضلات النظرية
- المعضلة الأولى: البناء والفاعل.
- المعضلة الثانية: الإجماع والصراع.
- المعضلة الثالثة: مشكلة النوع الاجتماعي.
- المعضلة الرابعة: تشكيل العالم الحديث.
- النظريات
- مثال: الأخلاق البروتستانتية.
- التفكير النظرى فى علم الاجتماع.

(*) :
Anthony Giddens. Sociology. rd ed., Cambridge: Ploity Press, . PP.

□ خلاصة الفصل.

المصطلحات المهمة الواردة في هذا الفصل

- الوظيفية، الأنثروبولوجيا، الوظائف الظاهرة، الوظائف الكامنة، الاختلال الوظيفي، البنيوية، السيميوطيقا (علم العلامات)، التفاعلية الرمزية، الرمز، الماركسية، المعضلة النظرية، الكابح الاجتماعي، الترشيد (النمو العقلاني)، الحرمان النسبي، التفكير المضاد للبداهة.

سوف نقوم في هذا الفصل بتحليل تطور الاتجاهات النظرية الرئيسية في علم الاجتماع، وتحديد المعضلات التي أشارت إليها. وسوف ننظر أيضاً في بعض التحولات النظرية الأساسية في الوقت الراهن.

● المفاهيم الأساسية⁽¹⁾

◆ الإجماع: Consensus

الاتفاق حول القيم الاجتماعية الأساسية بين أعضاء الجماعة أو المجتمع المحلي أو المجتمع. ويؤكد بعض المفكرين الاجتماعيين بشدة على أهمية الإجماع كأساس للاستقرار الاجتماعي. ويعتقد هؤلاء الكتاب أن كافة المجتمعات التي يكتب لها البقاء على امتداد فترة طويلة من الزمن تنطوي على "نسق قيمي مشترك" من المعتقدات التي تتفق عليها أغلبية السكان.

◆ الصراع: Conflict

علاقة عدائية بين أفراد أو جماعات في المجتمع. وقد يتخذ الصراع أحد شكلين. يحدث الأول حيث يكون هناك صدام أو تعارض في المصالح بين شخصين أو جماعتين أو أكثر، أما الآخر فيحدث عندما ينخرط الناس أو الجماعات في التقاتل فعلياً مع بعضهم البعض. ولا يؤدي صراع المصالح دائماً إلى الصراع الصريح، في حين أن الصراع

الفعلى قد يحدث أحياناً بين الجماعات التى قد تعتقد خطأ أن لها مصالح متعارضة.

◆ البناء الاجتماعى: Social Structure

أنماط التفاعل بين الأفراد أو الجماعات. فالحياة الاجتماعية لا تمضى بطريقة عشوائية بل الواقع أن معظم أنشطتنا محددة بنائياً، فهى منظمة بطريقة مضبوطة ومتكررة. وعلى الرغم من أن المقارنة قد تكون مضللة، فمن الأيسر أن نفكر فى البناء الاجتماعى للمجتمع كما لو أنه بمثابة العوارض الصلبة التى ينهض عليها البناء وتربط أجزاءه ببعضها البعض.

◆ الاتجاه النظرى: Theoretical Approach

منظور حول الحياة الاجتماعية مشتق من تراث نظرى محدد. ويشتمل التراث النظرى الرئيسى للنظرية فى علم الاجتماع على: الوظيفية، والبنوية، والتفاعلية الرمزية، والماركسية. وتقدم الاتجاهات النظرية المنظورات العامة التى يعمل من خلالها علماء الاجتماع، ومن ثم يؤثرون فى مجالات بحوثهم، فضلاً عن الأساليب التى يتم بها تحديد المشكلات ومعالجتها.

◆ النظرية: Theory

محاولة تحديد الخصائص العامة التى تفسر الانتظام فى الوقائع الملاحظة. ويشكل بناء النظرية مكوناً جوهرياً من مكونات كافة الأعمال السوسولوجية. وبينما تميل النظريات إلى الارتباط بتوجهات نظرية أرحب، فإنها تتأثر كذلك – بشدة – بنتائج البحوث التى تعمل على توليدها.

الاتجاهات النظرية

كانت النشأة الأولى لعلم الاجتماع – متمثلة فى أعمال ماركس ودوركايم وفبير – نشأة أوروبية فى أساسها، إلا أن هذا العلم تأسس فى القرن العشرين تأسيساً راسخاً فى شتى أرجاء العالم، وحدثت بعض أهم التطورات المهمة فى هذا العلم فى الولايات المتحدة. وكان لأعمال جورج هربرت ميد (١٨٦٣-١٩٣١) – ذلك الفيلسوف الذى قام بالتدريس فى جامعة شيكاغو – تأثير طاغ على تطور نظرية علم الاجتماع. وأكد ميد على أهمية اللغة بصفة خاصة والرموز بصفة عامة فى الحياة الاجتماعية الإنسانية. وأطلق فيما بعد على الاتجاه الذى طوره "التفاعلية الرمزية". وقد أولى ميد اهتمامه بتحليل العمليات الاجتماعية الصغرى بدرجة أكبر من دراسة المجتمعات الكلية. وعلى الرغم من أن بدايات التفاعلية الرمزية تعود إلى فترة زمنية طويلة، إلا أنها أصبحت أكثر تأثيراً فى فترات لاحقة. وسوف نناقش التفاعلية الرمزية بعد أن نفرغ من مناقشة

الوظيفية والبنوية.

وكان تالكوت بارسونز (١٩٠٢-١٩٧٩) أبرز منظر في علم الاجتماع الأمريكي في فترة ما بعد الحرب. وكان بارسونز مؤلفاً له إنتاج غزير، حيث كتب في مجالات إمبريقية عديدة في علم الاجتماع بالإضافة إلى كتاباته في النظرية. وقد أسهم بارسونز في دراسة الأسرة والبيروقراطية والمهن والسياسة وغيرها من المجالات الأخرى. وكان بارسونز واحداً من أولئك الذين أسهموا إسهاماً رئيسياً في تطور الوظيفية، وهي الاتجاه النظري الذي كانت الريادة في نشأته لكل من دوركايم وكونت. وعند دراسة مجتمع بعينه – من الزاوية الوظيفية – يتعين علينا أن ننظر في كيفية اتحاد أجزائه المتعددة – أو نظمه – بما يحقق لهذا المجتمع الاستمرار بمرور السنوات.

وقد استمر المفكرون الأوروبيون في اعتلاء مركز الصدارة في التطورات المعاصرة لنظرية علم الاجتماع. ومن الاتجاهات التي حققت شهرة خاصة "البنوية" التي تربط التحليل في علم الاجتماع ربطاً وثيقاً بدراسة اللغة. وتعود أصول الفكر البنوي إلى علم اللغة، ثم نقله إلى العلوم الاجتماعية عالم الأنثروبولوجيا كلود ليفي – شتراوس (١٩٠٨ -). كما تعود أصول البنوية أيضاً إلى دوركايم وماركس.

واستمرت أفكار ماركس موضوعاً للنقاش والتطور لأكثر من قرن بعد وفاته. ويطلق مصطلح "الماركسية" على الأعمال التي قام بها أتباع ماركس ومريديه.

◆ الوظيفية:

أشرنا فيما سبق إلى أن الريادة في منشأ التفكير الوظيفي كانت لدوركايم الذي اعتبر التحليل الوظيفي بمثابة جزء أساسي من صياغته لمهام التنظيم والبحث في علم الاجتماع. ومع ذلك فقد تأثر تطور الوظيفية في صورتها الحديثة تأثراً قوياً بأعمال الأنثروبولوجيين. وقد اعتمدت الأنثروبولوجيا حتى بدايات القرن العشرين اعتماداً أساسياً على التقارير والوثائق التي أعدتها الإدارات الاستعمارية، والبعثات التبشيرية والرحالة. ولذلك اصطبغت الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر بالصبغة التأملية والتوثيق غير الوافي. ومن ثم ألف الكتاب كتباً تجمع أمثلة من شتى أرجاء العالم دون إيلاء عناية أكثر بمدى صحتها أو بالسياق الثقافي الخاص الذي جاءت منه. فعلى سبيل المثال تم القيام بتحليل الدين بمقارنة أمثلة متعددة للمعتقدات والممارسات، وهي أمثلة مستمدة من ثقافات مختلفة.

ويؤرخ للأنثروبولوجيا الحديثة منذ الوقت الذي أصبح فيه الباحثون غير راضين عن هذا الاتجاه، وبدأوا يمضون فترات طويلة من الدراسة الميدانية في الثقافات المختلفة حول العالم. وهناك اثنان من مؤسسي العمل الميداني الأنثروبولوجي هما رادكليف –

براون (١٨٨١-١٩٥٥) الكاتب البريطاني الذي تأثر بدوركايم تأثراً قوياً، وبرونيسلاو مالينوفسكى (١٨٨٤-١٩٤٢) البولندى الذى أمضى معظم حياته المهنية فى بريطانيا. وقد قدم مالينوفسكى بعضاً من أشهر الدراسات الأنثروبولوجية المكتوبة، نتيجة لقضائه فترات طويلة فى جزر التروبرياند بالمحيط الهادى. وقام رادكليف - براون بدراسة سكان جزر الأندمان الذين يعيشون فى أرخبيل يبعد عن سواحل بورما.

ويشدد كل من رادكليف - براون ومالينوفسكى على أنه يتعين علينا دراسة المجتمع أو الثقافة ككل إذا كنا نبعى فهم نظمه الرئيسية ونفس أسباب تصرف أعضائه على النحو الذى يتصرفون به. إذ يمكن أن نقوم بتحليل المعتقدات الدينية والعادات الاجتماعية للمجتمع - على سبيل المثال - من خلال توضيح كيفية ارتباطها بالنظم الأخرى داخل هذا المجتمع؛ لأن مختلف أجزاء المجتمع تنمو فى علاقة وثيقة مع بعضها البعض.

ويقصد بدراسة وظيفة الممارسات أو النظم الاجتماعية القيام بتحليل الإسهام الذى تقدمه تلك الممارسات وهذه النظم لاستمرار المجتمع ككل. وأفضل طريقة لفهم ذلك هى المقارنة بالجسم البشرى، وهى المقارنة التى قام بها كونت ودوركايم وكثير من الكتاب الوظيفيين الذين جاءوا بعدهما.

ولكى نقوم بدراسة عضو فى الجسم كالقلب نحتاج إلى معرفة كيفية ارتباط القلب بباقي أجزاء الجسم. ويلعب القلب دوراً حيوياً فى استمرار حياة الكائن الحى من خلال ضخ الدم فى الجسم. وعلى نحو مماثل نجد أن تحليل وظيفة عنصر اجتماعى ما يعنى توضيح الدور الذى يلعبه فى استمرار وجود المجتمع. فالدين - على سبيل المثال - يعيد تثبيت الالتزام بالقيم الاجتماعية مما يسهم بالتالى فى المحافظة على التماسك الاجتماعى وفقاً لما يذهب إليه دوركايم.

◆ الوظيفة عند ميرتون:

عادت الوظيفة مرة ثانية إلى علم الاجتماع من خلال كتابات تالكوت بارسونز (١٩٥٢ و ١٩٦٦) وروبرت ك. ميرتون، وكلاهما يرى أن التحليل الوظيفى يعد بمثابة مفتاح تطور النظرية والبحث فى علم الاجتماع. وكان للوظيفية عند ميرتون تأثير خاص؛ لأنها كانت بمثابة العدسة التى تجمعت عندها أعمال جيل كامل من علماء الاجتماع الأمريكيين بصفة خاصة، هذا إلى جانب شيوع استخدامها على نطاق واسع فى أماكن أخرى. وقد طرح ميرتون تفسيراً للتحليل الوظيفى أكثر صقلاً مما قدمه أى من رادكليف - براون أو مالينوفسكى. كما أعاد ميرتون فى نفس الوقت تكييف الوظيفة لدراسة المجتمعات الصناعية التى تختلف فى جوانب أساسية معينة عن الثقافات البسيطة التى قام الأنثروبولوجيون بدراستها.

ويميز ميرتون بين الوظائف الظاهرة والكامنة. ويقصد بالوظائف الظاهرة الوظائف المعروفة والمقصودة من جانب الأفراد الذين ينخرطون في نمط معين من أنماط النشاط الاجتماعي. أما الوظائف الكامنة فهي الآثار المترتبة على ذلك النشاط، وهي الآثار التي لا يعي بها الأفراد المنخرطون في هذا النشاط (Merton, ١٩٥٧). ولتوضيح هذه التفرقة يستعين ميرتون بمثال عن رقصة المطر التي يقوم بها الهنود من قبيلة الهوبي Hopi Indians في نيومكسيكو. ويؤمن أفراد قبيلة الهوبي أن هذا الاحتفال المراسمي سوف يجلب لهم المطر اللازم لمحاصيلهم (الوظيفة الظاهرة). وهذا هو السبب في تنظيمهم لهذا الاحتفال والمشاركة فيه. ويزعم ميرتون - مستعيناً بنظرية دوركايم في الدين - أن رقصة المطر لها أيضاً تأثيرها في تعزيز تماسك المجتمع (الوظيفة الكامنة). وفي رأى ميرتون أن جانباً أساسياً من جوانب التفسير في علم الاجتماع يمكن في الكشف عن الوظائف الكامنة للأنشطة والنظم الاجتماعية.

ويميز ميرتون أيضاً بين الوظيفية والاختلال الوظيفي، ويوضح أن الثقافات الصغيرة التي يدرسها علماء الأنثروبولوجيا أكثر تكاملاً وتضامناً من المجتمعات الصناعية الكبيرة محل الاهتمام الرئيسي لعلم الاجتماع. ولم يكن بإمكان رادكليف براون ومالينوفسكي سوى التركيز على تحديد الوظائف فقط؛ لأن الثقافات التي قاما بتحليلها كانت ثقافات مستقرة ومتكاملة. ويتعين علينا عند دراسة العالم المعاصر أن نكون واعين بالاتجاهات المفضية إلى التفكك. ويقصد بالاختلال الوظيفي جوانب النشاط الاجتماعي التي تؤدي إلى التغيير؛ لأنها تهدد التماسك الاجتماعي.

ويعنى النظر في جوانب الاختلال الوظيفي للسلوك الاجتماعي التركيز على ملامح الحياة الاجتماعية التي تتحدى النظام القائم للأشياء. فمن الخطأ أن نفترض - على سبيل المثال - أن الدين وظيفي دائماً؛ بمعنى أنه يسهم في التماسك الاجتماعي فقط. فعندما تشايح جماعتان ديانات مختلفة أو حتى مذاهب مختلفة لنفس الديانة، تكون النتيجة صراعات اجتماعية رئيسية تسبب تصدعاً اجتماعياً على نطاق واسع. ولذلك تنشعب المعارك بين الجماعات الدينية مثل الصراعات التي شهدتها التاريخ الأوروبي بين البروتستانت والكاثوليك.

◆ التطورات الحديثة:

ظل التفكير الوظيفي لفترة طويلة هو التقليد النظري الرئيسي في علم الاجتماع خاصة في الولايات المتحدة. وبدأت تتضاءل أهمية هذا التفكير في السنوات الحديثة مع وضوح نواحي القصور فيه، وذلك على الرغم من أنه لا يزال هناك مدافعون عنه

(Alexander, ١٩٨٥). وقد أفرط كثير من المفكرين الوظيفيين (مثل بارسونز) في التشديد على العوامل المفضية إلى التماسك الاجتماعى على حساب العوامل المؤدية إلى الانقسام والصراع، ولا ينطبق ذلك على ميرتون. وثمة انتقادات عديدة تذهب إلى أن التحليل الوظيفى أضى على المجتمعات خصائص لا تتصف بها. فغالباً ما يكتب الوظيفيون كما لو كانت المجتمعات لها "حاجات" و"أهداف"، على الرغم من أن هذه المفاهيم تكتسب معنى عندما تطبق على الكائنات الإنسانية فقط. ولناخذ مثلاً على ذلك من تحليل ميرتون لرقصة المطر عند قبيلة الهوبى. فقد كتب ميرتون أننا إذا استطعنا توضيح أن الاحتفال المراسمى يساعد فى تكامل ثقافة الهوبى، فقد فسرنا أسباب وجودها فى الواقع، لأننا نعلم فى نهاية المطاف أن الرقص لا يجلب المطر بالفعل. وليس الأمر كذلك ما لم نتخيل أن مجتمع الهوبى يدفع أعضائه بطريقة أو بأخرى إلى التصرف بالطريقة التى يحتاجها لتحقيق تماسك المجتمع، ولا يمكن أن يكون الأمر هكذا، لأن المجتمعات ليست مزودة بقوة الإرادة أو الأهداف، فالأفراد من بنى البشر وحدهم هم الذين يملكون تلك القوة والأهداف.

◆ البنيوية:

تأثرت البنيوية - شأنها فى ذلك شأن الوظيفية - بكتابات دوركايم مع أن القوى الأساسية الدافعة لتطورها تكمن فى علم اللغة. وكانت أعمال عالم اللغة السويسرى فرديناند دى سوسير (١٨٥٧-١٩١٣) أهم المصادر المبكرة للأفكار البنيوية. وعلى الرغم من أن سوسير كتب فى اللغة فقط، فإن الرؤى التى طورها أدمجت فى مجالات عديدة فى العلوم الاجتماعية إلى جانب الإنسانيات.

وكانت دراسة اللغة قبل ظهور أعمال سوسير معنية أساساً بتعقب التغيرات التفصيلية فى طريقة استخدام الكلمات. وفى رأى سوسير أن هذا النهج اسقط من اعتباره الملمح الأساسى للغة؛ فنحن لا نستطيع تحديد الخصائص الأساسية للغة أو أبنيتها إذا نظرنا فقط فى الكلمات التى يستخدمها الناس فى حديثهم (Sousure, ١٩٧٤). وتتكون اللغة من قواعد النحو والمعنى الذى يكمن وراء الكلمات، وليست منصوصة عليها فى هذه الكلمات. ولناخذ مثلاً بسيطاً على ذلك من اللغة الإنجليزية، حيث نضيف عادة "-ed" إلى الفعل عندما نريد الإشارة إلى حدث فى الماضى. وهذه قاعدة نحوية واحدة من بين آلاف القواعد التى يعرفها كل متحدث باللغة الإنجليزية، والتى تستخدم فى تركيب الكلمات التى نقولها. وفى رأى سوسير أن تحليل أبنية اللغة يعنى البحث عن القواعد التى تشكل أساس اللغة. ومعظم هذه القواعد معروفة لنا ضمناً فقط؛ فنحن لا نستطيع بسهولة صياغة تلك القواعد. والحقيقة أن مهمة علم اللغة هى كشف النقاب عما نعرفه معرفة ضمنية، بل وما نعرفه فقط عند مستوى مقدرتنا على استخدام

اللغة فى الواقع.

◆ اللغة والمعنى:

يزعم سوسير أن معنى الكلمات مشتق من أبنية اللغة لا من الأشياء التى تشير إليها الكلمات. ويمكن أن نتصور ببساطة أن معنى كلمة "شجرة" هو الشيء الوارق (ذو أوراق) الذى يشير إليه المصطلح. ومع ذلك فإن الأمر ليس هكذا فى رأى سوسير. ويمكن أن نرى ذلك فى مئات الكلمات فى اللغة التى لا تشير إلى أى شئ مثل "و"، "لكن" أو "مع ذلك". يضاف إلى ذلك أن هناك كلمات تامة المعنى تشير إلى أشياء خرافية لا وجود لها فى الواقع على الإطلاق مثل "وحيد القرن". والسؤال هنا: إذا كان معنى كلمة ما غير مشتق من الشيء الذى تشير إليه، فمن أين جاء هذا المعنى؟ يجب سوسير عن ذلك بأن المعنى توجد الاختلافات بين المفاهيم المترابطة التى تقرها قواعد اللغة. فمعنى كلمة "شجرة" مشتق من حقيقة أننا نميز "الشجرة" عن "الجنبه" و"الحرج" ومجموعة أخرى من الكلمات التى لها معانى متشابهة ولكن لكل منها معنى تنفرد به. فالمعنى تتحدد داخلياً فى اللغة، ولا تتحدد بالأشياء الموجودة فى العالم التى تشير إليها بواسطة هذه المعانى.

◆ البنيوية والسيميوطيقا (علم العلامات):

أضاف سوسير عند هذا التحليل ملحوظة مهمة مؤداها أنه ليست الأصوات (التخاطب) أو العلامات على الورق (الكتابة) هى فقط التى يمكن أن تخلق المعنى. فآية أشياء نستطيع أن نميزها بشكل منظم يمكن استخدامها فى صياغة المعانى. ومثالنا هذا إشارات المرور. فنحن نستخدم التعارض بين الأخضر والأحمر ليعنى "سر" و"قف" (الأصفر يعنى "استعد للسير"، أو "استعد للوقوف"). لاحظ هنا أن ما أوجد المعنى هو الاختلاف بين اللونين وليست الألوان ذاتها. ولن يختلف الأمر إذا استخدمنا اللون الأخضر ليعنى "قف" واللون الأحمر ليعنى "سر" مادمننا متفقين على الاعتراف بالاختلاف بين اللونين. ويطلق سوسير مصطلح "السيمولوجيا" على دراسة المعانى غير اللغوية، إلا أن المصطلح الأكثر تداولاً اليوم هو "السيميوطيقا".

ويمكن إجراء دراسات سيميوطيقية لجوانب عديدة مختلفة من الثقافة الإنسانية. وأحد الأمثلة على ذلك الملابس والزى. والسؤال هنا: ما الذى يجعل من نمط معين من أنماط الملابس مطابقاً للزى الحديث (الموضة) فى فترة زمنية محددة؟ من المؤكد أن ذلك لا يرتبط بالملابس الفعلية التى نرتديها؛ لأن التنورة القصيرة يمكن أن تكون مطابقة للموضة فى سنة ما، ولا تكون كذلك فى السنة التى تليها. وهنا نجد أن ما يجعل شيئاً ما مطابقاً للموضة هو – مرة ثانية – الاختلاف بين ما يرتديه من يتابعون أحدث الأزياء وما

يرتديه من لا يتابعون الموضة. ونأخذ مثالا آخر من مجال الزى يتعلق بارتداء ملابس الحداد. ففي ثقافتنا نعبر عن الحداد بارتداء اللون الأسود، وفي بعض الثقافات الأخرى يرتدى الناس اللون الأبيض وقت الحداد. وليس اللون فى حد ذاته هو المهم هنا، بل المهم أن الناس أثناء الحداد يرتدون زياً مختلفاً عن الزى العادى.

ويستخدم الاتجاه البنيوى على نطاق أوسع فى الأنثروبولوجيا عنها فى علم الاجتماع خاصة فى الولايات المتحدة. واقتداءً بليفى شتراوس – الذى أشاع مصطلح البنيوية – يستخدم التحليل البنيوى فى دراسة القرابة والأساطير والدين وغيرها من المجالات. ومع ذلك فقد تأثر عديد من الكتاب فى نظرية علم الاجتماع بالأفكار المستمدة من البنيوية. وعلى الرغم من أن ميشيل فوكوه لا يحب أن يطلق عليه "بنيوى"، فقد استخدم أفكاراً أساسية عديدة من التفكير البنيوى. وتطبق المفاهيم البنيوية على دراسة وسائل الإعلام (الصحف، والمجلات، والتلفزيون) والإيديولوجيا والثقافة بصفة عامة.

ويعانى التفكير البنيوى من نقاط ضعف تحد من مكانته كإطار مرجعى نظرى عام فى علم الاجتماع. ويعود منشأ البنيوية إلى دراسة اللغة، إلا أنها برهنت على أنها أكثر صلة من أطر نظرية أخرى بتحليل جوانب معينة من السلوك الإنسانى. وتبدو البنيوية مفيدة فى دراسة الاتصال والثقافة، إلا أنها أقل تطبيقاً على مجالات عملية للحياة الاجتماعية مثل النشاط الاقتصادى أو السياسى.

◆ التفاعلية الرمزية:

تهتم التفاعلية الرمزية بدرجة أكبر من الاتجاهات النظرية الأخرى بالفرد الفاعل المبدع. وقد تطورت التفاعلية الرمزية منذ ميد على يد عديد من الكتاب، وأصبحت نداءً رئيسياً للاتجاه الوظيفى فى الولايات المتحدة. وقد انبثقت التفاعلية الرمزية – شأنها فى ذلك شأن البنيوية – من الاهتمام باللغة، إلا أن ميد طورها فى اتجاه مختلف.

◆ الرموز:

يزعم ميد أن اللغة تتيح لنا أن نصبح كائنات واعية بذاتها، واعية بفرديتها، وأن الرمز هو العنصر الأساسى فى هذه العملية. والرمز شئ يرمز إلى شئ آخر. وتوابعاً مع المثال الذى استخدمه سوسير، فإن كلمة "شجرة" رمز تصور به الشئ، وهو الشجرة. وبمجرد أن نفهم هذا المفهوم فهماً كاملاً – كما يدعى ميد – نستطيع أن نفكر فى الشجرة حتى لو كانت غير منظورة. وقد تعلمنا أن نفكر فى الشئ تفكيراً رمزياً. ويحررنا التفكير الرمزى من حصار خبراتنا التى نشاهدها ونسمعها أو نشعر بها.

وتعيش الكائنات الإنسانية – على العكس من الحيوانات الدنيا – فى كون ثرى ثراءً رمزياً. وهذا ينطبق على إحساسنا الخاص بالذات. (ليس لدى الحيوانات إحساس بالذات

مثل الكائنات الإنسانية). فكل واحد منا كائن واع بذاته، لأننا تعلمنا أن نكون قادرين على أن ننظر إلى أنفسنا من الخارج، أى أن نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون. وعندما يبدأ الطفل فى استخدام كلمة "أنا" ليشير بها إلى ذاته التى يطلق عليها الآخرون "أنت"، فإنه يُظهرُ بذلك بدايات الوعى بالذات.

ويرى أنصار التفاعلية الرمزية أن جميع صور التفاعل بين الأفراد تتضمن تبادلاً للرموز. فعندما نتفاعل مع الآخرين نبحث دوماً عن مفاتيح حول أنسب أنماط السلوك فى السياق الذى يحدث فيه التفاعل، وعن مفاتيح حول كيفية تفسير ما يقصده الآخرون. وتلقت التفاعلية الرمزية انتباهنا إلى تفاصيل التفاعل بين الأشخاص، وكيفية استخدام هذه التفاصيل فى فهم ما يقوله الآخرون ويفعلونه. ولنفرض أن رجلاً وامرأة خرجا للنزهة معاً لأول مرة، فسوف نلاحظ أن كليهما يقضى جزءاً كبيراً من الوقت يكون رأياً عن الآخر، وقيم احتمالات تطور العلاقة بينهما. ولا يرغب أى منهما أن يراه الآخر وهو يقوم بذلك علانية مع أن كليهما يعترف بأن الأمور تسير على هذا النحو. ويحرص الرجل والمرأة حرصاً شديداً على سلوكهما، ويتوق كلاهما إلى تصوير ذاته فى أبهى صورة، إلا أن كليهما يبحث عن جوانب فى سلوك الآخر تكشف عن آرائه الحقيقية. وتتشكل العلاقة بين الرجل والمرأة بواسطة عملية مركبة ودقيقة من التفسير الرمزي.

وعادة ما يركز علماء الاجتماع المتأثرون بالتفاعلية الرمزية على التفاعل المباشر فى سياق الحياة اليومية. وقد قدم ارفنج جوفمان⁽¹⁾ إسهامات لامعة لهذا النمط من الدراسة مضيفاً بذلك حيوية ونشاطاً على الاتجاه النظرى التجريدى الجاف عند ميد. وتستطيع التفاعلية الرمزية من خلال جوفمان وآخرين أن تسلم إلى رؤى عديدة حول طبيعة تفاعلاتنا فى سياق الحياة الاجتماعية اليومية. ومع ذلك فقد وجهت سهام النقد إلى التفاعلية الرمزية على أساس أنها تركز تركيزاً شديداً على الظواهر الصغرى، ومن ثم يجد أنصارها صعوبة فى دراسة الأبنية والعمليات الكبرى، وهى الظواهر التى يشدد عليها الاتجاهان النظريان الآخرا (الوظيفية والبنوية) تشديداً قوياً.

◆ الماركسية:

ليست الوظيفية والبنوية والتفاعلية الرمزية هى الاتجاهات النظرية الوحيدة المهمة فى علم الاجتماع، وليس هذا التقسيم الثلاثى هو الطريقة الوحيدة التى نستطيع بها تصنيف الاتجاهات النظرية. وتعد الماركسية أحد الاتجاهات المؤثرة التى تخترق هذا التقسيم. ومن الطبيعى أن يرجع الماركسيون فى آرائهم بشكل أو آخر إلى كتابات ماركس، ومع ذلك تعددت التفسيرات المطروحة للأفكار الأساسية عند ماركس، ومن ثم

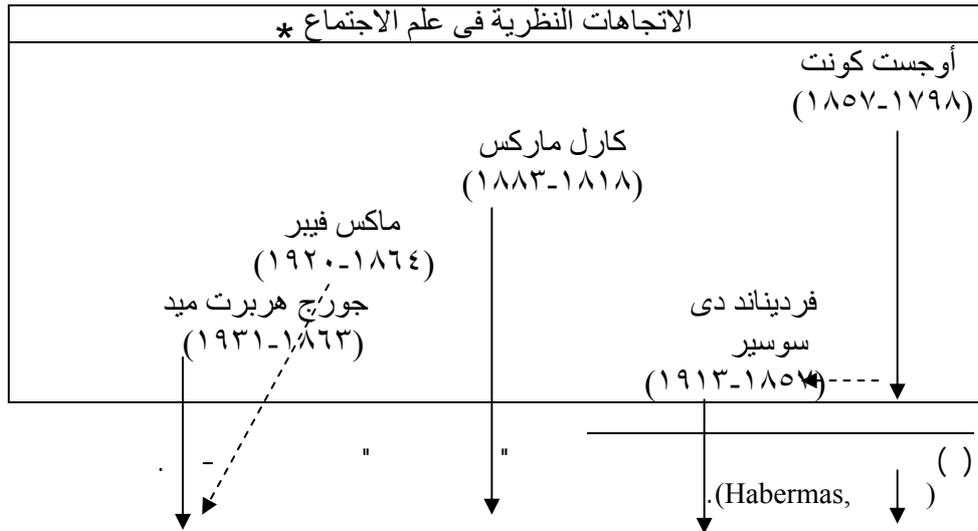
()

" "

:

توجد اليوم مدارس للفكر الماركسي تتخذ مواقف نظرية مختلفة تمام الاختلاف. ويمكن القول بصفة عامة أن الماركسية يمكن تقسيمها إلى تقسيمات فرعية عبر اتجاهات تتطابق مع الحدود الفاصلة بين الاتجاهات النظرية الثلاثة التي عرضنا لها آنفاً. فقد تبنى عديد من الماركسيين بشكل ضمنى أو صريح مدخلاً وظيفياً إلى المادية التاريخية. ويختلف هذا الشكل من أشكال الماركسية اختلافاً تاماً عن الشكل الذى طرحه الماركسيون الذين تأثروا بالبنوية، ويعد الكاتب الفرنسى لويس التوسير (Althusser) (١٩٨٩) أشهر من طوروا هذا المدخل. ويختلف هذان النمطان من أنماط التفكير الماركسى عن النمط الثالث للماركسيين الذين ركزوا على الطبيعة الفاعلة والإبداعية للسلوك الإنسانى. وقد تأثرت طائفة قليلة من هؤلاء الكتاب تأثراً مباشراً بالتفاعلية الرمزية، إلا أنهم تبنوا منظوراً يقترب كثيراً منها. ويعد يورجين هابرماس أوضح مثال على هؤلاء الكتاب^(١).

وتختلف الماركسية بجميع أشكالها الثلاثة عن الاتجاهات غير الماركسية فى علم الاجتماع. وينظر معظم الكتاب الماركسيين إلى الماركسية على أنها جزء من "حزمة" للتحليل فى علم الاجتماع والإصلاح السياسى. فمن المفترض أن ينبثق عن الماركسية برنامجاً للتغيير السياسى الراديكالى. يضاف إلى ذلك أن الماركسيين يهتمون بالتقسيمات الطبقيّة والصراع والقوة والإيديولوجية بدرجة أكبر من عديد من علماء الاجتماع غير الماركسيين خاصة معظم من تأثر منهم بالوظيفية. ومن الأفضل ألا ننظر إلى الماركسية على أنها اتجاه من الاتجاهات داخل علم الاجتماع، بل ننظر إليها على أنها مجموعة من الكتابات الموجودة جنباً إلى جنب مع علم الاجتماع، وكلاهما متداخل مع الآخر ويؤثر فيه ويتأثر به، وتوجد دائماً علاقة تأثير متبادل وتعارض بين علم الاجتماع غير الماركسى والماركسية.



اميل دوركايم
(١٨٥٨-١٩١٧)

الوظيفية البنيوية الماركسية التفاعلية الرمزية

تشير الخطوط الصحيحة إلى وجود تأثير مباشر، وتشير الخطوط المنقوطة إلى وجود تأثير غير مباشر. وليس من المؤكد أن سوسير يدين في كثير من أفكاره لدوركايم بشكل مباشر، إلا أن هناك مجالات عديدة متداخلة بينهما. ولا يدين ميد بالفضل لفيرر، إلا أن آراء فييرر - بتأكيد على المعنى والقصد في الفعل الإنساني - ذات صلة بالموضوعات الأساسية للتفاعلية الرمزية.

المعضلات النظرية

كيف يتعين علينا تقدير القيمة النسبية لهذه الاتجاهات النظرية الأربعة؟ على الرغم من أن كل اتجاه له مؤيدون يدافعون عنه ويلتزمون به، فإن هناك جوانب واضحة يكمل بها كل اتجاه الاتجاهات الأخرى. فالوظيفية ومعظم أشكال الماركسية تركز على الخصائص العامة للجماعات الاجتماعية أو المجتمعات، مع الاهتمام بصفة أساسية بالمسائل الكبرى مثل: كيف تتماسك أجزاء المجتمع؟ أو ما هي الظروف الأساسية المفضية إلى التغيير الاجتماعي؟. وفي مقابل ذلك تركز التفاعلية الرمزية بدرجة أكبر على السياق المباشر للحياة الاجتماعية. وتختلف البنيوية عن الاتجاهات الأخرى بتركيزها الرئيسي على الملامح الثقافية للنشاط الاجتماعي.

ومن هنا نستطيع إذن أن نعتمد إلى حد ما على جميع هذه النظريات في مناقشة مشكلات بعينها في علم الاجتماع، إلا أن هناك تعارضاً واضحاً بين هذه النظريات في جوانب معينة. وتوجد عدة معضلات نظرية أساسية - وهي الأمور التي يتواصل بشأنها الجدل والخلاف - يلفت نظرنا إليها هذا التعارض في وجهات النظر. وتتعلق بعض هذه المعضلات بقضايا عامة تتصل بكيفية تفسير الأنشطة الإنسانية والنظم الاجتماعية. وسوف نناقش هنا أربع معضلات نظرية على النحو التالي:

(١) تتعلق المعضلة الأولى **بالفعل الإنساني والبناء الاجتماعي**. والقضية هنا على النحو التالي: إلى أي حد نعتبر فاعلين مبدعين نسيطر بفاعلية على ظروف حياتنا؟ أو: هل معظم ما نفعله نتيجة لقوى اجتماعية عامة لا سيطرة لنا عليها؟ وقد أدت هذه القضية - ولا تزال - إلى حدوث انقسام بين علماء الاجتماع. وتؤكد التفاعلية الرمزية على المكونات الفاعلة والإبداعية للسلوك الإنساني، في حين تؤكد الاتجاهات الثلاثة الأخرى (باستثناء بعض أشكال الماركسية) على الطبيعة الكابحة للمؤثرات

الاجتماعية على أفعالنا.

(٢) وتتعلق المعضلة النظرية الثانية بالإجماع والصراع فى المجتمع، حيث تؤكد بعض الرؤى فى علم الاجتماع - وكثير منها يرتبط بالوظيفية - على النظام والانسجام الملازمين للمجتمعات الإنسانية. ويرى من يعتنقون هذه الرؤية - مثل تالكوت بارسونز - أن الاستمرار والإجماع من أبرز خصائص المجتمعات على الرغم من تغيرها بمرور السنين. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يؤكد علماء اجتماع آخرون - خاصة أولئك الذين تأثروا وتأثراً قوياً بماركس أو فيبر - على انتشار الصراع الاجتماعى، ويرون أن المجتمعات مبتلية بالانقسامات والاضطرابات والنضال. وفى رأيهم أنه من قبيل الوهم أن ندعى أن الناس ينزعون إلى المعيشة فى سلام مع بعضهم البعض معظم الوقت. وعندما لا تكون هناك مواجهات صريحة بينهم، تظل هناك انقسامات حادة فى المصالح قابلة للتحويل فى بعض الأحيان إلى صراعات نشطة.

(٣) هناك معضلة نظرية ثالثة لم تتطرق عليها على الإطلاق جميع الاتجاهات التقليدية فى علم الاجتماع، ولكنها معضلة لم يعد بالإمكان تجاهلها، وتلك هى مشكلة كيفية دمج فهم مقنع للنوع الاجتماعى فى التحليل السوسولوجى. لقد كانت جميع الشخصيات البارزة فى التطور الماضى لنظرية علم الاجتماع من الرجال، ولم يعر هؤلاء المنظرون فى كتاباتهم أى اهتمام بحقيقة أن الكائنات الإنسانية متجنسة Gendered (Sydie ١٩٨٧). ويبدو الأفراد فى أعمال هؤلاء المنظرين كما لو كانوا "حياديين" Neutral، فهم "فاعلون" تجريديون غير متميزين إلى نساء ورجال. وما دام أنه لا يوجد فى حوزتنا معرفة نظرية غزيرة بنى عليها فى ربط قضايا النوع الاجتماعى بالأشكال الأكثر رسوخاً للفكر النظرى فى علم الاجتماع، فإن هذه المشكلة ربما تكون أصعب المشكلات الأربعة التى نواجهها فى الوقت الراهن.

ومن المعضلات النظرية الرئيسية المرتبطة بالنوع الاجتماعى ما يلى: هل سنتعامل مع النوع الاجتماعى كقناة عامة فى تفكيرنا السوسولوجى؟ أم أننا فى حاجة إلى تحليل قضايا النوع الاجتماعى بتفكيكها إلى مؤثرات أكثر خصوصية تؤثر فى سلوك النساء والرجال فى سياقات مختلفة؟ ونعبر عن ذلك بعبارة أخرى: هل توجد خصائص تفصل بين الرجال والنساء فى جميع الثقافات من حيث هويتهم وسلوكهم الاجتماعى؟ أم هل يمكن تفسير الفروق النوعية فى ضوء الفروق الأخرى التى تقسم المجتمعات مثل التقسيمات الطبقيّة؟

(٤) لا تتعلق المشكلة الرابعة كثيراً بالخصائص العامة للسلوك الإنسانى أو بخصائص المجتمعات ككل، ولكنها تتعلق بلامح التطور الاجتماعى الحديث. وتتصل هذه المشكلة بتحديد العوامل المؤثرة فى نشأة المجتمعات الحديثة وطبيعتها، وهذه المشكلة

مشتقة من الاختلاف بين الاتجاهات غير الماركسية والماركسية. وتتمحور هذه المعضلة حول القضية التالية: إلى أى مدى تشكل العالم الحديث بالعوامل الاقتصادية التى حددها ماركس خاصة ميكانيزمات المشروع الاقتصادى الرأسمالى؟، والبديل عن ذلك هو: إلى أى مدى شكلت المؤثرات الأخرى (كالعوامل الاجتماعية والسياسية أو الثقافية) التطور الاجتماعى فى العصر الحديث؟

وسوف ننظر فى كل معضلة من هذه المعضلات بالتتابع على النحو التالى:

◆ المعضلة الأولى: البناء والفعل

من الموضوعات الرئيسية التى انشغل بها دوركايم – ومن بعده كثير من الكتاب فى علم الاجتماع – أن المجتمعات التى نحن أعضاء فيها تمارس كبحاً اجتماعياً على أفعالنا. ويزعم دوركايم أن المجتمع له سلطة على الفرد، وأن المجتمع أكبر من حاصل جمع أفعال الأفراد، وعندما نقوم بتحليل البناء الاجتماعى فإننا ندرس خصائص لها قوة أو متانة تناظر الأبنية فى البيئة المادية. ودعونا نفكر فى شخص يقف فى حجرة لها أبواب متعددة. فبناء الحجرة يكبح أنشطته التى يمكنه القيام بها، إذ أن موقع الحوائط والأبواب – على سبيل المثال – هو الذى يحدد مسارات الخروج من الحجرة والدخول إليها. وفى رأى دوركايم أن البناء الاجتماعى يكبح نشاطنا بطريقة مشابهة، حيث يضع حدوداً على ما يمكن أن نفعله كأفراد. وهذا البناء "خارج" عنا تماماً مثل حوائط الحجرة.

ويعبر دوركايم عن هذا الرأى بقوله المشهور:

"عندما أودى واجباتى كأخ وزوج أو مواطن، وأنفذ العهود التى أخذتها على نفسى، فأنا أفسى بالالتزامات التى حددتها القوانين والعادات الاجتماعية الخارجة عنى وعن أفعالى... وعلى نحو مشابه يكتشف المؤمن منذ مولده أن معتقدات حياته الدينية وممارساتها موجودة خارجه. كما أن نظام الإشارات الذى استخدمه للتعبير عن أفكارى، والنظام النقدى الذى استخدمه لتسديد ديونى، وسبل الانتماء التى استعین بها فى علاقاتى التجارية، والممارسات التى اتبعها فى مهنتى... إلخ – كل ذلك يودى وظيفته مستقلاً عن استخدامى لها. وإذا درسنا بدورنا كل فرد فى المجتمع لوجدنا أن كل ما سبق ذكره ينطبق عليهم جميعاً".

(Durkheim, 1982, PP. 50-51)

وعلى الرغم من أن وجهة النظر التى عبر عنها دوركايم لاقت تأييداً من كثيرين، فقد قوبلت أيضاً بانتقاد حاد، حيث يتساءل النقاد: ما هو المجتمع إذا لم يكن مؤلفاً من الأفعال الفردية العديدة؟. وإذا قمنا بدراسة جماعة ما، فنحن لا نرى كياناً جميعاً، ولكننا

نرى أفراداً يتفاعلون مع بعضهم بعضاً فى أشكال متعددة، و"المجتمع" ليس إلا عديد من الأفراد يتصرفون بطرق منتظمة فى علاقتهم مع بعضهم البعض. وفى رأى هؤلاء النقاد (ومعظمهم من علماء الاجتماع المتأثرين بالتفاعلية الرمزية) أننا ككائنات إنسانية لدينا أسباب لما نفعله، ونحن نقطن عالماً اجتماعياً تتخلله المعانى الثقافية. كما يرى هؤلاء النقاد أن الظواهر الاجتماعية لا تشبه "الأشياء" على نحو دقيق، ولكنها تعتمد على المعانى الرمزية التى تغلف بواسطتها ما نفعله، والمجتمع لا يخلقنا، ولكننا نخلق المجتمع.

◆ التقييم:

ليس من المرجح أن يُحسم هذا الجدل حسماً تاماً منذ أن وجد مع المحاولات الأولى المنتظمة من جانب المفكرين المحدثين لتفسير السلوك الإنسانى، هذا بالإضافة إلى أنه جدل لا يقتصر على علم الاجتماع وحده، وإنما يشغل أيضاً بال العلماء فى شتى مجالات العلوم الاجتماعية. ويتعين عليك أيها القارئ أن تقرر فى ضوء قراءتك لهذا الكتاب أى الموقفين يعد صحيحاً.

ويمكن أن تأخذ الاختلافات بين هذين الرأيين صيغة المبالغة. ومع أن كلا الرأيين لا يمكن أن يعد صحيحاً بشكل كامل، فإننا نستطيع بسهولة أن نلمس الترابط بينهما. فوجهة نظر دوركايم تبدو صحيحة فى بعض الجوانب؛ ذلك أن النظم الاجتماعية تسبق الفرد فى وجودها؛ ومن الواضح أيضاً أنها تمارس قسراً علينا. ولذلك أقول على سبيل المثال إننى لم اخترع النظام النقدى الموجود فى بريطانيا، كما أنه لا يوجد لدى الخيارى فى أن استخدمه أو لا استخدمه إذا كنت أرغب فى شراء السلع والخدمات بواسطة النقود. فالنظام النقدى - شأنه فى ذلك شأن جميع النظم الأخرى الراسخة - موجود وجوداً مستقلاً عن أى فرد عضو فى المجتمع، وتكبح نشاط هذا الفرد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يصبح من الخطأ الفادح أن نفترض أن المجتمع "خارج" عنا بنفس الطريقة التى يكون بها العالم الطبيعى خارجاً عنا. فالعالم الطبيعى يستمر فى وجوده سواء أكانت الكائنات الإنسانية على قيد الحياة أم لا، ويبدو هذا الكلام نوعاً من الهراء عندما نتحدث بنفس الطريقة عن المجتمع. وإذا كان المجتمع شيئاً خارجاً عن كل فرد بمفرده، فإنه لا يمكن أن يكون شيئاً خارجاً بالنسبة لمجموعة الأفراد ككل.

يضاف إلى ما سبق أنه على الرغم من أن ما أطلق عليه دوركايم "الوقائع الاجتماعية" Social Facts قد تكبح ما نفعله، فإنها لا تحدد ما نفعله. إذ يمكن لى أن أختار العيش بدون نقود، ويمكن أن اتخذ قراراً حاسماً حيال التصرف على هذا النحو، حتى لو تبين لى صعوبة أن احتال على العيش من يوم إلى آخر. ونحن ككائنات بشرية لنا

الخيار ولا نستجيب ببساطة استجابة سلبية للأحداث التي تحدث من حولنا. والطريق المباشر لتجسير الفجوة بين الاتجاه "البنائي" واتجاه "الفعل" هو أن نعتزف بأننا نشكل البناء الاجتماعى ونعيد تشكيله بفاعلية خلال مسار أنشطتنا اليومية. ونعود إلى مثالنا عن النظام النقدى لأقول أن استخدامى لهذا النظام يسهم إسهاماً ثانوياً - ولكنه إسهام ضرورى - فى وجوده. وإذا قرر كل فرد - أو حتى غالبية الناس - فى لحظة ما أن يتوقفوا عن استخدام النقود، فإن النظام النقدى سوف يتلاشى.

◆ المعضلة الثانية: الإجماع والصراع

من المفيد أيضاً أن نبدأ بدوركايم عندما نقابل بين وجهتى النظر المتعلقةتين بالإجماع والصراع. فدوركايم ينظر إلى المجتمع على أنه مجموعة من الأجزاء المترابطة. والحقيقة أن المجتمع - بالنسبة لمعظم المفكرين الوظيفيين - يُعامل على أنه كل متكامل يتكون من أبنية تتشابهك مع بعضها البعض تشابكاً وثيقاً. وهذا يتطابق تطابقاً كبيراً مع تأكيد دوركايم على الطبيعة الكابحة والخارجية للوقائع الاجتماعية. وليست المماثلة هنا مع حوائط المبنى، ولكنها مماثلة مع فسيولوجية الجسد.

ويتكون الجسد من أجزاء عديدة متخصصة (كالمخ والقلب والرئتين والكبد وما إليها)، وكل جزء يسهم فى المحافظة على استمرار حياة الكائن الحى. وتعمل هذه الأجزاء بالضرورة فى تناغم مع بعضها البعض، وإذا لم يحدث ذلك تصبح حياة الكائن الحى مهددة. وينطبق نفس الشيء على المجتمع فى رأى دوركايم (وبارسونز)، فلكى يستمر المجتمع فى وجوده بمرور السنين يتعين على نظمه المتخصصة (كالنظام السياسى، والدين، والأسرة، والنظام التعليمى) أن تعمل فى تناغم مع بعضها البعض. ومن ثم يعتمد استمرار المجتمع على التعاون الذى يقوم بدوره على الإجماع - أو الاتفاق - بين أعضائه على القيم الأساسية.

وينظر أولئك الذين يركزون بصفة أساسية على الصراع إلى هذا الأمر نظرة مختلفة تمام الاختلاف. ويمكن بسهولة تلخيص الافتراضات الموجهة لهذا الطريق باستخدام تفسير ماركس للصراع الطبقي، إذ يرى ماركس أن المجتمعات تنقسم إلى طبقات ذات موارد غير متكافئة. وما دام أن هذه اللامساواة الواضحة موجودة، تحدث انقسامات فى المصالح تستفحل فى النسق الاجتماعى. وتتحول هذه الانقسامات فى المصالح فى وقت ما إلى صراع نشط بين الطبقات يمكن أن يفضى إلى عمليات التغيير الراديكالى. ولم يركز كل من تأثروا بهذا الرأى على الطبقات بالدرجة التى ركز بها ماركس عليها؛ فهناك انقسامات أخرى تبدو مهمة فى إشعال نار الصراع مثل الانقسامات بين الجماعات السلالية أو الأحزاب السياسية. وأياً كانت الجماعات المتصارعة التى يتم تسليط الضوء عليها، فإن المجتمع يُنظر إليه أساساً على أنه ملئ بالتوتر، حتى أن النسق

الاجتماعى الأكثر استقراراً يمثل توازناً متقلباً بين الجماعات المتصارعة.

◆ التقييم:

ليس من المرجح أن ننهي هذا الجدل النظرى على نحو تام شأنه فى ذلك شأن الجدل حول البناء أم الفعل. كما أن الجدل بشأن الإجماع والصراع اتخذ صيغة المبالغة. وليس ثمة تعارض على الإطلاق بين هذين الموقفين المتعلقين بالإجماع والصراع، إذ يوجد فى جميع المجتمعات نوع ما من الاتفاق العام على القيم، ومن المؤكد أن جميعها تشهد صراعاً.

ويتعين علينا - كقاعدة عامة للتحليل فى علم الاجتماع - دراسة الصلات بين الإجماع والصراع داخل النسق الاجتماعى. فغالباً ما نجد أن القيم التى تعتتها الجماعات المختلفة والأهداف التى يسعى أعضاء تلك الجماعات إلى تحقيقها تعكس مزيجاً من المصالح المشتركة والمتعارضة. فالتطبقات المختلفة على سبيل المثال - وحتى فى سياق تصوير ماركس للصراع الطبقي - بينها بعض المصالح على قوة العمل لكى تعمل فى مشروعاتها تماماً مثلما يعتمد العمال على الرأسماليين فى الحصول على أجورهم. وليس الصراع الصريح مستمراً فى مثل هذه الظروف، بل إن المصالح المشتركة بين هذين الجانبين تطغى على الخلافات بينهما، ويكون العكس صحيحاً فى مواقف أخرى.

ويعد مفهوم الإيديولوجيا مفهوماً مفيداً يساعد فى تحليل العلاقات المتبادلة بين الصراع والإجماع. ويقصد بالإيديولوجيا القيم والمعتقدات التى تساعد فى تأمين وضع الجماعات الأقوى على حساب الجماعات الأضعف منها. ودائماً ما يوجد ارتباط وثيق بين القوة والإيديولوجيا والصراع. وتدور كثير من الصراعات حول القوة بسبب المنافع التى تجلبها. ويعتمد الذين يحوزون معظم القوة اعتماداً أساسياً على تأثير الإيديولوجيا فى الإبقاء على سيطرتهم، وهم قادرون أيضاً - فى العادة - على استخدام القوة إذا لزم الأمر. فعلى سبيل المثال تدعم الحكم الأرسقراطى فى عصر الإقطاع بفكرة مؤداها أن الأقلية ولدت لتحكم، وغالباً ما يلجأ الحكام الأرسقراطيون إلى استخدام العنف ضد من يتجرأون على معارضة قوتهم.

◆ المعضلة الثالثة: مشكلة النوع الاجتماعى

نادراً ما حازت قضايا النوع الاجتماعى مكانة محورية فى كتابات الشخصيات البارزة التى وضعت أساس الإطار المرجعى لعلم الاجتماع الحديث. ومع ذلك فإن الفقرات القليلة التى تعرضوا فيها لمسائل النوع الاجتماعى تسمح لنا على الأقل بتحديد الخطوط العريضة لهذه المعضلة النظرية الأساسية حتى ولو لم نعثر فى كتاباتهم إلا على

النذر اليسير الذى يساعدنا فى حلها. ويحسن بنا أن نصف هذه المعضلة بمقابلة الأطروحة الموجودة عرضاً فى كتابات دوركايم مع الأطروحة التى ظهرت فى كتابات ماركس. فقد لاحظ دوركايم فى معرض مناقشته للانتحار أن الرجل نتاج كلى للمجتمع، أما المرأة فهى نتاج للطبيعة إلى حد كبير. وتأسيساً على هذه الملاحظة يقول دوركايم عن الرجل أن "أذواقه وتطلعاته ومزاجه ذات منشأ جمعى إلى حد كبير، أما المرأة فهى أكثر متأثراً بكيانها العضوى بشكل مباشر. ولذلك تختلف حاجات الرجل اختلافاً تاماً عن حاجات المرأة" (Durkheim, 1952, P. 285). ونعبر عن ذلك بعبارة أخرى بقولنا أن النساء والرجال لهم هويات وأذواق وميول مختلفة؛ لأن النساء أقل اجتماعية من الرجال وأقرب إلى الطبيعة منهم.

ولن يقبل أحد منا اليوم هذا الرأى بالصيغة التى عبرنا بها عنه هنا. فهوية الإناث تتشكل كثيراً بالتنشئة الاجتماعية مثل هوية الذكور. وعندما ندخل تعديلاً طفيفاً على ادعاء دوركايم نجده يمثل بالفعل وجهة نظر ممكنة حول تشكيل النوع الاجتماعى وماهيته، وهى أن الفروق النوعية تركز بصفة أساسية على اختلافات بيولوجية موجودة بين الرجال والنساء. ولا يعنى هذا الرأى بالضرورة الاعتقاد بأن الفروق النوعية فى معظمها فروق وراثية، بل يفترض أن الوضع الاجتماعى للنساء وهويتهم تتشكل بصفة أساسية بواسطة انخراطهم فى التكاثر وتربية الأطفال كما ترى شودوروف⁽¹⁾. وإذا كان هذا الرأى صحيحاً، فإن الفروق النوعية تتأصل بعمق فى جميع المجتمعات. ويعكس التناقض فى القوة بين النساء والرجال حقيقة أن النساء اختصاصهن إنجاب الأطفال وتربيتهم، فى حين ينشط الرجال فى المجالات العامة للسياسة والعمل والحرب.

وتتعارض وجهة نظر ماركس تعارضاً شديداً مع الآراء السابقة. فالفروق النوعية فى القوة والمكانة بين الرجال والنساء - فى رأى ماركس - تعكس بصفة أساسية التقسيمات الأخرى خاصة التقسيمات الطبقيّة. ويذهب ماركس إلى أن التقسيمات النوعية أو الطبقيّة لم تكن موجودة فى الأشكال المبكرة للمجتمع الإنسانى. وبرزت قوة الرجال على النساء عندما ظهرت التقسيمات الطبقيّة فقط، حيث أصبحت النساء شكلاً من أشكال الملكية الخاصة للرجال من خلال نظام الزواج. وسوف تتحرر النساء من وضع العبودية هذه عند قهر التقسيمات الطبقيّة. وتسلم طائفة قليلة - إن وجدت - اليوم بهذا التحليل، ومع ذلك نستطيع أن نجعل منه وجهة نظر جديدة بالتصديق إذا عمناها بدرجة أرحب، فالطبقة ليست هى العامل الوحيد الذى يشكل التقسيمات الطبقيّة التى تؤثر فى سلوك الرجال والنساء. فهناك عوامل أخرى منها الإثنية والجذور الثقافية. ويمكن الادعاء - على سبيل المثال - أن النساء فى جماعة الأقلية (كالسود فى الولايات المتحدة) يتشابهن

مع الرجال فى كثير من الخصائص فى هذه الجماعة بدرجة أكبر مما هو موجود بالنسبة للنساء فى جماعة الأغلبية (أى النساء البيض). وتتشابه النساء فى ثقافة معينة (مثل ثقافة الصيد والالتقاط) فى خصائص مشتركة مع الرجال بدرجة أكبر مما هو موجود مقارنة بالنساء فى المجتمع الصناعى.

◆ التقييم:

تعد القضايا التى تتضمنها هذه المعضلة الثالثة على درجة كبير من الأهمية، وتؤثر تأثيراً مباشراً على التحدى الذى يواجهه به أنصار الحركة النسائية علم الاجتماع. ولا يختلف اثنان على أن جانباً كبيراً من التحليل فى علم الاجتماع فى الماضى تجاهل النساء من ناحية أو قدم تفسيرات غير ملائمة لهوية النساء وسلوكهن من ناحية أخرى. وعلى الرغم من البحوث الجديدة عن المرأة والتى أجريت طيلة العشرين عاماً الماضية، فإنه لا تزال هناك مجالات عديدة تتضح فيها الأنشطة والاهتمامات المميزة للمرأة لم يتم دراستها دراسة وافية. وليست دراسات المرأة فى علم الاجتماع مرادفة لدراسة النوع الاجتماعى، لأن النوع الاجتماعى يتعلق بالعلاقات بين هويات الرجال والنساء وسلوكهم. وحتى هذه اللحظة يظل السؤال المتعلق بمدى إمكانية تسليط الضوء على الفروق النوعية بواسطة المفاهيم الأخرى فى علم الاجتماع (الطبقة، الإثنية، الجذور الثقافية ومال إليها)، أو – على العكس من ذلك – مدى الحاجة إلى تفسير التقسيمات الاجتماعية الأخرى فى ضوء النوع – يظل هذا السؤال سؤالاً مفتوحاً. ومن المؤكد أن بعض المهام التفسيرية الرئيسية لعلم الاجتماع فى المستقبل سوف تتوقف على التعامل مع هذه المعضلة تعاملًا بارعاً.

◆ المعضلة الرابعة: تشكيل العالم الحديث

❖ المنظور الماركسى:

شكلت كتابات ماركس تحدياً قوياً للتحليل فى علم الاجتماع. ومنذ أيامه وحتى يومنا هذا تمحور كثير من الجدل فى علم الاجتماع حول أفكار ماركس بشأن نمو المجتمعات الحديثة (Marx and Engels, ١٩٦٨). وينظر ماركس إلى المجتمعات الحديثة باعتبارها مجتمعات رأسمالية. وكان الباعث على التغير الاجتماعى فى العصر الحديث هو الضغط فى اتجاه التحول الاقتصادى المستمر الذى يعد جزءاً لا يتجزأ من الإنتاج الرأسمالى. وتعد الرأسمالية نظاماً اقتصادياً أكثر دينامية من أى نظام سبقه. ويتنافس الرأسماليون مع بعضهم البعض لبيع سلعهم إلى المستهلكين. ولضمان البقاء فى السوق التنافسية يتعين على الشركات إنتاج سلع رخيصة وذات كفاءة قدر الإمكان. وهذا أدى إلى التجديد التكنولوجى المتواصل؛ لأن زيادة فاعلية التكنولوجيا المستخدمة فى عملية إنتاجية معينة تمثل إحدى الطرق التى تضمن بها الشركات الدخول فى المنافسة.

وهناك أيضاً بواعث قوية للبحث عن أسواق جديدة لبيع السلع، والحصول على مواد خام رخيصة، واستخدام قوة عمل رخيصة. وبالتالي تعد الرأسمالية – فى رأى ماركس – نظاماً يواصل انتشاره بلا انقطاع فى أرجاء العالم. وهذا هو ما فسر به ماركس انتشار الصناعة الغربية على المستوى العالمى.

وقد لاقى تفسير ماركس للنظام الرأسمالى تأييداً من عدد كبير من مؤيديه، وادخل من تلاه من الكتاب تعديلات ضخمة على الصورة التى رسمها ماركس. هذا منا ناحية، ومن ناحية أخرى ظهرت انتقادات عديدة تدفع بالحجة ضد آراء ماركس، وتطرح تحليلات بديلة حول العوامل المؤثرة فى تشكيل العالم الحديث. ويسلم كل واحد منا فى حقيقة الأمر بأن النظام الرأسمالى لعب دوراً رئيسياً فى وجود العالم الذى نعيش فيه اليوم، إلا أن هناك من علماء الاجتماع من يزعمون أن ماركس غالى فى تأثير العوامل الاقتصادية المحضة فى إحداث التغير، وأن النظام الرأسمالى أقل أهمية فى النمو الاجتماعى الحديث مثلما زعم ماركس. ويشكك معظم هؤلاء الكتاب فى إيمان ماركس بأن النظام الشيوعى سوف يحل محل النظام الرأسمالى فى نهاية الأمر. ويبدو أن تلك الشكوك ولدت مع أحداث عام ١٩٨٩ وما بعده فى أوروبا الشرقية.

❖ وجهة نظر فيبر

كان ماكس فيبر واحداً من أوائل من وجهوا سهام نقد حاد إلى ماركس. والحقيقة أن كتابات فيبر كانت بمثابة صراع استمر طيلة حياته مع شبح ماركس؛ أى مع التراث الفكرى الذى خلفه ماركس. ويظل الموقف البديل الذى اتخذه فيبر موقفاً مهماً اليوم. وفى رأيه أن العوامل غير الاقتصادية لعبت دوراً أساسياً فى النمو الاجتماعى الحديث. وفى كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"^(١) – ذلك الكتاب الذى حظى باحتفاء ومناقشات واسعة – يزعم فيبر أن القيم الدينية – خاصة القيم المرتبطة بالتطهر Puritanism – كانت ذات أهمية محورية فى ظهور وجهة النظر الرأسمالية التى لم تظهر – كما يفترض ماركس – نتيجة للتغيرات الاقتصادية فى حد ذاتها.

إن فهم فيبر لطبيعة المجتمعات الحديثة وأسباب انتشار أساليب الحياة الغربية فى العالم يتعارض تعارضاً شديداً مع فهم ماركس لها. وفى رأى فيبر أن الرأسمالية – باعتبارها طريقة متميزة لتنظيم المشروع الاقتصادى – تعد أحد العوامل الأخرى

()

" () : " () " ()
: .ISA ()
(http: // www.ucm. ed / info / isa books / vtlbkv- . Htm).
()

الرئيسية التي شكلت النمو الاجتماعى فى العصر الحديث. وكان للعلم والبيروقراطية تأثير أقوى عن غيرهما من الميكانيزمات الاقتصادية الرأسمالية. فالعلم شكّل التكنولوجيا الحديثة، وسوف يستمر فى القيام بهذا الدور فى أى مجتمع اشتراكى فى المستقبل. والبيروقراطية هى الوسيلة الوحيدة لتنظيم أعداد غفيرة من الناس تنظيمًا فاعلاً، وتنتشر البيروقراطية حتماً مع النمو الاقتصادى والسياسى. ويستخدم فيبر مصطلح الترشيح للإشارة إلى نمو العلم والتكنولوجيا الحديثة والبيروقراطية. ويقصد بالترشيح تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية تبعاً لمبادئ الكفاءة على أساس المعرفة التكنولوجية.

□ التقييم:

السؤال الذى يطرح نفسه هنا: أى ضرب من ضروب التفسير المستمدة من ماركس أو فيبر يعد تفسيراً صحيحاً؟ هنا نجد العلماء ينقسمون حول هذه القضية. ويوضح الجدول رقم (٩-١) بعضاً من هذه الاختلافات (يتعين علينا الإشارة هنا إلى أن داخل كل معسكر توجد اختلافات لدرجة لا تجعل كل منظر يتفق مع جميع هذه النقاط).

جدول رقم (٩-١)

مقارنة بين ماركس وفيبر

الأفكار الماركسية العامة	الأفكار الفيبرية العامة
(١) أن العامل الدينامى الأساسى للنمو الحديث هو انتشار الميكانيزمات الاقتصادية الرأسمالية.	(١) أن العامل الدينامى الأساسى للنمو الحديث هو انتشار الميكانيزمات الاقتصادية الرأسمالية.
(٢) أن المجتمعات الحديثة ممزقة باللامساواة الطبقيّة التي تعد خصيصة ملازمة لطبيعة هذه المجتمعات.	(٢) أن الطبقة نمط واحد ضمن أنماط عديدة للامساواة - مثل اللامساواة بين الرجال والنساء - فى المجتمعات الحديثة.
(٣) أن التقسيمات الأساسية للقوة - مثل التقسيمات المؤثرة فى اختلاف وضع الرجال والنساء - تقسيمات مستمدة أساساً من اللامساواة الاقتصادية.	(٣) تنفصل القوة فى النظام الاقتصادى عن المصادر الأخرى. إذ لا يمكن على سبيل المثال تفسير اللامساواة بين الرجال والنساء بعوامل اقتصادية.
(٤) أن المجتمعات الحديثة كما نعرفها اليوم (المجتمعات الرأسمالية) من النوع الانتقالي، ومن المتوقع أن يعاد تنظيمها تنظيماً راديكالياً فى المستقبل. وسوف يحل النظام الاشتراكى من نوع أو آخر	(٤) يرتبط الترشيح بمزيد من التقدم فى المستقبل فى جميع مناحى الحياة الاجتماعية. وتعتمد جميع المجتمعات الحديثة على نفس الأنماط الأساسية للتنظيم الاجتماعى والاقتصادى.

محل النظام الرأسمالي فى نهاية المطاف.	(٥) أن انتشار التأثير الغربى فى شتى أرجاء العالم يعد محصلة رئيسية للاتجاهات التوسعية للمشروع الرأسمالى.
(٥) أن التأثير العالمى للغرب يجئ من سيطرته على الموارد الصناعية جنباً إلى جنب مع تفوقها فى القوة العسكرية.	

وقد أثر التعارض بين الموقفين الماركسى والفيبرى فى مجالات عديدة لعلم الاجتماع. بل يؤثر كذلك على رؤيتنا للمجتمعات الأقل تقدماً. يضاف إلى هذا أن هذين الاتجاهين (الماركسى والفيبرى) يرتبطان بموقفين سياسيين مختلفين؛ حيث يتبنى اليساريون آراء الاتجاه الماركسى، ويتبنى الليبراليون والمحافظون رؤى الاتجاه الفيبرى. وتعد العوامل المرتبطة بهذه المعضلة النظرية ذات طبيعة إمبيريقية مباشرة بدرجة أكثر مما هو متضمن فى المعضلات الأخرى. وتساعدنا الدراسات الواقعية لمسارات نمو المجتمعات الحديثة ودول العالم الثالث على تقدير مدى انسجام أنماط التغيير مع الاتجاه الماركسى أو الاتجاه الفيبرى.

النظريات

نستطيع أن نقيم تفرقة بين الاتجاهات النظرية THEORETICAL APPROACH والنظريات THEORIES. ولقد انصب اهتمامنا فى هذا الفصل حتى الآن على الاتجاهات النظرية التى تقصد بها التوجهات العامة العريضة نحو موضوع علم الاجتماع. أما النظريات فهى محدودة التوجه، وتمثل محاولات لتفسير طائفة محددة من الأوضاع الاجتماعية أو أنماط حدوثها. وعادة ما تصاغ النظريات باعتبارها جزءاً من عملية البحث، وتطرح هذه النظريات بدورها المشكلات التى يتعين على الباحث دراستها. ومن الأمثلة على النظريات نظرية دوركايم فى الانتحار.

ولقد تطورت نظريات لا حصر لها فى مجالات عديدة مختلفة للبحوث التى يجريها علماء الاجتماع. وهناك بعض النظريات المصاغة صياغة دقيقة، بل أن بعض هذه النظريات مصاغة فى قالب رياضى على الرغم من أن هذا النمط أكثر شيوعاً فى العلوم الاجتماعية الأخرى (خاصة علم الاقتصاد) عنها فى علم الاجتماع.

وتحاول بعض أنواع النظريات أن تكون تفسيرية بدرجة أكثر من غيرها، وتختلف الآراء حول مدى رغبة علماء الاجتماع وجدوى انشغالهم بالمحاولات النظرية رحبة المجال. ويذهب روبرت ميرتون - على سبيل المثال - فى ادعاء قوى له إلى أنه يتعين

على علماء الاجتماع أن يركزوا اهتمامهم على ما أسماه "نظريات المدى المتوسط" (Merton ١٩٥٧). وينبغي علينا - كعلماء اجتماع - أن نكون أكثر تواضعاً بدلاً من محاولة الانشغال بمخططات نظرية كبرى على طريقة بارسونز على سبيل المثال.

وتعد نظريات المدى المتوسط محددة بدرجة تكفي لاختبارها اختباراً مباشراً بواسطة البحوث الإمبريقية، ولكنها عامة بدرجة تجعلها تشمل طائفة من الظواهر المختلفة. ومن الأمثلة على هذه النظريات نظرية الحرمان النسبي التي تذهب إلى أن كيفية تقييم الناس لظروفهم يتوقف على من يقارنون أنفسهم بهم. ولذلك لا ترتبط مشاعر الحرمان ارتباطاً مباشراً بمستوى الفقر المادي الذي يعايشه الأفراد. فالأسرة التي تعيش في منزل صغير في منطقة فقيرة تتشابه فيها ظروف سكانها تقريباً أقل إحساساً بالحرمان من الأسرة التي تعيش في منزل متشابه في جيرة غالبية منازلها أكبر حجماً وسكانها أكثر غنى.

والحقيقة أنه كلما كانت النظرية أرحب مجالاً وأكثر طموحاً، أصبح اختبارها إمبريقياً أمراً أكثر صعوبة. ومع هذا لا يوجد سبب واضح يلزم التفكير النظري في علم الاجتماع بأن يظل مقصوراً على المدى المتوسط. ولكي نتحقق من ذلك دعونا نأخذ مثلاً من النظرية التي طورها فيبر في كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية".

□ مثال: الأخلاق البروتستانتية

شرح فيبر في كتاب "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" (١٩٧٦؛ نشرت الطبعة الأصلية منه عام ١٩٠٤-١٩٠٥) في التصدي لمشكلة رئيسية تتعلق بأسباب نمو الرأسمالية في الغرب دون سواه. ومنذ ما يقرب من ثلاثة عشر قرناً من الزمان بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة أصبحت الحضارات الأخرى أكثر شهرة في تاريخ العالم من حضارة أوروبا. والحقيقة أن أوروبا صارت منطقة غير ذات شأن، في حين أصبحت الصين والهند والإمبراطورية العثمانية في الشرق الأدنى بمثابة القوى العظمى في العالم. وتقدم الصينيون على الغرب بخطوات في مجال التنمية التكنولوجية والاقتصادية. والسؤال هنا: ما الذي حدث بما أدى إلى الازدهار المفاجئ للتنمية الاقتصادية في أوروبا منذ القرن السابع عشر وما تلاه؟

وللإجابة عن هذا السؤال يرى فيبر أنه يجب أن نسلط الضوء على ما يفصل الصناعة الحديثة عن الأنماط المبكرة للنشاط الاقتصادي. وإذا فكرنا في الرغبة في تراكم الثروة نجدها موجودة في حضارات عديدة مختلفة، ولا يصعب تفسير ذلك؛ فالناس يضيفون قيمة على الثروة بسبب الراحة والأمان والقوة والاستمتاع الذي تجلبه، وهم - أي الناس - يريدون التحرر من الحاجة، ومع تراكم الثروة لديهم يستخدمونها في جلب

الراحة لأنفسهم.

ويزعم فيبر أننا إذا نظرنا فى التنمية الاقتصادية فى الغرب، فسوف نعثر على شئ مختلف تمام الاختلاف، وهو وجود اتجاه نحو تراكم الثروة، وهو الاتجاه الذى لا نجده فى مكان آخر على مر التاريخ. وهذا الاتجاه هو ما أسماه فيبر "روح الرأسمالية"، وهى مجموعة المعتقدات والقيم التى اعتنقها رجال التجارة والصناعة الأوائل. فهؤلاء الناس لديهم دافع قوى لتراكم الثروة الشخصية. ومع ذلك فهم – على العكس تماماً من الأثرياء فى مناطق أخرى – لا يسعون إلى استخدام ثرواتهم المتراكمة فى حياة رغبة العيش، وأسلوب معيشتهم يركز على إنكار الذات والاقتصاد فى الإنفاق. كما يعيشون حياتهم باعتدال وينأون بأنفسهم عن المظاهر المألوفة للثراء. وقد حاول فيبر أن يوضح أن هذه الخصائص غير المألوفة كانت حيوية فى النمو الاقتصادى المبكر فى أوروبا. ولم تبدد هذه الجماعات ثرواتها على شاكلة الأثرياء فى العصور السالفة وفى الثقافات الأخرى، وإنما سعت إلى إعادة استثمارها لدعم مزيد من التوسع فى المشروعات التى تفوقوا فيها.

وجوهر نظرية فيبر أن الاتجاهات المتضمنة فى روح الرأسمالية مستمدة من الدين. وقد لعبت المسيحية عموماً دوراً فى تعزيز هذه الرؤية، إلا أن العامل الأساسى كان تأثير البروتستانتية وبصفة خاصة النزعة التطهيرية Puritanism أحد صور البروتستانتية. وكان معظم الرأسماليين الأوائل من مناصرى هذه النزعة، واعتنق كثير منهم الآراء الكالفينية. ويذهب فيبر إلى أن بعض المذاهب الكالفينية كانت المصدر المباشر لروح الرأسمالية. وأحد أفكار الكالفينية هى أن البشر واسطة الله فى الأرض، ويطلب الله منهم أن يعملوا فى مهنة ما من أجل عظمة الله.

وثانى الجوانب المهمة للكالفينية هى فكرة القضاء والقدر Predestination، وطبقاً لهذه الفكرة بصطفى الله أفراداً بعينهم ممن يؤمنون بالقضاء والقدر ليدخلوا الجنة فى الحياة الآخرة. وفى المذهب الكالفينى الأصلى لا يوجد شئ يقوم به الإنسان على وجه الأرض يمكن أن يغير ما إذا كان من المصطفين أم لا؛ فهذا قدر محتوم بإرادة الله. ومع ذلك فقد أثار هذا الاعتقاد قلق أتباع كالفن مما استدعى تعديله ليجيز للمؤمنين به الاعتراف بعلامات معينة على الاصطفاء، حيث أصبح النجاح فى العمل بمهنة ما – مشاراً إليه بالرخاء المادى – هو العلامة الرئيسية على أن الشخص أصبح من المصطفين. وقد تولد الباعث القوى على تحقيق النجاح الاقتصادى بين الجماعات المتأثرة بهذه الأفكار، إلا أن ذلك كان مصحوباً بحاجة المؤمن إلى أن يعيش حياة ملؤها الاقتصاد فى الإنفاق. ويؤمن أصحاب النزعة التطهيرية بأن الترف شر، ولذلك أصبح الدافع إلى تراكم الثروة ممزوجاً بأسلوب معيشة قاسية خالية من الزخرفة.

ولم يكن لدى منظمى المشروعات الأوائل وعى كاف بأنهم يساعدون فى إحداث

تغيرات خطيرة في المجتمع؛ فقد كانت دوافعهم – فوق كل شيء – دوافع دينية، وبالتالي أصبحت حياة الزهد – أى إنكار الذات – عند المتطهرين جزءاً جوهرياً من الحضارة الحديثة. ويعبر فيبر عن ذلك بقوله:

"يرغب المؤمن بمذهب التطهر في العمل بمهنة ما، ونحن مجبرون على أن نفعل ذلك. وعندما ينتقل الزهد من أديرة الرهبنة ليتخلل الحياة اليومية وتسود الأخلاق على مستوى العالم، عندها يلعب الزهد دوره في بناء الأركان الضخمة للنظام الاقتصادي الحديث.. ومنذ أن بدأ الزهد يعمل على إعادة تشكيل العالم ونشر مثله في العالم، اكتسبت السلع المادية قوة متزايدة وصلبة في حياة الناس بدرجة لم تحدث من قبل في التاريخ... وقد تغلقت فكرة واجبات المهنة في حياتنا مثل الروح الشريرة للمعتقدات الدينية البائدة. وعندما لا يمكن ربط العمل في مهنة ما ربطاً مباشراً بأسمى القيم الروحية والثقافية، أو عندما لا تكون مجرد إلزام اقتصادي، فإن الفرد يتخلى عموماً عن محاولة تبريرها. وفي أعلى مستويات التنمية في الولايات المتحدة يتجرد السعي نحو تحقيق الثروة في معناه الديني والأخلاقي ليصبح مرتبطاً برغبات دنيوية محضة".

(Weber, 1976, PP. 181-182)

وقد تعرضت نظرية فيبر لانتقادات من عدة زوايا. إذ يذهب بعض هؤلاء النقاد – على سبيل المثال – إلى أن الرؤية التي أطلق عليها فيبر "روح الرأسمالية" يمكن تمييزها بوضوح في المدن التجارية الإيطالية القديمة بسنوات طويلة قبل أن يسمع أحد عن الكالفيينية. ويذهب نقاد آخرون إلى أن الفكرة الرئيسية عن العمل في مهنة، والتي ربطها فيبر بالبروتستانتية موجودة بالفعل في المعتقدات المسيحية. ومع هذه الانتقادات لا يزال جوهر تفسير فيبر مقبولاً من جانب عديد من العلماء، ولا تزال الأطروحة التي طورها واضحة ولا معة بنفس الوضوح والبريق الذي ظهرت به لأول مرة. وإذا كانت نظرية فيبر صحيحة، فإن ذلك معناه أن النمو الاقتصادي والاجتماعي الحديث تأثر تأثراً قوياً بشيء يبدو للوهلة الأولى أنه منفصل عنه، ذلك الشيء هو مجموعة المثل الدينية.

وتستوفى نظرية فيبر عدة محكات مهمة في التفكير النظري في علم الاجتماع،

وهي:

(1) أنها ضرب من التفكير المضاد للبداهة، حيث تطرح تفسيراً يتعارض مع المعرفة الفطرية، وبالتالي تطور النظرية اتجاهاً جديداً حول القضايا التي تغطيها. ولم يفكر المؤلفون الذين سبقوا فيبر إلا تفكيراً محدوداً حول إمكانية أن تلعب المثل الدينية

دوراً أساسياً فى نشأة الرأسمالية.

(٢) أن هذه النظرية ليست تفسيراً "بنائياً" محضاً أو تفسيراً "فردياً" خالصاً. وقد كان النمو المبكر للرأسمالية نتيجة غير مقصودة لما يتطلع إليه رجال الأعمال المتطهرون، حيث تطلعوا إلى أن يعيشوا حياة طاهرة وفق مشيئة الله.

(٣) أن هذه النظرية تقدم فهماً لشيء يبدو محيراً، أى: لماذا يرغب الأفراد أن يعيشوا مقتصدين فى إنفاقهم فى الوقت الذى يبذلون فيه قصارى جهدهم لتراكم الثروة؟

(٤) أن هذه النظرية تستطيع تسليط الضوء على الظروف التى كانت وراء نشأتها لفهم تلك الظروف. وقد شدد فيبر على أنه لا يحاول سوى فهم النشأة الأولى للرأسمالية الحديثة. ومع ذلك يبدو من المنطقى أن نفترض أن القيم المناظرة للقيم التى غرستها النزعة التطهيرية ربما تكون متضمنة فى مواقف أخرى للنمو الرأسمالى الناجح.

(٥) أن النظرية الجيدة ليست فقط هى النظرية التى تبين صدقها، وإنما أيضاً هى النظرية التى تكون مثمرة فى توليدها لأفكار جديدة واستثارتها للقيام بمزيد من الأعمال البحثية. ومن المؤكد أن نظرية فيبر كانت ناجحة من هذا الجانب؛ حيث كانت ينبوعاً فيما بعد لعدد غزير من الأعمال فى مجال البحوث والنظرية.

التفكير النظرى فى علم الاجتماع

يعد تقييم النظريات - خاصة الاتجاهات النظرية - فى علم الاجتماع مهمة تثير التحدى والفرع. فالمجادلات النظرية بطبيعتها أكثر تجريدية من نظائرها من النوع الإمبريقي. ويبدو أن الحقيقة التى مؤداها أنه لا يوجد اتجاه نظرى واحد يسود علم الاجتماع تبدو علامة على الضعف فى هذا العلم؛ إلا أن الأمر ليس على هذا النحو. وإنما العكس هو الصحيح؛ بمعنى أن تنافس الاتجاهات النظرية والنظريات يعد علامة على حيوية المشروع السوسيوولوجى. وهذا التنوع النظرى ينقذنا من الدوجماتيكية (القطعية) عند دراسة الكائنات البشرية، أى دراسة أنفسنا. ولما كان السلوك الإنسانى معقداً ومتعدد الجوانب، فإنه من غير المرجح أن يحيط اتجاه نظرى واحد بكل تلك الجوانب. فالتنوع فى التفكير النظرى ينبوع خصب للأفكار التى تؤدى إلى البحوث، ويثير القدرات التخيلية اللازمة لتحقيق التقدم فى العمل السوسيوولوجى.

خلاصة الفصل

(١) هناك تنوع فى الاتجاهات النظرية فى علم الاجتماع (وفى العلوم الاجتماعية الأخرى أيضاً). وليس سبب ذلك محيراً، فالخلاف النظرى يصعب حسمه حتى فى العلوم

الطبيعية، ونحن نواجه فى علم الاجتماع صعوبات خاصة؛ بسبب المشكلات المعقدة الموجودة فى إخضاع سلوكنا للدراسة.

(٢) الاتجاهات النظرية الأساسية فى علم الاجتماع هى: الوظيفية، والبنوية، والتفاعلية الرمزية، والماركسية. وتتكامل هذه الاتجاهات مع بعضها البعض إلى حد ما. ومع ذلك يوجد تعارض رئيسى بينها بما يؤثر فى الطريقة التى تعالج بها القضايا النظرية من جانب الكتاب الذين يتبنون اتجاهات مختلفة.

(٣) تتعلق إحدى المعضلات النظرية الرئيسية فى علم الاجتماع بكيفية ربط الفعل الإنسانى بالبناء الاجتماعى. هل نحن الذين ننشئ المجتمع، أم أن المجتمع هو الذى ينشئنا؟. وليس الاختيار بين هذين البديلين اختياراً صارماً كما يبدو للوهلة الأولى، والمشكلة الحقيقية هى كيفية ربط هذين الجانبين للحياة الاجتماعية معاً.

(٤) تتعلق المعضلة الثانية بما إذا كان يتعين علينا وصف المجتمعات بأنها منسجمة ومنظمة، أم بأنها فى صراع مستمر. وليس ثمة تعارض بين هذين الرأيين، ونحن بحاجة إلى توضيح كيفية الترابط بين الإجماع والصراع. ويعد مفهوم الأيديولوجية والقوة مفهومين مفيدتين فى إنجاز هذه المهمة.

(٥) تتصل المعضلة الثالثة بكيفية تعاملنا مع قضايا النوع الاجتماعى فى التحليل السوسولوجى. ويتحدى أنصار الحركة النسوية علم الاجتماع الذى يستجيب استجابة بطيئة لهذا التحدى على مستوى البحوث الإمبريقية، حيث أجريت دراسات أكثر من ذى قبل عن اهتمامات النساء ووجهات نظرهن، إلا أن هذه الدراسات فى حد ذاتها لن تحل مشكلة التحليل الأفضل للنوع الاجتماعى فى علاقته بالاتجاهات الموجودة ومفاهيم نظرية علم الاجتماع.

(٦) انصب التركيز الرابع فى الجدل المتواصل فى علم الاجتماع على تحليل النمو الاجتماعى المعاصر. والسؤال هنا: هل تشكلت عمليات التغيير فى العالم المعاصر بالنمو الاقتصادى الرأسمالى بصفة أساسية، أم أنها تشكلت بواسطة عوامل أخرى من بينها العوامل غير الاقتصادية؟ وقد تأثرت المواقف فى هذا الجدل إلى حد ما بالمعتقدات والاتجاهات السياسية التى يعتنقها مختلف علماء الاجتماع.

(٧) تعد أطروحة فيبر عن تأثير النزعة التطهيرية على النمو الاقتصادى الحديث مثلاً مفيداً على التفكير فيما يجعل النظرية ذات قيمة. ولا تزال أفكار فيبر موضوعاً للجدل، إلا أن نظريته فتحت آفاقاً جديدة وحفزت على مزيد من البحوث.

● **المصطلحات المهمة الواردة فى هذا الفصل:**

◆ **الوظيفية: Functionalism**

توجه نظرى ينهض على فكرة أن الوقائع والأحداث الاجتماعية يمكن تفسيرها على الوجه الأفضل على أساس الوظائف التى تؤديها، أى الدور الذى تؤديه من أجل تحقيق استمرار المجتمع واستدامته.

◆ **الأنثروبولوجيا: Anthropology**

أحد العلوم الاجتماعية الذى يرتبط بعلم الاجتماع ارتباطاً وثيقاً، ويهتم بدراسة الثقافات التقليدية وتطور النوع البشرى.

◆ **الوظائف الظاهرة: Manifest Functions**

وظائف جانب أو نمط من النشاط الاجتماعى تكون معروفة للأفراد الذين يخرطون فى موقف معين فى الحياة الاجتماعية، وتكون مقصودة فى حد ذاتها.

◆ **الوظائف الكامنة: Latent Functions**

الآثار الوظيفية التى تتحقق عن غير قصد، أو حتى بدون وعى من جانب أفراد النسق الاجتماعى الذى تحدث فيه.

◆ **الاختلال الوظيفى: Dysfunctions**

المؤثرات الاجتماعية التى تعمل على تفكيك أو إيقاع الفوضى فى البناء الاجتماعى القائم.

◆ **البنىوية: Structuralism**

منحى نظرى، اشتق أساساً من دراسة اللغة، يهتم بتحديد الأبنية فى الأنساق الثقافية أو الاجتماعية.

◆ **السيميوطيقا (علم العلامات): Semiotics**

دراسة الطرق التى من خلالها يمكن أن تولد الظواهر غير اللغوية معان، كما فى حالة إشارات المرور.

◆ **التفاعلية الرمزية: Symbolic Interactionism**

منحى نظرى فى علم الاجتماع تتم تطويره على يد عالم الاجتماع جورج هربرت ميد، وهو منحى يولى اهتماماً كبيراً لدور الرموز واللغة كعناصر أساسية فى مجمل

التفاعل البشرى.

◆ **الرمز: Symbol**

عنصر يمثل عنصراً آخر أو يشير إليه، كما فى حالة العلم الذى يرمز إلى الأمة.

◆ **الماركسية: Marxism**

كيان من الفكر يشتق عناصره الأساسية من أفكار كارل ماركس.

◆ **المعضلة النظرية: Theoretical Dilemma**

مشكلة نظرية رئيسية تشكل أساساً لمناظرات مطولة فى حقل علم الاجتماع.

◆ **الكابح الاجتماعى: Social Constraint**

مصطلح يشير إلى الحقيقة التى مؤداها أن الجماعات والمجتمعات التى تنتمى إليها تمارس تأثيراً فعلياً يسهم فى تشكيل سلوكنا. ولقد اعتبر دوركايم أن الكابح الاجتماعى يمثل أحد الخصائص المميزة للظواهر الاجتماعية.

◆ **الترشيد (النمو العقلانى): Rationalization**

مفهوم استخدامه ماكس فيبر ليشير إلى العملية التى من خلالها تصبح أساليب الحساب الدقيق والتنظيم – بما فى ذلك القواعد والإجراءات المجردة – هى الحاكمة للعالم الاجتماعى.

◆ **الحرمان النسبى: Relative Deprivation**

الشعور بالحرمان نسبة إلى جماعة يقارن الفرد نفسه بها.

◆ **التفكير المضاد للبداهة: Counter intuitive Thinking**

التفكير الذى يوحى بأفكار مناقضة للفروض أو المقدمات البديهية.

الفصل العاشر

علاقة النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة بعلم الاجتماع(*)

يناقش هذا الفصل الإسهامات النظرية الرئيسية للنظرية النقدية، وما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة. وأزعم أن هذه النظريات الثلاثة قدمت منظورات مترابطة في الغالب بشأن مثالب الوضعية، كما طرحت أيضاً طرقاً جديدة لتنظير المجتمعات المعاصرة ودراساتها. وسوف نناقش أيضاً التطبيقات الإمبيريقية والنظرية لهذه المنظورات في مجال البحث في علم الاجتماع. وتشمل بعض هذه التطبيقات البحوث في علم اجتماع الانحراف، والنوع الاجتماعي، ووسائل الاتصال، والثقافة. ونناقش أخيراً دلالات هذه الاتجاهات الثلاثة بالنسبة للطرق التي يفكر بها علماء الاجتماع في حدود هذا العلم وتخومه.

التماس بين النظرية النقدية الألمانية والنظرية الفرنسية الجديدة في علم الاجتماع

النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة عبارة عن اتجاهات فكرية مألوفة للباحثين في الفلسفة، ونظرية الجمال، والنقد الأدبي، ودراسات المرأة. ومع ذلك فقد بدأ عدد من علماء الاجتماع الأمريكيين في تكوين ألفة مفيدة مع هذه المدارس النظرية الثلاثة التي نناقشها في هذا الفصل (انظر على سبيل المثال: Gottdiener, ١٩٨٥, Lernert & Gillan, ١٩٨٢, Lemert, ١٩٨٠, Denzin, ١٩٨٦, ١٩٨٩, ١٩٩٠, ١٩٩١, Gottdiener & Logopoulos, ١٩٨٦, Hazerlrigg, ١٩٨٩, Richardson, ١٩٨٨, ١٩٩٠a,b,c, ١٩٩١, Brown, ١٩٨٧, Antonio & Kellner, ١٩٩١, Agger, ١٩٨٩a,b,c, ١٩٩٠, ١٩٩١a,b, ١٩٩٢).

ونجد خارج حدود علم الاجتماع تراثاً تأويلياً ضخماً ومتنامياً حول النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة (انظر مثلاً: Jay, ١٩٧٣, ١٩٨٤a,b, Schoolman, ١٩٨٠, Held, ١٩٨٠, Eagleton, ١٩٧٦, ١٩٨٣, ١٩٨٥, Aronowitz, ١٩٨٨,

(*)
Ben Agger. Critical theory, Poststructuralism, Postmodernism: Their sociological relevance. Annual Review of Sociology, vol. , pp. -

١٩٩٠, Weedon, ١٩٨٧, Culter, ١٩٨٢, Best & Kellner, ١٩٩٠, Luke,
١٩٨٩, ١٩٩٠, Harvey, ١٩٨٩).

وتمتلى مكتبات العلوم الإنسانية بمجلات تأويلية لتحلل البنية عند ديريدا، ومدرسة فرانكفورت، والنزعة النقدية السينمائية من منظور ما بعد البنيوية والنسوية، والحركة النسائية الفرنسية، والدراسات الثقافية. وقد أصبح ديريدا علماً مستقلاً بذاته؛ لا بسبب مؤلفاته الغزيرة فحسب، وإنما أيضاً بسبب إلهامه الفكرى الهائل. وقد اهتم لامون Lamont (١٩٨٧) بمناقشة ظاهرة تحلل البنية عند ديريدا من زاوية علم الاجتماع.

وعلى الرغم من أن هذه النظريات الثلاثة التى ناقشها فى هذا الفصل نظريات سياسية فى جوهرها، فقد تجاهلها أصحاب النزعة الإمبريقية لا لأنها يسارية (لاحظ هنا أن جانباً كبيراً من الكتابات الرئيسية فى مجالى التدرج الطبقي والنوع الاجتماعى المنشورة فى مجلة علم الاجتماع الأمريكية ASR كتابات يسارية بدرجة تثير الغموض)، ولكن لأنها نظريات معقدة لدرجة تدعو المرء إلى السخف إذا فكر أن يقرأ كتاب **Glas** لديريدا (١٩٨٧) أو كتاب **The Differend** لليوتار (١٩٨٩). وتصيبنا الدهشة عن سبب عدم قيام هؤلاء المنظرين بكتابة أعمالهم كتابية واضحة وبطريقة توضح الصلة الإمبريقية (السياسية، والثقافية، والوجودية) لكتاباتهم بشكل مباشر. وقد قصدت أن يكون هذا الفصل بمثابة شرح لهذه النظريات الثلاثة وتفسيرها واستخدامها. وأزعم هنا أن هذه النظريات أكثر صلة بالأعمال المنهجية والإمبريقية المترتبة عليها، ولو تطلب منا ذلك أن نغوص فيما وراء ما تظهره هذه الكتابات.

وأبدأ بالكشف عن الأفكار الرئيسية لكل نظرية من هذه النظريات الثلاثة، ثم أخصص صلة هذه الأفكار بالمنهج والبحث وصوغ المفاهيم فى علم الاجتماع. وفوق كل هذا وذاك، تعد النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة ذات تأثير مهم فى نقد الوضعية (Stockman, ١٩٨٤)، كما أنها تطرح على بساط البحث الافتراضات المسلم بها عن الطرق التى يكتب بها الناس العلم ويقرأونه. وتقدم لنا هذه النظريات إسهامات نظرية مفيدة. وعلى الرغم من أن معظم علماء الاجتماع الأمريكيين ليسوا مقترنين بالمذهب الوضعى، فإن بحوثهم التى يجرونها ومؤلفاتهم التى يكتبونها تنزع إلى تشخيص المبدأ الوضعى القائل بأنه من الممكن التفكير ملياً فى العالم دون افتراضات مسبقة، ودون أن نقحم عنوة فى دراساتنا فروضاً فلسفية ونظرية. وترفض جميع الاتجاهات النظرية الثلاثة التى ناقشها هنا التصورات القائمة على افتراضات مسبقة زائفة، على أساس أن هذه الصعوبات غير مرغوب فيها من الناحية السياسية ومستحيلة من الناحية النظرية.

وعلى الرغم من أن جميع هذه النظريات الثلاثة تشن هجوماً حاداً على الوضعية،

فإنها تفتح الباب على مصراعيه لعلم اجتماعي إمبريقي يتأسس على افتراضات لاوضعية (انظر: Diesing, ١٩٩١). ولم تطرح نظرية ما بعد البنيوية ونظرية ما بعد الحداثة رؤية ملموسة لهذا العلم الاجتماعي. ومع ذلك فقد حدث خلال فترة رحيل مدرسة فرانكفورت إلى الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية وما تلاها بقليل أن قام المنظرون النقديون الألمان (انظر: Adorno, ١٩٦٩, Arato & Gehhardt, ١٩٧٨) بإجراء دراسات إمبريكية هامة تبنت دعوة النظرية النقدية إلى مشروع العلم الاجتماعي الإمبريقي، ومن هذه الدراسات دراسة أدورنو وزملائه (١٩٥٠) عن الشخصية التسلطية (انظر أيضاً: Adorno, ١٩٤٥, ١٩٥٤, ١٩٧٤). وقد توقعت هذه الدراسة أن تتلوه دراسات أخرى لهذه النظريات الثلاثة في مجال علم الاجتماع.

النظرية النقدية: الأفكار الأساسية

ترتبط النظرية النقدية بمعهد البحوث الاجتماعية الذي تأسس في ألمانيا عام ١٩٢٣، وضم في عضويته تيودور أدورنو، وماكس هوركهايمر، وهربرت ماركيز، وفريدريك بولوك، وليو لونيثال، والتر بنيامين (انظر: Jay, ١٩٧٣, Hughes, ١٩٧٥). ويعد يورجين هابرماس أهم ممثلي النظرية النقدية المعاصرين، وهو تلميذ لأدورنو وهوركهايمر، ومع ذلك فقد ابتعد ابتعاداً شديداً عن مواقف معينة لمؤسسي هذه النظرية (انظر: Habermas ١٩٧٠, ١٩٧١, ١٩٧٥, ١٩٧٩, ١٩٨١a,b). ولمزيد من التفاصيل عن الدراسات الممثلة لنشأة النظرية النقدية ومغزاها انظر (Jay ١٩٧٣, Agger ١٩٧٩, Connerton ١٩٨٠, Kellner ١٩٨٩b). وانظر أيضاً سلاتر (١٩٧٧) الذي قدم تقييماً ماركسياً تقليدياً لمدرسة فرانكفورت.

وقد حاولت النظرية النقدية - كما طورتها مدرسة فرانكفورت الأصلية - تفسير سبب عدم حدوث الثورة الاشتراكية التي تنبأ بها ماركس في منتصف القرن التاسع عشر كما كان متوقعاً. ويرى ماركيز وأدورنو وهوركهايمر أنه كان يتعين عليهم إعادة بناء منطق الماركسية ومنهجها من أجل تطوير ماركسية ذات صلة بالرأسمالية الناشئة في القرن العشرين. ولم يكن في اعتقادهم أنهم يشجبون الفهم الأساسي لماركس للرأسمالية كنظام اجتماعي متناقض مع نفسه (انظر على سبيل المثال مقالة هوركهايمر ١٩٣٧) حول تلك القضية بعنوان "النظرية التقليدية والنظرية النقدية" وضح فيها بلغة لا لبس فيها المعالم الأساسية للنظرية النقدية). وقد حاول منظرو مدرسة فرانكفورت - خاصة من ساروا على نهج الماركسي المجري جورج لوكاتش (١٩٧١) - ربط التحليل الاقتصادي بالتحليل الثقافي والايديولوجي لتفسير سبب عدم حدوث الثورة التي توقعها ماركس. ويؤمن منظرو فرانكفورت - شأنهم في شأن لوكاتش الذي استخدم مصطلح

التشيؤ Reification للإشارة إلى الاغتراب العميق فى الرأسمالية المتأخرة – أن ماركس أبخس تقدير المدى الذى يمكن به استغلال الوعى الزائف للعمال (وغيرهم) فى الحفاظ على الاستمرار الهادئ للنظام الاجتماعى والاقتصادى. ويتفق لوكاتش ومفكرو فرانكفورت مع ماركس على أن الرأسمالية تتجه بمرور السنين إلى تطوير تناقضات اقتصادية داخلية (مثل تركيز الثروة الإنتاجية على حساب العمال الذين يطردون من عملهم تبعاً لذلك، ومن ثم لا يمكن لهؤلاء العمال استهلاك السلع التى ينتجونها بقوة عملهم). وترى مدرسة فرانكفورت أن النظام الرأسمالى فى القرن العشرين بدأ فى تطوير ميكانيزمات تكييف فاعلة سمحت له أن يتخذ إجراءات مسبقة ضد تحول الانفجار المفاجئ لهذه الفترات المشحونة بالأزمات إلى ثورة اشتراكية شاملة.

وتؤدى الرأسمالية إلى تعميق الوعى الزائف بما يوحى للناس أن النظام الاجتماعى القائم حتمى ورشيد. وقد ناقش ماركس (٧٦-٨٨ nd) احتمالات حدوث الوعى الزائف فى تحليله الشهير لتقديس السلع فى المجلد الأول من "رأس المال". وفى رأى ماركس أن تقديس السلع (الذى يفهم خطأ ليعنى تسلط فكرة استهلاك السلع على الناس، أو غلبة النزعة الاستهلاكية) يشير إلى الطريقة التى يتم بها ارتباك عملية العمل، بما لا يجعلها تهدف إلى التشكيل الهادف للكائنات الإنسانية المتصلبة. ومن أخص خصائص الوعى الزائف فى المجتمع الذى تأسس على تقديس السلع – النظام الرأسمالى – هو العجز عن اكتشاف وإدراك العلاقات الاجتماعية باعتبارها إنجازات تاريخية متحولة. وبدلاً من ذلك يدرك الناس حياتهم إدراكاً زائفاً باعتبارها نتاجاً لواقع اجتماعى غير متغير.

ويؤدى تعميق تقديس السلع إلى ما أسماه لوكاتش "التشيؤ"، وما أسماه منظرو فرانكفورت "السيطرة أو الهيمنة" التى هى مزيج من الاستغلال الخارجى (أى استنزاف فائض قيمة العمل) والانضباط الذاتى الذى يتيح للاستغلال الخارجى أن ينطلق بلا قيود. وبلغت علم الاجتماع يقوم الناس باستدماج قيم ومعايير معينة تدفعهم إلى المشاركة الفعالة فى تقسيم وإنتاج وإعادة إنتاج قوة العمل. وتهتم النظرية الاجتماعية الكلاسيكية غير الماركسية (كونت، ودوركايم، وفيبر، وبارسونز، والبارسونية الجديدة الآن) بما أسماه بارسونز (١٩٣٧، وانظر أيضاً: O'Neill, ١٩٧٢a) مشكلة النظام عند هوبر: لماذا يلتزم الناس بالطاعة فى المجتمعات الصناعية المنظمة؟ والإجابة الدوركايمية – الفيبرية – البارسونية عن هذا السؤال هى أن الناس يلتزمون بالطاعة لأنهم يشتركون فى مجموعة من القيم والمعتقدات الشائعة (الوعى الجمعى عند دوركايم) التى تفسر العالم بالنسبة لهم بطريقة عقلانية (رشيدة). ويؤمن الناس بأنهم يستطيعون تحقيق تحسن معتدل فى حياتهم الشخصية بالامتثال للمعايير الاجتماعية، وتكون التغيرات الاجتماعية الكبرى التى تتجاوز ذلك شيئاً مستحيلاً.

ويزعم مفكرو فرانكفورت أن هذه القيم المشتركة التي تغرس في نفوس الناس الطاعة والنظام تتعارض مع مصلحتهم الموضوعية في الحرية، فهذه القيم تقوم بوظيفة أيديولوجية لترسم للناس ما يتصورونه ممكناً بالفعل في المجتمع المتقدم تكنولوجياً. ويذهب ماركيز (١٩٥٥) إلى أن الهيمنة لا بد أن تكون مضاعفة في الرأسمالية المتأخرة من أجل إلهاء الناس عن إدراك الندرة ومن ثم الكدح. وما أطلق عليه ماركيز (٣٢-٣٤: ١٩٥٥) Marcuse "القمع الزائد" Surplus repression هو الذى يفرض النظام من الداخل بما يدفع الناس إلى أن يضعوا أنوفهم في حجر الرمح، ويكونون أسراً وينهمكون في النزعة الاستهلاكية. ويتعلم الناس أن يشبعوا حاجاتهم من خلال اللاتسامى القمعى Repressive desublimation، أى استبدال حرياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بحرية الاختيار الاستهلاكي المتزايد في عالم اليوم (انظر: Marcuse, ٤-٦: ١٩٦٤).

ويفسر مفكرو فرانكفورت البقاء المدهش للرأسمالية في ضوء الأيديولوجيات العميقة، أو في ضوء "الهيمنة" بلغة مدرسة فرانكفورت. وقد استهدف هؤلاء المفكرون الوضعية بصفة خاصة باعتبارها أكثر الأشكال الجديدة للأيديولوجية الرأسمالية تأثيراً. وفي الأربعينيات أرجع هوركهايمر وأدورنو (١٩٧٢) هذه الأيديولوجية الجديدة برمتها إلى عصر التنوير، وذلك في كتابهما المعنون "جدل التنوير". وعلى الرغم من تأييدهما لجهود عصر التنوير في فض الاشتباك بين الدين والأساطير، فإن نموذج التنوير القائم على العلم الوضعي لم يكن كافياً للتخلص من الأساطير إلى الأبد. ويرى هوركهايمر وأدورنو أن النظرية الوضعية للعلم أصبحت أسطورة وأيديولوجية جديدة، بمعنى أنها أخفقت في فهم الوضع القائم. ولم تقتصر مناقشة هوركهايمر وأدورنو للوضعية على كونها نظرية للبحث العلمى، بل يذهبان أيضاً إلى أن الوضعية أصبحت أكثر أشكال الأيديولوجية هيمنة في الرأسمالية المتأخرة، بمعنى أن الناس في كل مكان تعلموا أن يتقبلوا العالم كما هو، ومن ثم يسهمون في بقائه على الدوام دون مجال للتفكير فيه.

ويرفض هوركهايمر وأدورنو - شأنهم في ذلك شأن ماركيز (١٩٦٤) - الوضعية كوجهة نظر عالمية للتوافق. وتفترض الوضعية أن الفرد بوسعه أن يفهم العالم دون وضع افتراضات حول طبيعة الظواهر موضوع البحث. وتؤدى الفكرة التي تنهض عليها الوضعية - وهى أن المعرفة يمكن أن تعكس العالم ببساطة - إلى التطابق غير الصحيح بين الواقع والعقل؛ حيث يفهم الفرد العالم على أنه عقلانى وحتمى مما يحول دون محاولة تغييره. ويحاول المنظرون النقيديون - بدلاً من ذلك - تطوير نمط من الوعي والإدراك يكسر تطابق الواقع والعقل، نمط ينظر إلى الظواهر الاجتماعية لا على أنها كوابح حتمية على الحرية الإنسانية (وهذا هو رأى دوركايم فى الظواهر "الوقائع" الاجتماعية انظر:

١٣-١: (Durkheim, ١٩٥٠)، ولكن على أنها أجزاء من التاريخ يمكن أن تتغير. والخيال الجدلي (Jay, ١٩٧٣) هو القدرة على رؤية العالم من زاوية احتمالات تغييره في المستقبل، وهى قوة ساحقة فى عالم يعزز من العادات العقلية الوضعية للإمام بالوضع القائم.

وتقوم الوضعية بأداء وظيفتها الأيديولوجية فى تدعيم السلبية والجبرية. وتتخذ النظرية النقدية من الوضعية هدفاً على مستوى الحياة اليومية، وعلى مستوى النظريات الاجتماعية التى تختزل العالم الاجتماعى إلى نماذج السبب والنتيجة. وبهذا المعنى تعرض جانب كبير من العلم الاجتماعى البورجوازى لهجوم حاد من مدرسة فرانكفورت (انظر مثلاً: معهد العلوم الاجتماعية ١٩٧٢)، لافتقاره إلى ذلك النوع من الخيال الجدلي الذى يمكن العلماء الاجتماعيين أن ينظروا فيما وراء ظاهر الوقائع الاجتماعية الموجودة إلى وقائع اجتماعية جديدة: نهاية المجتمع الطبقي ونظام سلطة الأب والعنصرية وهيمنة الطبيعة. وفى رأى مدرسة فرانكفورت أن الماركسية أصبحت وضعية إلى حد بعيد، حيث إنها صورت سقوط الرأسمالية على أنها أمر حتمى وفقاً لما أسماه ماركس "قوانين الحركة" الاقتصادية. ويصعب حسم قضية ما إذا كان ماركس نفسه حتمياً أم لا بالنظر إلى آرائه فى نظرية المعرفة (انظر مثلاً: Marx, ١٩٦١)، ولكن من المؤكد أن ماركس ثمره من ثمرات عصر التنوير، حيث كان يؤمن بأن العلم يمكن أن يقهر الشك، وأن ذلك يودى بالتالى إلى عالم أفضل. ومن المؤكد أيضاً أن الماركسيين الذين جاءوا بعد ذلك (خاصة أولئك الذين سيطروا على المنظمات الشيوعية) أعادوا صياغة النظرية الاجتماعية الجدلية عند ماركس اتساقاً مع المادية الوضعية Positivist materialism (انظر: Agger, ١٩٧٩, Lichtheim, ١٩٦١). وقد بدأ ذلك مع فردريك إنجلز (١٩٣٥) – الصديق المقرب لماركس – الذى شرع فى تقليد وجد زخماً (انظر: لينين ١٩٥٢، وستالين ١٩٤٠) حتى وفاة ستالين، وحتى تيسر للماركسيين فى الغرب الإطلاع على المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لماركس (١٩٦١) (انظر: ماركيز، ١٩٧٣) التى وضّح فيها المادية التاريخية غير الحتمية.

وقد اتخذت النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت لنفسها موقفاً مضاداً للوضعية فى جميع صورها خاصة الصورة الماركسية. ومن جانبه وجد هابرماس (١٩٧١) – بدرجة أكثر وضوحاً من زملائه فى مدرسة فرانكفورت – أن الوضعية موجودة إلى حد كبير فى الأعمال الكاملة لماركس. ويزعم هابرماس أن ماركس أخفق فى التمييز بدرجة كافية بين المعرفة المكتسبة من التحليل السببى والمعرفة المكتسبة من الاستبطان الذاتى والتفاعل. ونتيجة لذلك لم يكن ماركس قادراً على أن يحصل على حجة كافية من النزعة الإرادية الاختيارية، وتراجع – بدلاً من ذلك – إلى جبرية الحتمية الوضعية. ولا يتفق هابرماس

مع هوركهايمر وأدورنو وماركيوز على أن ماركس نفسه كان معادياً للوضعية. ونتيجة لذلك يذهب هابرماس إلى أنه يتعين علينا بذل مزيد من الجهد لإعادة صياغة المادية التاريخية عند ماركس بطريقة تعطي ثقة أكبر مما أعطاه ماركس للاختلاف المطلق بين المعرفة المكتسبة بواسطة الاستبطان والمعرفة المكتسبة بواسطة التحليل والأساليب العلية. وقد اتخذت إعادة صياغة المادية التاريخية عند هابرماس شكل نظرية الاتصال عنده (١٩٨٤, ١٩٨٧b) التي حاول فيها تحويل النظرية الاجتماعية النقدية - شأنها في ذلك شأن جميع الفلسفات الغربية - مما أسماه نموذج الوعي إلى نموذج الاتصال، مما يمكن من تطوير الاستراتيجيات العلمية للنقد الأيديولوجي وبناء المجتمع المحلي وتشكيل الحركات الاجتماعية.

وقد فرضت إعادة صياغة هابرماس للنظرية النقدية نفسها على المنظرين الاجتماعيين النقديين، لأنه برع في دمج طائفة عريضة من الآراء النظرية والامبيريقية مروراً بالماركسية التقليدية والتحليل النفسي إلى الوظيفة البارسونية ونظرية الخطاب (انظر: McCarthy, ١٩٧٨). وقد ساعد هابرماس في إضفاء شرعية على النظرية النقدية الألمانية في الجامعة من خلال موسوعته في المعرفة ورغبته في الانهماك باتجاهات نظرية وسياسية متنوعة (لاحظ أن الأجيال التي سبقته في مدرسة فرانكفورت كانوا أكثر رفضاً للفلسفة البورجوازية والعلم الاجتماعي بسبب نزعتهم التوفيقية). ويذهب بعض الباحثين (Agger, ١٩٧٦, وAnظر أيضاً: Wellmer, ١٩٧٦, Benhabib, ١٩٨٧) إلى أن هابرماس بتر على نحو جاد الأجندة النظرية برسم خط تقيل بين الاستبطان / الاتصال، والعلية / العقلانية التطبيقية. وترتب على هذه التفرقة المطلقة حدوث انقلاب تمثل في قصر برامج التغيير الاجتماعي على مجال الاستبطان / الاتصال الذي يناقش فيه الناس بعقلانية السياسات الاجتماعية المتعددة ومحاولة تشكيل إجماع حولها. وكانت رغبة زملاء هابرماس في فرانكفورت - مثل رغبة ماركس - ليس تغيير العمليات السياسية على نحو مدروس فحسب، بل وتغيير التنظيم الاجتماعي للعلم والتكنولوجيا أيضاً. ويرفض هابرماس (١٩٧١) رأى ماركيز وأدورنو وهوركهايمر بأنه يمكننا تغيير السياسة الاجتماعية إلى جانب تغيير تفاعلنا التكنولوجي مع الطبيعة. ويطلق هابرماس (٢٣-٢٣: ١٩٧١) على هذا الرأي "تراث التأمل اللاعقلاني" Heritage of Mysticism. وتعد النظرية النقدية للاتصال عند هابرماس أكثر اقتراباً من الديمقراطية الاجتماعية البرلمانية عند ادوارد بيرنشتاين (١٩٦١) والديموقراطية الاجتماعية في الدول الاسكندنافية منها إلى المفاهيم الماركسية التقليدية بشأن النضال الطبقي.

ولا يعد هذا سبباً كافياً في حد ذاته لرفض إعادة صياغة المادية التاريخية كما طرحا

هابرماس، خاصة فى وقت يخضع فيه اليقين اليسارى حول حتمية انتصار النظام الاشتراكى على النظام الرأسمالى لاختبار قاس. وربما نجيب عن ذلك بأن نظام الدولة المركزية السوفيتية منذ لينين (nd, ١٩٧٣) لم يشبه مطلقاً النظام الاشتراكى أو الشيوعى الناضج الذى دافع عنه ماركس. وربما نعترف أيضاً أن نظرية "الحركات الاجتماعية الجديدة" عند هابرماس (١٩٨١b) تعد إضافة امبيريقية وسياسية مفيدة إلى الماركسية المتحجرة التى تستبعد جوانب الهيمنة التى يتجاهلها اليساريون البيض خاصة الهيمنة القائمة على الجنس Sex والعرق Race. ويعد ذلك بمثابة إضافة نظرية مهمة إلى علم الاجتماع جنباً إلى جنب مع الإسهامات الأخرى لمدرسة فرانكفورت فى مجالى نظرية الدولة والتحليل الثقافى.

ولعل أبرز الإسهامات المنهجية التى مازالت النظرية النقدية تقدمها للعلم الاجتماعى هى توجيه أنظار الباحثين الاجتماعيين الإمبيريقيين إلى الافتراضات التى تشكل أساس نزعتهم الإمبيريقية. ويشير هوركهايمر وأدورنو فى كتابهما "جدل التنوير" (١٩٧٢) إلى أن الاجتناب الظاهرى للقيم يعد - فى بعض الأحيان - أقوى صور الالتزام القيمى مما يجعل المزاعم الإمبيريقية تبعد عن الاستبطان والنقد الذاتى الصارم. وبهذا المعنى يمكن تطبيق تحليل مدرسة فرانكفورت لعلم الأساطير والأيدولوجيا على العلم الاجتماعى الوضعى الذى يفهم منه ظاهرياً أنه يتسامى عن الأساطير والقيم على الرغم من أن الأفكار المنهجية المهيمنة عليه أفكار أسطورية فى جوهرها.

ما بعد البنيوية: الأفكار الأساسية

تفترض المناقشة المختصرة للأفكار الأساسية للبنيوية أنه بوسعنا أن نفصل ما بعد البنيوية فصلاً واضحاً عن ما بعد الحداثة. وللأسف لا يمكننا القيام بذلك. وقد شطرت الكتابات الأولى (مثلاً: ١٩٩٠ Best & Kellner, ١٩٨٩ Sarup, ١٩٨٢ Culler) عن هذا الموضوع الكعكة النظرية إلى أجزاء متناثرة. وعلى الرغم من اتفاق معظم الباحثين على أن ديريدا يعد من أنصار ما بعد البنيوية (مع أنه لم يطلق على نفسه هذه التسمية)، فإن فوكو وبارثيس وليوتار يمكن تصنيفهم ضمن معسكر ما بعد البنيوية أو معسكر ما بعد الحداثة. وأحياناً ما يصنف أنصار الحركة النسائية الفرنسية (Kristeva, ١٩٩٠) على أنهم من أنصار ما بعد البنيوية (انظر على سبيل المثال: ١٩٨٧ Weedon). والحقيقة أن غياب تعريف واضح يعكس الحيرة المقصودة فى تصنيف الدراسات إما ضمن ما بعد البنيوية تارة أو ما بعد الحداثة تارة ثانية أو ضمن كليهما تارة ثالثة. وربما تكون أبرز السمات المميزة لهذه الدراسات هى نفورها الشديد من التعاريف والمقولات الوضعية. وفى رأى ديريدا (١٩٧٦، ١٩٧٨،

١٩٨١، ١٩٨٧) – أبرز كتاب ما بعد البنيوية – أن كل تعريف يحلل نفسه، بمعنى أن غموضه يزول عندما نسبر غور افتراضاته الأساسية ومعانيه الحرفية (انظر أيضاً: Fraser, ١٩٨٤).

وثمة تشابك حقيقى بين ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة. وتعد ما بعد البنيوية (ديريدا، وأنصار الحركة النسائية الفرنسية) بمثابة نظرية فى المعرفة واللغة، أما ما بعد الحداثة (فوكوه، بارت، ليوتار، بودريار) فهى نظرية فى المجتمع والثقافة والتاريخ. وقد كان تأثير ديريدا فى مجالات النقد الأدبى، ونظرية الأدب، والتحليل الثقافى تأثيراً قوياً (Berman, ١٩٨٨). ويثمن النقاد فى مجال الأدب منهج قراءة النصوص الذى أطلق عليه ديريدا "التفكيك" (Culler, ١٩٨٢).

وقد انتشر منهج التفكيك – كانتشار النار فى الهشيم – فى أقسام الإنسانيات بالجامعات الأمريكية، متحدياً النظرية التقليدية فى الأدب والنزعة النقدية الثقافية التى سادت من خلال النزعة الموضوعية فى تحليل النص (حول النزعة النقدية الجديدة انظر: Ransom ١٩٤١، وانظر أيضاً: Fekete ١٩٧٨, Lentricchia ١٩٨٠).

ومع أن ديريدا لم يطور منهجاً تفكيكياً واحداً رافضاً به النزعة إلى البرمجة مفضلاً عليها قراءته النموذجية فى الأدب والثقافة والفلسفة، فإنه يصبح من السهل أن نرى تحدى منهج التفكيك الأدبى للافتراضات التقليدية حول كيفية قراءة النصوص وكتابتها (Fischer, ١٩٨٥). والحقيقة أن بعض هذه الرؤى التفكيكية بدأت فى إثراء العلوم الاجتماعية كالأنثروبولوجيا (Marcuse & Fischer, ١٩٨٦) وعلم الاجتماع (Brown ١٩٨٠, Agger ١٩٨٩c, Lemert ١٩٨٠) خاصة فيما يتعلق بتحليل الأعمال والممارسات الثقافية. وأنا أدعو إلى المزج بين ما بعد البنيوية والنظرية النقدية بالاستفادة من نموذج ديريدا عن تحليل النصوص (انظر: Agger ١٩٨٩a, Callinicos ١٩٨٥, Poster ١٩٨٩). إن رؤى ديريدا بشأن قراءة النص وكتابته تكشف عن عجز النموذج الوضعى للباحث الذى يعكس العالم الخارجى بشكل مبسط؛ ذلك أن نموذج ديريدا يطرح طرقة جديدة لكتابة العلم وقراءته.

ويصر ديريدا على أن كل نص لا يمكن الإمساك به بمعنى أنه يخفى بداخله صراعات بين آراء مختلف المؤلفين، وهذا ما يطلق عليه أحياناً النص والنصوص الفرعية Text & Subtexts. وكل نص عبارة عن حلبة للخلاف فى الرأى بمعنى أن ما يقال فى الظاهر لا يمكن فهمه دون الإشارة إلى ما يخفيه سياق النص من معنى ودلالة (مثل استخدام لغة خاصة). وهذه المعانى الخفية فى سياق النص يمكن اعتبارها افتراضات يقوم عليها النص حتى يتسنى فهمه. إلا أن هذه الافتراضات تطمس الحقيقة مما يجعل القارئ يصرف نظره عنها.

ونسرد هنا مثلاً من علم الاجتماع وثيق الصلة بهذا الموضوع. فقد عرف بلاو ودونكان (Blau & Duncan, ١٩٧٨) - في بحثهما عن إحراز المكانة - الحراك بالإشارة إلى المكانة المهنية لوالد المبحوث. وتكشف القراءة التفكيكية هنا عن الافتراضات العويصة حول ماهية العمل من منظور النوع الاجتماعي Gender جنباً إلى جنب فرضية تفوق الرجال، تلك الفرضية التي شكلت أساس هذا الاختيار المنهجي. ويتحدى أنصار الحركة النسائية المعاصرون (Bose, ١٩٨٥) وضع تعريف إجرائي لمفهوم المكانة المهنية بالإشارة إلى مهنة الأب؛ لأن ذلك يمثل - من وجهة نظرهم - نصاً أيديولوجياً قوياً يجعل الناس تفكر في عمل الرجال فقط دون سواهم، وأن العمل واجب على الرجال فقط، كما أن ذلك لا يمثل الواقع لأن النساء يعلمن - في حقيقة الأمر - خارج المنزل بأجر.

ويوضح التفكيك النسائي لهذا الجانب من جوانب إحراز المكانة - بلغة ديريدا - أن صوغ تعريف إجرائي للمكانة المهنية لا يمكن الإمساك به، بمعنى أنه يستبعد جوانب معينة بما يهدد التزامه بمعنى ثابت ونهائي. ولا يوجد مقياس أحادي المعنى للمكانة المهنية؛ وإنما هناك مقاييس وافية بالعرض فقط، وكل مقياس يكون ناقصاً لأنه يستبعد جوانب معينة. ويرى ديريدا أن القراءة التفكيكية تفتح فجوات في المعنى حتمية ولا مناص منها، ويقوم القراء بملء هذه الفجوات من خلال إحساسهم بالاستيفاء. وبهذه الطريقة تكون القراءة نشاطاً قوياً وليست مجرد انعكاس سلبي لنص موضوعي ذي معنى واحد. ويساعد القراء في إعطاء الكتابة معناها بملء هذه الفجوات والصراعات في المعنى حتى يصبحوا كتاباً، ومن ثم يتحدون سطوة الكتابة على القراءة، وسطوة الإنتاج الثقافي على التلقى الثقافي Cultural reception.

وترتكز فكرة عدم الإمساك بالنص عند ديريدا على فكرة الاختلاف. ويزعم ديريدا - بصفة أساسية - أنه من طبيعة اللغة اقتران ظهور المعنى بالإشارة إلى المعاني الأخرى التي يكتسب منها دلالاته. ولذلك لا يمكن لنا مطلقاً تأسيس معاني مستقرة بمحاولة التطابق بين اللغة والعالم الذي تخاطبه. وبدلاً من ذلك يكون المعنى محصلة لاختلاف الدلالات التي نلصقها بالكلمات. ولنأخذ على سبيل المثال - فكرة "المكانة" عند فيبر التي تتطلب معنى يتعلق بمفهوم "الطبقة" عنده، ولا يتعلق بواقع ثابت من المفترض أن تعكسه كلمة "المكانة" عنده. وقد استخدم ديريدا كلمة "الاختلاف" Difference الفرنسية ليوضح أننا لا يمكن أن نأمل في الوصول إلى معنى ثابت أو صريح مادامنا نستخدم بالضرورة لغة مؤجلة ومختلفة؛ فكل تعريف يحتاج إلى تحديده وتوضيحه بالضرورة، فالمعنى يكمن دوماً في المستقبل.

ولا يمكن لاختيار الكلمات أن يقوم بالتفكير بالإجابة عنا، كما لا يمكنه أن يحل

الخلافات الفكرية الرئيسية. وقد رنا أن نُحسِن من عدم الإمساك باللغة (وأحياناً تشويش الذهن) بمزيد من اللغة مما يؤدي إلى مشكلات الاختلاف، ومن ثم يسبب تفكيك اللغة (انظر: Coward & Ellis, ١٩٧٧). وعلى الرغم من أن الكتابة المثلى تتوقع مقدماً وتعترف بعدم الإمساك بها؛ كما ترفض التظاهر الوضعي بالشفافية (Agger ١٩٨٩c: ٣٤٤-٣٣٥)؛ فإن ديريدا لم يكن مهتماً بصفة خاصة بوضع استراتيجية حول كيفية الكتابة المثلى (أو كيفية إجراء بحث ميداني أفضل في حالة العلم الاجتماعي). فقد كان معنياً بدرجة أكبر بثقب بالون من يعتقدون أن اللغة ببساطة أداة فنية لتأسيس معاني واحدة مستقرة بدلاً من فهمها على أنها فعل جوهرى عميق. وهذا - فى حد ذاته - يزيل حيرة الوضعية بجذب الأنظار إلى اهتمامها باللغة (والمنهج فى حالة العلم). ولا يوجد طريق ملكى للمعنى إلا من خلال ممارسات تشكيله اللغوى التى تثير التشويش والتناقض والصراع.

ويمكن أن نقرأ ديريدا على أنه من أنصار النزعة النسبية الكئيبة؛ لأنه يبدو وقد فقد الأمل فى إمكانية التنوير. ويؤمن ديريدا بأن قدرنا أن نظل محبوسين فى سجن اللغة حسب تعبير نيتشه (انظر: Jameson, ١٩٧٢)، إلا أن اهتمام ديريدا بان يكتب يدل على اقتناعه بأن اللغة يمكن تفسيرها حتى ولو قمنا بذلك هزلاً وتلميحاً وتهكماً.

ويدافع ديريدا (١٩٧٦) عن تسليمه بالقضاء والقدر بأننا نتعلم من المصاعب، وأن التبسيط يجلب الوضوح المؤقت، ويضع حداً للصعوبات التى تحول دون عدم الإمساك باللغة. وبهذا المعنى ينضم ديريدا إلى مدرسة فرانكفورت فى هجومها على الوضعية خاصة من الزاويتين: اللغوية والأدبية. وإذا كانت مدرسة فرانكفورت ترى أن الوضعية استثنيت نفسها استثناء خاطئاً من نقدها للأساطير والأيدولوجيا (فالتحرر من القيم يعد موقفاً قيماً برغم كل شئ)، فإن ديريدا أوضح أن ذلك ينطبق على مستوى علم البيان، إذ يمكن أن نقرأ أعماله الكاملة باعتبارها تحليلاً بيانياً (بلاغياً) لما أسماه "فلسفة الوجود" (مسمى آخر للوضعية) (انظر: Hartman, ١٩٨١). وقد أوضح ديريدا كيف أن عملية الاختلاف تؤثر فى صفحات الكتاب وما وراء السطور، كما أوضح أن أعماله تعد مثلاً على القراءة التفكيكية التى تدمر التبسيط الزائف الذى تدعيه الوضعية.

وتبدو صلة أعمال ديريدا بالعلم الاجتماعي صلة وثيقة (Agger, ١٩٨٩c)؛ إذ أن نظريته فى النقد الأدبي المستمدة من ما بعد البنيوية تطرح طرقاً لقراءة وإعادة صياغة الخطاب التطبيقي والمنهجي للعلوم الاجتماعية الإمبريقية. والسؤال هنا: هل يتعين على علم المناهج أن يصير مصدراً للحيرة والارتباك مقارنة بإنجازاته الفكرية وصعوباته العملية؟

لا يقتصر منهج ديريدا على فك رموز الجوانب الفنية والتصويرية المميزة للعلم

الاجتماعى الكمى، ولكنه يعد مثالا على أسلوب القراءة والكتابة. ويمكن قراءة علم المناهج على أنه بمثابة نص بلاغى يرمز بفروض وقيم معينة إلى العالم الاجتماعى. ويرفض منهج التفكيك النظر إلى علم المناهج على أنه - ببساطة - مجموعة من الإجراءات الفنية التى يمكن بواسطتها معالجة البيانات. فعلم المناهج يمكن أن يكون بمثابة كتاب مفتوح للقراء الذين يثير فضولهم افتراضات هذا المنهج ونتائجه الإمبريقية، ولكنهم يهابون طبيعته الفنية والتصورية.

ويمكن القول بصفة عامة أن منهج التفكيك يمكن أن يساعد فى الكشف عن القيم والمصالح التى تحول دون انتشار العلم، وهذا من شأنه أن يسهم فى تسييس العلم وإضفاء الصبغة الديموقراطية عليه بإتاحة نصوصه للقراء بما يسمح لهم بالانهماك باللغة المنمقة للعلم بكفاءة أكبر، إلى جانب تنفيذ الفروض العلمية عند الضرورة (كما أوضحنا فى المثال المتعلق بوضع تعريف إجرائى للمكانة المهنية).

ويتجنب العلم المكتوب من منظور منهج التفكيك المبالغة فى الاعتماد على الإيماءات الفنية والتصويرية؛ ويهتم بجعل فروضه متاحة للجميع مما يدعو القراء إلى الاتفاق أو الاختلاف معها. ولن يستطيع تفكيك النص العلمى أن يحل - بالطبع - جميع مشكلات اللامشافية وعدم الإمساك بالنص؛ فالعلم - مقارنة بالأدب القصصى - يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المطلقة مهما كانت انعكاسية قيمه وفروضه واختياراته المنهجية؛ فكل تفكيك يمكن تفكيكه.

وتساعد ما بعد البنيوية قراء العلم وكتابه فى تبيين انهماكهم بالنص العربى. وتضيف كل إيماءة بلاغية للنص إلى معناه العام مهما كانت غير دالة فى ظاهرها. ويسهم كيفية ترتيب الهوامش، ووضع عنوان للبحث، ووصف المشكلة، وإثبات شرعية موضوع البحث من خلال مراجعة الأدبيات، والاستعانة برموز المنهج الكمى فى عرض النتائج - كل ذلك يسهم فى فهم النص. ويمكن أن نتعلم هذه الإيماءات لا على أنها نص فرعى مزخرف، بل على أنها أيضاً نص رئيسى فى حد ذاته يقدم إضافة مهمة إلى المزاعم العلمية. ويمكننا أيضاً إعادة كتابة العلم من خلال إضفاء سلطة على هذه الإيماءات الهامشية وتحويلها إلى مناظرات منطقية. وتهتم ما بعد البنيوية بالمعايير الأدبية للعلم الإمبريقى، بما يعنى أن نقرأ العلم ليس باعتباره مرآة للعالم، بل باعتباره تدخلاً قوياً فيه. ويمكن قراءة علم المناهج قراءة بلاغية ومن ثم إعادة كتابته بلغة أكثر بساطة بما ييسر إتاحتها للقراءة والنظر فى فروضه (انظر: Richardson, 1990c).

ويركز أنصار ما بعد البنيوية - فى أغلب الأحوال - على النصوص الأدبية والثقافية، على الرغم من أننى أزعم أنه لا يوجد سبب ضرورى للقيام بذلك بالنظر إلى قابلية العلم للتحليل التفكيكى. وكان ديريدا ينفر من العلم؛ لأن العلم يزعم إعفاءه من قاعدة

الإمساك به؛ ويساوى ديريدا الوضعية بكل العلوم الإمبريقية. ويتحامل أنصار منهج التفكيك على العلم، وهم يرفضون جميع أشكال التحليل الموضوعي بما فيها الموضوعية الزائفة للوضعية. وهذا جعل من الصعب (إن لم يكن من المستحيل) إلى حد ما على علماء الاجتماع أن يقدرُوا الإسهامات التي يمكن أن يقدمها منهج التفكيك إلى علم الاجتماع.

ما بعد الحداثة: الأفكار الرئيسية

استطاعت ما بعد الحداثة – كما تتجلى في أعمال فوكوه بصفة خاصة (١٩٧٠، ١٩٧٦، ١٩٧٧، ١٩٧٨، ١٩٨٠) – أن تكون علاقات واضحة مع العلوم الاجتماعية – بالمقارنة مع ما بعد البنيوية عند ديريدا – في مجالات التحليل الثقافي وتحليل الخطاب، وعلم اجتماع الضبط الاجتماعي، والسلوك الجنسي. وسوف أناقش هذه الإسهامات بعد توضيح بعض المبادئ العامة لما بعد الحداثة.

وعلى الرغم من أن ما بعد الحداثة ظهرت كحركة معمارية (انظر: Portoghesi, ١٩٨٧, Jencks, ١٩٨٣)، فإن ليوتار يعد أبرز فلاسفة ما بعد الحداثة. ويعد كتابه "حالة ما بعد الحداثة: دراسة في المعرفة" الصادر عام ١٩٨٤ أساس فكر ما بعد الحداثة عن القضايا الأساسية للحداثة وما بعد الحداثة (انظر أيضاً: Hassan, ١٩٨٨, Featherstone ١٩٨٧, Sarup, ١٩٩٠, Best & Kellner ١٩٨٥, Neuman ١٩٨٦, Huyssen ١٩٨٧, Turner ١٩٩٠, Klinkowitz ١٩٨٨, Harvey ١٩٨٩).

ويرفض ليوتار المنظورات الشاملة عن التاريخ والمجتمع – التي يسميها أنساق التفسير الكبرى Grand narratives كالماركسية – التي تحاول دراسة العالم في سياق علاقات تبادلية نموذجية. وتعد ما بعد الحداثة عند ليوتار رفضاً صريحاً للاتجاهات الشمولية وللنزعة الراديكالية السياسية للماركسية. ويرتاب ليوتار – شأنه في ذلك شأن معظم أنصار ما بعد الحداثة – في وجود دوافع تعظيم الذات لدى الماركسيين، وهو يؤكد على أنه لا يمكن أن نقص قصصاً ضخمة عن العالم، بل يمكن أن نقص قصصاً صغيرة من الأوضاع الذاتية اللامتجانسة للأفراد والجماعات الاجتماعية. ويرى جيمسون (١٩٧٢، ١٩٧٦-١٩٧٧، ١٩٨١، ١٩٨٤، انظر: Dowling, ١٩٨٤) أن ليوتار يعد منظراً مهماً في الأدب درس ما بعد الحداثة من خلال منظورات ماركسية جديدة، حيث يرى أن ما بعد الحداثة ("المنطق الثقافي للرأسمالية المتأخرة") نزعة محافظة في جوهرها (Jameson, ١٩٨٤b). ويذهب هابرماس (١٩٨٧a, ١٩٨١a) إلى أن ما بعد الحداثة نزعة محافظة جديدة (انظر أيضاً: Wolin ١٩٨٤, Raulet ١٩٨٤). ويقسم أجر (١٩٩٠) ما بعد الحداثة إلى شكلين أحدهما تبريري والآخر نقدي. ميرزاً غضب أنصار

الحدث من اندفاع ما بعد الحدث (انظر: Huysen, ١٩٨٦) إلى الاندماج مع النظرية النقدية. وقد حاول كروكر وكوك (١٩٨٦) - معبرين عن رأى غالبية مناصري ما بعد الحدث من الأمريكيين - خلع الصفة السياسية عن نظرية ما بعد الحدث، حيث ينظران إليها على أنها - ببساطة - حركة ثقافية أو (مشهداً ثقافياً) (انظر: Gitlin, ١٩٨٨).

وتدرس النظرية الاجتماعية لما بعد الحدث (انظر: Benhabib, ١٩٨٤, Kellner, ١٩٨٨) العالم الاجتماعي من منظورات متعددة تشمل الطبقة والسلالة والنوع الاجتماعي وغيرها من محددات الانتساب إلى الجماعة. وفي ذات الوقت ترفض هذه النظرية الاجتماعية المزاعم الشمولية لأنساق التفسير الكبرى كالماركسية التي حاولت تحديد المبادئ البنائية المحورية التي تفسر جميع أنواع الظواهر الاجتماعية المتباينة (مثل نظرية ماركس في منطق رأس المال). وما بعد الحدث اتجاه مضاد للنزعة الاختزالية، كما أنها اتجاه تعددي في أولوياته السببية وفي سياساته التي تبدو ليبرالية أكثر منها راديكالية (انظر: Arac, ١٩٨٦). ولا تثق ما بعد الحدث في الراديكالية والراديكاليين، وهي تفضل المعرفة اللامركزية المتاحة ليس فقط على مستوى وحدة معلومات مركزية، وإنما متاحة أيضاً للناس المشغولين بالعالم من منظورات لا اختزالية من واقع خبراتهم.

ويصر فوكوه (١٩٧٦، ١٩٨٠) على أن المعرفة ينبغي إرجاعها إلى خطاب / ممارسات توطر المعرفة التي تتشكل بداخلها. ويقدر علماء اجتماع العلم وجهة نظر فوكوه حول الخطاب / الممارسات باعتبارها صيغة من فكرة النموذج عند كون (١٩٧٠)، على الرغم من أن فوكوه قد استفاد بدرجة أكبر من تجارب الحياة اليومية واللغة العادية لتحديد معالم هذه المعارف النموذجية.

وقد قدم فوكوه إسهامات إمبريقية مباشرة إلى العلم الاجتماعي، حيث درس خطاب / ممارسات السجون (١٩٧٧) والسلوك الجنسي (١٩٧٨)، ووصف وصفاً ثرياً ومتنوعاً كيفية تشكيل هذه الأنماط المعرفية والممارسات تاريخياً من خلال تحليل الخطاب. وعلى الرغم من تأثر فوكوه بالماركسية تأثراً واضحاً، فقد رفض التحليل الماركسي الطبقي لثنائيته البسيطة (انظر: Fraser ١٩٨٩, Dews ١٩٨٤, ١٩٨٧, Poster ١٩٨٩)، ويذهب - بدلاً من ذلك - إلى أن القوة الكامنة موجودة في كل مكان، في حصص الاقتراع، وفي الثراء (انظر: O'Neill, ١٩٨٦).

وترتاب ما بعد الحدث - شأنها في ذلك شأن ما بعد البنوية - ارتياباً شديداً في العلوم الاجتماعية التي تكثف جهودها في وجهة نظر محددة إلى العالم. وترفض ما بعد الحدث - مثل ما بعد البنوية والنظرية النقدية - إمكانية التصور دون فروض مسبقة، وتذهب إلى أن جميع المعارف تتحدد بسياقها التاريخي والثقافي - ويستحيل قيام علم اجتماعي تعميمي عند مستوى معين، لأن الأوضاع الذاتية المختلفة للناس والجماعات لا

يمكن قياسها في مقابل بعضها البعض. فعلى سبيل المثال لا توجد لدينا طريقة نحكم بها في قضية من هم الأكثر اضطهاداً: النساء أم الملونون. ومن المهم – بدلاً من ذلك – أن نفهم كيف تشكلت الخبرات المختلفة للنساء أو الملونين بالخطاب / الممارسات التي تشكلت خبرات النساء أو الملونين في فترة تاريخية معينة. ويصبح العلم الاجتماعي تفسيراً للخبرات الاجتماعية من هذه المنظورات المتعددة للخطاب / الممارسات بدلاً من كونه مشروعاً تراكمياً يلتزم باستنتاج المبادئ العامة للبناء والتنظيم الاجتماعيين.

وترفض ما بعد الحداثة – شأنها في ذلك شأن ما بعد البنيوية – مشروع قيام علم اجتماعي تعميمي يلجأ إلى أساليب معرفية معينة تتحدد بواسطة تعدد الأوضاع الذاتية للناس. وهذا يذكرنا بالظواهر الاجتماعية والمنهجية الشعبية من عدة زوايا (انظر: O'Neill 1974, Schutz 1967)، حيث تؤكدان عدم اختزال الخبرات، وترفضان التحليل البنائي – الاجتماعي. ولا يجب أن يثير ذلك دهشتنا؛ لأن ما بعد الحداثة والظواهر الاجتماعية والمنهجية الشعبية انبثقت من بعض المصادر نفسها، وأهمها فلسفات نيتشه وهيدجر، وكلاهما رفض محاولة عصر النهضة الوصول إلى معرفة تعميمية. وعلى الرغم من أن الظواهر الاجتماعية والمنهجية الشعبية أكثر نزوعاً إلى المنهج من ما بعد الحداثة، فإن فوكوه يتفق مع جارفينكل (1967) وآخرين (مثلاً: Douglas, Cicourel 1973, 1981) في توجهاتهم (انظر: Mehan & Wood). والاختلاف الرئيسي بينهم هو أن المنهجية الشعبية – على العكس من ما بعد الحداثة – انضمت إلى علم الاجتماع خلال الستينيات وما بعدها. ولا تزال ما بعد الحداثة منظوراً فرنسياً إلى حد كبير حول التحليل الثقافي والتاريخي، وترتبط بعلم الاجتماع الفرنسي أو الأمريكي في علاقة محدودة علنية.

وإذا كان أنصار ما بعد الحداثة يميلون إلى رفض مشروع العلم، فإنهم لا ينكرون إمكانية قيام علم اجتماع ما بعد الحداثة، خاصة إذا استنتجنا براءة من أعمال بارثيس (1970، 1974، 1974) الذي طرح طرقاً جديدة للنظر في العالم الاجتماعي-الثقافي شأنه في ذلك شأن فوكوه. إذ يرى بارثيس (92: 1975) – على سبيل المثال – أن المدينة خطاب، وأنها بقراءة المدينة نستطيع تأسيس علم اجتماع مفيد حتى ولو كان من النوع الذي يعترف به علماء الاجتماع الحضري الوضعيون. وقد أسهم جوتدنير (1990) وجوتدنير ولابوبولوس (1986) في تطور سيميوطيقا ما بعد الحداثة للحياة الحضرية، حيث أوضحوا علاقة مشروع ما بعد الحداثة بالعلم الاجتماعي الإمبريقي. وسوف أناقش فيما بعد علم اجتماع الحداثة عند جوتدنير الذي شن هجوماً على علماء الاجتماع الذين حكموا على إسهام النظرية الفرنسية بأنه إسهام هزيل.

ويأتي بعد ليوتار وفوكوه وبارت المفكر الرئيسي الرابع من مفكري ما بعد الحداثة، وهو: بودريار (1975، 1981، 1983) الذي قدم ما بعد الحداثة في ثوبها

السوسولوجي (انظر: Kellner a,c). ويرى بودريار (١٩٧٥، ١٩٨١) في تحليلاته المبكرة للأسماوية المتأخرة أن السلع في المجتمع الاستهلاكي تكتسب قيمة رمزية معينة يشتبهها الناس؛ فبدلاً من أن يستهلك الناس السلع ذات الماركات المعروفة لقيمتها في الاستخدام (ملابس الجينز ماركة Guess، والسيارات ماركة Honda)، يشتري الناس هذه السلع لقيمتها الرمزية. وهذه نظرية تتماثل مع نظرية قيمة المكانة عند فيبر وفيلن، ولو أنها تأسست في سياق النظرية السيميوطيقية القائمة على أعمال سوسير (١٩٦٠) وإيكو (١٩٧٩). ويرى بودريار في أعماله الأخيرة (مثلاً: ١٩٨٣) أن الواقع (أو ما أسماه الواقع الجامح Hyperreality) يصبح واقعاً زائفاً بدرجة متزايدة بين الناس، ويتشكل هذا الواقع بواسطة وسائل الاتصال القوية وغيرها من المصادر الثقافية. ويفقد الناس القدرة على التمييز بين هذا الزيف والواقع، وهذا شرط لكل أشكال النقد الاجتماعي. ويشبه هذا التحليل إلى حد كبير تحليلات مدرسة فرانكفورت الماركسية الجديدة للوعي الزائف، كما أنه يطرح موضوعات للبحث في مجال علم اجتماع الثقافة والاتصال والدعاية.

استخدامات النظرية النقدية،

وما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة

المنهج، والبحث، وصوغ المفاهيم

أشرت بالفعل إلى الطرق التي يستخدم بها علماء الاجتماع الإمبريقيون النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة. وهناك أيضاً طرق مهمة تكون فيها هذه الاتجاهات النظرية مضرّة بمفهوم العلم الاجتماعي، حيث تحول مفهوم العلم الاجتماعي وممارسته إلى حد نادر ما يعترف به معظم علماء الاجتماع. ودعونا نلخص الإسهامات الواضحة لهذه الاتجاهات النظرية الثلاثة في المنهج والبحث الإمبريقي وصوغ المفاهيم في علم الاجتماع، قبل أن أختم بسرد بعض المحاذير حول هذا التكامل.

وتندرج الإسهامات السوسولوجية للنظرية النقدية، وما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة تحت **الإسهامات المنهجية** التي تتعلق بالطرق التي بواسطتها يكتب الناس علم الاجتماع ويقرأونه (النقاط من ١-٥)، **والإسهامات النظرية** في دراسة الدولة والأيديولوجيا والثقافة والخطاب والضبط الاجتماعي والحركات الاجتماعية (النقاط من ٦-١٠).

الإسهامات المنهجية

(١) تلزم النظرية النقدية النزعة النقدية في علم الاجتماع باستجواب نفسها

لاستثنائها من الاهتمامات المشبوهة لوجهات النظر والعواطف والجدل العنيف والسياسة. ويرى هوركهايمر وأدورنو (١٩٧٢) أن العلم الوضعي ليس أقل من اللاهوت في التأثير بالأساطير والخرافات. ولا يقل الإيمان المطلق بالتححرر من القيم في مشكلاته عن الإيمان بالله والروح. وربما يتعرض الباحث لخداع الذات عندما يُجرى البحث في غفلة من التأثير القوي لما أسماه هابرماس (١٩) "المصلحة" Interest التي تؤطر إجراء البحث وتفسير النتائج. وهذه طريقة أخرى للقول بأن العلم الاجتماعي ينبغي أن يكون انعكاسياً Reflexive، وهو المصطلح الذي استخدمه جولدنر (١٩٧٠)، انظر أيضاً: O'Neill, (١٩٧٢b) للإشارة إلى الاستبطان المدروس اللازم للحد من تفاخر العلماء بأفضلية مناهجهم على مناهج الأدب والفلسفة وما إليهما. وقد أوضح جولدنر (الذي تأثر تأثراً شديداً بمدرسة فرانكفورت، انظر: Gouldner, ١٩٧٦) أن علم الاجتماع اللانعكاسي يتغاضى عن تلوثه بالمصالح السياسية في الحفاظ على الوضع القائم (انظر: Boggs, ١٩٨٣).

(٢) تسهم النظرية النقدية في تطوير فلسفة العلم من منظور ما بعد الوضعية. وعلى الرغم من أن الوضعية المنطقية قد أصبحت في ذمة التاريخ منذ عشرات السنين، فلا يزال هناك كثير من علماء المناهج في العلوم الاجتماعية - خاصة علم الاجتماع - يمارسون الوضعية حتى ولو لم يقرأوا بانتظام في الفلسفة الوضعية للعلم. ويعترض هابرماس (١٩٧١) على الثنائية الوضعية للمعرفة والمصلحة، ويذهب إلى أن أكثر العلوم صدقاً يعترف بانغماسه في المصلحة، ومن ثم يتحكم في التأثير المشبوه للبيئة على النص العلمي.

ويزعم منظرو فرانكفورت أن الوضعية ليست فلسفة خاطئة للعلم فحسب، ولكنها أيضاً نظرية سياسية خاطئة تعيد إنتاج الوضع القائم من خلال الحث على الإذعان للقوانين الاجتماعية والاقتصادية المزعومة. وبهذا المعنى وسع منظرو فرانكفورت من نقدهم للوضعية من نظرية المعرفة في حد ذاتها إلى القضايا الأرحب للنظرية السياسية والاجتماعية، وبالتالي التغلب على التفرقة بين نظرية المعرفة والنظرية الاجتماعية الأساسية.

وبهذه الطريقة ساعد هؤلاء المنظرون في تفكيك علم المناهج بتوضيح أن المنهج - شأنه في ذلك شأن فلسفة العلم - ليس ببساطة أداة فنية، ولكنه وسيلة منمقة لحجب الإدعاءات المشحونة ميتافيزيقياً وسياسياً بالاستعانة بالتحليل الكمي والإيماءات التصويرية. ويقف هوركهايمر وأدورنو (١٩٧٢) ضد الاستخدام الغافل للتكميم ومناهج البحث في العلوم الاجتماعية مما يعد إضافة إلى تفكيك علم المناهج، على الرغم من أنني أزعج - كما سنرى لاحقاً - أن ما بعد البنيوية قدمت نقداً مثمراً للنزعة المنهجية بتوضيح

أن المنهج يمكن قراءته ومن ثم إعادة كتابته باعتباره نصاً مشوباً بالعاطفة والهوى والميول السياسية.

(٣) تستكمل ما بعد البنيوية نقد العلم بتوضيح أنه يمكننا قراءة جميع أنواع النصوص غير الخطابية على أنها نصوص بلاغية. ومن خلال الاهتمام بالنصوص الفرعية للتقديم الأدبي للنص (مثلاً: الشكر والتقدير، الاقتباس، مراجعة التراث، استخدام الأعداد والأشكال التوضيحية، صياغة نتائج البحث، الملاحظات الختامية، الهوامش، الملاحق... إلخ) تساعدنا ما بعد البنيوية على قراءة العلم ومن ثم إضفاء الصبغة الديموقراطية عليه. ويمكن إتاحة مناهج البحث للجميع، كما يمكن كتابتها بشكل مختلف دون التضحية بالتفاصيل الفنية المهمة.

ولأسف حاولت فئة قليلة من أنصار ما بعد البنيوية تفكيك علم المناهج على هذا النحو، وفضلوا تركيز اهتمامهم النقدي على النصوص الثقافية والأدبية. وبدأ هذا التقليد في التغيير من خلال تدعيم علم اجتماع العلم (Knorr- ١٩٧٩, Latour & Woolger ١٩٨٤, Gilbert & Mulkay ١٩٨١, Cetina) بتحليل الخطاب من منظور ما بعد البنيوية (Agger ١٩٨٩b, Luke ١٩٩١).

(٤) تسهم ما بعد البنيوية في توضيح كيف أن اللغة ذاتها تساعد في تشكيل الواقع، وبذلك تطرح طرقاً جديدة لقراءة العلم وكتابته؛ حيث أن نقدها للتصوير غير القائم على فروض مسبقة – بمعنى أن النصوص تصور العالم الخارجي – يقترح استراتيجيات أدبية لوضعيات للكتاب الذين يقومون بتفكيك أعمالهم، وبالتالي يضاعفون من انعكاسيتهم.

وهذا من شأنه تنقية النصوص من العقائد الذاتية، بالإضافة إلى تعميق الرؤية الشاملة للكاتب مما يسمح بالتالي للقراء أن يدخلوا في حوار معه، وذلك بالنظر إلى أن الآراء الذاتية لا يمكن – ولا ينبغي – التخلص منها نهائياً. ويدعو هابر ماس (١٩٨٤, ١٩٨٧b) إلى موقف خطابي عام تحكمه معايير التكافؤ والتبادل في الحوار، حيث يوجه هدف تشكيل الإجماع كثيراً من الممارسات الاجتماعية غير المتدرجة. وإذا كان الكتاب يتعلمون كيفية إبراز فروضهم الأساسية على الملأ وعدم حجبها بالحيل المنهجية للعلم، فإنهم يشجعون على الديموقراطية بإتاحة العلم للجدل العام.

واتساقاً مع النظرية النقدية يطرح نقد ما بعد البنيوية للعلم علوماً جديدة (Marcuse, ١٩٦٩) مصاغة بلغة مختلفة. وليست هذه ببساطة دعوة إلى الكتابة بصيغة المتكلم كما لو كانت حلاً لجميع المشكلات. ويخفي إقحام المؤلف في النص وراءه التزاماً عميقاً بالتصوير الوضعي الذي يتم فيه تنقية آراء المؤلف بعد المقدمة النقدية للكتاب. ويؤدي نقد ما بعد البنيوية للعلم إلى إعادة تفويض السلطة للنص العلمي حيث تضيع أصوات العلماء.

وبذلك تتحدى ما بعد البنيوية سلطة العلم الموضوعى من خلال استجواب الافتراضات الأساسية لعلم الاجتماع خاصة الرأى القائل بأن المشكلات التحليلية يمكن حلها حلاً منهجياً. ويؤدى النقد الذى توجهه ما بعد البنيوية إلى العلم إلى ممارسات جديدة فى الكتابة والقراءة؛ فالكتاب يستخرجون آراءهم الذاتية، ويتعلم القراء هذه الممارسة حيث تصاغ الكتابة بلغة موضوعية صلدة.

(٥) ترفض ما بعد البنيوية وجهة النظر القائلة بأن العلم يمكن الحديث عنه بصوت واحد عام (**انظر:** نقد ليوتار (١٩٨٤) لأساطير التفسير الكبرى للعقل الغربى). وعلى الرغم من أن ذلك يهدد بضياح المنظور العالمى لعصر التنوير (بما فيه الماركسية)، فإنه يمكن القراء من تفكيك المنطق العام لعصر التنوير باعتباره موقفاً عقلياً أوروبياً يتضمن تحيزاً طبقياً وسلالياً ونوعياً Gender. ويمكن بالاعتماد على ما بعد البنيوية قراءة المنطق العام باعتباره تأييداً سرياً له؛ لأنها تطرح طرقاً لتفكيك المجموع الكلى للخطاب العلمى بدرجة أكثر دقة لتعكس مختلف ما يسمى المواقف الذاتية التى يمكن أن يتكلم منها الناس العاديون حول العالم بمعرفة كفوّة.

ويعنى ذلك الاعتراض على مناهج البحث الأحادية سواء أكانت مناهج كمية أو كيفية، والدعوة إلى تعدد مناهج البحث بالإضافة إلى تعدد المنظورات حول مشكلات الطبقة والسلالة والنوع الاجتماعى. كما يعنى أيضاً تمكين القراء من الانضمام إلى المناقشات المتصلة بالقضايا الاجتماعية، وإضفاء شرعية على تدخل هؤلاء القراء بصفة غير رسمية فى المجال العلمى والحيلولة دون سطوة الاتجاه الوضعى.

ويلاحظ أن الاثنوجرافيين الذين يؤيدون ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية (**انظر:** Marcus & Fisher, ١٩٨٦) على درجة عالية من الوعى الذاتى بالطرق التى تقرض بها ممارساتهم التفسيرية أطراً تفسيرية مشوهة على خبرات الناس. وعلى الرغم من أن ذلك كان محل اهتمام من جانب الاثنوجرافيين الوضعيين أيضاً، إلا أن اهتمام ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية بقضايا تحليل الخطاب أسهمت فى تطوير الطرق التى تتشكل بها الاثنوجرافيا (**انظر:** Richardson, ١٩٨٨, ١٩٩٠a,b,c, Denzin ١٩٩٠) خاصة بين أولئك الذين يربطون نظرية الخطاب بالمسائل الاجتماعية – السياسية الكبرى للنزعتين الاستعمارية والامبريالية (**انظر:** Said, ١٩٧٩).

ويمكن تلخيص هذه الإسهامات المنهجية الخمسة بقولنا أن النظرية النقدية وما بعد الحداثة وما بعد البنيوية ترشد أصحاب النزعة الإمبريقية إلى الطرق التى ترمز بها ممارساتهم التحليلية والأدبية إلى مواقفهم القيمية وتخفيها بما يتطلب تسليط الضوء عليها. وعلى الرغم من أن النظرية النقدية – المنبثقة من الماركسية – تعد بلا جدال أكثر هذه المنظورات الثلاثة تشبعاً بالآراء السياسية، فإنه يمكن صياغة الصلات بين النظرية

النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة على نحو ما بدأ به مجموعة من العلماء (انظر مثلاً: Smart ١٩٨٣, Agger ١٩٨٩a,c, ١٩٩٠, Kellner ١٩٨٩b, Aronowitz ١٩٨٢, Ryan ١٩٩٠). وبدون هذا التدعيم السياسى اليسارى المشتق من شكل أو آخر من أشكال الماركسية الجديدة، فإن النقد النظرى لرمزية القيم يؤثر فى كل من يرفض الموقف الوضعى من التحرر من القيم سواء من الزاوية الليبرالية أو الراديكالية.

وتحدث رمزية القيم فى العلم الاجتماعى الإمبريقي من خلال الاعتماد الذى لا يتفق مع النقد الموضوعى على مناهج البحث كأداة فنية محضة لحل مشكلات فكرية. ومما يدعو إلى السخرية أن كثيراً من علماء الاجتماع الإمبريقيين إما أنهم يجهلون فلسفة العلم كما أشرت سابقاً، أو يرفضون الوضعية علانية، ويزعمون أنهم مقتنعون بمفاهيم عن الإطار المرجعى والنموذج.

ومما يؤسف له أن القراءة المتقطعة لمجلات علم الاجتماع توضح أن معظم علماء الاجتماع الإمبريقيين يفضلون علم المناهج على النظرية وصوغ المفاهيم حتى ولو أنكروا ذلك فى محاضراتهم عن مناهج البحث التى يرفضون فيها على طلابهم قراءات إجبارية فى كون وغيره من مؤرخى ما بعد الوضعية، وعلماء الاجتماع، وفلاسفة العلم.

وتعتمد معظم المقالات الإمبريقيه المنشورة فى مجلتى علم الاجتماع الأمريكى ASR والقوى الاجتماعية Social Forces على طقوس علم المناهج من أجل إضفاء الشرعية على شكل معين من أشكال المعرفة. ولا يكتب المنهج أو يقرأ فى هذه المقالات باعتباره نصاً ظاهرياً، بل تستخدم الإيماءات الفنية والتصويرية للمنهج الكمى لطمس الاعتراف التفكيكى بعدم الإمساك بالإدعاءات والتحليلات التى تعرضها هذه المقالات. وبغض النظر عما إذا كان مؤلفو هذه المقالات يتكلمون عن السببية علانية أم لا باستخدام لغة الوضعية، فإن جميع هذه المقالات الإمبريقيه تنشر الأساليب المنهجية باعتبارها أداة منمقة لتعزيز علمية النص الذى نحن بصدده (Agger, ١٩٨٩b: ٧٠-٧٢).

وتساعد الاتجاهات النظرية الثلاثة التى ناقشناها هنا فى تجريد كتابة العلم من شكلها الظاهرى من أجل توضيح الإبداع فى التأليف الذى يكمن فى كل إيماءة فى النص العلمى. ونحن نتعلم أن العلم ممارسة أدبية يمكن القيام بها بشكل مختلف، أو بمزيد من الديمقراطية وقليل من الجوانب الفنية. ويحرص الكاتب الحقيقى على أن يحسن من النص بإخفاء بصماته خشية أن تصبح علمية النص موضع مساءلة. وتكشف النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة انعدام الإبداع فى العلم كأحد الاحتمالات القائمة.

وهذا يساعد فى إضفاء الطابع الديمقراطى على المجلات العلمية والمؤسسة العلمية برمتها التى شبهها فوكوه (١٩٧٧) تشبيهاً ذكياً بالممارسات داخل السجن الذى

تأتى المراقبة فيه من الداخل والخارج. وهذا يطرح طرقتاً جديدة لكتابة العلم بالإطلاع مباشرة على البراعة العلمية فى التأليف فى النص نفسه بدلاً من طمسها فى متاهات مناهج البحث. وليس هذا إهداء مضاد للمنهج (انظر: ١٩٧٥, Feyerabend)، ولكنه دعوة إلى التفكير الأدبى وإعادة بناء المنهج باعتباره نصاً عاماً فى حد ذاته. وقد تعلمنا استخدام خطاب المنهج لا بالمصطلحات الوضعية، ولكن باعتباره موضوعاً قابلاً للمراجعة والتحسين.

الإسهامات النظرية

(٦) تقترح النظرية النقدية (انظر: Horkheimer, ١٩٥٧, ١٩٤٢, Neumann ١٩٧٥, Habermas, ١٩٧٣) طرقتاً جديدة لتنظير دور الدولة والثقافة فى الرأسمالية المتقدمة. فالدولة تتدخل اليوم لحماية الرأسمالية من تناقضاتها. وقد عمّرت الرأسمالية التى توقع ماركس زوالها؛ لأن الدولة تتدخل بشدة للتخفيف من الأزمات الاقتصادية، كما أن الثقافة الشعبية تتخذ إجراءات مسبقة ضد الأزمات الطبيعية (انظر: -١٩٨٤, Kellner, ١٩٨٩b, ١٩٨٥). وقد أسهم منظرو فرانكفورت بتحليلات نظرية وإمبيريقية لتدخل الدولة والتدخل الثقافى، وأبرز هذه التحليلات كتاب "جدل التنوير" لهوركهايمر وأدورنو (١٩٧٢)، وكتاب "الإنسان ذو البعد الواحد" لماركيوز (١٩٧٢)، وكتاب "نظرية الفعل الاتصالي" لهابرماس (١٩٨٧b, ١٩٨٤). وتجسد هذه الكتب الثلاثة بوضوح أطروحات النظرية النقدية.

ولم يهجر المنظرون النقادون تحليل ماركس للطبيعة المتناقضة لمنطق رأس المال. ولم يستطع ماركس أن يتنبأ بالنمو الضخم للدولة والثقافة الجماهيرية فى الرأسمالية المتأخرة. وقد أثارت هذه الدراسات مجموعة من الأعمال المهمة: النظرية والإمبيريقية عن الدولة (١٩٨٥, ١٩٨٤, Offe, ١٩٧٤, Miliband)، بالإضافة إلى التحليلات النقدية للثقافة الجماهيرية (١٩٨٩, Luke, ١٩٨٨, Miller). وبهذا المعنى تقترب نظرية فرانكفورت النقدية اقتراباً كبيراً من النظرية الاقتصادية الماركسية: التقليدية والجديدة (انظر: ١٩٧٣, Poulantzas, ١٩٧٣, O'Connor) بالإضافة إلى اتجاهات مدرسة برمنجهام فى الدراسات الثقافية، وما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة، والدراسات الثقافية النسائية (خاصة الحركة النسائية السينمائية) (انظر: ١٩٩١a, Agger).

وعلى الرغم من أن الاقتصاد السياسى لمدرسة فرانكفورت لم يكن اختزالياً مثل الاقتصاد السياسى للماركسيين الجدد (انظر مثلاً: ١٩٦٩, Althusser) وعلى الرغم من أن مدخلهم إلى الثقافة الشعبية يتسم بالأناقة اللغوية بدرجة أكبر من مدخل محلى الدراسات الثقافية الأخرى (انظر مثلاً: ١٩٨٤, Adorno, ١٩٧٨, Marcuse)، فإن هناك تقارباً هاماً: إمبيريقياً ونظرياً وثيق الصلة بعلماء اجتماع الثقافة الذين ينظرون إلى الثقافة

باعتبارها عاملاً بنائياً ومن ثم سياسياً فى الرأسمالية المتأخرة (انظر: Johnson, ١٩٨٦-١٩٨٧).

(٧) تقدم ما بعد البنيوية عند فوكوه رؤى مفيدة لدارسى الضبط الاجتماعى، ذلك أن كتابه "النظام والعقاب" (١٩٦٦) أعاد تثوير دراسة الجريمة والعقاب خاصة فى ادعائه بأن علم الإجرام خطاب / ممارسة يضيف معنى على طائفة المجرمين التى طبقت فيما بعد من الزاوية العقابية على السلوكيات التى كان ينظر إليها على أنها مشروعة اجتماعياً أو يتم تجاهلها ببساطة باعتبارها سلوكاً شاذاً.

ويقرب هذا التحليل من نظرية الوصم (انظر على سبيل المثال: Goffman ١٩٦٦, Becker, ١٩٧٤, ١٩٦١) على الرغم من أن هذا التحليل يعطى لنظرية الوصم أساساً أقوى من الناحيتين التاريخية والسياسة. وقد ساعد فوكوه علماء الاجتماع على أن ينظروا فى الانحراف فى سياق الخبرات والمعانى التى تشكله.

ومع ذلك تؤكد نظرية النظام عند فوكوه المرتكزة إلى ما بعد الحداثة – على عكس نظريتى الوصم والضبط الاجتماعى – على المقاومة الصلبة التى يبديها الناس ضد المعاملة المتميزة. وقد طرح فوكوه هذه الأطروحة طرْحاً واضحاً فى كتابه "تاريخ السلوك الجنسى" (١٩٧٨) الذى يناقش فيه الطرق التى تقاوم بها النساء والجنسيون المثليون استهجانهم مجتمعياً. وعلى الرغم من اتهام فوكوه باستخدام منهج غير متقن، فقد استعاض عن ذلك باستخدامه البارع للبيانات التاريخية والثقافية التى جمّعها فى نظرية للضبط الاجتماعى لا تتجاهل الظواهر على المستويات الصغرى والكبرى. وقد كان لدراسة الضبط الاجتماعى من منظور ما بعد الحداثة – استرشاداً بأراء فوكوه – تأثير على البحوث المتعلقة بالتنظيمات كما أوضح كوبر وبييرل (Cooper & Burrell, ١٩٨٨).

(٨) تقدم ما بعد البنيوية عند ديريدا وما بعد الحداثة عند بودريار إضافات قيمة إلى الدراسة السوسولوجية للخطاب، مما يثرى مجالات فرعية عديدة فى علم الاجتماع مثل علم اجتماع وسائل الاتصال الجماهيرى، وعلم اجتماع المعرفة، وعلم اجتماع العلم. ويسهم منهج التفكيك عند ديريدا إسهاماً نظرياً فى تفسير الصور الثقافية واللغوية. وباستخدام النظرية السيميوطيقية قام بودريار بفك رموز الأفكار الثقافية وإبراز معانيها الاجتماعية – السياسية. وفى كتابه "نقد الاقتصاد السياسى للرمز" (١٩٨١) تحرك بودريار بالنظرية الماركسية فى الثقافة خطوة مهمة تجاوزت النظرية الماركسية التقليدية فى الثقافة والجمال.

ويرى بودريار أن أنصار المادية التاريخية يحتاجون اليوم إلى الاهتمام بالاستقلال

النسبي للأنساق الرمزية والثقافية دون التخلي عن الاهتمامات الاقتصادية-السياسية التقليدية للماركسية. وقد منح بودريار - شأنه في ذلك شأن مدرسة فرانكفورت (انظر على سبيل المثال: ١٩٧٢, Horkheimer & Adorno) علم الاجتماع الثقافي أساساً نظرياً قوياً إلى جانب المصادر النقدية التي يمكن بواسطتها فك رموز التزييف الثقافي باعتبارها تصويراً زائفاً للواقع.

وقد تمخض عن النظرية النقدية وما بعد البنيوية قراءات تفكيكية للأعمال والممارسات الثقافية مثل التليفزيون (Kellner ١٩٨١, Best & Kellner ١٩٨٨a,b) والصحافة (Hallin ١٩٨٥, Rachlin ١٩٨٨) والإعلان (Kline & Leiss ١٩٧٨,) (Leiss, Kline & Jhally ١٩٨٦, Ewen ١٩٧٦, Wernich ١٩٨٣, Williamson ١٩٧٨) كأعمال أدبية ترمز إلى ادعاءات قوية للمؤلفين حول العالم الاجتماعي.

وقد قام دينزين (١٩٨٩) بقراءة الأفلام التي تصور حياة مدمني الكحوليات وإدمان الكحوليات. ويمكن للأدبيات المتزايدة عن أدب ما بعد البنيوية والتفسيرات الثقافية (انظر على سبيل المثال: ١٩٨٩, Mulvey) أن تسلط الضوء على الدراسات السوسولوجية للممارسات والمعاني الثقافية مما يساعد في التحرك عكس الاتجاهات الاختزالية في علم الاجتماع بتوضيح التفاعل بين أسلوب الصياغة والتفسير.

وبهذا المعنى يمكن أن تتقارب نظرية الخطاب من منظور ما بعد البنيوية مع اتجاهات تحليل الخطاب من منظور يبعد عن آراء ديريدا (انظر على سبيل المثال: ١٩٨٧, Wuthnow) تقارباً مثمراً.

(٩) تقترح الحركة النسوية المستندة إلى ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية (Kristeva ١٩٨٧, Irigaray ١٩٨٥, Cixous ١٩٨٦, Weedon ١٩٨٧) دراسات إمبيريقية عيانية عن الصور التي يتشكل بها الخطاب مثل الأفلام السينمائية (١٩٨٩, Mulvey) بأطروحات منبثقة من النوع الاجتماعي. وتركز الدراسات الثقافية النسائية بصفة خاصة على تباين أوضاع القوة بين النساء والرجال، تلك الأوضاع التي تؤثر في كتابة الأعمال عن المرأة وقراءتها. وترفض هذه المداخل النسائية - متفقة في ذلك مع لكان Lacan وليوتار - وجهة النظر الأحادية المنحازة إلى الرجال، وهي وجهة النظر التي تتطور منها المعرفة والخطاب. وتوجهنا هذه المداخل توجهاً إمبيريقياً إلى الطرق التي تتشكل بها المعرفة بالعالم بواسطة الخطاب (مثل الأدب الإباحي) بما يعكس الصراع على القوة؛ حيث يمكن فك رموز هذا الخطاب بوصفه سمة سياسية. وقد أسهمت ريتشاردسون (١٩٨٨, ١٩٩٠, a,b,c) في تطوير الدلالات السوسولوجية للحركة النسائية المستندة إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة فيما يتعلق بالطرق التي يروى بها العلماء الاجتماعيون قصة بحوثهم. كما دمجت فريزر (١٩٨٩, ١٩٨٤) النظرية النقدية والنظرية النسائية وما

بعد البنيوية معاً في محاولتها تطوير نظرية للممارسة تتعلق بالنساء والرجال.
(١٠) تطرح نظرية "الحركات الاجتماعية الجديدة" لهابرماس (b ١٩٨١، وانظر أيضاً: Boggs, ١٩٨٦) رؤى نظرية لدارسى الحركات الاجتماعية الذين يفتقرون إلى اتجاه نظري أشمل يفسر مصدر هذه الحركات والآثار البنائية المترتبة عليها. وقد اتخذ هابرماس سبيله بين النظريات الماركسية التقليدية عن الصراع الطبقي والمنظورات غير الماركسية بشأن الحركات الاجتماعية ليقى على الرؤية الماركسية للسلوك السياسى – الاجتماعى مع إدخال تعديلات على الرؤية اليسارية المتعلقة بالحركات – تلك الرؤية التى يعتقد أنها لا تتصل بالمركسيين التقليديين – خاصة حركات الملونين والنساء والحركات المضادة للاستعمار والتسليح النووى وتدمير البيئة ... إلخ.

وهنا نجد هابرماس – كما فى تحليله (١٩٧٥) لأزمة شرعية الدولة – يحتك بالاهتمامات السوسولوجية ويضعها فى إطار مادى – تاريخى أرحب مسترجعاً رؤاها الراديكالية (انظر على سبيل المثال: قراءته لأعمال بارسونز فى كتابه "نظرية الفعل الاتصالي" ١٩٩-٢٩٩: ١٩٨٧b). وقد جمّع هابرماس – على العكس من معظم دارسى الحركات الاجتماعية، ومتشابهاً مع فوكوه فى هذا الجانب – نقاط المقاومة ضد الهيمنة، مما يعطى نظريته الاجتماعية النقدية مغزى عملياً (انظر: ١٩٨٩b: Kellner).

إعادة النظر فى ماهية علم الاجتماع

يتعين على علم الاجتماع أن يغير من طبيعته تغييراً جذرياً حتى يتسنى له تبنى هذه الاتجاهات النظرية الثلاثة. ويبدو أن أطروحة علم اجتماع ما بعد البنيوية وعلم اجتماع ما بعد الحداثة تبدو – عند مستوى معين – بمثابة الجمع بين النقيضين. إذ أن ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية – شأنهما فى ذلك شأن النظرية النقدية – تقاومان اندماجها فى علم على درجة عالية من التباين والتدرج والتخصص يعرف نفسه بدرجة كبيرة بالرجوع إلى علوم الاجتماع الأصلية لكونت ودوركايم وفبير الذين أسسوا الدراسة الوضعية للظواهر الاجتماعية، وفصلوا مهنة العلم عن السياسة. وتتساءل هذه الاتجاهات النظرية الثلاثة عن أحقية العلوم الأكاديمية فى أن تحتفظ ببقائها خاصة فى إطار الوضعية.

وتعترض النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة على استقلالية علم الاجتماع بما فى ذلك اختلافه عن العلوم الإنسانية الأخرى بالإضافة إلى اعتماده المكثف على منهج يحاول به حل مشكلاته الفكرية. كما ترفض جميع هذه الاتجاهات الثلاثة إضفاء الطابع الرياضى Mathematization على العالم، حتى لو أقرت بصحة الرياضيات باعتبارها أحد أشكال الخطاب. وهذا لا يعنى تقريظ مناهج البحث الكمية. فالمناهج الكمية برغم كل شئ يمكن أن تكون وضعية شأنها فى ذلك شأن المناهج الكمية. ويلقى نقد ما بعد البنيوية للغة ظلالاً من الشك على الإثنوجرافيا التى تعتمد على تفسير

الفاعلين لخبراتهم كما لو كانت تلك التفسيرات – شأنها في ذلك شأن تفسيرات الخبراء – لا تتحول إلى رموز ذات معنى لا يمكن الإمساك به.

وتعيد هذه الاتجاهات النظرية الثلاثة تعريف العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية بطريقة تخلط الحدود التقليدية بين العلوم (Brodkey, ١٩٨٧). وتسلم هذه الاتجاهات بالتداخل بين العلوم Interdisciplinarity (انظر: Klein, ١٩٨٩)، وتتنظر إلى التباين بين العلوم على أنه تباين تحكمي. وتؤكد استراتيجية القراءة عند ديريدا على التداخل النصي Intertextuality بين الكتابات التي تحاول صد نفسها عن المؤثرات الملوثة للروايات الأخرى، والكتاب الآخرين، وفروع المعرفة الأخرى. ويرى ديريدا أن جميع النصوص تتأثر بالنصوص الأخرى إلى حد التداخل بينها. ويمكن القول بلغة أخرى أن هذه الاتجاهات النظرية الثلاثة تثير مسألة ماهية علم الاجتماع.

لقد حقق علم الاجتماع تقدماً تجاوز به (أو تراجع إلى الوراء اعتماداً على الاتجاه النظرى للباحث!) التأمل الطويل الذى ميز هذا العلم فى اتجاهه الكلاسيكى الذى ادخره فى النظرية الكبرى Grand theory (انظر: ١٨٦-١٨١: Agger, ١٩٨٩b) من أجل إضفاء شرعية على تشكيلات العلم. وشهد هذا الاتجاه الكلاسيكى نشر مقالة مغمورة لبارسونز (Parsons, ١٩٩٠) كمقالة رئيسية فى مجلة علم الاجتماع الأمريكية مصحوبة بتعليق متعاطف مع بارسونز من جانب شخصين بارزين فى الوظيفة هما الكسندر وكولمان (Alexander, ١٩٩٠, Coleman, ١٩٩٠). وقد وضعت مقالة لبارسونز لتضيف قيمة معترف بها إلى المقالات التى تلتها، مما عزز من استقلالية علم الاجتماع وهويته فى وقت كان علم الاجتماع يخاطر فيه بتحوّله إلى علم رياضى.

إن التحدى النظرى لاستقلالية علم الاجتماع – والذى فرضته النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة – أحدث استياءً فى بعض أوساط علماء الاجتماع. ويقلل جوتنر (١٩٩٠) وكولينز (٤٦٢: ١٩٩٠) من مكانة فوكوه باعتباره غير محترف نظرياً. ويقر كولينز بأن فوكوه ما كان يجب أن يوصف بأنه من هواة النظرية. ويرد فوكوه على كولينز بأن التمييز بين المحترف والهوى من المنتجات الخاصة بالخطاب / الممارسة للرأسمالية المتأخرة التى تنظر إلى المعرفة غير الرسمية بوصفها غير دقيقة وغير علمية وغير متخصصة. إن هواية فوكوه تضعه خارج حدود العلم لدرجة تجعل من الصعب عليه اكتساب أفضلية على محترفيه. وعلى نحو مماثل نجد أن الفهم الموسوعى لهابرماس لطائفة عريضة من التخصصات العلمية – من علم النفس والنظرية السياسية إلى علم الاقتصاد وعلم الاجتماع – تهدد النزعة التخصصية الضيقة فى العلوم الأكاديمية.

ويعيد أنصار النظرية النقدية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة التفكير فى التعريف السائد لعلم الاجتماع، وذلك بتوسيع هذا التعريف. وهم بذلك يخاطرون بضياح هوية هذا

العلم وتقسيم العمل والتخصص بداخله، إلا أنهم يضيعون بذلك منظوراً ثرياً حول الممارسات الأدبية والنظرية لعلم الاجتماع. ولم يتم بعد حسم القضية المتعلقة بما إذا كان علم الاجتماع سوف يشجع المسائل النظرية والسياسية التي تثيرها هذه النظريات الثلاثة أم لا.

إصدارات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

- ١- البليوجرافيا الشارحة للترجمات العربية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا،
إشراف أحمد زايد، ١٩٩٧
- ٢- الملخصات السوسولوجية العربية: من الأول وحتى السابع، إشراف أحمد
زايد، ١٩٩٧
- ٣- الملخصات السوسولوجية العربية: من الثامن وحتى الحادى عشر، إشراف
محمد الجوهري فى عامى ١٩٩٩،-٢٠٠٠
- ٤- الإنتاج الفكرى العربى فى علم الفولكلور: قائمة ببليوجرافية، إعداد
محمد الجوهري وآخرون، ٢٠٠٠
- ٥- الفولكلور العربى: بحوث ودراسات (المجلد الأول)، إشراف
محمد الجوهري، ٢٠٠٠
- ٦- الفولكلور العربى: بحوث ودراسات (المجلد الثانى)، تحرير
محمد الجوهري، وإبراهيم عبد الحافظ، ومصطفى جاد، ٢٠٠١
- ٧- استخدام الحاسب الآلى فى مجال العلوم الاجتماعية (استخدام برنامج SPSS
من خلال Windows)، عبد الحميد عبداللطيف، ٢٠٠٠
- ٨- البناء السياسى فى إحدى قرى الصعيد، محمود جاد، ٢٠٠٠
- ٩- آثار القبلىة على المزاج الغنائى والموسيقى لأهل الصعيد، تأليف
محمود جاد، ٢٠٠١
- ١٠- العنف فى الأسرة، تأديب مشروع أم انتهاك محظور، تأليف
عدلى السمرى، ٢٠٠١
- ١١- ملامح التغير فى القصص الشعبى الغنائى، تأليف إبراهيم عبدالحافظ،

٢٠٠١،

١٢- الصحة والبيئة: دراسات اجتماعية وأنتروبولوجية مهداة إلى روح الأستاذ الدكتور نبيل صبحى، تأليف مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بالجامعات المصرية، ٢٠٠١ (ضمن مشروع توثيق الإنتاج العربى فى علم الاجتماع).

١٣- الإنتاج الفكرى العربى فى علم الاجتماع : قائمة ببليوجرافية مشروحة (١٩٢٤-١٩٩٥)/ إشراف أحمد زايد ، ومحمد الجوهري ، ٢٠٠١، (وهى طبعة منقحة ومزيدة من المجلدات السبعة الأولى من الملخصات السوسولوجية العربية التى سبق أن أصدرها المركز ونفذت).

١٤- الشباب ومستقبل مصر : الندوة السنوية السابعة لقسم الاجتماع ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ٢٩-٣٠ أبريل ٢٠٠٠/ تحرير محمود الكردى، ٢٠٠١،

١٥- المجتمع الاستهلاكى ومستقبل التنمية فى مصر : الندوة السنوية الثامنة لقسم الاجتماع، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ٢٢-٢٣ إبريل ٢٠٠١/ تحرير أحمد مجدى حجازى ، ٢٠٠١ .

١٦- الإدراك البيئى عند الطفل: دراسة مقارنة بين الريف والحضر، تأليف أحمد مصطفى العتيق، ٢٠٠١،

١٧- دراسات مصرية فى علم الاجتماع: مهداة إلى روح الأستاذ الدكتور حسن الساعاتى، ٢٠٠٢،

١٨- الجماعات الهامشية: دراسة أنتروبولوجية لجماعات المتسولين بمدينة القاهرة، تأليف ابتسام علام ، تقديم: فاروق العادلى ، ٢٠٠٢ .

١٩- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الأول: الإطار النظرى وقرارات تأسيسية، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢ .

٢٠- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثانى: التراث فى عالم

- متغير: قراءات تأسيسية، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢.
- ٢١- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب الثالث: مقترحات ومحاولات بحثية، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢.
- ٢٢- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب الرابع: عمال مصر بين ثقافة التصنيع والثقافة التقليدية: دراسة ميدانية بمجمع الألومنيوم، تأليف محمود عبدالرشيد بدران، أحمد محمد السيد عسكر، ٢٠٠٢.
- ٢٣- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب الخامس: التيار الإسلامي بين التأييد والمعارضة: قراءة في الصحافة المصرية، تأليف على ليلة، ٢٠٠٢.
- ٢٤- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب السادس: تأثير أنماط العمران على تشكيل بعض عناصر الثقافة الشعبية: دراسة ميدانية لسياقات اجتماعية متباينة بمصر، إشراف وتحرير محمود الكردى، ٢٠٠٢.
- ٢٥- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب السابع: الاحتفالات الشعبية الدينية: دراسة لديناميات التغير وقوى المحافظة والتجديد. تأليف منى الفرنوانى، ٢٠٠٢.
- ٢٦- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب الثامن: الطب الشعبي: دراسة فى اتجاهات التغير الاجتماعى فى المجتمع المصرى، تأليف سعاد عثمان، ٢٠٠٢.
- ٢٧- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب التاسع: قوى المحافظة والتجديد فى بعض عناصر التراث المادى: دراسة حالة للأزياء الشعبية المصرية. تأليف فتن أحمد على، ٢٠٠٢.
- ٢٨- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعي، الكتاب العاشر: ديناميات تغير التراث الشعبى فى المجتمع المصرى: دراسة لعادات الطعام وآداب المائدة. إعداد نجوى عبدالمنعم قاسم، إشراف علياء شكرى.

- ٢٩- علم الاجتماع ودراسات المرأة: تحليل استطلاعي، تأليف محمود عبدالرشيد بدران، ٢٠٠٢
- ٣٠- المرأة وقضايا المجتمع، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ٢٠٠٢
- ٣١- بحوث فى الأنثروبولوجيا العربية، مهداة إلى الأستاذ الدكتور أحمد أبوزيد، تحرير/ ناهد صالح، ٢٠٠٢
- ٣٢- دراسات فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، مهداة إلى روح الأستاذ الدكتور أحمد الخشاب، ٢٠٠٢.
- ٣٣- القيم كما تعكسها الصحافة المحلية: تحليل مضمون صفحة (المحليات) بجريدة الأهرام، تأليف فاطمة القليني، ٢٠٠٢
- ٣٤- علم الاجتماع والرعاية الاجتماعية، دراسات مهداة إلى روح الأستاذ الدكتور عبدالمنعم شوقي، تحرير/ عبدالهادى الجوهري، ٢٠٠٢
- ٣٥- العدالة بين الشريعة والواقع فى مصر فى العصر العثمانى، إشراف رؤوف عباس، تحرير/ ناصر إبراهيم، عماد هلال، ٢٠٠٢
- ٣٦- علم السكان، تأليف محمد محى الدين، القاهرة، ٢٠٠٢
- ٣٧- أنتونى جيدنز: مقدمة نقدية فى علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري وآخرون، القاهرة، ٢٠٠٢
- ٣٨- دراسات فى علم الاجتماع، مهداة إلى روح الأستاذ الدكتور مصطفى الخشاب، تحرير/ أحمد زايد، القاهرة، ٢٠٠٣
- ٣٩- رشدى صالح والفولكلور المصرى. دراسة لأعماله وفصول من تأليفه، محمد الجوهري، القاهرة، ٢٠٠٣.
- ٤٠- الإنتاج العربى فى علم الاجتماع، قائمة ببليوجرافية مشروحة (المجلد الثانى: ١٩٩٦-٢٠٠٠)، إشراف محمد الجوهري وأحمد زايد، القاهرة، ٢٠٠٣،

- ٤١- الملخصات السوسولوجية العربية، المجلد الثانى عشر، إشراف محمد الجوهري وأحمد زايد، القاهرة، ٢٠٠٣
- ٤٢- التقاء الحضارات فى عالم متغير، حوار أم صراع، تحرير/ عبادة كحيلة، القاهرة، ٢٠٠٣
- ٤٣- الثقافة الثأرية والثقافة المسالمة: تأصيل نظرى ودراسة ميدانية للثقافة الفرعية ومحددات السلوك الإجرامى، تأليف محمود عبدالرشيد بدران، أحمد محمد السيد عسكر، ٢٠٠٣
- ٤٤- قراءات معاصرة فى نظرية علم الاجتماع، ترجمة مصطفى خلف عبدالجواد، مراجعة وتقديم محمد الجوهري، القاهرة، ٢٠٠٢
- ٤٥- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الحادى عشر: التراث والحداثة فى منظومة القيم المرتبطة بالعمل الأهلئ عند قادة المجتمع المدنى، تأليف خالد عبدالفتاح، ٢٠٠٣
- ٤٦- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثانى عشر: التسامح الاجتماعى بين التراث والتغير، تأليف أشرف عبدالوهاب، ٢٠٠٣
- ٤٧- تقارير بحث التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الثالث عشر: قضايا المرأة المصرية بين التراث والواقع: دراسة للثبات والتغير الاجتماعى والثقافى، تأليف علياء شكرى، ٢٠٠٣.

إهداء

إلى زوجتى المثابرة مريم..
إلى أبنائى.. أمانى وإيمان وأيمن وأمنية..
الذين تحملوا معى معاناة سنوات الغربة عن الوطن..
وواصلوا معى رحلة الكفاح على طريق العلم..
بإخلاص نادر.. وتضحية واجبة..
أهدى هذا الكتاب عسى أن يذكرنى ويذكرهم بأن
مشوار المثابرة يُؤتى ثماراً طيبة..

